الإمامُ الطرطوشيُّ

سِراجُ الملوك

دارُ المنهاجِ

سراج الملوك

تأليف

الإمام الحافظ الفقيه الأديب

أبي بكر محمد بن الوليد بن محمد الطُّرطوشي المالكي

رحمه الله تعالى

(٤٥١-٥٢٠هـ)

ينشر لأول مرة محققاً على سبع نسخ خطية نفيسة

تشرفت بخدمته والعناية به

اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

دار المنهاج

الطَّبعَة الأولىٰ
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

اسم الكتاب : سراج الملوك
المؤلف : الإمام الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ)
الإعداد : مركز دار المنهاج للدراسات
موضوع الكتاب : سياسة شرعية
مقاس الكتاب : (٢٤ سم)
تصنيف ديوي الموضوعي : (٢٥٧)

عدد الأجزاء : (١)
عدد المجلَّدات : (١)
نوع الورق : شاموا فاخر
نوع التجليد : مجلَّد فني
عدد الصفحات : (٨٣٢ صفحة)
عدد ألوان الطباعة : لونان

التصميم والإخراج : مركز المنهاج للصف والإخراج الفني

9 789953 498188

الرقم المعياري الدولي

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 18 - 8

بسم الله الرحمن الرحيم

دار المنهاج
لبنان ـ بيروت
هاتف : 806906 05 ـ فاكس : 813906 05

دار المنهاج للنشر والتوزيع
لصاحبها عمر سالم باجخيف
وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص . ب 22943 ـ جدة 21416

عضو في الاتحاد العام للناشرين العرب
عضو في إدارة جمعية الناشرين السعوديين
عضو في نقابة الناشرين في لبنان

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

جدة

مكتبة دار كنوز المعرفة

هاتف 6570628 ـ 6510421

مكة المكرمة

مكتبة الأسدي

هاتف 5570506 ـ 5273037

مكة المكرمة

مكتبة نزار الباز

هاتف 5473838 ـ فاكس 5473939

المدينة المنورة

دار البدوي

هاتف 0503000240

المدينة المنورة

مكتبة الزمان

هاتف 8366666 ـ فاكس 8383226

الطائف

مكتبة المزيني

هاتف 7365852

الدمام

مكتبة المتنبي

هاتف 8344946 ـ فاكس 8432794

الرياض

دار التدمرية

هاتف 4924706 ـ فاكس 4937130

الرياض

مكتبة الرشد

هاتف 2051500 ـ فاكس 2253864

الرياض

مكتبة جرير

وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها

هاتف 4626000 ـ فاكس 4656363

الرياض

مكتبة العبيكان

وجميع فروعها داخل المملكة

هاتف 4654424 ـ فاكس 2011913

الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

فيرجن وفروعها في العالم العربي

الجمهورية اليمنية

مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت

هاتف 417130 ـ فاكس 418130

الإمارات العربية المتحدة

حروف للنشر والتوزيع ـ أبو ظبي

هاتف 5593007 ـ فاكس 5593027

مكتبة الإمام البخاري ـ دبي

هاتف 2977766 ـ فاكس 2975556

مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي

هاتف 3339998 ـ فاكس 3337800

مملكة البحرين

مكتبة الفاروق ـ المنامة

هاتف 17272204 ـ فاكس 17256936

دولة الكويت

مكتبة دار البيان ـ حَوَلي

تلفكس 22616490 ـ جوال 9952001

دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلي

هاتف 22658180 ـ فاكس 22658180

جمهورية مصر العربية

دار السلام ـ القاهرة

هاتف 22741578 ـ فاكس 22741750

مكتبة نزار الباز ـ القاهرة

هاتف 25060822 ـ جوال 0122107253

الجمهورية اللبنانية

الدار العربية للعلوم ـ بيروت

هاتف 785107 ـ فاكس 786230

مكتبة التمام ـ بيروت

هاتف 707039 ـ جوال 03662783

المملكة المغربية

مكتبة التراث العربي ـ الدار البيضاء

هاتف 0522853562 ـ فاكس 0522854003

دار الأمان ـ الرباط

هاتف 0537723276 ـ فاكس 0537200055

دولة قطر

مكتبة الثقافة ـ الدوحة

هاتف 44421132 ـ فاكس 44421131

المملكة الأردنية الهاشمية

دار محمد دنديس ـ عمّان

هاتف 4653390 ـ فاكس 4653380

الجمهورية العربية السورية

مكتبة المنهاج القويم ـ دمشق

هاتف 2235402 ـ فاكس 2242340

جمهورية العراق

مكتبة دار الميثاق ـ الموصل

هاتف 7704116177 ـ فانوس 7481732016

جمهورية الجزائر

دار البصائر ـ الجزائر

هاتف 021773627 ـ فاكس 021773625

جمهورية الصومال

مكتبة دار الزاهر ـ مقديشو

هاتف 002525911310

جمهورية أندونيسيا

دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا

هاتف 0062313522971

جوال 00623160222020

ماليزيا

مكتبة توء كنالي ـ كوالا لمبور

هاتف 00601115726830

جمهورية فرنسا

مكتبة سنا ـ باريس

هاتف 0148052928 ـ فاكس 0148052997

انكلترا

دار مكة العالمية ـ برمنجهام

هاتف 01217739309 ـ جوال 07533177345

فاكس 01217723600

الجمهورية التركية

مكتبة الإرشاد ـ إستانبول

هاتف 02126381633 ـ فاكس 02126381700

الهند

مكتبة الشباب العلمية - لكناؤ

هاتف 00919198621671

جميع إصداراتنا متوفرة على

نيل وفرات.كوم

موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب

www.nwf.com

فرات Furat.com

موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية

www.furat.com

النّاس يهدون على قدرهم
لكنّني أُهدي على قدري
يهدون ما يفنى ، وأُهدي الّذي
يبقى على الأيّام والدّهر

كتاب «سراج الملوك» يستغني الحكيم بدراسته
عن مباحثة الحكماء ، والملك عن مشاورة الوزراء
الإمام الطّرطوشيّ

بين يدي الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الشمس سراجاً ، والقمر نوراً ، وفضلنا علىٰ كثير ممن خلق تفضيلاً ، فله الحمد في كل حال ، وعلىٰ كل حال ، كرم الإنسان وعلمه البيان ، وهداه إلىٰ طرق الجنات ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأنام ، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

أما بعد :

فيقول الإمام الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ : (ليس لله في الأرض سلطانٌ إلا وقد أخذ عليه شرائطَ العدل ، ومواثيقَ الإنصاف ، وشرائع الإحسان .

وكما أنه ليس فوقَ رتبةِ السلطان العادل رتبةٌ . . كذٰلك ليس دون رتبة السلطان الشريرِ الجائرِ رتبةٌ لشرير ؛ لأن شره يَعُمُّ كما أن خير الأول يعُمُّ . . . .

وذٰلك أن السلطان إذا عدل . . انتشر العدل في رعيته ؛ فأقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطَوا الحق فيما بينهم ، ولزموا قوانين العدل ، فمات الباطل ، وذهبت رسوم الجَوْر ، وانتعشت قوانينُ الحق ، فأرسلت السماء غيثها ، وأخرجت الأرض بركاتِها ، ونمت تجاراتُهم ، وزَكَت زراعاتُهم وكثُرت ثمارهم ، وتناسلت أنعامهم ، ودرَّت أرزاقُهم ، ورخُصت أسعارهم ، وامتلأت أوعيتهم ، فواسى البخيلُ ، وأَفْضَلَ الكريمُ ، وقُضيت الحقوقُ . . . وبهٰذا يتبين لك أن الواليَ مأجورٌ علىٰ ما يتعاطاه من إقامة العدل ، ومأجورٌ علىٰ ما يتعاطاه الناس بسببه .

وإذا جار السلطان . . انتشر الجور في البلاد ، وعمَّ العباد ؛ فرقَّت أديانُهم ،

واضمحلَّت مروءاتهم ، ففشت فيهم المعاصي ، وذهبت أماناتهم ، فضعُفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق ، وتعاطَوا الباطل ، وبَخَسوا المكيال والميزان ، وجوَّزوا البهرج ، فرُفعت منهم البركةُ ، وأمسكتِ السماءُ غيثَها ، ولم تُخرج الأرضُ زرعَها ونباتَها ، فقلَّ في أيديهم الحُطامُ فقنطوا ، وأمسكوا الفضل الموجودَ ، وتناحروا على المفقود ، فمنعوا الزكواتِ المفروضةَ ، وبخِلوا بالمواساة المسنونة ، وقبضوا أيديَهم عن المكارم ، وتنازعوا المقدارَ اللطيفَ ، وتجاحدوا القدر الخسيس ، ففشت فيهم الأيمانُ الكاذبة ، والحيلُ في البيع ، والخِداعُ في المعاملة ، والمكرُ والحيلة في القضاء والاقتضاء ، ولا يمنعُهم من السرقة إلا العارُ ، ومن الزنا إلا الحياءُ ، فيظَلُّ أحدُهم عارياً من محاسن دينه ، متجرِّداً عن جلباب مروءته ، وأكبرُ همه قوت دنياه ، وأعظمُ مسراته أكلةٌ من هٰذا الحطام ، ومن عاش كذٰلك . . فبطنُ الأرض خيرٌ له من ظهرها) .

غفر الله لك أيها الأديب الأريب ، كيف لو عايشت هٰذا العصر المزري الذي أظلمت جنباته ، واضطربت آفاقه ؛ حتىٰ أضحت بعض الشعوب مضطربة قد انفلت زمامها ، واشرأبت أعناق لئامها ، وليس لها إمام ولا بيعة ، فإذا بها كالغنم بلا راعي ، لا يرعوون عن فعل كل قبيح ، ولا ينكفون عن سفك الدماء ؛ حتىٰ صارت كأنها حلال مثل الماء ، فتعاقبت عليهم الحسرات والندم ، وزهقت أرواح هي في الأصل مذعنة للحق إلا أنها لم تمكن .

رحم الله الإمام الطرطوشي ؛ فقد أوضح في نصه هٰذا ثمراتِ ما تنتجه سياسةُ الإمام العادل ، وثمراتِ ما تنتجه سياسةُ الإمامِ الجائر الظالم ، وبيَّن ما تنتجه سياسة العادل من رقي وحضارة للمجتمع ، وما تنتجه سياسة الظالم من انحطاط وتخلُّف ودمار وانهيار له .

وقد وضع حكماءُ الأمم الماضية وملوكُها من عرب وفرس وهند وروم وغيرهم قوانينَ في حفظ نحلهم وفرقهم اصطلحوا عليها بعقولهم ، ليس علىٰ شيء منها برهان ، ولا أنزل الله بها من سلطان ، ووضعوا سياساتٍ في سبيل الالتزام بتلك القوانين والحماية لها ، ساروا فيها بسيرة العدل ، وحسن السياسة ، وجمع القلوب عليها ، والتزام الإنصاف فيما بينهم .

نجد هٰذه السياسات في كتب فلاسفة اليونان والفرس والهند وغيرهم ؛ ككتاب أرسطو « السياسة في تدبير الرياسة » ، ونجد نُتَفاً منها متفرقةً في كتب ابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم .

* * *

والإمامُ الطُّرطوشيُّ رحمه الله تعالىٰ نَظَمَ في كتابه « سراج الملوك » ما ألفىٰ في كتبهم من الحكم البالغة والسير المستحسنة والكلمات الطيبة والآثار النبيلة . . إلىٰ ما رواه وجمعه من سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وآثار الأولياء ونوادر الخلفاء ولطائف الشعراء ، وما انطوىٰ عليه القرآن الكريم الذي هو بحرُ العلوم ، ويَنْبوعُ الحكم ، ومَعْدِنُ السياسات ، وما ضمَّنه كثيراً من تجاربه المفيدةِ ونظراتِه الحكيمةِ السديدة ، ورتَّبه ترتيباً أنيقاً ، وترجم أبوابَه ترجمة بارعة ، حاويةً لمقاصدها ، ناطقة بحكمها ومضمونها .

والطرطوشيُّ رحمه الله تعالىٰ في صنيعه هٰذا يُعتبر من رُوَّاد الفكر الإسلامي الأوائل والقليلين الذين حاولوا التأليفَ في علم السياسة وفن الحُكم ، أو من الذين وضعوا الأُسُسَ والمبادئ الأخلاقية العامة في رُقي المجتمع وازدهاره .

وقد لحق ابنُ خلدون بالطرطوشي في « مقدمته » الشهيرة ، وجعل أبوابَه تقرُب من أبواب « السراج » ، إلا أن الهدف الذي سعىٰ وراءه ابن خلدون كان علمياً صرفاً ، والهدفَ الذي سعىٰ وراءه الإمام الطرطوشي كان أدبياً فنياً ممتعاً ، بالإضافة إلىٰ توهج الفوائد العلمية في ثنايا الفصول .

ولقد ألمح الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ بالهدف من تأليف « السراج » ، وبيَّن الغاية والثمرة منه فقال : (. . . يلِج الأُذُنَ من غير إذن ، ويتولَّجُ التأمُورَ من غير استئمار ، ألفاظُها قوالب لمعانيها ، ليس ألفاظها إلى السمع بأسرعَ من معانيها إلى القلب ، فانتظم الكتابُ بحمد الله وعونه وإحسانه غايةً في بابه ، غريباً في فنونه وإنشائه ، خفيفَ المحمِل ، كثيرَ الفائدة ، لم تسبِق إلىٰ مثله أقلامُ العلماء ، ولا جالت في نظمه أفكارُ الفضلاء ، ولا حوته خزائن الملوك والرؤساء ، فلا يسمع به مَلِكٌ إلا استكتبه ، ولا وزير إلا استصحبه ، ولا رئيسٌ إلا استحسنه واستوسده .

عصمةٌ لمن عمل به من الملوك وأهل الرياسة ، وجُنة لمن تحصن به من أولي الإمرة والسياسة ، وجَمالٌ لمن تحلَّىٰ به من أهل الآداب والمحاضرة ، وعُنوانٌ لمن فاوض به من أهل المجالسة والمذاكرة . . . يستغني الحكيمُ بدراسته عن مباحثة الحكماء ، والملِكُ عن مشاورة الوزراء) .

* * *

ألَّف الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ كتابه « السراج » في الإسكندرية قبيل وفاته بأربع سنين تقريباً ، وقدمه هدية للوزير المأمون البطائحي الذي كان يكرمه إكراماً كثيراً .

ألفه في عصر ماجت فيه الفتن ، وراجت فيه مذاهب أهل الأهواء والبدع ، الذين دافعوا عن بدعهم بالسِّنان قبل اللسان ، وتجزأت رقعة الإسلام فيه إلىٰ دول متناحرة ، وانثلم منه أجزاء في المغرب علىٰ يد الإسبان ، وأجزاء في المشرق علىٰ يد الصليبيين .

إلا أن هـٰذا العصر مع ما يموج به من فتن واضطرابات فإنه قد ضم في جنباته أساطين في العلم والمعرفة قاموا بنشر العلم وتحقيقه ، وفقهوا الناس بأمور دينهم ، ووثقوا صلتهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولو أردنا أن نعددهم . . لتكاثرت الأوراق ، ولكثر الاستمداد من المداد ، إلا أنا نقول : ناهيك بإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، وتلميذه المجدد الإمام أبي حامد الغزالي ، والإمام الزاهد الفقيه الورع أبي بكر الطرطوشي .

وهٰؤلاء الثلاثة وغيرهم الكثير ثمرة من ثمار سياسة الوزير نظام الملك الناجحة التي قامت علىٰ مراعاة حملة الدين ؛ فبنىٰ دور العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباطات للعباد والزهاد ، وقد أشاد الإمام الطرطوشي بهٰذه السياسة ، وذكر بعض المناقب الجليلة لهٰذا الوزير في كتابه « السراج » .

❊ ❊ ❊

ومنهج الإمام الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ في هٰذا الكتاب : أنه يبوب للمبدأ الخُلقي الذي يجب أن يتحلىٰ به الملك أو الوزير أو القاضي ، وقد يشرحه شرحاً يسيراً من دون إطالة ، ثم يكثر من إيراد الأخبار والحكم والأمثال والقصص التي تؤيد هٰذا المبدأ الأخلاقي السياسي ، ويقتبس هٰذه الأخبار والحكم والقصص من سير الأنبياء والخلفاء والصالحين ، ومن سير الملوك والحكماء والفلاسفة السابقين علىٰ مختلف العصور والأجناس .

فالطرطوشي رحمه الله تعالىٰ يمزج في كتابه بين السياسة العقلية التي يكون تدبير مصالح الرعية فيها موكولاً إلى العقل البشري ، كما وقع للروم والفرس والهند والعرب القدامىٰ ، وبين السياسة الشرعية التي تكون في ضوء الكتاب والسنة وعلىٰ سنن السلف الصالح ، وتحقق المقاصد الشرعية ، فهو لا يفرق بينهما بل يراهما شيئاً واحداً ما دامت السياسة العقلية لا تتعارض مع الشرع وتحقق مصالح العباد ، ورقي وازدهار البلاد ، وتختلف اختلافاً كبيراً عن فلاسفة أوروبا في عصر النهضة والعصر الحديث وبعض المفكرين الإسلاميين الذين عَلِق في أذهانهم شيء من غثائهم ؛ فإن هٰؤلاء يفرقون بين السياسة والأخلاق ، ويفكرون في مشاكل السياسة وموضوعاتها تفكيراً مستقلاً بعيداً

عن تفكيرهم الخلقي ، حتىٰ إن بعض وزراء الغرب سئل عن تعريف السياسة ، فقال : أصح تعاريفها : أن السياسة هي الكذب .

إن المبادئ الأخلاقية التي تعرض لها الإمام الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ في كتابه « السراج » تمسُّ واقع عصرنا الحالي الذي يخوض معتركاً خطيراً ، وينجرف في هوة عميقة ، والذي كثر فيه الداعون إلى الفتن ، وفشت فيه البلايا والمحن ، وهٰذه المبادئ تلقي الضوء علىٰ أهم وأبرز القضايا التي تدور بين العامة والخاصة ، وهي كثيرة ومبوبة في الكتاب ، وأهم هٰذه المبادئ :

ـ العدل بين الرعية :

فالعدل هو قوام الملك ودوام الدول ، وأس كل مملكة نبويةً كانت أو اصطلاحية ، والعدل ميزان الله في الأرض يؤخذ للضعيف من القوي ، وللمحق من المبطل ، وهو علىٰ قسمين : قسم جاءت به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقسم هرم عليه الكبير ، ونشأ عليه الصغير ، وهو ما يسمىٰ بالسياسة الاصطلاحية .

والسلطان الكافر الحافظ لشرائط السياسة الاصطلاحية . . أبقىٰ وأقوىٰ من السلطان المؤمن العدل في نفسه المضيع للسياسة النبوية العدلية ، والجور المرتب أبقىٰ من العدل المهمل .

والخطوط العريضة لهٰذا الكتاب :

ـ الحكمة من وجود السلطان :

لولا وجود السلطان في الأرض يدفع القوي عن الضعيف ، وينصف المظلوم من الظالم . . لأهلك القويُّ الضعيف ، وتواثب الخلق بعضهم علىٰ بعض ، فلا ينتظم لهم حال ، ولا يستقر لهم قرار ، فتفسد الأرض ومن عليها .

وفي ذٰلك يقول الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالىٰ :

الله يدفـــع بالســـلطان معضلـــة   عــن ديننــا رحمــة منــه ورضوانــا

لـولا الأئمـة لـم تأمـن لنـا سـبلٌ وكان أضعفنـــا نهبـــاً لأقوانـــا

ومثل السلطان القاهر لرعيته والرعية بلا سلطان .. مثال بيت فيه سراج منير وحوله قيام من الخلق يعالجون صنائعهم ، فبينما هم كذٰلك .. إذ طفئ السراج ، فقبضوا أيديهم للوقت ، وتعطل جميع ما كانوا فيه ، فتحرك الحيوان الشرير ، وخشخش الهوام الحشيشَ ، فدبت العقرب من مكمنها ، وفسقت الفأرة من جحرها ، وخرجت الحية من معدنها ، وجاء اللص بحيلته ، وهاج البرغوث مع حقارته ، فتعطلت المنافع ، واستطالت فيهم المضار .

كذٰلك السلطان إذا كان قاهراً لرعيته .. كانت المنفعة به تامة ، ورفع المضار به عامة ، وكانت الدماء به في أهبها محقونة ، والحرم في خدورهن مصونة ، والأسواق عامرة ، والأموال محروسة ، والحيوان الفاضل ظاهراً ، والمرافق حاصلة ، والحيوان الشرير من أهل الفسوق والعصيان منكمشاً ، وإذا اختل أمر السلطان .. دخل الفساد على الجميع .

ومثل مضار السلطان في جنب منافعه .. مثل الغيث الذي هو سقيا الله تعالىٰ ، وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليها ، وقد يتأذىٰ به المسافر ويتداعىٰ له البنيان ، وتكون فيه الصواعق ، وتدر سيوله ، فيهلك الناس والدواب والذخائر ، ويموج له البحر فتشتد بليته علىٰ أهله ، ولا يمنع ذٰلك الخلق إذا نظروا إلىٰ آثار رحمة الله تعالىٰ في الأرض التي أحيا ، والنبات الذي أخرج ، والرزق الذي بسط ، والرحمة التي نشر .. أن يعظموا نعمة ربهم ويشكروها ، ويلغوا ذكر خواص الأذية التي دخلت علىٰ خواص الخلق .

ـ الخصال التي فيها نظام الملك والدول :

وهي ثلاثة خصال ؛ اثنتان نزلتا من السماء ، وواحدة أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم :

الخصلـــة الأولى : الليـــن وترك الفظاظـــة ، الثانية : المشـــاورة والنصيحة ،

وأولى الناس بمناصحته : أهل الدين والنعم والمروءات ، الثالثة : عدم الاستعمال على الأعمال والولايات راغباً فيها ولا طالباً لها .

ـ الخصال التي لا تدوم معها الدول :

فمن جملة هـٰذه الخصال : قصد الشهوات ، وإيثار اللذات ، والدخول في معاصي الله .

ومنها : تقليد كبار الأعمال صغار الرجال ، وتقريب من ينبغي أن يباعد ومباعدة من ينبغي أن يقرب .

ومنها : الكبر والإعجاب ، والكذب ، والغدر ، والجبن ، والجور .

ـ الصبر منقذ من الفتن :

فإذا جار السلطان وبغىٰ . . فلا ينبغي الخروج عليه ومحاربته لما ينتج عن ذٰلك من سفك للدماء وانتهاك للحرم والأعراض ، بل عليهم أن يصبروا ويتوبوا إلى الله تعالىٰ ، قال عبادة بن الصامت : دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه ، فقال فيما أخذ علينا : (أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) .

وقال الفضيل بن عياض : (**جور ستين سنةً خير من هرج ساعة**) .

ويرحم الله الإمام ابن رسلان إذ يقول في نظم « الزبد » :

ولـم يجـز فـي غيـر محـض الكفر خروجنـا علـىٰ ولـي الأمـر

* * *

هـٰذا ، وفي الكتاب مبادئ كثيرة ونظريات هامة متفرقة تدل علىٰ فكر ناضج وعقل نير تحلَّىٰ بهما هـٰذا الإمام الكبير الذي يعتبر من الأوائل السباقين إلىٰ بحث وتبويب ورسم القواعد الكلية لشرائط السياسة وفلسفة الاجتماع

البشري ، وعلاقة الراعي مع الرعية والرعيةِ مع الراعي ، وعلاقة الدول الإسلامية بغيرها من الأمم .

* * *

وقد أسلفنا سابقاً أن هدف الكتاب لم يكن علمياً خالصاً ، بل أراد المؤلف أن يمزج بين المادة العلمية والمتعة الأدبية ؛ يأتي بالمبدأ الخُلقي أو النظرية العامة بعبارة بليغة وأسلوب رفيع ، ثم يستشهد عليها بأقوال الرسل والأنبياء ، وحكم وأمثال وأشعار الحكماء والبلغاء .

* * *

وقد عرت دارَ المنهاج نشوة وطرب ، ونالتها سعادة غامرة عندما أرادت نشر هٰذا الكتاب الممتع والمفيد ، فجمعت الكثير من مخطوطاته من جميع أنحاء العالم ، وقدَّمته إلىٰ لجنته العلمية المتخصصة ، فقامت هٰذه اللجنة بمعارضته علىٰ أصوله الخطية ، وضبطت نصوصه ، وعزت ما استطاعت عزوه منها إلىٰ مصادره من أمَّات كتب الحديث والتفسير والأدب والتاريخ ، وذيَّلته بفهارس عامة تفيد القارئ والباحث .

وختاماً :

فالله تعالىٰ نسال ، وبأسمائه الحسنىٰ نتوسل أن يكون هٰذا الكتاب سراجاً يهدي به أمتنا الإسلامية الحائرة التي تتكالب عليها الأمم ، وأن يوفقنا لنشر وخدمة المزيد والنافع من كتب التراث بمنه وكرمه .

والحمد لله رب العالمين

(٩) ذي الحجة (١٤٣٦هـ)

الناشر

ترجمة
الإمام الحافظ الفقيه الأديب
أبي بكرٍ محمّد بن الوليد بن محمّد الطُّرطوشيّ المالكيّ
رحمه الله تعالىٰ (١)
(٤٥١ ـ ٥٢٠ هـ)

اسمه ومولده

هو الأستاذ الإمام ، الحافظ المحدث ، الفقيه الزاهد ، العالم العامل ، الأديب الشاعر : أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي ، الفهري ، الطُّرطُوشي المالكي .

وشهر بـ (ابن أبي رندقة) بفتح الراء وقد تضم ، وهي كلمة إفرنجية ، فسرتها المصادر بأن معناها : (عد هنا) أو (تعال هنا) ، وجرىٰ علىٰ هٰذا المؤرخ الإسباني بونس بويجوس (Pons Boigues) ، وحلل ذٰلك باعتبارها من كلمتين هما : (Rndre) و(ace) ، فصارت (Randaca) ، وهٰذا التحليل يؤيد أنها بفتح الراء ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) أهم مصادر ومراجع الترجمة : الصلة (٥٧٥/٢) ، الغنية (ص ٦٣) ، بغية الملتمس (ص ١٣٥) ، فهرسة ابن خير الإشبيلي (ص ٢٤١ ، ٢٦٦) ، وفيات الأعيان (٢٦٢/٤) ، خريدة القصر وجريدة العصر (٢٩٠/٢) ، سير أعلام النبلاء (٤٩٠/١٩) ، معجم البلدان (٣٠/٤) ، الديباج المذهب (٢٢٥/٢) ، مرآة الجنان (٢٢٥/٣) ، أزهار الرياض (١٦٢/٣) ، نفح الطيب (٨٥/٢) ، تكملة الصلة (١٧٨/١) ، شذرات الذهب (١٠٢/٦) ، كشف الظنون (١٤١٧/٢) ، هدية العارفين (٨٥/٦) ، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٦٧/٩) ، الأعلام (١٣٣/٧) ، أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد الثائر . تأليف الدكتور جمال الدين الشيال .

ولد الإمام الطرطُوشي في منتصف القرن الخامس الهجري سنة (٤٥٠ هـ) أو (٤٥١ هـ) في مدينة طرطوشة .

وطرطُوشة ـ بضم الطاء الأولىٰ وفتحها ـ مدينة تقع في آخر حدٍّ للمسلمين شرقي الأندلس علىٰ ساحل البحر ، استولىٰ عليها الإسبان في سنة (٥٤٣ هـ) ، وخرج منها العديد من العلماء ، وأشهرهم وأعلمهم : إمامنا أبو بكر الطرطوشي ، وبقيت تلازمه هـٰذه النسبة إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ .

سيرته العلميّة

نشأ الإمام أبو بكر في مدينته طرطوشة ، فأخذ عن علمائها الفرائض والحساب ، ونال حظاً وافراً من مبادئ العلوم .

ثم ارتحل عنها إلىٰ سَرَقُسْطة ، وهناك التقىٰ بإمامها الشهير الحافظ الفقيه القاضي أبي الوليد الباجي المالكي ، المتوفىٰ سنة (٤٧٤ هـ) ، فصحبه مدة وسمع منه وأجازه .

ثم أراد أن يحاكي أستاذه في الرحلة لطلب العلم ؛ فهمَّ بالرحيل من بلده إلى المشرق في طلب العلم ، بعد أن تفقه ونهل نصيباً وافراً من علمائها ، ولا سيما شيخه وأستاذه أبي الوليد الباجي .

والرحلة في طلب العلم عامة والحديث خاصة كانت ديدن طلاب العلم وهِجِّيراهم في تلك العصور ، حتىٰ قال صيرفي علم الحديث يحيى بن معين رحمه الله تعالىٰ : (أربعة لا تؤنس منهم رشداً : حارس الدرب ، ومنادي القاضي ، وابن المحدث ، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث) .

وقد نقلت لنا الكتب فوائد وغرائب وعجائب في ذٰلك ليس مكان عرضها في هـٰذه العجالة [١] .

---

(١) انظر مؤلف الخطيب البغدادي الممتع والخاص في هـٰذا الموضوع ؛ « الرحلة في طلب الحديث » .

وكان من جملة هٰؤلاء : إمامنا أبو بكر رحمه الله تعالىٰ ، وقد ذكر لنا في كتابه هٰذا « السراج » في (باب الفرج بعد الشدة) المعاناة التي لاقاها عندما همَّ بالرحيل من بلده إلى المشرق[1] .

نعم ؛ ارتحل أبو بكر الطرطوشي إلى المشرق الذي كان يزخر آنذاك بأساطين العلم وكبار الأئمة في مختلف العلوم النقلية والعقلية ؛ من حديث ، وفقه ، وأصول ، وفلسفة ، ولغة ، ونحو ، وأدب ، وغيرها ، وخصوصاً العراق الذي بنىٰ فيه نظام الملك دُورَ العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، فانتشر العلم أيما انتشار ، وازدهر أيما ازدهار .

فدخل الإمام الطرطوشي العراق سنة (٤٧٦ هـ) ، وتنقَّل في أهم مدنه .

فسمع ببغداد من قاضيها الإمام أبي عبد الله محمد بن علي الدامغاني الحنفي المتوفىٰ سنة (٤٧٨ هـ) ، والإمام الفقيه أبي الفرج رزق الله التميمي الحنبلي المتوفىٰ سنة (٤٨٨ هـ) ، والإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن فتوح الحميدي الظاهري المتوفىٰ سنة (٤٨٨ هـ) ، وتفقه بها علىٰ يد الإمام الفقيه أبي بكر محمد بن علي الشاشي المتوفىٰ سنة (٥٠٧ هـ) ، والإمام القاضي الفقيه أبي العباس أحمد بن محمد الجرجاني المتوفىٰ سنة (٤٨٢ هـ) ، وكلاهما من كبار أئمة الشافعية في العراق آنذاك .

وسمع بالبصرة « سنن أبي داوود » من الإمام المحدث أبي عليٍّ علي بن أحمد التستري المتوفىٰ سنة (٤٧٩ هـ) .

وقد صرح ببعض هٰؤلاء الشيوخ في كتابه هٰذا « سراج الملوك » .

ثم بعد أن فتح الله عليه في العلم وبلغ منه ما بلغ . . عنَّ له الانصراف إلىٰ مصر ، وكان له غرض في الاجتماع مع الإمام الكبير أبي حامد الغزالي ، فجعل

---

(١) انظر (ص ٥٧٤) .

طريقه إلىٰ بيت المقدس ، فلما تحقق أبو حامد أنه يؤمه . . حاد عنه ، ووصل الإمام الطرطوشي فلم يجده[1] ، فارتحل إلى الشام وأقام هناك مدة مدرساً معلماً ، وصحب بها أبا محمد عبد الله السائح وكان من أولياء الله الزاهدين الورعين .

ثم أراد الإمام الطرطوشي أن يقصد أرض مصر ، فعرض علىٰ أبي محمد صحبته والمشي معه ، فوافق بعد أن تعاهدا علىٰ ألا يترك أحدهما الآخر ، فدخل أرض مصر وبقي في رشيد مدة يأكل من مالها الحلال منعزلاً عن الخلق منقطعاً إلى الخالق ، إلىٰ أن وقعت فتنة الإسكندرية ، فقُتل علىٰ إثرها جماعة من فقهاء الإسكندرية ولم يبق بها من يشار إليه ، فرحل إليه أهل الإسكندرية وطلبوا منه أن يأتي معهم ، فقبل بعد لأيٍ وبموافقة صديقه الزاهد عبد الله السائح .

فاشتمل عليه أهل الإسكندرية ، وقعد للتدريس والتصنيف بها ، فنفع الله به كل من قرأ عليه وأخذ عنه ، وذاع صيته وانتشر علمه ، وأقبلت عليه وفود طلاب العلم من كل حدب وصوب ؛ كي ينهلوا من علمه وينتفعوا بزهده وحاله ، رحمه الله تعالىٰ .

تلاميذه

كان الإمام الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ كالإخاذ ؛ يرتوي منه الرجل والرجلان والفئام من الناس .

ولا ريب أنَّ إماماً وفقيهاً ومحدثاً وحافظاً وأديباً كالطرطوشي . . قد أخذ وحدث عنه الكثير من طلاب العلم .

ويكفي دليلاً علىٰ ذٰلك : ما ذكره صاحب « الديباج المذهب » عن أحد تلامذته قال : (. . . كان ـ أي : الطرطوشي ـ صاحبَ نزهة مع طلبته ، في أكثر

---

(١) وقيل : إنه اجتمع به في بلاد الشام ، وقصد مناظرته ، فقال له أبو حامد : (هٰذا شيء تركناه بصبية بالعراق) يعني : ترك المغالبة بالعلم والمفاخرة فيه . انظر « مرآة الجنان » (٣/٢٢٦) .

الأوقات يخرج معهم إلى البستان ، فيقيمون الأيام المتوالية في فرجة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدح في حق الطلبة ، بل يدل على فضلهم وسلامة صدورهم .

قال : وخرجنا معه في بعض النزه ، فكنا ثلاث مئة وستين رجلاً ؛ لكثرة الآخذين عنه ، المحبين في صحبته وخدمته) .

وبعض هؤلاء الآخذين عنه الذين وقفنا عليهم :

- الإمام الفقيه أبو علي سند بن عنان الأزدي المالكي المتوفى سنة (٥٤١ هـ) ، أحد أعيان المذهب المالكي .

- الإمام الفقيه أبو الطاهر إسماعيل بن مكي بن عوف المالكي المتوفى سنة (٥٨١ هـ) أحد كبار أئمة المذهب المالكي ، أدرك أبو الطاهر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكان الأخير يعظمه ويجله(١) .

- الإمام الحافظ والفقيه المفسر أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الإشبيلي المالكي المتوفى سنة (٥٤٣ هـ) ، كان من الذين رحلوا إلى العراق لطلب العلم ، وهو أحد قضاة الأندلس وأئمتهم المشهورين .

- الإمام الحافظ المحدث أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الشافعي المتوفى سنة (٥٧٢ هـ) ، كان محدث وقته وشيخ زمانه .

وغيرهم الكثير .

ومن استجازه ولم يلقه : الإمام الحافظ القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي المالكي المتوفى سنة (٥٤٤ هـ) .

زهده وورعه وثناء العلماء عليه

كان الإمام أبو بكر عالماً عاملاً ، ورعاً زاهداً لم يتشبث من الدنيا بشيء ، قوّالاً للحق لا يخاف في الله لومة لائم .

(١) وكان الطرطوشي قد تزوج خالته ، فكان ذلك من أسباب القرب منه والأخذ عنه .

ألزم نفسه منذ أن غادر العراق حياة الزهد والتقشف والبعد عن مباهج الدنيا وزخارفها .

يقول عنه ابن بشكوال رحمه الله تعالىٰ : (كان إماماً زاهداً ، عالماً عاملاً ، ورعاً ديناً متواضعاً ، متقشفاً متقللاً من الدنيا ، راضياً باليسير منها ، أخبرنا عنه القاضي الإمام أبو بكر بن محمد بن عبد الله المعافري ووصفه بالعلم والفضل والزهد في الدنيا والإقبال علىٰ ما يعنيه) .

وقال الضبي رحمه الله تعالىٰ في « بغية الملتمس » : (الطرطوشي أبو بكر ، فقيه حافظ ، إمام محدث ، ثقة زاهد ، فاضل عالم عامل) .

وكان الطرطوشي رحمه الله يقول : (إذا عرض عليك أمران ؛ أمر دنيا وأخرىٰ . . فبادر بأمر الأخرىٰ يحصل لك أمر الدنيا والأخرىٰ) .

وقال أيضاً : (أخبرني شيخي أبو المفضل عبد المجيد بن دليل قال : كنت أبيت أكثر الليالي بمدرسة الحافظ أبي بكر ، فسمعته ذات ليلة قد قام إلىٰ ورده علىٰ عادته ، وافتتح من سورة « الصافات » حتىٰ بلغ إلىٰ قوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ (١) ، ولم يزل يردد هـٰذه الآية ويبكي إلىٰ أن طلع الفجر) .

وكان كثيراً ما ينشد :

إن لله عبـــــاداً فُطَنـــــا طلَّقــوا الدنيــا وخافــوا الفِتَنــا
فكَّــروا فيهــا فلمَّــا علمــوا أنهــا ليســتْ لحــيٍّ وطنَــا
جعلوهــا لُجَّـــةً واتخـــذوا صالــحَ الأعمــال فيهــا سُــفُنَا

وقال ابن فرحون رحمه الله تعالىٰ : (وسكن الشام مدة ، ودرس بها ؛ ولازم الانقباض والقناعة ، وبعد صيته هناك ، وأخذ عنه الناس علماً كثيراً . . . وكان بعض الجلة من الصالحين هناك يقول : الذي عند أبي بكر من العلم هو الذي عند الناس ، والذي عنده مما ليس مثله عند غيره دينُه) .

---

(١) سورة الصافات : (٢٤) .

وكان رحمه الله شديد الورع في دينه ، لا يدخل جوفه إلا ما طاب وصفا من الحلال الخالص ، ولو كلفه ذٰلك الدنيا وما فيها ، بعيداً عن السلاطين معرضاً عنهم وعن أصحابهم .

قال ابن فرحون رحمه الله تعالىٰ : (وكانت له رحمه الله تعالىٰ نفس أبية ، قيل : إنه كان ببيت المقدس يطبخ في شقفة ، وكان مجانباً للسلطان معرضاً عنه وعن أصحابه ، شديداً عليهم مع مبالغتهم في بره) .

وإن اضطر أن يجتمع بهم . . فلا يألو جهداً في وعظهم وإرشادهم ونصحهم ، لا يخاف في سبيل ذٰلك لومة لائم ، كما وقع له ذٰلك عندما دخل على الأفضل ملك مصر مما هو مسطور في كتابنا هٰذا(١) .

وبلغ رحمه الله تعالىٰ رتبة عالية ومنزلة سامية في الفقه والخلاف ، نقل عنه كبار أئمة المذهب المالكي في كتبهم الفقهية والأصولية ؛ حتىٰ إن الإمام الأصولي الفقيه ابن الحاجب المالكي نعته بالأستاذ في كتابه « المختصر » .

وله اختيارات شهيرة تفرد بها عن المذهب المالكي مما يدل علىٰ سعة علمه وتحقيقه رحمه الله تعالىٰ .

أدبه

كان الإمام الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ كاتباً مجيداً وشاعراً بليغاً ، حسن الترسل ، بليغ العبارة ، وإن ألفاظه الزلال أو أرق ، ومعانيه السحر أو أدق ، والذي يقرأ كتابه هٰذا « السراج » يدرك كثيراً من ذٰلك .

وكان الإمام الطرطوشي قد قرأ الأدب في حمص الأندلس ـ إشبيلية ـ علىٰ يد الإمام أبي بكر ابن حزم قبل أن يرحل إلى المشرق(٢) .

---

(١) انظر (ص ١٥٠) .

(٢) قال الدكتور جمال الدين الشيال (ص ٧) : (وانفرد المقَّري في كتابه « نفح الطيب » بقوله : إن الطرطوشي قرأ الأدب علىٰ أبي محمد ابن حزم بمدينة إشبيلية ، ولسنا نميل إلىٰ تصديق المقَّري في قوله ←

وسوف نعرض هنا قطعة من نثره تدل على مدى رسوخه فيه ـ ونحيل القارئ في الباقي على مطالعة « السراج » ـ ونموذجاً مما وقفنا عليه من شعره في المصادر والمراجع .

فمن نثره : رسالة أوردها صاحب « الخريدة » أرسلها لابنه عندما كان منفياً في الإسكندرية ، وقد طالت غيبته ، واشتدت لوعته .

فمما جاء فيها : (جُرَعُ الفراق شرابُ الأحبة والأصفياء ، وغُصَصُ النأي والبعاد كؤوسُ أهل المودة والوفاء ، كأسٌ وأيُّ كأسٍ ، تُزعج الأرواحَ ، وتضني الأشباح ، كأسٌ أمرُّ من المَنون ، وأدهىٰ من الحرب الزَّبون .

يا بُني ؛ فارقتُكم على حكم الأقدار ، ونأيت عنكم بسبب الاضطرار .

يا بني ؛ إذا هاج شوقي وتضعضع اصطباري ، واضطربت عزائمي واضطرمت بلابلي . . أُسرِّح طرفي فلا أراكم ، وأستقبل الركبان فلا ألقاكم ، فلا نسيمُك أشمه ، ولا شخصُك أعتنقه وأضمه ، ولا وجهُك أستدنيه وألتزمه ، وأبسط كفّاً ، وأرفع إلى السماء طَرْفاً ، وأذرِف الدموع ذرفاً ، وأقول كما قال مَنْ فَهِمَ عن الله أمرَه ، ولـم يعارض قضاءَه وقدرَه ؛ لمَّا ابتُلي بفراق أحبائه ، وصبر على بلائه : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١) .

← هـٰذا ؛ لأن ابن حزم توفي سنة (٤٥٦هـ) ، ولم يكن الطرطوشي قد جاوز الخامسة أو السادسة . . .) .
ونريد هنا أن نعلق على كلام الدكتور الشيال في موضعين :
أولاً : أن المقَّري لم ينفرد بذٰلك ، بل سبقه الإمام ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٢٦٢/٤) ، واليافعي في « مرآة الجنان » (٢٢٦/٣) .
ثانياً : قال في « تكملة الصلة » (١٧٨/١) : (أبو بكر ابن حزم من أهل إشبيلية ، كان من أهل الأدب والعربية معلماً بها ، وعنه أخذ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي ، حكىٰ ذٰلك في « فوائده ») .
ولعل هـٰذا غير ابن حزم المشهور ؛ لأن هـٰذا الذي أخذ عنه الطرطوشي يكنىٰ بأبي بكر ، وذاك يكنىٰ بأبي محمد ، ولأن صاحب التكملة وصفه بأنه من أهل الأدب والعربية ولم يزد على ذٰلك ، ولا شك أن أبا محمد كان معلمة إسلامية في جميع العلوم ؛ حتىٰ قيل : إنه بلغ رتبة الاجتهاد ، فلعل صواب ما في « الوفيات » و« نفح الطيب » : (أبو بكر) بدل (أبو محمد) ، والله تعالىٰ أعلم .
(١) سورة يوسف : (١٨) .

يا بني ؛ كلما ذكرتكم .. هاج شوقي إلىٰ رؤيتكم ، ألحَظُ السماء لعلي ألحظ النجم الذي تلحظونه . . .) .

ومن شعره : ما جاء في آخر هٰذه الرسالة :

أُقلِّبُ طرفي في السماء مردِّداً ... لعلي أرى النجمَ الذي أنت تنظُرُ
وأستعرضُ الرُّكبانَ في كل وُجهةٍ ... لعلي بمن قد شمَّ ريحَك أظفَرُ
وأستقبلُ الأرواحَ عند هُبوبها ... لعل نسيمَ الريحِ عنك يُخبِّرُ
وأمشي وما لي في الطريق مآربٌ ... عسىٰ نغمةٌ باسم الحبيب تُذكِّرُ
وألمَحُ من ألقاه من غير حاجةٍ ... عسىٰ لمحةٌ من حُسنِ وجهِك تُسفرُ
وإن قرعتْ سمعي بذكراك قرعةٌ ... فمن مقلتي تبكي السحابُ وتقطُرُ
ومَنْ ظلَّ في عيد يُسَرُّ بأهله ... فما لي من الأهلينَ إلا التحيُّرُ
وإن زارَ إلفاً إلفُه زُرتُ منزلاً ... وحوليَ من أهلِ الحفيظةِ معشَرُ
يُضاحكُ في ذا العيدِ كلٌّ حبيبَه ... وما ليَ منكم من أناجي وأنظُرُ
يؤوبُ إلى الأوطانِ مَنْ كان غائباً ... وما لي من الأوطان إلا التذكُّرُ
ويأوي إلى الأحباب مَنْ كان حاضراً ... ومِن دون أحبابي ليالٍ وأشهُرُ
كأنَّا خُلِقنا للنوىٰ وكأنما ... علىٰ شملنا خُطَّت من البَيْن أسطُرُ
أأحبابَنا هل يجمعُ اللهُ شملَنا ... عسىٰ نلتقي قبل المماتِ ونحضُرُ
أما حذَّر الواشي من الدهر صرعةٌ ... فللدهر واشٍ لا ينام ويسهَرُ
لعل الذي لا يرتجي الخلقُ غيرَه ... يجمِّع ذا الشملَ الشتيتَ ويجبُرُ
وأرجو من الرحمٰن إنجازَ وعدِهِ ... فتقوىٰ أجورُ الصابرين وتظفَرُ
فيا ربِّ فاحكم بين عبديك واحدٌ ... ضعيفٌ وعبدٌ يستطيل ويقدرُ

ومن شعره في رثاء القاضي ابن حديد :

نسجت عليه العنكبوتُ ملاءةً ... ما قدَّ من زُوَّاره الخيطانُ
هٰذي قبورُهمُ وتلك قصورُهمْ ... واعلم بأنَّ كما تَدينُ تُدانُ

ومما قاله في الزهد :

فاعملْ لمعادك يا رجلُ ... فالقومُ لدنياهم عملوا
واذخَر لمسيرك من زادٍ ... فالقوم بلا زادٍ رحلوا

وقال في بر الوالدين :

لو كان يدري الإبنُ أيةَ غُصةٍ ... يتجرَّعُ الأبوانِ عند فراقِهِ
أمٌّ تَهِيجُ بوجده حيرانةٌ ... وأبٌ يسحُّ الدمعَ من آماقِهِ
يتجرَّعانِ لبَيْنِهِ غُصَصَ الردىٰ ... ويبوحُ ما كتماه من أشواقِهِ
لرثىٰ لأمٍّ سُلَّ من أحشائها ... وبكىٰ لشيخ هامَ في آفاقِهِ
ولبدَّل الخُلُقَ الأبيَّ بعطفه ... وجزاهما بالعَذْب من أخلاقِهِ

ومن شعره مفتخراً :

كأن لساني والمشكلاتِ ... سَنَا الصبحِ ينحَرُ ليلاً بهيمَا
وغيريَ إن رامَ ما رُمْتُه ... خَصِيٌّ يُحاوِلُ فَرْجاً عقيمَا

وحكي أنه عندما أهدى « السراج » كتب علىٰ طرته :

اَلناسُ يُهدون علىٰ قَدْرهمْ ... لٰكنَّني أُهدي علىٰ قدري
يُهدون ما يفنىٰ وأُهدي الذي ... يبقىٰ على الأيَّام والدهرِ

وعندما سمع منشداً ينشد للوأواء الدمشقي قولَه :

قمرٌ أتىٰ من غير وعدِ ... في ليلةٍ طَرَقَتْ بِسَعْدِ
باتَ الصباحُ إلى الصبا ... حِ معانقي خداً بخدِّ
يمتازُ فيَّ وناظري ... ما شئتَ من خمرٍ وشَهْدِ

قال : أويظن هـٰذا الدمشقي أن أحداً لا يُحسِن ينظِمُ الكذبَ غيرُه ؟! لو شئنا . . لكذبنا مثل هـٰذا ، ثم أنشأ لنفسه معارضاً :

قمـرٌ بـدا مـن غيـر وَعْـدِ ... خُفَّـتْ شـمائلُه بسَـعْدِ
قبلتـه ورشـفت مـا ... فـي فِيـهِ مـن خمـر وشـهدِ
فَرَشَـفْتُ مُـزنَ السلسـبيـ ... ـلِ بزنجبيـلٍ مُسـتَعِدِّ
ولَثَمـتُ فـاه مـن الغـرو ... بِ إلـى الصبـاحِ المسـتَجِدِّ
وسـكِرتُ مـن رشـفي العقيـ ... ـقَ علـىٰ أقـاحٍ تحـت رَنْـدِ
فَنَزَعـتُ عـن فمـه فمـي ... ووضعـتُ خـداً فـوقَ خـدِّ
وشَـمِمتُ عَـرْفَ نسـيمه الـ ... ـجاري علـىٰ مِسْـكٍ ونَـدِّ
وصحـوتُ مـن رَيَّـا القَرَنْـ ... ـفُل بيـنَ رَيْحـانٍ ووَرْدِ
وألـذُّ مـن وصلـي بـه ... شـكواه وجـداً مثـلَ وَجْـدِي

ومن رائق شعره (١) :

يقولـونَ ثكلـىٰ ومـن لـم يَـذُقْ ... فـراقَ الأحبـةِ لـم يثـكَلِ
لقـد جرَّعتْنـي ليالـي الفـراقِ ... كؤوسـاً أمـرَّ مـن الحَنْظَـلِ

ومما قاله في الرشوة :

وأكـرمُ مـن يـدُقُّ البـابَ شـخصٌ ... ثقيـلُ الحِمْـلِ مشـغولُ اليديـنِ
ينـوءُ إذا مشـىٰ نَفْسـاً ونَفْخـاً ... وينطِـحُ بابَـه بالركبتيـنِ
وأكـرمُ شـافعٍ يمشـي عليهـا ... أبـو المنقـوشِ فـوقَ الصَفْحتيـنِ

وقال فيها أيضاً :

إذا كنـتَ فـي حاجـةٍ مُرْسِـلاً ... وأنـتَ بإنجازهـا مُغْـرَمُ

(١) كذا في « نفح الطيب » (٨٦/٢) ، وأنشدهما جعفر الخلدي كما في « طبقات الصوفية » (ص ٤٣٧) .

فأرســـلْ بأكمـــهَ خَلَّابـــةٍ   بـــه صَمَـــمٌ أَغْطَـــشٌ أبكـــمُ
ودَعْ عنـــكَ كلَّ رســـولٍ ســـوىٰ   رســـولٍ يُقـــال لـــه الدرهـــمُ

مؤلفاته

على الرغم من حياة الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ غير المستقرة والقلقة في كثير من مراحلها . . لم تمنعه من التأليف والتصنيف ؛ فإن بعض المصادر والمراجع تذكر أن للطرطوشي الكثيرَ من المؤلفات المتنوعة والمفيدة ، وأغلب الظن أن هٰذه المؤلفات كانت عندما استقر في الإسكندرية .

وقد أحصىٰ له الدكتور جمال الدين الشيال اثنين وعشرين مؤلفاً ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود ، بينما أوصلها عبد المجيد تركي في مقدمة تحقيقه لـ « رسالة في تحريم الجبن الرومي » لأكثر من ذٰلك .

وسوف نذكر هٰهنا بعضاً منها مبتدئين بذكر المطبوع ، ثم نتبعه بذكر المخطوط ، ثم نختم بالمفقود .

ـ بر الوالدين ، طبع عدة طبعات ، ومنها طبعة مؤسسة الكتب الثقافية . سنة (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م) .

ـ تحريم الاستمناء ، طبع في مؤسسة التواصل بين المشرق والمغرب . سنة (١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠ م) .

ـ الحوادث والبدع ، طبع عدة طبعات ، ومنها طبعة دار الغرب الإسلامي . سنة (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م) .

ـ الدعاء المأثور وآدابه ، طبع طبعات عدة ، ومنها طبعة دار الفكر المعاصر . سنة (١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م) .

ـ رسالة في تحريم الجبن الرومي ، طبعت في دار الغرب الإسلامي . سنة (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م) .

- رسالة في تحريم الغناء والسماع ، طبعت مع الكتاب السابق .

- رسالة في نقد كتاب « الإحياء » ، وهي عبارة عن جواب لسؤال ورده عن « الإحياء » من قبل عبد الله بن مظفر .

وقد أوردها بنصها الإمام الذهبي في « السير » ، والإمام تاج الدين السبكي في « الطبقات »(١) .

- سراج الملوك ، وهو كتابنا هٰذا ، وهو من أهم ما وصلنا من كتبه ، حتىٰ قال المقَّري رحمه الله تعالىٰ : (كفىٰ بـ « سراج الملوك » دليلاً علىٰ فضله) ، طبع عدة طبعات قديمة وحديثة .

- الأسرار ، ولم تذكره المصادر والمراجع ، إلا أن الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ نص عليه في موضعين من « سراج الملوك »(٢) .

ولعله كتاب « الأسرار والعبر » الذي أشار إليه عبد المجيد تركي ، وقد ذكر نقلاً عن الباحث المغربي المنوني أنه عثر على السفر الأول منه أثناء عمله في خزانة خاصة بمراكش(٣) ، وأنه هو الكتاب الذي ألفه الطرطوشي في معارضة « الإحياء » .

وقد ذكر الضبي في « بغية الملتمس » وغيره أن للطرطوشي كتاباً في معارضة « الإحياء » ، إلا أنه لم يصرح بذكر اسم له .

- زاد المسافر ، مخطوط في المكتبة البودلونية بأكسفورد .

- المجالس ، مخطوط ضمن مجموع في الخزانة العامة بالرباط ، رقم الحفظ : (D ١٠٩٥) .

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٩/٤٩٤ ـ ٤٩٦) ، وقد فنَّد التاج في « الطبقات الكبرىٰ » (٦/٢٤٣ ، ٢٥٢) ما جاء في هٰذه الرسالة من نقد واعتراض .

(٢) انظر (ص ٢٤٣ ، ٦١٧) .

(٣) انظر مقدمة عبد المجيد تركي في تحقيق « رسالة في تحريم الجبن الرومي » (ص ٢٦) .

ـ مختصر كتاب « أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم » لأبي محمد ابن حيان ، مخطوط في مكتبة فيض الله أفندي بإستنبول[1] ، رقم الحفظ : (ب ٢٠١) .

ـ مختصر « تفسير الثعالبي » ، مخطوط ، توجد نسخة من الجزء الثاني في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم الحفظ : (١/٢٠٩) .

ـ نزهة الإخوان المتحابين في الله ، مخطوط في مكتبة غوتا بألمانيا ، رقم الحفظ : (٩٠٩) .

ـ التعليقة في مسائل الخلاف ، أو الكتاب الكبير في مسائل الخلاف ، ذكره بالاسم الأول ابن فرحون في « الديباج » ، وبالاسم الثاني المقري في « نفح الطيب » .

ـ سراج الهدىٰ ، ذكره ابن خلكان في « الوفيات » ، ومحمد مخلوف في « شجرة النور الزكية » ، وقالا : (إنه حسن في بابه) .

ـ السعود في الرد على اليهود ، ذكره القاضي عياض في « الغنية » ، والذهبي في « السير » .

ـ العُمَد في الأصول ، ذكره الذهبي في « السير » .

ـ الفتن ، ذكره ابن خلكان في « الوفيات » .

ـ الفوائد ، ذكره ابن الأبار في « تكملة الصلة » .

ـ النهاية في فروع المالكية ، ولعله شرح لـ « رسالة ابن أبي زيد القيرواني » الشهيرة ، ذكره المقري في « نفح الطيب » .

ـ أجـزاء فيهـا الكلام عـن الغنىٰ والفقـر ، ذكرها ابن خير الإشـبيلي في « فهرسه » ، ومحمد مخلوف في « شجرة النور الزكية » .

---

(١) انظر مقدمة الرسالة السابقة (ص ٢٥) ، و« فهرسة ابن خير الإشبيلي » (ص ٢٢١) .

وفاته

وهٰكذا بعد حياة حافلة في طلب العلم والرحلة في سبيله ، والتدريس والإفتاء ، والتأليف والتصنيف ، والجهاد وإعلاء كلمة الحق .. انتقل الإمام العابد الزاهد أبو بكر الطرطوشي إلىٰ جوار ربه بالإسكندرية في شعبان ـ وقيل في جمادى الأولىٰ ـ من شهور سنة (٥٢٠ هـ)[(١)] .

وصلىٰ عليه تلميذه وربيبه الإمام أبو الطاهر ابن عوف ، ودفن في ثغر الإسكندرية ، قال في « شجرة النور الزكية » : (وقبره بها معروف متبرك به ، مستجاب الدعاء عنده) .

رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار

---

(١) وعليه أكثر المصادر والمراجع ، ومنهم القاضي عياض المتوفىٰ سنة (٥٤٤هـ) في مشيخته « الغنية » (ص ٦٣) ، وذهب في « بغية الملتمس » (ص ١٣٨) إلىٰ أنه توفي سنة (٥٢٥هـ) .
واستشكل ابن خلكان سنة الوفاة بأنه وَجَد في « مشيخة » جمعت لشيخه بهاء الدين ابن شداد منقولةٍ بخطه أن الطرطوشي أجازه ، فكيف يكون ذٰلك وابن شداد ولد في سنة (٥٣٩هـ) ؟! وذكر الدكتور إحسان عباس عن بعض أصول المقَّري أنه توفي سنة (٥٤٠هـ) ، قلنا : بحثنا فيما توفر لدينا من المصادر والمراجع فوجدنا أن صاحب « الخريدة » العماد الأصفهاني نصَّ علىٰ أنه توفي في حدود سنة (٥٦٠هـ) ، والله تعالىٰ أعلم .

وصف النّسخ الخطيّة

لقد منَّ الله تعالىٰ علينا بالوقوف علىٰ سبع نسخ خطية ، ونسخة عتيقة مطبوعة ، وإليك وصفها :

النسخة الأولىٰ : من ممتلكات المكتبة الملكية ببرلين ، تحمل الرقم (١٢٦٠) .

وتقع هـٰذه النسخة في (٢٢٨) ورقة ، عدد سطور الورقة الواحدة (٢٠) سطراً تقريباً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٣) كلمة في الورقات الأولىٰ ، إلىٰ أن يكبر الخط ويتغير رسمه حتىٰ يصل المتوسط إلىٰ (١١) كلمة تقريباً .

وهـٰذه النسخة من أنفس وأعتق ما وصلنا من نسخ هـٰذا الكتاب ، لم يعف أثرها ، ولم يمحَ علىٰ طول الزمن رسمها ؛ حيث تم الفراغ من نسخها في (٦٠٤ هـ) أي : بعد وفاة المؤلف بـ (٨٤) سنة تحديداً .

وخط هـٰذه النسخة نسخي جيد واضح ومقروء في الصفحات الستة والأربعين الأولىٰ ، ثم يتغير الخط مما يرجح أنه بسبب تغير الناسخ ، حتىٰ تغدو بعض الكلمات غير واضحة وضوح النسخ الأخرىٰ ، ويمتزجَ الشعر مع النثر مما يصعب تمييزه عنه .

وقد ضبطت بعض الكلمات ضبطاً متناثراً وجزئياً لا يشمل جميع أحرف الكلمة ، وكما تم تمييز الأبواب والفصول بالخط العريض .

وأما طرة هـٰذه النسخة والورقة الأولىٰ منها . . ففي يمين الورقة منها ختم المكتبة المذكورة ، وفي يسارها اسم الكتاب والمؤلف مع نعته بما يدل علىٰ

مكانته العلمية الرفيعة والدعاء له ، هٰكذا : (هٰذا كتاب سراج الملوك تأليف الإمام العلامة الأوحد نخبة عصره ووحيد دهره ، محيي السنة ، أبو بكر محمد بن الوليد [الطرطوشي][1] رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به وبأمثاله في الدنيا والآخرة ، آمين) .

وكان الفراغ من نسخها في يوم الأحد (١٨) من شهر ربيع الأول ، سنة (٦٠٤ هـ) بمدينة الموصل ، علىٰ يد محمد (؟) أسعد الأصفهاني رحمه الله تعالىٰ .

ورمزنا لهٰذه النسخة بـ (أ) .

* * *

النسخة الثانية : من ممتلكات مكتبة آياصوفيا بإستنبول ، وتحمل الرقم (٢٨٨٢) .

تقع هٰذه النسخة في (٢٦٩) ورقة ، عدد سطور الورقة الواحدة (١٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٣) كلمة تقريباً ، من دون الالتفات إلى العناوين والأبيات الشعرية والكلمات التي كتبت بخط عريض .

وخط هٰذه النسخة نسخي واضح ومقروء ، لا يجد قارئ المخطوطات وناسخها صعوبة في قراءتها ونسخها .

وعلىٰ كل فهٰذه النسخة جيدة امتازت بكثير من الأمور التي جعلتها في مصاف النسخ التي اعتمدنا عليها في إخراج هٰذا السفر البديع .

فإضافة إلىٰ وضوح خطها تم ضبطها بالشكل ضبطاً تاماً ، وهو ضبط صحيح ودقيق ، كما تم تمييز الأبواب والفصول وبعض الكلمات ؛ كـ (روي ، واعلم ، ومثاله ، وأنشدنا ، وأخبرني ، وقال الشاعر) ونحوها بالخط الأحمر العريض ،

---

(١) على الطرة : (الطرسوسي) .

وتم أيضاً تمييز الشعر عن غيره من الكلام المنثور من خلال جعله في وسط الورقة ووضع دوائر سود بداية البيت ونهايته ، وقد توضع هـٰذه الدوائر بعض الأحيان بين الصدر والعجز .

وتميزت هـٰذه النسخة أيضاً بزيادات تفردت بها عن بقية النسخ ، وغالب هـٰذه الزيادات عبارة عن أبيات شعرية أشرنا إليها في أماكنها من الكتاب .

وهـٰذه النسخة خلت هوامشها من الحواشي والتعليقات ، خلا بعض الكلمات التي هي فروق لنسخ هـٰذا الكتاب ، أو لحوقات مصححة مندرجة في أصله ، والتي تكون زيادة في غالب الأحيان .

وإذا خرجنا من صلب الكتاب وانتقلنا إلىٰ طرته والورقة الأولىٰ منه . . فإننا نجد لوحة فنية موشاة بالألوان ومزدانة بالزخرفات الإسلامية البديعة ، وكتب في وسطها اسم الكتاب من دون التصريح باسم مؤلفه ، وكتب تحت العنوان مباشرة : (برسم خزانة السلطان الملك الظاهر عز نصره) ، وعلىٰ هامشها أختام لمن تداول هـٰذه النسخة وتصريح لمن وقفها على الخزانة المذكورة(١) .

أما عن تاريخ نسخها فقد صرح في آخرها أنها من منسوخات القرن التاسع الهجري ، وبالتحديد في (٢٧) جمادى الآخرة سنة (٨٤٢ هـ) ، ولم نعثر على اسم من نسخها بعد البحث الحثيث في كافة أرجاء المخطوطة .

ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ (ب) .

* * *

النسخة الثالثة : من ممتلكات مكتبة فيض الله أفندي بإستنبول وتحمل الرقم (١٢٨٩) .

تقع هـٰذه النسخة في (١٧٢) ورقة ، عدد سطور الورقة الواحدة قريب من

---

(١) انظر صورة الطرة في (ص ٥٠) .

(٢٤) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٣) كلمة تقريباً .

وخط هـٰذه النسخة : نسخي واضح ومقروء .

وهـٰذه النسخة جيدة إلا أنها ليست بجودة النسختين السابقتين .

كتبت الفصول والأبواب وبعض الكلمات بالخط الأحمر العريض ، ولم يميز الشعر عن النثر في بعض المواضع كما ميز في النسخة السابقة ، وخلت هوامشها من التعليقات إلا في الورقات الأولىٰ منها ، والتي هي عبارة عن بيان لنسخ الكتاب أو توضيح لبعض الكلمات منه .

وأما عن طرة هـٰذه النسخة . . فقد كتب عليها اسم الكتاب مع المؤلف كالتالي : (كتاب سراج الملوك ، تصنيف الإمام العالم العلامة أبي بكر الطرطوشي بثغر الإسكندرية ، تغمده الله برحمته ورضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه بمحمد وآله ، بمنه وكرمه ، ونفعنا والمسلمين به في الدنيا والآخرة ، آمين) .

وكتب علىٰ هامشها : (من كتب الفقير السيد فيض الله المعين في السلطنة العلية العثمانية ، عفي عنه) .

ويوجد أيضاً ختم ، ونصه : (وقف شيخ الإسلام السيد فيض الله أفندي ، غفر الله له ولوالديه ، شرط ألا يخرج من المدرسة التي أنشأها بقسطنطنية سنة « ١١١٢ ») .

وفرغ ناسخها منها نهار الاثنين في (١٢) رمضان سنة (٨٦٧ هـ) ، وكالنسخة السابقة لم يتم التصريح أو التلويح باسم ناسخها .

ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ (ج) .

* * *

النسخة الرابعة : من ممتلكات مكتبة فيض الله أفندي بإستنبول أيضاً وتحمل الرقم (١٢٨٨) .

تقع هـٰذه النسخة في (٢٠١) ورقة ، عدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٤) كلمة تقريباً ، بدون النظر إلى الأبيات الشعرية والأبواب والفصول والكلمات التي كتبت بخط عريض .

وخط هـٰذه النسخة نسخي ممتاز واضح ومقروء ، لا يجد من لديه أدنىٰ إلمام في اللغة صعوبة في قراءتها والمطالعة فيها أو حتىٰ نسخها .

وخاطُّ هـٰذه النسخة يمتلك حساً مرهفاً وذوقاً فنياً عالياً أفرغ طاقته في زبرها وضبطها وتلوينها حتىٰ تكون حرية بتداول السلاطين والأمراء لها .

وطرة هـٰذه النسخة إبداع فني ، مهما حاولنا وصفها فلن نعطيها حقها ، إلا أننا سنضع صورتها بين يدي القارئ عند عرضنا لبعض صور نسخ هـٰذا الكتاب في الصفحات الآتية [١] .

وإذا دخلنا إلىٰ صلب الكتاب : فأول ما يقع عليه نظر القارئ ذٰلك الخط الجميل وتلك الألوان المتنوعة ؛ الأحمر والأزرق والذهبي للأبواب والفصول وبعض الكلمات والتي تكون في الغالب بداية فقرة أو قصة ؛ كقوله : (وقال بعض الشعراء ، وقال وهب بن منبه ، وروي ، وأخبرني ، وأنشد بعضهم ، ولما حضرت . . .) ، وهـٰذا التلوين اعتباطي لا يعتمد منهجاً معيناً ولا يسير علىٰ وتيرة واحدة ، إلا قوله : (الباب الأول ، الباب الثاني . . .) فقد كتب باللون الذهبي ، وتمم باقي العنوان باللون الأزرق .

وقد ضبطت هـٰذه النسخة بالشكل ضبطاً تاماً ، وهو ضبط صحيح ودقيق في الغالب ، كما تم توسيط الشعر حتىٰ يتميز عن باقي الكلام ، وتم الفصل بين كل قصة أو قول بدائرة ذهبية مزينة .

وقد فرغ ناسخها من نسخها في (١١) رمضان من شهور سنة (٨٧٢ هـ) ،

---

(١) انظر (ص ٥٣) .

ولم يظهر لدينا من خطِّ هٰذه النسخة بعد البحث في جميع مواضع الكتاب ، إلا أنه طالعها العديد من الأفاضل ؛ ومنهم : عثمان بن علي الحسيني ، وعلي بن محمد الحسيني .

ورمزنا لهٰذه النسخة بـ (د) .

* * *

النسخة الخامسة : من ممتلكات مكتبة رستم باشا بإستنبول ، وتحمل الرقم (١٦٣) .

وتقع هٰذه النسخة في (٢٠٧) ورقات ، عدد سطور الورقة الواحدة (٢١) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١١) كلمة تقريباً ، تقل وتكثر علىٰ حسب الأبيات الشعرية والعناوين وبعض الكلمات التي كتبت بالخط العريض .

وخط هٰذه النسخة نسخي واضح ومقروء .

ضبطت أبواب وفصول هٰذه النسخة بالشكل التام ، وكتبت باللون الأحمر العريض ، أما باقي النسخة . . فخلت من الشكل إلا في بعض الأوراق القليلة من الصفحات الأولىٰ من الكتاب .

وقد تم توسيط الشعر كما سبق حتىٰ يتميز عن الكلام المنثور ، ووضع نقاط حمر بداية ونهاية كل بيت من الشعر .

وإذا انتقلنا إلىٰ طرة هٰذه النسخة . . فسنجد أن عنوان الكتاب قد توسط رأس الصفحة مكتوباً بالخط الأحمر السميك ، وتحته مباشرة : (تأليف الشيخ الإمام العالم العامل الفقيه المحقق ، الصدر الكبير الكامل ، شيخ الطريقة والحقيقة ، فخر الإسلام ، أبي بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي رحمه الله وأرضاه ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه وذريته أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ونعم النصير) .

وفي أسفل الطرة قول لبعض الولاة ، ونصه : (وقيل لرجل من الولاة : كم صديق لك ؟ قال : لا أدري ؛ الدنيا علي مقبلة فالناس كلهم أصدقائي ، ما أعرفهم إلا إذا أدبرت علي) .

وعلىٰ هامش الطرة كلام غير واضح عفي أثره ومحي رسمه علىٰ مر السنين والأعوام ؛ إلا أنه يفيد أنه طالعها الأمير إبراهيم من سلالة الأمير منجك ، والله تعالىٰ أعلم [1] .

وفي آخر ورقة من المخطوط مقدمة في فضل العلم وبيان شرط واقف هـٰذه النسخة أثبتناه بتمامه في نهاية هـٰذا الكتاب [2] .

وكان الفراغ من نسخها في يوم الأحد (١٢) رمضان ، من شهور سنة (٨٥٢ هـ) ، ولم نعثر علىٰ ما ينص أو يشير إلى اسم ناسخها .

ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ (هـ) .

❁ ❁ ❁

النسخة السادسة : من ممتلكات مكتبة عموجه حسين باشا بإستنبول ، تحمل الرقم (٣٧٤) .

وتقع هـٰذه النسخة في (١٨١) ورقة ، عدد سطور الورقة الواحدة (٢٠) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٤) كلمة تقريباً .

وهـٰذه النسخة جيدة ، خطها نسخي واضح ومقروء ، تم ضبط جميع الكتاب بالشكل ، وهـٰذا الضبط دقيق وصحيح في الغالب ، كما تم تمييز الأبواب والفصول بالخط الذهبي العريض ، وتوسيط الأبيات الشعرية وفصلها عن الكلام المنثور ، ووضع دائرة مزينة وملونة بالذهبي في بداية ونهاية البيت الشعري .

---

(١) انظر (ص ٥٥) .

(٢) انظر صورة تلك الورقة (ص ٥٦) .

وأما عن طرة الكتاب : فيذوب الناظر فيها لِمَا وشِّيت به من ألوان وخطوط هندسية فنية تدل علىٰ مدى الحس والذوق الرفيعين الذين تحلىٰ بهما زابر هٰذا الكتاب .

وعلىٰ هامش الطرة تملكات لمن تداول هٰذه النسخة القيمة .

وسنترك صورة هٰذه الطرة بين يدي القارئ يجيل النظر فيها ليلمس مدى اهتمام الناسخ في العناية بها وإخراجها لائقة بالملوك والأمراء والوزراء والعلماء (١) .

وكان الفراغ من نسخها صباح العشرين من شهر الله المحرم ، من شهور سنة (٨٠٠ هـ) ، علىٰ يد محمد بن أحمد بن عساكر المصري رحمه الله تعالىٰ .

ورمزنا لهٰذه النسخة بـ (و) .

❁ ❁ ❁

النسخة السابعة : من ممتلكات مكتبة غازي خسرو بسراييفو ، تحمل الرقم (٣٧١) .

وتقع في (١٣٢) ورقة ، عدد سطور الورقة الواحدة (٢٣) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٥) كلمة تقريباً .

وهي نسخة جيدة ، خطها نسخي واضح ومقروء ، تم تمييز الأبواب والفصول باللون الأحمر ، كما تم توسيط الشعر حتىٰ لا يمتزج مع بقية الكلام .

وعلىٰ طرة الكتاب : اسم الكتاب مع المؤلف ، وعلىٰ هامش العديد من ورقات المخطوط صورة ختم يرجح أنه ختم من وقفها على المكتبة المذكورة ، أو ختم مالك تلك المكتبة ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) انظر (ص ٥٦) .

وكان الفراغ من نسخها في غرة شهر ربيع الأول من شهور سنة (٩٩٢ هـ) ، على يد يحيى بن أحمد بن محمد العريف الأنباري الحلبي .

ورمزنا لهٰذه النسخة بـ (ز) .

❁ ❁ ❁

النسخة الثامنة : وهي نسخة عتيقة مطبوعة لهٰذا الكتاب ، وهي : طبعة المطبعة الوطنية بمصر الإسكندرية ، وتقع هٰذه الطبعة في (٣٥٨) صفحة .

وقد صُدِّرت صفحاتها الأولىٰ بفهارس عامة للكتاب وترجمة موجزة للطرطوشي من كتاب « نفح الطيب » .

ودخولاً إلىٰ صلب الطبعة : فإننا نجد أن الكتاب وضع ضمن إطار وميز بين فقراته بوضع الكلمة الأولىٰ من كل فقرة ضمن قوسين ، وعلىٰ هامش الكتاب شرح لبعض الكلمات الغريبة الواردة فيه .

وذُيِّلت بكلمة معاون دائرة أفندم طوسون باشا ، وكلمة رمضان حلاوة .

وهٰذه الطبعة كاملة وقديمة ، طبعت في عهد الخديوي إسماعيل سنة (١٢٨٩ هـ) .

ورمزنا لهٰذه النسخة بـ (ح) .

❁ ❁ ❁

ـ اعتمدنا في إخراج هـٰذا الكتاب علىٰ سبع نسخ خطية متبعين المراحل التالية :

ـ نسخنا الكتاب ، وعارضناه علىٰ أصوله الخطية ، وأثبتنا بعض مغايرات النسخ مما له فائدة أو يبرز معنىً آخر .

ـ حصرنا الآيات بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ ، وجعلناها برسم المصحف الشريف من رواية حفص عن عاصم رحمهما الله تعالىٰ .

ـ رصعنا الكتاب بعلامات الترقيم المناسبة علىٰ وفق المنهج المتبع لدى المركز .

ـ ضبطنا الأحاديث النبوية والأبيات الشعرية ضبطاً كاملاً ، وكذٰلك ضبطنا بعض الكلمات بالحركات الإعرابية ؛ حتىٰ يسهل تداول الكتاب وتناوله من الناس جميعهم علىٰ مختلف درجاتهم ومستوياتهم العلمية .

ـ خرجنا ما أمكن من الأحاديث النبوية والآثار والأقوال والحكم والأمثال من مظانها المتوافرة لدينا .

ـ بدأنا في تخريج المصادر بذكر الأقدم مطلقاً ، وقد نقدم غيره لنكتة ؛ كأن يوافق اللفظ الوارد في الكتاب ، وعندما لا نجد الأثر في المصادر التي سبقت كتاب « السراج » . . فإننا استأنسنا بكتب الأدب المتأخرة .

ـ خرجنا الأبيات الشعرية بردها إلىٰ مظانها من دواوين الشعر العربي إن توافرت ، وإلا . . أحلناها علىٰ كتب الأدب ، وإذا كان الشعر منسوباً لأكثر من شاعر . . نبهنا علىٰ ذٰلك في الهامش .

ـ نسبنا الأبيات الشعرية إلىٰ بحورها ، وجعلناها بين معقوفين [ ] .

ـ شرحنا الكلمات الغريبة أو الغامضة في الكتاب .

ـ علقنا علىٰ بعض المواضع التي رأينا أنها بحاجة إلىٰ بيان وتوضيح أو تصويب وتصحيح .

ـ قسمنا الكتاب إلىٰ فقرات ومقاطع ، وأضفنا عنونات للفصول مناسبة للمضمون ، وحصرناها بين معقوفين [ ] .

ـ صدرنا الكتاب بترجمة موجزة للإمام الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ وقفنا فيها علىٰ أهم المحطات التي مرَّ فيها هـٰذا الإمام الكبير .

ـ ذيلنا الكتاب بفهارس علمية تقربه للقارئ والباحث .

وختاماً :

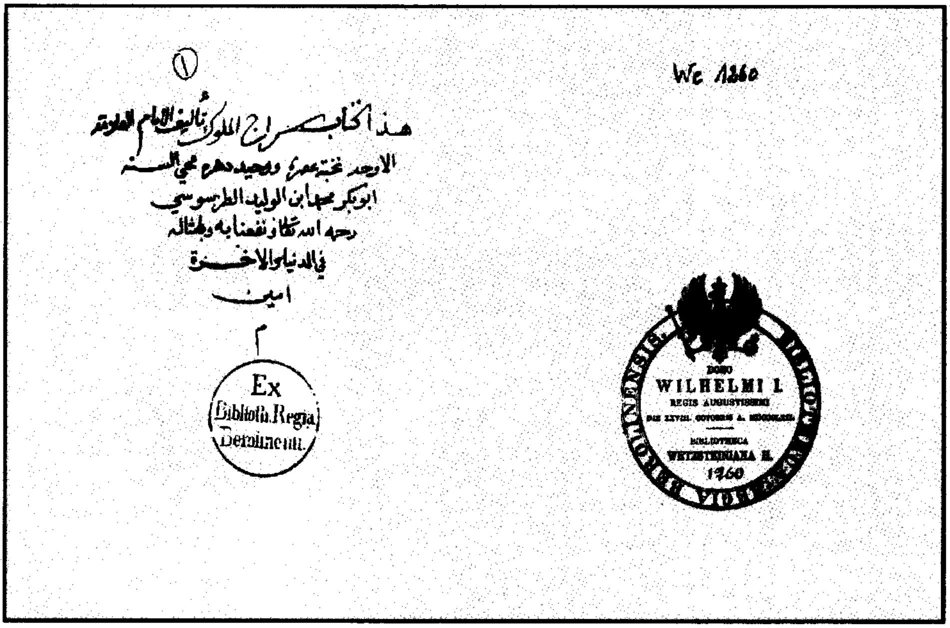
نسألك اللهم أن تجعل هـٰذا الكتاب سراجاً يبدد ظلام القلوب ، وينير حالك الدروب ، وأن تنفع به جميع المسلمين ، من حاكمين ومحكومين .

والحمد لله رب العالمين

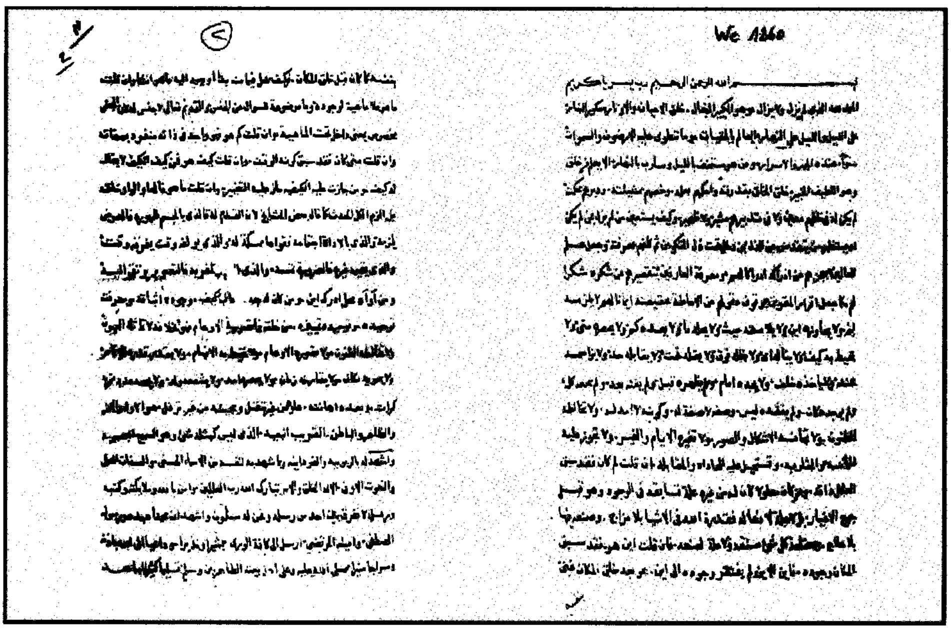
اللّجنة العلميّة

(١٠) شوال (١٤٣٦هـ) بمركز دار المنهاج للدّراسات والتّحقيق العلميّ

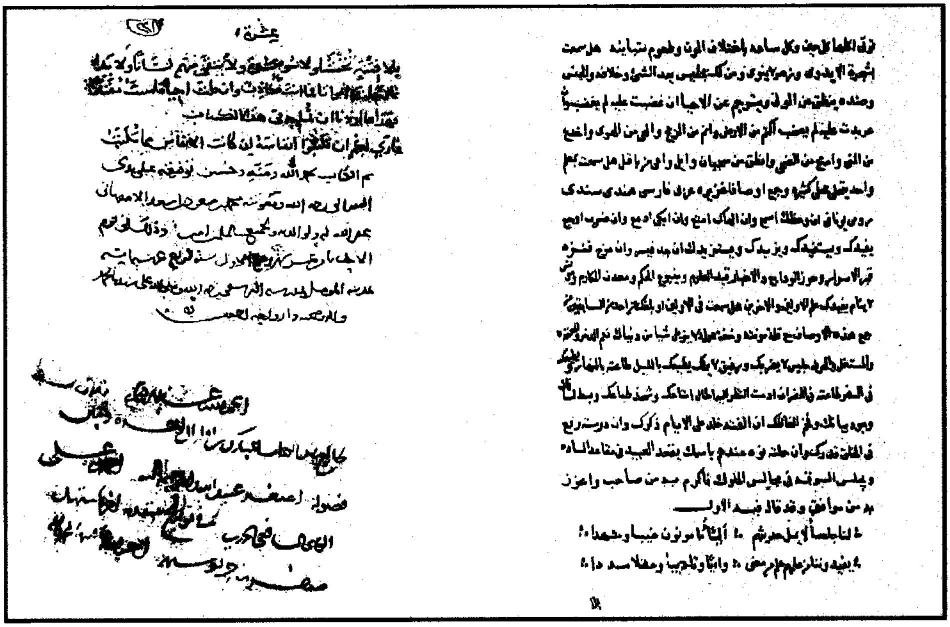
صور من المخطوطات المعتمدة



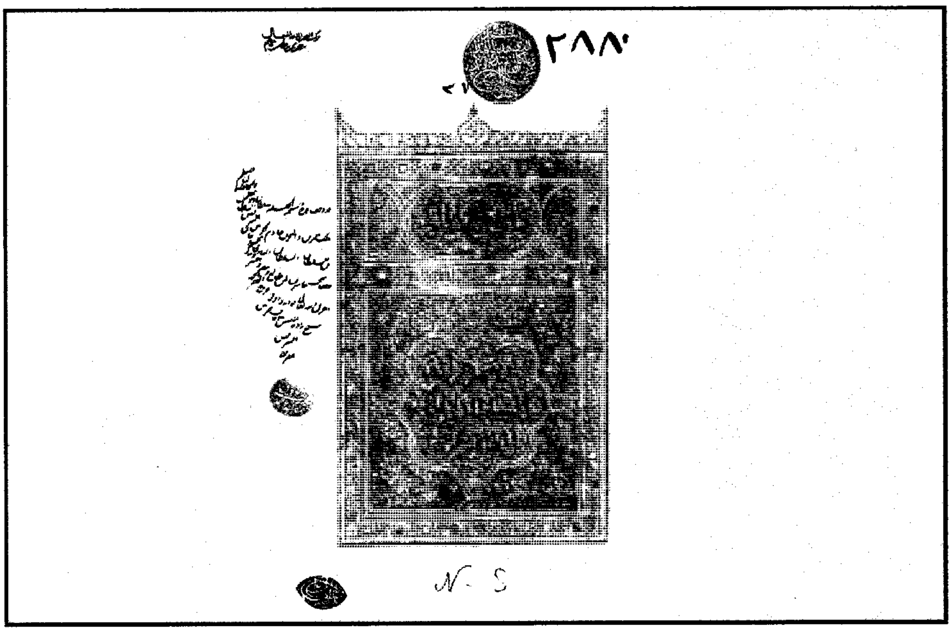
راموز ورقة العنوان للنّسخة (أ)



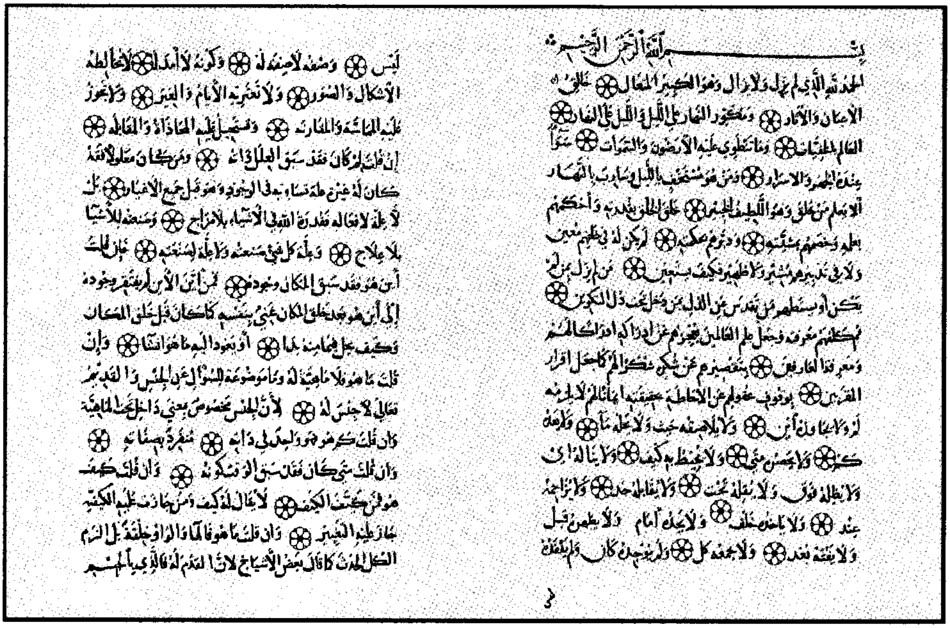
راموز الورقة الأولى للنّسخة (أ)



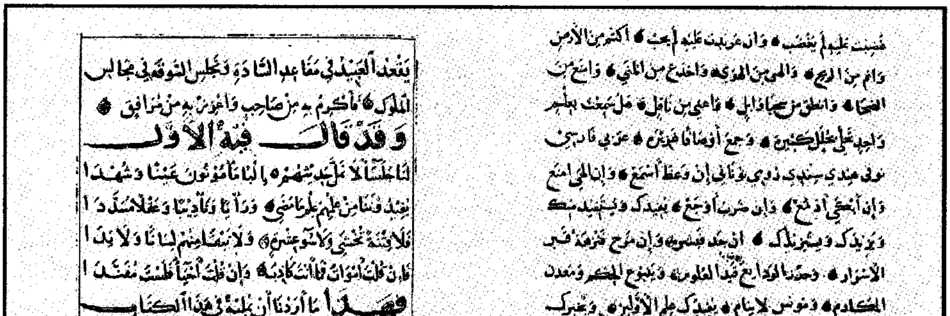
راموز الورقة الأخيرة للنّسخة (أ)



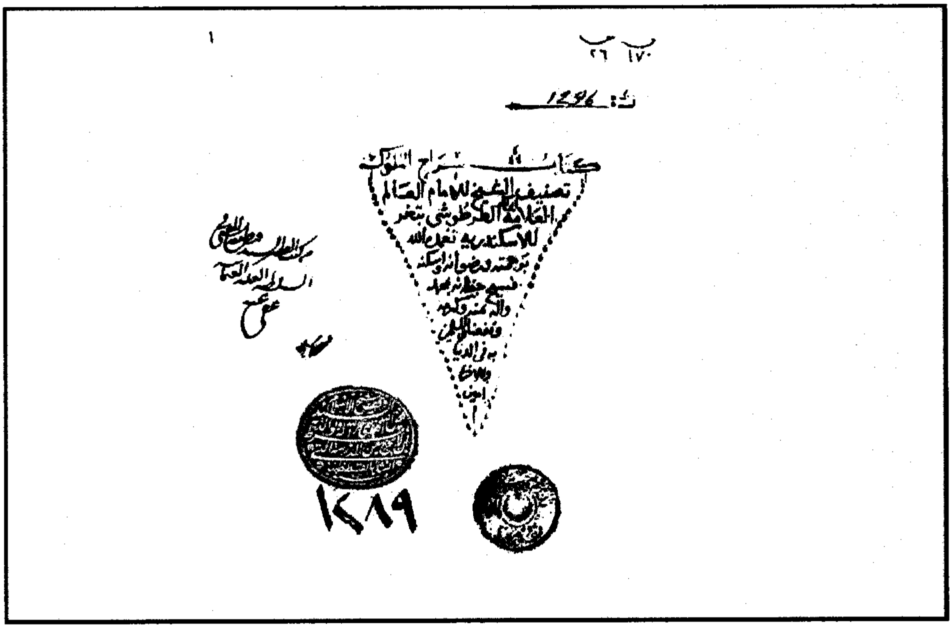
راموز ورقة العنوان للنّسخة (ب)



راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)



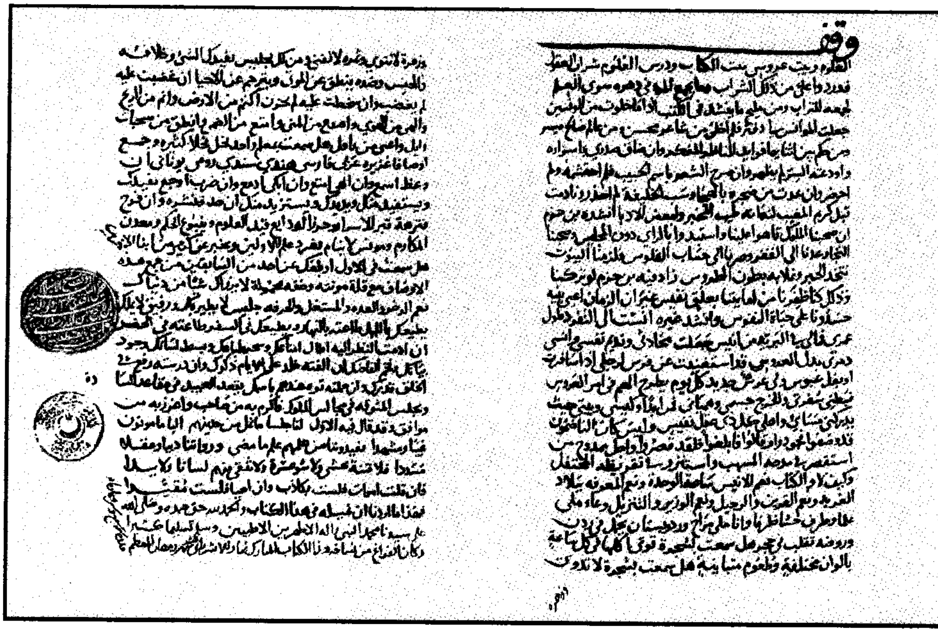
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)



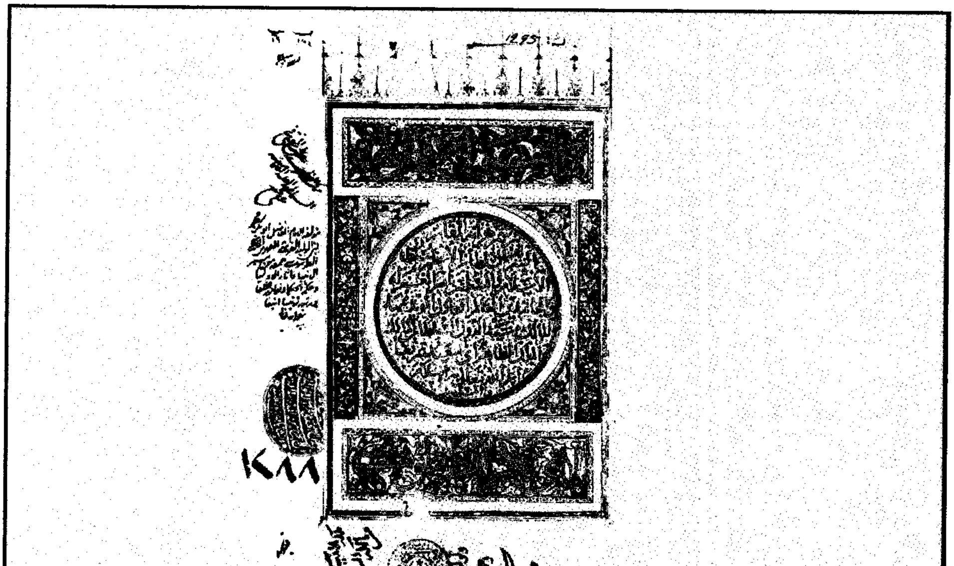
راموز ورقة العنوان للنّسخة (ج)



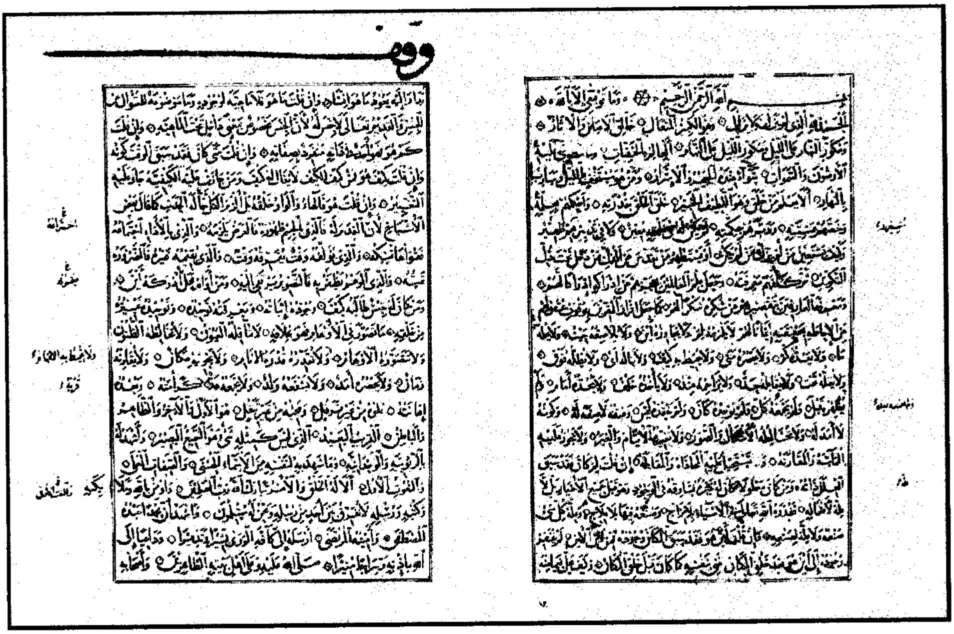
راموز الورقة الأولى للنّسخة (ج)



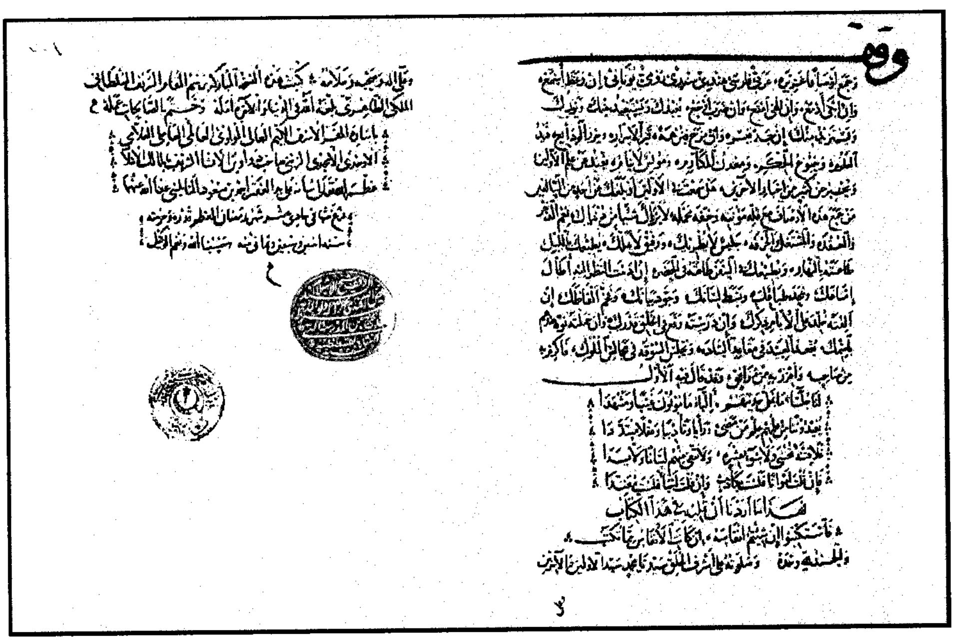
راموز الورقة الأخيرة للنّسخة (ج)



راموز ورقة العنوان للنّسخة (د)



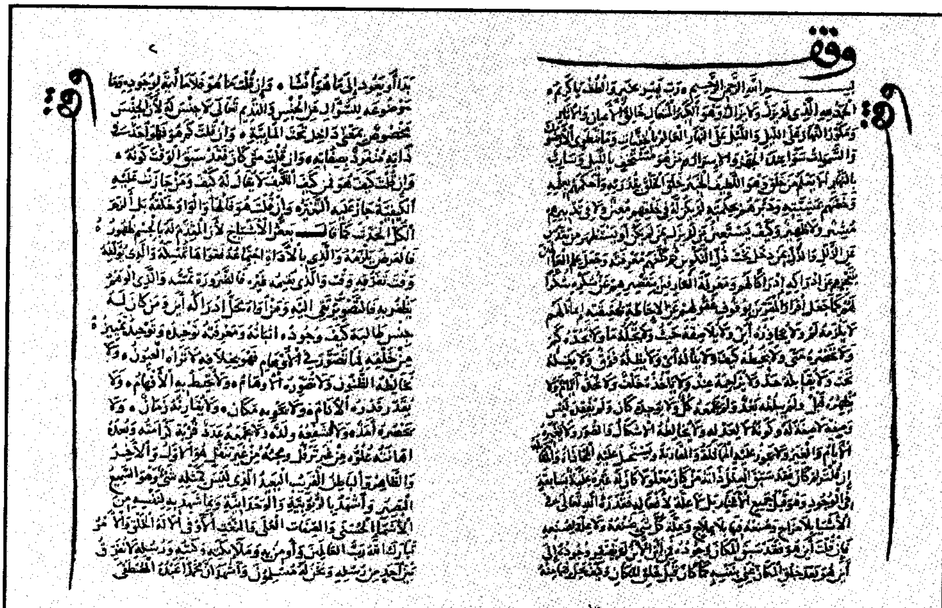
راموز الورقة الأولى للنسخة (د)



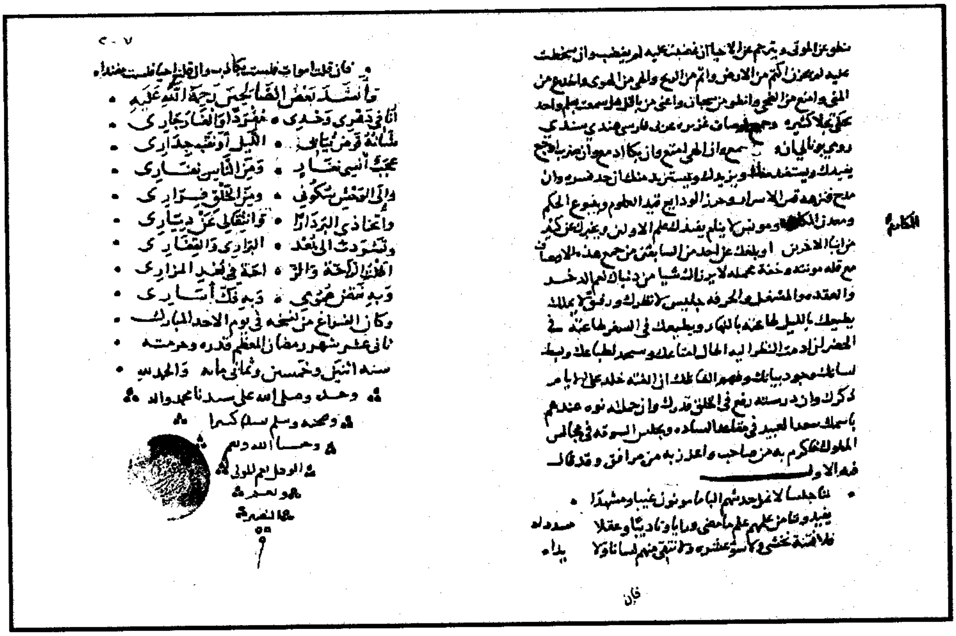
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (د)



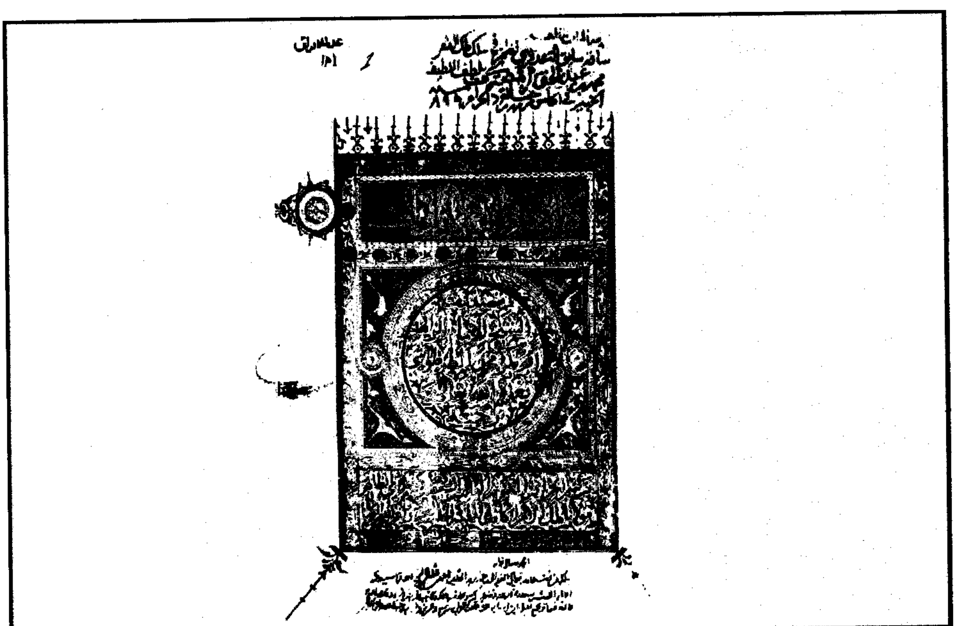
راموز ورقة العنوان للنّسخة (هـ)



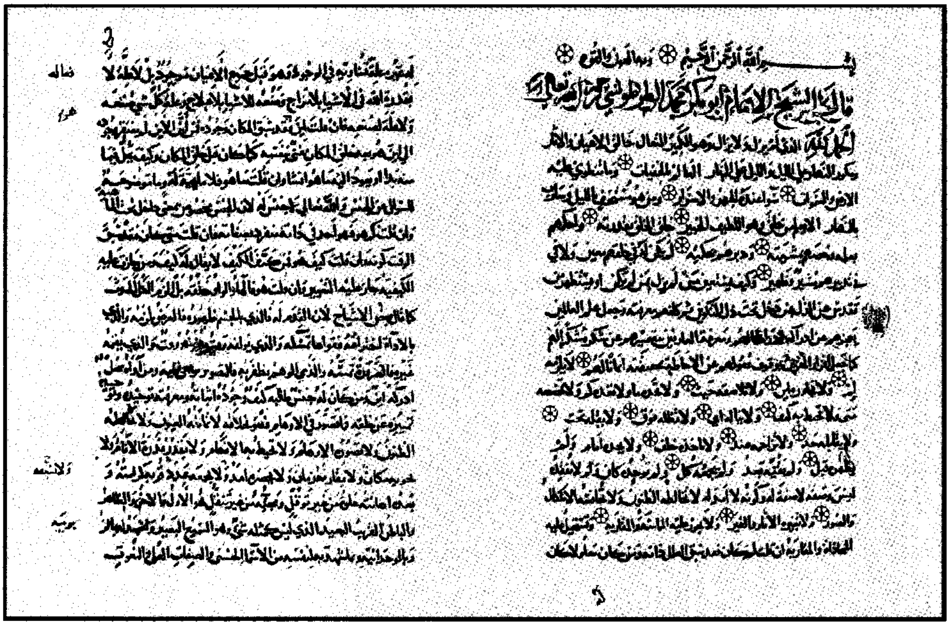
راموز الورقة الأولى للنّسخة (هـ)



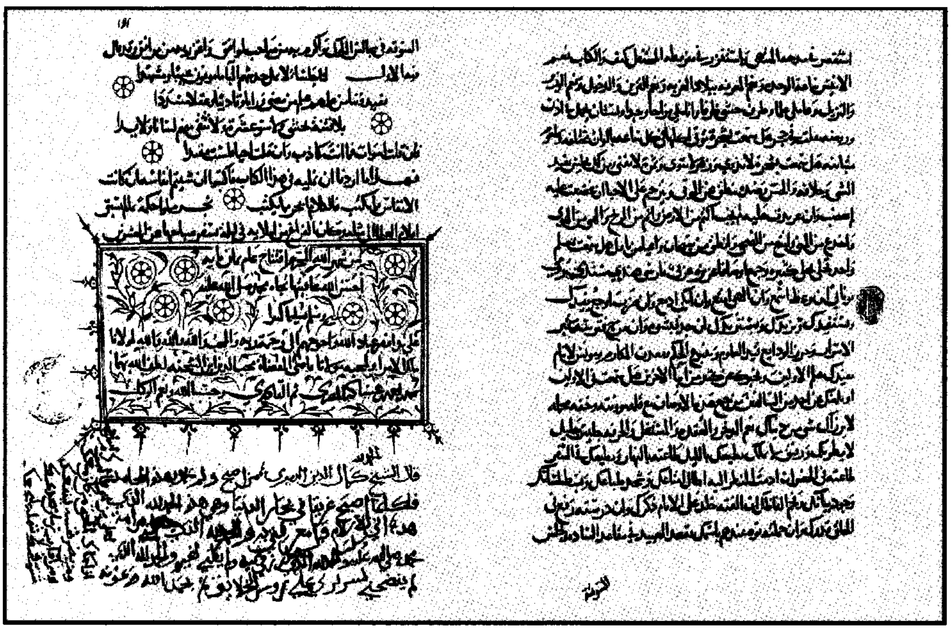
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (هـ)



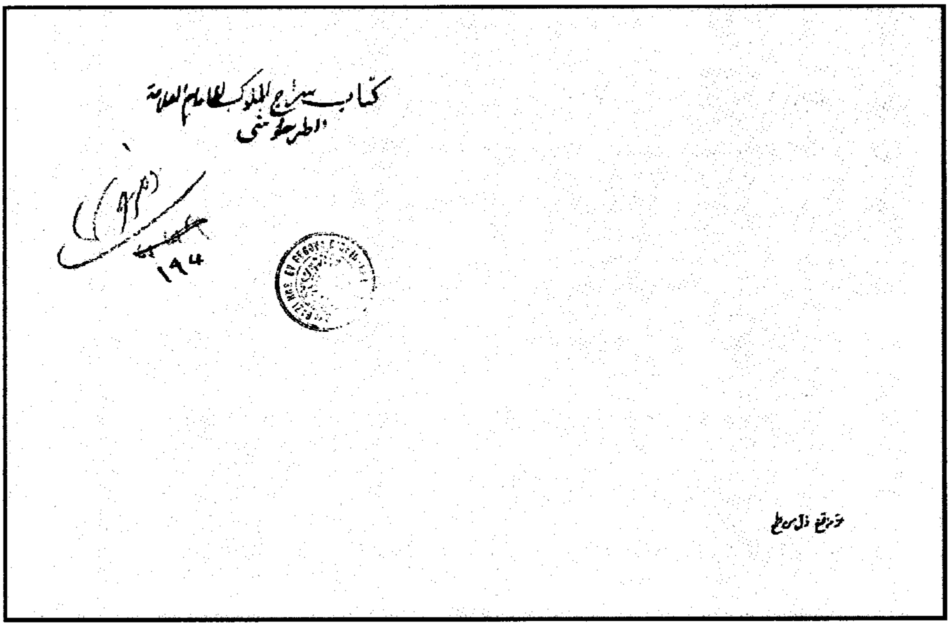
راموز ورقة العنوان للنسخة (و)



راموز الورقة الأولى للنسخة (و)

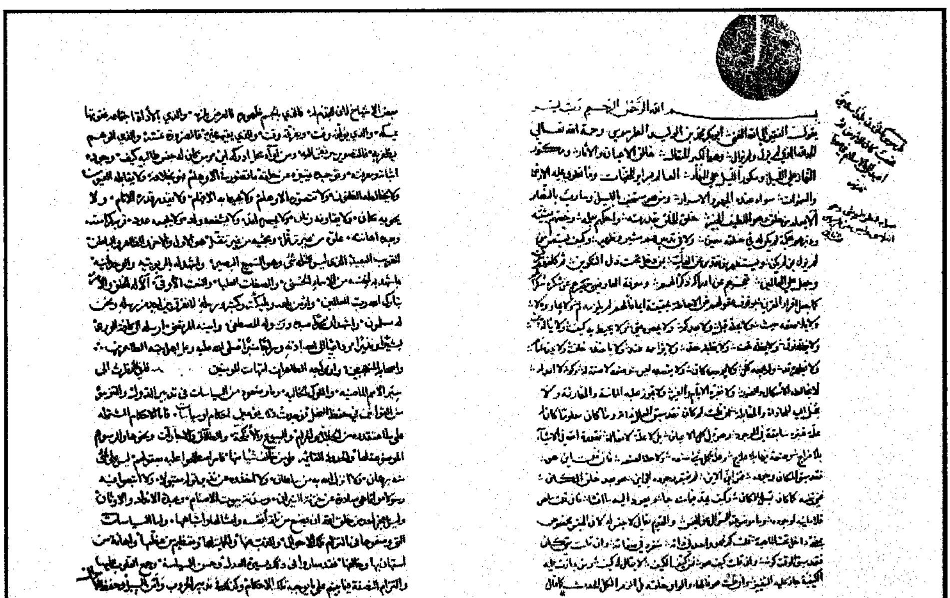


راموز الورقة الأخيرة للنسخة (و)



كتاب سراج الملوك للامام العلامة الطرطوشي

راموز ورقة العنوان للنّسخة (ز)



راموز الورقة الأولى للنّسخة (ز)

سِرَاجُ الملوك

تأليف

الإمام الحافظ الفقيه الأديب

أبي بكر محمد بن الوليد بن محمد الطُّرطوشيّ المالكيّ

رحمه الله تعالى

(٤٥١-٥٢٠هـ)

[خطبة المؤلف]

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه العون والقوة

قال الشيخ الإمام أبو بكر محمد الطُّرطوشي رحمه الله تعالى

الحمد لله الذي لم يَزَلْ ولا يزال ، وهو الكبير المتعال ، خالق الأعيان والآثار ، ومكوِّر النهار على الليل ومكور الليل على النهار ، العالم بالخفيات ، وما تنطوي عليه الأرض والسماوات ، سواء عنده الجهر والإسرار ، ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

خلق الخلق بقدرته ، وأحكمهم بعلمه ، وخصهم بمشيئته ، ودبرهم بحكمته ، لم يكن له في خلقهم معين ، ولا في تدبيرهم مشير ولا ظهير ، وكيف يستعين من لم يزل بمن لم يكن ، أو يستظهر من تقدَّس عن الزلل والذل بمن دخل تحت ذل التكوين ؟!

ثم كلَّفهم معرفتَه ، وجعل علم العالِمين بعجزهم عن إدراكه إدراكاً لهم ، ومعرفةَ العارفين بتقصيرهم عن شكره شكراً لهم ، كما جعل إقرار المُقرين بوقوف عقولهم عن الإحاطة بحقيقته إيماناً لهم .

لا يلزمه (لم) ، ولا يجاوره (أين) ، ولا يلاصقه (حيث) ، ولا يَحُلُّه (ما) ، ولا يَعدُّه (كم) ، ولا يحصره (متىٰ) ، ولا يحيط به (كيف) ، ولا يناله (أيٌّ) ، ولا يُظلُّه (فوق) ولا يُقِلُّه (تحت) ، ولا يقابله (حد) ، ولا يزاحمه (عند) ، ولا يأخذه (خلف) ، ولا يَحُدُّه (أمام) ، ولم يُظهره (قبل) ، ولم يفته (بعد) ، ولم يجمعه (كل) ، ولم يوجده (كان) ، ولم يفقده (ليس) .

وصفه لا صفة له ، وكونه لا أمد له ، ولا تخالطه الأشكال والصور ، ولا تغيره الأيام والغِيَر[1] ، ولا تجوز عليه المماثلة والمقارنة ، وتستحيل عليه المحاذاة والمقابلة .

إن قلت : لِمَ كان ؟

فقد سبق العللَ ذاتُه ، ومن كان معلولاً . . كان له غيرُهُ علَّةً تسابقه في الوجود ، وهو قبل جميع الأعيان موجود ، بل لا عِلَّة لأفعاله ؛ فقدرة الله تعالىٰ في الأشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلَّة كل شيء صنعه ، ولا علَّة لصنعه .

فإن قلت : أين هو ؟

فقد سبق المكانَ وجودُه ، فمَن أيَّنَ الأينَ . . لم يفتقر وجودُه إلىٰ (أين) ، هو بعد خلق المكان غنيٌّ بنفسه كما كان قبل خلق المكان ، وكيف يَحُلُّ فيما منه بدأ ، أو يعود إليه ما هو أنشأ ؟!

وإن قلت : ما هو ؟

فلا ماهية لوجوده ، و(ما) موضوعة للسؤال عن الجنس ، والقديم تعالىٰ لا جنس له ؛ لأنَّ الجنس مخصوص بمعنىً داخل تحت الماهية .

وإن قلت : كم هو ؟

فهو أحدٌ في ذاته ، منفرد بصفاته .

وإن قلت : متىٰ كان ؟

فقد سبق الوقتَ كونُه .

وإن قلت : كيف هو ؟

فمَن كيَّف الكيف[2] . . لا يقال له : (كيف) ، ومن جازت عليه الكيفية . . جاز عليه التغير .

---

(١) الغِيَر : الأحداث والأحوال المتغيرة .

(٢) كيَّف الشيء : جعل له كيفية معلومة .

وإن قلت : ما هو ؟

فالهاء والواو خَلقُه ، بل ألزم الكلَّ الحدثَ كما قال بعض الأشياخ ؛ لأن القدم له ، فالذي بالجسم ظهوره . . فالعَرَض يلزمه ، والذي بالأداة اجتماعه . . فقواها تمسكه ، والذي يؤلِّفه وقت . . يفرِّقه وقت ، والذي يقيمه غيرُه . . فالضرورة تمسُّه ، والذي الوهم يظفر به . . فالتصوير يرتقي إليه ، ومن آواه محل . . أدركه (أين) ، ومن كان له جنس . . طالبه (كيف) .

وجودُه إثباتُه ، ومعرفته توحيده ، وتوحيده تمييزه من خلقه ، فما تُصوِّرَ في الأوهام . . فهو بخلافه ، لا تماثله (١) العيون ، ولا تخالطه الظنون ، ولا تصوره الأوهام ، ولا تحيط به الأفهام ، ولا يقدِّر قَدْرَه الأنام ، ولا يحويه مكان ، ولا يقارنه زمان ، ولا يحصره أمد ، ولا يَشفعه ولد ، ولا يجمعه عدد ، قُربُه كرامته ، وبُعدُه إهانته ، عُلُوُّه من غير ترقُّل (٢) ، ومجيئُه من غير تنقُّل .

هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، القريب البعيد ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وأشهد له بالربوبية وبالوَحدانية ، وبما شهد به لنفسه من الأسماء الحسنىٰ ، والصفات العُلا ، والنعوت الأوفىٰ ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وأُومن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفىٰ ، وأمينه المرتضىٰ ، أرسله إلىٰ كافة الورىٰ ، بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، صلى الله عليه

---

(١) في (ب ، د) : (لا تماقله) ، وفي (ج ، هـ) : (لا تراه) ، وفي (ز) : (لا تقابله) .
(٢) الترقُّل : الصعود .

وعلىٰ أهل بيته الطاهرين ، وأصحابه المنتخبين[1] ، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإني نظرت في سير الأمم الماضية ، والملوك الخالية ، وما وضعوه من السياسات في تدبير الدول ، والتزموه من القوانين في حفظ النحل ، فوجدت ذٰلك نوعين : أحكاماً وسياسات .

فأما الأحكام المشتملة علىٰ ما اعتقدوه من الحلال والحرام ، والبيوع ، والأنكحة ، والطلاق ، والإجارات ، ونحوها ، والرسوم الموضوعة لها ، والحدود القائمة علىٰ من خالف شيئاً منها : فأمرٌ اصطلحوا عليه بعقولهم ليس علىٰ شيء منه برهان ، ولا أنزل الله به من سلطان ، ولا أخذوه عن نذير[2] ، ولا اتبعوا فيه قول رسول ولا جاء به حكيم خبير ، وإنما هي صادرة عن خزنة النيران ، وسدنة بيوت الأصنام وعبدة الأنداد والأوثان[3] ، وليس يَعجِزُ أحد من خلق الله عز وجل الذين أوتوا الألسن المطالة والقرائح النافذة أن يضع من تِلقاء نفسه أمثالَها وأشباهَها .

وأما السياسات التي وضعوها في التزامِ تلك الأحكام ، والذَّبِّ عنها ، والحمايةِ لها ، وتعظيمِ من عظمها ، وإهانةِ من استهان بها وخالفها : فقد ساروا في ذٰلك بسيرة العدل ، وحسنِ السياسة ، وجمعِ القلوب عليها ، والتزامِ النَّصَفة فيما بينهم علىٰ ما توجبه تلك الأحكام .

وكذٰلك في تدبيرِ الحروب ، وأمنِ السُّبُل ، وحفظِ الأموال ، وصونِ الأعراض والحرم . . كلُّ ذٰلك قد ساروا فيه بسيرة جميلة ، لا ينافي العقول شيء منه لو

---

(١) في (ج ، و) : (المنتجبين) .
(٢) في (أ ، ب ، و) : (تدبير) .
(٣) زيد في (أ) : (الذين أوتوا الألسن المستطالة والقرائح النافذة) .

كانت الأصولُ صحيحة ، والقواعدُ واجبة ، فكانوا في حسن سيرتهم بحفظ تلك الأصول الفاسدة كمن زخرف كَنِيفاً[1] ، أو بنىٰ علىٰ ميت قصراً مُنيفاً ، كما قيل[2] : [من الوافر]

وَلَـوْ لَبِـسَ ٱلْحِمَـارُ ثِيَـابَ خَـزٍّ   لَقَـالَ ٱلنَّـاسُ يَـا لَـكَ مِـنْ حِمَـارِ

فجمعتُ محاسنَ ما انطوت عليه سيرهم خاصةً ؛ من ملوك الطوائف ، وحكماء الدول ، فوجدت ذٰلك في ست من الأمم ؛ وهم : العرب ، والفرس ، والروم ، والهند ، والسِّند ، والصين[3] .

فأما ملوك الصين وحكماؤها . . فلم يبلغ إلىٰ أرض العرب من سياساتهم كثير شيء ؛ لبعد الشُّقَّة ، وطول المسافة .

وأما من عدا هٰؤلاء من الأمم . . فلم يكونوا أهل حكم بارعة ، وقرائح نافذة ، وأذهان ثاقبة ، وإنما صدر عنهم الشيء اليسير من الحكمة ، فنظمت ما ألفيت في كتبهم من الحكم البالغة ، والسير المستحسنة ، والكلمة اللطيفة ، والطريقة المألوفة ، والتوقيع الجميل ، والأثر النبيل . . إلىٰ ما رويته وجمعته من سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وآثار الأولياء ، وبراعة العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونوادر الخلفاء ، وما انطوىٰ عليه القرآن العزيز ، الذي هو بحر العلوم ، ويَنبوع الحكم ، ومَعدِن السياسات ، ومغاص الجواهر المكنونات ؛ إن اختَصَرَ . . فلمحةٌ دالة ، وإشارة خفية ، وإن أطال . . فألفاظ بارعة ، وآيات معجزة ، وهو الهادي من الضلالة ، والحاوي لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة .

---

(١) الكَنِيف : مكان قضاء الحاجة .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٤٥) .

(٣) في النسخ جميعاً عدا (و) : (والسند هند) .

ورتبته ترتيباً أنيقاً ، وترجمته تراجم بارعة ، حاوية لمقاصدها ، ناطقة بحكمها ومضمونها ، يَلِجُ الأُذن من غير إذن ، ويَتولَّجُ التأمورَ[1] من غير استئمار ، ألفاظها قوالب لمعانيها ، ليس ألفاظها إلى السمع بأسرع من معانيها إلى القلب .

فانتظم الكتاب بحمد الله وعونه وإحسانه غاية في بابه ، غريباً في فنونه وإنشائه ، خفيف المَحمِل ، كثير الفائدة ، لم تَسبق إلىٰ مثله أقلامُ العلماء ، ولا جالت في نظمه أفكار الفضلاء ، ولا حوته خزائن الملوك والرؤساء ؛ فلا يسمع به ملك إلا استكتبه ، ولا وزير إلا استصحبه ، ولا رئيس إلا استحسنه واستوسده .

عصمةٌ لمن عَمِل به من الملوك وأهل الرِّياسة ، وجُنَّةٌ لمن تحصَّن به من أولي الإمرة والسياسة ، وجمالٌ لمن تحلىٰ به من أهل الآداب والمحاضرة ، وعنوانٌ لمن فاوضَ به من أهل المجالسة والمذاكرة .

وسميته :

« سراج الملوك »

يستغني الحكيمُ بدراسته عن مباحثة الحكماء ، والملكُ عن مشاورة الوزراء .

* * *

واعلموا وفقكم الله : أنَّ أحقَّ من أُهديت إليه الحِكَم ، وأُوصلت إليه النصائح ، وحُملت إليه العلوم . . من آتاه الله سبحانه سلطاناً ، فَنَفَذَ في الخلق حكمه ، وجاز عليهم قوله .

ولمَّا رأيت الأَجلَّ المأمون ، تاجَ الخلافة ، عزَّ الإسلام ، فخرَ الأنام ، نظامَ الدين ، أبا عبد الله ، محمداً الآمري ـ أدام الله لإعزاز الدين نصره ، وأنفذ في

(١) التأمور : القلب ، ويقال بالهمز وعدمه .

العالمين بالحق أمره ، وأوزع كافة الخلق شكره ، وكفاهم فيه محذوره وضره ـ قد تفضل الله تعالىٰ به على المسلمين ، فبسط فيهم يده ، ونشر في مصالح أحوالهم كلمته ، وعَرَفَ الخاصُّ والعامُّ يمنَه وبركتَه ، وتقلد أمر الرعية ، وسار فيهم علىٰ أحسن القضية ، متحرياً للصواب ، راغباً في الثواب ، طالباً سبل العدل ، ومناهج الإنصاف والفضل . . رغبتُ أن أخصه بهٰذا الكتاب ؛ رجاء لطف الله تعالىٰ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ (١) ، ولِتُذكرَ به فضائلُه ومحاسنُه ما بقي الدهر ، كما قيل (٢) : [من السريع]

اَلنَّـاسُ يُهْـدُونَ عَلَـىٰ قَدْرِهِـمْ ... لَـٰكِنَّنِي أُهْـدِي عَلَـىٰ قَـدْرِي
يُهْـدُونَ مَـا يَفْنَـىٰ وَأُهْـدِي ٱلَّـذِي ... يَبْقَـىٰ عَلَـى ٱلْأَيَّـامِ وَٱلدَّهْـرِ

فإن العلمَ عصمةُ الملوك والأمراء ، ومعقلُ السلاطين والوزراء ؛ لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم إلى الحِلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ؛ فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته ، ويستبطنوا أهله .

❊ ❊ ❊

وهٰذه أبواب الكتاب ، وجملتها أربعة وستون باباً :

الباب الأول : في مواعظ الملوك .

الباب الثاني : في مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين .

الباب الثالث : فيما جاء في الولاة والقضاة ، وما في ذٰلك من الغَرَر والخَطَر .

الباب الرابع : في معرفة مُلك سليمان بن داوود عليهما السلام ، ووجه طلبه للملك ، وسؤاله ألَّا يُؤتاه أحد من بعده .

---

(١) سورة آل عمران : (٣٠) .

(٢) أورد البيتين في « نفح الطيب » (٨٩/٢) للمؤلف رحمه الله تعالىٰ .

الباب الخامس : في فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا .

الباب السادس : في أن السلطان مع رعيته مغبون غير غابن ، وخاسر غير رابح .

الباب السابع : في بيان الحكمة في كون السلطان في الأرض .

الباب الثامن : في منافع السلطان ومضاره .

الباب التاسع : في معرفة منزلة السلطان من الرعية .

الباب العاشر : في معرفة خصالٍ وردَ الشرع بها ، فيها نظام الملك والدول .

الباب الحادي عشر : في معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ، ولا ثبات له دونها .

الباب الثاني عشر : في معرفة الخصال التي زعم الملوك أنها أزالت دولتهم وهدمت سلطانهم .

الباب الثالث عشر : في معرفة الصفات التي زعم الحكماء أنها لا تدوم معها مملكة .

الباب الرابع عشر : في الخصال المحمودة في السلطان .

الباب الخامس عشر : في معرفة الخصال التي يُعَزُّ بها السلطان .

الباب السادس عشر : في معرفة الخصال التي هي مِلاك أمور السلطان .

الباب السابع عشر : في معرفة خير السلطان وشر السلطان .

الباب الثامن عشر : في معرفة منزلة السلطان من القرآن .

الباب التاسع عشر : في معرفة خصال جامعة لأمر السلطان .

الباب العشرون : في معرفة الخصال التي هي أركان السلطان .

الباب الحادي والعشرون : في بيان حاجة السلطان إلى العلم .

الباب التاسع والثلاثون : في مثل السلطان العادل والجائر .

الباب الأربعون : فيما يجب على الرعية إذا جار السلطان .

الباب الحادي والأربعون : في « كما تكونون يُولَّىٰ عليكم » .

الباب الثاني والأربعون : في بيان الخصلة التي تصلح بها الرعية .

الباب الثالث والأربعون : فيما يملك السلطان من الرعية .

الباب الرابع والأربعون : في التحذير من صحبة السلطان .

الباب الخامس والأربعون : في صحبة السلطان .

الباب السادس والأربعون : في سيرة السلطان مع الجند .

الباب السابع والأربعون : في سيرة السلطان في استجباء الخراج .

الباب الثامن والأربعون : في سيرة السلطان في بيت المال .

الباب التاسع والأربعون : في سيرة السلطان في الإنفاق من بيت المال .

الباب الخمسون : في سيرة السلطان في تدوين الدواوين ، وفرض الأرزاق ، وسيرة العمال .

الباب الحادي والخمسون : في أحكام أهل الذمة .

الباب الثاني والخمسون : في بيان الصفات المعتبرة في الولاة .

الباب الثالث والخمسون : في بيان الشروط والعهود التي تؤخذ على العمال .

الباب الرابع والخمسون : في هدايا العمال ، والرِّشا على الشفاعات .

الباب الخامس والخمسون : في معرفة حسن الخلق .

الباب السادس والخمسون : في الظلم وشؤمه ، وسوء عاقبته .

الباب السابع والخمسون : في تحريم السعاية والنميمة وقبحهما ، وما يؤول إليه أمرهما من الأفعال الرديئة والعواقب الذميمة .

❋ ❋ ❋

الباب الأوّل

في مواعظ الملوك

لقد خاب وخسر من كان حظه من الله الدنيا

اعلمْ أيها الرجلُ ـ وكلُّنا ذلك الرجل ـ : أنَّ عقولَ الملوكِ وإن كانت كِباراً إلا أنها مستغرِقةٌ بكثرةِ الأشغال ، فتستدعي مِن الموعظةِ ما يتولجُ على تلك الأفكارِ ، ويتغلغلُ في مكامنِ تلك الأسرارِ ، فترفع تلك الأستار ، وتفك تلك الأكنَّةَ والأقفال ، وتَصقُل ذلك الصَّدَأَ والرَّان .

قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [(١)] ، فوصف الله تعالىٰ جميع الدنيا بأنها متاع قليل ، وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من ذلك القليل إلا قليلاً ، ثم ذلك القليل : إن تمتعت به ولم تعص الله فيه . . فهو لهو ولعب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [(٢)] ، ثم قال : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [(٣)] .

فلا تبتع أيها العاقل لعباً قليلاً يفنىٰ بحياة الأبد حياةٍ لا تفنىٰ ، وشبابٍ لا يبلىٰ ، كما قال الفضيل رحمه الله : (لو كانت الدنيا ذهباً يفنىٰ ، وكانت الآخرة خزفاً يبقىٰ . . لوجب أن نختار خزفاً يبقىٰ ، علىٰ ذهب يفنىٰ ، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنىٰ ، علىٰ ذهب يبقىٰ ؟!) [(٤)] .

تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما آتىٰ سليمان بن داوود عليهما

---

(١) سورة النساء : (٧٧) .

(٢) سورة الحديد : (٢٠) .

(٣) سورة العنكبوت : (٦٤) .

(٤) عزاه في « إتحاف السادة المتقين » (٩٢/٨) لأبي نعيم في « الحلية » .

السلام ؟! حيث آتاه ملك جميع الدنيا والإنس والجن والطير والوحش ، والريحُ تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب[1] ، ثم زاده الله ما هو أعظم منها فقال له تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[2] ، فوالله ؛ ما عدَّها نعمةً كما عددتموها ، ولا حَسِبها رِفعةً ومنزلةً كما حسبتموها ، بل قال عند ذٰلك : ﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ ﴾[3] ، وهٰذا فصل الخطاب لمن تدبره أن يقول له ربه في معرض المِنَّة : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[4] ، ثم خاف سليمان عليه السلام أن يكون ذٰلك استدراجاً من حيث لا يعلم .

❁ ❁ ❁

هٰذا ؛ وقد قال لك ولسائر أهل الدنيا : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[5] ، وقال : ﴿ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[6] .

تأمل بعقلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَوْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ ٱللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ . . مَا سَقَىٰ كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »[7] .

وألق سمعك إلىٰ ما نزل به جبريل عليه السلام من عند الله تعالىٰ علىٰ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فقال له : يا محمد ؛ إن الله يقول لك : (عِشْ مَا شِئْتَ ؛ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ ؛ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ ، وَٱعْمَلْ مَا شِئْتَ ؛ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ)[8] ، فانظر إلىٰ ما اشتملت عليه هٰذه الكلمات ؛ مِن صرعةِ الموت ،

---

(١) رُخاء حيث أصاب : ليِّنة أو منقادة حيث أراد .

(٢) سورة صٓ : (٣٩) .

(٣) سورة النمل : (٤٠) .

(٤) سورة صٓ : (٣٩) .

(٥) سورة الحجر : (٩٢ ـ ٩٣) .

(٦) سورة الأنبياء : (٤٧) .

(٧) رواه الترمذي (٢٣٢٠) ، والحاكم (٣٠٦/٤) عن سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنهما .

(٨) رواه الحاكم (٣٢٥/٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) عن سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنهما .

وفراقِ الأحبة ، والجزاءِ على الأعمال ، فلو لم ينزل من السماء غيرها . . لكانت كافية .

ثم انظر بفهمك إلىٰ ما رواه الحسن رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم مَرَّ بمنزل قوم قد ارتحلوا عنه ؛ وإذا طَلاً مطروحٌ ، فقال : « أَتَرَوْنَ هَـٰذَا هَانَ عَلَىٰ أَهْلِهِ ؟! » ، فقالوا : مِن هوانِه عليهم ألقَوْه ، قال : « فَوَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى ٱللهِ مِنْ هَـٰذَا عَلَىٰ أَهْلِهِ »[1] ، فجعل الدنيا أهون على الله من الجِيفة المطروحة .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُرِيكَ ٱلدُّنْيَا جَمِيعاً بِمَا فِيهَا ؟ » قلت : بلىٰ يا رسول الله ، قال : فأخذ بيدي ، وأتىٰ بي إلىٰ واد من أودية المدينة ؛ فإذا مزبلةٌ فيها رؤوسُ الناس ، وعَذِراتٌ ، وخِرَقٌ بالية ، وعظامُ البهائم ، ثم قال : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؛ هَـٰذِهِ ٱلرُّؤُوسُ كَانَتْ تَحْرِصُ عَلَى ٱلدُّنْيَا حِرْصَكُمْ ، وَتَأْمُلُ آمَالَكُمْ ، ثُمَّ هِيَ ٱلْيَوْمَ تَسَّاقَطُ جِلْداً بِلَا عَظْمٍ ، ثُمَّ هِيَ صَائِرَةٌ رَمَاداً رِمْدِداً ، وَهَـٰذِهِ ٱلْعَذِرَاتُ أَلْوَانُ أَطْعِمَتِهِمُ ، ٱكْتَسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ ٱكْتَسَبُوهَا ، وَقَذَفُوهَا فِي بُطُونِهِمْ ، ثُمَّ أَصْبَحَتْ وَٱلنَّاسُ يَتَحَامَوْنَهَا ، وَهَـٰذِهِ ٱلْخِرَقُ ٱلْبَالِيَةُ رِيَاشُهُمْ وَلِبَاسُهُمْ ، فَأَصْبَحَتْ وَٱلرِّيَاحُ تَصْفِقُهَا ، وَهَـٰذِهِ ٱلْعِظَامُ عِظَامُ دَوَابِّهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا يَرْكَبُونَهَا وَيَنْتَجِعُونَ عَلَيْهَا أَطْرَافَ ٱلْبِلَادِ ، فَمَنْ كَانَ بَاكِياً عَلَى ٱلدُّنْيَا . . فَلْيَبْكِ عَلَىٰ نَفْسِهِ »[2] ، قال : فما بَرِحنا حتى اشتد بكاؤنا .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢١) ، وابن ماجه (٤١١٠) عن سيدنا المستورد بن شداد رضي الله عنهما ، والطلا : ولد الظبية .

(٢) أورده الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/١٧) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٨/٨٤) : (قال العراقي : لم أجد له أصلاً ، قلت : لكن أورده صاحب « القوت » عن الحسن مرسلاً) ، وأورده الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (٥٠) ، والرِّمدِد : المتناهي في الاحتراق والدقة .

ببعض جسدي ، فقال : « يَا عَبْدَ ٱللهِ ؛ كُنْ فِي ٱلدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَٱعْدُدْ نَفْسَكَ فِي ٱلْمَوْتَىٰ »[١] .

يا أيها الرجل ؛ إن كنت لا تدري متىٰ يفجؤك الأجل . . فلا تغترَّ بطول الأمل ؛ فإنه يقسي القلب ويفسد العمل ، وقد عَيَّر اللهُ أقواماً مَدَّ لهم في الأجل ، فقست منهم القلوبُ وطال منهم الأمل ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[٢] .

وأنشد بعضهم[٣] : [من البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِٱلْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ ٱلْقَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ ٱللَّيَالِي فَٱغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوِ ٱللَّيَالِي يَحْدُثُ ٱلْكَدَرُ

يا أيها الرجل ؛ أَلْقِ إليَّ سمعَك ، وأَعِرْني لُبَّك[٤] : [من الطويل]

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي مَتَى ٱلْمَوْتُ فَٱعْلَمَنْ ... بِأَنَّكَ لَا تَبْقَىٰ إِلَىٰ آخِرِ ٱلدَّهْرِ

❁ ❁ ❁

ابنَ آدم ؛ أين آدمُ أبو الأولين والآخرين ؟! أين نوحٌ شيخُ المرسلين ؟! أين إدريسُ رفيعُ رب العالمين ؟! أين إبراهيم خليل الرحمـٰن ؟! أين موسى الكليم من بين سائر النبيين والمرسلين ؟! أين عيسىٰ روح الله وكلمته رأس الزاهدين وإمام السائحين ؟! أين محمدٌ خاتم النبيين ، وحبيب رب العالمين ؟![٥] أين أصحابه الأبرار المنتخبون ؟![٦] .

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦) .
(٢) سورة الحديد : (١٦) .
(٣) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٥٣٦) .
(٤) أورده في « المستطرف » (٣٥٢/٣) .
(٥) زيد في (أ) بعد أسماء الأنبياء قوله : (عليه السلام) ، وبعد محمد : (صلى الله عليه وسلم) .
(٦) في (ج ، د) : (المنتجبون) .

أين الأمم الماضية ؟! أين الملوك السالفة ؟! أين القرون الخالية ؟! أين الذين نُصبت علىٰ مفارقهم التيجان ؟! أين الذين قهروا الأبطال والشجعان ؟! أين أصحاب الحفدة والأعوان ؟! أين الذين اغتروا بالأجناد والسلطان ؟! أين أصحاب السطوة والأعوان ؟! أين أصحاب الإمرة والولايات ؟! أين الذين خفقت علىٰ رؤوسهم الألوية والرايات ؟!

أين الذين قادوا الجيوش والعساكر ؟! أين الذين عَمَروا القصور والدَّساكر ؟![1] أين الذين أُعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف ؟! أين الذين أَمَّنوا بسطوتهم كلَّ خائف ؟! أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب ؟! أين الذين تمتعوا باللذات والمآرب ؟! أين الذين تاهوا على الخلائق كِبراً وعِتِيّاً ؟! أين الذين راحوا في الحُلل بُكرة وعشياً ؟! أين الذين استلانوا الملابس أثاثاً ورِيّاً ؟! وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورِئياً ؟![2] .

أين الذين ملؤوا ما بين الخافِقَيْنِ فخراً وعِزّاً ؟![3] أين الذين فَرَشوا القصور خَزّاً وبَزّاً ؟![4] أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبةً وهزّاً ؟! أين الذين استذلوا العباد قهراً ولَزّاً ؟![5] هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً ؟![6] .

أفناهم واللهِ مفني الأمم ، وأبادهم مبيد الرِّمَم ، وأخرجهم من سَعة القصور ، وأسكنهم في ضيق القبور ، تحت الجنادل والصخور ، فأصبحوا لا ترىٰ إلا مساكنهم ، فعاث الدودُ في أجسامهم ، واتخذ مقيلاً في أبدانهم ، فسالت تلك العيون على الخدود ، وامتلأت تلك الأفواه بالدود ، وتساقطت الأعضاء وتمزقت

---

(١) الدَّساكر : جمع دَسْكرة ؛ وهي بناء كالقصر ، حوله بيوت للأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي .

(٢) أثاثاً : الأثاث يطلق علىٰ متاع البيت من الفراش ونحوه ، وعلى الثياب وغيرها ، والرِّئيُ والرِّيُّ : حسن المنظر في البهاء والجمال والهيئة ، وفي (د ، و) : (ورديّاً) .

(٣) الخافقان : المشرق والمغرب .

(٤) الخَزُّ من الثياب : ما يُنسج من صوف وحرير ، أو ما يُنسج من حرير خالص ، والبَزُّ : نوع من الثياب .

(٥) اللزُّ : الشدة .

(٦) الرِّكز : الصوت الخفي .

الجلود ، وتناثرت اللحوم ، وتقطعت البطون ، فلم ينفعهم ما جمعوا ، ولا أغنىٰ عنهم ما كَسَبوا .

كيف بك إذا أسلمك الأحبة والأولياء ، وهجرك الإخوان والأصفياء ، ونسيك القرباء والبعداء ؟! فأمسيت بعد النطق أخرس ، ولو نطقت . . لأنشدت قولنا عن سكان الثرىٰ ، ورهائن التُّرب والبِلىٰ[1] : [من الوافر]

مُقِيمٌ بِٱلْحَجُونِ رَهِينَ رَمْسٍ ... وَأَهْلِي رَائِحُونَ بِكُلِّ وَادِ
كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ لَهُمُ حَبِيباً ... وَلَا كَانُوا ٱلْأَحِبَّةَ فِي ٱلسَّوَادِ
فَعُوجُوا لِلسَّلَامِ فَإِنْ أَبَيْتُمْ ... فَأَوْمُوا بِٱلسَّلَامِ عَلَىٰ بِعَادِ
فَإِنْ طَالَ ٱلْمَدَىٰ وَصَفَا خَلِيلٌ ... سِوَانَا فَٱذْكُرُوا صَفْوَ ٱلْوِدَادِ[2]
وَذَاكَ أَقَلُّ مَا لَكَ مِنْ حَبِيبٍ ... وَآخِرُه إِلَىٰ يَوْمِ ٱلتَّنَادِ
فَلَوْ أَنَّا بِمَوْقِفِكُمْ وَقَفْنَا ... سَقَيْنَا ٱلتُّرْبَ مِنْ مُهَجِ ٱلْفُؤَادِ

وقال مُكرمُ بنُ يوسفَ العابدُ : (أوحى الله تعالىٰ إلىٰ نبي من أنبياء بني إسرائيل : أن قف علىٰ أهل المدائن والحصون ، وأبلغهم عني حرفين : لا تأكلوا إلا طيباً ، ولا تتكلموا إلا بالحق)[3] .

ولمَّا دخل يزيدُ الرَّقاشيُّ علىٰ عمر بن عبد العزيز . . قال له : (عِظْني يا يزيد ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ اعلم أنك أول خليفة يموت ، فبكىٰ عمر وقال : زدني يا يزيد ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ ليس بينك وبين آدم إلا أب ميت ، فبكىٰ وقال : زدني يا يزيد ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ ليس بين الجنة والنار منزل ، فسقط عمر مغشياً عليه)[4] .

---

(١) أورد الأبيات الأربعة الأولىٰ في « المستطرف » (٣/٣٥٣) .
(٢) في (أ) : (سوانا فاذكرونا بالوداد) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٤٨١) .
(٤) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥١) ، وأورده الغزالي في « الإحياء » (٧/٦١٤) ، وفيه : (لست أول خليفة . . .) .

يـــا أيها الرجل ؛ **لا** تَغفُلــنَّ عن تذكر ما تتيقنه من خـــوف الفناء ، وتقضِّي المســـار ، وذهاب اللـــذات ، وانقضاء الشـــهوات ، وبقاء التبعـــات ، وانقلابها حسرات .

وإن الدنيا دارُ من لا دار له ، ومالُ من لا مال له ، **ولها يجمع** من لا عقل له ، **وعليها يعادي** من لا علم له ، **وعليها يحسد** من لا فقه له ، من **صحَّ فيها** . . سَقِم ، ومن **سلم فيها** . . هَرِم ، ومن **افتقر فيها** . . حزن ، ومن **استغنىٰ فيها** . . فُتن ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، ومتشابهها عتاب ، من **سعىٰ لها** . . فاتته ، ومن **قعد عنها** . . أتته ، ومن **نظر إليها** . . أعمته ، ومن **نظر فيها** . . بصرته ، **لا خيرها** يدوم ، **ولا شرها** يبقىٰ ، **ولا فيها** لمخلوق بقاء .

يا أيها الرجل ؛ **لا تُخدَعن** كما خدع من قبلك ؛ **فإن الذي** أصبحت فيه من النعم إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك مثلما صار إليك ، **فلو بقيت الدنيا للعالِم** . . لم تصر للجاهل ، **ولو بقيت للأول** . . لم تنتقل للآخِر .

يا أيها الرجل ؛ لو كانت الدنيا كلها ذهباً وفضة ، ثم سَلَّمت عليك بالخلافة ، وألقت إليك مقاليدَها وأفلاذَ كبدها ، ثم كنت طريدة للموت . . ما كان ينبغي لك أن تتهنأ بعيش .

ولا فخر فيما يزول ، **ولا غناء** فيما لا يبقىٰ ، **وهل الدنيا** إلا كما قال الأول : (قِدْرٌ تغلي ، وكَنِيفٌ يُملأ ؟!) وكما قال الشاعر [1] : [من الكامل]

وَلَقَـدْ سَـأَلْتُ ٱلـدَّارَ عَـنْ أَخْبَارِهِـمْ فَتَبَسَّـــمَتْ عَجَبـــاً وَلَـــمْ تُبْـــدِ
حَتَّىٰ مَرَرْتُ عَلَى ٱلْكَنِيفِ فَقَالَ لِي أَمْوَالُهُـــمْ وَنَوَالُهُـــمْ عِنْـــدِي
مَـنْ كَانَ لَا يَطَـأُ ٱلتُّـرَابَ بِرِجْلِـهِ وَطِـئَ ٱلتُّـرَابَ بِنَاعِـمِ ٱلْخَـدِّ

---

(١) أورد البيتين الأولين في « المستطرف » (٣/٣٥٣) دون نسبة ، والبيت الأخير من قول سيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٠٣) .

ولقد أصاب ابن السَّمَّاك لمَّا قال له الرشيد : (عظني يا بن السَّمَّاك وبيده شَربة من ماء ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أرأيت لو حُبست عنك هـٰذه الشَّربة . . أكنت تَفديها بملكك ؟ قال : نعم ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ فلو حبس عنك خروجها . . أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ فلا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة)(١) .

يا أيها الشاب ؛ لا تغتر بشبابك ، فإن أكثر من يموت الشبابُ ، والدليل عليه : أنَّ أقلَّ الناس الشيوخ .

يا أيها الشاب ؛ كم من حَمَلٍ في التَّنُّور وأبوه يرعىٰ ، وكم من طفل في التراب وجدُّه يحيا .

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأُسقُفٍّ من نجران قد أسلم : (عِظني ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن كان الله عليك . . فمن ترجو ؟! قال : أحسنت ، زدني ، قال : إن كان الله معك . . فمن تخاف ؟! قال : أحسنت ، فزدني ، قال : هَبْ أن الله قد غفر ذنب المذنبين ، أليس قد فاتهم ثواب المحسنين ؟! قال : حسبي حسبي) ، وبكىٰ علي رضي الله تعالىٰ عنه أربعين صباحاً .

وقال الحسن : (قدم صَعْصَعة ـ يعني : عمَّ الفرزدق ـ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمعه يقرأ : ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾(٢) ، فقال : حسبي حسبي ، لا أبالي ألَّا أسمع آية غيرها)(٣) .

وقال سليمان بن عبد الملك لحميد الطويل : (عظني ، فقال : إن كنت إذا

---

(١) رواه الطبري بنحوه في « تاريخه » (٨/٣٥٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٧٧٦) ، وأورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٣/١٦٤) .
(٢) سورة الزلزلة : (٧ ـ ٨) .
(٣) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١١٦٣٠) ، والحاكم (٣/٦١٣) .

عصيت الله تعالىٰ ظننت أنه يراك . . فلقد اجترأت علىٰ رب[1] عظيم ، وإن كنت تظن أنه لا يراك . . فلقد كفرت برب كريم)[2] .

وكتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلىٰ سلمان الفارسي رضي الله عنه : (إنما مثل الدنيا كمثل الحية ؛ لَيِّنٌ مَسُّها ، ويقتل سمُّها ، فأعرضْ عنها وعمَّا يعجبك منها ؛ لقلة ما يصحبك بعد الموت منها ، ودع عنك همومها ؛ لما تيقنت من فراقها ، وكن أسرَّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها ؛ فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلىٰ سرور . . أشخص منها إلىٰ مكروه)[3] .

وقال أبو العتاهية[4] : [من المتقارب]

هِيَ ٱلدَّارُ دَارُ ٱلْأَذَىٰ وَٱلْقَذَىٰ ... وَدَارُ ٱلْفَنَاءِ وَدَارُ ٱلْغِيَرْ

وَلَوْ نِلْتَهَا بِحَذَافِيرِهَا ... لَمُتَّ وَلَمْ تَقْضِ مِنْهَا ٱلْوَطَرْ

أَيَا مَنْ يُؤَمِّلُ طُولَ ٱلْحَيَاةِ ... وَطُولُ ٱلْحَيَاةِ عَلَيْهِ ضَرَرْ

إِذَا مَا كَبِرْتَ وَبَانَ ٱلشَّبَابُ ... فَلَا خَيْرَ فِي ٱلْعَيْشِ بَعْدَ ٱلْكِبَرْ

ولمَّا بلغَ مَزْدَك من الدنيا أفضلَ ما سمت إليه نفسه ، ورَقَتْ إليه هِمتُه . . رفضها ونبذها ، وقال : (هـٰذا سرورٌ لولا أنه غرور ، ونعيمٌ لولا أنه عديم ، ومُلك لولا أنه هُلك ، وغَناءٌ لولا أنه فناء ، وجسيمٌ لولا أنه ذميم ، ومحمودٌ لولا أنه مفقود ، وغِنىً لولا أنه مُنىً ، وارتفاعٌ لولا أنه اتِّضاع ، وعلاءٌ لولا أنه بلاء ، وحسنٌ لولا أنه حزن ، وهو نَقد لولا أنه فَقد ، وهو يومٌ لو وُثِقَ له بغد)[5] .

---

(١) في (ب ، د ، هـ) : (ذنب) .
(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (٩٢/٤) ، وفيه : (دخل حميد الطويل علىٰ سليمان بن علي والي البصرة) .
(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٤٢) ، وابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٦٤) .
(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٦١ ـ ١٦٢) .
(٥) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ١٨٢ ـ ١٨٣) .

يا أيها الرجل ؛ لا تكن كالمُنخُل يُرسلُ أطيبَ ما فيه ، ويمسك الحُثالَة .

* * *

واعلم : أن من قسا قلبه . . لا يقبل الحقَّ وإن كثرت دلائلُه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (١) .

وذٰلك : أن كثرةَ الذنوب مانعةٌ من قَبول القلوب الحقَّ ، وولوجِ المواعظ فيها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) أي : غطَّىٰ عليها وغَشِيها ؛ فلا تقبل خيراً ، ولا تَصِيخُ لموعظة .

جاء في الخبر : « إِذَا أَذْنَبَ ٱلْعَبْدُ . . نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، ثُمَّ إِنْ أَذْنَبَ . . نُكِتَتْ نُكْتَةٌ حَتَّىٰ يَسْوَدَّ ٱلْقَلْبُ كُلُّهُ وَيَعْلُوَهُ الرَّانُ » (٣) .

وقال حذيفة : (القلب كالكف ؛ فإذا أذنب العبد . . انقبض ـ وقَبَض إصبعاً ـ ثم إذا أذنب . . انقبض ـ وقبض إصبعاً أخرىٰ ـ ثم كذٰلك في الثالث والرابع حتىٰ ينقبض الكفُّ كلُّه ، ثم يطبع الله عليه ؛ فذٰلك هو الران) (٤) .

وقال بكر بن عبد الله : (إذا أذنب العبد . . صار في قلبه كوَخْز الإبرة ، ثم كلما أذنب . . صار فيه كوَخْز الإبرة ، ثم كلما أذنب . . صار فيه كوخز الإبرة حتىٰ يعود القلب كالمُنخُل) (٥) .

وقال الحسن : (هو الذنب على الذنب حتىٰ يموت القلب) (٦) .

---

(١) سورة البقرة : (٧٣ ـ ٧٤) .

(٢) سورة المطففين : (١٤) .

(٣) رواه الترمذي (٣٣٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) بنحوه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٤٠٩/١٠) ، والبيهقي بنحوه في « شعب الإيمان » (٦٨١١) ، ورواه الطبري بنحوه في « تفسيره » (١٢٤/١٥) عن مجاهد رحمه الله تعالىٰ .

(٥) أورده الثعلبي في « تفسيره » (١٥٣/١٠) .

(٦) رواه الطبري في « تفسيره » (١٢٣/١٥) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (١٥٣/١٠) .

وقال ابن شُبرُمة : (إذا كان البدن سقيماً . . لم ينفعه الطعام ، وإذا كان القلب مغرماً بحب الدنيا . . لم تنفعه الموعظة)[1] ، وفيه قد قيل[2] : [من البسيط]

إِذَا قَسَـا ٱلْقَلْـبُ لَـمْ تَنْفَعْـهُ مَوْعِظَةٌ   كَٱلْأَرْضِ إِنْ سَبِخَتْ لَمْ يَنْفَعِ ٱلْمَطَرُ
وَلَا أَرَىٰ أَثَـراً لِلذِّكْـرِ فِـي خَلَـدِي   وَٱلْحَبْلُ فِي ٱلصَّخْـرَةِ ٱلصَّمَّا لَهُ أَثَرُ

ويروىٰ أن أبا العتاهية مرَّ بدُكَّانِ ورَّاقٍ ؛ فإذا كتاب فيه بيت من الشعر ، وهو : [من السريع]

لَـنْ تَرْجِـعَ ٱلْأَنْفُـسُ عَـنْ غَيِّهَـا   مَـا لَـمْ يَكُـنْ مِنْهَـا لَهَـا زَاجِـرُ

فقال : (لمن هٰذا البيت ؟ قيل : لأبي نُواس ، فقال : وَدِدْتُ أنه لي بنصف شعري)[3] .

وقال الأصمعي : (إن النعمان بن امرئ القيس الأكبرَ الذي بنى الخَوَرْنَقَ أشرف على الخَوَرْنَقِ يوماً ، فأعجبه ما رأىٰ وما أوتي من الملك والسَّعة في الدنيا ، ونفوذِ الأمر وإقبالِ الوجوه نحوه ، فقال لأصحابه : هل أوتي أحدٌ مثلَ ما أوتيت ؟ فقال له حكيم من حكماء أصحابه : أهذا الذي أوتيت شيءٌ لم يزل ولا يزول ، أم شيءٌ كان لمن كان قبلك زال عنه وصار إليك ؟ قال : بل إنه شيءٌ كان لمن كان قبلي زال عنه وصار إلي ، وسيزول عني ، قال : فسُررتَ بشيء تذهب عنك لذتُه ، وتبقىٰ عليك تَبِعتُه .

قال : فأين المهرب ؟ قال : إمَّا أن تقيم وتعمل بطاعة ربك ، أو تَلبَسَ أمساحاً وتلحقَ بجبل تعبد ربك فيه ، وتَفِرَّ من الناس حتىٰ يأتيك أجلك ، قال : فإذا فعلتُ ذٰلك . . فما لي ؟ قال : حياةٌ لا تموت ، وشبابٌ لا يهرم ، وصحةٌ لا

(١) أورده في « العقد الفريد » (٣/١٥٠) .
(٢) أورد البيت الأول في « جامع بيان العلم وفضله » (١/٧٠١) .
(٣) أورده في « تاريخ بغداد » (٨/٤٨٨) .

تَسقَم ، وملكٌ جديدٌ لا يبلىٰ ، قال : فأيُّ خير فيما يفنىٰ ؟! واللهِ ؛ لأطلبن عيشاً لا يزول أبداً .

فانخلع من ملكه ، ولَبِسَ الأمساح ، وسار في الأرض ، وتَبِعَه ذٰلك الحكيم ، وجعلا يسيحان ويعبدان ربهما حتىٰ ماتا جميعاً)[1] .

وفيه يقول عدي بن زيد[2] : [من الخفيف]

وَتَأَمَّــلْ رَبَّ ٱلْخَوَرْنَــقِ إِذْ أَصْــ ـــبَحَ يَوْمــاً وَلِلْهُــدَىٰ تَفْكِيــرُ
سَــرَّهُ مَالُــهُ وَكَثْــرَةُ مَــا يَمْــ ـــلِكُ وَٱلْبَحْــرُ مُعرِضــاً وَٱلسَّــدِيرُ
فَٱرْعَــوَىٰ قَلْبُــهُ وَقَــالَ فَمَــا غِبْــ ـــطَةُ حَــيٍّ إِلَــى ٱلْمَمَــاتِ يَصِيــرُ
أَيْنَ كِسْـرَىٰ كِسْـرَى ٱلْمُلُوكِ أَنُوشَرْ وَانُ أَمْ أَيْــنَ قَبْلَــهُ سَــابُورُ
وَبَنُــو ٱلْأَصْفَــرِ ٱلْكِــرَامُ مُلُــوكُ ٱلــرُّ ومِ لَــمْ يَبْــقَ مِنْهُــمُ مَذْكُــورُ
شَــادَهُ جَوْهَــراً وَحَــلَّاه كِلْســاً فَإِلَــى ٱلطَّيْــرِ فِــي ذُرَاهُ وُكُــورُ
لَــمْ يَهَبْــهُ رَيْــبُ ٱلْمَنُــونِ فَبَــادَ ٱلْــ ـــمُلْكُ عَنْــهُ فَبَابُــهُ مَهْجُــورُ

وفيهم يقول الأسود بن يَعْفُر[3] : [من الكامل]

وَلَقَــدْ عَلِمْــتُ سِــوَى ٱلَّــذِي نَبَّأْتِنِي أَنَّ ٱلسَّــبِيلَ سَــبِيلُ ذِي ٱلْأَعْــوَادِ

---

(١) أورده في « المعارف » (ص ٦٤٧) ، والخَوَرْنق : قصر من قصور الحِيرة .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ٨٧ ـ ٨٩) بتقديم وتأخير ، وزيد في (ز) بعد البيت الخامس :

وأخــو القصــر إذ بنــاه وقــد زا د حنينـــاً وإبنـــه ســـابورُ

ورواية « الديوان » :

وأخــو الحَضْــرِ إذْ بنــاه وإذْ دِجْــ ـــلَةُ تُجبَــىٰ إليــه والخابــورُ

والحَضْر : مدينة بين دجلة والفرات ، والبحر في البيت الثاني : الفرات ، ومُعرضاً : متسعاً ، والسَّدير : النهر مطلقاً ، وقيل : نهر بالحيرة ، وقيل : أحد قصور النعمان بن المنذر في الحيرة ، وسابور : اسم لعدة ملوك من الفرس ، والمراد هنا : سابور الثاني ذو الأكتاف .

(٣) أورد الأبيات في « المحاسن والأضداد » (ص ١١٦) ، ورواها في « المجالسة وجواهر العلم » (١٢٢٢) .

مَــاذَا أُؤَمِّــلُ بَعْــدَ آلِ مُحَــرِّقٍ تَرَكُــوا مَنَازِلَهُــمْ وَبَعْــدَ إِيَــادِ
أَرْضِ ٱلْخَوَرْنَـقِ وَٱلسَّـدِيرِ وَبَـارِقٍ وَٱلْقَصْـرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِـنْ سِنْدَادِ
نَزَلُــوا بِأَنْقِــرَةٍ يَسِــيلُ عَلَيْهِــمُ مَـاءُ ٱلْفُـرَاتِ يَجِـيءُ مِـنْ أَطْـوَادِ
أَرْضٌ تَخَيَّرَهَــا لِطِيــبِ مَقِيلِهَــا كَعْــبُ بْــنُ مَامَــةَ وَٱبْــنُ أُمِّ دُؤَادِ
جَـرَتِ ٱلرِّيَـاحُ عَلَـىٰ مَحَـلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُــمْ كَانُــوا عَلَــىٰ مِيعَــادِ
فَـأَرَى ٱلنَّعِيـمَ وَكُلَّ مَـا يُلْهَـىٰ بِـهِ يَوْمــاً يَصِيــرُ إِلَــىٰ بِلــىً وَنَفَــادِ

وقال وهب بن منبه : أصبت علىٰ غُمدان ـ وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن ، وكان من الملوك الأجلة ـ مكتوباً بالقلم المُسند ، فتُرجم بالعربية ؛ فإذا هي أبيات جليلة ، وموعظة عظيمة [1] : [من البسيط]

بَاتُـوا عَلَىٰ قُلَـلِ ٱلْأَجْبَالِ تَحْرُسُـهُمْ غُلْـبُ ٱلرِّجَـالِ فَلَـمْ تَنْفَعْهُـمُ ٱلْقُلَلُ
وَٱسْتُنْزِلُوا مِـنْ أَعَالِـي عِـزِّ مَعْقِلِهِمْ فَأُسْكِنُوا حُفَـراً يَـا بِئْـسَ مَـا نَزَلُـوا
نَادَاهُـمُ صَـارِخٌ مِـنْ بَعْدِمَـا دُفِنُـوا أَيْــنَ ٱلْأَسِــرَّةُ وَٱلتِّيجَــانُ وَٱلْحُلَــلُ
أَيْـنَ ٱلْوجُـوهُ ٱلَّتِـي كَانَـتْ مُحَجَّبَـةً مِـنْ دُونِهَا تُضْرَبُ ٱلْأَسْتَارُ وَٱلْكِلَلُ
فَأَفْصَـحَ ٱلْقَبْـرُ عَنْهُمْ حِينَ سَـاءَلَهُمْ تِلْـكَ ٱلْوُجُـوهُ عَلَيْهَـا ٱلـدُّودُ يَقْتَتِلُ
قَـدْ طَـالَ مَا أَكَلُـوا دَهْراً وَمَا شَـرِبُوا فَأَصْبَحُـوا بَعْـدَ ذَاكَ ٱلْأَكْلِ قَدْ أُكِلُوا

وقُرِئ على القاضي أبي الوليد الباجي رحمه الله وأنا أسمع لبعضِ الشعراءِ الحكماءِ هـٰذه الأبياتُ [2] : [من السريع]

وَيْحَــكِ يَــا أَسْــمَاءُ مَــا شَــانِي أَضْلَلْتِنِــــي وَٱللهِ مَــــا شَــــانِي
اَلْمَــوْتُ حَــقٌّ فَٱعْلَمِــي نَــازِلٌ فَيَسِّــــرِي لَحْــــدِي وَأَكْفَانِــــي

---

(١) أورد الأبيات في « عيون الأخبار » (٣٠٣/٢) ، و« البصائر والذخائر » (١٩٨/٤) .
(٢) روى الأبيات ما عدا السابع والتاسع في « الأمالي الشجرية » (٣١٦/٢) ، وأوردها من دون التاسع في « المجموع اللفيف » (ص ٤٥٢) لأبي يعقوب الخريمي .

قَــدْ كُنْــتُ ذَا مَــالٍ فَــلَا وَٱلَّــذِي   أَعْطَانِــــيَ ٱلْعَيْــــشَ وَأَغْنَانِــــي
مَــا قَــرَّتِ ٱلْعَيْــنُ بِــهِ سَــاعَةً   إِلَّا تَذَكَّـــــرْتُ فَأَشْـــــجَانِي
عِلْمِــي بِأَنِّــي صَائِــرٌ لِلْبِلَــىٰ   وَفَاقِـــدٌ أَهْلِـــي وَجِيرَانِـــي
وَتَــارِكٌ مَالِــي عَلَــىٰ حَالِــهِ   نَهْبــاً لِشَــيْطَانِ بْــنِ شَــيْطَانِ
أَمَــا تَرَيْنِــي وَٱلْهَــوَىٰ قَائِــدِي   أُجَمِّــعُ ٱلْمَــالَ لِأَخْتَانِــي
لِٱمْــرَأَةِ ٱبْنِــي أَوْ لِــزَوْجِ ٱبْنَتِــي   يَــا لَــكِ مِــنْ غَــيٍّ وَخُسْــرَانِ
وَثَالِــثٍ أَغْيَــظَ مِــنْ ذَا وَذَا   يَنْعَــمُ فِيــهِ زَوْجُهَــا ٱلثَّانِــي
يَسْــعَدُ فِــي مَالِــي وَأَشْــقَىٰ بِــهِ   قَــوْمٌ ذَوُو غِــلٍّ وَشَــنْآنِ
إِنْ أَحْسَــنُوا كَانَ لَهُــمْ أَجْــرُهُ   وَخَــفَّ مِــنْ ذَٰلِكَ مِيزَانِــي

* * *

وممن استبصر من أبناء الملوك ، فرأىٰ عيب الدنيا وفناءها ، وتقضِّيَها وزوالَها : إبراهيم بن أدهم بن منصور ، من أبناء الملوك ملوك خراسان ، من كُورة بَلخ ، ولمَّا زَهِدَ في الدنيا . . زَهِدَ عن ثمانين سريراً .

قال إبراهيم بن بشار : (سألت إبراهيم بن أدهم : كيف كان بَدء أمرك حتىٰ صرت إلىٰ هـٰذا ؟ قال : غيرُ هـٰذا أولىٰ بك ، قلت : يرحمك الله ، لعلَّ الله ينفعني به يوماً ، ثم سألته ثانية ، فقال : ويحك ! اشتغل بالله تعالىٰ ، ثم سألته ثالثة فقلت : إن رأيتَ ـ يرحمك الله ـ أن تخبرني لعل الله ينفعني به ، فقال : كان أبي من ملوك خراسان ، وكان من المياسير ، وكان قد حُبِّبَ إليَّ الصيد ، فبينا أنا راكب فرساً وكلبي معي . . فأثرت ثعلباً أو أرنباً ، فحركت فرسي ، فسمعت نداء من ورائي : يا إبراهيم ؛ ليس لهـٰذا خُلقت ، ولا بهـٰذا أُمرت ، فوقفت مقشعراً أنظر يَمنةً ويَسرةً فلم أر أحداً ، فقلت في نفسي : لعن الله الشيطان ، ثم حركت فرسي ، فسمعت نداء أقوىٰ من الأول :

يا إبراهيم ؛ ليس لهٰذا خُلقت ، ولا بهٰذا أُمرت ، فوقفت مقشعراً أنظر يَمنةً ويَسرة فلم أر شيئاً ، فقلت : لعن الله الشيطان ، ثم حركت فرسي ، فسمعت من قَرَبوس سَرْجي : يا إبراهيم ؛ ليس لهٰذا خُلقت ، ولا بهٰذا أُمرت ، فوقفت وقلت : هيهات ، جاءني النذير من رب العالمين ، والله ؛ لا عصيتُ ربي ما عصمني بعد يومي هٰذا .

فتوجهت إلىٰ أهلي ، وخَلفت فرسي ، وجئت إلىٰ بعض رعاة أبي ، فأخذت جبته وكساءه ، وألقيت إليه ثيابي ، فلم تزل أرضٌ تُقِلُّني وأرضٌ تَضعني حتىٰ صرت إلى العراق ، فعملت بها أياماً ، فلم يَصْفُ لي شيء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال ، فقال : عليك بالشام .

قال : فانصرفت إلىٰ مدينة يقال لها : المنصورية ، وهي المَصِّيصة ، فعملت بها أياماً ، فلم يَصْفُ لي شيء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ فقال : إن أردت الحلال . . فعليك بطَرَسوس ؛ فإن المباحات بها ، والعمل كثير .

قال : فبينا أنا قاعد علىٰ باب البحر . . إذ جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستاناً ، فتوجهت معه ، فأقمت في البستان أياماً كثيرة ؛ فإذا بخادم قد أطلَّ ومعه أصحاب له ، ولو علمتُ أن البستان لخادم . . ما نظرته ، فقعد في مجلسه ، ثم قال : يا ناطورنا ، فأجبته ، قال : اذهب فأتنا بأكبر رُمان تقدر عليه وأطيبهِ ، فأتيته برُمان ، فأخذ الخادم رُمانة فكسرها فوجدها حامضة ، فقال : يا ناطورنا ؛ أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورُماننا لا تعرف الحلو من الحامض ؟! قلت : والله ؛ ما أكلت من فاكهتكم شيئاً ، ولا أعرف الحلو من الحامض ، قال : فغَمزَ الخادمُ أصحابَه ، وقال : ألا تعجبون من هٰذا ؟! ثم قال لي : لو كنتَ إبراهيم بن أدهم . . ما زدتَ علىٰ هٰذا .

فلما كان من الغد . . حدَّث الناس في المسجد بالصِّفة ، فجاء الناس عُنقاً

إلى البستان ، فلما رأيت كثرة الناس . . اختفيت ، والناس داخلون وأنا هارب منهم)[1] .

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من عمل يده ؛ مثل : الحصاد ، وحفظ البساتين ، والعمل في الطين .

وكان يوماً يحفظ كرماً ، فمرَّ به جندي فقال : (أعطنا من هـٰذا العنب ، فقال : ما أمرني به صاحبه ، فأخذ يضربه بالسَّوط ، فطأطأ رأسه وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله ، فأعجز الرجل ومضىٰ)[2] .

وقال سهل بن إبراهيم : (صحبت إبراهيم بن أدهم ، فمرضت ، فأنفق عليَّ نفقته ، فاشتهيت شهوة ، فباع حماره ، وأنفق ثمنه علي ، فلما تماثلت . . قلت : يا إبراهيم ؛ أين الحمار ؟ فقال : بعناه ، قلت : فعلام أركب ؟ قال : يا أخي ؛ اركب علىٰ عنقي ، قال : فحملني ثلاث منازل رحمه الله)[3] .

وأنشدوا[4] : [من الخفيف]

أَيُّهَا ٱلْمَرْءُ إِنَّ دُنْيَاكَ بَحْرٌ ... طَامِحٌ مَوْجُهُ فَلَا تَأْمَنَنْهَا
وَسَبِيلُ ٱلنَّجَاةِ فِيهَا مُنِيرٌ ... وَهْوَ أَخْذُ ٱلْكَفَافِ وَٱلْقُوتِ مِنْهَا

* * *

وبلغني أنَّ بالهند يوماً يخرج الناس فيه إلى البرية ، فلا يبقىٰ في البلد بشرٌ من طين ؛ لا شيخ كبير ، ولا مولود صغير ، وهـٰذا اليوم يكون بعد انقراض مئة سنة من يوم مثله .

فإذا اجتمع الخلائق في صعيد واحد . . نادىٰ منادي الملك : لا يصعدنَّ

(١) رواه في « حلية الأولياء » (٣٦٨/٧) .
(٢) رواه في « حلية الأولياء » (٣٧٩/٧) .
(٣) رواه في « حلية الأولياء » (٣٨٢/٧) .
(٤) أورد البيتين في « يتيمة الدهر » (٨٢/١) للفقيه محمد بن عبد الله بن أبي ريمين رحمه الله تعالىٰ .

هـٰذا الحجر ـ لحجرٍ هناك منصوب ـ إلا من حضر في المجمع الأول ، الذي قد خلا من مئة سنة فربما جاء الشيخ الهرم الذي قد ذهبت قُوَّتُه ، وعمي بصره ، وفني شبابه ، وتجيء العجوز تزحف ، لم يبق منها إلا رسمها ، وقد أخنى الدهر عليها ، فيصْعَدان على الحجر الذي هناك ، وربما لم يجئ أحد ، ويكون قد فَنِيَ القرنُ بأسره ، فيصعَدُ من بقي على الحجر ، ويقول الشيخ الفاني : حضرت المجمع الأول منذ مئة سنة وأنا طفل صغير ، وكان الملك فلاناً . . . .

ويصف الجيوش الماضية ، والأمم الخالية ، وكيف طحنهم البِلىٰ ، وصاروا تحت أطباق الثرىٰ .

ويقوم خطيبهم ، فيعظ الناس ، ويذكرهم صرعة الموت ، وحسرة الفوت ، فيبكي القوم ، ويتوبون من المظالم ، ويكثرون الصدقات ، ويخرجون من التَّبِعات ، ويصلحون علىٰ ذٰلك مدة .

وقال وهبُ بن مُنبِّه : (صَحِبَ رجلٌ بعضَ الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيئاً ، فوجده مشغولاً عنه بذكر الله تعالىٰ ، والفكرِ في عظمته وهو لا يفتر ، ثم التفت إليه في اليوم السابع فقال : يا هـٰذا ؛ قد علمتُ ما تريد ، حبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة ، والزهدُ في الدنيا رأس كل عبادة ، والتوفيقُ تاج كل خير ؛ فاحذر رأس كل خطيئة ، وارغب في رأس كل خير ، وتضرَّع إلىٰ ربك أن يهب لك تاج كل خير .

قال : فكيف أعرف ذٰلك ؟ قال : كان جدي رجلاً من الحكماء ، قد شبَّه الدنيا بسبعة أشياء : شبهها بالماء المِلْحِ يَغُرُّ ولا يَروي ، ويضر ولا ينفع ، وبالبرقِ الخُلَّبِ يَغُرُّ ولا ينفع ، وبسحابِ الصيف يغرُّ ولا ينفع ، وبظلِّ الغَمامِ يغُرُّ ويخذلُ ، وبزهرِ الربيع يَنضُرُ ثم يَصفَرُّ فتراه هشيماً ، وبأحلامِ النائمِ يرى السرورَ في منامه ، فإذا استيقظ . . لم يكن في يده إلا الحسرة ، وبالعسل المشوب بالسُّم الذُّعاف يغُرُّ ويقتل .

فتدبرت هٰذه الأحرف السبعة سبعين سنة ، ثم زدت حرفاً واحداً ؛ فشبهتها بالغُول التي تهلك من أجابها ، وتترك من أعرض عنها .

فرأيت جَدِّي في المنام ، فقال لي : يا بُنَيَّ ؛ أشهد أنك مني ، وأنا منك ، هي والله كالغُول التي تُهلك من أجابها ، وتترك من أعرض عنها .

قلت : فبأي شيء يكون الزهد في الدنيا ؟ قال : باليقين ، واليقينُ بالصبر ، والصبرُ بالعِبَر ، والعبر بالفكر .

ثم وقف الراهب فقال : خذها مني : فلا أراك خلفي إلا متجرداً بفعل دون قول ، فكان ذٰلك آخر العهد به) .

* * *

قلت : قد وصف الله الدنيا وأهلها بصفة أعم من هٰذه الصفة ؛ فقال عز وجل : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

والكُفَّار هٰهنا : الزُّرَّاع ، فكما أن الزرع يكون أولَ نباته أخضر ناعماً ، اهتزت الأرض به بعد يُبسها ، فجاءت في العيون كأملح ما يكون ، ثم يهيج فتراه مصفراً ؛ أي : يَكبَر ويستوي ، فيَجِفُّ ويحترق ، ويتكسَّر أعلاه ، ويسقط سنبله ، ثم يُداس فيكون حُطاماً ؛ أي : تبناً متكسراً متقطعاً . . فهٰذا مَثَلٌ ضربه الله تعالىٰ لبني آدم ؛ إذ كانوا أطفالاً أولَ الولادة ، وفي حال الطفولية كأحسن مرأىً ، يُعجِبون الآباء ، ويَفتِنون ذوي الأحلام والنهىٰ ، ثم يكبَرون فيصيرونَ شيوخاً منكسةً رؤوسُهم ، مقوسةً ظهورُهم ، قد ذهب حسنهم ونعومتهم ، وفني شبابهم وجمالهم ، وذَوَتْ غَضارتُهم ونَضارتُهم ، واستولىٰ عليهم الهرم واليَبسُ ، ثم يموتون فيصيرون حُطاماً في القبور كالتِّبن في الجَرين ، هٰذا بعدما وصفها الله

---

(١) سورة الحديد : (٢٠) .

تعالىٰ بخمس صفات مذمومة : لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر ، وتكاثر .

وكان الصدر الأول يسمون الدنيا خنزيرة ، ولو وجدوا اسماً أقبح منه .. لسموها به ، وكانوا يسمونها : أُمَّ دَفْر ؛ والدَّفْر : النَّتْن .

وقال مالك بن أنس : (بلغني أن مَلِكاً من ملوك بني إسرائيل ركب يوماً في زي عظيم ، فتشوَّف إليه الناس ينظرون إليه أفواجاً ، حتىٰ مر برجل يعمل شيئاً مكباً عليه ، فلم يلتفت إليه ولا رفع رأسه ، فوقف الملك عليه وقال : كل الناس ينظرون إليَّ إلا أنت ! فقال له الرجل : إني رأيت ملكاً مثلك ، وكان علىٰ هٰذه القرية ، فمات هو ومسكين ، فدفن إلىٰ جنبه في يوم واحد ، فكنا نعرفهما في الدنيا بأجسادهما ، ثم كنا نعرفهما بقبريهما ، ثم نسفت الريح قبريهما ، وكشفت عنهما ، فاختلطت عظامهما ، فلم أعرف الملك من المسكين ؛ فلذٰلك أقبلت علىٰ عملي ، وتركت النظر إليك)[1] .

وروي أن داوود عليه السلام بينما هو يسيح في الجبال .. إذ وافىٰ علىٰ غار ، فنظر ؛ فإذا فيه رجل عظيم الخلق من بني آدم ، وإذا عند رأسه حجر مكتوب بكتاب محفور فيه : (أنا رستم الملك ، ملكت ألف عام ، وفتحت ألف مدينة ، وهزمت ألف جيش ، وافتضضت ألف بكر من بنات الملوك ، ثم صرت إلىٰ ما ترىٰ ، فصار التراب فراشي ، والحجارة وسادي ، فمن رآني .. فلا تغره الدنيا كما غرتني)[2] .

وقال وهب بن منبه : (خرج عيسى ابن مريم عليه السلام ذات يوم مع جماعة من أصحابه ، فلما ارتفع النهار .. مروا بزرع قد أمكن من الفرك[3] ، فقالوا : يا نبي الله ؛ إنا جياع ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : أن ائذن لهم في قُوتِهم ،

---

(١) أورده بنحوه في « البيان والتحصيل » (١٧/٤٨٨) .

(٢) أورده في « الزهر الفائح » (ص ٣٥) ، وفي (أ) : (دويسم) بدل (رستم) ، و(ج) : (درسم) ، و(هـ ، ز) : (دوسيم) ، و(و) : (دويشم) ، و(ح) : (دوسوم) .

(٣) أمكن من الفرك : نَضِجَ وتقلع قشره عن لبه .

فأذن لهم في قوتهم ، فتفرقوا في الزرع يَفرُكون ويأكلون ، فبينما هم كذلك . . إذ جاء صاحب الزرع وهو يقول : زرعي وأرضي ، ورثتها عن آبائي ، بإذن من تأكلون يا هٰؤلاء ؟! قال : فدعا عيسىٰ عليه السلام ربَّه ، فبعث الله تعالىٰ جميع من ملك تلك الأرض من لدن آدم عليه السلام إلىٰ ساعته ؛ فإذا عند كل سنبلة ـ أو ما شاء الله ـ رجلٌ أو امرأة ، كلهم ينادون : زرعي وأرضي ورثتها عن آبائي .

ففزع الرجل منهم ، وكان قد بلغه أمر عيسىٰ عليه السلام وهو لا يعرفه ، فلما عرفه . . قال : معذرة إليك يا رسول الله ؛ إني لم أعرفك ، زرعي ومالي لك حلال ، فبكىٰ عيسىٰ عليه السلام ، وقال : ويحك ! هٰؤلاء كلهم قد ورثوا هٰذه الأرض وعمروها ، ثم ارتحلوا عنها ، وأنت مرتحِلٌ عنها وبهم لاحق ، ويحك ! ليس لك أرض ولا مال)[1] .

وقال أبو العتاهية[2] : [من مجزوء الكامل]

وَعَظَتْكَ أَجْدَاثٌ صُمُتْ ... وَنَعَتْكَ أَزْمِنَةٌ خُفُتْ
وَتَكَلَّمَتْ عَنْ أَوْجُهٍ ... تَبْلَىٰ وَعَنْ صُوَرٍ سُبُتْ
وَأَرَتْكَ قَبْرَكَ فِي ٱلْقُبُو ... رِ وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ
يَا شَامِتاً بِمَنِيَّتِي ... إِنَّ ٱلْمَنِيَّةَ لَمْ تَفُتْ
وَلَرُبَّمَا ٱنْقَلَبَ ٱلشَّمَا ... تُ فَحَلَّ بِٱلْقَوْمِ ٱلشُّمُتْ

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما رأىٰ فاطمة رضي الله عنها مسجاة بثوبها . . بكىٰ حتىٰ رثي له ، ثم قال[3] : [من الطويل]

لِكُلِّ ٱجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ ... وَإِنَّ ٱلَّذِي دُونَ ٱلْمَمَاتِ قَلِيلُ

---

(١) أورده اليوسي في « المحاضرات » (ص ٦٤٥) .
(٢) الأبيات الثلاثة الأولىٰ في « ديوانه » (ص ٧٨ ـ ٧٩) ، وأوردها كاملة في « أدب الدين والدنيا » (ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥) ، وسُبُت : ساكنة .
(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢١٧ ـ ٢١٨) .

أَرَىٰ عِلَـلَ ٱلدُّنْيَـا عَلَـيَّ كَثِيـرَةً ... وَصَاحِبُهَـا حَتَّـى ٱلْمَمَـاتِ عَلِيـلُ
وَإِنَّ ٱفْتِقَـادِي فَاطِمـاً بَعْـدَ أَحْمَـدٍ ... دَلِيـلٌ عَلَـىٰ أَلَّا يَـدُومَ خَلِيـلُ

وقال[١] : [من الطويل]

أَلَا أَيُّهَـا ٱلْمَـوْتُ ٱلَّـذِي لَيْسَ تَارِكِي ... أَرِحْنِـي فَقَـدْ أَفْنَيْـتَ كُلَّ خَلِيـلِ
أَرَاكَ بَصِيـراً بِٱلَّذِيـنَ أُحِبُّهُـمْ ... كَأَنَّـكَ تَنْحُـو نَحْوَهُـمْ بِدَلِيـلِ

ولمَّا نفض يديه من ترابها .. تمثَّل بقول بعض بني ضبة[٢] : [من الطويل]

أَقُـولُ وَقَـدْ فَاضَـتْ دُمُوعِيَ حَسْـرَةً ... أَرَى ٱلْأَرْضَ تَبْقَـىٰ وَٱلْأَخِلَّاءَ تَذْهَبُ
أَخِـلَّايَ لَـوْ غَيْـرُ ٱلْحِمَـامِ أَصَابَكُـمْ ... عَتَبْتُ وَلَـٰكِنْ مَا عَلَى ٱلْمَوْتِ مَعْتَبُ

وقال العتَّابي[٣] : [من الخفيف]

مَـا غَنَـاءُ ٱلْحِـذَارِ وَٱلْإِشْـفَاقِ ... وَشَـآبِيبِ دَمْعِـكَ ٱلْمُهْـرَاقِ
غَـدَرَاتُ ٱلْأَيَّـامِ مُنْتَزِعَـاتٌ ... عُنُقَيْنَـا مِـنْ طُـولِ هَـٰذَا ٱلْعِنَـاقِ
إِنْ قَضَـى ٱللهُ أَنْ يَكُـونَ تَـلَاقٍ ... بَعْدَمَـا أَنْ تَرَيْـنَ كَانَ تَـلَاقِ
هَوِّنِـي مَـا عَلَيْـكِ وَٱقْنَـيْ حَيَـاءً ... لَسْـتِ تَبْقَيْـنَ لِـي وَلَسْـتُ بِبَـاقِ
أَيَّنَـا قَدَّمَـتْ حِمَـامُ ٱلْمَنَايَـا ... فَٱلَّـذِي أَخَّـرَتْ سَـرِيعُ ٱللَّحَـاقِ
قُلْـتُ لِلْفَرْقَدَيْـنِ وَٱللَّيْـلُ مُلْـقٍ ... سُـودَ أَكْنَافِـهِ عَلَـى ٱلآفَـاقِ
اِبْقَيَـا مَـا بَقِيتُمَـا فَسَـيُرْمَىٰ ... بَيْـنَ شَـخْصَيْكُمَا بِسَـهْمِ ٱلْفِـرَاقِ
غُـرَّ مَـنْ ظَـنَّ أَنْ يَفُـوتَ ٱلْمَنَايَـا ... وَعُرَاهَـا قَلَائِـدُ ٱلْأَعْنَـاقِ

(١) البيتان في « ديوانه » (ص ٢١٢) .
(٢) أورد البيتين الخالديَّان في « الأشباه والنظائر » (٢/٣٣٦) ، والمرزوقي في « شرح ديوان الحماسة » (٢/٨٩٣) للغطمّش الضبي .
(٣) أورد الأبيات في « زهر الآداب » (٢/٦٢٢ ـ ٦٢٣) ، و« بهجة المجالس » (١/٢٥٣) ، واقنَيْ حياء : الزمي ، والفرقدان : نجمان في السماء لا يغربان ، والمراد هنا : الصاحبان اللذان لا يفترقان ، وسود أكنافه ؛ أي : أستاره وظلاله السوداء .

كَـمْ صَفِيَّيْــنِ مُتِّعَـا بِٱجْتِمَـاعٍ ثُـمَّ صَـارَا لِغُرْبَـةٍ وَٱفْتِـرَاقِ
لَا يَــدُومُ ٱلْبَقَـاءُ لِلْخَلْــقِ لَـٰكِنَّ دَوَامَ ٱلبَقَـــاءِ لِلْخَــــلَّاقِ

وأخبرني بعض الرواة عن الأصمعي رحمه الله تعالىٰ أنه قال : (لمَّا خرج الرشيد إلىٰ طُوس . . وُعِك في طريقه ، وهاج به الدم بحُلوان ، فأشار أمير المؤمنين إلىٰ جُمَّارة ، فقالوا : والله ؛ ما ببلدنا نخل ، ولـٰكن على العقبة نخلتان ، نقطع إحداهما ، فقطعت ، وأُتِيَ للرشيد بالجُمَّارة ، فأكل منها ، فسكن عنه الدم ، ثم سار بعدما ارتاح ، فلما صار في العقبة . . نظر ؛ فإذا إحدى النخلتين مقطوعة مطروحة ، وإذا على المضجعة مكتوب : [من الخفيف]

أَسْـعِدَانِي يَـا نَخْلَتَـيْ حُلْـوَانِ وَٱرْثِيَـا لِـي مِـنْ رَيْـبِ هَـٰذَا ٱلزَّمَـانِ
وَٱعْلَمَـــا إِنْ بَقِيتُمَـــا أَنَّ نَحْســاً سَــوْفَ يَأْتِيكُمَــا فَتَفْتَرِقَــانِ
فَلَعَمْـرِي لَـوْ ذُقْتُمَـا أَلَـمَ ٱلْفُرْ قَـةِ أَبْكَاكُمَـا ٱلَّـذِي أَبْكَانِــي

قال : فاغتمَّ الرشيد عند ذلك غماً شديداً وقال : عزَّ عليَّ بأن أكون نحيسَهما ، ولو علمت بهـٰذا الشعر قبل ذلك . . لما قطعتهما ولو قتلني الدم)(١) .

وأنشد بعضهم : [من الوافر]

سَـأَلْتُ مِـنَ ٱلرُّسُـومِ عَـنِ ٱلْقُصُـورِ فَقَــالَ أَبَادَهُــمْ مَــرُّ ٱلدُّهُــورِ
وَأَخْلَــقَ مِنْهُــمُ مَــا كَانَ غَضّــاً وَأَخْرَجَهُــمْ إِلَـىٰ ضِيـقِ ٱلْقُبُـورِ
وَأَلْبَسَــهُمْ ثِيَــابَ ٱلتُّـرْبِ فِيهَــا وَجَــرَّدَ عَنْهُــمُ حُلَــلَ ٱلْحَرِيــرِ
وَصَيَّـــرَ مِنْهُـــمُ لِلـــدُّودِ نَهْبــاً عَلَــىٰ رَغْــمٍ وُجُوهــاً كَٱلْبُــدُورِ
وَأَصْبَــحَ مَــا بَنَــوْهُ وَشَــيَّدُوهُ بِــلَا بَــابٍ عَلَيْــهِ وَلَا سُــتُورِ

---

(١) رواه في « الأغاني » (١٣/٤٨٤٣ ـ ٤٨٤٤) وفيه : (فلما انتهىٰ إلى العقبة . . نظر إلىٰ إحدى النخلتين مقطوعة والأخرىٰ قائمة ، وإذا على القائمة مكتوب . . .) ، والأبيات لمطيع بن إياس ، والجُمَّارة : شحم النخل .

فَقُلْتُ لَهُ فَبُعْداً ثُمَّ بُعْداً ... لِمَنْ يَلْهُو وَيَفْرَحُ بِٱلْغُرُورِ

* * *

ولمَّا مات الإسكندر .. قال أَرِسطاطاليس : (أيها الملك ؛ لقد حرَّكتنا بسكونِك)(١) .

وقال بعض الحكماء من أصحابه : (كان الملكُ أمسِ أنطقَ منه اليوم ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمسِ)(٢) ، فنظمه أبو العتاهية فقال(٣) : [من الوافر]

كَفَىٰ حَزَناً بِدَفْنِكَ ثُمَّ إِنِّي ... نَفَضْتُ تُرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَدَيَّا
وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ ... فَأَنْتَ ٱلْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيَّا

وقال أيضاً(٤) : [من الكامل]

يَا مُؤْثِرَ ٱلدُّنْيَا وَطَالِبَهَا ... وَٱلْمُسْتَعِدَّ لِمَنْ يُفَاخِرُهُ
نَلْ مَا بَدَا لَكَ أَنْ تَنَالَ مِنَ ٱلدُّ ... نْيَا فَإِنَّ ٱلْمَوْتَ آخِرُهُ
أَيْنَ ٱلْمُلُوكُ وَأَيْنَ عِزُّهُمُ ... صَارُوا مَصِيراً أَنْتَ صَائِرُهُ
اَلْمَوْتُ لَوْ صَحَّ ٱلْيَقِينُ بِهِ ... لَمْ يَنْتَفِعْ بِٱلْعَيْشِ ذَاكِرُهُ
وَسَبِيلُنَا فِي ٱلْمَوْتِ مُشْتَرَكٌ ... يَتْلُو أَكَابِرَهُ أَصَاغِرُهُ

ووجد مكتوباً علىٰ قبر : (قَهَرنا من قهرنا ، فصِرْنا للناظرين عِبرة)(٥) .

وقال عبد الله بن المعتز(٦) : [من الطويل]

نَسِيرُ إِلَى ٱلآجَالِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ ... وَأَيَّامُنَا تُطْوَىٰ وَهُنَّ مَرَاحِلُ

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٢٠٥) ، وانظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٧٦) .
(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٤٠٧/١) ، و« زهر الآداب » (٦٧٤/٢) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٦٧٩) .
(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٧٩ ـ ١٨١) .
(٥) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٢٠٥) .
(٦) الأبيات في « ديوانه » (٤١٣/٢) .

وَلَـمْ أَرَ مِثْـلَ ٱلْمَـوْتِ حَقّـاً كَأَنَّـهُ إِذَا مَـا تَخَطَّتْـهُ ٱلْأَمَانِـيُّ بَاطِـلُ
وَمَـا أَقْبَـحَ ٱلتَّفْرِيطَ فِي زَمَـنِ ٱلصِّبَا فَكَيْفَ بِهِ وَٱلشَّيْبُ فِي ٱلرَّأْسِ شَامِلُ
تَرَحَّـلْ مِـنَ ٱلدُّنْيَـا بِـزَادٍ مِـنَ ٱلتُّقَىٰ فَعُمْـرُكَ أَيَّـامٌ تُعَـدُّ قَلَائِـلُ

ولما دخل أبو الدرداء الشام .. قال : (يا أهل الشام ؛ اسمعوا قول أخ ناصح ، فاجتمعوا عليه ، فقال : ما لي أراكم تبنون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتأمُلون ما لا تدركون ؟! إن الذين كانوا قبلكم بنوا مشيداً ، وأمَّلوا بعيداً ، وجمعوا كثيراً ، فأصبح أملهم غروراً ، وجمعهم بوراً ، ومساكنهم قبوراً)(١) .

وروى الجاحظ قال : وُجد مكتوباً علىٰ حجر : (يا بنَ آدم ؛ لو رأيت يسير ما بقي من أجلك .. لزهدت في طول ما ترجو من أملِك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحِيَلك ، وإنما يلقاك غداً ندمك ، لو قد زلَّت بك قدمُك ، وأسلمك أهلك وحشمُك ، وتبرَّأ منك القريب ، وانصرف عنك الحبيب .. فلا أنت في عملك زائد ، ولا إلىٰ أهلك عائد)(٢) .

وقال مالك بن أنس : (بلغني أن امرأتين أتتا عيسى ابن مريم عليه السلام ، فقالتا : يا روح الله ؛ ادع الله لنا أن يخرج أبانا ؛ فإنه هلك ونحن غائبتان عنه ، فقال : أتعرفان قبره ؟ فقالتا : نعم ، فذهب معهما ، فأتتا قبراً ، فقالتا : هـٰذا هو ، فدعا الله سبحانه ، فأُخرجَ لهما ؛ فإذا هو ليس به ، فدعا فرُدَّ ، ثم دلَّتاه علىٰ قبر آخر ، فدعا أن يَخرُج فخرج ؛ فإذا هو به ، فلزمتاه وسلمتا عليه ، ثم قالتا : يا نبي الله ، يا معلم الخير ؛ ادع الله أن يبقيه معنا ، فقال : وكيف أدعو له ولم يبق له رزق يعيش به ؟! ثم رده وانصرف)(٣) .

---

(١) رواه في « حلية الأولياء » (١/٢١٧ ـ ٢١٨) ، وأورده في « بهجة المجالس » (٢/٣٢٨) .
(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٣/١٦٦) ، و« بهجة المجالس » (٢/٣٢٨) .
(٣) أورده في « البيان والتحصيل » (١٧/٩٠) .

وأنشدني بعض الأدباء[1] : [من مخلع البسيط]

وَا أَسَفِي مِنْ فِرَاقِ قَوْمٍ هُمُ ٱلْمَصَابِيحُ وَٱلْحُصُونُ
وَٱلْمُدْنُ وَٱلْمُزْنُ وَٱلرَّوَاسِي وَٱلْخَيْرُ وَٱلْأَمْنُ وَٱلسُّكُونُ
لَمْ تَتَغَيَّرْ لَنَا ٱللَّيَالِي حَتَّىٰ تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَنُونُ
فَكُلُّ جَمْرٍ لَنَا قُلُوبٌ وَكُلُّ مَاءٍ لَنَا عُيُونُ
وَكُلُّ نَوْمٍ لَنَا سُهَادٌ وَكُلُّ شَوْكٍ لَنَا جُفُونُ

ورُوي : أن النعمان بن المنذر خرج متصيداً ومعه عَدِيُّ بنُ زيدٍ ، فمرُّوا بشجرة ، فقال عديُّ بنُ زيد : (أيها الملك ؛ أتدري ما تقول هـٰذه الشجرة ؟ قال : لا ، قال : إنها تقول : [من الرمل]

مَنْ رَآنَا فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مُوفٍ عَلَىٰ قَرْنِ زَوَالْ
فَصُرُوفُ ٱلدَّهْرِ لَا يَبْقَىٰ لَهَا وَلِمَا تَأْتِي بِهِ صُمُّ ٱلْجِبَالْ
رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلَالْ
وَٱلْأَبَارِيقُ عَلَيْهَا فُدُمٌ وَعِتَاقُ ٱلْخَيْلِ تَرْدِي فِي ٱلْجِلَالْ
عَمَرُوا دَهْراً بِعَيْشٍ حَسَنٍ آمِنِي دَهْرِهِمُ غَيْرَ عِجَالْ
ثُمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ ٱلدَّهْرُ بِهِمْ وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَآنَا فَلْيُعَزِّي نَفْسَهُ إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا عَلَىٰ قُرْبِ زَوَالْ

قال : ثم جاوزوا الشجرة ، فمروا بمقبرة ، فقال له عدي : أيها الملك ؛ أتدري ما تقول هـٰذه المقبرة ؟ قال : لا ، قال : إنها تقول[2] :

أَيُّهَا ٱلرَّكْبُ ٱلْمُخِبُّو نَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْمُجِدُّونْ

---

(١) روى الأبيات في « تاريخ بغداد » (٢٥٦/٧) ، وأوردها القالي في « الأمالي » (٣٢٣/٢) لأحمد الجوهري ، وابن خلكان في « وفيات الأعيان » (١٢١/٣) ، والذهبي في « تاريخ الإسلام » (١٩٨/٢٢ ـ ١٩٩) لعبيد الله ابن طاهر .

(٢) البيت الأول من مجزوء الرمل ، والثاني من الهزج .

كَمَـــا أَنْتُـــمْ كَـــذَا كُنَّـــا   كَمَـــا نَحْـــنُ تَكُونُـــونْ

فقال النعمان : قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان ، وقد علمت أنك إنما أردت عظتي ، فجزاك الله عني خيراً ، فما السبيل الذي تدرك به النجاة ؟ قال : تدَعُ عبادة الأوثان ، وتعبدُ الله وحده ، قال : وفي هـٰذا النجاة ؟ قال : نعم ، قال : فترَك عبادة الأوثان ، وتنصَّرَ يومئذ ، وأخذ في العبادة والاجتهاد)[1] .

وقال عبدُ الله المعلم : (خرجنا من المدينة حُجَّاجاً ، فلمَّا كنا بالرُّويثة . . نزلنا ، فوقف بنا رجل عليه ثيابٌ رَثَّة ، له منظر وهيئة ، فقال : من يبغي خادماً ، من يبغي ساقياً ؟ فقلت : دونَكَ هـٰذه القِربةَ ، فأخذها وانطلق ، فلم يلبث إلا يسيراً حتىٰ أقبل وقد امتلأت أثوابه طيناً ، فوضعها كالمسرور الضاحك ، ثم قال : ألكم غير هـٰذا ؟ قلنا : لا ، وأطعمناه قُرصاً بارداً ، فأخذه وحمد الله تعالىٰ وشكره .

ثم اعتزل وقعد يأكله أكل جائع ، فأدركتني عليه الرأفة ، فقمت إليه بطعام طيب كثير ، فقلت له : قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع ، فدونك هـٰذا الطعامَ ، فنظر في وجهي وتبسم وقال : يا عبد الله ؛ إنما هي فَورة جوع ، فما أبالي بأي شيء رددتها .

فرجعت عنه ، فقال لي رجل إلىٰ جنبي : أتعرفه ؟ قلت : لا ، قال : إنه من بني هاشم ، من ولد العباس بن عبد المطلب ، كان يسكن البصرة فتاب ، فخرج منها ، فَتُفقِّد فما عُرِف له أثر ، ولا وُقِفَ له علىٰ خبر ، فأعجبني قوله .

ثم اجتمعتُ به وآنسته وقلت له : هل لك أن تعادلني ؛ فإنَّ معي فضلاً من راحلتي ؟ فجزاني خيراً وقال : لو أردت هـٰذا . . لكان لي مُعدّاً .

---

(١) رواه في « الأغاني » (٢/٥٥٢ ـ ٥٥٣) ، و« بهجة المجالس » (٢/٣٢٥ ـ ٣٢٦) ، والأبيات في « ديوان عدي بن زيد » (ص ٨٢ ـ ٨٣ ، ١٨٠) ، وفُدُم : جمع فِدام ، وفَدَّام ؛ وهو ما يوضع في فم الإبريق لتصفية ما فيه من شراب ، وتَرْدي : تعدو وترجم الأرض بحوافرها .

ثم أَنِسَ إليَّ ، فجعل يحدثني فقال : أنا رجل من ولد العباس ، كنت أسكن البصرة ، وكنت ذا كبْر شديد وبذخ ، وإني أمرت خادماً لي أن تحشو لي فراشاً من حرير ، ومخدةً بورد نثير ، ففعلت .

وإني لنائم ؛ إذا بقِمْعِ وردةٍ قد أغفلته الخادم ، فقمت إليها فأوجعتها ضرباً ، ثم عُدتُ إلىٰ مضجعي بعد إخراج القِمْعِ من المخدة ، فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة ، فهزَّني وقال : أَفِقْ من غشيتك ، أَبصِرْ من حَيرتك ، ثم أنشأ يقول : [من الكامل]

يَـا خَـدُّ إِنَّـكَ إِنْ تُوَسَّـدْ لَيِّنـاً ... وُسِّدْتَ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ صُمَّ ٱلْجَنْدَلِ
فَٱمْهَـدْ لِنَفْسِـكَ صَالِحـاً تَسْعَدْ بِـهِ ... فَلَتَنْدَمَـنَّ غَـداً إِذَا لَـمْ تَفْعَـلِ

فانتبهت فزعاً ، فخرجت من ساعتي هارباً إلىٰ ربي)[1] .

وقال عبد الواحد بن زيد : (ذُكِرَ لي أن في جوانب الأُبُلَّة جاريةً مجنونة ، تَنطِقُ بالحكمة ، فلم أزل أطلبها حتىٰ وجدتها في خَرِبة جالسةً علىٰ حجر ، وعليها جُبة صوف ، وهي محلوقة الرأس ، فلما نظرَتْ إلي . . قالت من غير أن أكلمها : مرحباً بك يا عبد الواحد ، فقلت لها : رحب الله بك ، وعجبت من معرفتها لي ولم ترني قبل ذٰلك .

فقالت : ما الذي جاء بك هٰهنا ؟ فقلت : جئت لتعظيني ، فقالت : وا عجباه لواعظ يُوعَظ ! ثم قالت : يا عبد الواحد ؛ اعلم أن العبد إذا كان في كفاية ، ثم مال إلى الدنيا . . سلبه الله حلاوة الزهد ، فيظل حيران والهاً ؛ فإنْ كان له عند الله نصيب . . عاتبه وحياً في سِره ؛ فقال : عبدي ؛ أردتُ أن أرفعَ قدرك عند ملائكتي وحملة عرشي ، وأجعلَك دليلاً لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٤٤) مختصراً ، وأورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١٨١/٣ ـ ١٨٢) ، وفيه : (عبد الله بن العلاء) بدل (عبد الله المعلم) .

فمِلْتَ إلىٰ عرض من أعراض الدنيا وتركتني ، فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس ، والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنىٰ ، عبدي ؛ ارجع إلىٰ ما كنت عليه . . أرجعْ لك ما كنت تعرفه من نفسك .

قال : ثم تركتْني وولَّتْ عني ، فانصرفتُ عنها وبقلبي حسرة منها)[1] .

وأنشدوا[2] : [من السريع]

إنَّــكَ فِــي دَارٍ لَهَــا مُــدَّةٌ ... يُقْبَــلُ فِيهَــا عَمَــلُ ٱلْعَامِــلِ

أَمَــا تَــرَى ٱلْمَــوْتَ مُحِيطــاً بِهَــا ... يَقْطَــعُ فِيهَــا أَمَــلَ ٱلآمِــلِ

تُعَجِّــلُ ٱلذَّنْــبَ لِمَــا تَشْــتَهِي ... وَتَأْمُــلُ ٱلتَّوْبَــةَ مِــنْ قَابِــلِ

وَٱلْمَــوْتُ يَأْتِــي بَعْــدَ ذَا غَفْلَــةً ... مَــا ذَا بِفِعْــلِ ٱلْحَــازِمِ ٱلْعَاقِــلِ

ولما نزل سعد بن أبي وقاص الحيرة . . قيل له : هٰهنا عجوز من بنات الملوك يقال لها : الحُرَقةُ بنتُ النعمانِ بنِ المنذر ، وكانت من أجمل عقائل العرب ، وكانت إذا خرجت إلىٰ بَيعتها . . نُشِرَتْ عليها ألفُ قطيفةِ خَزٍّ وديباج ، ومعها ألف وصيف ووصيفة .

فأرسل إليها سعد ، فجاءت كالشَّنِّ البالي ، فقالت : (يا سعد ؛ كنا ملوك هٰذا المصر قبلك ، يُجبىٰ إلينا خَراجُه ، ويطيعنا أهلُه مدة من المُدد ، حتىٰ صاح بنا صائح الدهر ، فشتَّت ملأنا ، والدهر ذو نوائب وصروف ، فلو رأيتنا في أيامنا . . لأُرعِدَتْ فرائصُك فَرَقاً منا .

فقال لها سعد : ما أنعمُ ما تنعمتم به ؟ قالت : سعة الدنيا علينا ، وكثرة الأصوات إذا دعونا ، ثم أنشأت تقول : [من الطويل]

وَبَيْنَــا نَسُــوسُ ٱلنَّــاسَ وَٱلْأَمْــرُ أَمْرُنَا ... إِذَا نَحْــنُ فِيهِمْ سُــوقَةٌ لَيْسَ نُنْصَفُ

---

(١) أورده مختصراً في « البحر المديد » (٤٠٩/٢) .

(٢) أورد الأبيات في « أدب الدين والدنيا » (ص ١٦٩) ، و« تاريخ دمشق » (٢٣٨/٥٦) ، وفي (٣٣٣/٣٣) منه : أن الأبيات كتبها الرضا إلى المأمون .

فَتَبّـاً لِدُنْيَـا لَا يَـدُومُ نَعِيمُهَـا   تَقَلَّـبُ تَـارَاتٍ بِنَـا وَتَصَـرَّفُ

ثم قالت : يا سعد ؛ إنه لم يكن أهل بيت بحَبْرَةٍ إلا والدهر يُعقِبُهم عَبْرة ، حتىٰ يأتي أمر الله على الفريقين ، فأكرمها سعد ، وأمر بردها .

فلما أرادت القيام . . قالت : يا سعد ؛ لا أزال الله عنك نعمة ، ولا جعل لك إلىٰ لئيم حاجة ، ولا أزال عن كريم نعمة ، ولا نزع عن عبد صالح نعمة . . إلا جعلك الله سبيلاً إلىٰ ردها عليه)(1) .

ولبعضهم(2) :   [من البسيط]

مَـنْ كَانَ يَعْلَـمُ أَنَّ ٱلْمَـوْتَ مُدْرِكُـهُ   وَٱلْقَبْـرَ مَسْـكَنُهُ وَٱلْبَعْـثَ مَخْرَجُـهُ

وَأَنَّــهُ بَيْــنَ جَنَّــاتٍ سَــتُبْهِجُهُ   يَـوْمَ ٱلْقِيَامَـةِ أَوْ نَـارٍ سَـتُنْضِجُهُ

فَكُلُّ شَـيْءٍ سِـوَى ٱلتَّقْوَىٰ بِهِ سَمِجٌ   وَمَـا أَقَـامَ عَلَيْـهِ مِنْـهُ أَسْـمَجُهُ

تَـرَى ٱلَّـذِي ٱتَّخَـذَ ٱلدُّنْيَـا لَـهُ وَطَنـاً   لَـمْ يَـدْرِ أَنَّ ٱلْمَنَايَـا سَـوْفَ تُزْعِجُـهُ

ورُوي أن عيسىٰ عليه السلام كان مع صاحب له يسيحان ، فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلىٰ قرية ، فقال عيسىٰ لصاحبه : (انطلق فاطلب لنا طعاماً من هـٰذه القرية ، وقام عيسىٰ عليه السلام يصلي ، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة ، فأبطأ عليه انصرافُ عيسىٰ فأكل رغيفاً ، فانصرف عيسىٰ ، فقال : أين الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا رغيفين .

قال : فمَرَّا علىٰ وجوههما حتىٰ مَرَّا بظباء ترعىٰ ، فدعا عيسىٰ عليه السلام ظبياً منها فذكاه فأكلا منه ، ثم قال عيسىٰ عليه السلام : قم بإذن الله ؛ فإذا هو يشتد ، فقال الرجل : سبحان الله ! فقال عيسىٰ عليه السلام : بالذي أراك هـٰذه

(1) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢٢٥) ، و« الجليس الصالح » (١/٤٤٠) ، والبيتان في « شرح ديوان الحماسة » للمرزوقي (٣/١٢٠٣) ، والسُّوقة : مَن دون الملك ، ونُنصف : نُخدم ، والحَبْرَة : السرور والنعمة .

(2) أورد الأبيات في « أدب الدين والدنيا » (ص ١٩٨) .

الآية ؛ مَنْ صاحب الرغيف ؟ قال : ما كانا إلا رغيفين .

قال : فمضيا علىٰ وجوههما ، فمرا بنهر عجَّاج عظيم ، فأخذ عيسىٰ عليه السلام بيده ، فمشىٰ به على الماء حتىٰ جاوزا الماء ، فقال الرجل : سبحان الله ! فقال عيسىٰ عليه السلام : بالذي أراك هـٰذه الآية ؛ مَنْ صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا اثنين .

فخرجا حتىٰ أتيا قرية عظيمة خربة ؛ وإذا قريب منها لَبِنٌ ثلاثٌ من ذهب ، فقال الرجل : هـٰذا مال ، فقال عيسىٰ عليه السلام : أجَلْ ، هـٰذا مال : واحدة لي ، وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف ، فقال الرجل : أنا صاحب الرغيف ، فقال عيسىٰ : هي لك كلها ، وفارقه .

فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه ، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه ، وأخذوا اللَّبِن ، فقال اثنان منهم لواحد : انطلق إلى القرية فَأْتِنا بطعام ، فذهب ، فقال أحد الباقيين للآخر : تعال . . نقتل هـٰذا إذا جاء ونَقسِم هـٰذا بيننا ، قال الآخر : نعم ، وقال الذي ذهبَ يشتري الطعام : أجعلُ في الطعام سمّاً فأقتلُهما وآخذُ اللَّبِن ، ففعل ، فلمَّا جاء . . قتلاه ، وأكلا من الطعام الذي جاء به فماتا ، فمرَّ بهم عيسىٰ عليه السلام وهم حولها مصروعون ، فقال : هـٰكذا تفعل الدنيا بأهلها)(١) .

وقال عبد الملك بن عمير : (رأيت في هـٰذا القصر بالكوفة عجباً ؛ رأيت رأس الحسين علىٰ ثوبين مصبوغين بين يدي ابن زياد ، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار ، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير ، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك بن مروان)(٢) .

وقال الأصمعي : (لمَّا زخرفَ الرشيدُ مجالسَه ، وتحرَّمَ فيها وزَوَّقها ، وصنع فيها طعاماً كثيراً . . أرسل إلىٰ أبي العتاهية وقال : صِفْ لنا ما نحن فيه من نعيم

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٧٧) ، وأورده الغزالي في « الإحياء » (٦/٢٤٩ ـ ٢٥١) .
(٢) أورده في « معرفة الثقات » (٢/١٠٥) ، و« ربيع الأبرار » (١/٥٦٧) .

هـٰذه الدنيا ، فقال : [من مجزوء الكامل]

عِـــشْ مَـــا بَـــدَا لَـــكَ آمِنـــاً ... فِـــي ظِـــلِّ شَـــاهِقَةِ ٱلْقُصُـــورِ

قال : أحسنت ، ثم ماذا ؟ فقال :

يَسْـــعَىٰ عَلَيْـــكَ بِمَـــا ٱشْـــتَهَيْـ ... ــتَ لَـدَى ٱلـرَّوَاحِ وَفِـي ٱلْبُكُـورِ

قال : أحسنت ، ثم ماذا ؟ فقال :

فَـــإِذَا ٱلنُّفُـــوسُ تَقَعْقَعَـــتْ ... فِـــي ضِيـــقِ حَشْـــرَجَةِ ٱلصُّـــدُورِ

فَهُنَـــاكَ تَعْلَـــمُ مُوقِنـــاً ... مَـــا كُنْـــتَ إِلَّا فِـــي غُـــرُورِ

فبكىٰ هارون ، فقال الفضل بن يحيىٰ : بعث إليك أمير المؤمنين لتسرَّه فأحزنته ، فقال هارون : دَعْهُ ؛ فإنه رآنا في ضلالة وعمىً ، فكَرِهَ أنْ يزيدَنا عمىً)[1] .

ويروىٰ أن سليمان بن عبد الملك لَبِسَ أفخر ثيابه ، ومسَّ أطيبَ طِيبه ، ونظر في مرآته فأعجبته نفسُه وقال : (أنا الملك الشاب ، وخرج إلى الجمعة وقال لجاريته : كيف ترين ؟ فقالت : [من الخفيف]

أَنْـتَ نِعْـمَ ٱلْمَتَـاعُ لَـوْ كُنْـتَ تَبْقَىٰ ... غَيْـــرَ أَنْ لَا بَقَـــاءَ لِلإِنْسَـــانِ

لَيْـسَ فِيمَـا بَـدَا لَنَـا مِنْـكَ عَيْـبٌ ... عَابَـهُ ٱلنَّـاسُ غَيْـرَ أَنَّـكَ فَانِـي

فأعرض بوجهه ، ثم خرج فصَعِدَ المنبر ، وصوته يسمع آخر المسجد ، فركبته الحُمَّىٰ ، فلم يزل صوته ينقص حتىٰ ما يسمعُه مَنْ حوله ، فصلىٰ ورجع بين اثنين يَسحَبُ رجليه .

فلما صار علىٰ فراشه . . قال للجارية : ما الذي قلتِ لي في صحن الدار وأنا خارج ؟ قالت : ما رأيتكَ ولا قلت لك شيئاً ، وأنىٰ لي بالخروج إلىٰ صحن

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٢١) ، والأبيات في « ديوان أبي العتاهية » (ص ١٣٦) .

الدار ؟! فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ نُعيتْ إليَّ نفسي ، ثم عَهِدَ عهدَه ، وأوصىٰ وصيتَه ، فلم تَدُرْ عليه الجمعة الأخرىٰ إلا وهو في قبره)[1] .

ووجد مكتوباً علىٰ قصر سيف بن ذي يزن[2] : [من الكامل]

مَـنْ كَانَ لَا يَطَـأُ ٱلتُّـرَابَ بِرِجْلِـهِ وَطِـئَ ٱلتُّـرَابَ بِصَفْحَـةِ ٱلْخَـدِّ
مَـنْ كَانَ بَيْنَـكَ فِـي التُّـرَابِ وَبَيْنَـهُ شِـبْرَانِ فَهْـوَ بِغَايَـةِ ٱلْبُعْـدِ
لَـوْ بُعْثِـرَتْ لِلنَّـاسِ أَطْبَـاقُ ٱلثَّـرَىٰ لَـمْ يُعْـرَفِ ٱلْمَوْلَـىٰ مِـنَ ٱلْعَبْـدِ

* * *

وقـال الهيثم بـن عَـدِي : (وجدوا غـاراً في جبـل لبنان زمـن الوليد بن عبد الملك ، وفيه رجل مُسـجّىً علىٰ سـرير من ذهب ، وعند رأسـه لوح من ذهب ، مكتوب فيه بالرومية :

أنا سبأ بن نُواس بن سبأ ، خدمت عيصو بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب الملك الأكبر ، وعشت بعده عمراً طويلاً ، ورأيت عجباً كثيراً ، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرىٰ مصارع آبائه ، ويقف علىٰ قبور أحبائه ، ويعلم أنه صائر إليهم ، ثم لا يتوب !

وقد علمت أن الأجلاف الجفاة سينزلونني عن سريري ويتولَّونه ، وذٰلك حين يتغير الزمان ، وتتأمَّر الصبيان ، ويكثر الحدثان ، فمن أدرك هـٰذا الزمان . . عاش قليلاً ، ومات ذليلاً)[3] .

ويروىٰ أن الإسكندر مر بمدينة قد ملكها أملاك سبعة وبادوا ، فقال : (هل

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٦١٥) ، وأورده بنحوه ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٤/٤٢٥) ، والبيتان لموسى بن يسار الملقب بشَهَوَات . انظر « الأغاني » (٣/١٢٠٧) ، و« الشعر والشعراء » (ص ٥٧٨) .

(٢) الأبيات لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٠٣) .

(٣) أورده في « المستطرف » (٣/٣٦٠) ، و« الروض المعطار » (ص ٥٠٨) ، وفيه : (ويتموَّلونه) بدل (ويتولونه) .

بقي من نسل الأملاك الذين ملكوا هٰذه المدينة أحد ؟ فقالوا : رجل يكون في المقابر ، فدعا به وقال له : ما دعاك إلىٰ لزوم المقابر ؟ قال : أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم ، فوجدت ذٰلك سواء .

قال : فهل لك أن تتبعَني فأحييَ بك شرف آبائك إن كانت لك همة ؟ قال : إن همتي لعظيمة إن كانت بغيتي عندك ، قال : وما بغيتك ؟ قال : حياة لا موت فيها ، وشباب لا هرم معه ، وغنىً لا يتبعه فقر ، وسرور لا يغيره مكروه ، قال : ما أقدر علىٰ هٰذا ، قال : فامض لشأنك ، وخلني أطلب بغيتي ممن هي عنده ، فقال الإسكندر : هٰذا أحكم من رأيت)[١] .

ويروىٰ في الإسرائيليات أن عيسى ابن مريم عليه السلام بينا هو في بعض سياحته . . إذ مر بجمجمةٍ نَخِرةٍ ، فأمرها أن تتكلم ، فقالت : (يا روح الله ؛ أنا بلوام بن حفص ملك اليمن ، عشت ألف سنة ، وولد لي ألف ذكر ، وافتضضت ألف بكر ، وهزمت ألف عسكر ، وقتلت ألف جبار ، وافتتحت ألف مدينة ، فمن رآني . . فلا يغتر بالدنيا ، فما كانت إلا كحلم نائم ، فبكىٰ عيسىٰ عليه السلام)[٢] .

ووجد مكتوباً علىٰ قصر بعض الملوك وقد باد أهله وأقفرت ساحته[٣] :

[من البسيط]

هَٰذِي مَنَازِلُ أَقْوَامٍ عَهِدْتُهُمُ ... يُوفُونَ بِٱلْعَهْدِ مُذْ كَانُوا وَبِٱلذِّمَمِ
تَبْكِي عَلَيْهِمْ دِيَارٌ كَانَ يُطْرِبُهَا ... تَرَنُّمُ ٱلْمَجْدِ بَيْنَ ٱلْحِلْمِ وَٱلْكَرَمِ

وقال عبد الله ابن أبي سرح : (نزل حي من العرب شِعباً من شِعاب اليمن ، فتشاحنوا فيه واختلفوا ، واستعدوا للقتال ؛ فإذا صائح يصيح : يا هٰؤلاء ؛ علىٰ

---

(١) رواه في « الجليس الصالح » (٤/١٢٤) ، وأورده في « التعازي والمراثي » (ص ٢٦١ ـ ٢٦٢) .
(٢) أورده في « مرشد الزوار » (ص ٩٠) ، و« المستطرف » (٣/٣٦١) .
(٣) أورده في « الحماسة البصرية » (٤/١٦٥٧) لسيدنا لبيد بن ربيعة رضي الله عنه ، و« مرشد الزوار » (ص ٩١) .

رِسلكم ، علام القتال فيَّ ؟! فوالله ؛ لقد ملكني سبعون أعور ، كلُّهم اسمه عمرو)[١] .

فَصْلٌ

[في ترغيب الملك بالاعتبار بمن مضىٰ من الملوك]

يا أيها الرجل ؛ اعتبر بمن مضىٰ من الملوك والأقيال ، وخلا من الأمم والأجيال ، وكيف بُسطت لهم الدنيا ، وأُنسئت لهم الآجال ، وأُفسح لهم في المنىٰ والآمال ، وأُمدُّوا بالآلات والعُدَد والأموال ؟! كيف طحنهم بكَلْكَله المنون[٢] ، واختدعهم بزُخرفه الدهرُ الخَؤون ، وأسكنوا بعد سعة القصور ، بين الجنادل والصخور ، وعاد العين أثراً ، والمُلكُ خبراً .

فأما اليوم . . فقد ذهب صفو الزمان وبقي كدره ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم .

كأن الخير أصبح خاملاً ، والشرَّ أصبح ناظراً ، وكأن الغي أصبح ضاحكاً ، وأدبر الرشد باكياً ، وكأن العدل أصبح غائراً ، وأصبح الجور عالياً ، وكأن العقل أصبح مدفوناً ، والجهل منشوراً ، وكأن اللؤم أصبح باسقاً ، والكرم ذاوياً ، وكأن الود أصبح مقطوعاً ، والبغضاء موصولة ، وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين ، ونوجي بها الأشرار ، وكأن الخِبَّ أصبح مستيقظاً ، والوفاء نائماً ، وكأن الكذب أصبح مثمراً ، والصدق ماحلاً ، وكأن الأشرار أصبحوا يُسامون السماء ، وأصبح الأخيار يَردُون بطن الأرض .

أما ترى الدنيا تُقبل إقبال الطالب ، وتدبر إدبار الهارب ، وتصل وصال الملول ، وتفارق فراق العجول ؛ فخيرها يسير ، وعيشها قصير ، وإقبالها خديعة ، وإدبارها فجيعة ، ولذاتها فانية ، وتبعاتها باقية .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الهواتف » (١١٩) .

(٢) كلكل المنون : مصائبه ونوائبه .

فاغتنم غفوة الزمان ، وانتهز فرصة الإمكان ، وخذ من نفسك لنفسك ، وتزود من يومك لغدك ، ولا تنافس أهل الدنيا في خفض عيشهم ، ولين رياشهم ، ولـٰكن انظر إلىٰ سرعة ظعنهم ، وسوء منقلبهم .

قال الشاعر (١) : [من المديد]

رُبَّ مَغْـــرُوسٍ يُعَـــاشُ بِـــهِ عَدِمَتْـــهُ كَـــفُّ مُغْتَرِسِـــهْ
وَكَـــذَاكَ ٱلدَّهْـــرُ مَأْتَمُـــهُ أَقْـــرَبُ ٱلْأَشْـــيَاءِ مِـــنْ عُرُسِـــهْ

وقد قال التِّهامي (٢) : [من الطويل]

نُنَافِسُ فِـي ٱلدُّنْيَـا غُـرُوراً وَإِنَّمَـا قُصَارَىٰ غِنَاهَا أَنْ تَؤُولَ إِلَى ٱلْفَقْرِ
وَإِنَّـا لَفِـي ٱلدُّنْيَـا كَرَكْـبِ سَـفِينَةٍ نُظَـنُّ وُقُوفـاً وَٱلزَّمَـانُ بِنَـا يَجْـرِي

ولبعض الشعراء (٣) : [من الطويل]

تَـرُوحُ لَنَـا ٱلدُّنْيَـا بِغَيْرِ ٱلَّـذِي غَدَتْ وَتَحْـدُثُ مِـنْ بَعْـدِ ٱلْأُمُـورِ أُمُـورُ
وَتَجْـرِي ٱللَّيَالِـي بِٱجْتِمَـاعٍ وَفُرْقَـةٍ وَتَطْلُـعُ فِيهَـا أَنْجُـمٌ وَتَغُـورُ
فَمَـنْ ظَـنَّ أَنَّ ٱلدَّهْـرَ بَـاقٍ سُـرُورُهُ فَـذَاكَ مُحَـالٌ لَا يَـدُومُ سُـرُورُ
عَفَـا ٱللهُ عَمَّـنْ صَيَّـرَ ٱلهَـمَّ وَاحِـداً وَأَيْقَـنَ أَنَّ ٱلدَّائِـرَاتِ تَـدُورُ

وقال وهب بن منبه : (قرأت في كتب بعض الأنبياء عليهم السلام : أن المسيح عليه السلام اجتاز بجمجمة هائلة عظيمة نخرة ، فقال له أصحابه : يا روح الله ؛ لو سألت الله تعالىٰ أن ينطق هـٰذه الجمجمة ، فعسىٰ أن تخبرنا بما رأته من العجائب .

ففعل ، فأنطقها الله تعالىٰ ، فقالت : يا رُوح الله ؛ إني عشت ألف سنة ،

---

(١) أورد البيتين في « البيان والتبيين » (٣/٢٠٢) ، و« عيون الأخبار » (٣/٦١) لسليمان بن الوليد الأعمىٰ .

(٢) البيتان في « ديوانه » (ص ٤٨٦) .

(٣) أورد الأبيات في « العقد الفريد » (٢/٤٤٤) بتقديم وتأخير .

واستولدت ألف ذكر ، وافتتحت ألف مدينة ، وهزمت ألف جيش ، وقتلت ألف جبار ، وصحبت الدهر واختبرته ، وامتحنت تقلبه وانقلابه ؛ فلم أر شيئاً أشد من طالح يلي أمر صالح ، ولم أجد لهٰذا الدهر شيئاً أنفع من الصبر ومسالمة أهله ، ولم أر هلاك أهله إلا في الحرص والطمع ، ووجدت العز في الرضا بالقسْم) .

وقال محمد بن أبي العتاهية : آخر شعر قاله أبي في مرضه الذي توفي فيه [1] : [من الوافر]

إِلَـٰهِي لَا تُعَذِّبْنِـي فَإِنِّـي ... مُقِـرٌّ بِٱلَّـذِي قَـدْ كَانَ مِنِّـي
وَمَـا لِـي حِيلَـةٌ إِلَّا رَجَائِـي ... وَعَفْـوُك إِنْ عَفَـوْتَ وَحُسْـنُ ظَنِّـي
فَكَـمْ مِـنْ زَلَّـةٍ لِـي فِـي ٱلْبَرَايَـا ... وَأَنْـتَ عَلَـيَّ ذُو فَضْـلٍ وَمَـنِّ
إِذَا فَكَّـرْتُ فِـي نَدَمِـي عَلَيْهَـا ... عَضِضْـتُ أَنَامِلِـي وَقَرَعْـتُ سِنِّـي
أُجَـنُّ بِزَهْـرَةِ ٱلدُّنْيَـا جُنُونـاً ... وَأَقْطَـعُ طُـولَ عُمْـرِي بِٱلتَّمَنِّـي
وَبَيْـنَ يَـدَيَّ مِيقَـاتٌ عَظِيـمٌ ... كَأَنِّـي قَـدْ دُعِيـتُ لَـهُ كَأَنِّـي
وَلَـوْ أَنِّـي صَدَقْـتُ ٱلزُّهْـدَ فِيهَـا ... قَلَبْـتُ لِأَهْلِهَـا ظَهْـرَ ٱلْمِجَـنِّ
يَظُـنُّ ٱلنَّـاسُ بِـي خَيْـراً وَإِنِّـي ... لَشَـرُّ ٱلنَّـاسِ إِنْ لَـمْ تَعْـفُ عَنِّـي

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (لمَّا قَدِمَ وَفدُ عبد القيس علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال : « أَيُّكُمْ يَعْرِفُ قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ ؟ » قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله ، قال : « لَسْتُ أَنْسَاهُ بِعُكَاظَ عَلَىٰ جَمَلٍ أَحْمَرَ ، وَهُوَ يَخْطُبُ ٱلنَّاسَ وَيَقُولُ : أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ اِجْتَمِعُوا ، فَإِذَا ٱجْتَمَعْتُمْ . . فَٱسْمَعُوا ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ . . فَعُوا ، فَإِذَا وَعَيْتُمْ . . فَقُولُوا ، فَإِذَا قُلْتُمْ . . فَٱصْدُقُوا .

مَنْ عَاشَ . . مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ . . فَاتَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ، إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ

---

(١) رواه في « الأغاني » (١٣٢٣/٤) ، والأبيات في « ديوان أبي العتاهية » (ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦) .

لَخَبَراً ، وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَراً ، مِهَادٌ مَوْضُوعٌ ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ ، وَنُجُومٌ تَمُورُ ، وَبُحُورٌ لَا تَغُورُ .

أَقْسَمَ قُسٌّ بِٱللهِ قَسَمَ حَقٍّ لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا إِثْمَ ؛ لَئِنْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ رِضاً .. لَيَكُونَنَّ سُخْطاً ، إِنْ لِلهِ دِيناً هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ .

مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ ، أَرَضُوا بِٱلْمَقَامِ فَأَقَامُوا ، أَمْ تُرِكُوا عَلَىٰ حَالِهِمْ فَنَامُوا ؟! » .

ثم قال : « أَيُّكُمْ يَرْوِي شِعْرَهُ ؟ » فأنشدوه : [من مجزوء الكامل]

فِـــي ٱلذَّاهِبِيـــنَ ٱلْأَوَّلِيـــ ... ـــنَ مِـنَ ٱلْقُـرُونِ لَنَـا بَصَائِـرْ
لَمَّـــا رَأَيْـــتُ مَـــوَارِداً ... لِلْمَـوْتِ لَيْـسَ لَهَـا مَصَـادِرْ
وَرَأَيْـــتُ قَوْمِـــي نَحْوَهَـــا ... تَمْضِـي ٱلْأَصَاغِـرُ وَٱلْأَكَابِـرْ
لَا يَرْجِـعُ ٱلْمَاضِـي إِلَيْـ ... ـكَ وَلَا مِـنَ ٱلْبَاقِيـنَ غَابِـرْ
سَـكَنُوا ٱلْبُيُـوتَ فَوُطِّنُـوا ... إِنَّ ٱلْبُيُـوتَ هِـيَ ٱلْمَقَابِـرْ
أَيْقَنْـتُ أَنِّـي لَا مَحَـا ... لَـةَ حَيْـثُ صَـارَ ٱلْقَـوْمُ صَائِـرْ

ثم قال رجل : لقد رأيت منه عجباً ، اقتحمت وادياً ؛ فإذا أنا بعين خرَّارة ، وروضة مُدهامَّة ، وشجرة عادِيَّة ، وإذا بقس بن ساعدة قاعدٌ في أصل الشجرة وبيده قضيب ، وقد ورد على العين سباع كثيرة ، فكلما ورد سبع علىٰ صاحبه .. ضربه بالعصا وقال : تنح حتىٰ يشرب الذي ورد قبلك .

فلمَّا رأيتُ ذٰلك .. ذُعِرْتُ ذُعراً شديداً ، فالتفتَ إليَّ وقال : لا تخف ، فالتفتُّ ؛ فإذا أنا بقبرين بينهما مسجد ، فقلت : ما هذان القبران ؟ فقال : هما قبرا أَخويَّ ، كانا يعبدان الله تعالىٰ معي في هٰذا الموضع ، وأنا أعبد الله بينهما حتىٰ ألحق بهما ، فقلت له : ألا تلحق بقومك فتكونَ في جيرتهم ، فقال لي : ثكلتك أمك ، أَوَما علمت أن ولد إسماعيل تركت دين أبيها ، واتبعت

الأصنام ، وعظمت الأنداد ؟! ثم تركني وأقبل على القبرين وقال : [من الطويل]

خَلِيلَيَّ هُبَّا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا … أَجِدَّكُمَا مَا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا
أَرَى ٱلنَّوْمَ بَيْنَ ٱلْجِلْدِ وَٱلْعَظْمِ مِنْكُمَا … كَأَنَّ ٱلَّذِي يَسْقِي ٱلْعُقَارَ سَقَاكُمَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسَمْعَانَ مُفْرَدٌ … وَمَا لِيَ فِيهِ مِنْ حَبِيبٍ سِوَاكُمَا
مُقِيمٌ عَلَىٰ قَبْرَيْكُمَا لَسْتُ بَارِحاً … طِوَالَ ٱللَّيَالِي أَوْ يُجِيبَ صَدَاكُمَا
أَأَبْكِيكُمَا طُولَ ٱلْحَيَاةِ وَمَا ٱلَّذِي … يَرُدُّ عَلَىٰ ذِي لَوْعَةٍ إِنْ بَكَاكُمَا
كَأَنَّكُمَا وَٱلْمَوْتُ أَقْرَبُ غَايَةٍ … بِرُوحِيَ فِي قَبْرَيْكُمَا قَدْ أَتَاكُمَا
سَلَامٌ وَتَسْلِيمٌ وَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ … وَمَغْفِرَةُ ٱلْمَوْلَىٰ عَلَىٰ سَاكِنَيْكُمَا
فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وِقَايَةً … لَجُدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكُمَا

وفي الحديث أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ »[(١)] يعني : أن كل أمة آمنت بنبيها تبعث أمة وحدها لا يخالطها غيرها ، ويُبعثُ قُسٌّ أيضاً وحدَه أمة ، ليس معه أحد .

* * *

وروي أنَّ المهدي نام يوماً ، فأُنشِدَ في منامه هـٰذه الأبيات[(٢)] : [من الطويل]

كَأَنِّي بِهَـٰذَا ٱلْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ … وَأَوْحَشَ مِنْهُ رُكْنُهُ وَمَنَازِلُهْ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ذِكْرُهُ وَحَدِيثُهُ … تُنَادِي بِلَيْلٍ مُعْوِلَاتٍ ثَوَاكِلُهْ

فما أتت عليه عاشرة عشرة حتىٰ مات .

---

(١) روى الخبر مع الأبيات البيهقي في « دلائل النبوة » (١٠٨/٢ ـ ١١٣) ، والطبراني في « الكبير » (٦٩/١٢ ـ ٧٠) مختصراً ، ورواه في « الأغاني » (٥٥٧١/١٥ ـ ٥٥٧٣) ، وخرَّارة : كثيرة الجريان ، ومدهامَّة : سوداء من شدة الخضرة ، وعادِيَّة : قديمة ، كأنها نسبت إلىٰ عاد وهم قوم هود النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أورده الطبري في « تاريخه » (١٧٠/٨ ـ ١٧١) ، ورواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٠١/١) مختصراً ، والبيت الأول أُنشِدَه المنصور أبو المهدي كما سيأتي في الصفحة الآتية .

وأنشدني القاضي أبو العباس الجُرجاني رحمه الله بالبصرة هذه الأبيات [1] : [من البسيط]

بِـٱللهِ رَبِّـكَ كَـمْ قَصْـرٍ مَـرَرْتَ بِـهِ ... قَـدْ كَانَ يُعْمَـرُ بِٱللَّـذَّاتِ وَٱلطَّـرَبِ

طَـارَتْ عُقَـابُ ٱلْمَنَايَـا فِـي جَوَانِبِهِ ... فَصَـارَ مِـنْ بَعْـدِهِ لِلْوَيْـلِ وَٱلْحَـرَبِ

اِعْمَـلْ وَكُـنْ طَالِبـاً لِلرِّزْقِ فِـي دَعَةٍ ... فَـلَا وَرَبِّـكَ مَـا ٱلْأَرْزَاقُ بِٱلطَّلَـبِ

وأنشدني أيضاً : [من الخفيف]

أَيُّهَـا ٱلرَّافِـعُ ٱلْبِنَـاءَ رُوَيْـداً ... لَـنْ تَـذُودَ ٱلْمَنُـونَ عَنْـكَ ٱلْمَبَانِـي

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْبِنَـاءَ يَبْقَـىٰ وَيَفْنَـىٰ ... كَلُّ شَـيْءٍ أَبْقَـىٰ مِـنَ ٱلْإِنْسَـانِ

وقال الحكم بن عمرو : قال أبو جعفر المنصور عند موته : (اللهم ؛ إن كنت تعلم أني ارتكبت الأمور العظام جرأةً مني عليك .. فإنك تعلم أني قد أطعتك في أحب الأشياء إليك ؛ شهادةِ أن لا إلـٰه إلا الله ، منّاً منك لا منّاً عليك .

وكان سبب إحرامه من الخضراء : أنه كان يوماً نائماً ، فأتاه آتٍ في منامه فقال : [من الطويل]

كَأَنِّـي بِـهَـٰذَا ٱلْقَصْـرِ قَـدْ بَـادَ أَهْلُـهُ ... وَأَوْحَـشَ مِنْـهُ أَهْلُـهُ وَمَنَازِلُـهْ

وَصَـارَ عَمِيدُ ٱلْقَصْرِ مِـنْ بَعْدِ بَهْجَةٍ ... إِلَـىٰ تُرْبَـةٍ تُسْـفَىٰ عَلَيْـهِ جَنَادِلُـهْ

فاستيقظ مرعوباً ، ثم نام فأُنشِدَ هـٰذه الأبيات : [من الطويل]

أَبَـا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَفَاتُـكَ وَٱنْقَضَتْ ... سِـنُوكَ وَأَمْـرُ ٱللهِ لَا بُـدَّ وَاقِـعُ

فَهَـلْ كَاهِـنٌ أَعْدَدْتَـهُ أَوْ مُنَجِّـمٌ ... أَبَـا جَعْفَـرٍ عَنْـكَ ٱلْمَنِيَّـةَ دَافِـعُ

---

(١) أورد البيتين الأولين في « عيون الأخبار » (٣٠٤/٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٢٣٠/م) ، ورواها في « تاريخ بغداد » (١٤٥/٦) منسوبة إلىٰ إبراهيم بن المهدي ، والحَرَب : الهلاك .

فقال : يا ربيع ؛ ائتني بطَهوري ، فقام فاغتسل ولبَّىٰ وتجهَّز للحج ، ثم قال : يا ربيع ؛ أَلقِني في حرم الله تعالىٰ)[١] .

وأنشدني القاضي أبو العباس الجرجاني بالبصرة[٢] : [من البسيط]

إِنْ كُنْتَ تَسْمُو إِلَى ٱلدُّنْيَا وَزِينَتِهَا فَٱنْظُرْ إِلَىٰ مَلِكِ ٱلْأَمْلَاكِ قَارُونِ
زَمَّ ٱلْأُمُورَ فَأَعْطَتْهُ مَقَادَتَهَا وَسَخَّرَ ٱلنَّاسَ بِٱلتَّشْدِيدِ وَٱللِّينِ
حَتَّىٰ إِذَا ظَنَّ أَنْ لَا شَيْءَ غَالِبُهُ وَمُكِّنَتْ قَدَمَاهُ أَيَّ تَمْكِينِ
رَاحَتْ عَلَيْهِ ٱلْمَنَايَا رَوْحَةً تَرَكَتْ ذَا ٱلْمُلْكِ وَٱلْعِزِّ تَحْتَ ٱلْمَاءِ وَٱلطِّينِ

وأنشدني أبو محمد التميمي ببغداد[٣] : [من الوافر]

لِمَنْ أَبْنِي لِمَنْ أَسِمُ ٱلْمَطَايَا لِمَنْ أَسْتَأْنِفُ ٱلشَّيْءَ ٱلْجَدِيدَا
إِذَا مَا صَارَ إِخْوَانِي رُفَاتاً وَصِرْتُ لِفَقْدِهِمْ فَرْداً وَحِيدَا
أُعَايِنُ مَعْشَراً لَهُمْ شُكُولٌ وَأَشْكَالِي قَدِ ٱعْتَنَقُوا ٱللُّحُودَا

❁ ❁ ❁

وممن زَهِدَ في الدنيا وأبصر عيوبها من أبناء الملوك : أبو عقال عَلوان بنُ الحسن ، من بني الأغلب ؛ وهم ملوك المغرب ، وكان ذا نعمة ومُلك ، وله فتوة ظاهرة ، فتاب إلىٰ ربه ، ورجع عن ذٰلك رجوعاً فاق نظراءه ، فرفض المال والأهل ، وهجر النساء والوطن ، وبلغ من العبادة مبلغاً أربىٰ فيه على المجتهدين ، وعُرف بإجابة الدعوة ، وكان عالماً أديباً ، قد صحب عدة من أصحاب سَحْنُون ، وسمع منهم .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٢/٣١٠ ـ ٣١١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢١٠) مختصراً ، وفيهما : (الحكم بن عثمان) بدل (الحكم بن عمرو) ، ورواه الطبري في « تاريخه » (٨/١٠٧) مختصراً ، وتسفىٰ عليه جنادله : يوضع عليه التراب والصخور .
(٢) أورد الأبيات في « البحر المديد » (٤/٢٨٠) .
(٣) روى الأبيات في « الأمالي الشجرية » (١/٢٦٦) للعلوي الحماني ، وأورد البيت الثالث في « محاضرات الأدباء » (٣/٦٤٨) .

ثم انقطع في بعض سواحل البحر ، فصحب رجلاً يكنىٰ أبا هارون الأندلسي ، منقطعاً متبتلاً إلى الله تعالىٰ ، فلم ير منه كبير اجتهاد في العمل .

فبينا أبو عقال يتهجد في بعض الليالي وأبو هارون نائم . . إذ غالبه النوم ، فقال لنفسه : يا نفس ؛ هـٰذا عابد جليل القدر ، ينام الليل كله ، وأنا أسهر الليل كله ، فلو أرحت نفسي .

فوضع جنبه ، فرأىٰ في منامه شخصاً ، فتلا عليه : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

فاستيقظ فزعاً ، وعلم أنه المراد ، فأيقظ أبا هارون وقال له : (سألتك بالله ؛ هل أتيتَ كبيرة قط ؟ قال : لا يا بن أخي ، ولا صغيرةً عن تعمد والحمد لله ، فقال أبو عقال : لهـٰذا تنام أنت ، ولا يصلح لمثلي إلا الكد والاجتهاد .

ثم رحل إلىٰ مكة ، ولزم بيت الله الحرام ، وحج مراراً ، وأربىٰ علىٰ عُبَّاد المشرق ، وكان يعمل بالقِرْبة علىٰ ظهره لقُوتِه ، ومات بمكة وهو ساجد في صلاة الفريضة بالمسجد الحرام سنة ست وتسعين ومئتين .

وقال له رجل كان يصحبه يوماً : لي إليك حاجة ، فقال له بعد الجهد به : حاجتك مقضية ، قال : إن كانت لك شهوة . . فأخبرني بها ، قال : نعم ، أشتهي أن آكل رأساً ، فاشتريت له رأسين ولففتهما في رُقاق وجئته بهما ، ثم سألته بعد أيام : هل طاب لك الرأسان ؟ قال : لا ، ما هو إلا أن فتحتهما ؛ فإذا هما محشوان دوداً ، ليس فيهما ألبتةَ لحم إلا الدُّود .

فأتيت الروّاس فأخبرته ، فأطرق متعجباً ، ثم قال : ما ظننت أن في زماننا أحداً يُحمَىٰ عن الحرام هـٰذه الحماية ، تلك الرؤوس كانت من غنم انتهبها

---

(١) سورة الجاثية : (٢١) .

بعض العمال ، ثم أعطاني رأسين من غير تلك الغنم ، فأتيت بهما أبا عقال فأكلهما ، وأخبرته بما قال الروَّاس فبكىٰ ، ثم قال : يا رب ؛ ما كان يستحق عبدك أبو عقال مثل هـٰذه الحماية ، ولـٰكنه يا رب فضلك وكرمك ، فلك عليَّ يا رب ألا آكل طعاماً بشهوة أشتهيها حتىٰ ألقاك إن شاء الله تعالىٰ .

وكانت له أخت متعبدة ، فلما مات .. لحقت قبره بمكة ، فكتبت هـٰذه الأبيات علىٰ قبره : [من الرمل]

لَيْـتَ شِـعْرِي مَـا ٱلَّـذِي عَايَنْتَـهُ ... بَعْـدَ دَوْمِ ٱلصَّـوْمِ مَـعْ نَفْـيِ ٱلْوَسَـنْ
مَـعْ عُـزُوبِ ٱلنَّفْـسِ عَـنْ أَوْطَارِهَـا ... وَٱلتَّخَلِّـي عَـنْ حَبِيـبٍ وَسَـكَنْ
يَـا شَـقِيقاً لَيْـسَ فِـي وَجْـدِي بِـهِ ... عِلَّـةٌ تَمْنَعُنِـي مِـنْ أَنْ أُجَـنّْ
وَكَمَـا تَبْلَـىٰ وُجُـوهٌ فِـي ٱلثَّـرَىٰ ... فَكَـذَا يَبْلَـىٰ عَلَيْهِـنَّ ٱلْحَـزَنْ

وروي أن رجلين تنازعا في أرض ، فأنطق الله لَبِنةً من جدار تلك الأرض ، فقالت : (إني كنت ملكاً من الملوك ، ملكت الدنيا ألف سنة ، ثم مت وصرت رميماً ألف سنة ، فأخذني خَزَّافٌ واتخذني خَزَفاً ، ثم أخذني وضربني لَبِناً ، فأنا في هـٰذا الجدار منذ كذا وكذا سنة ، فَلِمَ تتنازعان في هـٰذه الأرض ؟!) (١) .

ولبعضهم (٢) : [من الطويل]

أَلَا حَـيّ مِنْ أَجْـلِ ٱلْحَبِيبِ ٱلْمَغَانِيَا ... لَبِسْـنَ ٱلْبِلَـىٰ مِمَّـا لَبِسْـنَ ٱللَّيَالِيَـا
إِذَا مَـا تَقَاضَـى ٱلْمَـرْءَ يَـوْمٌ وَلَيْلَـةٌ ... تَقَاضَـاهُ شَـيْءٌ لَا يَمَـلُّ ٱلتَّقَاضِيَـا
حَنَتْـكَ ٱللَّيَالِـي بَعْدَمَـا كُنْـتَ مُـدَّةً ... سَـوِيَّ ٱلْعَصَـا لَـوْ كُـنَّ يُبْقِيـنَ بَاقِيَا

* * *

ومن أعجب ما روي في الإسرائيليات : أن ابنة من بنات الملوك زَهِدَت في

(١) أورده في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٣٠) ، و« التذكرة بأحوال الموتىٰ » (١/١٦٧) .
(٢) الأبيات لأبي حية النميري في « ديوانه » (ص ١٠٠ ـ ١٠١) .

الدنيا ، وتابت وخرجت من ملكها ، ففُقدت ؛ فلم يُسمع لها خبر ، ولا عُلِمَ لها أثر .

وكان هناك دير للمتعبدين ، فلحق بهم شاب يتعبد ، فأبصروا منه من الاجتهاد والجد في العمل ، وملازمة الأوراد ، ومواصلة الأعمال . . ما فاق به جميع من في الدير .

فأقام علىٰ ذٰلك ما شاء الله إلىٰ أن انقضت أيامُه ، ووافاه حِمامُه ، فقضى الفتىٰ نحبه ، فحزن له أهل الدير من الزهاد والعباد والمنقطعين ، وأذرَوْا عليه الدموع ، ثم أخذوا في غسله ؛ فإذا هو امرأة ، ففحصوا عن أمرها ؛ فإذا هي بنت الملك ، فزادهم ذٰلك إعجاباً بها وتعظيماً لها ، وتشاوروا في أمرها ماذا يُحدِثُون لها من الكرامة .

ثم أجمعوا أمرهم ألا يدفنوها تحت الثرىٰ ، وألا يحملوها إلا فوق أكفهم ، فغسلوها وكفنوها وجهزوها وصلَّوْا عليها ، ثم أقبلوا يحملونها على الأكف والسواعد ؛ كلما ضجر واحد . . جاء آخر يحمل مع من يحمل ، وكل من انقطع في الدير لعبادة ربه جعل يحمل معهم إلىٰ أن بَلِيَتْ ، وتقطعت أوصالها مع طول الزمان ، فدفنت حينئذ ، رحمها الله .

وكان في بلاد الروم مما يلي أرضَ الأندلس رجلٌ نصراني ، قد بلغ في التخلي من الدنيا ، واعتزال الخلق ، ولزوم قُلَل الجبال ، والسياحة في الأرض . . إلى الغاية القصوىٰ ، فورد على المستعين بن هود في بعض الأمر ، فأكرمه ابن هود ، ثم أخذ بيده وجعل يعرض عليه ذخائر ملكه ، وخزائن أمواله ، وما حوته من البيضاء والحمراء ، وأحجارِ الياقوت والجواهر ، وأمثالها ، ونفائس الأعلاق ، والجواري ، والحشم ، والأجناد ، والكُرَاع [1] ، والسلاح ، فأقاموا في ذٰلك أياماً .

(١) الكراع : اسم لجميع الخيل .

فلمَّا انقضت . . قال له : كيف رأيت ملكي ؟ قال : قد رأيت ملكاً ! ولـٰكنه يُعوِزُكَ فيه خَصلةٌ ؛ إن أنت قدرت عليها . . ففيها نظام ملكك ، وإن لم تقدر عليها . . فهـٰذا المُلكُ لا شيء ، قال : وما تلك الخصلة ؟ قال : تعمِدُ فتصنع غطاء عظيماً حصيناً قوياً ، وتكون مساحته قدر البلد ، ثم تَكُبُّه على البلد حتىٰ لا يجد ملكُ الموت مدخلاً إليك ، فقال المستعين : سبحان الله ! أَوَيقدِرُ البشرُ علىٰ هـٰذا ؟! فقال العِلْجُ : يا هـٰذا ؛ أتفتخر بأمر تتركه غداً ؟! **ومثال من يفتخر بما يفنىٰ كمن يفتخر بما يراه في النوم .**

ويروىٰ أن ملكاً من الملوك بنىٰ قصراً وقال : (انظروا من عاب منه شيئاً فأصلحوه وأعطوه درهمين ، فأتاه رجل فقال : إنَّ في هـٰذا القصر عيبين ، قال : وما هما ؟ قال : يموتُ المَلِك ، ويَخرَبُ القصر ، قال : صدقت) ، ثم أقبل علىٰ نفسه ، وترك الدنيا[١] .

❁ ❁ ❁

ومن عجائب أخبار الخضر عليه السلام : قال : سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رأيته في الدنيا في طول سياحتك ، وكثرة خلواتك ، وقطعك القفار والفلوات ، قال : (أعجبُ شيء رأيته : أني مررت علىٰ مدينة لم أر علىٰ وجه الأرض أحسن منها ، فسألت بعضهم : متىٰ بنيت هـٰذه المدينة ؟ فقالوا : سبحان الله ! ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متىٰ بُنِيَتْ هـٰذه المدينة ، وما زالت كذٰلك من عهد الطوفان .

ثم غِبْتُ عنها نحواً من خمس مئة عام ، وعبرت عليها بعد ذٰلك ؛ فإذا هي خاوية علىٰ عروشها ، ولم أر أحداً أسأله ، وإذا رعاة غنم ، فدنوت منهم فقلت : أين المدينة التي كانت هـٰهنا ؟ فقالوا : سبحان الله ! ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كانت هـٰهنا مدينة قط .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٠٥) ، وأورده بنحوه الزمخشري في « ربيع الأبرار » (١/٥٩) .

فغبت عنها نحواً من خمس مئة عام ، ثم انتهيت إليها ؛ فإذا موضع تلك المدينة بحر ، وإذا غواصون يُخرِجُون منه شِبْهَ الحلية ، فقلت لبعض الغواصين : منذ كم كان هٰذا البحر هٰهنا ؟ فقالوا : سبحان الله ! ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هٰذا البحر منذ بعث الله الطُّوفان .

فغبت عنها نحواً من خمس مئة عام ، ثم انتهيت إليها ؛ فإذا ذٰلك البحر قد غاض ماؤه ، وإذا مكانه غيضةٌ ملتفَّةٌ بالقصب والبَرْدِيِّ والسباع ، وإذا صيادون يصيدون السمك في زوارق صغار ، فقلت لبعضهم : أين البحر الذي كان هٰهنا ؟ فقالوا : سبحان الله ! ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان هٰهنا بحر .

فغبت عنها نحواً من خمس مئة عام ، ثم أتيت إلىٰ ذٰلك الموضع ؛ فإذا هو مدينة علىٰ حالها الأولىٰ ، والحصون والقصور والأسواق قائمة ، فقلت لبعضهم : أين الغيضة التي كانت هٰهنا ؟ ومتىٰ بنيت هٰذه المدينة ؟ فقال : سبحان الله ! ما يذكر أحد إلا أن هٰذه المدينة علىٰ حالها منذ بعث الله الطُّوفان .

فغبت عنها نحواً من خمس مئة عام ، ثم انتهيت إليها ؛ فإذا عاليها سافلُها ، وهي تَدخُنُ بدخان شديد ، فلم أر أحداً أسأله ، ثم رأيت راعياً فسألته : أين المدينة التي كانت هٰهنا ؟ ومتىٰ حدث هٰذا الدخان ؟ فقال : سبحان الله ! ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هٰذا الموضع كان هٰكذا منذ كان ، فهٰذا أعجب شيء رأيته في سياحتي في الدنيا !)[١] .

فسبحان مبيد العباد ، ومفني البلاد ، ووارثِ الأرضِ ومن عليها ، وباعث من خُلِقَ منها إليها ، وهو خير الوارثين !

قال الشاعر[٢] : [من الكامل]

قِـفْ بِٱلدِّيَـارِ فَـهَـٰذِهِ آثَارُهُـمْ تَبْكِـي ٱلْأَحِبَّـةَ حَسْـرَةً وَتَشَـوُّقَا

---

(١) أورده في « المستطرف » (٣/٣٦٢) ، وانظر « تاريخ دمشق » (١/١٤) .

(٢) رواه في « طبقات الصوفية » (ص ٢٦٤) ، و« حلية الأولياء » (١٠/٣٤٨) ، و« تاريخ بغداد » (٥/١٩٩) .

كَـمْ قَـدْ وَقَفْـتُ بِهَـا أُسَـائِلُ مُخْبِراً ... عَـنْ أَهْلِهَـا أَوْ صَادِقـاً أَوْ مُشْـفِقَا

فَأَجَابَنِـي دَاعِـي ٱلْهَوَىٰ فِي رَسْـمِهَا ... فَارَقْـتَ مَـنْ تَهْـوَىٰ فَعَـزَّ ٱلْمُلْتَقَـىٰ

وسمعت بالعراق منشداً ينشد هـٰذه الأبيات[1] : [من الرمل]

أَيُّهَـا ٱلرَّبْـعُ ٱلَّـذِي قَـدْ دَثَـرَا ... كَانَ عَيْنـاً ثُـمَّ أَضْحَـىٰ أَثَـرَا

أَيْـنَ سُـكَّانُكَ مَـاذَا فَعَلُـوا ... خَبِّـرَنْ عَنْهُـمْ سُـقِيتَ ٱلْمَطَـرَا

فَأَجَـابَ ٱلرَّبْـعُ لَمَّـا أَنْ رَأَىٰ ... دَمْـعَ عَيْنَـيَّ جَـرَىٰ مُنْحَـدِرَا

وَلَقَـدْ نَـادَىٰ مُنَـادِي دَارِهِـمْ ... رَحَلُـوا وَٱسْـتَوْدَعُونِي عِبَـرَا

ومن الشعر المستحسن في هـٰذا الباب قول القائل[2] : [من الرمل]

رُبَّ وَرْقَـاءَ هَتُـوفٍ فِـي ٱلضُّحَـىٰ ... ذَاتِ شَـجْوٍ صَدَحَـتْ فِـي فَنَـنِ

ذَكَـرَتْ إِلْفـاً وَدَهْـراً صَالِحـاً ... فَبَكَـتْ حُزْنـاً فَهَاجَـتْ حَزَنِـي

فَبُكَائِـي رُبَّمَـا أَرَّقَهَـا ... وَبُكَاهَـا رُبَّمَـا أَرَّقَنِـي

فَـإِذَا تُسْـعِدُنِي أُسْـعِدُهَا ... وَإِذَا أُسْـعِدُها تُسْـعِدُنِي

وَلَقَـدْ تَشْـكُو فَمَـا أَفْهَمُهَـا ... وَلَقَـدْ أَشْـكُو فَمَـا تَفْهَمُنِـي

غَيْـرَ أَنِّـي بِٱلْجَـوَىٰ أَعْرِفُهَـا ... وَهْـيَ أَيْضـاً بِٱلْجَـوَىٰ تَعْرِفُنِـي

أَتُرَاهَـا بِٱلْبُـكَا مُولَعَـةً ... [أَمْ] سَـقَاهَا ٱلْبَيْـنُ مَـا جَرَّعَنِـي

ونظر رجل من العُبَّاد إلىٰ باب ملكٍ من الملوك ، وقد شيَّده وأتقنه وزوَّقه ، فقال : (باب جديد ، وموت عتيد ، ونزع شديد ، وسفر بعيد)[3] .

---

(١) أورد الأبيات في « المستطرف » (٣/٣٦٤) ، و« مرشد الزوار » (١/٩٢) من دون البيت الثالث .

(٢) الأبيات لأبي بكر الشِّبلي في « ديوانه » (ص ١٥٢) إلا البيت الرابع والسابع فليسا فيه ، وهما في « الكشكول » (٢/٣٥٦) ، والزيادة في البيت السابع من « الكشكول » ، وبها يستقيم الوزن .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/٢٨٦) ، و« البصائر والذخائر » (١/١٤) ، وموت عتيد : معد حاضر .

ولمَّا ثقل عبد الملك بن مروان .. رأىٰ غسَّالاً يلوي بيده ثوباً ، فقال : (وَدِدْتُ أني كنت غسَّالاً لا أعيش إلا بما أكتسبه يوماً فيوماً ، فبلغ ذٰلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ، ولا نتمنىٰ عنده ما هم فيه)(١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَعَيْنٍ لَا تَدْمَعُ »(٢) .

و : « هَلْ يَتَوَقَّعُ أَحَدُكُمْ مِنَ ٱلدُّنْيَا إِلَّا غِنىً مُطْغِياً ، أَوْ فَقْراً مُنْسِياً ، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً ، أَوْ هَرماً مُفَنِّداً ، أَوِ ٱلدَّجَّالَ وَٱلدَّجَّالُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوِ ٱلسَّاعَةَ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ؟! »(٣) .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : (أوحى الله تعالىٰ إلى الدنيا : من خدمني .. فاخدميه ، ومن خدمك .. فاستخدميه ، يا دنيا ؛ مُرِّي علىٰ أوليائي ، ولا تَحلَولِي لهم فتَفتنيهم)(٤) .

وقال مُورِّق العِجْلي : (يا بن آدم ؛ في كل يوم تؤتىٰ برزقك وأنت تحزن ، وينقص عمرك وأنت لا تحزن ، تطلب ما يطغيك ، وعندك ما يكفيك ، لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع !)(٥) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ إِنَّ ٱلْأَيَّامَ تُطْوَىٰ ، وَٱلْأَعْمَارَ تَفْنَىٰ ، وَٱلْأَبْدَانَ فِي ٱلثَّرَىٰ تَبْلَىٰ ، وَإِنَّ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ يَتَرَاكَضَانِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٥) ، وأورده المبرد في « التعازي والمراثي » (ص ٢٢٦) ، والماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ١٩٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢) عن سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٦) ، والحاكم (٣٢٠/٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (١٤) ، وأورده الجاحظ في « البيان والتبيين » (١٦٦/٣) ، والماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ١٨٤) كلهم بنحوه .

(٥) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٢٩/٣) عن شُمَيط بن عَجْلان ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٨٨٧٥) عن سيدنا عمر رضي الله عنه مرفوعاً .

تَرَاكُضَ ٱلْبَرِيدِ ؛ يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ ، وَيُخْلِقَانِ كُلَّ جَدِيدٍ ، وَفِي ذَٰلِكَ عِبَادَ ٱللَّهِ مَا أَلْهَىٰ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ ، وَرَغَّبَ فِي ٱلْبَاقِيَاتِ ٱلصَّالِحَاتِ »(١) .

وقال بعض الحكماء : الدنيا كالماء الملح ؛ كلما ازداد صاحبه شرباً . . ازداد عطشاً ، وكالكأس من العسل في أسفله السَّم ؛ فللذائق منه حلاوة عاجلة ، وله في أسفله الموت الذُّعاف ، وكأحلام النائم التي تفرحه في منامه ، فإذا استيقظ . . انقطع الفرح ، وكالبرق الذي يضيء قليلاً ، ويذهب وشيكاً ، ويبقىٰ راجيه في الظلام مقيماً ، وكدودة الإبرَيْسَم التي لا يزداد الإبرَيْسَم علىٰ نفسها لفاً إلا ازدادت من الخروج بعداً ، وفيه قال القائل(٢) : [من الطويل]

كَـدُودٌ كَـدُودِ ٱلْقَـزِّ يَنْسُـجُ دَائِمـاً ... وَيَهْلِـكُ غَمّـاً وَسْـطَ مَا هُوَ نَاسِـجُهْ

ومثال من يستعمل زهرة الدنيا ويُعرض عن الدار الآخرة . . مثال رجلين لقطا من الأرض حبتي عنب ؛ فأما أحدهما . . فجعل يَمَصُّ الحبة التذاذاً بها ، ثم بلعها ، وأما الآخر . . فزرع الحبة .

فلما كان بعد زمان . . التقيا ؛ فإذا الذي زرع الحبة . . وجدها قد صارت له كَرْماً ، وكثرت ثمرته ، وفكر الآخرُ في صنعه في الحبة ، فوجدها قد صارت عَذِرةً ، وليس عنده منها شيء إلا الحسرة علىٰ تفريطه والغبطة لصاحبه .

وقال وهب بن منبه : (أوحى الله تعالىٰ إلىٰ نبي من أنبياء بني إسرائيل : إن أردت أن تسكن معي في حظيرة القدس . . فكن في الدنيا فريداً وحيداً ، مهموماً وحيشاً ، بمنزلة الطير الوَحْداني ، الذي يظل في الأرض الفلاة ، ويأكل من رؤوس الشجر ، ويشرب من ماء العيون ، فإذا كان الليل . . أوىٰ وحده ، ولم يأو مع الطير استئناساً بربه)(٣) .

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ١٩٢) .
(٢) البيت لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص ٤١٧) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (١٣٥) .

ولبعضهم[1] : [من الكامل]

كَمْ لِلْحَوَادِثِ مِـنْ صُرُوفِ عَجَائِبٍ ... وَنَوَائِـــبٍ مَوْصُولَـــةٍ بِنَوَائِـــبِ
وَلَقَـدْ تَقَطَّـعَ مِـنْ شَـبَابِكَ وَٱنْقَضَىٰ ... مَـا لَسْـتُ أَعْلَمُـهُ إِلَيْـكَ بِآيِـبِ
تَبْغِـي مِـنَ ٱلدُّنْيَـا ٱلْكَثِيـرَ وَإِنَّمَـا ... يَكْفِيـكَ مِنْهَـا مِثْـلُ زَادِ ٱلرَّاكِـبِ

وقال مالك بن أنس : بلغني أن عيسى ابن مريم عليه السلام انتهىٰ إلىٰ قرية قد خَرِبَتْ حصونها ، وجفت أنهارها ، وتشعث شجرها ، فنادىٰ : (يا خرابِ ؛ أين أهلك ؟ فلم يجبه أحد ، ثم نادىٰ : يا خراب ؛ أين أهلك ؟ فلم يُجِبْه أحد ، فنودي : عيسى ابن مريم ؛ بادوا وتضمَّنتهم الأرض ، وعادت أعمالهم قلائد في أعناقهم إلىٰ يوم القيامة ، يا عيسى ابن مريم ؛ فَجِدَّ)[2] .

قال مالك : سئلت امرأة من بقية قوم عاد يقال لها : هُرَيمة : (أيَّ عذابِ اللهِ رأيتِ أشد ؟ قالت : كلُّ عذابِ الله شديد ، وسلام الله ورحمته علىٰ ليلة لا ريح فيها ، ولقد رأيتُ العِيرَ تحملُها الريحُ بين السماء والأرض)[3] .

وقال مجاهد : (كان طعام يحيى بن زكريا عليهما السلام العشب ، وإن كان ليبكي من خشية الله ما لو كان القارُ علىٰ عينيه لَخَرقه ، ولقد كانت الدموع اتخذت مجرىً في وجهه)[4] .

ومر بعض الملوك بسُقراطَ الحكيم وهو نائم ، فركضه برجله وقال : (قم ، فقام غيرَ مرتاعٍ منه ولا ملتفتٍ إليه ، فقال له الملك : أما تعرفني ؟ فقال : لا ، ولٰكني أرىٰ فيك طبع الدواب ، فهي تركض بأرجلها ، فغضب وقال : أتقول لي هٰذا وأنت عبدي ؟! فقال له سقراط : بل أنت عبد عبدي ، قال : وكيف ذٰلك ؟

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٤٣) .
(٢) أورده في « الهداية إلىٰ بلوغ النهاية » (٤٥٣٢/٧ ـ ٤٥٣٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (١٩٤/١٤) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (١٣٢) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٨٣٩) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » من زوائد نعيم (١٧٧) ، وابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٤٠٥) ، والقار : الزِّفت ، وهو مادة سوداء صُلبة تسيلها السخونة .

قال : لأن شهواتك قد ملكتك ، وأنا ملكت الشهوات ، قال : فأنا الملك ابن الأملاك السادة ، أملك من البلاد كذا ، ومن الأموال والرجال كذا ، قال : أراك تفخر علي بما ليس من جنسك ، وإنما سبيلك أن تفخر بنفسك ، ولٰكن تعال نخلع ثيابنا ، ونلبس جميعاً ثوباً من ماء في هٰذا النهر ونتكلم ، فحينئذ يتبين الفاضل من المفضول ، فانصرف الملك خجلاً)[١] .

وفي معناه أنشد[٢] : [من البسيط]

لَئِـنْ فَخَـرْتَ بِآبَـاءٍ ذَوِي حَسَـبٍ ... لَقَـدْ صَدَقْتَ وَلَٰكِنْ بِئْـسَ مَا وَلَدُوا

وهـٰأنا أحكي لك أمراً أصابني ، طيَّشَ عقلي ، وبَلبلَ حزمي ، وقطَّعَ نِياط قلبي[٣] ، ولا يزال مرآةً لي حتىٰ يواريني التراب : وذٰلك أني كنت يوماً بالعراق ، وأنا أشرب ماء ، فقال لي صاحب لي ـ وكان له عقل ـ : يا فلان ؛ لعل هٰذا الكُوز الذي تشرب فيه الماء كان إنساناً يوماً من الدهر فمات ، فصار تراباً ، فاتفق للفخَّاريِّ أن أخذ تراب القبر ، فصيَّره خزفاً ، وشواه بالنار ، فانتظم كوزاً كما ترىٰ ، وصار آنية تمتهن وتستخدم بعدما كان بشراً سوياً يأكل ويشرب وينعم ويلَذ ويطرب .

فإذاً الذي قاله من الجائزات ؛ فإن الإنسان إذا مات . . عاد تراباً كما كان في النشأة الأولىٰ ، ثم قد يتفق أن يُحفرَ لحدُه ، ويُعجَن بالماء ترابُه ، فيُتَّخذَ منه آنيةٌ تُمتهن في البيوت ، أو لبنة تبنىٰ في الجدار ، أو يُطيَّن به سطح البيت ، أو يُفرش في الدار فيوطأ بالأقدام ، أو يجعل طيناً على الجدار .

---

(١) أورده في « جمع الجواهر » (ص ٣٠٦) .

(٢) البيت لابن الرومي في « ديوانه » (٨٠٨/٢) .

(٣) طيَّش عقلي : جعله يضطرب وينحرف عن التفكير القويم ، وبلبلَ حزمي : شتَّته ، ونياط القلب : عِرق يعلَّق به القلب إلى الرئتين .

وقد يجوز أن يُغرَس عند قبره شجرة ، فيستحيلَ ترابُ الإنسان شجرةً وورقاً وثمرةً ، فترعى البهائمُ أوراقها ، ويأكل الإنسانُ ثمرها ، فيَنبت منها لحمُه ، ويُنشَر منها عظمُه ، أو تأكل تلك الثمرةَ الحشراتُ والبهائمُ ، فبينما كان يقتات . . صار قُوتاً ، وبينما كان يأكل . . صار مأكولاً ، ثم يعود في بطن الآكل رجيعاً[1] ، يُقذفُ به في بيت المرحاض ، أو بَعْراً يُنبذُ بالعراء ، ويجوز إذا حُفِرَ قبرُه أن تَسفِيَ الرياحُ ترابَه ، فتتفرقَ أجزاؤه في بطون الأودية والتُّلول والوِهاد .

أليس في هـٰذا ما أذهب العقول ، وطيَّشَ الحلوم ، ومنع اللذات ، وهان عنده مفارقة الأهلينَ والأموال ، واللحوقُ بقُلَلِ الجبال ، والأنسُ بالوحوشِ حتىٰ يأتيَ أمرُ الله ؟!

أليس في هـٰذا ما صغَّر الدنيا وما فيها ؟!

أليس في هـٰذا ما حقَّر المُلكَ عند مَنْ عظَّمه ، والمالَ عند من جَمَعه ؟!

أليس في هـٰذا ما زهَّدَ في اللذات ، وسلَّىٰ عن الشهوات ؟!

وقال مِسعَر : (كم من مستقبلٍ يوماً لا يستكمله ، ومنتظرٍ غداً وليس من أجَله ! إنكم لو أبصرتم الأجل ومسيره . . لأبغضتم الأمل وغروره)[2] .

ولمَّا بنى المأمونُ بنُ ذي النُّون ـ وكان من ملوك الأندلس ـ قصرَه ، وأنفق فيه بيوت الأموال . . جاء علىٰ أكمل بنيان في الأرض ، وكان من عجائبه : أن صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنىٰ في وسطها قُبة ، وساق الماء من تحت الأرض حتىٰ علا إلىٰ رأس القُبة علىٰ تدبير قد أحكمه المهندسون ، وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها ، محيطاً بها ، متصلاً بعضه ببعض ، فكانت القبة في غِلالةٍ من ماء سكباً لا يَفتُر ، والمأمون قاعد فيها ، فرُوِيَ عنه أنه بينما هو

---

(١) الرَّجيع : الروث .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٠٨) عن مِسعَرِ بنِ كِدَام ، عن معن ، عن عون بن عبد الله ، رحمهم الله أجمعين .

نائم . . إذ سمع منشداً ينشد هٰذين البيتين : [من الطويل]

أَتَبْنِـي بِنَـاءَ ٱلْخَالِدِيـنَ وَإِنَّمَـا بَقَـاؤُكَ فِيهَـا لَـوْ عَلِمْـتَ قَلِيـلُ
لَقَـدْ كَانَ فِـي ظِـلِّ ٱلْأَرَاكِ كِفَايَـةٌ لِمَـنْ كُلَّ يَـوْمٍ يَقْتَضِيـهِ رَحِيـلُ

فلم يلبث بعدها إلا يسيراً حتىٰ قضىٰ نحبَه[1] .

ووجد مكتوباً علىٰ قصر قد باد أهله وأقفرت منازله[2] : [من البسيط]

هٰذِي مَنَـازِلُ أَقْـوَامٍ عَهِدْتُهُـمُ فِـي خَفْضِ عَيْشٍ نَفِيسٍ مَا لَهُ خَطَرُ
صَاحَتْ بِهِمْ نَائِبَاتُ ٱلدَّهْرِ فَٱنْقَلَبُوا إِلَـى ٱلْقُبُـورِ فَـلَا عَيْـنٌ وَلَا أَثَـرُ

وللصاحب أيضاً[3] : [من الكامل]

وَلَقَـدْ مَـرَرْتُ عَلَـىٰ دِيَارِهِـمُ وَطُلُولُهَـا بِيَـدِ ٱلْبِلَـىٰ نَهْـبُ
فَوَقَفْـتُ حَتَّـىٰ عَـجَّ مِـنْ لَغَـبٍ نِضْـوِي وَضَـجَّ بِعَذْلِـيَ ٱلرَّكْـبُ
وَتَلَفَّتَـتْ عَيْنِـي فَمُـذْ خَفِيَـتْ عَنْهَـا ٱلطُّلُـولُ تَلَفَّـتَ ٱلْقَلْـبُ

ولو قيل للدنيا : صِفِي نفسَكِ . . لَمَا عَدَتْ هٰذا البيت[4] : [من الطويل]

وَمَـنْ يَأْمَنِ ٱلدُّنْيَا يَكُـنْ مِثْلَ قَابِضٍ عَلَـى ٱلْمَـاءِ خَانَتْـهُ فُـرُوجُ ٱلْأَصَابِعِ

وروي أن الحجاج قال في خطبته : (أيها الناس ؛ إنَّ ما بقي من الدنيا أشبهُ بما مضىٰ من الماء بالماء ، ولو أُعطِيتُ ما مضىٰ من الدنيا بعمامتي هٰذه . . ما قبلته ، فكيف آسىٰ علىٰ ما بقي منها ؟!)[5] .

---

(١) أورد الخبر مع البيتين في « نفح الطيب » (٣٥٣/٤) .
(٢) روى البيتين في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٣٧١) ، و« الزهد الكبير » (٦٧٥) ، و« تاريخ بغداد » (١٠٤/١) .
(٣) الأبيات للشريف الرضي في « ديوانه » (١٨١/١) ، وعجَّ وضجَّ : رفع صوته وصاح ، والنِّضو : البعير المهزول ، وضجَّ بعذلي الركب : تمادَوْا في رفع أصواتهم بمعاتبتي ولومي .
(٤) البيت لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٦٧) .
(٥) أورده بنحوه في « البيان والتبيين » (١٣٧/٢) ، و« العقد الفريد » (١١٥/٤) .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثلاً للدنيا ولابن آدم عند الموت ؛ كمثل رجل له ثلاثةُ أخلَّاء ، فلما حضره الموت . . قال لأحدهم : قد كنتَ لي خليلاً مُؤثَراً مُكرَماً ، وقد حضرني من أمر الله ما ترىٰ ، فماذا عندك ؟ فيقول : هٰذا أمر الله غلبني عليك ، لا أستطيع أن أُنفِسَ كربتك ، ولٰكن هٰأنذا بين يديك ، فخذ مني زاداً ينفعك .

ثم يقول للثاني : قد كنتَ عندي آثرَ الثلاثة ، وقد نزل بي من أمر الله ما ترىٰ ، فما عندك ؟ قال : هٰذا أمر الله غلبني عليك ، ولا أستطيع أن أنفِّسَ كربتك ، ولٰكن سأقوم عليك في مرضك ، فإذا مُتَّ . . أتقنتُ غسلَك ، وجوَّدتُ كُسوتك ، وسترتُ جسدك وعورتك .

وقال للثالث : قد نزل بي من أمر الله تعالىٰ ما ترىٰ ، وكنت أهون الثلاثة علي ، فماذا عندك ؟ قال : إني قرينُك وحليفُك في الدنيا والآخرة ، أدخلُ معكَ قبرَك حين تدخلُه ، وأخرج معك حين تخرج ، ولا أفارقك أبداً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ٱلْأَوَّلُ مَالُهُ ، وَٱلثَّانِي أَهْلُهُ ، وَٱلثَّالِثُ عَمَلُهُ »(١) .

ولمَّا لَقِيَ ميمونُ بنُ مهرانَ الحسنَ البصريَّ . . قال له : (قد كنتُ أحبُّ لقاءَك فَعِظْني ، فقرأ الحسن : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾(٢) ، فقال : عليك السلام أبا سعيد ، فقد وعظتَ أحسنَ موعظةٍ)(٣) .

---

(١) رواه بنحوه الحاكم (١/٧٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٨/١٩٣) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

(٢) سورة الشعراء : (٢٠٥ ـ ٢٠٧) .

(٣) رواه بنحوه في « حلية الأولياء » (٤/٨٣) .

وا عجباً كلَّ العجب للمكذِّبِ بالنشأة الأُخرىٰ وهو يرى الأولىٰ !

وا عجباً كلَّ العجبِ للشاكِّ في قدرةِ الله تعالىٰ وهو يرىٰ خلقه !

وا عجباً كلَّ العجب للمكذِّبِ بالنشورِ وهو يموتُ في كلِّ يوم وليلةٍ ويحيا !

وا عجباً كلَّ العجب للمصدِّقِ بدارِ الخلودِ وهو يسعىٰ لدار الغرور !

وا عجباً كلَّ العجب للمختالِ الفخورِ ، وإنما خُلِقَ من نطفةٍ ، ثم يعود جيفة ، وهو بين ذٰلك لا يدري ما يُفعَل به[1] : [من مجزوء الرمل]

كَيْـفَ يَزْهُـو مَـنْ ضَجِيعُـهْ ... أَبَـدَ ٱلدَّهْـرِ رَجِيعُـهْ

ورُوي أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ آدم عليه السلام فقال : (يا آدم ؛ جِماعُ الخير كله في أربع : واحدة لي ، وواحدة لك ، وواحدة بيني وبينك ، وواحدة بينك وبين الناس ؛ فأما التي لي : فأن تعبدني لا تشركُ بي شيئاً ، وأما التي لك : فاعمل ما شئت ؛ فإني أجزِيكَ به ، وأما التي بيني وبينك : فعليك الدعاء وعلي الإجابة ، وأما التي بينك وبين الناس : فكن لهم كما تحب أن يكونوا لك)[2] .

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام : (أُوتِينا ما أُوتِيَ الناسُ وما لم يُؤتَوْا ، وعُلِّمنا ما عُلِّمَ الناس وما لم يُعَلَّمُوا ، فلم نجد شيئاً أفضل من خشيةِ الله في الغيب والشهادة ، وكلمةِ الحق في الغضب والرضا ، والقصدِ في الفقر والغنىٰ)[3] .

وكتب معاوية إلىٰ عائشة رضي الله عنها : أن اكتبي إلي كتاباً توصيني فيه ولا تُكثِري عليَّ ، فكتبَتْ إليه عائشة : سلام عليك ، أما بعد : فإني سمعت

---

(١) البيت لابن الرومي في « ديوانه » (٤/١٥٥٢) ، وروايته :

كيـف يزهـو مـن رجيعُـهْ ... أبـدَ الدهـر ضجيعُـهْ

(٢) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠٣٦) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٩٢٨) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنِ ٱلْتَمَسَ رِضَا ٱلنَّاسِ بِسَخَطِ ٱللَّهِ . . وَكَلَهُ ٱللَّهُ إِلَى ٱلنَّاسِ » والسلام[1] .

ولمَّا ضَربَ ابنُ مُلجَمٍ علياً رضي الله عنه . . أُدخِلَ منزلَه ، فاعترته غَشْيَةٌ ، ثم أفاق ، فدعا الحسن والحسين رضي الله عنهما فقال : (أوصيكما بتقوى الله تعالىٰ ، والرغبة في الآخرة ، والزهد في الدنيا ، ولا تأسفا علىٰ شيء فاتكما منها ، اعملا الخير ، وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً .

ثم دعا محمداً ابنَه وقال له : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : بلىٰ ، قال : فإني أوصيك به ، وعليك بِبِرِّ أخويكَ وتوقيرِهما ، ومعرفةِ فضلهما ، ولا تقطعْ أمراً دونهما .

ثم أقبلَ عليهما فقال : أوصيكما به خيراً ؛ فإنه أخوكما ، وابن أبيكما ، وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبُّه فأحِبَّاه .

ثم قال : يا بَنِيَّ ؛ أُوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة ، وكلمةِ الحقِّ في الرِّضا والغضب ، والقصدِ في الغنىٰ والفقر ، والعدلِ على الصديق والعدو ، والعملِ في النشاط والكسل ، والرِّضا عن الله في الشدة والرَّخاء .

يا بَنِيَّ ؛ ما شرٌّ بعده الجنةُ بشرٍّ ، ولا خيرٌ بعده النارُ بخيرٍ ، وكلُّ نعيمٍ دون الجنةِ حقير ، وكلُّ بلاءٍ دونَ النارِ عافيةٌ .

يا بَنِيَّ ؛ مَنْ أبصر عيب نفسه . . شُغِلَ عن عيبِ غيرهِ ، ومَنْ رَضِيَ بقسمِ اللهِ . . لم يحزن علىٰ ما فاته ، ومَنْ سَلَّ سيفَ البغيِ . . قُتِلَ به ، ومَنْ حَفَرَ لأخيه بئراً . . وقع فيها ، ومَنْ هَتَكَ حجابَ أخيه . . كُشفت عوراتُ بنيه ، ومَنْ نَسِيَ خطيئتَه . . استعظم خطيئةَ غيرِه ، ومَنْ أُعجِبَ برأيه . . ضلَّ ، ومَن استغنىٰ

---

(١) رواه بنحوه الترمذي (٢٤١٤) .

بعقلِهِ . . زَلَّ ، ومَنْ تكبَّرَ على الناس . . ذَلَّ ، ومَنْ خالطَ الأنذال . . احتُقِرَ ، ومن دخل مداخل السوء . . اتُّهم ، ومن جالس العلماء . . وُقِّر ، ومن مَزَحَ . . استُخِفَّ به ، ومَنْ أكثرَ من شيء . . عُرِفَ به ، ومن كَثُرَ كلامُه . . كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤُه . . قلَّ حياؤه ، ومن قلَّ حياؤه . . قلَّ ورعه ، ومن قلَّ ورعه . . مات قلبه ، ومن مات قلبُه . . دخل النار .

يا بَنِيَّ ؛ الأدب خير ميراث ، وحسن الخلق خير قرين .

يا بَنِيَّ ؛ العافيةُ عشرةُ أجزاء ، تسعةٌ منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالىٰ ، وواحدةٌ في ترك مجالسة السفهاء .

يا بَنِيَّ ؛ زينة الفقر الصبر ، وزينة الغنى الشكر .

يا بَنِيَّ ؛ لا شرفَ أعلىٰ من الإسلام ، ولا كرمَ أعزُّ من التقوىٰ ، ولا معقلَ أحرزُ من الورع ، ولا شفيعَ أنجحُ من التوبة ، ولا لباسَ أجملُ من العافية .

الحرصُ مفتاحُ المَقْت ومطيةُ النَّصَب ، التدبيرُ قبلَ العملِ يُؤَمِّنُكَ من الندمِ ، بئس الزادُ للمعادِ العدوانُ على العباد ، طوبىٰ لمن أخلص لله علمَه وعمله ، وحبَّه وبغضَه ، وأخذَه وتركَه ، وكلامَه وصمتَه ، وقولَه وفعلَه)[١] .

وروي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لَمَّا طُعِنَ . . دعا بلبنٍ فشربَه ، فخرج من طعنته ، فقال : الله أكبر ، فجعل جلساؤه يثنون عليه ، فقال : (وَدِدْتُ أن أَخرُجَ منها كَفَافاً كما دخلتُ فيها ، لو أن لي اليومَ ما طلعت عليه الشمسُ وغربَتْ . . لافتديتُ به من هولِ المُطَّلَع)[٢] .

قال ابن عمر : (ولمَّا حضرتِ الوفاةُ عمرَ . . غُشِيَ عليه ، فأخذتُ رأسه فرفعته في حِجْري ، فقال : ضعْ رأسي في الأرض لعلَّ الله يرحمني ، فمسح

(١) رواه بنحوه مختصراً الطبري في « تاريخه » (١٤٧/٥) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٣٤) ، وابن سعد بنحوه في « الطبقات » (٣٢٥/٣) ، والكَفاف : مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقص ، والمراد هنا : أن يخرج من الدنيا لا له ولا عليه .

خدَّيه بالتراب وقال : ويلٌ لعمر ، ويلٌ لأمه إن لم يُغفر له ، فقلت : وهل حِجْري والأرض إلا سواء يا أبتاه ؟! فقال : ضع رأسي بالأرض ـ لا أمَّ لك ـ كما آمرك ، فإذا قَضيتُ . . فأسرعوا بي إلىٰ حفرتي ، فإنما هو خيرٌ تقدمونني إليه أو شرٌّ تضعونه عن رقابكم .

ثم بكىٰ ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : خبر السماء ، لا أدري إلىٰ جنة يُنطلقُ بي أو إلىٰ نار)(١) .

ولمَّا حضرت عمرَ بنَ عبد العزيز الوفاةُ . . قال : (اللهمَّ ؛ إنَّك أمرتني فقصرت ، ونهيتَني فعصيت ، وأنعمتَ عليَّ فأفضلت ، فإن عفوتَ . . فقد مَنَنْت ، وإن عاقبتَ . . فما ظلمت ، إلَّا أنِّي أَشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله) ثم قضىٰ رحمه الله(٢) .

ولمَّا حضرت هشامَ بنَ عبدِ الملك الوفاةُ . . نظر إلىٰ أهله يبكون حوله فقال : (جادَ لكم هشام بالدنيا ، وجُدتم عليه بالبكاء ! وترك لكم ما جَمَع وتركتم عليه ما حمل ! ما أعظمَ منقلبَ هشام إن لم يغفر اللهُ له !)(٣) .

ودُخِلَ على المأمونِ في مرضه الذي مات فيه ؛ فإذا هو قد أمر أن يُفرش له جُلُّ الدابةِ ، ويُبسطَ عليه الرماد ، وهو راقد عليه يتمرَّغ وهو يقول : (يا من لا يزول ملكُه ؛ ارحم من يزول ملكه)(٤) .

وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر علىٰ طائر واقع علىٰ شجرة فقال : (طوبىٰ لك يا طائر ؛ تطير فتقع على الشجر ، وتأكل من الثمر ، وليس عليك حساب ولا عذاب ، يا ليتني كنت مثلك ، والله ؛ لوَدِدْتُ أني شجرة إلىٰ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٣٥) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣/٣٣٤) مختصراً .
(٢) أورده في « ربيع الأبرار » (٥/٢٠٨) .
(٣) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٠٨٧) ، و« الجليس الصالح » (٢/٣٨٦) .
(٤) أورده في « ربيع الأبرار » (٥/١٨٧) .

جانب الطريق ، مرَّ عليَّ بعيرٌ فأخذني فلاكني ، ثم ازدَرَدَني ، ثم أخرجني بَعْراً ، ولم أكُ بشراً)[1] .

وقال عاصم بن عبد الله : أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبنة من الأرض فقال : (يا ليتني كنت مثلَ هٰذه التبنة ، يا ليتني لم تلدني أمي ، يا ليتني كنت نَسياً منسياً)[2] .

وقال ابن مسعود : (وَدِدْتُ أني طائر في مَنكِبي ريش)[3] .

وسَمِعَ رجلاً يقول : يا ليتني كنت من أصحاب اليمين ، فقال ابن مسعود : (يا ليتني إذا مُت لم أُبعث)[4] .

وقال عمران بن حصين : (لوددت أني رماد تَسفِيني الرياح في يوم عاصف)[5] .

وقال أبو الدرداء : (يا ليتني كنت شجرة ، تعضد وتؤكل ثمرتي ، ولم أك بشراً)[6] .

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما رجع من صِفِّين .. دخل أوائل الكوفة ؛ فإذا هو بقبر ، فقال : (قبر من هٰذا ؟ قالوا : قبرُ خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ ، فوقف عليه وقال : رحم الله خَبَّاباً ؛ أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلي في جسمه أحوالاً ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٤٠) مختصراً ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٧٣) ، وازدردني : بلعني .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣٣٤/٣) ، وابن أبي الدنيا في « المتمنين » (١٢) .

(٣) رواه وكيع في « الزهد » (١٦٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٦١) .

(٤) رواه وكيع في « الزهد » (١٦٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٨١) مختصراً .

(٥) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣٠٧/١١) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٤١) .

(٦) رواه هنَّاد في « الزهد » (٤٤٩) مختصراً ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٦٨) ، وتعضد : تقطع .

ثم مضىٰ ؛ فإذا قبور ، فجاء حتىٰ وقف عليها فقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحالِّ المُقفِرة ، أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون ، اللهم ؛ اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبىٰ لمن ذَكَر المَعاد ، وعملَ للحساب ، وقَنِعَ بالكَفاف ، ورَضِيَ عن الله تعالىٰ)[١] .

ثم قال : (يا أهل القبور ؛ أمَّا الأزواجُ . . فقد نُكِحَتْ ، وأمَّا الديارُ . . فقد سُكِنَتْ ، وأما الأموالُ . . فقد قُسِّمت .

هٰذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم التفت إلىٰ أصحابه وقال : أما إنهم لو تكلموا . . لقالوا : وجدنا أن خير الزاد التقوىٰ)[٢] .

* * *

(١) رواه نصر بن مزاحم في « وقعة صفين » (ص ٥٣٠ ـ ٥٣١) ، والطبري في « تاريخه » (٦١/٥ ـ ٦٢) ، وأورده الحصري القيرواني في « زهر الآداب » (٤٢/١) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١٥٥/٣) ، و« العقد الفريد » (٢٣٦/٣ ـ ٢٣٧) ، وزيد في (ب) بعد قوله : (خير الزاد التقوىٰ) : ووجد مكتوباً علىٰ قصر بعض الملوك وقد باد أهله وأقفرت ساحته هٰذه الأبيات :

[من البسيط]

هٰذي منـــازل أقــوامٍ عَهِدتهـــمُ ... يوفــون بالعهـــد مــذ كانــوا وبالذِّمــمِ

تبكـــي عليهـــم ديـــار كان يطربهـــا ... ترنُّـــمُ المجـــدِ بيـــن الحِلـــمِ والكـــرمِ

وهٰذه الزيادة قد تقدمت بتمامها (ص ١٠٤) .

الباب الثّاني
في مقامات العلماء والصّالحين عند الأمراء والسّلاطين

دخـل الأحنف بن قيس علىٰ معاوية ، وعليه شَـمْلةٌ ومِدْرعة صوف ، فلما مَثَـلَ بين يديه . . اقتحمته عينُـه ، فأقبل عليه وقال : (مَـهْ ، فقال الأحنف : يا أميـر المؤمنيـن ؛ أهل البصرة عدد يسـير ، وعظم كسـير ، مـع تتابع من المُحـول ، واتصال من الذُّحـول ، فالمكثر فيها قد أَطـرق ، والمُقِلُّ منها قد أَملق ، وبلغ به المُخنَّق .

فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يُنعش الفقير ، ويَجبُرَ الكسير ، ويسهِّلَ العسير ، ويصفَحَ عن الذُّحول ، ويداويَ المُحُول ، ويأمر بالعطاء ؛ ليكشفَ البلاء ، ويزيلَ اللّأْواء .

ألا وإن السيد من يعمُّ ولا يخصُّ ، ويدعو الجَفَلىٰ ، ولا يدعو النَّقرىٰ ، إن أُحسِنَ إليه . . شَكَر ، وإن أُسِيءَ إليه . . غَفَر ، ثم يكونُ من وراء الرعية عماداً يدفع عنهم المُلمَّات ، ويكشف عنهم المُعضِلات .

فقال معاوية : هٰهنا يا أبا بحر ، ثم قرأ : ﴿ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ ﴾)(١) .

وقال سفيان الثوري : (لمَّا حجَّ المهدي . . قال : لا بُدَّ لي من سفيان الثوري فوضعوا لي الرصد حول البيت ، فأخذوني بالليل .

فلما مَثَلْتُ بين يديه . . أدناني ، ثم قال : لأي شيء لا تأتينا فنستشيرَك في

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (١/٥٠ ـ ٥١) ، والآية من سورة محمد : (٣٠) ، والذُّحول : جمع ذَحْل ؛ وهو الثأر ، وأطرق : أمال رأسه ، وأملق : افتقر واحتاج ، والمُخنَّق : موضع الخناق ، والجَفَلى : الدعوة العامة ، والنَّقَرى : الدعوة الخاصة .

أمورنا ؟ فما أمرتنا من شيء . . صِرنا إليه ، وما نهيتنا عن شيء . . انتهينا عنه .

فقلت له : كم أنفقت في سفرك هـٰذا ؟ قال : لا أدري ؛ لي أُمناء ووُكلاء ، قلت : فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالىٰ فسألك عن ذٰلك ؟! لـٰكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمَّا حجَّ . . قال لغلامه : كم أنفقنا في سفرتنا هـٰذه ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ ثمانية عشر ديناراً ، قال : ويحك ! أجحفنا ببيت مال المسلمين)[1] .

وقال الزُّهري : (ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ اسمع مني أربع كلمات فيهن صلاح دينك وملكك ، وآخرتك ودنياك ، قال : ما هن ؟ قال : لا تَعِدْ أحداً عِدَةً وأنت لا تريد إنجازها ، ولا يغرَّنَّكَ مرتقىً سهلٌ إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاءً ؛ فاحذر العواقب ، وللدهر تارات ؛ فكن علىٰ حذر)[2] .

ولما دخل ابن السماك علىٰ هارون الرشيد . . قال له : (عظني ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرَك . . فلا ترض من نفسك إلا بما رضي به عنك ؛ فإنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولى الناس بذٰلك .

يا أمير المؤمنين ؛ من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله . . كان خليقاً أن يعتق نفسه .

يا أمير المؤمنين ؛ من أذاقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها . . أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها .

---

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد في « الورع » (٩٥/١) ، وانظر « الطبقات الكبرىٰ » (٢٨٧/٣) ، و« وفيات الأعيان » (٣٧٨/٢) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٤٣٦) ، وفيه : (هشام بن عبد الملك) بدل (سليمان بن عبد الملك) .

يا أمير المؤمنين ؛ ناشدتك الله أن تقدم علىٰ جنة عرضها السماوات والأرض قد دُعيتَ إليها وليس لك فيها نصيب .

يا أمير المؤمنين ؛ إنك تموت وحدك ، وتحاسب وحدك ، وإنك لا تقدم إلا علىٰ نادم مشغول ، ولا تخلف إلا مغبوناً مغروراً ، وإنك وإيانا في دار سفر ، وجيران ظعن)[1] .

ولما حج سليمان بن عبد الملك . . استحضر أبا حازم فقال له : (تكلم يا أبا حازم ، فقال : بم أتكلم ؟ قال : في الخروج من هـٰذا الأمر ، قال : يسيرٌ إن أنت فعلتَه ، قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا بحِلِّها ، ولا تضعها إلا في أهلها ، قال : ومن يقوىٰ علىٰ ذٰلك ؟ قال : من قلده الله من الأمر ما قلدك .

قال : عظني يا أبا حازم ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن هـٰذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك .

ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ نزه ربك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

يا أمير المؤمنين ؛ إنما أنت سوق ، فما نفق عندك . . حُمِلَ إليك من خير أو شر ، فاختر لنفسك أيَّهما شئت .

قال : فما لك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك ؟ إن أدنيتني . . فتنتني ، وإن أقصيتني . . أحزنتني ، وليس عندي ما أخافك عليه ، ولا عندك ما أرجوك له .

قال : فارفع إلينا حوائجك ، قال : قد رفعتها إلىٰ من هو أقدر منك عليها ،

---

(١) رواه في « الأخبار الموفقيات » (٢٢٨) ، وبنحوه مختصراً ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٨) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٢/٣١٨) .

فما أعطاني منها . . قبلت ، وما منعني منها . . رضيت ، يقول الله تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (١) فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثيرِ ما قَسَمَ الله ، أو يزيدَ في قليلِ ما قَسَمَ الله ؟!

قال : فبكىٰ سليمان بكاء شديداً ، فقال رجل من جلسائه : أسأت إلىٰ أمير المؤمنين ، قال أبو حازم : اسكت ؛ فإن الله تعالىٰ أخذ ميثاق العلماء لَيُبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه ، ثم خرج من عنده ، فلما صار إلىٰ منزله . . بعث إليه بمال ، فردَّه وقال للرسول : قل له : يا أمير المؤمنين ؛ والله ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسي ؟!) (٢) .

* * *

وقال الفضل بن الربيع : (حجَّ هارون الرشيد ، فبينا أنا نائم ليلة . . إذ سمعت قرع الباب فقلت : من هٰذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعاً ؛ فإذا أنا به أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلت إلي . . أتيتك ، فقال : ويحك ! قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم ، انظر لي رجلاً أسأله .

قلت له : هٰهنا سفيان بن عيينة ، قال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هٰذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ؛ فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلت إلي . . أتيتك ، قال : خذ لما جئنا له ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين ؟ قال : نعم ، قال : يا أبا عباس ؛ اقض دينه ، ثم انصرفنا ، فقال : ما أغنىٰ عني صاحبك شيئاً ، فانظر لي رجلاً أسأله .

فقلت : هٰهنا عبد الرزاق بن هَمَّام ، قال : امض بنا إليه نسأله ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هٰذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلتَ إليَّ . . أتيتُك ، فقال : خذ لما جئنا

---

(١) سورة الزخرف : (٣٢) .

(٢) رواه بنحوه في « حلية الأولياء » (٣/٢٣٥) ، و« العقد الفريد » (٣/١٦٣ ـ ١٦٤) .

له ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَين ؟ قال : نعم ، قال : يا أبا عباس ؛ اقض دينه ، ثم انصرفنا ، فقال : ما أغنىٰ عني صاحبك شيئاً ، انظر لي رجلاً أسأله .

قلت : هٰهنا الفضيل بن عياض ، قال : امض بنا إليه ، فأتيناه ؛ فإذا هو قائم يصلي في غرفته ، يتلو آية من كتاب الله تعالىٰ يرددها ، فقرَعتُ الباب ، فقال : من هٰذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟! فقلت : سبحان الله ! أما عليك طاعته ؟! فقال : أوليس قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ » ؟[١] ، فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقىٰ إلى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلىٰ زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقتْ كفُّ الرشيد كفي ، فقال : أوَّاه من كفٍّ ما ألينَها إن نجت غداً من عذاب الله تعالىٰ !

قال : فقلت في نفسي لَيُكلمنَّه الليلة بكلام نقي من قلب تقي ، فقال له : خذ لما جئنا له رحمك الله ، قال : وفيم جئت ؟ حطبتَ علىٰ نفسك[٢] ، وجميع من معك حَطَبوا عليك ، حتىٰ لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يتحملوا عنك شِقصاً من ذنب . . ما فعلوا[٣] ، ولكان أشدُّهم حباً لك أشدَّهم هرباً منك .

ثم قال : إن عمر بن عبد العزيز لمَّا وَلِيَ الخلافة . . دعا سالمَ بن عبد الله ، ومحمدَ بن كعب القُرَظي ، ورجاءَ بن حيوة ، فقال لهم : إني قد ابتليت بهٰذا البلاء ، فأشيروا علي ، فعَدَّ الخلافة بلاء ، وعددتَها أنتَ وأصحابُكَ نعمة ، فقال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله . . فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها الموت .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣١٢/١٢) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وتتمته : قيل : يا رسول الله ؛ وكيف يذل نفسه ؟ قال : « أن يتعرَّض من البلاء لما لا يطيق » .

(٢) حطبتَ علىٰ نفسك : سعيتَ بها .

(٣) الشِّقص : الشيء اليسير .

وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالىٰ . . فليكن كبير المسلمين لك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم ولداً ، فبَرَّ أباك ، وارحم أخاك ، وتحنن علىٰ ولدك .

وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله . . فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم متىٰ شئت . . مُت .

وإني أقول لك هـٰذا ، وإني أخاف عليك أشد الخوف يوم تَزِلُّ الأقدام ، فهل معك رحمك الله مثل هـٰؤلاء القوم من يأمرك بمثل هـٰذا ؟!

فبكىٰ هارون بكاءً شديداً حتىٰ غُشي عليه ، فقلت : اُرفُق بأمير المؤمنين ، فقال : يا بن الربيع ؛ تقتله أنتَ وأصحابك وأرفُقُ به أنا ؟!

ثم أفاق فقال : زدني ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه ، فكتب إليه عمر : يا أخي ؛ اذكر سهرَ أهل النار في النار ، وخلودَ الأبدان ، فإن ذٰلك يَطرُد بك إلىٰ ربك نائماً ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هـٰذه السبيل ، فيكونَ آخرَ العهد بك ، وينقطعَ الرجاءُ منك ، فلما قرأ كتابه . . طوى البلاد حتىٰ قدم عليه ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك ، لا وَلِيتُ لكَ ولايةً أبداً حتىٰ ألقى الله عز وجل .

فبكىٰ هارون بكاء شديداً ، ثم قال : زدني ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاءه فقال : يا رسول الله ؛ أَمِّرْني علىٰ إمارة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا عَبَّاسُ ، يَا عَمَّ ٱلنَّبِيِّ ؛ نَفْسٌ تُنَجِّيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا ، إِنَّ ٱلْإِمَارَةَ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا تَكُونَ أَمِيراً . . فَٱفْعَلْ »(١) .

---

(١) إلىٰ قوله : « لا تحصيها » رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١١) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٩٦/١٠) ، وإلىٰ قوله : « القيامة » رواه بنحوه مسلم (١٨٢٥) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه ، ولا ←

فبكىٰ هارون بكاء شديداً ، ثم قال : زدني رحمك الله ، قال : يا حسن الوجه ؛ أنت الذي يسألك الله تعالىٰ عن هـٰذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هـٰذا الوجه من النار . . فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشّاً . . لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ ٱلْجَنَّةِ »(١) .

فبكىٰ هارون بكاء شديداً ، ثم قال : عليك دين ؟ قال : نعم ، دين لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لم يلهمني حجتي ، قال : إنما أعني دين العباد ، قال : إن ربي لم يأمرني بهـٰذا ، أمرني أن أصدق وعده ، وأطيع أمره ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾(٢) .

فقال له : هـٰذه ألف دينار ، فخذها وأنفقها علىٰ عيالك ، وتقوَّ بها علىٰ عبادة ربك ، فقال : سبحان الله ! أنا أدلك علىٰ سبيل النجاة وتكافئني بمثل هـٰذا ! سلمك الله ووفقك .

ثم صمت ، فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فقال لي هارون : إذا دللتني علىٰ رجل . . فدلني علىٰ مثل هـٰذا ، هـٰذا سيد المسلمين اليوم .

وروي أن امرأة من نسائه دخلت عليه ، فقالت له : يا هـٰذا ؛ قد ترىٰ ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هـٰذا المال . . لانفرجنا به ، فقال : إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلما كبر . . نحروه ، فأكلوا لحمه ، موتوا يا أهلي جوعاً ، ولا تذبحوا فضيلاً .

← تحصيها : لا تطيقها .

(١) رواه بنحوه البخاري (٧١٥٠) ، ومسلم (١٤٢) عن سيدنا معقل بن يسار رضي الله عنه .

(٢) سورة الذاريات : (٥٦ ـ ٥٨) .

فلما سمع الرشيد ذٰلك . . قال : أدخل ، فعسىٰ أن يقبل المال ، قال : فدخلنا ، فلما علم بنا الفضيل . . خرج فجلس على التراب على السطح ، فجاء هارون ، فجلس إلىٰ جنبه ، فجعل يكلمه فلا يجيبه ، فبينا نحن كذٰلك . . إذ خرجت جارية سوداء فقالت : يا هٰذا ؛ قد آذيت الشيخ هٰذه الليلة ، فانصرف يرحمك الله ، فانصرفنا)[1] .

* * *

ووعظ شبيبُ بنُ شيبةَ المنصورَ فقال : (يا أمير المؤمنين ؛ إن الله لم يجعل فوقك أحداً ، فلا تجعل فوق شكرك شكراً)[2] .

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقرأ : (﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ . . . ﴾[3] حتىٰ بلغ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾[4] لمن فعل مثل فِعالهم ، فاتق الله يا أمير المؤمنين ؛ فإن ببابك نيراناً تتأجَّج ، لا يُعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت مسؤول عما اجترحوا ، وليسوا مسؤولين عما اجترحت ، فلا تُصلِحْ دنياهم بفساد آخرتك ، أَمَا والله ؛ لو علم عُمَّالُك أنه لا يرضيك منهم إلا العدل . . لتَقرَّبَ به إليك من لا يريده .

فقال له سليمان بن مجالد : اسكت ، فقد غَمَمْتَ أمير المؤمنين ، فقال له عمرو : ويلك يا بن مجالد ! أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتىٰ أردت أن تحُولَ بينه وبين من ينصحه ؟! اتق الله يا أمير المؤمنين ؛ فإن هٰؤلاء قد اتخذوك سُلَّماً إلىٰ شهواتهم ، فأنت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب ، وإن هٰؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيئاً)[5] .

---

(١) رواه في « حلية الأولياء » (٨/١٠٥ ـ ١٠٨) مطولاً .
(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٢/١٩٨) .
(٣) سورة الفجر : (١ ـ ٢) .
(٤) سورة الفجر : (١٤) .
(٥) أورده بنحوه في « المحاسن والمساوئ » (ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩) ، و« تاريخ بغداد » (١٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧) .

وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه : (يا أمير المؤمنين ؛ أَمَا علمت أنه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها ، ويردع بها المنافقين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ؛ ما هٰذه الجريدة بيدك ؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً ، فكيف بمن سفك دماء المسلمين وشقق أستارهم وانتهب أموالهم ؟! إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً من غير عمد ، فقال له جبريل عليه السلام : إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون رعيتك .

يا أمير المؤمنين ؛ لو أن ثوباً من النار نشر علىٰ ما في الأرض . . لأحرقه ، فكيف بمن يتقمصه ؟! ولو أن ذَنُوباً من النار صُب علىٰ ما في الأرض . . لأحرقه ، فكيف بمن يتجرعه ؟! ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت علىٰ جبل . . لذاب ، فكيف بمن يُسلَكُ فيها ويُرَدُّ فضلها علىٰ عاتقه ؟!)(1) .

ودخل بعض العقلاء علىٰ سلطان فقال له : (إن أحق الناس بالإحسان : من أحسن الله إليه ، وأولاهم بالإنصاف : من بسطت يداه بالقدرة ؛ فاسْتَدِمْ ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق)(2) .

وروي أن أعرابياً قام بين يدي هشام بن عبد الملك فقال : (أيها الأمير ؛ أتت على الناس سنونَ ثلاثٌ ؛ أما الأولىٰ : فأكلَتِ اللَّحمَ ، وأما الثانية : فأكلت الشحم ، وأما الثالثة : فهاضَتِ العَظْمَ ، وعندك فضول أموال ؟! فإن كانت لله . . فاقسمها بين عباد الله ، وإن كانت لهم . . فَلِمَ تحصُرها عليهم ؟! وإن كانت لكم . . فتصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٢/٣٣٩ ـ ٣٤٠) ، و« المحاسن والمساوئ » (ص ٣٣٨) بنحوه مختصراً ، و« العقد الفريد » (٣/١٦٣) ، والذَّنوب : الدلو .

(٢) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٣/٢٠) ، ورواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٠٠) .

فأمر هشام بمال فقسم بين الناس ، وأمر للأعرابي بمال ، فقال : أكلُّ المسلمين له مثلُ هٰذا المال ؟ قال : لا يقوم بذٰلك بيتُ المال ، قال : لا حاجة لي فيما يُبعث لأئمة الناس علىٰ أمير المؤمنين)[١] .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : (يا أمير المؤمنين ؛ اذكر لمقامي هٰذا مقاماً لا يشغل اللهَ عنك كثرةُ من يخاصم من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من ذنب ، فبكىٰ عمر بكاء شديداً ، ثم استرده الكلام ، فجعل يردده وعمر يبكي وينتحب ، ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : عاملك بأذربيجان أخذ مني اثني عشر ألف درهم ، فقال : اكتبوا له حتىٰ يرد عليه)[٢] .

ولمَّا دخل زياد علىٰ عمر بن عبد العزيز . . قال : (يا زياد ؛ ألا ترىٰ ما ابتُلِيتُ به من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال زياد : يا أمير المؤمنين ؛ والله لو أن شعرة منك نطقت . . ما بلغت كنه ما أنت فيه ، فاعمل لنفسك في الخروج مما أنت فيه .

يا أمير المؤمنين ؛ كيف بك غداً وقد سئلت عن هٰذه الخلائق أجمع ؟!

يا أمير المؤمنين ؛ كيف حال رجل له خصم ألد ؟ قال : سيئ الحال ، قال : فإن كان له خصمان ألدان ؟ قال : أسوأ الحالة ، قال : فإن كانوا ثلاثة ؟ قال : لا يَهنِيه عيش ، قال : فوالله ؛ ما من أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا وهو خصمك ، فبكىٰ حتىٰ تمنيت ألا أكون قلت له ذٰلك)[٣] .

[وقال يحيى بن أكثم : (كنت أرىٰ شيخاً يدخل على المأمون في السنة مرَّة

---

(١) رواه بنحوه في « الأخبار الموفقيات » (٧١) ، و« البيان والتبيين » (٢/٧٠) ، وهاضتِ العظمَ : أضعفته وألانته .

(٢) رواه ابن الجوزي في « سيرة عمر بن عبد العزيز » (ص ٩٥ ـ ٩٦) ، وأورده ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٠/٣٩) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « سيرة عمر بن عبد العزيز » (ص ١٧١) .

واحدة ، وكان يخلو به خلوة طويلة ، ثم ينصرف فلا نسمع له خبراً ، ولا نرىٰ له أثراً ، ولا نُقدِم على المسألة عنه .

فلما كان بعد أيام . . قال لنا المأمون : وا أسفا علىٰ فقدِ صديقٍ مسكونٍ إليه ، موثوقٍ به ، تُلقىٰ إليه العُجَرُ والبُجَرُ ، وتُقتبس منه الفوائد والدُّرر !

قلنا : ومن ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أَمَا كنتَ ترىٰ شيخاً يأتينا في الفَرْط ، ونخلو به من بين الناس ؟ قلت : بلىٰ يا أمير المؤمنين ، قال : فإنه قد تأخَّر عن إبَّانه ، وأظنُّ أنه قد قُضي عليه .

قلت : الله يَمُدُّ في عُمر أمير المؤمنين ، وما في ذاك ؟ قال : كان صديقي بخراسان ، وكنت أستريح إليه استراحة المكاتب بالولد البارِّ المحبوب ، ولقد كنت أستمدُّ منه رأياً أقوِّم به أَوَدَ المملكة ، وأَصِلُ به إلىٰ رضا الله عز وجل في السياسة للرعية .

وآخر ما قاله لي عند وداعه أن قال :

يا أمير المؤمنين ؛ إذا استشنَّ ما بينك وبين الله . . فابْلُلْه ، فقلت : بماذا يا صاحب الخير ؟ قال : بالاقتداء به في الإحسان إلىٰ عباده ؛ فإنه يحبُّ الإحسان إليهم منهم كما تحبُّ الإحسان من حاشيتك إلىٰ ولدك ، واللهِ ؛ ما أعطاك الله القَدْرَ عليهم إلا لتصبر علىٰ إحسانك إليهم بالشكر علىٰ حسناتهم ، والتغمُّدِ لسيئاتهم ، وأيُّ شيء أَوْجَهُ لك عند ربك من أن تكون أيامك أيامَ عدلٍ وإنصاف ، وإحسان وإشفاق ، ورأفة ورحمة ؟!

من لي يا يحيىٰ بمثل هـٰذا القائل ؟! وأنَّىٰ لي من يُذكرني ما أنا إليه صائر ؟!] [١] .

---

(١) ما بين معقوفين زيادة من المطبوع ، والخبر أورده في « الصداقة والصديق » (ص ٩٦ ـ ٩٧) ، وفيه : (ما أعطاك الله القدرة عليهم) ، والقَدْر : الغنىٰ واليسار ، والفَرْطُ : الحِين ، واستشنَّ : يَبِسَ وأخلق .

وقال محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظِيُّ لعمرَ بنِ عبدِ العزيز : (يا أمير المؤمنين ؛ إنما الدنيا سوق من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ربحوا فيها لآخرتهم ، وخرجوا بما يضرهم ، فكم من قومٍ غرَّهم مثلُ الذي أصبحنا فيه حتىٰ أتاهم الموت ، فخرجوا من الدنيا مُرمِلين ؛ لم يأخذوا من الدنيا للآخرة ، فاقتسم مالَهم من لا يحمدهم ، وصاروا إلىٰ من لا يعذرهم .

فانظر الذي تحب أن يكون معك ، فقدمه بين يديك حتىٰ تخرج إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت ، فابتغ به البدل حيث يجوز البدل ، ولا تذهبن إلىٰ سلعة قد بارت علىٰ غيرك ترجو جوازها عنك .

يا أمير المؤمنين ؛ افتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم)[1] .

وحضر رجل بين يدي بعض الملوك ، فأغلظ له السلطان ، فقال له الرجل : (إنما أنت كالسماء إذا أرعَدَتْ وأبرقَتْ . . فقد قرب خيرها ، فسكن غيظه وأحسن إليه) .

* * *

ولما احتاج المنصور بن أبي عامر ملك الأندلس أن يأخذ أرضاً مُحبسة[2] ويعاوض عنها خيراً منها . . استحضر الفقهاء في قصره ، فأفتوا بأنه لا يجوز ، فغضب السلطان وأرسل إليهم رجلاً من الوزراء مشهوراً بالحدة والعجلة ، فقال لهم : (يقول لكم أمير المؤمنين : يا مشيخة السوء ، يا مستحِلّي أموال الناس ، يا آكلي أموال اليتامىٰ ظلماً ، يا شهداء الزور ، يا آخذي الرِّشا ، ومُلَقِّني الخصوم ، ومُلقِّحي الشرور ، ومُلبِّسي الأمور ، وملتمسي الروايات لدىٰ أتباع الشهوات ، تباً لكم ولآرائكم ، فهو ـ أعزَّه الله ـ واقف علىٰ فسوقكم قديماً ،

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦١٥) ، و« حلية الأولياء » (٥/٣١٣) ، وأورده في « عيون الأخبار » (٢/٣٤٣) ، ومرملين : نَفِدَ زادهم وافتقروا .

(٢) أرضاً محبسة : موقوفة .

وخَوْنِكم لأماناتكم ، مغضٍ عنه ، صابر عليه ، ثم احتاج إلىٰ دقة نظركم في حاجة مرة واحدة في دهره ، فلم تسعفوا إرادته ، ما كان هـٰذا ظنه بكم ، والله ؛ ليعارضنكم ، وليكشفن ستوركم ، وليناصحن الإسلام فيكم .

وأفحش عليهم بهـٰذا ونحوه .

فأجابه شيخ منهم ضعيف المُنَّة فقال : نتوب إلى الله مما قاله أمير المؤمنين ، ونسأله الإقالة .

فرد عليه زعيمُ القومِ محمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ حَيُّويه ، وكان جَلْداً صارماً ، فقال للمتكلم : ممَّ نتوب يا شيخ السَّوء ؟! نحن برآء من متابك .

ثم أقبل على الوزير فقال : يا وزير ؛ بئس المبلِّغ أنت ، وكل ما نسبته إلينا عن أمير المؤمنين . . فهو صفتكم معاشر خدمه ؛ فأنتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل ، وتستحلون ظلمهم بالإخافة ، وتتحيفون معايشهم بالرشا والمصانعة ، وتبغون في الأرض بغير الحق ، وأما نحن . . فليست هـٰذه صفاتنا ولا كرامة ، ولا يقولها لنا إلا متهم في الديانة .

فنحن أعلام الهدىٰ ، وسُرُج الظُّلْمة ، بنا يتحصن الإسلام ، ويفرق بين الحلال والحرام ، وتنفذ الأحكام ، وبنا تقام الفرائض ، وتثبت الحقوق ، وتحقن الدماء ، وتستحل الفروج .

فهلَّا إذ عَتَبَ علينا سيدنا أمير المؤمنين بشيء لا ذنب لنا فيه ، وقال بالغيظ بعض ما قاله . . تأنيتَ لإبلاغنا رسالته بأهون من إفحاشك ، وعرَّضت لنا بإنكاره ففهمناه منك وأجبناك عنه بما يصلح الجواب عنه به ، فكنت تزيِّن على السلطان ولا تفشي سره ، وتستحيينا بما استقبلتنا به !

فنحن نعلم أن أمير المؤمنين لا يتمادىٰ علىٰ هـٰذا الرأي فينا ، ولا يعتقد هـٰذا المعتقد في صفاتنا ، وأنه سيراجع بصيرته في إيثارنا وتعزيزنا ، فلو كنا عنده علىٰ هـٰذه الحال التي وصفتها عنا ـ والعياذ بالله من ذٰلك ـ . . لبطل عليه

كل ما صنعه وعقده من أول خلافته إلىٰ هـٰذا الوقت ، فما ثبت له كتاب من حرب ولا سلم ، ولا شراء ولا بيع ، ولا صدقة ولا حبس ، ولا هبة ولا عتق ، ولا غير ذٰلك . . إلا بشهادتنا ، هـٰذا ما عندنا ، والسلام .

ثم قاموا منصرفين ، فلم يكادوا يبلغون باب القصر إلا والرسل تناديهم ، فأُدخِلوا القصر ، فتلقاهم الوزراء بالإعظام ، ورفعوا منازلهم ، واعتذروا إليهم مما كان من صاحبهم ، وقالوا لهم : أمير المؤمنين يعتذر إليكم من فَرْطِ مَوجِدته ، ويستجير بالله من الشيطان الرجيم ونزغته التي حملته على الجفاء عليكم ، ويعلمكم أنه نادم علىٰ ما كان منه إليكم ، وهو مستبصر في تعظيمكم وقضاء حقوقكم ، وقد أمر لكل واحد منكم بما ترون من صلته وكسوته علامة لرضاه عنكم ، فدعوا له وقبضوا ما أمر لهم ، وانصرفوا غالبين لم يمسسهم سوء)[1] .

* * *

ولمَّا نظر مالك بن دينار إلى المهلب بن أبي صُفرة يجرُّ أذياله ويتبختر في أثواب خيلائه . . ناداه : أن ارفع من ثيابك ، فقال له المهلب : (أَوَما تعرفني ؟ قال له مالك : بلىٰ إني أعرفك ؛ أوَّلُك : نُطفة مذرة ، وآخرُك جيفةٌ قَذِرة ، وأنت فيما بين ذٰلك تحمل العَذِرة)[2] .

ويروىٰ أن رجلاً قال لعبد الله العمري : (هـٰذا هارون الرشيد في الطواف قد أخلي له المسعىٰ ، فقال له : لا جزاك الله عني خيراً ، كلفتني أمراً كنت عنه غنياً .

ثم جاء إليه فقال له : يا هارون ، فلما نظر إليه . . قال : لبيك يا عم ، قال : كم ترىٰ هـٰهنا من خلق الله ؟ فقال : لا يحصيهم إلا الله تعالىٰ ، فقال : اعلم

---

(١) أورده في « ترتيب المدارك » (٢/٨٠ ـ ٨١) ، وتتحيَّفون : تتنقصون .

(٢) رواه في « حلية الأولياء » (٢/٣٨٤) ، وأورده بنحوه في « بهجة المجالس » (١/٤٤٠) ، و« محاضرات الأدباء » (١/٥٣٧) بين مطرِّف والمهلب ، ومذرة : فاسدة ، والعذرة : الغائط .

أيها الرجل : أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه ، وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ، قال : فبكىٰ هارون وجلس ، فجعلوا يعطونه مِنديلاً مِنديلاً للدموع .

ثم قال له : والله ؛ إن الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحَجْرَ عليه ، فكيف بمن أسرع في مال المسلمين ؟! فيقال : إن هارون كان يقول بعد ذٰلك : إني أحب أن أحج في كل عام ، وما يمنعني من ذٰلك إلا عبد الله العمري)[1] .

ويروىٰ أن الحسن بن محمد بن الحسن رضي الله عنهم دخل علىٰ عمر بن عبد العزيز فقال له : (يا عمر ؛ ثلاث من كن فيه .. فقد استكمل الإيمان ، فقال له عمر : إيه أهل بيت النبوة ومَعدِن الرسالة ، وجثىٰ علىٰ ركبتيه ، فقال الحسن : من إذا رضي .. لم يدخله رضاه في باطل ، ومن إذا غضب .. لم يخرجه غضبه عن الحق ، ومن إذا قدر .. لم يتناول ما ليس له)[2] .

ولمَّا ولي عمر بن عبد العزيز .. وَفَدَ عليه الوفود من كل بلد ، فوفد عليه الحجازيون ، فتقدم غلام منهم للكلام ، وكان حديث السن ، فقال له عمر : لينطق من هو أسن منك ، فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه : قلبِه ولسانِه ، فإذا منح الله عبداً لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً .. فقد استحق الكلام ، وعَرفَ فضلَه من سمع خِطابه ، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسِّن .. لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هٰذا منك ، فقال : صدقت ، قل ما بدا لك .

فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، نحن وفد تهنئة لا وفد مَرْزِئَة ، وقد أتيناك بمنِّ الله الذي مَنَّ علينا بك ، لم تُقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ؛ أما الرغبة :

---

(١) أورده في « صفة الصفوة » (٢/١٠٦ ـ ١٠٧) .

(٢) رواه ابن الجوزي في « سيرة عمر بن عبد العزيز » (ص ١٦٥ ـ ١٦٦) بين عمر ومحمد بن كعب رحمهما الله تعالىٰ ، والطبراني في « الصغير » (١/٦١) مرفوعاً عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وانظر « الفاضل » (ص ٨٩) .

فقد أتتنا منك إلىٰ بلدنا ، وأما الرهبة : فقد أمِنَّا جورَك بعدلك .

فقال له عمر : عظني يا غلام ، فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن ناساً من الناس غرَّهم حِلم الله عنهم ، وطولُ أملهم ، وكثرةُ ثناء الناس عليهم ، فزلَّت بهم أقدامهم ، فهوَوْا في النار ، فلا يَغُرَّنَّك حلم الله عنك ، وطولُ أملك ، وكثرةُ ثناء الناس عليك ، فتزلَّ بك قدمك فتلتحقَ بالقوم ، فلا جعلك الله منهم ، وألحقك بصالحي هـٰذه الأمة .

ثم سكت ، فسأل عمر الغلام عن سنه ؛ فإذا هو ابن إحدىٰ عشرة سنة ، ثم سأل عنه ؛ فإذا هو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فتمثل عمر عند ذٰلك فقال : [من الطويل]

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ ٱلْمَرْءُ يُولَدُ عَالِماً ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وَإِنَّ كَبِيرَ ٱلْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيرٌ إِذَا ٱلْتَفَّتْ عَلَيْهِ ٱلْمَحَافِلُ [1]

ولغيره [2] : [من الطويل]

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَرُّ ٱلسِّنِينَ مُتَرْجِماً ... عَنِ ٱلْعِلْمِ فِي ٱلْإِنْسَانِ سَمَّيْتَه طِفْلَا
وَمَا تَنْفَعُ ٱلْأَعْوَامُ حِينَ تَعُدُّهَا ... وَلَمْ تَسْتَفِدْ فِيهِنَّ عِلْماً وَلَا فَضْلَا

وفي مثل هـٰذا قيل للعتَّابي ، وكان لا يبالي ما لبس : (ما لك لا تُجيد الملبوس ؟ فقال : إنما يرفع المرءَ أدبُه وعقلُه ، لا حِليتُه وحُلَّتُه ، لحى الله امرأً يرضىٰ أن ترفعه هيئته وجماله ، لا والله حتىٰ يشرفه أصغراه : لسانه وقلبه ، ويعلو به أكبراه : همته ولبه) [3] .

ولما دخل ضمرة بن ضمرة على المنذر بن المنذر وهو ملك ، وكان ضمرة

---

(١) أورد الخبر بنحوه مختصراً في « العقد الفريد » (٢/١٤٠) ، و« زهر الآداب » (١/٧) ، ومَرْزِئة : مصيبة ، والبيتان ينسبان لعبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٨٧) ، وللشافعي في « ديوانه » (ص ١١٠) .

(٢) البيتان مع ثالث ستأتي مخرجة في (ص ٢٣٨) من هـٰذا الكتاب .

(٣) أورده بنحوه في « زهر الآداب » (٢/٦٢٠) .

ذا رأي وعقل . . احتقرته عيناه لدمامته ، فقال : (لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، فقال ضمرة : أبيتَ اللعنَ ، إن القوم ليسوا بجزرٍ تُجزَر ، وإنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ؛ فإذا نطق . . نطق ببيان ، وإذا قاتل . . قاتل بجنان ، والرجال لا تكال بالقُفزان ، ولا توزن بالقَبَّان ، فأعجب المنذر بكلامه)[١] .

وروي أن رَوح بن زِنباعٍ كان في طريق مكة في يوم شديد الحر مع أصحابه فنزلوا ، فضُربت لهم الخيام والظلال ، وقدم إليهم الطعام والشراب المبرد ، فبينما هم كذلك . . إذا هم براع ، فدعاه إلى الطعام ، فأبىٰ وقال : (إني صائم ، قال له روح : في مثل هـٰذا اليوم الحار ؟! قال : أفأدع أيامي تذهب باطلاً ؟! قال روح : لقد ضَنِنتَ بأيامك يا راعي ، إذ جاد بها روح بن زنباع)[٢] .

وروي أن أعرابياً قام بين يدي سليمان بن عبد الملك وقال : (يا أمير المؤمنين ؛ إني مكلمك بكلام فاحتمله إن كرهته ؛ فإن وراءه ما تحب إن قبلته ، قال : هات يا أعرابي ، قال : إني سأطلق لساني بما خرست به الألسن بحق الله وحق أمانتك :

إنك قد اكتنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تصلحْ دنياهم بفساد آخرتك ، فأعظم الناس غَبناً يوم القيامة من باع آخرته بدنيا غيره .

فقال له سليمان : أمَّا أنت . . فقد نصحت ، وأرجو أن الله سيعيننا علىٰ ما قلدنا ، وقد جرَّدْتَ لسانك فهو سيفك ، فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، وهو لك لا عليك)[٣] .

---

(١) أورده بنحوه ابن سلام في « الأمثال » (ص ٩٨) ، وفيه : (النعمان بن ماء السماء) ، والجاحظ في « البيان والتبيين » (١/١٧١) ، وفيه : (النعمان بن المنذر) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨٨) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٣٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٦٦٣) ، وفي (ز) : (وقد أجاد) بدل (إذ جاد) ، ويكون بذلك من البحر البسيط .

(٣) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦١٣) ، وأورده في « الإحياء » (٥/٥٥٦ ـ ٥٥٧) .

وقال ابن أبي عَروبة : (حج الحجاج ، فنزل بعض المياه بين مكة والمدينة ، ودعا بالغداء وقال لحاجبه : انظر من يتغدَّىٰ معي وأسألُه عن بعض الأمر ، فنظر نحو الجبل ؛ فإذا هو براع بين شَملتين نائمٍ ، فضربه برجله وقال له : ائت الأميرَ ، فأتاه ، فقال له الحجاج : اغسل يدك وتغدَّ معي ، فقال : دعاني من هو خير منك فأجبته ، فقال : من هو ؟ قال : الله تعالىٰ دعاني إلى الصوم فصمت ، قال : في هٰذا الحر الشديد ؟! قال : نعم ، صمت ليوم هو أشدُّ منه حراً ، قال : فأفطر وصم غداً ، قال : إن ضمنت لي البقاء إلى الغد ، قال : ليس ذٰلك إلي ، قال : فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه ؟! قال : لأنه طعام طيب ، قال : لم تطيبه أنت ولا الطباخ ، ولٰكن طيبته العافية)[1] .

ولما حج هارون الرشيد . . بعث إلىٰ مالك بن أنس بكيس فيه خمس مئة دينار ، فلما قضىٰ نسكه وانصرف ودخل المدينة . . بعث إلىٰ مالك بن أنس أنَّ أمير المؤمنين يحب أن تنتقل معه إلىٰ مدينة السلام ، فقال للرسول : قل له : (إن الكِيس بخاتمه ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « وَٱلْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »)[2] .

وقال وهب بن منبه : (إن ملكاً كان يفتن الناس ، ويحملهم علىٰ أكل لحم الخنزير ، فأُتي برجلٍ أفضلِ أهل زمانه ، فأعظمَ الناسُ مكانَه وهالهم أمره ، فراوده علىٰ أكل لحم الخنزير ، فلم يفعل ، فقال له صاحب شرطة الملك : أنا آتيك بجدي تذبحه مما يحل لك أكله ، وإذا دعا الملك بلحم الخنزير . . أتيتك به ، ففعل .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٣٥) ، وأورده في « عيون الأخبار » (٣٦٦/٢) ، والشملة : كساء من صوف أو شعر .

(٢) رواه في « الجرح والتعديل » (٣٠/١) ، و« جامع بيان العلم وفضله » (١١٢٥ ، ١١٢٦) والحديث رواه البخاري (١٨٧٥) ومسلم (١٣٨٨) عن سيدنا سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه .

ثم أُتي به الملك ، فدعا بلحم الخنزير ، فأتىٰ صاحب الشرطة بلحم ذٰلك الجدي ، فأمره الملك أن يأكله ، فأبىٰ ، فجعل صاحب الشرطة يغمزه أن يأكله ، فأبىٰ أن يأكله ، فأمر الملك صاحب الشرطة أن يقتله ، فلما ذهب به . . قال : ما منعك أن تأكل وهو اللحم الذي ذبحتَه أنت ؟! أظننت أني جئت بغيره ؟! قال : لا ، قد علمت أنه هو ، ولٰكني خفت أن يفتتن الناس بي ، فإن أُريدوا علىٰ أكل لحم الخنزير . . قالوا : قد أكله فلان ، فيُستن بي ، فأكون فتنة لهم ، فقتل رحمه الله)[1] .

وروي أن ملكاً كان يقرب القربان الذبائح للأصنام ، فقيل له : (إن في مملكتك رجلاً لا يرىٰ ذٰلك ، ولا يذبح للأصنام ، فأمر به ، فأُحضر ، فقال له : قرِّب ذبيحة بين يدي هٰذا الصنم يكون بقرة ، فأبىٰ ، فقيل له : قرِّب كبشاً ، فأبىٰ ، فقيل له : فقرِّب ديكاً ، فأبىٰ ، فقيل له : فقرِّب دجاجة ، فأبىٰ ، فقتله)[2] .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار : (يا كعب ؛ خوِّفنا ، قال : أوليس فيكم كتاب الله وسنة رسوله ؟! قال : بلىٰ يا كعب ، ولٰكن خوِّفنا ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ اعمل عمل رجل لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً . . لازدريت عملهم مما ترىٰ .

فأنكس عمر وأطرق ملياً ثم أفاق ، ثم قال : يا كعب ؛ خوِّفنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو فُتح من جهنم قدرُ مَنخَر ثور بالمشرق ، ورَجُلٌ بالمغرب . . لغلىٰ دماغُه حتىٰ يسيل من حرها .

فأنكس عمر ، ثم أفاق فقال : يا كعب ؛ زدنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن جهنم لَتزفِرُ زفرة يوم القيامة ، فلا يبقىٰ ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل إلا خَرَّ علىٰ

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٦٦) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٤/٥٥ ـ ٥٦) .
(٢) في (و) : (بكرةً بقرة) بدل (يكون بقرة) .

ركبتيه ، حتىٰ يخِرَّ إبراهيم خليل الرحمـٰن علىٰ ركبتيه يقول : يا رب ؛ لا أسألك اليوم إلا نفسي)[1] .

واستأذن أبو دُهمان علىٰ بعض الأمراء فحجبه ، ثم أذن له ، فلما دخل . . قال : (إن هـٰذا الأمر الذي صار إليك قد كان في يديْ غيرك فأمسوا والله حديثاً ؛ إنْ خيراً . . فخير ، وإن شراً . . فشر ، فتحبَّبْ إلىٰ عباد الله بحسن البِشْر ، ولين الجانب ، وتسهيل الحجاب ؛ فإن حب عباد الله موصول بحب الله ، وبغضهم موصول ببغضه ؛ لأنهم شهداء الله علىٰ خلقه)[2] .

ولمَّا دخل محمد بن واسع سيد العباد في زمانه علىٰ بلال بن أبي بُردة أمير البصرة وكان ثوبه إلىٰ نصف ساقه . . قال له بلال : (ما هـٰذه الشُّهرة يا بن واسع ؟ فقال له ابن واسع : أنتم شهرتمونا ، هـٰكذا كان لباس من مضىٰ ، وإنما أنتم طولتم ذيولكم ، فصارت السنة بينكم بدعة وشهرة) .

* * *

قال المؤلف غفر الله له : وأما أنا . . فلما دخلت علىٰ ملك مصر ، وهو الأفضل بن أمير الجيوش . . قلت له : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد السلام علىٰ نحو ما سلمت رداً جميلاً ، وأكرم إكراماً جزيلاً ، وأمرني بدخول مجلسه ، وأمرني بالجلوس فيه .

فقلت له : أيها الملك ؛ إن الله سبحانه وتعالىٰ قد أحلَّك محلاً عالياً شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملكك طائفة من ملكه ، وأشركك في حكمه ، ولم يرض أن يكون أمرُ أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولىٰ بالشكر منك ، وإن الله سبحانه قد ألزم الورىٰ طاعتك ، فلا يكونن أحد أطوع لله

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (٦٤١) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣٦٨/٥ ـ ٣٦٩) ، وفيها : (عملك) بدل (عملهم) .
(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٢٠١/٢) .

منك ، وإن الله تعالىٰ أمر عباده بالشكر ، وليس الشكر باللسان ، ولـٰكنه بالفعال والإحسان ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ (١) .

واعلـم : أن هـٰذا الأمـر الذي أصبحت فيـه من الملك إنمـا صار إليك بمـوت من كان قبلك ، وهو خـارج عن يديك بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيمـا خوَّلك من هـٰذه الأمة (٢) ؛ فـإن الله تبارك وتعالىٰ سـائلك عن النَّقير والقِطْميـر والفَتيـل (٣) ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ، وقـال تعالىٰ : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (٥) .

واعلم أيها الملك : أن الله تعالىٰ قد آتىٰ مُلك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داوود عليهما السلام ، فسخر له الإنس والجن والشياطين ، والطير والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذٰلك أجمع ، فقال له : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٦) ، فوالله ؛ ما عدَّها نعمة كما عددتموها ، ولا حسِبها كرامة كما حسِبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله تعالىٰ ومكراً به ، فقال : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (٧) .

فافتـح الباب ، وسـهِّل الحجاب ، وانصـر المظلوم ، وأغـث الملهوف ، أعانك الله علىٰ ما قَلَّدك ، وجعلك كهفاً للملهوف ، وأماناً للخائف .

---

(١) سورة سبأ : (١٣) .
(٢) خولك : أعطاك إياه متفضِّلاً .
(٣) النَّقير : قَدْر النُّقرة في ظهر النواة ، والقِطْمير : القشرة الرقيقة على النواة ، والفَتيل : ما كان في شق النواة ، وهـٰذه الأشياء يضرب بها مثلاً للشيء التافه الحقير القليل .
(٤) سورة الحجر : (٩٢ ـ ٩٣) .
(٥) سورة الأنبياء : (٤٧) .
(٦) سورة صٓ : (٣٩) .
(٧) سورة النمل : (٤٠) .

ثم أتممت المجلس بأن قلت : قد دوَّختُ البلاد شرقاً وغرباً ، فما اخترتُ مملكة تزوجتُ فيها ووُلِد لي غيرَ هـٰذه المملكة .

ثم أنشدت (١) : [من البسيط]

وَٱلنَّاسُ أَكْيَسُ مِنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلاً ... حَتَّـىٰ يَـرَوْا عِنْـدَه آثَـارَ إِحْسَـانِ

* * *

وكتب حكيم إلىٰ حكيم : (إني سائلك عن ثلاثة أشياء ؛ إن أجبت عنها . . صرت لك تلميذاً : أيُّ الناس أولىٰ بالرحمة ؟ ومتىٰ تضيع أمور الناس ؟ وبم تتلقى النعمة من الله تعالىٰ ؟

فكتب إليه : إن أولى الناس بالرحمة ثلاثة : البَرُّ يكون في سلطان الفاجر ؛ فهو الدهرَ حزينٌ لما يرىٰ ويسمع ، والعاقل يكون في تدبير الجاهل ؛ فهو الدهرَ متعب مغموم ، والكريم يحتاج إلى اللئيم ؛ فهو الدهرَ خاضع له ذليل .

وتضيع أمور الناس : إذا كان الرأي عند من لا يُقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ، والمال عند من لا ينفقه .

وتُتلقى النعمة من الله تعالىٰ : بكثرة شكره ، ولزوم طاعته ، واجتناب معصيته) فصار تلميذاً له إلىٰ أن مات (٢) .

وقال يحيى بن سعيد : (حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز ، فلما أشرفا علىٰ عَقَبة عسفان . . نظر سليمان إلى السُّرادقات قد ضُربت له ، فقال له : يا عمر ؛ كيف ترىٰ ؟ قال : أرىٰ دنيا عريضة يأكل بعضها بعضاً ، وأنت المسؤول عنها ، والمأخوذ بها .

فبينما هما كذٰلك . . إذ طار غراب من سرادق سليمان في منقاره كِسْرة

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١٥٩/٣) لبعض الحارثيين ، و« بهجة المجالس » (٥٦٥/١) لعبد الملك بن عبد الحميد الحارثي ، ولعله ابن عبد الرحيم الحارثي .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٤٥١) ، وفيه : (وكتب أفلاطون إلىٰ سقراط) .

فصاح ، فقال سليمان : ما يقول هـٰذا الغراب ؟ فقال عمر : ما أدري ما يقول ، ولـٰكن إن شئت . . أخبرتك بعلم ، قال : أخبرني ، قال : هـٰذا غراب طار من سرادقك في منقاره كسرة أنت بها مأخوذ ، وعنها مسؤول من أين دخلت ، ومن أين خرجت .

قال : إنك تجيء بالعجب ! قال : أفلا أخبرك بأعجب من هـٰذا ؟ قال : بلىٰ ، قال : من عرفَ اللهَ . . كيف عصاه ؟! ومن عرف الشيطانَ . . كيف أطاعه ؟! ومن أيقن بالموت . . كيف يَهْنِيه العيش ؟! قال : لقد غَثِثتَ علينا ما نحن فيه ، ثم ضرب فرسه وسار)[1] .

وروي أن بلال بن أبي بُردة خرج في جنازة ، وهو أمير على البصرة ، فنظر إلىٰ جماعة وقوفاً فقال : (ما هـٰذا ؟ قالوا : مالك بن دينار يذكر الناس ، فقال لوَصِيفٍ معه : اذهب إلىٰ مالك بن دينار فقل له : يرتفع إلينا إلى القبر ، فجاء الوصيف فأدى الرسالة إلىٰ مالك ، فصاح به مالك : ما لي إليه حاجة فأجيئه فيها ، فإن تكن له حاجة . . فليجئ إلىٰ حاجة نفسه .

فلما دفنوا ميتهم . . قام بلال بمن معه إلىٰ حَلْقة مالك ، فلما دنا منها . . نزل ، ونزل من معه ، ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتىٰ جلس ، فلما رآه مالك بن دينار . . سكت ، فأطال السكوت ، فقال له بلال : يا أبا يحيىٰ ؛ ذكِّرنا ، فقال : أنسيت شيئاً فأذكركه ؟ قال : فحدِّثنا ، قال : أمَّا هـٰذا . . فنعم ، قَدِمَ علينا أمير مِن قبلك على البصرة فمات ، فدفنَّاه في هـٰذه الجَبَّانة[2] ، ثم أتينا بزنجي فدفناه إلىٰ جنبه ، فوالله ؛ ما أدري أيُّهما كان أكرم على الله سبحانه .

فقال بلال : يا أبا يحيىٰ ؛ أتدري ما الذي جرأك علينا ، وما الذي يسكتني عنك ؟ لأنك لم تأخذ من دراهمنا شيئاً ، أما والله ؛ لو أخذت من دراهمنا

---

(١) رواه بنحوه في « معرفة الرجال » (٢/٢٣٩) ، وغثثت : أفسدت .

(٢) الجَبَّانة : المقبرة .

شيئاً .. ما اجترأت علينا هٰذه الجرأة ، قال مالك : قد أفادني هٰذا الحديث علماً ، ألا فاتقوا دراهمهم) .

ودخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال : (يا بن شهاب ؛ ما حديثٌ يحدِّثُنا به أهلُ الشام ؟ قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : حدَّثُونا أن الله تبارك وتعالىٰ إذا استرعىٰ عبداً رَعِيَّة .. كَتَب له الحسنات ، ولم يكتب عليه السيئات .

قال : كذبوا يا أمير المؤمنين ؛ أنبيٌّ خليفةٌ أقربُ إلى الله ، أم خليفةٌ ليس بنبيٍّ ؟ قال : بل نبيٌّ خليفةٌ ، قال : فأنا أحدثك يا أمير المؤمنين بما لا تشكُّ فيه : قال الله تعالىٰ لنبيه داوود : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (١) .

يا أمير المؤمنين ؛ هٰذا وعيد الله لنبيٍّ خليفة ، فما ظنُّك بخليفة غيرِ نبي ؟! فقال الوليد : إن الناس ليغروننا عن ديننا) (٢) .

وروىٰ زياد عن مالك بن أنس قال : (بعث إلي أبو جعفر وإلى ابن طاووس ، فدخلنا عليه ؛ فإذا هو جالس علىٰ فرش قد نُضدت ، وبين يديه أنطاع قد بُسطت ، وبين يديه جَلاوِزَةٌ بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا : أن اجلسا ، فجلسنا ، فأطرق عنا طويلاً ، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس وقال : حدِّثنا عن أبيك ، قال : نعم ، سمعت أبي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَشْرَكَهُ ٱللهُ فِي مُلْكِهِ ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ ٱلْجَوْرَ فِي حُكْمِهِ » .

---

(١) سورة صٓ : (٢٦) .
(٢) أورده في « العقد الفريد » (١/٦٠) .

فأمسك أبو جعفر ساعة ، قال مالك : فضممت ثيابي مخافة أن ينضحني بدمه ، فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسوَدَّ ما بيننا وبينه .

ثم قال : يا بن طاووس ؛ ناولني هـٰذه الدَّوَاة ، فأمسك عنه ، ثم قال : ناولني هـٰذه الدواة ، فأمسك عنه ، ثم قال : ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال : أخشىٰ أن تَكتب بها معصية ، فأكون شريكك فيها .

فلما سمع ذٰلك . . قال : قُوما عني ، قال ابن طاووس : ذٰلك ما كنا نبغي منذ اليوم ، قال مالك : فما زلتُ أعرف لابن طاووس فضلَه من ذٰلك اليوم)[1] .

وقال أحمد بن أبي الحَوَاري : (سمعت رجلاً يحدث عن ابن السَّمَّاك ، قال : بعث إلي هارون ، فلما انتهيت إلىٰ باب القصر . . أخذ حَرَسِيَّان بضَبْعيَّ ، فأعجلاني في دِهليزِ القصر ، فلما انتهيت إلىٰ باب القاعة . . لقيني خَصِيَّان ضخمان ، فأخذاني من الحرسِيَّين ، فأعجلاني في قاعة القصر ، فانتهيت إلى البهو الذي هو فيه ، فتلقاني خصيان دونهما ، فأخذاني فأعجلاني في البَهْو ، فقال لهما هارون : ارفقا بالشيخ .

فلما وقفت بين يديه . . قلت له : يا أمير المؤمنين ؛ ما مر بي يوم منذ ولدتني أمي أتعبُ فيه من يومي هـٰذا ، فاتَّق الله في خلقه ، واحفظ محمداً في أمته ، وانصح لنفسك في رعيتك ؛ فإن لك مقاماً بين يدي الله تعالىٰ أنت فيه أذل من مقامي هـٰذا بين يديك ، فاتق الله واعلم أنَّ مِن أخذِ الله وسَطَواتِه علىٰ أهل المعصية كيتَ وكيتَ .

قال : فاضطرب علىٰ فراشه حتىٰ نزل إلىٰ مصلىً بين يدي فراشه ، فقلت :

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (١/٥٤ ـ ٥٥) ، والحديث رواه في « حلية الأولياء » (٤/١٥) من قول طاووس رحمه الله تعالىٰ ، وأورده في « ربيع الأبرار » (٣/٥١٣) عن طاووس مرفوعاً ، والأنطاع : جمع نِطْع ؛ وهو بساط من الجلد ، كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل ، والجلاوزة : جمع جِلَّوْز ؛ وهو الضخم الشجاع من الرجال ، والدَّواة : المحبرة .

يا أمير المؤمنين ؛ هـٰذا ذل الصفة ، فكيف لو رأيت ذل المعاينة ؟! قال : فكادت نفسه تخرج ، فقال يحيىٰ للخصيين : أخرجوه ، فقد أبكىٰ أمير المؤمنين)(١) .

ودخل عليه في مجلس آخر فقال له : (عِظْني وأوجز ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الذي أكرمك بما أكرمك به لحقيق عليك أن تحب ما أحب ، وتبغض ما أبغض .

فوالله ؛ لقد أحب الله داراً فأبغضتَها ، وأبغضَ داراً فأحببتَها ، كأنما أردتَ خلاف ربك ، أو أردت سواه .

واعلم يا أمير المؤمنين : أن الذي في يديك لو بقي علىٰ من كان قبلك . . لم يصل إليك ، فكذٰلك لا يبقىٰ لك كما لم يبق لغيرك ، فاتق الله في خلافته ، واحفظ وصية محمد صلى الله عليه وسلم في أمته) .

ودخل هارون علىٰ بعض النُّسَّاك فسلم عليه ، فقال : وعليك السلام أيها الملك ، ثم قال له : أيها الملك ؛ تحب الله ؟ قال : نعم ، قال : فتعصِيه ؟ قال : نعم ، قال : كذبت والله في حُبك إياه ، لو أحببته . . إذاً ما عصيته ، ثم أنشأ يقول(٢) : [من الكامل]

تَعْصِـي ٱلْإِلَـٰهَ وَأَنْـتَ تُظْهِـرُ حُبَّـهُ ... هَـٰذَا مُحَـالٌ فِـي ٱلْقِيَـاسِ بَدِيـعُ
لَـوْ كَانَ حُبُّـكَ صَادِقـاً لأَطَعْتَـهُ ... إِنَّ ٱلْمُحِـبَّ لِمَـن يُحِـبُّ مُطِيـعُ
فِـي كُلِّ يَـوْمٍ يَبْتَدِيـكَ بِنِعْمَـةٍ ... مِنْـهُ وَأَنْـتَ لِشُـكْرِ ذَاكَ مُضِيـعُ

(١) رواه بنحوه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٠٢٩) ، والحرسِيَّان : مثنى الحَرَسِيّ ؛ وهو واحد الحرس ، وهم الجند الذين يُرتَّبون لحفظ الحاكم وحراسته ، بضَبْعَيَّ : مثنى الضَّبْع ؛ وهو ما بين الإبط إلىٰ نصف العَضُد من أعلاها ، وهما ضَبْعان ، ودِهليز : ما بين الباب والدار .

(٢) الأبيات تنسب للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ٩١) ، ومحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٢٢٧) ، وتنسب لغيرهما .

وروىٰ زيد بن أسلم عن أبيه قال : قلت لجعفر بن سليمان الهاشمي والي المدينة : (احذر أن يأتي رجل غداً ليس له في الإسلام نسب ولا أب ولا جد ، فيكون أولىٰ برسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، كما كانت امرأة فرعون أولىٰ بنوح ولوط من زوجتيهما ، وكما كانت زوجة نوح ولوط أولىٰ بفرعون من زوجته ، من بطَّأ به عمله . . لم يسرع به نسبه ، ومن أسرع به عمله . . لم يبطئ به نسبه)[1] .

* * *

وقال بشرُ بنُ السَّرِي : (بينما الحجاجُ جالسٌ في الحِجْر . . إذ دخل رجل من أهل اليمن ، فجعل يطوف ، فوكل به بعض من معه ، فقال : إذا فرغ من طوافه . . فأتني به ، فلما فرغ من طوافه . . أتاه به ، فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل اليمن ، قال : أفلك علم بمحمد بن يوسف ؟ قال : نعم ، قال : فأخبرني عنه ، قال : لقد تركته أبيض سميناً ، طويلاً عريضاً ، قال : ويلك ! ليس عن هٰذا أسألك ، قال : فعمه ؟ قال : عن سيرته وطُعمته ، قال : فأَجْوَرُ السِّيَر ، وأخبثُ الطُّعَم ، وأعدى العُداة على الله تعالىٰ وأحكامه .

قال : فغضب الحجاج وقال : ويلك ! أما علمت أنه أخي ؟! قال : بلىٰ ، قال : فأنت أما علمت أن الله ربي ؟! والله ؛ لهو أمنعُ لي منك أكثرَ منك لأخيك ، قال : أجل ، أرسله يا غلام)[2] .

وقال الأصمعي : (حدثني رجل من أهل المدينة ، قال : سمعت محمد بن إبراهيم يحدث ، قال : شهدت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من

---

(١) أورده في « المستطرف » (١/٢٦٠) ، وفي (د ، هـ ، ز ، ح) : (جعفر بن سليمان بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ فهو جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، سيد بني هاشم . انظر « سير أعلام النبلاء » (٨/٢٣٩) ، والله أعلم .

(٢) رواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٨٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/٣١٢) .

قريش وأهلِ بيت من المهاجرين ليسوا بقرشيين ، فقالوا لأبي جعفر : اجعل بيننا وبينهم ابن أبي ذئب .

قال أبو جعفر لابن أبي ذئب : ما تقول في بني فلان ؟ قال : أشرار ، من أهل بيت أشرار .

قالوا : سله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد ، وكان عاملَه على المدينة ، قال : ما تقول في الحسن ؟ قال : يأخذ بالإِحْنة ، ويقضي بالهوىٰ ، فقال الحسن : والله يا أمير المؤمنين ؛ لو سألتَه عن نفسكَ . . لرماك بداهية ، ونعتك بشر .

قال : ما تقول فيَّ ؟ قال : أعفِني ، قال : لا بد أن تقول ، قال : إنك لا تعدل في الرعية ، ولا تقسم بالسوية ، قال : فتغير وجه أبي جعفر ، فقال إبراهيم ابن محمد بن علي صاحب الموصل : طهرني بدمه يا أمير المؤمنين ، فقال له ابن أبي ذئب : اقعد يا بني ؛ فليس في دم رجل يشهد أن لا إلـٰه إلا الله طهور .

ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ دعنا مما نحن فيه ، بلغني أنك رُزقت ابناً صالحاً بالعراق ؛ يعني : المهديَّ ، قال : أَمَا إن قلتَ ذٰلك ؛ إنه الصوَّامُ اليومَ البعيد ما بين الطرفين ، قال : ثم قام ابن أبي ذئب فخرج ، فقال أبو جعفر : أَمَا والله ؛ ما هو بمستوثَق العقل ، ولقد قال بذات نفسه)[١] .

ودخل أبو النضر سالم مولىٰ عمر بن عبيد الله علىٰ عامل للخليفة ، فقال له : (يا أبا النضر ؛ إنه تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها ، ولا نجد بُدّاً من إنفاذها ، فما ترىٰ ؟ قال أبو النضر : قد أتاك كتاب الله قبل كتاب الخليفة ، فأيَّهما اتبعتَ . . كنتَ من أهله)[٢] .

* * *

(١) أورده في « العقد الفريد » (١/٥٦) .
(٢) أورده في « العقد الفريد » (١/٥٧ ـ ٥٨) .

الباب الثالث

فيما جاء في الولاة والقضاة ، وما في ذلك من الغرر والخطر

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) .

جاء في التفسير : من اتباع الهوىٰ أن يحضر الخصمان بين يديك ، فتود أن يكون الحق للذي لك منه خاصة ، وبهٰذه الخصلة سُلب سليمان بن داوود عليهما السلام مُلكَه (٣) .

قال ابن عباس رضي الله عنه : (كان الذي أصاب سليمان بن داوود عليهما السلام أن ناساً من أهل جَرادَةَ امرأتِه ـ وكانت من أكرم نسائه عليه ـ تحاكموا إليه مع غيرهم ، فأحب أن يكون الحق لأهل جَرادَةَ فيقضيَ لهم ، فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحداً) (٤) .

ومن ذٰلك آية الملوك التي أنزلها الله تعالىٰ في السلاطين لِما اقتضته من السياسة العامة التي فيها بقاء الملك وثبوت الدول ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٥) ، ثم سمى المنصورين ، وأوضح شرائط النصر ، فقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟

---

(١) الغَرَر : التعرض للهَلَكة .

(٢) سورة صٓ : (٢٦) .

(٣) انظر « الدر المنثور » (٧/١٧٠) .

(٤) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٩٢٦) مطولاً ، والطبري في « تفسيره » (١/٥٨٩) .

(٥) سورة الحج : (٤٠) .

بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[1] ، فضَمِنَ الله تعالى النصر للملوك ، وشَرَط عليهم شرائط كما ترىٰ ، فمتىٰ تضعضعت قواعدهم ، أو انتقض عليهم من أطراف ممالكهم ، أو ظهر عليهم عدو أو باغي فتنة أو حاسدُ نعمةٍ ، أو اضطربت عليهم الأمور ، أو رأوا أسباب الغِيَر . . فليلجؤوا إلى الله تعالىٰ ، ويستجيروا من سوء أقداره بإصلاح ما بينهم وبينه سبحانه ؛ بإقامة الميزان بالقسط الذي شرعه الله تعالىٰ لعباده ، وركوبِ سبيل العدل والحق الذي قامت به السماوات والأرض ، وإظهارِ شرائع الدين ، ونصرِ المظلوم ، والأخذِ علىٰ يد الظالم ، وكفِّ يد القوي عن الضعيف ، ومراعاةِ الفقراء والمساكين ، وملاحظةِ ذوي الخَصاصة والمستضعفين ، وليعلموا أنهم قد أخلُّوا بشيء من الشروط الأربع التي شُرِطَتْ في النصر .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ؛ فَٱلْإِمَامُ ٱلَّذِي عَلَى ٱلنَّاسِ رَاعٍ ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَٱلرَّجُلُ رَاعٍ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَٱلْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهَا ، وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ ، وَعَبْدُ ٱلرَّجُلِ رَاعٍ عَلَىٰ مَالِ سَيِّدِهِ ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »[2] .

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم كل ناظر في حق غيره راعياً له ، واللفظة مأخوذة من الرعاية والمراعاة ؛ فإذا تقدم لرعاية غيره من يأكله . . فهو الهلاك كما قال الشاعر[3] : [من الوافر]

وَرَاعِي ٱلشَّاءِ يَحْمِي ٱلذِّئْبَ عَنْهَا ... فَكَيْفَ إِذَا ٱلذِّئَابُ لَهَا رِعَاءُ

---

(١) سورة الحج : (٤١) .

(٢) رواه البخاري (٧١٣٨) ، ومسلم بنحوه (١٨٢٩) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) في (أ ، ج) : (فكيف إذا الرعاة لها ذئاب) ، وكذا في « الإحياء » (٢٢٥/١) ، وسيأتي في (ص ١٩٥) كما أثبت في المتن .

وأنشد غيره[1] : [من الوافر]

إِذَا خَـــانَ ٱلْأَمِيـــرُ وَكَاتِبَـــاهُ   وَقَاضِـي ٱلْأَرْضِ دَاهَـنَ فِـي ٱلْقَضَاءِ

فَوَيْـــلٌ لِلأَمِيـــرِ وَكَاتِبَيْـــهِ   وَقَاضِـي ٱلْأَرْضِ مِنْ قَاضِي ٱلسَّمَاءِ

وروىٰ مسلم في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا مِنِ ٱمْرِئٍ يَلِي أَمْرَ ٱلْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ .. إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ ٱلْجَنَّةَ »[2] .

وقال معقل بن يسار : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ ٱللهُ رَعِيَّةً ، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنُصْحِهِ .. إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ ٱلْجَنَّةِ »[3] .

وروىٰ عبد الرحمـٰن بن سمرة قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا عَبْدَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بْنَ سَمُرَةَ ؛ لَا تَسْأَلِ ٱلْإِمَارَةَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ .. وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ .. أُعِنْتَ عَلَيْهَا »[4] .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى ٱلْإِمَارَةِ ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، فَنِعْمَتِ ٱلْمُرْضِعَةُ ، وَبِئْسَتِ ٱلْفَاطِمَةُ »[5] .

وقال أبو ذر : قلت : أَمِّرْني يا رسول الله ، قال : « إِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا حَسْرَةٌ

---

(١) روى البيتين ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (٢٦٩) ، وأوردهما ابن أبي خيثمة في « تاريخه » (ص ٤٩) ، والبيت الثاني فيهما : (فويل ثم ويل ثم ويل ... لقاضي ...) .

(٢) صحيح مسلم (٢٢٩/١٤٢) عن سيدنا معقل بن يسار رضي الله عنه ، وفيه : « ما من أمير » .

(٣) رواه البخاري (٧١٥٠) .

(٤) رواه البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) .

(٥) رواه البخاري (٧١٤٨) ، وفيه : « فنعم المرضعة » ، وضرب المرضعة مثلاً للإمارة وما توصله إلىٰ صاحبها من المنافع ، وضرب الفاطمة مثلاً للموت الذي يَهدِمُ عليه لذاته ، ويقطع تلك المنافع .

وَنَدَامَةٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى ٱلَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا »[(١)] .

وروى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ ٱلنَّاسِ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ كَرَاهِيَةً لِهَـٰذَا ٱلْأَمْرِ حَتَّىٰ يَقَعَ فِيهِ »[(٢)] .

وفي الحديث : « مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُسْلِمِينَ شَيْئاً ثُمَّ لَمْ يَحُطْهُمْ بِنَصِيحَةٍ كَمَا يَحُوطُ أَهْلَ بَيْتِهِ . . فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ ٱلنَّارِ »[(٣)] .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلىٰ عاصم يستعمله على الصدقة ، فأبىٰ وقال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ . . يُؤْتَىٰ بِٱلْوَالِي ، فَيُوقَفُ عَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ ، فَيَأْمُرُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ ٱلْجِسْرَ فَيَنْتَفِضُ بِهِ ٱنْتِفَاضَةً يَزُولُ كُلُّ عَظْمٍ مِنْ مَكَانِهِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ ٱللهُ ٱلْعِظَامَ فَتَرْجِعُ إِلَىٰ أَمَاكِنِهَا ، ثُمَّ يَسْأَلُهُ ؛ فَإِنَ كَانَ لِلّٰهِ مُطِيعاً . . أَخَذَ بِيَدِهِ وَأَعْطَاهُ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ لِلّٰهِ عَاصِياً . . خَرَقَ بِهِ ٱلْجِسْرَ فَهَوَىٰ بِهِ فِي جَهَنَّمَ مِقْدَارَ سَبْعِينَ خَرِيفاً » .

فقال عمر : سمعتَ من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم أسمع ؟ قال : نعم ، وكان سلمان وأبو ذر حاضِرَين ، فقال سلمان : إي واللهِ يا عمر ، ومع السبعين سبعين خريفاً في واد من نار يلتهب التهاباً ، فقال عمر بيده علىٰ جبهته : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مَنْ يأخذها بما فيها ؟ فقال سلمان : من سَلَتَ الله أنفه ، وألصق خده بالأرض)[(٤)] .

وروي أن العباس قال : أَمِّرْني يا رسول الله فأُصيبَ وأستريش ، فقال له : « يَا عَبَّاسُ ، يَا عَمَّ ٱلنَّبِيِّ ؛ نَفْسٌ تُنَجِّيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا .

---

(١) رواه بهـٰذا اللفظ أبو عبيد في « الأموال » (٦) ، ومسلم بنحوه (١٨٢٥) .
(٢) صحيح البخاري (٣٤٩٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : « كراهية لهـٰذا الشأن » .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢١/٢٠) عن سيدنا معقل بن يسار رضي الله عنه .
(٤) رواه الطبراني بنحوه مختصراً في « الكبير » (١٧٥/١٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٩٩٨) ، وكِفْلين : مثنىٰ كِفل ؛ وهو الضِّعف ، وسَلَتَ : جَدَع وقطع .

أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِ ٱلْإِمَارَةِ ؟ أَوَّلُهَا : مَلَامَةٌ ، وَأَوْسَطُهَا : نَدَامَةٌ ، وَآخِرُهَا : حَسْرَةٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »(١) .

وروىٰ أبو داوود في « السنن » قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ؛ إن أبي عَريفٌ على الماء ، وإنه يسألك أن تجعل لي العِرَافةَ من بعده ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اَلْعُرَفَاءُ فِي ٱلنَّارِ »(٢) .

وروى الساجِيُّ عن أبي سعيد الخدري قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَشَدُّ ٱلنَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ : ٱلْإِمَامُ ٱلْجَائِرُ »(٣) .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لَيْسَ مِنْ وَالٍ وَلَا قَاضٍ إِلَّا وَيُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ تَعَالَىٰ عَلَى ٱلصِّرَاطِ ، ثُمَّ تَنْشُرُ ٱلْمَلَائِكَةُ صَحِيفَتَهُ فَيَقْرَؤُونَهَا عَلَىٰ رُؤُوسِ ٱلْخَلَائِقِ ؛ فَإِنْ كَانَ عَادِلاً . . نَجَّاهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ بِعَدْلِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَٰلِكَ . . ٱنْتَفَضَ بِهِ ٱلصِّرَاطُ ٱنْتِفَاضَةً صَارَ بَيْنَ كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ مَسِيرَةُ سَنَةٍ ، ثُمَّ يَنْخَرِقُ بِهِ ٱلصِّرَاطُ ، فَمَا يُلْقَىٰ قَعْرَ جَهَنَّمَ إِلَّا بِحُرِّ وَجْهِهِ »(٤) .

وروىٰ معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ ٱلْقَاضِيَ لَيَنْزِلُ فِي مَزْلَقَةٍ أَبْعَدَ مِنْ عَدَنٍ فِي جَهَنَّمَ »(٥) .

وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « يُؤْتَىٰ بِٱلْقَاضِي ٱلْعَدْلِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، فَيَلْقَىٰ مِنْ شِدَّةِ ٱلْحِسَابِ مَا يَوَدُّ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ »(٦) .

---

(١) إلىٰ قوله : « لا تحصيها » تقدم تخريجه (ص ١٣٦) ، والشطر الآخر رواه الطبراني بنحوه في « الأوسط » (٦٧٤٣) عن سيدنا عوف بن مالك رضي الله عنه .

(٢) سنن أبي داوود (٢٩٣٤) بنحوه ، والعريف : القيّم .

(٣) رواه في « حلية الأولياء » (١١٤/١٠) .

(٤) رواه ابن بشران بنحوه في « أماليه » (٦٨) .

(٥) رواه عبد بن حميد كما في « المنتخب » (١٠٨) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٩٧٨) .

(٦) رواه الإمام أحمد (٤١/١٠) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٩٦/١٠) .

وروى الحسن البصري أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمٰن بن سمرة ليستعمله ، فقال : يا رسول الله ؛ خِر لي ، فقال : « ٱقْعُدْ فِي بَيْتِكَ »(١) .

وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَيَوَدَّنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لَوْ وَقَعُوا مِنَ ٱلثُّرَيَّا وَلَمْ يَكُونُوا أُمَرَاءَ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَكَمْ مِنْ مُتَخَوِّلٍ فِي مَالِ ٱللهِ وَمَالِ رَسُولِهِ لَهُ ٱلنَّارُ غَداً »(٢) .

وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ : إِمَامٌ ظَالِمٌ غَشُومٌ ، وَغَالٍ فِي ٱلدِّين مَارِقٌ مِنْهُ »(٣) .

وقال حذيفة بن اليمان : (من اقتراب الساعة : أن يكون أمراءُ فجرة ، ووزراءُ كذبة ، وأمناءُ خَوَنة ، وعلماءُ فسقة ، وعُرفَاءُ ظَلَمة)(٤) .

وقال عبيد بن عمير : (ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً ، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه)(٥) .

وقال أبو هريرة : (ما من أمير يُؤمَّر علىٰ عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولاً ، أنجاه عمله ، أو أهلكه)(٦) .

وقال طاووس لسليمان بن عبد الملك : (هل تدري يا أمير المؤمنين من

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨٥/١٧) عن سيدنا عصمة بن مالك رضي الله عنه بلفظ : (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . .) ، وأما سيدنا عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه . . فقد سبق (ص ١٦١) أنه سأل الإمارة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الرحمٰن بن سمرة ؛ لا تسأل الإمارة . . . » .

(٢) رواه الإمام أحمد بنحوه (٢٧٥/١٤) ، والحاكم (٩١/٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومتخوّل : متعهد .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢١٤/٢٠) ، وغَشُوم : الظالم أشدَّ الظلم .

(٤) رواه مطولاً مرفوعاً في « حلية الأولياء » (٣٥٨/٣) .

(٥) رواه مرفوعاً هنَّاد في « الزهد » (٥٩٧) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢٧٤/٣) .

(٦) رواه الحاكم مرفوعاً بنحوه (٨٩/٤) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٩٦/١٠) .

أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة ؟ قال : لا ، قال طاووس : أشد الناس عذاباً يوم القيامة : مَن أشركَه اللهُ في ملكه فجار في حكمه ، فاستلقىٰ سليمان علىٰ سريره وهو يبكي ، وما زال يبكي حتىٰ قام عنه جلساؤه)[١] .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اَلْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ ؛ اِثْنَانِ فِي ٱلنَّارِ ، وَوَاحِدٌ فِي ٱلْجَنَّةِ : رَجُلٌ قَضَىٰ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ فَهُوَ فِي ٱلنَّارِ ، وَرَجُلٌ قَضَىٰ بِعِلْمٍ فَجَارَ ؛ فَهُوَ فِي ٱلنَّارِ ، وَرَجُلٌ قَضَىٰ بِٱلْحَقِّ ؛ فَهُوَ فِي ٱلْجَنَّةِ » رواه بُريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم[٢] .

وقال ابن سيرين : (جاء صبيان إلىٰ عَبيدةَ السلماني يتخايرون إليه في ألواحهم ، فلم ينظر فيها ، وقال : هـٰذا حكم ، ولا أتولىٰ حكماً أبداً)[٣] .

وتخاير غلمان إلى ابن عمر ، فجعل ينظر إلىٰ كتابتهم ، وقال : (هـٰذا حكم ، ولا بد من النظر فيه) .

* * *

والمصنفون يُرسِلُون في كتبهم حديثاً مرفوعاً رواه أبو داوود في « سننه » : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قُدِّمَ لِلْقَضَاءِ . . فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ »[٤] .

وفي « أخبار القضاة » : (أن قاضياً قَدِمَ إلىٰ بلد ، فجاءه رجل له عقل ودين فقال له : أيها القاضي ؛ أبلغك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قُدِّمَ لِلْقَضَاءِ . . فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ » ؟ قال : نعم ، قال : فبلغك أن أمور الناس ضائعة في بلدنا فجئت تجبرها ؟ قال : لا ، قال : فأكرهك السلطان علىٰ ذٰلك ؟ قال : لا ، قال : فاشهد أني لا أطأ لك مجلساً ، ولا أؤدي عندك شهادة أبداً) .

---

(١) انظر « ربيع الأبرار » (٣/٥١٣) .
(٢) رواه أبو داوود (٣٥٧٣) ، والترمذي (١٣٢٢/م) .
(٣) أورده في « المستطرف » (١/٣٠٧) .
(٤) سنن أبي داوود (٣٥٧١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : « من ولي القضاء » .

وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في بعض خطبه : (إن الملك إذا ملك . . زهَّده الله في ماله ، ورغَّبه فيما في يد غيره ، وأشرَبَ قلبه الإشفاق ، فهو يحسدُ على القليل ، ويسخط الكثير ، جَذِلُ الظاهر ، حزينُ الباطن ، فإذا وجَبَت نفسُه ، ونَضَبَ عمرُه ، وضحا ظِلُّه . . حاسبه اللهُ ، فأشَدَّ حسابَه ، وأقَلَّ عفوَه)[١] .

وذُكِرَ السلطانُ لأعرابي فقال : (والله ؛ لئن عَزُّوا في الدنيا بالجَوْر . . فقد ذَلُّوا في الآخرة بالعدل ، ولقد رضوا بقليل فانٍ عن كثير باق ، وإنما يكون الندم حيث لا ينفع الندم)[٢] .

وقال أبو بكر ابن أبي مريم : (حج قوم ، فمات صاحب لهم بأرض فلاة ، فلم يجدوا ماء ، فأتاهم رجل ، فقالوا : دلنا على الماء ، قال : احلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً أنه لم يكن صَرَّافاً ولا مَكَّاساً ولا عَرِيفاً ولا بريداً وأنا أدلكم على الماء ، فحلفوا له ثلاثاً وثلاثين يميناً ، فدلهم على الماء ، ثم قالوا : عَاوِنَّا علىٰ غسله ، فقال : احلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً ـ كما تقدم ذكره ـ فحلفوا له ، فأعانهم علىٰ غسله ، ثم قالوا : تقدَّمْ فصلِّ عليه ، فقال : لا ، حتىٰ تحلفوا لي أربعاً وثلاثين يميناً ـ كما تقدم ـ فحلفوا له ، فصلىٰ عليه ، ثم التفتوا ، فلم يجدوا أحداً ، فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام)[٣] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَشَدُّ ٱلنَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ : رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيّاً ، أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ ، وَإِمَامُ ضَلَالَةٍ ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ ٱلْمُمَثِّلِينَ »[٤] .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٢/٤٣ ـ ٤٤) ، و« عيون الأخبار » (٢/٢٣٣) ، وجَذِل : فرح ، وضحا ظِلُّه : صار شمساً ، وإذا صار كذٰلك . . فقد مات صاحبه .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٣/٤٤٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الهواتف » (١٠٣) .

(٤) رواه الإمام أحمد (١/٤٠٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/٢١١) .

وقال أبو ذر : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ستةَ أيام : « اِعْقِلْ يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أَقُولُ لَكَ » ، ثم لما كان في اليوم السابع . . قال : « أُوصِيكَ بِتَقْوَى ٱللهِ فِي أَمْرِ سِرِّكَ وَعَلَانِيَّتِكَ ، وَإِذَا أَسَأْتَ . . فَأَحْسِنْ ، وَلَا تَسْأَلَنَّ أَحَداً وَإِنْ سَقَطَ سَوْطُكَ ، وَلَا تُؤْوِيَنَّ أَمَانَةً ، وَلَا تُؤْوِيَنَّ يَتِيماً ، وَلَا تَقْضِيَنَّ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ »(١) .

وقال أبو ذر أيضاً : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَبَا ذَرٍّ ؛ إِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، وَإِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفاً ، فَلَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى ٱثْنَيْنِ ، وَلَا تَلِيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ »(٢) .

وروىٰ أبو ذر أيضاً قال : قلت : يا رسول الله ؛ ألا تستعملني ؟ فضرب بيده علىٰ مَنكِبي وقال لي : « يَا أَبَا ذَرٍّ ؛ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى ٱلَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا »(٣) .

وروىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن وأنا حديث السن ، فقلت : يا رسول الله ؛ إنك تبعثني إلىٰ قوم شيوخ ذوي أسنان ولا علم لي بالقضاء ، فقال : « إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَادٍ قَلْبَكَ وَلِسَانَكَ ؛ فَإِذَا جَلَسَ ٱلْخَصْمَانِ . . فَلَا تَقْضِ لِلأَوَّلِ حَتَّىٰ تَسْمَعَ كَلَامَ ٱلآخَرِ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا سَمِعْتَ ذَٰلِكَ . . عَرَفْتَ كَيْفَ تَقْضِي »(٤) .

* * *

فإن قال قائل : كيف نهىٰ أبا ذر عن القضاء ، وأمر علياً بالقضاء مع ما فيه من التغرير ، وما روي أن من قُدِّمَ للقضاء فقد ذُبح بغير سكين ، وفيه البعدُ عن حضرتِه والتيمُّنِ بمشاهدتِه ، وتعلمِ سننه وشرائعِ دينه ، والتخلقِ بأخلاقِه

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/١٨١) .
(٢) رواه مسلم (١٨٢٦) .
(٣) رواه مسلم (١٨٢٥) .
(٤) رواه أبو داوود (٣٥٨٢) .

وشيمه ؟! وأيُّهما أفضل المثول بين يديه والكونُ بحضرته ومشاهدتُه والصلاةُ خلفه ، أو القضاءُ في غيبته مع البعد عنه ؟

قلنا : إنما نهىٰ أبا ذر عن القضاء لمعنىً فيه ، يَقصُرُ به عن رتبة القضاء ، مما كان ضده في علي رضي الله عنه من استجماع شرائط القضاء وقوته عليه .

ألا تراه صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر : « إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفاً » ، ثم قال في آخره : « إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى ٱلَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا » .

فاستدللنا بذٰلك : علىٰ أن من استجمَعت فيه شروطُ القضاء ، وكان قوياً علىٰ إنفاذه . . لم يدخل تحت النهي .

ومما يعد ضعفاً عن القضاء : طلبُه إياه إذ لم يدر عواقبه ، وقد وصف الله سبحانه المتسرّعَ إلى الأمانة بالجهل ، فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١) أي : ظلوماً لنفسه ، جهولاً بعاقبة أمره .

والدليل علىٰ صحة هٰذا التأويل : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ٱلْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ ؛ اِثْنَانِ فِي ٱلنَّارِ ، وَوَاحِدٌ فِي ٱلْجَنَّةِ : رَجُلٌ عَرَفَ ٱلْحَقَّ فَقَضَىٰ بِهِ ؛ فَهُوَ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَرَجُلٌ عَرَفَ ٱلْحَقَّ فَلَمْ يَقْضِ بِهِ وَجَارَ فِي ٱلْحُكْمِ ؛ فَهُوَ فِي ٱلنَّارِ ، وَرَجُلٌ لَمْ يَعْرِفِ ٱلْحَقَّ فَقَضَىٰ لِلنَّاسِ عَلَىٰ جَهْلٍ ؛ فَهُوَ فِي ٱلنَّارِ » (٢) .

قلت : فهذان الرجلان ضعيفان عن رتبة القضاء ؛ أحدهما بغشه وظلمه ، والآخر بجهله .

وقد عابت جهلة بني إسرائيل طالوت فقالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ (٣) فعابوه بخصلتين : الفقر ،

---

(١) سورة الأحزاب : (٧٢) .

(٢) تقدَّم تخريجه (ص ١٦٥) .

(٣) سورة البقرة : (٢٤٧) .

وأنه ليس من سِبط المملكة[1] ، فقال لهم نبيهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾[2] فبين شروط الولايات والممالك ، وأنها تفتقر إلى العلم الذي به يحكم ، وإلى القوة التي بها تنفذ الأحكام ، دون ما ظنه بنو إسرائيل .

وأما قولك : أيُّهما أفضل القضاء في غيبته ، أو الحضور بين يديه والكون في حضرته ؟

فالجواب : أن أوامره عليه السلام فرض يعصىٰ بتركه ، والكونُ في حضرته مستحبٌّ بعد الهجرة ولا يعصىٰ بتركه ، فعلمنا بهٰذا أنه إنما بعث علياً رضي الله عنه للقضاء ؛ لأنه أفضل من سكناه بحضرته ؛ لأنه مبلِّغٌ عنه إلى الخلائق شريعتَه التي بعثه الله بها ، فهو خليفته في ذٰلك ، يدلُّ علىٰ هٰذا أنه أوجب الجنة لمن قضىٰ بالحق .

❋ ❋ ❋

(١) السِّبْط : القبيلة من اليهود .

(٢) سورة البقرة : (٢٤٧) .

الباب الرّابع
في معرفة مُلك سليمان بن داوود عليهما السّلام ووجه طلبه للملك، وسؤاله ألّا يؤتاه أحدٌ من بعده، ونفي البخل عنه

فإن قال لنا قائل: أليس قال سليمان بن داوود عليهما السلام: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾(١)، ثم زاد علىٰ ذٰلك بألّا يؤتىٰ مثلَه أحدٌ من بعده؟ وظاهره يُؤذِنُ بالبخل.

والكلام علىٰ هٰذه الآية من وجوه:

أحدها: أنه إنما سأل هٰذا بعد أن سلبه الله تعالىٰ ملكَه، ثم أعاده عليه، فحين طلب الملك كان ملكاً، فكأنه قال: هٰذا الملكَ الذي جدَّدْتَه لي هبْهُ لي علىٰ صفاتٍ لا أَعصِيك فيه فتسلبَني إياه وتعاقبَني، يدل عليه: أنه بدأ بالمغفرة فقال: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا ﴾(٢) أي: ملكاً لا أعصيك فيه فتؤاخِذَني، والدليل علىٰ صحة هٰذا: قوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٣) فكأنه أجاب دعاءه فقال: تصرف كيف شئت، فلا حساب عليك فيه.

وقيل: (إن أَعطَيت.. أُجِرْتَ، وإن أمسكت.. فلا تَبِعةَ عليك فيه)(٤)، وهٰذا تخصيص لسليمان بن داوود عليهما السلام لم يُخَصَّ به أحد من ولد آدم

---

(١) سورة صٓ: (٣٥)، وقد حذفت واو ﴿ وَهَبْ ﴾ من بعض النسخ.

(٢) سورة صٓ: (٣٥).

(٣) سورة صٓ: (٣٩).

(٤) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٨/٢١١).

سواه ؛ لأن الله تعالىٰ قال : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] .

❁ ❁ ❁

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [2] .. فقال عطاء معناه : لا أُسلَبُه في باقي عمري فيصيرَ لغيري كما سُلبتُه فيما مضىٰ من عمري .

وقيل : لا تسلط علي فيه شيطاناً مثلَ الذي قد سَلَّطْتَ عليَّ .

وقيل : (إنما سأل ذلك ؛ ليكون عَلَماً له على المغفرة وقَبول التوبة ، فأُجيبَ إلىٰ ذلك ، فعلم أنه قد غفر له) [3] .

وقيل : (إنما سأل ذلك ؛ ليكون آية لنبوته ، وعَلَماً علىٰ معجزته) [4] .

وقال مقاتل : (كان سليمان بن داوود ملكاً ، ولكنه أراد بقوله : ﴿ لَا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [5] تسخيرَ الرياح والطير ، يدل عليه : ما بعده ؛ وهو قوله تعالىٰ : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ . . . ﴾ إلىٰ آخر الآية) [6] .

وقيل : (إن سليمان كان مُلكُه في خاتَمه ؛ ولهذا ذهبَ مُلكُه بذهاب خاتَمِه [7] ، فقال : ﴿ لَا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [8] يعني : اجعل مُلكي في نفسي لا في خَاتَمي حتىٰ لا يملكه أحد غيري ؛ فإن إبليس لمَّا أخذ خاتم سليمان .. تحول ملكُ سليمان إلىٰ إبليس ، وقعد علىٰ كرسيه يحكمُ فيه حتىٰ أنكرت بنو إسرائيل أحكامه ، وكان قد أُلقِي عليه شَبهه) [9] .

---

(١) سورة الحجر : (٩٢ ـ ٩٣) .
(٢) سورة صٓ : (٣٥) .
(٣) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٨/٢١٠) .
(٤) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٨/٢١٠) .
(٥) سورة صٓ : (٣٥) .
(٦) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٨/٢١٠) ، والبغوي في « تفسيره » (٤/٦٤) ، والآية من سورة صٓ : (٣٦) .
(٧) زيد في (أ ، و) : (علىٰ ما سنذكره في « باب الفرج بعد الشدة » إن شاء الله تعالىٰ) .
(٨) سورة صٓ : (٣٥) .
(٩) انظر « تفسير ابن كثير » (٤/٣٤ ـ ٣٥) ، و« الدر المنثور » (٧/١٨٥ ـ ١٨٦) .

وقال عمرو بن عثمان المكي : (إنما أراد فيه : مُلكَ النفس ، وقهرَ الهوىٰ)[(١)] ، يدل عليه : ما روىٰ سَلامانُ الشَّعبانِيُّ قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَرَأَيْتُمْ سُلَيْمَانَ وَمَا آتَاهُ ٱللهُ مِنْ مُلْكِهِ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَرْفَعْ طَرْفَهُ إِلَى ٱلسَّمَاءِ تَخَشُّعاً لِلهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ أَنْ قَبَضَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ »[(٢)] .

وزاد غيره : (إنما أراد : مُلكَ النفس وقهرَها ؛ لئلا يغترَّ بالمملكة ، ولهـٰذا قدَّمَ سؤالَ المغفرةِ علىٰ طلب المملكة) .

وقال بعض الوعاظ : (إنما أراد : حتىٰ أنتقم لأبي آدم من إبليس وذريته ؛ حيث كان سبباً في إخراجه وذريتهِ من الجنة) .

وروى البخاري في « صحيحه » : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ عِفْرِيتاً مِنَ ٱلْجِنِّ جَعَلَ يَتَقَلَّبُ عَلَيَّ ٱلْبَارِحَةَ ؛ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي ، وَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ أَمْكَنَنِي مِنْهُ فَصَرَعْتُهُ ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي ٱلْمَسْجِدِ حَتَّىٰ يُصْبِحَ ، فَتَنْظُرُونَ إِلَيْهِ كُلُّكُمْ ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾[(٣)] » ، فردَّه اللهُ خاسئاً[(٤)] .

❊ ❊ ❊

فإن قيل : فما معنىٰ قول يوسف عليه السلام : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ؟[(٥)] .

قلنا : يستفاد من الآية : أن من حصل بين يَدَيْ مَلِكٍ لا يعرف قدرَه ، أو أُمَّةٍ

---

(١) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٨/٢١٠) ، وفيه : (عمر بن عثمان الصدفي) بدل (عمرو بن عثمان المكي) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » من زوائد نعيم (١٧٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤١١) .

(٣) سورة صٓ : (٣٥) .

(٤) صحيح البخاري (٤٨٠٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : « ... من سواري المسجد حتىٰ تصبحوا وتنظروا » ، وقوله : (فردَّه الله خاسئاً) من قول رَوْحٍ ؛ أحدِ رجال السند .

(٥) سورة يوسف : (٥٥) .

لا يعرفون فضله ، فخاف علىٰ نفسه ، أو أراد إبراز فضله . . جاز له أن يُنبههم علىٰ مكانه وما يُحسنه ؛ دفعاً للشر عن نفسه ، أو إظهاراً لفضله ، فَيُجعل في مكانه .

وفيه فائدة أخرىٰ ؛ وهو : أنه إذا رأى الأمور في يد الخونة واللصوص ومن لا يُؤدي الأمانة ، ويعلم من نفسه أداء الأمانة مع الكفاية . . جاز أن يُنبه السلطان علىٰ أمانته وكفايته ؛ ولهـٰذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي : (من كَمَلَتْ فيه آلاتُ الاجتهاد ، وشروطُ القضاء . . جاز له أن يُنبِّه السلطان علىٰ مكانه ، ويخطبَ خُطبة القضاء) ، وقال بعضهم : (بل يجب ذٰلك عليه إذا كان الأمر في يد من لا يقوم به)[1] .

* * *

---

(١) انظر « روضة الطالبين » (٧/٢٢٩ ـ ٢٣٠) .

الباب الخامس

في فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (١) يعني : لولا أن الله تعالى أقام السلطان في الأرض ؛ يَدفعُ القوي عن الضعيف ، ويُنصف المظلوم من الظالم . . لأهلك القويُّ الضعيفَ ، وتواثبَ الخلقُ بعضُهم على بعض ، فلا ينتظم لهم حال ، ولا يَستقرُّ لهم قرار ، فتفسدُ الأرض ومن عليها .

ثم امتنَّ الله تعالى على الخلق بإقامة السلطان ؛ فقال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢) يعني : في إقامة السلطان ، فيأمنُ الناس به ، فيكونُ فضلُه على الظالم كفَّ يده عن المظلوم ، وفضلُه على المظلوم أمانَه وكفَّ يد الظالم عنه .

وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : اَلإِمَامُ ٱلْعَادِلُ ، وَٱلصَّائِمُ حَتَّىٰ يُفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ ٱلْمَظْلُومِ » (٣) .

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ ٱللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي ٱلْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي ٱللهِ ٱجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ ٱمْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ ٱللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ

---

(١) سورة البقرة : (٢٥١) .

(٢) سورة البقرة : (٢٥١) .

(٣) رواه الترمذي (٢٥٢٦) ، والإمام أحمد (٢/٣٠٥) .

لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ ٱللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ »[1] .

وروىٰ كَثيرُ بنُ مُرَّةَ قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اَلسُّلْطَانُ ظِلُّ ٱللَّهِ فِي ٱلْأَرْضِ ، يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِهِ ؛ فَإِذَا عَدَلَ . . كَانَ لَهُ ٱلْأَجْرُ ، وَعَلَى ٱلرَّعِيَّةِ ٱلشُّكْرُ ، وَإِذَا جَارَ . . كَانَ عَلَيْهِ ٱلْإِصْرُ وَعَلَى ٱلرَّعِيَّةِ ٱلصَّبْرُ »[2] .

وروىٰ أبو هريرة يرفعه قال : « لَعَمَلُ ٱلْإِمَامِ ٱلْعَادِلِ فِي رَعِيَّتِهِ يَوْماً أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ ٱلْعَابِدِ فِي أَهْلِهِ مِئَةَ سَنَةٍ ، أَوْ خَمْسِينَ سَنَةً »[3] .

وقال قيس بن سعد : (لَيومٌ من إمام عادل خيرٌ من عبادة رجل في بيته ستين سنة)[4] .

وقال مسروق : (لأن أقضي يوماً بالحق أحبُّ إليَّ من أن أغزُوَ سَنةً في سبيل الله)[5] .

وروي أن سعد بن إبراهيم ، وأبا سلمة بن عبد الرحمـٰن ، ومحمد بن مصعب بن شرحبيل ، ومحمد بن صفوان . . قالوا لسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت : (لَقضاءُ يوم بالحق أفضلُ عند الله من صلاتك عُمرَك)[6] .

وسيتضح لك صحة هـٰذه الأقوال إذا وقفت علىٰ ما نالته الرعية من الصلاح بصلاح السلطان .

(١) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه البزار في « المسند » (٥٣٨٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٩٨٤) عن كَثِير بنِ مُرَّةَ ، عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .
(٣) رواه أبو عبيد في « الأموال » (١٤) .
(٤) رواه البيهقي في « الكبرىٰ » (١٦٢/٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٦٦/١١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .
(٥) رواه الدارقطني في « سننه » (٢٠٥/٤) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٨٩/١٠) .
(٦) رواه في « أخبار القضاة » (١٦٧/١) .

واعلم أرشدك الله : أن الإنسان أعز جواهر الدنيا ، وأعلاها قدراً ، وأشرفها منزلة ، وبالسلطان صلاح الإنسان .

إذاً فهو أعزُّ أعلاق الدنيا(١) ، وأعمُّها بركة .

وكذلك خلق الله تعالىٰ دارين : دارَ الدنيا ، ودارَ الآخرة ، ثم كان السلطانُ صلاحَ الدَّارَين ، فأخلِقْ بشخص يعُمُّ نفعُه البلاد والعباد ، ويَصلُح بصلاحه الدنيا والآخرة .. أن يكون شرفه عند الله عظيماً كما كان قدره في العقول جسيماً ، ومقامُه عند الله كريماً كما كان نفعه للعباد عميماً ! و علىٰ قدر عموم المنفعة تَشرُفُ الأعمال ، وعلىٰ قدر النعمة تكون المنة .

ألا ترىٰ أن الأنبياء عليهم السلام أعم خلق الله نفعاً ، فهم أجلُّ خلق الله قدراً ؛ لأنهم تعاطَوْا إصلاحَ الخلائق ، وإخراجَهم من الظلمات إلى النور ، كذلك سلطان الله في الأرض هو خلافة النبوة في إصلاح الخلائق ، ودعائهم إلىٰ فِناء الرحمـٰن ، وإقامةِ دينهم ، وتقويمِ أَوَدِهم .

وليس فوق السلطان العادل منزلةٌ إلا نبيٌّ مرسل ، أو مَلَك مقرب ؛ فاتخِذْ عِظَمَ قَدْرِ السلطان عندك حُجَّةً لله تعالىٰ علىٰ نفسك ، وناصِحْه علىٰ قَدْرِ ما نَفَعَك .

وليس نفعه مقصوراً علىٰ عُجالةٍ من حُطامِ الدنيا يَحبُوكَ بها(٢) ، ولـٰكن صيانةُ جمجمتك ، وحفظُ حريمك ، وحراسةُ مالك عن البغاة .. أعمُّ نفعاً لك إن عَقَلْتَ .

وليس لله في الأرض سلطان إلا وقد أخذ عليه شرائط العدل ، ومواثيق الإنصاف ، وشرائع الإحسان .

---

(١) أعلاق : جمع عِلْق ؛ وهو النفيس .

(٢) يحبوك : حباه كذا وبكذا ؛ إذا أعطاه .

وكما أنه ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة . . كذٰلك ليس دون رتبة السلطان الشرير الجائر رتبةٌ لشرير ؛ لأنَّ شرَّه يعم كما أن خير الأول يعُم .

وكما أن السلطان العادل يصلح به البلاد والعباد ، وتُنال الزُّلفىٰ إلى الله تعالىٰ ، والفوزُ بجنة المأوىٰ . . كذٰلك بالسلطان الجائر تَفسُدُ البلاد والعباد ، وتُقترف المعاصي والآثام ، وتُورَثُ دارُ البَوار .

وذٰلك أن السلطان إذا عدل . . انتشر العدل في رعيته ، فأقاموا الوزن بالقِسط ، وتعاطَوا الحق فيما بينهم ، ولَزِموا قوانين العدل ، فمات الباطل ، وذهبت رسوم الجَوْر ، وانتعشت قوانينُ الحق ، فأرسلت السماءُ غيثها ، وأخرجت الأرضُ بركاتِها ، ونَمَتْ تجاراتُهم ، وزَكَت زراعاتهم ، وكثرت ثمارهم ، وتناسلت أنعامُهم ، ودَرَّت أرزاقُهم ، ورخُصت أسعارُهم ، وامتلأت أوعيتُهم ، فواسى البخيلُ ، وأفضلَ الكريمُ ، وقُضِيت الحقوق ، وأُعِيرت المواعين ، وتَهادَوْا فضولَ الأطعمة والتُّحف ، فهان الحُطام لكثرته ، وذَلَّ بعد عزته ، فتماسكت على الناس مروءاتُهم ، وانحفظت عليهم أديانُهم .

وبهٰذا يتبين لك أن الوالي مأجورٌ علىٰ ما يتعاطاه من إقامة العدل ، ومأجورٌ علىٰ ما يتعاطاه الناس بسببه .

وإذا جار السلطان . . انتشر الجَوْر في البلاد ، وعمَّ العباد ، فرقَّت أديانُهم ، واضمحلَّت مروءاتهم ، ففشت فيهم المعاصي ، وذهبت أماناتُهم ، فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمَنَعوا الحقوق ، وتعاطَوا الباطل ، وبَخَسوا المكيال والميزان ، وجوَّزوا البَهْرَج ، فرُفِعت منهم البركة ، وأمسكت السماء غيثها ، ولم تخرج الأرض زرعها ونباتها ، فقَلَّ في أيديهم الحطام فقنطوا ، وأمسكوا الفضل الموجود ، وتناحروا على المفقود ، فمنعوا الزكواتِ المفروضةَ ، وبَخِلوا بالمواساة المسنونة ، وقبضوا أيديَهم عن المكارم ، وتنازعوا المقدار اللطيف ، وتجاحدوا القَدْرَ الخسيس ، ففشت فيهم الأيمان الكاذبة ، والحِيَل في البيع ،

والخــداع في المعاملة ، والمكر والحيلة في القضاء والاقتضاء ، ولا يمنعهم من السـرقة إلا العار ، ومن الزنا إلا الحياء ، فيظل أحدهم عارياً من محاسن دينه ، متجــرِّداً عن جلباب مروءته ، وأكبرُ همه قوتُ دنياه ، وأعظمُ مســرَّاته أكلةٌ من هٰذا الحُطام ، ومن عاش كذٰلك . . فبطن الأرض خير له من ظهرها .

وقال وهب بن منبه : (إذا هَمَّ الوالي بالجَوْر أو عمل به . . أدخل الله النقص في أهل مملكته ؛ في الأسواق والزرع والضرع وكُلِّ شيء ، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به . . أدخل الله البركة في أهل مملكته كذٰلك)[١] .

وقال عمر بن عبد العزيز : (تهلك العامة بعمل الخاصة ، ولا تهلك الخاصة بعمل العامة)[٢] ، والخاصة هم الولاة ، وفي هٰذا المعنىٰ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾[٣] .

وقــال الوليد بــن هشــام : (إن الرعية لتفســد بفســاد الوالــي ، وتصلح بصلاحه)[٤] .

وقال سفيان الثوري لأبي جعفر المنصور : (إني لأعلم رجلاً إن صَلَح . . صَلَحت الأمة ، قال : ومن هو ؟ قال : أنت)[٥] .

وقال ابن عباس : (إن ملكاً من الملوك خرج يسير في مملكته مستخفياً ، فنزل علىٰ رجل له بقرة ، فراحت البقرة فحلبت له قَدْرَ حِلاب ثلاثين بقرة ، فعجب الملك لذٰلك ، وحدَّثَ نفسه بأخذها .

فلما راحت عليه من الغد . . حُلِبَت على النِّصف مما حُلِبَت بالأمس ، فقال له الملك : ما بال حِلابها نقص ؟ أَرَعت في غير مَرْعاها بالأمس ؟ قال :

---

(١) أورده في « البداية والنهاية » (١٤١/١٠) .

(٢) رواه بنحوه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٥١) ، والإمام أحمد في « الزهد » (١٧٠٤) .

(٣) سورة الأنفال : (٢٥) .

(٤) رواه في « حلية الأولياء » (٣٦٧/٥) عن الوليد بن هشام ، عن كعب الأحبار رحمهما الله تعالىٰ .

(٥) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٤٠) .

لا ، ولٰكنْ أظنُّ ملكَنا هَمَّ بأخذها فنقص لبنُها ؛ فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم . . ذهبت البركة .

فعاهد الملك الله تعالىٰ في نفسه ألا يأخذها ، فراحت من الغد ، فحُلِبَتْ حِلابَ ثلاثين بقرة ، فتاب الملكُ وعاهدَ ربَّه لأعدِلنَّ ما بَقِيتُ)[١] .

ومن المشهور في أرض المغرب : أنَّ السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو ، وأن قصبة منها تعصر قَدَحاً ، فعَزَم علىٰ أخذها منها ، ثم أتاها وسألها عن ذٰلك ، فقالت : نعم ، ثم إنَّها عَصَرت قصبةً فلم تبلغ نصف قَدَح ، فقال لها : أين الذي كان يقال ؟ فقالت : هو الذي بلغك ، إلا أن يكون السلطانُ قد عَزَم علىٰ أخذِها مني فارتفعت بركتها ، فتاب السلطانُ وأخلص لله نيته أَلَّا يأخذها أبداً ، ثم أَمَرها ، فعَصَرت قصبةً فجاءت مِلءَ القَدَح .

وحدثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال : (كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمراً ، ولم يكن في الزمان نخلةٌ تحملُ نصف ذٰلك ، فغصبها السلطان ، فلم تحمل في ذٰلك العام شيئاً ، ولا ثمرة واحدة) .

وقال لي شيخ من أشياخ الصعيد : (أعرف هٰذه النخلة في الغربية تجني منها عشرةَ أرادِب ستينَ وَيْبةً[٢] ، وكان صاحبها يبيعها في سِنِي الغلاء كُلَّ وَيْبةٍ بدينار) .

وشهدت[٣] أنا بالإسكندرية والصَّيدُ في الخليج مُطلقٌ للرعية ، والسمكُ فيه يَغلي الماءُ به كثرةً ، ويصيده الأطفال بالخِرَق ، ثم حَجَره الوالي ، ومَنَع الناسَ من صيده ، فذهبَ السمكُ حتىٰ لا يكاد يُوجد منه إلا الواحدة بعد الواحدة

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٠٧١) ، والحِلاب : الإناء الذي يُحلب فيه ، وأراد به اللبن الذي هو قَدْر حِلابها ، وراحت البقرة : أَوَتْ بعد الغروب إلىٰ مُرَاحها .

(٢) الوَيْبة : (١٣) كيلو غراماً ، والأرادب : جمع إردبّ ؛ وهو ستُّ وَيْبَات .

(٣) زيد قبله في (ب ، هـ ، ز) : (قال الشيخ رحمه الله) .

إلىٰ يومنا هٰذا ، وهٰكذا تتعدَّىٰ سرائرُ الملوك وعزائمُهم ومكنونُ ضمائرهم إلى الرعية ؛ إن خيراً . . فخيرٌ ، وإن شراً . . فشرٌّ .

ورویٰ أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا : (كان الناس إذا أصبحوا في زمان الحجاج فتلاقَوْا يتساءلون : من قُتل البارحة ؟ ومن صُلِب ؟ ومن جُلِدَ ؟ ومن قُطِع ؟ وأمثالُ ذٰلك .

وكان الوليد صاحب ضياع واتخاذ مصانع ، فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار .

ولمَّا وَلِيَ سليمان بن عبد الملك ، وكان صاحب نكاح وطعام . . فكان الناس يتخذون الأطعمة الرفيعة ، ويتوسعون في الأنكحة والسراري ، ويَعمُرون مجالسهم بذكر ذٰلك .

ولمَّا وَلِيَ عمر بن عبد العزيز . . كان الناس يتساءلون : كم تحفظ من القرآن ؟ وكم وِردُك في كل ليلة ؟ وكم يحفظ فلان ؟ ومتىٰ يَختِم ؟ وكم يصوم من الشهر ؟ وأمثالُ ذٰلك)(١) .

❋ ❋ ❋

(١) أورده في « المنتظم » (٤٠٣/٤) ، و« المستطرف » (٣٣١/١) .

الباب السّادس

في أنّ السّلطانَ مع رعيّته مغبونٌ غيرُ غابِن ، وخاسرٌ غيرُ رابحٍ

اعلموا أرشدكم الله : أن السلطان خطرُهُ عظيمٌ ، وبليَّتُه عامة ، وقد يطرُقه من الآفات ، ويحتوِشُه من الأمور المُهلكات(١) ، ما يجب علىٰ كل ذِي لُبٍّ أن يستعيذ بالله مما حَمَله ، ويَشكُرَه علىٰ ما عَصَمه ، لا يَهدأُ فكرُه ، ولا يسكنُ خاطِرُه ، ولا يصفُو قلبُه ، ولا يستقرُّ لُبُّه ، الخلقُ في شُغلٍ عنه وهو مشغولٌ بهم .

والرجلُ يخاف عدواً واحداً ، وهو يخاف ألف عدو ، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته ، وإِيَالةِ ضَيعته(٢) ، وتقديرِ معيشته ، وهو مدفوعٌ لسياسة جميع أهل مملكته .

وكُلما رَتَق فَتْقاً من حواشي مملكته . . انفتقَ آخر(٣) ، وكُلما رَمَّ منها شَعَثاً . . رَثَّ آخر(٤) ، وكلما قَمَعَ عدواً . . أرصد له أعداء . . . إلىٰ سائرِ ما يُعانيه من أخلاق الناس ، ويقاسيه من خصوماتهم ، ونَصْبِ الولاة والقضاة ، وبعثِ الجيوشِ ، وسدِّ الثغور ، واستجباءِ الأموال ، ودفعِ المظالم .

ثم من العَجَب العُجاب : أنَّ له نفساً واحدة ، وأنه يَرزَأُ من الدنيا قوتَها مثل ما يَرزَأُ آحادُ الرَّعايا(٥) ، ثم يُسألُ غداً عن جميعهم ولا يُسألون عنه .

فيا للهِ ، ويا لَلعجبِ من رجل رضي أن ينال رغيفاً ويُحاسَب منه علىٰ آلافِ

---

(١) يحتوشه : يحيط به .

(٢) إيالة ضيعته : حكمها وتدبير أمورها .

(٣) رَتَقَ فتقاً : سدَّ شقّاً وأصلحه .

(٤) رَمَّ : أصلح ، والشَّعَثُ : ما تفرَّق من الأمور ، ورَثَّ : فسد .

(٥) يَرْزَأُ : ينال .

آلافٍ ، ويأكلَ في مِعىً واحد ويحاسب علىٰ آلاف آلاف معىً ، ويستمتع بنفسٍ واحدة ويحاسب علىٰ آلافِ آلافٍ من الأنفس !

وعلىٰ هـٰذا النمط في جميع أحواله ؛ يحملُ أثقالهم ، ويُزيحُ أشرارَهم ، ويجاهدُ عدوَّهم ، ويسدُّ ثغورَهم ، ويدافعُ مناوِئَهم ومناصِبَهم ، ويعصي ربَّه فيهم ، ويخالفُ أمرَه ، ويركبُ نهيَه من أجلهم ، ويقتحمُ جراثيمَ جهنمَ علىٰ بصيرة فيهم[1] .

ثم تجدهم له قالين ، وعنه غير راضين ، ولولا أن الله تعالىٰ يَحُولُ بين المرء وقلبه . . لم يرض عاقل بهـٰذه منزلةً ، ولا اختارها لبيبٌ مرتبةً .

وكلُّ ما ذكرته في هـٰذا الباب أحكمَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم في كلمة فقال : « مَا لَكُمْ وَلِأُمَرَائِي ؟! لَكُمْ صَفْوُ أَمْرِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ كَدَرُهُ »[2] .

* * *

ومثال السلطان مع الرعية كالطبَّاخ مع الأَكَلة ؛ له العَناء ولهم الهَناء ، وله الحارُّ ولهم القارُّ .

طلب القومُ الراحةَ فحصلوا على التعب ، وطلبوا الراحة والنعيم فأخطؤوا الصراط المستقيم ، وعن هـٰذا قالوا : (سيدُ القومِ أشقاهم)[3] ، وفي الحديث : « سَاقِي ٱلْقَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْباً »[4] .

وكان بعض سلاطين المغرب يسير يوماً وبين يديه الوزير[5] ؛ إذ نظر إلىٰ جماعة من التجار ، فقال لوزيره : (أَتُحِبُّ أن أُريك ثلاثَ طوائف ؛ طائفة لهم

(١) يقتحم جراثيم جهنم : يرمي بنفسه في معاظم عذابها .

(٢) رواه مسلم (١٧٥٣) عن سيدنا عوف بن مالك رضي الله عنه .

(٣) أورده في « مجمع الأمثال » (١٨٢/٢) .

(٤) رواه مطولاً مسلم (٦٨١) عن سيدنا أبي قتادة رضي الله عنه .

(٥) في (ج ، هـ ، و ، ز) : (الوَزَعة) ، و(ح) : (الوزراء) ، والوزعة : جمع وازع ؛ وهم الولاة المانعون من محارم الله تعالىٰ .

الدنيا والآخرة ، وطائفة لا دنيا ولا آخرة ، وطائفة لهم دنيا بلا آخرة ، فقال : وكيف ذٰلك أيها الملك ؟! فقال :

أما الذين لهم الدنيا والآخرة : فهٰؤلاء التجار ، يكسبون أقواتهم ، ويُصلُّون صلاتهم ، ولا يؤذون أحداً .

وأما الذين لا دنيا لهم ولا آخرة : فهٰؤلاء الشُّرَطُ ، والخَدَمة الذين بين أيدينا .

وأما الذين لهم الدنيا بلا آخرة : فأنا وأنت وسائر السلاطين) .

* * *

فحقٌّ علىٰ جميع الورىٰ أن يمدوا السلطانَ بالمناصحات ، ويَخُصُّوه بالدعوات ، ويُعِينُوه في سائر المحاولات ، ويكونوا له أعيناً ناظرة ، وأيدياً باطشة ، وجُنناً واقية ، وألسنة ناطقة ، وقوادم تنهضه ، وقوائم تقله ، وهيهات منه السلامة ، وأنىٰ له بالسلامة ؟!

وعن هٰذا قال بعض السلاطين يوماً لأصحابه : (اعلموا أنَّ السلطانَ والجنةَ لا يجتمعان) .

وحدثني رجل له قدر قال : (أرسل إلي السلطان : أن طَلِّق امرأتَك ، وكان قد أرادها لبعض أصحابه ، فأبيتُ ذٰلك ، وراجعت الرسل غير مرة ، فقال لي ناصح منهم : خذ الأمر مُقبلاً ؛ فإنه لا حيلة لك ، فإن السلطان لا يخاف في الدنيا عاراً ، ولا في الآخرة ناراً ، ففارقتها) .

وروي عن عبد الملك بن مروان أنه لمَّا ولي الخلافة . . أخذ المصحف ووضعه في حجره ، ثم قال : (هٰذا فِراق بيني وبينك)[1] .

ولمَّا حج هارون الرشيد . . لَقِيَه عبدُ اللهِ العُمَريُّ في الطواف فقال له : (يا هارون ، قال : لبيك يا عم ، قال : كم ترىٰ هٰهنا من الخلق ؟ قال : لا يحصيهم

(١) أورده المبرد في « الكامل » (٣/١١٥٨) ، ورواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/٣٨٩) .

إلا الله ، فقال : اعلم أيها الرجل أنَّ كل واحد منهم يُسألُ عن خاصة نفسه ، وأنت وَحْدَكَ تُسألُ عنهم كلِّهم ، فانظر كيف تكون .

فبكىٰ هارون وجلس ، فجعلوا يعطونه مِنديلاً مِنديلاً للدموع ، ثم قال له : والله ؛ إن الرجل يُسرف في مال نفسه ، فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن أسرف في مال المسلمين ؟!) [١] .

ويقال : إن هارون كان يقول : (واللهِ ؛ إني لأحبُّ أن أحجَّ كل سنة ، وما يمنعني إلا رجل من ولد عُمر يُسمِعُني ما أكره) [٢] .

وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب القديمة : يقول الله تعالىٰ : (مَنْ أحمقُ من السلطان ؟ ومَنْ أجهلُ ممَّن عصاني ؟ ومَنْ أغرُّ ممَّن اغترَّ بي ؟

أيا راعي السوء ؛ دفعتُ إليك غنماً سِماناً صِحاحاً فأكلتَ اللحم ، وشربتَ اللبن ، وأْتَدمتَ بالسمن ، ولبست الصوف ، وتركتَها عظاماً تُقعقعُ ، ولم تَأوِ الضالةَ ، ولم تَجبُر الكسير ؛ اليومَ أنتقمُ لها منك) [٣] .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده في « صفة الصفوة » (١٠٦/٢) .
(٢) أورده في « صفة الصفوة » (١٠٧/٢) .
(٣) رواه في « عيون الأخبار » (٥٤/١) .

الباب السّابع
في بيان الحكمة في كون السّلطان في الأرض

اعلموا أرشدكم الله : أن في وجود السلطان في الأرض حكمةً لله تعالىٰ عظيمةً ، ونعمةً على العباد جزيلةً ؛ لأنَّ الله تعالىٰ جَبَلَ الخلقَ علىٰ حب الانتصاف ، وعدم الإنصاف ، ومَثَلُهم بلا سلطان مَثَلُ الحوت في الماء ؛ يبتلعُ الكبيرُ الصغيرَ ، فمتىٰ لم يكن لهم سلطان قاهر . . لم ينتظم لهم أمر ، ولم يستقم لهم مَعاش ، ولم يهنؤوا بالحياة ؛ ولهـٰذا قال بعض القدماء : (لو رُفِعَ السلطانُ من الأرض . . ما كان لله في أهل الأرض من حاجة) .

ومن الحكم التي في إقامة السلطان : أنه من حُجَج الله تعالىٰ علىٰ وجوده سبحانه ، ومن علاماته علىٰ توحيده ؛ لأنه كما لا يمكن استقامةُ أمرِ العالم واعتدالُه بغيرِ مدبِّرٍ ينفردُ بتدبيره . . كذٰلك لا يُتوهَّمُ وجودُه وترتيبُه وما فيه من الحكمة ودقائقِ الصنعة بغير خالق خلقه ، وعالِمٍ أتقنَه ، وحكيمٍ دبَّره ، وكما لا يستقيم سلطانان في بلد واحد . . لا يستقيم إلـٰهان للعالم ، والعالم بأسره في سلطان الله كالبلد الواحد في يد سلطان الأرض .

ولهـٰذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (أمران جليلان لا يصلح أحدهما إلا بالتفرد ، ولا يصلح الآخر إلا بالمشاركة ؛ وهما : الملك ، والرأي ، فكما لا يستقيمُ المُلكُ بالشِّركة . . لا يستقيمُ الرأيُ بالتفرد به)(١) .

* * *

ومثالُ السلطانِ القاهرِ لرعيتهِ ، والرعيةِ بلا سلطانٍ . . مثالُ بيتٍ فيه سراجٌ

---

(١) أورده في « بهجة المجالس » (١/٤٥٥) دون نسبة .

منيرٌ وحولَه قيامٌ من الخلق يعالجون صنائعَهم ، فبينا هم كذٰلك . . إذْ طَفِئَ السراج ، فقبضوا أيديهم للوقت ، وتعطل جميع ما كانوا فيه ، فتحرك الحيوانُ الشرير ، وخشخشَ الهوامُّ الحشيشَ[(١)] ؛ فدبَّت العقربُ من مكمنها ، وفَسَقَت الفأرة من جُحرها[(٢)] ، وخرجت الحية من مَعْدِنها ، وجاء اللصُّ بحيلته ، وهاجَ البُرغوثُ مع حقارته ، فتعطَّلت المنافعُ ، واستطارت فيهم المضارُّ .

كذٰلك السلطان إذا كان قاهراً لرعيته . . كانت المنفعةُ به تامةً ، ورفعُ المضارِّ به عامةً ، وكانت الدماءُ في أُهُبِها محقونةً[(٣)] ، والحُرُمُ في خُدورهن مصونةً ، والأسواقُ عامرةً ، والأموالُ محروسةً ، والحَيَوانُ الفاضل ظاهراً ، والمَرافقُ حاصلةً ، والحَيَوانُ الشريرُ من أهل الفسوق والدَّعارةِ خاملاً .

وإذا اختل أمر السلطان . . دخل الفساد على الجميع ، ولو جُعِلَ ظُلمُ السلطانِ حولاً في كِفَّةٍ ، ثم جُعِلَ فسادُ الرعيةِ وظلمُهم وهَرْجُهم في ساعة إذا اختلَّ أمرُ السلطان في كِفَّة . . كان هَرْجُ ساعةٍ أعظمَ وأرجحَ من ظلمِ السلطان حَوْلاً[(٤)] .

وكيف لا ، وفي زوالِ السلطانِ أو ضعفِ شوكته سوقُ أهلِ الشرِّ ، ومكتسبُ الأجناد ، ونَفاقُ أهلِ العِيارةِ والسرقة واللصوصِ والمناهبة ؟![(٥)] .

وقال الفضيل : (جَوْرُ ستين سنةً خيرٌ من هَرْجِ سنة)[(٦)] .

---

(١) خَشْخَشَ الهوامُّ الحشيشَ : حركوه فصوَّت ، والهوامُّ : جمع هامَّة ؛ وهي ما يَقتلُ من ذوات السموم ؛ كالعقارب والحيَّات .

(٢) فَسَقَت الفأرة : خرجت .

(٣) أُهُبها : جمع إهاب ؛ وهو الجلد ، والمراد به هنا : الجسد .

(٤) الهَرْجُ : الفتنة والاضطراب .

(٥) أهل العِيارة : الذين يسعون بين الناس بالإفساد ، وفي (و) : (أهل العناد) .

(٦) أورده بنحوه في « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » (ص ٤٧) ، و« نفح الطيب » (٦٣٩/٢) من قول سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

ولا يتمنىٰ زوالَ السلطان إلا جاهلٌ مغرورٌ ، أو فاسقٌ يتمنىٰ كلَّ محذور ، فحقيقٌ علىٰ كل رعيةٍ أن ترغب إلى الله تعالىٰ في صلاح السلطان ، وأن تبذل له نصحها ، وتخصه بصالح دعائها ؛ فإنَّ في صلاحه صلاحَ العبادِ والبلادِ ، وفي فساده فسادَ العباد والبلاد .

وكان العلماء يقولون : (إن استقامت لكم أمور السلطان . . فأكثروا حمد الله تعالىٰ وشكره ، وإن جاءكم منه ما تكرهون . . وَجِّهُوه إلىٰ ما تستوجبونه بذنوبكم ، وتستحقونه بآثامكم ، وأقيموا عذر السلطان ؛ لانتشارِ الأمور عليه ، وكثرةِ ما يُكابدُه من ضبطِ جوانبِ المملكةِ ، واستئلافِ الأعداء ، وإرضاءِ الأولياء ، وقلةِ الناصح ، وكثرةِ المدلس والطامعِ) .

وفي كتاب « التاج » : (هموم الناس صغار ، وهموم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شيء ، وألباب السُّوقة مشغولة بأيسر شيء ، والجاهل منهم يَعذِرُ نفسه مع ما هو عليه من الرِّسْلَة ، ولا يَعذِرُ سلطانَه مع شدةِ ما هو عليه من المؤونة ، ومِن هناك يُعِز الله سلطانه ويرشده وينصره)[(١)] .

وعن هـٰذا قالت حكماء العجم : (لا تتوطنَنَّ إلا بلداً فيه سلطانٌ قاهرٌ ، وقاضٍ عادلٌ ، وسوقٌ قائمةٌ ، وطبيبٌ عالِمٌ ، ونهرٌ جارٍ)[(٢)] .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/٥) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٨٨) من قول كسرىٰ ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٩٩٣) من قول الأحنف بن قيس رحمه الله تعالىٰ ، وأورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٢٤٨) من قول بُزُرْجُمِهْر .

الباب الثامن

في منافع السلطان ومضارّه

قالت حكماء العرب والعجم : (مَثَلُ مضارِّ السلطانِ في جنب منافعه : مَثَلُ الغيثِ الذي هو سُقيا الله ، وبركاتُ السماء ، وحياةُ الأرض ومن عليها ، وقد يتأذَّىٰ به المسافرُ ، ويتداعىٰ له البُنيان ، وتكونُ فيه الصواعقُ ، وتَدُرُّ سيولُه ، فيهلكُ الناسُ والدوابُّ والذخائرُ ، ويموجُ له البحر فتشتدُّ بليتُه علىٰ أهله ، ولا يمنعُ ذٰلك الخلقَ إذا نظرُوا إلىٰ آثار رحمة الله تعالىٰ في الأرض التي أحيا ، والنباتِ الذي أخرج ، والرزقِ الذي بَسَط ، والرحمةِ التي نَشَر . . أن يُعظِّمُوا نعمةَ ربهم ويشكروها ، ويُلغوا ذكرَ خواصِّ الأَذِيَّةِ التي دخلَتْ علىٰ خواصِّ الخلقِ .

* * *

ومثاله أيضاً : مثالُ الرياح التي يرسلها الله تعالىٰ نُشُراً بين يَدَيْ رحمته (١) ، فيسوقُ بها السحابَ ويجعلُها لَقاحاً للثمرات ، ورَواحاً للعباد ؛ يتنسَّمُون منها ، ويتقلَّبون فيها ، وتجري بها مياههم ، وتَقِدُ بها نيرانُهم ، وتسيرُ بها في البحر أفلاكُهم ، وقد تَضُرُّ بكثيرٍ من الناسِ في بَرِّهم وبحرِهم ، وتخلص إلىٰ أنفسهم فيشكوها الشاكون ، وقد يتأذىٰ بها كثيرٌ من الناس ، فلا يُزيلها ذٰلك عن منزلتها من قوامِ عبادهِ وتمامِ نعمته .

ومثالُه أيضاً : مثالُ الشتاء والصيف اللذين جعل اللهُ تعالىٰ حَرَّهما وبردَهما صلاحاً للحرث والنسل ، ونَتاجاً للحَبِّ والثمرِ ؛ يجمعها البردُ بإذن الله تعالىٰ ، ويُخرجها الحَرُّ بإذن الله ، فتنضَجُ على اعتدالٍ . . . إلىٰ غير ذٰلك من منافعهما ،

---

(١) نشراً : طيِّبة .

وقد يكون الأذىٰ في حَرِّهما وبردِهما وسَمَائِمِهما وزمهريرِهما ، وهما مع ذٰلك لا يُنسبان إلا إلى الخير والصلاح ، وقد غَمَر صلاحُهما أذِيَّتَهما .

* * *

ومثاله أيضاً : مثال الليل الذي جعله الله سكناً ولباساً ونوماً وراحة وسُباتاً ، وقد يستوحش له أخو القَفْر ، ويسارع فيه أهلُ الدَّعَارةِ والفسادِ واللصوص ، وتعدو فيه السباع ، وتنتشر فيه الهوامُّ ، وذواتُ الحُمَة والسمومِ القاتلة (١) ، ثم لا ينسى العبادُ نعمَ اللهِ تعالىٰ عليهم به ، ولا يُزرىٰ صغيرُ ضرره بكبيرِ نفعه .

ومثالُه أيضاً : مثالُ النهار الذي جعله الله ضياءً ونشوراً ، واكتساباً وانتشاراً ، وقد تكون فيه الحروب والغارات ، والتعب والنصب ، والشخوص والخصومات ، فيستريح الخلق منه إلى الليل ، ثم لم ينس العباد نعمة الله تعالىٰ عليهم فيه .

وهٰكذا كل جسيم من أمور الدنيا يكون ضرره خاصاً ونفعه عاماً . . فهو نعمة عامة ، وكل شيء يكون نفعه خاصاً . . فهو بلاء عام ، ولو كانت نِعَمُ الدنيا صفواً من غير كَدَرٍ ، وميسورُها من غير معسور . . لكانت الدنيا هي الجنةَ التي لا نصبَ فيها ولا تعب) (٢) .

وقد قال الشاعر (٣) : [من السريع]

لَا تَــرْجُ شَــيْئاً خَالِصــاً نَفْعُــهُ فَالْغَيْــثُ لَا يَخْلُــو مِــنَ الْعَيْــبِ

* * *

(١) الحُمَة : سمُّ كل شيء يلدغ أو يلسع .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/٣ ـ ٥) ، و« ثمار القلوب » (١/٣٣١ ـ ٣٣٢) من قول ابن المقفع .

(٣) البيت لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص ٩٧) ، وفيه : (لا يخلو من العيثِ) ، والعيث : الفساد .

الباب التّاسع
في بيان منزلة السّلطان من الرّعيّة

اعلموا أرشدكم الله تعالىٰ : أنَّ منزلة السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد ؛ فإذا صَفَت الروح من الكَدَر . . سَرَت إلى الجوارح سليمةً ، وجرت في جميع أجزاء الجسد ، فأَمِنَ الجسد من الغِيَر ، واستقامت الجوارح والحواس ، وانتظم أمر الجسد .

وإن تكدَّرت الروحُ أو فسدَ مِزاجُها . . فيا ويح الجسد ! فتسري إلى الحواس والجوارح كَدِرةً منحرفةً عن الاعتدال ، فأخذ كلُّ عضوٍ وحاسةٍ بقِسطِه من الفساد ، فمرضت الجوارح وتعطلت ، فتعطَّلَ نظام الجسد ، وجرىٰ إلى الفساد والهلاك .

ومثالُ السلطان أيضاً : مثالُ النار ، ومثالُ الخلق : مثالُ الخشب ؛ فما كان منها معتدلاً . . لم يحتج إلى النار ، وما كان منها متأوِّداً . . احتاج إلى النار ليُقَامَ أَوَدُه ويُعدَّلَ عِوَجُه ؛ فإنْ أفرطَتِ النارُ . . احترقَ الخشبُ قبل أن يستقيم أَوَدُه ، وإن قصَّرت النارُ . . لم يكن الخشب قابلاً للاعتدال ، فيبقىٰ مُتَأَوِّداً ، وإذا كانت النار معتدلة . . اعتدل الخشب .

كذلك السلطان في أطواره ؛ إن أفرط . . أهلكَ الخلق ، وإن فرَّطَ . . لم يستقيموا ، وإن اعتدل . . اعتدلوا .

* * *

ومثاله أيضاً : مثالُ عين خرَّارةٍ في أرض خَوَّارة (١) ؛ فإنْ حلا مشربُه وعَذُبَ

---

(١) عين خرَّارة : جارية ، وأرض خوَّارة : ليِّنة سهلة .

طعمُه وسَلِمت من الكَدَر والفساد أوصافُه . . تخلَّج في الأرض فابتلعته صافياً صِرْفاً[1] ، ثم شربته عروقُ الأشجار فاغتذت به كذٰلك ؛ فغلُظَت سوقُها ، وفرَعَت أغصانُها ، وامتدت أفنانُها[2] ، ثم أخرجت أوراقَها ، وأبرزت أزهارَها ، ثم قذفت ثمارَها ، فجاءت علىٰ أتمّ طبيعتها ؛ كثرةً وطَعْماً ، ولوناً ورائحة ، فتقوَّت بها العبادُ ، وأكلت حظوظَها البهائمُ والحشرات ، وسقط عليها الطيرُ ، فأحرز كلٌّ منها قُوتَه ، واستقام النظام .

وإن كان في حواشي الأرض ما يرِقُّ عن الإنبات والنفع ، ويُكدي عن الزكاة والرَّيْع ، أو كان فيه من الشجر ما يَنزُر حملُه ، ويَقِلُّ رَيْعُه . . أعطىٰ كلُّ ذٰلك الغايةَ من نفسه ، وأطلع ما في قُواه ، ولم يغادر ممكناً إلا وفاه .

وإن كان في العين كَدَرٌ أو فسادٌ أو مِلْح . . شَرِبَتْها الأشجارُ كذٰلك ، ففسد مِزاجُها ، وأضرَّ الجزءُ الفاسدُ بالطيب ؛ فدقَّت سوقُها ، وضعفت أغصانُها ، وتغيرت أوراقُها ، وقلَّت أزهارُها وثمارُها ، ودخل الفسادُ علىٰ جميع ذٰلك ، فجاءت الثمرةُ وهي نَزْرٌ قدرُها ، رديءٌ طَعمُها ، كاسفٌ لونُها ، فدخل بذٰلك من النقصِ علىٰ جميع الحيوان مثلُ ما دخلَ من المنافع عليهم في الأولىٰ .

ولهٰذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱلْحَشَرَاتِ لَتَمُوتُ فِي جُحْرِهَا هَزْلاً بِذَنْبِ ٱبْنِ آدَمَ »[3] .

يعني : إذا كثرت المعاصي في الأرض . . حَبَست السماءُ غياثَها ، ومنعت الأرضُ نباتَها ، فهلك الهوامُّ والدوابُّ والحشرات .

❋ ❋ ❋

---

(١) تخلَّج : تحرَّك .

(٢) أفنان : جمع فَنَنٍ ؛ وهو الغصن المستقيم .

(٣) رواه الحاكم (٤٢٨/٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٠٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً ، بلفظ : (كادَ الجُعَل يُعذبُ في جُحْره بذنب ابن آدم) ، وفي (أ ، و) : (إن الحِسْل ليموت في جحره . . .) ، و(ج) : (الحمل) ، والحِسْل : ولد الضب .

الباب العاشر
في معرفة خصالٍ ورد الشّرع بها، فيها نظامُ الملك والدّول

وهي ثلاث : اللينُ وتركُ الفظاظة ، والمشاورةُ ، وألا يُستعملَ على الأعمالِ والولاياتِ راغبٌ فيها ولا طالبٌ لها .

ولمَّا عَلِمَ اللهُ سبحانه وتعالىٰ ما فيها من انتظامِ أمرِ المِلةِ واستقامةِ الأمرِ . . نصَّ عليها اللهُ ورسولُه .

اعلم أرشدك الله تعالىٰ : أنَّ هـٰذه الخصالَ من أساس الممالك ، وقلَّ مَنْ يعملُ بها من الملوك ؛ اثنتانِ نزلتا من السماء ، وواحدةٌ قالها الرسولُ صلى الله عليه وسلم .

أمَّا الإلـٰهية : فقال اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ (١) .

وفي الآيةِ إشارتان :

إحداهما : أنَّ الفظاظةَ تُنفِرُ الأصحابَ والجلساءَ ، وتفرِّقُ الجموع والحَشَم ، وإنما المَلِكُ ملكٌ بجلسائِه وأصحابِه ، وحَشَمِهِ وأتباعِهِ ، وأخلِقْ بخَصلةٍ تُنفِرُ الأولياء ، وتطمعُ الأعداء ! فقَمَنٌ بكلِّ سلطانٍ رفضُها والاحترازُ من سوءِ مَغبَّتِها ، وليكن كما قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان جالساً مع أصحابه ، فجاء رجل

---

(١) سورة آل عمران : (١٥٩) .

(٢) سورة الشعراء : (٢١٥) .

فقال : أيُّكم ابنُ عبد المطلب ؟ فقالوا : هـٰذا الأبيض المتكئ ، فقال الرجل : يا بن عبد المطلب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَجَبْتُكَ »[١] .

دَلَّ الأثرُ : علىٰ أنه ما استأثرَ بشرفِ المجلسِ ولا بايَنَهم بزيٍّ[٢] ولا مقعد .

وقد يَبلُغُ باللِّينِ ما لا يَبلُغُ بالغِلظة ؛ ألا ترىٰ أن الرياح تهولُ أصواتُها ، فيتداخلُ لها الشجر ، وتنعطف الأفنانُ والأغصان ، وفي الفَرْطِ تنكسر الأغصان ، والماءُ بلينهِ في أصول الشجر يَقلَعُها من أصولها !

وإذا كانت الحية مع صعوبتها وسمِّها وتغيُّبِها في جُحرها تُرقىٰ بالكلام حتىٰ تُستعطف فتَخرُج . . فالإنسانُ أحرىٰ أن يستمالَ بلينِ القولِ ، وحسن المنطق .

وإذا أردت أن تنتقم ممن يُسيء إليك . . فكافئه بكل كلمة سوءٍ قالها كلمةً جميلةً وحسنَ ثناءٍ عليه .

* * *

والإشارة الثانية : أنه قال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[٣] .

فإذا قيل لنا : كيف يشاورهم وهو نبيُّهم وإمامُهم ، وواجبٌ عليهم مشاورتُه ، وألا يَفصِلُوا أمراً دونه ؟

قلنا : هـٰذا أدبٌ أدَّبَ اللهُ تعالىٰ به نبيَّه صلى الله عليه وسلم به ، وجعله مأدَبةً لسائر الملوك والأمراء والسلاطين .

لمَّا عَلِمَ اللهُ تعالىٰ ما في المشاورة من حسن الأدب مع الجليس ، ومساهمتِه في الأمور ؛ فإن نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تَصلُح عليه ، وتَميلُ إليه ،

---

(١) رواه البخاري (٦٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٢) في (د) : (ولا بسرير) .
(٣) سورة آل عمران : (١٥٩) .

وتخضع عَنْوةً بين يديه . . شرعه لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولذوي الإمرة من أهل ملته صلى الله عليه وسلم .

ألا ترىٰ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غزاة ، فأمرهم بالنزول ، فقال له سعد : يا رسول الله ؛ إن كان هٰذا بأمر الله . . فسمع وطاعة ، وإن يكن علىٰ غير ذٰلك . . فليس بمنزل ، فسمع منه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « اِرْتَحِلُوا »(١) .

ومن أقبح ما يوصف به الرجال ؛ ملوكاً كانوا أو سوقة : الاستبداد بالرأي ، وترك المشاورة ، وسنعقد للمشاورة باباً إن شاء الله تعالىٰ .

والخَصلة الثالثةُ : ما روى البخاري ومسلم وغيرهما أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ استعملني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا لَا نَسْتَعْمِلُ عَلَىٰ عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ »(٢) .

والسرُّ فيه : أن الولاياتِ أماناتٌ ، وتصرفٌ في أرواح الخلائق وأموالهم ، والتسرعُ إلى الأمانة(٣) دليلٌ على الخيانة ، وإنما يخطبها من يريد أكلها ، وإذا اؤتمن خائن علىٰ موضع الأمانات . . كان كمن يسترعي الذئب على الغنم .

ومن هٰذه الخصلة تَفسُدُ قلوبُ الرعايا علىٰ ملوكها ؛ لأنه إذا اهتُضِمَتْ حقوقُهم ، وأُكِلَتْ أموالُهم . . فسَدَت نياتُهم ، وأطلقُوا ألسنتَهم بالدعاء والتشكي ، وذكروا سائرَ الملوك بالعدل والإحسان ، فكانوا كالبيت السائر

---

(١) الذي رواه أصحاب السير أن القائل هو : الحباب بن المنذر رضي الله عنه ، وذٰلك في غزوة بدر . انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (١/٦٢٠) .

(٢) صحيح البخاري (٢٢٦١) ، صحيح مسلم (١٥/١٧٣٣) ، ورواه أبو داوود (٣٥٧٩) ، وابن حبان (١٠٧١) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٣) في (أ) : (والنزع إلى الإمارة) .

الذي أنشدْناه أولاً في الكتاب [١] : [من الوافر]

وَرَاعِـي ٱلشَّـاءِ يحمي ٱلذِّئْـبَ عَنْهَا فَكَيْـفَ إِذَا ٱلذِّئَـابُ لَهَـا رِعَـاءُ

وإذا خان أهل الأمانات ، وفسد أهل الولايات . . كان الأمر كما قال الأول [٢] : [من البسيط]

بِٱلْمِلْـحِ يُصْلَـحُ مَـا يُخْشَـىٰ تَغَيُّرُهُ فَكَيْـفَ بِٱلْمِلْـحِ إِنْ حَلَّتْ بِـهِ ٱلْغِيَرُ

وقال آخر [٣] : [من مجزوء الكامل]

ذِئْـبٌ تَـرَاهُ مُصَلِّيـاً فَـإِذَا مَـرَرْتَ بِـهِ رَكَـعْ

يَدْعُـو وَجُـلُّ دُعَائِـهِ مَـا لِلْفَرِيسَـةِ لَا تَقَـعْ

عَجِّـلْ بِهَـا يَـا ذَا ٱلْعُـلَا إِنَّ ٱلْفُـؤَادَ قَـدِ ٱنْصَـدَعْ

ومن أشراط الساعة : التصدي للأمانة ، وخطبة الولاية .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ : أَنْ تَكُونَ ٱلزَّكَاةُ مَغْرَماً ، وَٱلْأَمَانَةُ مَغْنَماً » [٤] .

فحينئذٍ يدعو عليه الضعيفُ وأهلُ الصلاح ، ويقعدُ له بالمرصاد الشرير ، ويخامرُ عليه القويُّ ، ويَقبُحُ ثناؤُه عند الجماعة ، ويتمنون الراحة منه ، وينظرون من يصلح لها سواه .

* * *

(١) تقدَّم البيت (ص ١٦٠) ، وفي (ب ، د ، ز) : (الشاة) بدل (الشاء) .

(٢) أورده في « ربيع الأبرار » (٣/٣٧٩) .

(٣) أورد البيتين الأولين في « بهجة المجالس » (٢/٢٠٦) .

(٤) رواه بنحوه الترمذي (٢٢١٠) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

الباب الحادي عشر
في معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان، ولا ثبات له دونها

فأولُ الخصال وأحقُّها بالرعاية : العدل ، الذي هو قِوامُ الملك ، ودوامُ الدول ، وأسُّ كل مملكة سواءٌ كانت نبويةً أو اصطلاحيةً .

اعلم أرشدك الله تعالىٰ : أنَّ الله تعالىٰ أمر بالعدل ، ثم عَلِمَ سبحانه أنه ليس كلُّ النفوس تصلح على العدل ، بل تطلب الإحسان وهو فوق العدل ، فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[1] .

فلو وَسِعَ الخلقَ العدلُ . . ما قَرَنَ اللهُ به الإحسانَ ، فمن لم يصلح حتىٰ يُزَاد على العدل . . فكيف يصلح إذا مُنِعَ منه العدلُ ولم يبلُغْ إليه ؟!

والعدلُ ميزانُ الله تعالىٰ في الأرض الذي به يُؤخَذ للضعيفِ من القويّ ، وللمُحِقّ من المُبطلِ ، وليس موضعُ الميزان بين الرعية فقط ، بل بينَ السلطانِ والرعيةِ أيضاً ، فمن أزال ميزانَ اللهِ الذي وضعَه للقيامِ بالقسطِ . . فقد تعرَّض لسخط الله سبحانه وتعالىٰ .

واعلم أيُّها الوالي : أنَّ المُلْكَ بمنزلة رجلٍ ؛ فرأسه أنت ، وقلبُه وزيرُك ، ويداه أعوانُك ، ورجلاه رعيتُك ، وروحُه عدلُك ، وما بقاءُ جسدٍ بلا روح ؟!

وإذا أردت ذُروة العدل . . فاعلم أن الرعية ثلاثة أنفس : كبير ، وصغير ، ووسط ؛ فاجعل كبيرَهم أباً ، وأوسَطهم أخاً ، وصغيرَهم ابناً ؛ فبَرَّ أباك ، وأكرمْ

(١) سورة النحل : (٩٠) .

أخاك ، وارحم ابنك ؛ فإنك واصلٌ بذٰلك إلىٰ برِّ اللهِ وكرامتهِ ورحمتهِ .

* * *

واعلم : أن عدلَ المَلِك يوجب الاجتماعَ عليه ، وجَوْرَه يوجبُ الافتراقَ عنه ، عدلُ المَلِكِ حياةُ رعيتهِ .

وفي منثور الحكم : (سلطانٌ جائرٌ أربعين عاماً[1] خيرٌ من رعيةٍ مهملةٍ ساعةً واحدةً من النهار)[2] .

إذا عدل السلطان فيما قَرُبَ منه . . صَلَحَ له ما بَعُدَ عنه .

فضلُ الملوك في الإعطاء ، وشرفُها في العفو ، وعزُّها في العدل .

عُدَّةُ السلطان ثلاثة أشياء : مشاورة النصحاء ، وثبات نيات الأعوان ، وإقامةُ سوقِ العدل .

أفضلُ الأزمنة : أزمنةُ أئمة العدل .

* * *

ثم العدل ينقسم قسمين :

قسمٌ إلـٰهيٌّ : جاءت به الرسل والأنبياء عليهم السلام عن الله تعالىٰ .

والثاني : ما يشبه العدل ؛ وهو السياسة الاصطلاحية التي هَرِمَ عليها الكبير ، ونشأَ عليها الصغير .

وبعيدٌ أن يبقىٰ سلطانٌ أو تستقيمَ رعيةٌ في حال إيمان أو كفر بلا عدل قائم ، ولا ترتيب للأمور ثابت ، فذٰلك ما لا يجوز ولا يمكن .

قيل : أرسلَ ملكُ الروم قيصر إلىٰ كسرىٰ كتاباً يسأله : (بماذا دام لك الملك ؟ فكتب جوابه : دام لنا الملك بست خصال :

أولها : بأننا ما هَزَلْنا في أمرٍ ونهي ، ولا كذبنا في وعد ولا وعيد ، ولا قابلنا

---

(١) في (ب ، د) : (يوماً) .

(٢) مر نحوه عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ في (ص ١٨٦) .

إلا علىٰ قدر الذنب لا علىٰ قدر غضبنا ، واستخدمنا ذوي العقول ، وولَّينا ذوي الأصول ، وفضلنا على الشباب الكهول .

قال : فلما قرأ الكتاب . . قام وقعد وقال : يَحِقُّ لمن كانت هـٰذه سياسته أن تدوم له رياسته)[١] .

وقد ذكرنا في أول الكتاب[٢] : أن سليمان بن داوود عليهما السلام سُلِبَ ملكُه حين جَلَسَ الخصمانِ بين يديه ، وكان لأحدهما خاصَّةٌ بسليمان ، فقال في نفسه : (وَدِدْتُ أن يكون الحقُّ لخاصتي فأقضيَ له) ، فسلبه اللهُ تعالىٰ ملكَه ، وقعدَ الشيطانُ علىٰ كرسيِّه .

فاجعل العدلَ رأسَ سياستك فتسقطَ عنك جميع الآفات المفسدة للسياسة ، وتقومَ لك جميع الشرائط التي تقوم بها المملكة .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (إمامٌ عادلٌ خيرٌ من مطر وابِل ، وأسدٌ حَطُومٌ خيرٌ من سلطان ظَلُوم ، وسلطانٌ ظلومٌ خيرٌ من فتنةٍ تدوم)[٣] .

وقال ابن مسعود : (إذا كان الإمام عادلاً . . فله الأجرُ وعليك الشكر ، وإذا كان جائراً . . فعليه الوزرُ وعليك الصبر)[٤] .

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام : (الرحمة والعدل يَحرُزانِ الملك) .

واتفق حكماء العرب والعجم علىٰ هـٰذه الكلمات فقالوا : (المُلكُ بناءٌ ، والجندُ أساسُه ؛ فإذا قوي الأساسُ . . دام البناء ، وإن ضَعُفَ الأساس . .

---

(١) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (١/١٠) ، و« العقد الفريد » (١/٢٤) من قول بعض الملوك .

(٢) في (ص ١٥٩) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣١) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٤٦/١٨٤) عن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ومطرٌ وابلٌ : شديد ضخم القطر ، وأسدٌ حَطُوم : يَحطِمُ كلَّ شيء أتىٰ عليه ؛ أي : يدقُّه .

(٤) رواه في « عيون الأخبار » (١/٣) ، وأورده في « العقد الفريد » (١/٨) من قول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

انهارَ البناء ، فلا سلطانَ إلا بجند ، ولا جندَ إلا بمالٍ ، ولا مالَ إلا بجبايةٍ ، ولا جبايةَ إلا بعِمارةٍ ، ولا عِمارةَ إلا بعدل)[1] ، فصار العدلُ أساساً لسائر الأساسات .

* * *

فأما العدل النبوي : فجملة القول فيه : أنْ يجمعَ السلطانُ إلىٰ نفسه حملةَ العلم الذين هم حُفَّاظُه ورُعاتُه وفُقهاؤُه ، وهم الأدلاء على الله تعالىٰ ، والقائمون بأمر الله ، والحافظون لحدود الله ، والناصحون لعباد الله .

وروىٰ أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ ٱلدِّينَ ٱلنَّصِيحَةُ » ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ »[2] .

فاتخِذْ أيُّها الملكُ العلماءَ شِعاراً ، والصالحين دِثاراً[3] ، فتدور المملكةُ بين نصائح العلماء ، ودعوات الصلحاء ، وأخلِقْ بملكٍ يدور بين هاتين الخَصلتين أن يقومَ عمودُه ، ويطولَ أَمَدُه ! وكيف لا ، وقد قربهم الله تعالىٰ في سلطانه ، واصطفاهم بخالصة[4] معرفته ؛ فقال جَلَّ مِنْ قائل : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ ؟![5] .

فبدأ بنفسه ، وثنَّىٰ بملائكته ، وثلَّث بأولي العلم ؛ وهم ورثةُ الأنبياء عليهم السلام ، الموقِّعون عن الله تعالىٰ ؛ لأنَّ الأنبياء لم يُورِّثُوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما وَرَّثُوا العلم ؛ ففي تعظيمِهم وتقريبِهم امتثالٌ لأمر الله تعالىٰ ، وتعظيمٌ لمن أثنى اللهُ تعالىٰ عليه .

---

(١) أورده بنحوه في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٦) من قول أردشير ، و« عيون الأخبار » (٩/١) .
(٢) رواه مسلم (٥٥) عن سيدنا تميم الداري رضي الله عنه .
(٣) الشِّعار : ما وَلِيَ الجسدَ من الثياب ، والدِّثار : ما يَتَدثَّر به الإنسان من كساء أو غيره فوق الشِّعار .
(٤) في (أ ، د) : (لخالص) ، و(ز) : (لخاصة) .
(٥) سورة آل عمران : (١٨) .

ويجب ترفيعُ مجالسِهم ، وتمييزُ مواضعِهم علىٰ من سواهم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (١) .

وفيه استمالةُ قلوب الرعية ، وخُلوصُ نياتهم لسلطانهم ، واجتماعُهم علىٰ محبته وتوقيره .

فواجبٌ على السلطان ألَّا يقطعَ أمراً دونهم ، ولا يفصلَ حكماً إلا بمشاورتهم ؛ لأنه في مُلك الله تعالىٰ يحكم ، وفي شريعته يتصرَّف .

وأوَّلُ الواجبات على السلطان : أن يُنزِلَ نفسَه مع الله تعالىٰ منزلةَ وُلاتِه معه ، أليس إذا خالف والِيه أمرَه وما رسمه له من الأحكام . . عزله وعاقبه ولم يأمن سَطوته ؟ وإذا امتثل أوامرَه وازدجر عن زواجره . . حلَّ منه محل الرضاء ؟

فوا عجباً لمن يَغضب علىٰ واليه إذا خالفه ، ثم لا يخاف سطوةَ ربِّه عليه إذا خالفه !

فهٰذا طريق إقامة العدل الشرعي ، والسياسةِ الإسلاميةِ الجامعةِ لوجوه المصلحة ، الآخذةِ بأزمَّة التدبير ، السالمةِ من العيوب ، المُمهِّدةِ لاستقامة الدنيا والدين .

وكما أن الملك الحازم لا يتم حَزْمُه إلا بمشاورة الوزراء الأخيار . . كذٰلك لا يَتِمُّ عدلُه إلا باستفتاء العلماء الأبرار .

وقد وقَّعَ المأمونُ في قصة متظلِّمٍ من عمرو بن مسعدة : (يا عمرو ؛ أَعمُرْ نعمتك بالعدل ؛ فإن الجَوْرَ يَهدِمُها) (٢) .

وفي إشاعة العدل : قوةُ القلب ، وطِيبةُ النفس ، ولزومُ اليقين ، وأمانٌ من العدو .

---

(١) سورة المجادلة : (١١) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢١٥/٤) .

ولمَّا استأذن الهُرمُزان علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . لم يجد عنده حاجباً ولا بوَّاباً ، فقيل له : هو في المسجد ، فأتى المسجد ، فوجده مستلقياً متوسِّداً كوماً من الحصىٰ ، ودِرَّتُه بين يديه ، فقال له : (عدلتَ ، فأمِنتَ ، فنِمْتَ !) (١) .

وقال الحسن : (رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد جمع الحصىٰ في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم عند رأسه ، وقد وضع أحد جانبي ردائه عليه ، وهو يومئذ أمير المؤمنين ، ما عنده أحد من الناس ، ودِرَّتُه بين يديه) (٢) .

وكتب عامل حمص إلىٰ عمر بن عبد العزيز : (إن مدينة حمص قد تهدَّمت واحتاجت إلى الإصلاح ، فكتب إليه عمر : حَصِّنها بالعدل ، ونَقِّ طرقَها من الجَوْرِ ، والسلام) (٣) .

وقالت الحكماء : (مَنْ حُرِمَ العدلَ . . فلا خيرَ له ، ولا للناسِ في سلطانه) .

وقال يحيى بن أكثم : (ماشَيْتُ المأمونَ في بستان ، والشمسُ عن يساري ، والمأمونُ في الظل ، فلما رجعنا . . وقعتِ الشمسُ أيضاً عليَّ ، فقال لي المأمون : تحوَّلْ إلىٰ مكاني وأتحولُ إلىٰ مكانك حتىٰ تكونَ في الظل كما كنتُ ، وأقيَكَ الشمسَ كما وَقَيْتَني ؛ فإن أولَ العدل أن يَعدِلَ الرجلُ علىٰ بطانتهِ ، ثم الذين يلونهم حتىٰ يبلُغَ العدلُ الطبقةَ السفلىٰ ، فعزَمَ علي ، فتحوَّلت) (٤) .

وكان يقال : (ليس شيءٌ أبعدَ من بقاءِ مُلكِ الغاصب) (٥) .

وقيل للإسكندر : (لو أكثرتَ من النساء حتىٰ يكثرَ نسلُك ، ويحيا ذكرك ،

---

(١) أورده في « ثمار القلوب » (١/١٧٠) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٢٢٥) .

(٢) رواه بنحوه البيهقي في « الكبرىٰ » (٢/٤٤٦) .

(٣) أورده في « المحاسن والأضداد » (ص ١١٨) ، و« المحاسن والمساوئ » (ص ٣٦٥) ، وعامل حمص هو : عدي بن أرطاة رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (١/٢٣) ، و« العقد الفريد » (٢/٤٣١) .

(٥) أورده بنحوه مطولاً في « لباب الآداب » (ص ٤٩) من كلام أرسطاطاليس إلى الإسكندر .

فقال : إنما يُحيِي الذكرَ الأفعالُ الجميلةُ ، والسننُ الحميدةُ ، ولا يحسُنُ بمن يغلِبُ الرجالَ أن تغلبَه النساء)[1] .

وقال الحكيم : (من اتخذ العدل سُنَّة . . كان له أحسن جُنَّة ، ومن استشعر حُلَّة العدل . . استكمل زينة الفضل) .

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : (إنَّ الإمام العادل لَيُسكِتُ الأصواتَ عن الله تعالىٰ ، وإنَّ الإمام الجائر لَتكثرُ منه الشِّكايةُ إلى الله تعالىٰ)[2] .

وقال الحكيم : (لا يزال السلطانُ مُمهَلاً حتىٰ يتخطَّىٰ إلىٰ أركان العِمارة ومباني الشريعة ، فحينئذ يُرِيحُ اللهُ تعالىٰ منه)[3] .

وقالوا : (لا تظلمِ الضعفاء ، فتكونَ من لئام الأقوياء)[4] .

وقال بعض الحكماء : (أميرٌ بلا عدل كغيمٍ بلا مطر ، وعالمٌ بلا وَرَعٍ كأرضٍ بلا نبات ، وشابٌّ بلا توبة كشجر بلا ثمر ، وغنيٌّ بلا سخاء كقُفلٍ بلا مفتاح ، وفقيرٌ بلا صبر كسِراجٍ بلا ضوء ، وامرأةٌ بلا حياء كطعامٍ بلا مِلح)[5] .

وقال كسرى : (اتفقت ملوك العجم علىٰ أربع خصال : أنَّ الطعام لا يؤكل إلا علىٰ شهوة ، والمرأةَ لا تنظرُ إلا إلىٰ زوجها ، والملكَ لا يُصلِحُه إلا الطاعة ، والرعيةَ لا يُصلِحُها إلا العدل)[6] .

وأحقُّ الناس بإجبار نفسه على العدل : الملوكُ الذين بعدلهم يَعدِلُ مَنْ دونهم ، والذين إذا قالوا أو فعلوا . . كان نافذاً غيرَ مردود .

---

(١) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٥١) .

(٢) رواه أبو عبيد في « الأموال » (١٣) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٣٢٨) .

(٣) أورده في « تسهيل النظر وتعجيل الظفر » (ص ١٥٤) ، وفيه : (وقال حكيم الروم) .

(٤) أورده في « الكبائر » (ص ١١٥) عن بعض السلف .

(٥) أورده بنحوه في « فاكهة الخلفاء » (ص ٥١٤) .

(٦) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦٤٦) عن الفضيل بن عياض قال : (قال بعض الحكماء . . .) ، وأورده في « عيون الأخبار » (٣/٢٢٠) من قول بعض الحكماء .

وقالت الحكماء : (رُمْ ما شئتَ بالإنصافِ ، وأنا زعيم لك بالظَّفَرِ به ، والظلمُ أدعىٰ شيءٍ إلىٰ تغيير نعمة ، أو تعجيل نقمة)[1] .

وقال الحكيم : (شرُّ الزادِ إلى المعادِ : الذنبُ بعد الذنب ، وشرٌّ من هـٰذا : العدوانُ على العباد)[2] .

ومتىٰ أراد السلطان بُعدَ الصيت وجميلَ الذكر . . فليُقِمْ سُوقَ العدل ، وإن أحب الزُّلفَىٰ عند الله وشرفَ المنزلة عنده . . فليُقِمْ سوقَ العدل ، وإن أحبهما جميعاً . . فليُقِمْ سوقَ العدل .

والذي يخلُدُ به ذكرُ الملوك علىٰ غابر الدهور : عدلٌ واضحٌ ، أو جَوْرٌ فاضح ، هـٰذا يُوجِبُ له الرحمة ، وهـٰذا يُوجِبُ له اللعنة .

فَصْلٌ

[في السياسة الاصطلاحية]

وأما القسم الثاني من العدل ؛ وهو السياسة الاصطلاحية ـ وإن كان أصلها على الجور ـ : فيقوم بها أمر الدنيا ، وكأنها تشاكل مراتب الإنصاف علىٰ نحو ما كانت عليه ملوك الطوائف في أيام الفرس ، وكانوا كفاراً بالله تعالىٰ ، يعبدون النيران ، ويتَّبِعُون هواجس الشيطان .

فتواضعوا بينهم سنناً ، واستسنُّوا لهم أحكاماً ، وأقاموا لهم مراتب في النَّصَفة بين الرعايا ، واستجباءِ الخَراجات ، وتوظيفِ المُكُوس على التجارات .

كلُّ ذٰلك بعقولهم علىٰ وجوهٍ ما أنزل اللهُ بها من سلطان ، ولا نُصِبَ عليها برهان ، بَيْدَ أنه لمَّا جاءت الشريعة من عند الله تعالىٰ علىٰ لسانِ رسوله صاحبِ المعجزة محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ فمنها ما أقرَّتْهُ في نِصابه[3] ، ومنها ما

---

(١) رواه بنحوه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٨٥٧) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٨٢٣) .

(٣) نصابه : أصله .

نَسَخَتْه وأبطلَتْ حُكمَه ، فعادت الحكمة البالغة إلىٰ أمر الله تعالىٰ والحكمِ بما أنزل الله ، وبطل ما سواه .

فكان مُلكُهم محفوظاً برعايتهم للقوانين المألوفة بينهم ، فانقطع بذٰلك حبلُ الهَمَلِ [١] ، فكانوا يقيمون بها واجبَ الحقوق ، ويتعاطون بها ما لهم وما عليهم .

وعن هٰذا كان يقال : إن السلطان الكافر الحافظ لشرائط [٢] السياسة الاصطلاحية أبقىٰ وأقوىٰ من السلطان المؤمن العدل في نفسه ، المضيعِ للسياسةِ النبوية العدلية [٣] .

والجَوْرَ المرتَّبَ [٤] أبقىٰ من العدلِ المهملِ ؛ إذ لا شيء أصلح لأمر السلطان من ترتيب الأمور ، ولا شيءَ أفسد له من إهمالها .

* * *

واعلم : أن درهماً يؤخذ من الرعية علىٰ وجه الإهمال والخُرْق وإن كان عدلاً . . أفسدُ لقلوبها من عَشَرةٍ تُؤخَذ منها بسياسةٍ علىٰ زمام معروف ، ورسم مألوف ، وإن كان جَوْراً ، فلا يقوم السلطان لأهل الإيمان ، ولا لأهل الكفر إلا بإقامة العدل النبوي ، أو ما يُشبِه العدل من الترتيب الاصطلاحي .

وقال ابن المقفع : (الملوك ثلاثة : مَلِكُ دِين ، ومَلِكُ حزم ، ومَلِكُ هوىً .

فأما مَلِكُ الدين : فإنه إذا أقام لأهل المملكة دينَهم . . كانوا راضين ، وكان الساخطُ فيهم بمنزلة الراضي .

وأما مَلِكُ الحزم : فيقوم به الأمر ، ولا يسلم من الطعن والسخط ، ولن يضر طعنُ الذليل مع حزم القوي .

---

(١) الهَمَل : الذي لا نظام له .
(٢) في (أ) : (لشوارد) .
(٣) انظر « فاكهة الخلفاء » (ص ٥٠٧) .
(٤) زيد في (أ) : (آنفاً) .

وأما مَلِكُ الهوىٰ : فلعبُ ساعة ، ودمارُ دهر)[١] .

* * *

ولقد بلغنا أن ملكاً من ملوك الهند نزل به صمم ، فأصبح مستوجعاً مهتماً بأمور المظلومين ، وأنه لا يسمع استغاثتَهم ، فأمر مناديه ألَّا يَلبَس أحدٌ في مملكته ثوباً أحمر إلا مظلوم ، وقال : (لئن مُنِعتُ سمعي . . لم أُمنَعْ بصري) ، فكان كلُّ من ظُلِمَ لَبِسَ ثوباً أحمر ، ووقف تحت قصره ، فيراه فيكشف عن ظُلامته[٢] .

* * *

وقال شيخنا : وأخبرني أبو العباس الحجازي ـ وكان ممن دخل الصين ـ بسيرة عجيبة غريبة لملوكها في سياستهم ؛ وذٰلك أن البيت الذي يكون فيه الملك فيه ناقوسٌ موصول بسلسلة ، وطرفُ السلسلة في خارج الطريق ، وعليها أمناء للسلطان وحَفَظة ، فيأتي المظلوم ، فيحركُ السلسلة ، فيسمعُ الملكُ صوتَ الناقوس ، فيأمرُ بإدخال المظلوم ، فكلُّ من حرَّكَ تلك السلسلةَ تُمسِكُه تلك الحَفظَةُ حتىٰ تدخله على السلطان .

* * *

---

(١) الدرة اليتيمة (ضمن رسائل البلغاء) (ص ٧١) ، وقد اختلف العلماء حول تسمية « الدرة اليتيمة » ؛ فمنهم من جعل « الدرة اليتيمة » و« الأدب الكبير » ـ وهما لابن المقفع ـ واحداً ، ومنهم من جعلهما كتابين متغايرين . انظر مقدمة « رسائل البلغاء » (ص ٦ ـ ٧) .

(٢) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (٢/٣٣٥) ، و« العقد الفريد » (٣/١٦٠) .

الباب الثّاني عشر

في التّنصيص على الخصال الّتي زعم الملوك أنّها أزالت دولتهم وهدمت سلطانهم

أيُّها الملك ؛ احرص كلَّ الحرص أن تكون خبيراً بأمور عُمَّالك ؛ فإن المسيء يَفرَقُ من معرفتك به قبل أن تصيبَه عقوبتُك ، والمحسنَ يستبشرُ بعلمك به قبل أن يأتيَه ثوابُك .

قال أبو جعفر المنصور : (ما زال أمر بني أمية مستقيماً حتىٰ أفضىٰ أمرُهم إلىٰ أبنائهم المترفين ؛ فكانت هِمَّتهم من عظيمِ شأنِ الملك وجلالةِ قدره قصدَ الشهوات ، وإيثارَ اللذات ، والدخولَ في معاصي الله تعالىٰ ومساخطِه ؛ جهلاً منهم باستدراج الله تعالىٰ ، وأمناً لمكره ، فسلبهم الله العزَّ ، ونقلَ عنهم النعمة)[1] .

قال عبد الله بن مروان ـ ومروان هٰذا : هو المعروف بمروان الحمار ، وهو آخرُ ملوك بني أمية ، قُتِلَ في أرض مصر في كُورةِ بوصير ـ : (لمَّا زالَ ملكنا وهربتُ إلىٰ أرض النُّوبة فيمن اتبعني من أصحابي . . فسمعَ ملكُ النُّوبة بخبري فجاءني ، فقعد على الأرض ولم يقعد علىٰ فراش افترشته ، فقلت له : ألا تقعد علىٰ ثيابنا ؟ قال : لا ، قلت : ولم ؟ قال : لأني ملك ، وحقٌّ علىٰ كل ملك أن يتواضع لأمر الله سبحانه إذ رفعه .

ثم قال لي : لِمَ تشربون الخمر وهي محرمة عليكم ؟! ولِمَ تطؤون الزرع بدوابكم والفسادُ محرم عليكم ؟! ولِمَ تستعملون الذهب والفضة وتلبسون الديباج والحرير وهو محرم عليكم ؟!

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٠٥) ، و« العقد الفريد » (٤/٤٧٣ ـ ٤٧٤) .

فقلت : زال عنا الملك فقلَّ أنصارنا ، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا ديننا ، ولنا عبيد وأتباع فعلوا ذٰلك علىٰ كره منا .

فأطرق ملياً يقلب كفيه وينكُت في الأرض ، ثم قال : ليس كما ذكرت ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم ، وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله تعالى العز بذنوبكم ، ولله فيكم نقمةٌ لم تبلُغ غايتَها ، وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم !

وإنما الضيافة ثلاثة أيام ، فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدي ، فتزودنا وارتحلنا)[١] .

وسئل بُزْرُجُمِهْر : (ما بال ملك آل ساسان صار إلىٰ ما صار إليه بعد ما كان فيه من قوة السلطان وشدة الأركان ؟ فقال : ذٰلك لأنهم قلَّدوا كبارَ الأعمال ، صغارَ الرجال)[٢] .

وعن هٰذا قالت الحكماء : (موتُ ألف من العِلْية أقلُّ ضرراً من ارتفاع واحد من السَّفِلة)[٣] .

وفي الأمثال : (زوال الدول باصطناع السُّفَّل)[٤] .

وقال الشافعي رحمه الله : (أظلم الناس لنفسه : اللئيم ؛ إذا ارتفع . . جفا أقاربَه ، وأنكر معارفَه ، واستخفَّ بالأشراف ، وتكبَّر علىٰ ذوي الفضل)[٥] .

وسئل بعض الملوك بعد زوال ملكه : (ما الذي سلبكَ ما كنتَ فيه ؟ قال : إعطاؤنا مَنْ بَطَرَ وطغىٰ ، ورفعُ عمل اليوم لغد)[٦] .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٢٠٦/١) ، و« العقد الفريد » (٤٧٤/٤) .

(٢) أورده في « سير الملوك » (ص ٢٢١) .

(٣) رواه في « ذيل الأمالي » (ص ٢٧) ، وأورده في « محاضرات الأدباء » (٢٩١/٢) من قول سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٤) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٧٩) .

(٥) أورده في « الانتقاء » (ص ١٥٨) .

(٦) أورده بنحوه في « لباب الآداب » (ص ٣٩) .

وسئل بعض الملوك بعد أن سُلِبَ ملكُه : (ما الذي سلب ملككم ، وهدم عزَّكم ؟ فقال : شغلتنا لذاتنا عن التفرغ لمهماتنا ، ووثقنا بكُفاتنا فآثروا مرافقهم علينا ، وظَلَمَ عمالُنا رعيتَنا ففسدت نياتهم لنا وتمنوا الراحة منا ، وحُمِلَ علىٰ أهل خَراجنا فقَلَّ دَخْلُنا ، وبطل عطاء جندنا فزالت الطاعةُ منهم لنا ، وقصدَنا عدوُّنا فقلَّ ناصرُنا ، وكان أعظمَ ما زال به ملكنا : استتارُ الأخبار عنَّا)[1] .

وقالت الحكماء : (أسرعُ الخصال في هدمِ السلطان وأعظمُها وأسرعُها في إفسادِه وتفريقِ الجمع عنه . . إظهارُ المحاباة لقوم دون قوم ، والميلُ إلىٰ قبيلة دون قبائل ؛ فمتىٰ أعلنَ بحُبِّ قبيلةٍ . . فقد برئ من قبائل) ، وقديماً قيل : (المحاباة مفسدة) .

وقال مهبوذ المُوبَذان : (من زوال السلطان : تقريبُ من ينبغي أن يباعد ، ومباعدةُ من ينبغي أن يقرب ، وحينئذ حان أوان الغدر) .

وقيل لملك بعد ذهاب ملكه : (ما الذي أذهب ملككم ؟ قال : ثقتي بدولتي ، واستبدادي بمعرفتي ، وإغفالي استشارتي ، وإعجابي بشدتي ، وإضاعتي الحيلة في وقت حاجتي ، والتأني عند عجلتي) .

ولمَّا أُحيط بمروان الجَعْدِي[2] ـ وهو آخر ملوك بني أمية ـ . . قال : (يا لهفاهُ علىٰ دولةٍ ما نُصِرَتْ ، وكفٍّ ما ظَفِرَتْ ، ونعمةٍ ما شُكِرَتْ .

فقال له خادمه بسيل ـ وكان من أولاد أشراف الروم ـ : من أغفلَ الصغيرَ حتىٰ يكبر ، والقليلَ حتىٰ يكثر ، والخفيَّ حتىٰ يظهر . . أصابه مثلُ هـٰذا)[3] .

---

(١) أورده في « المحاسن والمساوئ » (ص ١٥٥) .

(٢) في (ز) : (بمروان الحمار) ، وهو الجعدي نفسه .

(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣١٣/١) ، وفي (ب ، هـ ، د) : (خادمه نسيل) ، و(ج) : (خادمه نستل) .

وسُئِل بعض العلماء : ما الذي أذهب ملك بني مروان ؟ قال : تحاسدُ الأَكْفاء ، وانقطاعُ الأخبار ؛ وذٰلك أنَّ يزيدَ بن عمر كان يُحب أن يضعَ من نصرِ بن سَيَّار ، فكان لا يمده بالرجال ، ولا يرفع إلى السلطان ما يَرِدُ عليه من أخبار خراسان ، فلما رأىٰ ذٰلك نصر بن سيار . . قال[1] : [من الوافر]

أَرَىٰ خَلَلَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ نَارٍ ... فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ
فَإِنَّ ٱلنَّارَ بِٱلْعُودَيْنِ تُذْكَىٰ ... وَإِنَّ ٱلْحَرْبَ أَوَّلُهَا ٱلْكَلَامُ
فَقُلْتُ تَجَاهُلاً يَا لَيْتَ شِعْرِي ... أَأَيْقَاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ

وكان العباسيون يؤسِّسون لدولتهم ، ولا تصل أخبارهم إلىٰ سلطان بني أمية ، حتى استفحل أمرُهم ، وضعف أمرُ بني أمية .

* * *

وسُئِلَ مروانُ بنُ محمدٍ الجَعْديُّ ـ وهو آخر ملوك بني أمية ـ : (ما الذي أضعف ملكك بعد قوة السلطان ، وثبات الأركان ؟ فقال : الاستبدادُ برأيي ؛ لمَّا كثرتْ عليَّ كتبُ نصرِ بنِ سَيَّارٍ أَنْ أَمُدَّه بالأموال والرجال . . قلتُ في نفسي : هٰذا رجلٌ يريد الاستكثار من الأموال بما يظهر من فساد الدولة قبله ، وهيهات أن تنتقض عليَّ خراسان) ، فانتقضت دولته من خراسان[2] .

* * *

(١) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (١/١٢٨) ، و« العقد الفريد » (٤/٤٧٧ ـ ٤٧٨) .
(٢) أورده مختصراً في « وفيات الأعيان » (٣/١٥١) .

الباب الثالث عشر
في الصفات الذاتية التي زعم الحكماء أنه لا تدوم معها مملكة ومن أعجب العجاب .. دوام الملك مع الكبر والإعجاب !

اعلموا رحمكم الله : أنَّ الكِبْرَ والإعجاب يسلبان الفضائل ، ويُكسبان الرذائل ؛ لأن الكِبْرَ يكونُ بالمنزلة ، والعُجْبَ يكونُ بالفضيلة .

والمتكبرُ يُجِلُّ نفسه عن رتبةِ المتعلِّمين ، والمُعجَبُ يستكثرُ فضلَه عن استزادة المتأدِّبين ، وحسبُك من رذيلة تمنع من سماع النصح ، وقَبول التأديب ؛ فالكِبْرُ يُكسب المَقْت ، ويمنع من التآلف[1] .

وكلُّ كبر ذَكَره الله تعالىٰ في القرآن فمقرونٌ بالشرك ؛ ولذٰلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم للعباس : « أَنْهَاكَ عَنِ ٱلشِّرْكِ بِٱللهِ وَٱلْكِبْرِ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يَحْتَجِبُ مِنْهُمَا »[2] .

وقال أَرْدَشِيرُ بن بابَك : (ما الكِبْرُ إلا فضلُ حُمق ، لم يدرِ صاحبُه أين يذهب به ، فصرفه إلى الكِبْر)[3] .

وقال الأحنفُ بنُ قيس : (ما تكبَّر أحدٌ إلا من ذِلَّة يجدُها في نفسِه)[4] .

ولم تزل الحكماء تتحامى الكِبْرَ وتأنف منه .

---

(١) في (أ ، ج ، د) : (التأليف) ، و(ز) : (التأله) .

(٢) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٦٠٠) من وصية سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام لابنه ، ويحتجب منهما : لا يغفر لصاحبهما .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٣٧٦) .

(٤) أورده بنحوه في « البيان والتبيين » (٤/٧٠ ـ ٧١) من كلام سيدنا معاوية رضي الله عنه لمحمد بن الأشعث بحضور الأحنف بن قيس رحمهما الله تعالىٰ .

قال الشاعر[1] : [من الطويل]

فتىً كَانَ عَذْبَ ٱلرُّوحِ لَا مِنْ غَضَاضَةٍ وَلَـٰكِنَّ كِبْـراً أَنْ يُقَـالَ بِـهِ كِبْـرُ

ونظر أفلاطون إلىٰ رجل جاهل مُعجَب ، فقال له : (وَدِدْتُ أني مثلُك في ظنك ، وأن أعدائي مثلُك في الحقيقة)[2] .

قالت الحكماء : وقد يدوم الملك مع معظم النقائص ؛ فرُبَّ فقيرٍ ساد قومه ، ورُبَّ أحمقَ رَأَسَ عشيرته ؛ منهم : الأقرعُ بنُ حابسٍ ، الذي قال فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « ذَٰلِكَ ٱلْأَحْمَقُ ٱلْمُطَاعُ »[3] .

قالوا : (ولا يدوم الملك مع الكِبْرِ)[4] ، وحَسْبُكَ من رذيلة تَسلبُ السيادة .

وأعظمُ من ذٰلك : أنَّ الله تعالىٰ حرَّمَ الجنة على المتكبرين ؛ فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾[5] ، فقَرنَ الكِبْرَ بالفساد ، ومنعا من دخول الجنة .

وتلا بعض العلماء الكبار هٰذه الآية فقال : (اللهمَّ ؛ إنك تعلم أنِّي لا أحبُّ الفساد في الأرض ، وأما العُلوُّ . . فلا يكاد أحد يسلم منه) .

وقال عز وجل : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[6] .

وقال بعض الحكماء : (ما رأيت متكبراً قطُّ إلا تحوَّل داؤه فيَّ)[7] يعني : أني أتكبر عليه .

---

(١) البيت لأبي تمام في « ديوانه » (٨٢/٤) .

(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢٢/١) .

(٣) في « المعارف » (ص ٣٠٣) ، و« الاستيعاب » (ص ٥٩٠) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هٰذا الكلام لعيينة بن حِصن رضي الله عنه .

(٤) أورده في « المستطرف » (٤٠٤/١) .

(٥) سورة القصص : (٨٣) .

(٦) سورة الأعراف : (١٤٦) .

(٧) أورده في « عيون الأخبار » (٢٧٢/١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٨٣) عن الأصمعي عن رجل .

واعلم : أنَّ الكِبْرَ يُوجب المَقْت ، ومن مَقَته رجالُه . . لم يستقم حالُه ، ومن أبغضته بِطانتُه . . كان كمن غَصَّ بالماء ، ومن كَرِهَه الحُماةُ . . تطاولت عليه الأعداء .

وأما الإعجابُ : فيحملُه على الاستبدادِ بالرأي ، وتركِ مشوراتِ الرجالِ .

* * *

ومن الصفات التي لا تقوم معها المملكة : الكذبُ ، والغدرُ ، والخبثُ[(١)] ، والجَوْرُ ، والسُّخف .

وقد قالت حكماء العرب والعجم : (ستُّ خصالٍ لا تغتفر من السلطان : الكذبُ ، والخلفُ ، والحسدُ ، والحدة[(٢)] ، والبخل ، والجبن ؛ فإنه إذا كان كذاباً . . لم يوثقْ بوعده ولا بوعيده ، فلم يُرْجَ خيرُه ، ولم تخفْ سطوتُه[(٣)] ، ولا بهاءَ لسلطان[(٤)] لا يُرهَب)[(٥)] .

وقالت الحكماء : (خرابُ البلاد وفسادُ العباد مقرونان بإبطال الوعد والوعيد من الملوك)[(٦)] .

والكذب أسقط الأخلاق ، وأغلب شيء على صاحبه ، وأحرىٰ ألَّا يُنزعَ عنه لضَراوته .

وقيل لأعرابي : (لم لا تكذب ؟ فقال : لو تعززت به . . ما تركته) .

وهو نوعٌ من الفحش ، وضَربٌ من الدناءة ، وأصله : استعذاب المُنىٰ ، وهو أضغاثُ فكر الحمقىٰ ، ومن بليته أنه يحمل علىٰ صاحبه ذنبَ غيره ، فإذا

---

(١) في (أ ، ز) : (والحنث) ، وفي (و) : (الخب) .
(٢) في (أ) : (والجرأة) .
(٣) في (ز) : (ولم يخف شره) .
(٤) في (د) : (ولا بقاء لسلطان) .
(٥) انظر « الفخري في الآداب السلطانية » (ص ٢٧) .
(٦) أورده في « الفخري في الآداب السلطانية » (ص ٤٩) ، وفيه : (وقالت الفرس) .

سمعت كذبة طائحة[١] .. نسبت إليه ، قال الشاعر[٢] : [من مجزوء الكامل]

حَسْبُ ٱلْكَذُوبِ مِنَ ٱلْمَهَا ... نَةِ بَعْضُ مَا يُحْكَىٰ عَلَيْهِ
فَإِذَا سَمِعْتَ بِكَذْبَةٍ ... مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ

وقال غيره[٣] : [من مجزوء الكامل]

لِي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنُمُّ ... وَلَيْسَ فِي ٱلْكَذَّابِ حِيلَهْ
مَنْ كَانَ يَخلُقُ مَا يَقُو ... لُ فَحِيلَتِي فِيهِ قَلِيلَهْ

وقال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾[٤] .

وأما الحسد : فإنه إذا كان حسوداً .. لم يُشرِّفْ أحداً[٥] ، وإذا ضاعت الأشراف .. هلكت الأتباع ، ولا يصلحُ الناسُ إلا علىٰ أشرافهم ، قال الأَفْوَهُ الأَوْدِيُّ[٦] : [من البسيط]

لَا يَصْلُحُ ٱلنَّاسُ فَوْضَىٰ لَا سَرَاةَ لَهُمْ ... وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

وأما البخل : فإنه إذا كان بخيلاً .. لم يناصحه أحد ، ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة ، وليس للمَلكِ أن يبخل ؛ لأن بيوت الأموال في يديه .

وأما الجبن : فإنه إذا كان جباناً .. اجترأ عليه عدوُّه ، وضاعت ثغوره ، وإذا كان حديداً[٧] غضوباً والقدرة من ورائه .. هلكت رعيتُه ، وليس للملك أن يغضب ؛ لأن القدرة من وراء حاجته .

---

(١) في (ج ، هـ) : (طامحة) ، و(ز) : (طالحة) .
(٢) أورد البيتين في « عيون الأخبار » (٢/٢٨) ، و« زهر الآداب » (١/٤٢٨) .
(٣) أورد البيتين في « معجم الشعراء » (ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩) لمحمود بن مروان بن أبي الجنوب ، و« بهجة المجالس » (١/٤٠٤) لمنصور الفقيه .
(٤) سورة النحل : (١٠٥) .
(٥) لم يشرِّف : لم يعظِّم .
(٦) في « ديوانه » (ص ٦٦) ، لا سَراة لهم : لا رؤساء لهم .
(٧) في (أ) : (حريداً) .

ولمَّا دخل أُسقُف نجران علىٰ مصعب بن الزبير . . ضَربَ وجهَه بالقضيب فأدماه ، فقال الأُسقف : (إن شاء الأمير . . أخبرته بما أنزل الله تعالىٰ علىٰ عيسىٰ عليه السلام : لا ينبغي للإمامِ أن يكونَ سفيهاً ومنه يُلتمس الحِلمُ ، ولا جائراً ومنه يُلتمس العدلُ)[(١)] .

* * *

وقال الأوزاعي : (يَهلِكُ السلطانُ بالإعجاب والاحتجاب) .

فأما الإعجاب : فقد ذكرناه ، وأما الاحتجاب : فهو أوحى الخلال في هدم السلطان[(٢)] ، وأسرعُها خراباً للدول ؛ فإنه إذا احتجب السلطان . . فكأنه قد مات ؛ لأن الحِجْبَةَ موتٌ حكمي ، فَتعيث بطانتُه في أرواح الخلائق وحريمهم وأموالهم ؛ لأن الظالم قد أَمِنَ ألَّا يصل المظلوم إلى السلطان .

ومعظم ما رأينا في أعمارنا وسَمِعنا عمَّن سبقنا من دخول الفساد على الملوك من حجبتهم عن مباشرة الأمور ، ولا تزال الرعية ذا سلطان واحد ما وصلوا إلىٰ سلطانهم ، فإذا احتجب . . فهناك سلاطين كثيرة .

يا أيُّها الملك المغرور ، احتجبتَ عن الرعية بالحجاب والأبواب ، وجعلتَ دونهم بروجاً مشيدة ، وحظائر بالحجارة والماء والطين مانعة ، وبابُ الله مفتوح للسائلين ، ليس هناك حاجب ولا بواب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾[(٣)] .

* * *

وقال معاوية : (ليس بين أن يملكَ السلطانُ رعيتَه أو تملِكَه إلا الحزمُ والتواني ، وكماله أمران : شدةٌ في غير إفراط ، ولينٌ في غير امتهان)[(٤)] .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٢٣) ، وأورده في « بهجة المجالس » (١/٣٣٩) .

(٢) أوحى الخلال : أسرعها .

(٣) سورة الفرقان : (٥٧) .

(٤) أورده في « لباب الآداب » (ص ٣٥) إلىٰ قوله : (والتواني) ، وأما الباقي : فقد أورده الكتاب←

وسئل بُزُرْجُمِهْر : (أيُّ الملوك أحزم ؟ قال : مَنْ مَلَكَ جِدُّه هَزْلَه ، وقَهَرَ لبُّه هواه ، وأعربَ عن ضميرِه فعلُه ، ولم يختدعه رضاه عن خطئه ، ولا غضبُه عن كيدِه)(١) .

وقال بعض الحكماء : (زوالُ الدول في اصطناع السُّفَّل ، ومن طال عُدوانُه .. زال سلطانُه)(٢) .

وقالوا : (من لم يستظهر باليَقَظة .. لم ينتفع بالحَفَظة)(٣) .

وقال يحيى بن خالد : (أحسنُ ما وجدت في طراز الحكم من البلاغة : البخلُ والجهل مع التواضع خيرٌ من السخاء والعلم مع الكبر ، فيا لها حسنةً غطَّتْ على سيئتين ، ويا لها سيئةً غَطَّت على حسنتين !)(٤) .

❋ ❋ ❋

← المذكور في الصفحة نفسها من قول زياد بن أبيه .

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٤/٣٠١١) ، و« الجليس الصالح » (٣٠٧/١) دون نسبة .

(٢) قوله : (زوال الدول ...) تقدم (ص ٢٠٧) ، وأما قوله : (ومن طال ...) : فأورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٧٩) .

(٣) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٧٩) .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ١٠١ ـ ١٠٢) .

الباب الرّابع عشر
في الخصال المحمودة في السلطان

وقد اتفقت العلماء والحكماء عليها فقالوا : (أيها الملك ؛ إن قَصُرَتْ همَّتُك وقوتُك عن عدوك . . فتخلَّق بالأخلاق الجميلة التي ليس لعدوك مثلها ؛ فإنها أنكئ فيه من الغارة الشعواء) .

وقال معاويةُ لصعصعة بن صُوحان : (صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : كان عالماً برعيته ، عادلاً في قضيته ، عارياً من الكِبْر ، قَبُولاً للعذر ، سهلَ الحجاب ، مصونَ الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غيرَ مُحابٍ للقوي ، ولا جافٍ للقريب)(١) .

وقالوا : (المنفعة توجبُ المحبة ، والمَضرَّةُ توجبُ البِغْضَة .

والمضادَّة توجب العداوة ، والمتابعةُ توجب الأُلفة .

والصدقُ يوجب الثقة ، والأمانةُ توجب الطمأنينة .

والعدلُ يوجب اجتماع القلوب ، والجَوْرُ يوجب الفرقة .

وحسنُ الخلق يوجب المودة ، وسوءُ الخلق يوجب المباعدة .

والانبساطُ يوجب المؤانسة ، والانقباضُ يوجب الوحشة .

والكِبْرُ يوجب المَقت ، والتواضعُ يوجب المِقَة(٢) .

والجودُ يوجب الحمد ، والبخلُ يوجب المذمة .

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (١/٣٥) .

(٢) المقة : المحبة .

والتواني يوجب التضييع ، والجدُّ يوجب رجاء الأعمال .
والهُوَيْنَىٰ توجب الحسرة ، والحزمُ يوجب السرور .
والتغريرُ يوجب الندامة ، والحذرُ يوجب العُذْر .
وإصابةُ التدبير توجب بقاء النعمة)(١) .
وبالتأني تسهل المطالب ، وبلين كنف المعاشرة تدوم المودة .
وبخفض الجانب تأنس النفوس ، وبسَعة خلق المرء يطيب عيشه .
والاستهانة توجب التباعد ، وبكثرة الصمت تكون الهيبة .
وبعدل المنطق تجب الجلالة ، وبالنَّصَفة تكثر المواصلة .
وبالإفضال يعظم القدر ، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال .
وباحتمال المؤن يجب السُّؤدَد ، وبالحِلم على السفيه تكثر أنصارك عليه .
وبالرفق والتودد يُستحق اسم الكرم ، وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل .

* * *

واعلم : أن السياسة تكسو أهلها المحبة ، والفظاظةَ تخلع عن صاحبها ثوب القَبول .
ومن صِغَرِ الهِمَّة الحسدُ للصديق على النعمة .
والنظرُ في العواقب نجاة .
ومن لم يحلُم . . ندم ، ومن صبر . . غَنِم .
ومن سكت . . سَلِم ، ومن خاف . . حَذِر .
ومن اعتبر . . أبصر ، ومن أبصر . . فَهِم .
ومن فهم . . علم ، ومن أطاع هواه . . ضل .

---

(١) أورده الجاحظ في « المعاش والمعاد » ضمن رسائله (١/١١٠) .

ومع العجلة الندامة ، ومع التأنِّي السلامة .

وزارع البر يحصُد السرور .

وصاحب العاقل مغبوط ، وصديق الجاهل تَعِب .

إذا جهلت . . فاسأل ، وإذا زَلَلْتَ . . فارجع .

وإذا أسأت . . فاندم ، وإذا ندمت . . فأقلع .

وإذا أفضلت . . فاكتم ، وإذا منعت . . فأجمل ، وإذا أعطيت . . فأجزل .

وإذا غضبت . . فاحلُم .

من بدأك ببره . . فقد شغلك بشكره .

المروءات كلُّها تبع العقل ، والرأيُ تبع التجربة .

العقلُ أصلُه التثبتُ وثمرتُه السلامة ، والتوفيق أصلُه العقلُ وثمرتُه النُّجْح .

والتوفيق والاجتهاد زوجان ؛ فالاجتهاد سبب ، والتوفيق ينجح بالاجتهاد ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ (١) .

والأعمال كلها تبع للقدر .

واختار الحكماء أربع كلمات من أربعة كتب :

من التوراة : (من قَنِعَ . . شَبِع) .

ومن الزبور : (من سكتَ . . سَلِم) .

ومن الإنجيل : (من اعتزل . . نجا) .

ومن القرآن : ﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة العنكبوت : (٦٩) ، زيد في (ب ، و) : (وقد كنت شرعت كتاباً في أن التوفيق : هل هو كسب للعبد ؟ وهل إلى اقتناصه سبيل أم لا ؟) .

(٢) سورة آل عمران : (١٠١) .

الحِلمُ شرفٌ ، والصبرُ ظَفَرٌ ، والمعروفُ كنزٌ ، والجهلُ سَفَهٌ ، والأيام دولٌ ، والدهر غِيَرٌ .

والمرء منسوبٌ إلىٰ فعله ، ومأخوذ بعمله .

اصطنعوا المعروف . . تكتسبوا الحمدَ .

أكرموا الجليس . . يعمُر ناديكم .

أنصفوا من أنفسكم . . يوثق بكم .

إياكم والأخلاقَ الدنيئة ؛ فإنها تضعُ الشرف ، وتَهدِمُ المجد .

نهنهةُ الجاهل أهونُ من جَريرته [١] .

رأس العشيرة يحملُ أثقالها .

وأجمعت حكماءُ العرب والعجم علىٰ أربع كلمات فقالوا : (لا تحمل ظنك ما لا تطيق ، ولا تعمل عملاً لا ينفعك ، ولا تغتر بامرأة ، ولا تثق بمال وإن كثر) [٢] ، والله أعلم .

* * *

(١) نهنهة الجاهل : كفه وزجره ، وجريرته : ذنبه .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/٢٥٨) .

الباب الخامس عشر
في بيان الخصلة التي يُعزُّ بها السلطان ، وهي الطاعة

قال ملك فارس لمُوبَذان مُوبَذ : (ما شيءٌ واحد يُعَزُّ به السلطان ؟ قال : الطاعة ، قال : فما مِلَاكُ الطاعة ؟ قال : التوددُ إلى الخاصة ، والعدلُ على العامة ، قال : صدقت)(١) .

الأمانة مَعقِل الطاعة ، والطاعة زينة الملك .

وكان يقال : (طاعة السلطان علىٰ أربعة أوجه : على الرغبة ، والرهبة ، والمحبة ، والديانة)(٢) .

ولمَّا دخل سعدُ العشيرة علىٰ بعض ملوك حِمير . . قال له : (يا سعدُ ؛ ما صلاحُ الملك ؟ قال : مَعدِلةٌ شائعة ، وهيبةٌ وازعة ، ورعيَّةٌ طائعة ؛ فإنَّ في المَعدِلةِ حياةَ الأنام ، وفي الهيبة نفيَ الظلام ، وفي طاعة الرعية التألفَ والالتئام)(٣) .

طاعةُ الأئمة فرضٌ على الرعية .

طاعةُ السلطان مقرونة بطاعة الله تعالىٰ .

اتقوا اللهَ بحقه ، والسلطانَ بطاعته .

من إجلال الله تعالىٰ إجلالُ السلطان عادلاً كان أو جائراً .

الطاعةُ تؤلف شمل الدين ، وتنظم أمر المسلمين ، عصيانُ الأئمةِ يَهدِمُ أركان الملة .

---

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (٥/٢١٨) ، ومُوبَذان مُوبَذ : لقب عند المجوس ، كقاضي القضاة للمسلمين .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/٧) .
(٣) رواه في « الجليس الصالح » (١/٥٢٧) ، وأورده في « محاضرات الأدباء » (١/٣٤٦) .

الطاعةُ مِلاكُ الدين .

الطاعةُ مَعقِلُ السلامة ، وأرفعُ منازل السعادة .

الطاعةُ الطريقةُ المثلىٰ والعروةُ الوثقىٰ .

قِوامُ الأمة وقيامُ السنة بطاعة الأئمة .

الطاعةُ عصمةٌ من كل فتنة ، ونجاةٌ من كل شبهة .

طاعةُ الأئمة عصمةٌ لمن لجأ إليها ، وحِرزٌ لمن دخل فيها .

وليس للرعية أن تعترض على الأئمة في تدبيرها وإن سوَّلت لها أنفسُها ، بل عليها الانقياد ، وعلى الأئمة الاجتهاد .

بالطاعة تُقام الحدود ، وتُؤدّى الفرائض ، وتُحقَنُ الدماء ، وتؤمنُ السبل .

أولى الناسِ بطاعةِ السلطان ومناصحتِه : أهلُ الدين والنِّعَم والمروءات ؛ إذ لا يقومُ الدين إلا بالسلطان ، ولا تكونُ النعمُ والحرمُ محفوظة إلا به .

الإمامةُ عصمةٌ للعباد ، وحياةٌ للبلاد ، أوجبَ الله تعالىٰ لمن خصه بفضلها وحمَّله عِبْأَها الطاعةَ ، فقرنها بطاعته وطاعةِ رسوله ؛ فقال اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ (١) .

طاعةُ الأئمة هدىً لمن استضاء بنورها ، وموئلٌ لمن حافظ عليها .

❊ ❊ ❊

الخارجُ من الطاعة منقطعُ العصمة ، بريءٌ من الذمة ، مبدلٌ بالكفر النعمة .

طاعةُ الأئمةِ حبلُ الله المتين ، ودينُه القويم ، وجُنَّتُه الواقية ، وكفايتُه العالية (٢) .

إيَّاكم والخروجَ من أُنس الطاعة إلىٰ وَحْشة المعصية ، ولا تُسِرُّوا غشَّ الأئمة ، وعليكم بالإخلاص والنصيحة .

---

(١) سورة النساء : (٥٩) .

(٢) في (أ) : (وكنانته الغالبة) ، و(ب) : (وكفايته الغالبة) ، و(و) : (في كفالته العالية) .

ما مشىٰ قومٌ إلىٰ سلطان لِيُذِلُّوه إلا أذلهم الله قبل أن يموتوا .

الطاعةُ مقرونةٌ بالمحبة ، طاعةُ المحبةِ أفضلُ من طاعة الهيبةِ .

للرعية على السلطان : الاستصلاحُ لهم ، والتعهدُ لأمورهم ، وحسنُ السيرة فيهم ، والعدلُ عليهم ، والتعديلُ بينهم ، وحقُّ السلطان عليهم : الطاعةُ ، والاستقامةُ ، والشكرُ ، والمحبةُ .

بالرعية من الحاجة إلى الراعي ما ليس بالراعي من الحاجة إليهم ؛ لولا الرُّعاةُ . . هلكت الرعية ، ولولا المُسيم . . هلكت السَّوام [١] .

* * *

(١) المُسيم : الراعي .

الباب السّادس عشر
في بيان الخصال التي هي ملاك أمور السلطان

قال سليمان بن داوود عليهما السلام : (الرحمةُ والعدلُ يَحْرُزانِ المُلْك)[1] .

وقال زياد : (مِلاكُ السلطان ثلاثة أشياء : الشدةُ على المذنب ، والمجازاةُ للمحسن ، وصدقُ القول)[2] .

ولمَّا غزا سابور ذو الأكتاف ملكَ الروم ، وأخرب بلادَه ، وقتل جنودَه ، وأفنىٰ بطارقتَه . . قال له ملكُ الروم : (إنك قد قتلتَ وأخربت ، فأخبرني : ما الأمرُ الذي تشبثتَ به حتىٰ قويتَ علىٰ ما أرىٰ ، وبلغتَ في السياسة ما لم يبلغه ملك ؛ فإن كان مما يُضبطُ الأمرُ بمثله . . أديتُ إليك الخَراج ، وصرتُ كبعض الرعية في الطاعة لك ؟

فقال له سابور : إنّي لم أزِدْ في السياسة علىٰ ثمانِ خصالٍ : لم أَهزِلْ في أمر ولا نهي ، ولم أُخلِفْ في وعد ولا وعيد ، ووليَّتُ أهلَ الكِفاية ، وأَثَبْتُ على العَناء لا على الهوىٰ ، وضربتُ للأدب لا للغضب ، وأودعتُ قلوب الرعية المحبةَ من غير جرأة والهيبةَ من غير ضغينة ، وعَمَّمتُ بالقوت ، ومنعتُ الفضول) ، فأذعن له ، وأدىٰ إليه الخَراج[3] .

وكتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج أن يكتب إليه بسيرته ، فكتب إليه : (إني أيقظت رأيي ، وأنمتُ هواي ، وأدنيت السيد المطاع في قومه ،

---

(١) تقدم (ص ١٩٨) .

(٢) أورده في « بهجة المجالس » (١/٣٣٤) من قول قتيبة بن مسلم رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « بهجة المجالس » (١/٣٣٧) ، و« عيون الأخبار » (١/١٠) دون نسبة .

وولَّيتُ الحربَ الحازمَ في أمره ، وقلَّدتُ الخراج الموفيَ لأمانته ، وقسمتُ لكل خصم من نفسي قسماً يعطيه حظاً من نظري ولطيف عنايتي ، وصرفتُ السيف إلى النَّطِفِ المسيء ، فخافَ المُرِيبُ صولةَ العقاب ، وتمسَّكَ المحسنُ بحظه من الثواب)[1] .

وقال أبو عبيدة : (إذا كان الملكُ مُحصِّناً لسِرّه ، بعيداً من أن يُعرَفَ ما في نفسه ، متخيِّراً للوزراء ، مهيباً في أنفس العامة ، مُكافِئاً بحسن البلاء ، لا يخافُه البريء ، ولا يأمنُه المجرم . . كان خليقاً ببقاء ملكه)[2] .

* * *

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٠) ، و« العقد الفريد » (١/٢٢ ـ ٢٣) ، والنَّطِفُ : المتهم بريبة .
(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (٦/٢٤١) ، و« عيون الأخبار » (١/٢٨) دون نسبة .

الباب السابع عشر
في معرفة خير السلطان وشر السلطان

أفضلُ الملوك : مَنْ كان شِرْكةً بين الرعايا ؛ لكلٍّ واحد منهم فيه قِسطُه ، ليس أحدٌ أحقَّ به من أحد ، لا يطمعُ القويُّ في حَيْفِه ، ولا ييئسُ الضعيفُ من عدله .

وقد كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم يأخُذُ بيدِ الأَمَةِ من إماء المدينة ، فتطوفُ به حتىٰ يقضِيَ حاجتَها (١) .

وفي حِكَمِ الهند : (خير السلطان : من أَمِنَه البريء ، وخافَه المجرم ، وشرُّ السلطان : من خافه البريء ، وأَمِنَه المجرم) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمغيرة لمَّا ولَّاه الكوفة : (يا مغيرة ؛ لِيأمَنْكَ الأبرارُ ، ولْيَخَفْكَ الفُجَّار) (٢) .

وفي حكم الهند أيضاً : (شرُّ المال : ما لا يُنفق منه ، وشرُّ الإخوانِ : الخاذل ، وشرُّ السلطان : مَنْ خافه البريء ، وشرُّ البلاد : ما ليس فيه خِصْبٌ ولا أمن ، وخيرُ السلطان : مَنْ أشبهَ النَّسْرَ حوله الجِيَف ، لا من أشبه الجيفة وحولها النسور) (٣) .

وعن هٰذا المعنىٰ قالوا : (سلطانٌ تخافه الرعيةُ خيرٌ للرعية من سلطان يخافها) (٤) .

---

(١) رواه البخاري (٦٠٧٢) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبري في « تاريخه » (٤/١٦٥) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/٣) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (١/٣) دون نسبة ، و« الإعجاز والإيجاز » (ص ٧٤) من قول الحجاج .

وفي الأمثال العامة : (رَهَبوتٌ خيرٌ من رَحَموت)[1] .

وكان يقال : (شرُّ خصالِ الملوك : الجبنُ عن الأعداء ، والقسوةُ على الضعفاء ، والبخلُ عند الإعطاء)[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ثلاثةٌ من الفواقر : جارٌ ملازم إن رأىٰ حسنة . . سترها ، وإن رأىٰ سيئة . . أذاعها ، وامرأةٌ إن دخلتَ عليها . . لَسَنَتْك ، وإن غبتَ عنها . . لم تأمنها ، وسلطانٌ إن أحسنتَ . . لم يحمدك ، وإن أسأتَ . . قتلك)[3] .

وقال رجل لبعض العلماء : (متىٰ أَضِلُّ وأنا أعلم ؟ فقال : إذا ملكتك أمراء إن أطعتهم . . أذلوك ، وإن عصيتهم . . قتلوك)[4] .

وقال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك : (السلطانُ سوقٌ ؛ ما نَفَقَ عنده . . أُتِيَ به)[5] .

وفي كتاب ابن المُقَفَّع : (الناسُ علىٰ دين السلطان إلا القليل ؛ فإن يكن للبرِّ والمروءةِ عنده نَفاقٌ . . فسَيكسُدُ بذٰلك الفجورُ والدناءةُ في آفاق الأرض)[6] .

وسمع زياد رجلاً يذمُّ الزمان فقال : (لو كان يدري ما الزمانُ . . لعاقبته ؛ إن الزمان هو السلطان)[7] .

---

(١) أورده في « جمهرة اللغة » (٣٣٢/١) ، و« مجمع الأمثال » (٣٥/٢) ، ومعناه : أن تُرهبَ خيرٌ من أن تُرحم .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٩٧٣) ، وأورده القالي في « الأمالي » (١٩٨/١) .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (١٤٠٣) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٣/١) ، والفواقر : جمع فاقرة ؛ وهي الداهية ، كأنها التي تحطم الفقار .

(٤) رواه الحاكم (٤٦٢/٤) عن عبد الرحمٰن بن بشير الأنصاري رحمه الله تعالىٰ : أن رجلاً أتىٰ سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . . . الحديث .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٠٤٠) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/١) من قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ .

(٦) الدرة اليتيمة (ص ٧٥ ـ ٧٦) بنحوه ، وأورده في « عيون الأخبار » (٢/١) بهٰذا اللفظ .

(٧) أورده في « عيون الأخبار » (٥/١) ، و« الكامل » (٣٤٩/١) .

وقال معاوية لابن الكَوَّاء : (صِفْ لي الزمان ، فقال : أنت الزمان ؛ إنْ تصلحْ . . يصلحْ ، وإنْ تفسُدْ . . يفسدْ)[1] .

والمثلُ السائرُ في كلِّ زمان وعلىٰ كل لسان : (الناس علىٰ دين الملوك)[2] .

وقال بعض الحكماء : (إنَّ أحقَّ الناس أن يُحذَر : العدوُّ الفاجرُ ، والصديقُ الغادرُ ، والسلطانُ الجائر)[3] .

وقال بُزُرْجُمِهْر : (أَدْومُ التَّعبِ : خدمةُ السلطان السيئِ الخُلُق)[4] .

وقال بعض الحكماء : (إذا ابتُلِيتَ بصحبة سلطان لا يريد صلاح رعيته . . فقد خيرت بين أمرين ليس بينهما خيار : إمَّا الميلُ مع الوالي على الرعية فهو هلاكُ الدين ، وإمَّا الميلُ مع الرعية على الوالي فهو هلاكُ الدنيا ، فلا حيلة لك إلا الموتُ أو الهربُ منه)[5] .

وقالوا : (الملكُ العادلُ كالنهر الصافي ؛ ينتفعُ به الأشرارُ والأخيار ، ولا يَضرُّ أحداً ، والملكُ السوء مثل الجيفة ؛ يسرع إليها شرار الحيوان ، ويتحاماها الناس) .

❋ ❋ ❋

(١) أورده في « بهجة المجالس » (١/٣٣٩) .

(٢) أورده في « مجمع الأمثال » (٣/٤٨٧) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٧) من قول عامر بن الظَّرب .

(٤) أورده بنحوه في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣١) دون نسبة .

(٥) أورده ابن المقفع في « الدرة اليتيمة » ضمن رسائل البلغاء (ص ٧٩) .

الباب الثامن عشر

في منزلة السلطان من القرآن

رُوي أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال : « إنَّ ٱللهَ لَيَزَعُ بِٱلسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِٱلْقُرْآنِ »(١) ؛ معناه : يدفع .

وقال كعب : (مَثَلُ الإسلامِ والسلطانِ والناسِ : مَثَلُ الفُسطاطِ والعَمُودِ والأطنابِ والأوتاد ؛ فالفُسطاطُ الإسلام ، والعَمُودُ السلطان ، والأطنابُ والأوتادُ الناس ، لا يَصلُحُ بعضُهم إلا ببعض)(٢) .

وقال أَرْدَشِير لابنه : (يا بُني ؛ إنَّ المُلْكَ والدِّينَ أَخوانِ لا غِنَىٰ بأحدهما عن الآخر ؛ فالدينُ أُسٌّ ، والمُلكُ حارسٌ ، وما لم يكن له أُسٌّ .. فمهدوم ، وما لم يكن له حارس .. فضائع .

يا بُني ؛ اجعل حديثَكَ معَ أهل المراتب ، وعَطيتَك لأهل الجهاد ، وبِشْرَكَ لأهل الدين ، وسرَّكَ لمن عَناه ما عَناك ، ولتكن من أهل العقل)(٣) .

وكان يقال : الدين والسلطان توءمان .

❋ ❋ ❋

(١) رواه ابن شبة في « تاريخ المدينة » (٣/٩٨٨) ، وأورده المبرد في « الكامل » (١/٣٥٠) موقوفاً علىٰ سيدنا عثمان رضي الله عنه ، ورواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٤/٣٢٩) موقوفاً علىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) رواه في « عيون الأخبار » (١/٢) ، وأورده في « العقد الفريد » (١/٨ ـ ٩) ، والأطناب : جمع طُنُب ؛ حبلٌ يُشَدُّ به الخباء والسرادق ونحوهما .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٣) .

الباب التاسع عشر
في خصال جامعة لأمر السلطان

قالوا : (ظَفَرُ الملك بعَدُوّه علىٰ حَسَبِ عَدْلِه في رعيته ، ونكوبُه في حروبه علىٰ حسب جَوْرِهِ في عساكره ، وإصلاحُ الرعية أنفعُ من كَثرةِ الجنود) .

وقالوا : (تاجُ المَلِكِ عَفَافُه ، وحِصْنُه إنصافُه ، وسلاحُه كُفاتُه ، ومالُه رعيتُه)(١) .

وقالت حُكماء الهند : (لا ظَفَرَ مع بَغْي ، ولا صحةَ مع نَهَم ، ولا ثناءَ مع كِبْر ، ولا شرفَ مع سوء أدب ، ولا بِرَّ مع شُحّ ، ولا اجتنابَ مُحَرَّمٍ مع حِرص ، ولا ولايةَ حُكْمٍ معَ عَدَمِ فقه ، ولا سُؤْدَدَ معَ انتقام ، ولا ثباتَ مُلْكٍ مَعَ تهاوُنٍ وجَهالةِ وزراء)(٢) .

ولمَّا وَلِيَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه . . خطب فقال : (أيُّها الناس ؛ إنه لا أحدَ أقوىٰ عندي من المظلوم حتىٰ آخذَ له بحقه ، ولا أضعفُ من الظالم حتىٰ آخذَ الحقَّ منه)(٣) .

وقيل للإسكندر : (بِمَ نِلتَ ما نِلت ؟ قال : باستمالةِ الأعداء ، والإحسانِ إلى الأصدقاء)(٤) .

وقال بُزُرْجُمِهْر : (سُوسُوا أحرارَ الناس بمحض المودة ، والعامةَ بالرغبة والرهبة ، والسَّفِلةَ بالمخافة)(٥) .

---

(١) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦١) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٣٦) .

(٣) رواه ابن هشام في « السيرة » (٦٦١/٤) ، وأورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢٣٤/٢) .

(٤) أورده في « الصداقة والصديق » (ص ٢٧٣) .

(٥) أورده في « ديوان المعاني » (٨٣٥/٢) .

وقال المُوبَذَان : (السياسة التي بها صلاح الملك : الرِّفقُ بالرعية ، وأخذُ الحق منهم في غير مشقة ، وسدُّ الفروج ، وأمنُ السبل ، وأن يُنصفَ المظلوم من الظالم ، ولا يُحمل القوي على الضعيف)(١) .

* * *

وقالوا : الوالي من الرعية كالروح من الجسد لا حياةَ له إلا به ، وكالرأس من الجسد لا بقاء له إلا به .

وبُعدُ الوالي من إصلاح الرعية مع إفساد نفسه كبُعدِ الجسدِ من البقاء بعد ذهاب الرأس .

والسلطانُ خليقٌ أن يُعوِّدَ نفسَه الصبرَ علىٰ من خالف رأيَه من ذوي النصيحة والتجرُّعَ لمرارة قولهم .

ولا ينبغي أن يَحسُدَ الولاةَ إلا علىٰ حُسنِ التدبير ، ولا أن يكذِبَ ؛ لأن أحداً لا يقدر على استكراهه ، ولا أن يغضبَ ؛ لأنَّ الغضبَ والقدرةَ لَقاحُ الشر والندامة ، ولا أن يبخل ؛ لأنه أقلُّ الناس خوفاً من الفَقْر ، ولا أن يَحقِدَ ؛ لأنَّ قدرَه جَلَّ عن المجازاة(٢) .

ولا ينبغي للوالي أن يستعملَ سيفَه فيما يُكتفىٰ فيه بالسَّوْط ، ولا سَوطَه فيما يُكتفىٰ فيه بالحَبْس ، ولا حبسَه فيما يُكتفىٰ فيه بالجَفاء والوعيد .

وقال معاوية : (إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سَوْطِي ، ولا أضعُ سَوْطِي حيث يكفيني لساني ، ولو أنَّ بيني وبين الناسِ شَعرةً .. ما انقطَعَتْ ؛ إذا مَدُّوها .. خَلَّيْتُها ، وإذا خَلَّوْها .. مَدَدْتُها)(٣) .

---

(١) أورده في « لباب الآداب » (ص ٥٣) دون نسبة .

(٢) من قوله : (والسلطان خليق ...) إلىٰ قوله : (عن المجازاة) أورده في « المصون في الأدب » (ص ١٧٧) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/٩) ، و« العقد الفريد » (١/٢٥) .

ونحو هٰذا قول الشَّعبِي : (كان معاويةُ كالجَمَل الطَّبِ)[1] ، والجملُ الطَّبُّ : هو الحاذق بالمشي ، لا يضعُ يدَه إلا حيثُ تُبصِرُ عينُه .

وينبغي له أن يُعلِّمَ رعيته أنه لا يصاب خيرُه إلا بالمعونة له على الخير .

ولا ينبغي له أن يدعَ تفقدَ لَطِيفِ أمورِ الرعية اتكالاً علىٰ نظره في جسيمها ؛ فإن لِلَّطِيف موقعاً يُنتفع به ، وقد آتى الله تعالىٰ مُلكَ الدنيا سليمانَ بنَ داوودَ عليهما السلام ، ثم تفقد الطير فقال : ما لي لا أَرَى الهُدْهُد ؟ ولأن التهاون باليسير أساس الوقوع في الكثير ، وقد قال الشاعر[2] : [من المجتث]

لَا تَحْقِــــرَنَّ سُــبَيْباً كَــمْ جَــرَّ شَــرّاً سُــبَيْبُ

* * *

وقالوا : أصل الأشـياء كلِّها شـيءٌ واحد : لا يدع مباشـرة جسـيم أمر ؛ فللجسـيم موضع إن غُفِلَ عنه . . تفاقم ، ولا يُلزِمُ نفسـه مباشرة الصغير أبداً فيضيعَ الكبير .

وقال زياد لحاجبه : (ولَّيتُكَ حجابتي ، وعزلتك عن أربع : المؤذِّنِ للصلاةِ ، وصاحبِ الطعامِ ؛ فإنَّ الطعام إذا أعيد تَسخينُه . . فسد ، وصارخِ الليلِ ؛ لِشرٍّ دهاه ، وصاحبِ البريدِ ؛ فالتهاونُ بالبريد ساعةً يُخرّبُ عملَ سنة)[3] .

وكان أبو العباس السفَّاح يقول : (لأُعمِلَنَّ اللِّينَ حتىٰ لا ينفع إلا الشدة ، ولأُكثرَنَّ من الخاصة ما أَمِنتُهم على العامة ، ولَأُغمِدَنَّ سيفي حتىٰ يسُلَّه الحق ، ولأُعطِيَنَّ حتىٰ لا أرىٰ للعطية موضعاً)[4] .

وقال أَرْدَشِيرُ لَمَّا كملَ ملكَه ، وأبادَ أعداءَه : (إنه لم يحكم حاكم على العقول

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/٩) .

(٢) البيت لابن الرومي في « ديوانه » (١/٢٠٤) .

(٣) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١/٧١) ، والعسكري في « الأوائل » (ص ٢٠٦) .

(٤) أورده في « أنساب الأشراف » (٣/٢) ، و« بدائع السلك » (١/٤٥١) .

كالعبر ، ولم يُحكِمها مُحكِمٌ كالتَّجرِبة ، وليس شيء أجمعَ للعقل من خوف وحاجة يتأمَّلُ بها صفحاتِ حالهِ) .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (إن هٰذا الأمرَ لا يَصلُحُ له إلا اللِّينُ في غير ضعفٍ ، والقوةُ في غيرِ عُنف)[1] .

* * *

وقال الأصمعي : (قال لي الرشيد : هل تعرف كلمات جامعات لمكارم الأخلاق ، يَقِلُّ لفظُها ويسهلُ حفظُها ، تكونُ لأغراضها لَفْقاً ، ولمقاصدها وَفْقاً ، تشرح المستَبهم ، وتوضح المستَعجم ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، دخل أكثمُ بنُ صَيفِيّ حكيمُ العربِ علىٰ بعض ملوكها فقال له : إني سائلك عن أشياء لا تزال بصدري معتلجة ، وما تزال الشكوك عليها والجة ، فأنبئني بما عندك فيها ، فقال : أبيت اللعن ، سألت خبيراً ، واستنبأت بصيراً ، والجواب يشفعه الصواب ، فسل عما بدا لك .

قال : ما السُّؤدَد ؟

قال : اصطناع المعروف عند العشيرة ، واحتمال الجريرة .

قال : فما الشرف ؟

قال : كفُّ الأذىٰ ، وبذل الندىٰ .

قال : فما المجد ؟

قال : حملُ المغارم ، وابتناء المكارم .

قال : فما الكرم ؟

قال : صدقُ الإخاء ، في الشدة والرخاء .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٩٩/٨) ، وأورده الجاحظ في « البيان والتبيين » (٢٥٥/٣) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٩/١) .

قال : فما العِزُّ ؟

قال : شدة العضد ، وثروةُ العدد .

قال : فما السماحة ؟

قال : بذل النائل ، وحب السائل .

قال : فما الغنىٰ ؟

قال : الرضا بما يكفي ، وقلة التمني .

قال : فما الرَّأي ؟

قال : لُبٌّ تعينه تَجرِبة .

قال له الملك : أَوْرَيتَ زِنادَ بصيرتي ، وأَذكَيتَ نارَ خبرتي ، فاحتكم .

قال : لكل كلمة هَجمة (١) .

قال : هي لك .

قال الأصمعي : فقال لي الرشيد : ولك بكل كلمة بَدْرة (٢) ، فانصرفت بثمانين ألفاً) (٣) .

وكان قُسُّ بنُ ساعدةَ يَفِدُ علىٰ قيصر ويكرمه ، فقال له يوماً : (ما أفضلُ العقل ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال : فما أفضلُ العلم ؟ قال : وقوفُ الرجل عند علمه ، قال : فما أفضلُ المروءة ؟ قال : استبقاءُ الرجلِ ماءَ وجهه ، قال : فما أفضلُ المال ؟ قال : ما قُضِيَ به الحقوق) (٤) .

* * *

---

(١) الهَجْمة : القطعة من الإبل ، أولها أربعون إلىٰ ما زادت ، وقيل : ما بين الثلاثين والمئة ، وقيل غير ذٰلك . انظر « تاج العروس » (هجم) (٣٤ / ٧٢ ـ ٧٣) .

(٢) بَدْرَة : كيس فيه مقدار من المال .

(٣) انظر « المحاضرات » (٥١٤) .

(٤) رواه القالي في « الأمالي » (٢/٣٧) ، وأورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٢٥٤) .

الباب العشرون
في معرفة الخصال التي هي أركان السلطان

قال أبو جعفر المنصور : (ما كان أحوجني إلىٰ أن يكون علىٰ بابي أربعةٌ ، لا يكون علىٰ بابي أَعَفُّ منهم ، قيل : من هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : هم أركان المُلْك ، ولا يَصلحُ المُلكُ إلا بهم ؛ كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم ، فإنْ نقصَ قائمةً واحدةً . . عابه :

أحدهم : قاضٍ لا تأخذُه في اللهِ لومةُ لائمٍ .

والآخرُ : صاحبُ شُرْطةٍ يُنصِفُ الضعيفَ من القوي .

والثالثُ : صاحبُ خَراجٍ يستقصي ولا يظلم الرعية ؛ فإنِّي غَنِيٌّ عن ظلمهم .

والرابع ـ ثم عَضَّ علىٰ إصبعه السبابةِ ثلاثَ مراتٍ ، يقول في كل مرة : آهٍ آهٍ ـ قيل : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحبُ بريد ، يكتب بخبر هـٰؤلاء على الصحة)[1] .

❋ ❋ ❋

وقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه : (لا يَصلُحُ الوالي إلا بأربع خصال إنْ نَقَصَتْ واحدةٌ . . لم يصلح له أمرُه : قوةٍ علىٰ جمع المال من أبواب حِلِّه ، ووضعِه في حقِّه ، وشدةٍ لا جبروتَ فيها ، ولينٍ لا وَهْنَ فيه)[2] .

❋ ❋ ❋

(١) رواه الطبري في « تاريخه » (٦٧/٨) ، وأورده التنوخي في « الفرج بعد الشدة » (٣٠٢/١) .
(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٠٣٤) .

الباب الحادي والعشرون
في حاجة السلطان إلى العلم

قال ابن المقفع : (إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان .. فلا يعجبنَّك ذٰلك ؛ فإنَّ زوال الكرامة بزوالهما ، ولٰكن يعجبك إن أكرموك لعلمٍ أو أدبٍ أو دين)[(١)] .

اعلَمْ أرشدكَ الله تعالىٰ : أنَّ أكثرَ الناس حاجةً إلى التفقه : أكثرُهم عيالاً وأتباعاً وحَشَماً وأصحاباً .

والخَلْقُ كلُّهم مُستمِدُّون من السلطان الخلائقَ السَّنِيَّة ، والطرائقَ العَلِيَّة ، مُفتقِرُونَ إليه في الأحكام ، وقطعِ التشاجر وفصلِ الخصام ، فهو أحوجُ خلقِ اللهِ إلىٰ معرفة العلوم وجمعِ الحِكَم ، وشخصٌ بلا علم كدارٍ بلا أهل .

وأفضلُ ما في السلطان خصوصاً وفي الناس عموماً : محبةُ العلم ، والتحلي به ، والشوقُ إلى استماعه ، والتعظيمُ لحمَلَته ؛ فإن ذٰلك دليل علىٰ قوةِ الإنسانية ، وبعدِه من البهيمية ، ومضاهاتِهِ للعالم العلوي ، وهو من أوكدِ ما يتحبَّبُ به إلى الرعية .

وإذا كان الملك خالياً من العلم .. رَكِبَ هواه ، وأضرَّ برعيتِهِ ، كالدابةِ بلا رَسَنٍ تَمُرُّ في غير طريق ، وقد تُتلِفُ ما تَمُرُّ عليه .

* * *

واعلم : أنَّ زهرَ الفضائل ، وحُسنَ المناقب ، وبهاءَ المحاسن[(٢)] ، وما ضادَّ

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١٢١/٢) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٣٤) .

(٢) في (أ ، ج ، هـ) : (المجالس) .

ذٰلك من قبحِ المَثالِب ، وفُحشِ الرذائل . . كلُّ ذٰلك يظهرُ عليك ، ويعظمُ منك بقدر ما أُوتيتَه من عُلوِّ المنزلة ، وشرفِ الحظوة ، فيكونُ حسنُك أحسنَ ، كما يكونُ قبيحُك أقبحَ .

وليس أحدٌ من أهل الدرجات السَّنِيَّة والمراتب العَلِيَّة أحوجَ إلىٰ مجالسةِ العلماء ، وصحبةِ الفقهاء ، ودراسةِ كتب العلوم والحكم ، ومطالعةِ دواوين العلماء ، ومجامعِ الفقهاء ، وسِيَرِ الحُكَماء . . من السلطان .

وإنما كان كذٰلك لوجهين :

أحدُهما : أنه قد نصبَ نفسَه لممارسة أخلاق الناس ، وفصلِ خصوماتهم ، وتعاطي حكوماتهم ، وكلُّ ذٰلك يحتاج إلىٰ علمٍ بارعٍ ، ونظرٍ ثاقب ، وبصيرةٍ بالعلم قوية ، ودراسةٍ طويلة ، فكيف يكون حالُه إن لم يُعِدَّ لهٰذه الأمور عُدَّتَها ولم يقدم[1] لها أُهبتَها ؟!

والثاني : أنَّ مَنْ سِواه من الناس لا يَعْدَمون مَنْ يكسرُ عليهم ويعارضهم ، ويذكر لهم مساويَهم ، ويخالفهم في مذاهبهم ، فيكون ذٰلك مما يُعِينُهم علىٰ رياضة أنفسهم ، ويعلمهم مراشدهم ، ومناظرةُ الأَكْفَاء ومعاشرةُ النظراء تلقيحٌ للعقول ، وتهذيبٌ للنفوس ، وتدريبٌ لمآخذ الأحكام .

بخلاف السلطان ؛ فإنَّ ارتفاع درجته يقطع عنه جميع ذٰلك ؛ إذ لا يلقاه ولا يجالسُه إلا معظِّمٌ لِقَدْرِهِ ، مُبجِّلٌ لشأنه ، وساترٌ لمساويه ، ومادحٌ له بما ليس فيه ، وإنما جوابُهم له : صَدَقَ الأمير .

وعلىٰ قدر عُلُوِّ المرتبة يكونُ قبحُ السَّقْطةِ ، كما أن علىٰ قدر ارتفاعِ الحائط يكونُ قدرُ صوتِ الوَجْبة[2] .

---

(١) في (أ) : (ولم يقدر) .
(٢) الوَجْبَة : صوت السقوط .

فَصْلٌ

[في ترغيب السلطان بالعلم]

يا أيُّها الملك ؛ ليس أحدٌ فوق أن يُؤمَرَ بتقوى الله تعالىٰ ، ولا أحدٌ دونَ أن يأمُرَ بتقوى الله تعالىٰ ، ولا أحدٌ أجَلَّ قدراً من أن يقبل أمر الله ، ولا أرفعَ خطراً من أن يتعلَّمَ حُكْمَ الله ، ولا أعلىٰ شأناً من أن يتصف بصفات الله تعالىٰ .

ومن صفات الله تعالى : العلمُ الذي وَصف اللهُ تعالىٰ به نفسَه ، وتَمدَّحَ بسعته ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (١) ، والكرسيُّ : هو العلم ، والكراسيُّ : هم العلماء .

وإذا كان العلم فضيلة . . فرغبةُ الملوكِ وذوي الأخطارِ والأقدارِ والأشرافِ والشيوخِ فيه أَولىٰ ؛ لأنَّ الخطأ منهم أقبح ، والابتداءُ بالفضيلة فضيلة .

حُكِي أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلَّمون في الفقه ، فقال : (يا عَمِّ ؛ ما عندك فيما يقول هٰؤلاء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ شغلونا في الصِّغر ، واشتغلنا في الكِبَر ، فقال المأمون : لم لا تتعلم اليوم ؟ قال : أَوَيَحْسُنُ بمثلي طلبُ العلم ؟ قال : نعم والله ؛ لأَنْ تموتَ طالباً للعلم . . خيرٌ من أن تعيش قانعاً بالجهل ، قال : وإلىٰ متىٰ يحسُن بي طلب العلم ؟ قال : ما حَسُنَتْ بك الحياة) (٢) .

وروي أنَّ بعض الحكماء رأىٰ شيخاً يحب النظر في العلم ويستحي ، فقال : (يا هٰذا ؛ أتستحي أن تكونَ في آخرِ عمرك أفضلَ ممَّا كنتَ في أوله ؟!) (٣) .

ولأن الصغيرَ أعذرُ وإن لم يكن في الجهل عذر .

---

(١) سورة البقرة : (٢٥٥) .

(٢) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٨١) ، ورواه في « الفقيه والمتفقه » (٧٩٧) وفيه : (المنصور بن المهدي) بدل (إبراهيم بن المهدي) .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٨١) ، ورواه في « الفقيه والمتفقه » (٨٠٢) من قول سقراط .

وفي منثور الحكم : (جهلُ الشباب معذور ، وعلمُه محقور)[١] .

فأما الكبير . . فالجهلُ به أقبح ، ونقصُه عليه أفضح ؛ لأنَّ علوَّ السنّ إذا لم يكسبه فضلاً ، ولم يُفده علماً . . كان الصغيرُ أفضلَ منه ؛ لأن الأمل فيه أقوىٰ ، وحسبك نقيصة في رجل يكون الصغيرُ المُساوي له في الجهل أفضلَ منه !

* * *

وكل ما ذكرناه من حاجة الشيخ إلى العلم فحاجة السلطان إليه أكثر ، ودواعيه إلى اكتسابه أشد ؛ لأن من عداه إنما تخصه نفسُه الواحدة ، فيقرب عليه تحصيل ما يقومها به ، والملك منتصب لسياسة أهل مملكته وتعليمهم وتقويم أَوَدِهم ، فهو إلى العلم أحوج ، كما قال الشاعر[٢] : [من الطويل]

إِذَا لَـمْ يَكُـنْ مَـرُّ ٱلسِّـنِينَ مُتَرْجِمـاً عَنِ ٱلْفَضْلِ فِي ٱلْإِنْسَانِ سَمَّيْتَهُ طِفْلَا
وَمَـا تَنْفَـعُ ٱلْأَعْـوَامُ حِيـنَ تَعُدُّهَـا وَلَـمْ تَسْتَفِدْ فِيهِـنَّ عِلْمـاً وَلَا عَقْلَا
أَرَى ٱلدَّهْرَ مِنْ سُـوءِ ٱلتَّصَرُّفِ مَائِلاً إِلَـىٰ كُلِّ ذِي جَهْـلٍ كَأَنَّ بِـهِ جَهْـلَا

وقال بعض الحكماء : (كلُّ عِزٍّ لا يُوطِّده علمٌ مَذَلَّة ، وكلُّ علمٍ لا يؤيده عقل مَضَلَّة)[٣] .

وكيف يستنكِفُ ملكٌ أو ذو منزلةٍ عَلِيَّةٍ عن طلب العلم ؟!

وهـٰذا موسىٰ عليه السلام ارتحل من الشام إلىٰ مجمع البحرين في أقصى المغرب علىٰ بحر الظلمات إلىٰ لقاء الخَضِر عليه السلام ليتعلم منه ، فلما ظفر به . . قال له : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[٤] هـٰذا وهو نبيُّ الله وكليمُه !

---

(١) رواه في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٧٢١) ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٨٢) من قول ابن المعتز .

(٢) أورد الأبيات في « أدب الدين والدنيا » (ص ٨١) .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٧٩) .

(٤) سورة الكهف : (٦٦) .

وهـٰذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته من جميع خلقه قد وصَّاه ربُّه سبحانه ، وعلَّمه كيف يستنزل ما في خزائنه ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١) ، فلو كان في خزائنه أشرفُ من العلم . . لنبهه عليه ولندبه إليه .

وهـٰذا آدم عليه السلام لمَّا فَخَرت الملائكةُ بتسبيحها وتقديسها لربها تعالىٰ . . فَخَرَ آدمُ بالعلم ؛ فقال : ﴿ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (٢) ، فلما عَجَزُوا . . أَمَرهم الله بالسجود له ، وأخلِقْ بخَصْلةٍ تستدعي السجودَ لحاملِها أن يتنافس فيها كلُّ ذِي لُب ! وهـٰذا فصل الخطاب لمن تدبَّره .

* * *

ولا تنصبن لك عذراً بما روي في بعض الأخبار : (مثل الذي يتعلم العلم في الصغر كالنقش في الحجر ، والذي يتعلم في الكبر كالنقش على الماء) ، وقد سمع الأحنف رجلاً يقول : (التعلم في الصغر كالنقش في الحجر ، فقال الأحنف : الكبير أكبر عقلاً ولـٰكنه أشغلُ قلباً) (٣) ، ففحص عن المعنىٰ ونبه على العلة .

وقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يُسلِمُونَ شيوخاً وكهولاً وأحداثاً ، وكانوا يتعلمون العلم والقرآن والسنن ، وهم بحور العلم ، وأطواد الحكمة ، ومعادن الفقه ، غير أن التعلم في الصغر أرسخُ أصولاً ، وأبسقُ فروعاً ، وليس إذا لم يَحُزْه كله . . يفوتُه كله .

وقال رجل لأبي هريرة : (إني أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ، فقال أبو هريرة : كفىٰ بتركك له تضييعاً) (٤) .

---

(١) سورة طه : (١١٤) .

(٢) سورة البقرة : (٣١) .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/٢٥٧) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٩٣) .

(٤) رواه ابن بشران في « الأمالي » (٨١٥) ، وأورده الجاحظ في « البيان والتبيين » (١/٢٥٧) ، وفيه : (لأبي هريرة النحوي) .

وبعض الخير خير من كل الشر .

وإنما مثلُ الجاهلِ تحتَ عِبء الجهل مَثَلُ الحَمَّال تحت حمل ثقيلٍ ؛ فإن هو أعيا . . نقصه قليلاً قليلاً حتىٰ يوشك أن ينقصه كله فيستريح منه ، وإن هو لم يطرح القليل حتىٰ يطرح الكثير . . فما أوشكه أن يصرعَه حِملُه !

وكذٰلك الجاهل : إذا تعلم قليلاً قليلاً . . يوشك أن يأتي علىٰ بغيته ، وإن لم يتعلم في الكِبَرِ ما فاتَه في الصغر . . فأوشِكْ به أن يموت تحت عبء الجهل !

* * *

الباب الثّاني والعشرون
في وصيّة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد بالعلم وأهله

قال كُميلُ بنُ زيادٍ النَّخَعي : (خرجت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الجَبَّان ، فلمَّا أصحرَ . . تنفَّسَ الصُّعَداء ، ثم قال : يا كُميلَ بنَ زياد ؛ القلوب أوعية ، فخيرُها أوعاها للخير ، احفظ عني ما أقول لك : الناس ثلاثة : فعالمٌ رباني ، ومتعلِّمٌ علىٰ سبيل النجاة ، وهَمَجٌ رَعاعٌ أتباعُ كل ناعِق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا منه إلىٰ ركن وثيق .

العلمُ خيرٌ من المال ؛ العلمُ يحرُسك وأنت تحرُس المال ، العلمُ يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومحبةُ العالم دينٌ يُدان اللهُ به ، يكسبه الطاعةَ في حياته ، وجميلَ الأحدوثة بعد وفاته .

مات خُزَّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أشخاصُهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة .

ها إن هٰهنا ـ وأشار بيده إلىٰ صدره ـ لَعلماً جماً لو أصبتُ له حَمَلَة ، بلىٰ قد أصبت له لَقِناً غير مأمون عليه ، يستعمل الدين للدنيا ، ويستظهر بحجج الله تعالىٰ علىٰ كتابه ـ أو كما قال ـ وبنعمه علىٰ عباده ، أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه بأول عارضٍ من شبهة ، ألا لا ذا ولا ذاك ، أو منهوماً باللذات ، سريعَ الانقياد للشهوات ، أو آخَرَ شأنُه جمعُ المال والادِّخار ، ليسا من رعاة الدين ، أقربُ شبهاً بهما الأنعام السائمة .

اللهم ؛ فكذٰلك يموت العلم بموت حامليه .

ولـٰكن لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة ؛ لئلا تبطل حجج الله تعالىٰ وبيناته .

ومَنْ أولـٰئك ؟ وأين أولـٰئك ؟

أولـٰئك الأقلُّون عدداً ، الأكثرون عند الله قدراً ، تخزن الحكمة في قلوبهم حتىٰ يزرعوها في قلوب أشباههم ، ويودعوها في صدور نظرائهم ، هجم بهم العلم علىٰ حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ؛ فاستلانوا ما استخشنه المترفون ، واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأجسادٍ أرواحُها معلقةٌ بالمحل الأعلىٰ ؛ أولـٰئك خلفاءُ الله في بلاده ، ودعاتُه إلىٰ دينه ، هاه شوقاً إلىٰ رؤيتهم)[1] .

* * *

---

(١) رواه في « الجليس الصالح » (٤/١٣٥ ـ ١٣٧) ، و« حلية الأولياء » (١/٧٩ ـ ٨٠) ، والجَبَّان : الصحراء ، ولقناً : فَهِماً ، وأحناء : جمع حِنْوٍ ؛ وهو الجانب ، وهاه : كلمة تنبيه ، ألحقت بآخرها هاء السكت ، وفي (ب) : (هاء) ، وهي بالسكون : كلمة دهشة وحيرة ، وزيد في (ب) : (وقال بعض الحكماء : كل عز لا يوطده علم مذلة ، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة) ، وقد تقدم (ص ٢٣٨) .

الباب الثّالث والعشرون

في معرفة العقل والدّهاء ، والخبث والمكر

قد ذكرت في كتاب « الأسرار » حقيقةَ العقل وأقسامَه ، ومحلَّه وأحكامه ، بما لا مزيد عليه ، ونذكر هٰهنا منافعه ومداركه ولبابَ ما تحرر من القول فيه .

إنه الاستشهاد بالشاهد على الغائب ، فمن كان في طوقه أن يستدل بما شاهد علىٰ ما غاب عنه . . كان معه عقل ، وسُمِّي عاقلاً عند الموحدين ، وبه يتوجه التكليف عليه .

وذٰلك أن من نظر إلىٰ قصر قد كمل بنيانه ، وحصنت أركانه ، وجعلت فيه من الآلات ما يكتفي به ساكنوه ، فأشرف عليه إنسان ، فرأىٰ بيوتاً مقطوعة ، وأبواباً منصوبة ، وفرشاً مفروشة ، وزرابيَّ مبثوثة(١) ، وموائدَ موضوعة ، وصحافاً مصفوفة(٢) ، وأرائكَ منصوبة ، وحجالاً مسدولة(٣) ، وطسوتاً وأباريق ، وبيوتَ ماء ، وسطوحاً وميازيبَ تصبُّ الماء وتحتها بلاليع لغياض الماء(٤) ، وطيقاناً للضياء الواقع ، ومداخنَ للدخان الخارج ، ومنافس للرياح والهواء . . . إلىٰ سائر ما يَستعِدُّه العقلاء للانتفاع به ، ثم فَكَّر هل هٰذا القصر بما حواه صَنعةُ صانع قادر عالم مريد حيٍّ ، أو اتفق لنفسه وتركَّبَ علىٰ صورته بلا صانع . . فيستقر في عقله بالضرورة استحالةُ وجوده من غير صانع ، وأنه مفتقر إلىٰ صانعٍ صنعه .

---

(١) زرابي مبثوثة : بسط أو وسائد مفرَّقة ، مفردها : زَرْبِيَّة .

(٢) صحافاً : جمع صَحْفة ؛ وهي إناء كالقصعة .

(٣) حجالاً : جمع حَجَلَة ؛ وهي السِّتارة .

(٤) غياض : جمع غَيْضَة ؛ وهي مغيض ماء يجتمعُ فيَنبتُ فيه الشجر .

وهٰذا علمٌ يهجُم على العقول ، لا يفتقر إلىٰ نظر واستدلال .

وإنما كَثَّرت لك هٰذه الأمثلة ؛ لأن ما في الإنسان من الأعضاء والمنافس ولطيف الصنعة والعجائب أكثرُ مما في القصر بأضعاف مضاعفة ، فإذا نظر إلىٰ ما في نفسه ، فرأىٰ ما فيها من العجائب والتركيب ، ومنفعة كل عضو وتخصيصه ؛ إما لجلب نفع أو دفع ضر ، فلينعم نظره في عضو واحد مثلاً وهو فمه ؛ فيرىٰ في أوله أسنانه شبيهة الفأس تصلح للقطع ، وفي آخره طواحن مضرَّسةً تصلُح للطحن ، وشِدْقَيْه كأنهما ثِفَال الرَّحىٰ[١] ، يمنعان من أن ينهرق الطعام إلىٰ خارج ، ولساناً يرد ما انفلت من الطعام إليه على الطواحن ، ثم يلي ذٰلك بُلعوم يصلح لازدراد هٰذا الطحين[٢] .. علم بأدنىٰ تأمُّلٍ أن هٰذه السلسلة ما انفعلت بنفسها[٣] اتفاقاً ، بل هي مفتقرة إلىٰ قصدِ قاصدٍ ، وجعلِ جاعلٍ .

وعلىٰ هٰذا النمط : لو ذهبنا نذكر منفعة كل عضو .. لوقفت على العجب ، ولٰكن تركناه كراهة التطويل .

وعلىٰ هٰذا المعنىٰ : فمعرفةُ الصانعِ للقصر تُعلم ضرورة ، ومعرفةُ الصانع للخلق تُعلَم بالاستدلال والنظر المرتَّب على الضروري .

وعلىٰ هٰذا نبَّه الكتابُ المُهيمن ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٤] ، وبهٰذه العبرة تستقل العقول بإثبات[٥] الصانع ، وتستغني عن النظر في الجواهر والأعراض .

---

(١) شَدْقَيْه : مثنىٰ شِدْق ؛ وهو جانب الفم مما تحت الخد ، والثِّفال : ما يُبسط تحت الرحىٰ عند الطحن من جلد وغيره ليسقط عليه الدقيق .

(٢) الازدراد : الابتلاع .

(٣) في (ب ، د ، ز) : (أن هٰذه الخلقة ...) ، و(و) : (ما اتفقت بنفسها) .

(٤) سورة الذاريات : (٢١) .

(٥) في (ج ، هـ) : (بآيات) .

والعلمُ المفيد لإثبات الصانع في الشاهد مثل البَنَّاء والنجّار والخيَّاط وأشباهِهم بعد النظر في صنائعهم . . علمُ اضطرار ، والعلمُ المثبِتُ للصانع سبحانه عند النظر في حدوث العالم . . علمُ استدلال ، اعتباراً للغائب بالشاهد ؛ إذ لا فرق في العقول بين صنعة وصنعة في اقتضاء صانع .

وإنما كان العلم في الشاهد ضرورياً ؛ لأن الإنسان لم يزل يرى البَنَّاء يبني ، والخَيَّاط يَخيط ، والنجار يَنجُر الخشب ، ولم تر العقلاءُ القديمَ سبحانه يخلق ويخترع ، وإنما استفادوه من النظر في الشاهد .

فإن قيل : فأيُّ العلمين أقوىٰ في النفوس وأثبتُ في العقول : عند النظر في السرير واقتضائه للنجَّار ، أم العلم بالله سبحانه وتعالىٰ عند النظر في السماوات والأرض وما بينهما ؟

فالجواب : أن هٰذا يستدعي تفصيلاً وتدقيقاً ، وليس هٰذا الكتاب موضوعاً لذٰلك .

فإذا نظر العاقل هٰذا النظر . . فحينئذ نعلم أن معه عقلاً غريزياً ونسميه عاقلاً ، ونوجه التكليف عليه وهو العقل التكليفي .

وإذا ثبت هٰذا . . فاعلم : أن الله تعالىٰ خلق الخلق [1] علىٰ أربعة أنحاء : ملائكة ، وآدميين ، وشياطين ، وبهائم .

فأما الملائكة : فعقول بلا شهوات ولا هوىً يقارنه .

وأما البهائم : فشهوات بلا عقول .

وأما الشياطين والجن : فركَّبَ اللهُ فيها العقولَ والشهوات والهوىٰ .

وهٰكذا رَكَّبَ في بني آدم : العقلَ والهوىٰ والشهوة .

فغلبت شهواتُ الشياطينِ وهواهم عقولَهم ، فقطعوا أوقاتَهم بالأخلاق

---

(١) في النسخ كلها عدا (ز) : (خلق الحيوان) .

المذمومة ؛ بالكبر ، والعُجب ، والمَقْت ، والفخر ، والدعوىٰ ، والحسد ، والأذية ، وسائر الأخلاق المهلكة .

وأما البهائم : فتقَضَّت أوقاتُها في شهوات البطن والفرج .

وأما الآدميون : فركَّبَ فيهم عقولَ الملائكة وأخلاقَ الشياطين وشهواتِ البهائم ؛ فمن غَلَبَ عقلُه هواه منهم . . فكأنه من عالَمِ الملائكة ؛ كالأنبياء والرسل عليهم السلام ، والأولياء والأصفياء ، وقليل ما هم .

وأما من كان عقلُه مغلوباً بهواه وشهواته ؛ فإن كان ذٰلك من المباحات ؛ من المطاعم والملابس والمراكب والنساء والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فأكلَ وتمتَّعَ بعد أن كَسَبه من حِلِّه . . فهٰذا من عالَم البهائم .

وإنما ألحقناه بعالم البهائم ؛ لأنه لا تكليف على البهائم ، وكذٰلك هٰذه المباحات لا حرج في الاستمتاع بها بعد أن يكون كَسَبَها من حِلِّه .

وإن كان الغالب عليه أخلاق الشياطين ؛ من الكِبْرِ ، والعُجب ، والحسد ، والغش . . . إلىٰ سائر الأخلاق المذمومة . . فهٰذا من عالم الشياطين .

وإن اجتمع في الشخص إفراطُ الشهوات ، واتباعُ الهوىٰ ، والأخلاقُ المذمومة ، فيكون آدمياً في صورته ، شيطاناً في خليقته ، بهيمةً في شهواته . . فلا يصلح للصحبة .

وإذا ثبت هٰذا . . فاعلم : أن هٰذا العقلَ الغريزيَّ أطولُ رقدةً من العين ، وأحوجُ إلى الشَّحذ من السيف .

فَصْل

[في العقل المكتسب]

وأما العقل المكتسب ، وهو نتيجة العقل الغريزي . . فهو ثَقَابَةُ المعرفة[1] ،

---

(١) ثَقَابةُ المعرفة : اتقادُها .

وإصابة الفكرة ، وليس له حدٌّ ينتهي إليه ؛ لأنه يَنمِي إن استعمل ، وينقص إن أهمل .

ونماؤه يكون بأحد وجهين :

إما أن يقارنه من مبدأ النشوء ذكاءٌ وحسنُ فِطنةٍ ، كالذي قال الأصمعي : (قلت لغلام حَدَثٍ من أولاد العرب كان يحادثني فأمتعني بفصاحته وملاحته : أَيسرُّكَ أن يكون لك مئةُ ألف درهم وأنك أحمق ؟ قال : لا والله .

قلت : ولم ؟ قال : أخاف أن يَجنِيَ عليَّ حُمْقي جنايةً تذهب بمالي ، ويبقىٰ عليَّ حُمقي)[1] .

فاستخرجَ هٰذا الصبيُّ بفرط ذكائه ما يَدِقُّ علىٰ من هو أكبر منه سناً .

وقيل لبعض الصبيان : (ألك أبٌ ؟ قال : وكأني عيسى ابن مريم عليه السلام !) .

وقد قالت الحكماء : (آيةُ العقل : سُرعةُ الفهم ، وغايته : إصابةُ الوهم)[2] .

وليس للذكاء غاية ، ولا لجودة القريحة نهاية ؛ ألا ترىٰ أنَّ إياس بن معاوية الذي يضرب المثل بذكائه قال لأبيه وهو طفل ـ وكان أبوه يُؤْثِرُ أخاه عليه ـ : (يا أبة ؛ تعلم : ما مَثَلي ومَثَلُ أخي معك إلا كفرخ الحمام ؛ أقبحُ ما يكون أصغرُ ما يكون ، وكلما كَبِرَ . . ازداد مَلاحة وحسناً ، فتبنىٰ له العَلَالي وتتخذُ له المربعات ويستحسنه الملوك ، ومَثَلُ أخي مَثَلُ الجحش الصغير ؛ أملحُ ما يكونُ أصغرُ ما يكون ، وكلما كَبِرَ . . قَبُحَ وصار القهقرىٰ ، إنما يصلح لحمل الزِّبْلِ والتراب)[3] .

والوجـه الثاني : مـا يحصل لذوي الحُنْكـة وصحةِ الرَّوِيَّة بطول ممارسـة

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٥ ، ٤٧) .

(٢) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩) .

(٣) أورده في « وفيات الأعيان » (١/٤١٩) .

الأمور ، وكثرة التجارب ، ومرورِ الغِيَرِ علىٰ أسماعهم ، وتقلبِ الأيام ، وتصرفِ الحوادث ، وتناسخِ الدول ، قد مرَّت علىٰ عيونهم وجوهُ العِبَر ، وتصدت لأسماعهم أنواعُ الأخبارِ وآثارُ الغِيَر .

وقال بعض الحكماء : (كفىٰ بالتجارب تأدباً ، وبتقلب الأيام عِظة)(١) .

وقالوا : (التجربةُ مرآةُ العقل ، والغِرَّةُ ثمرةُ الجهل)(٢) .

ولذٰلك حُمِدَتْ آراء الشيوخ حتىٰ قالوا : (المشايخُ أشجار الوقار ، وينابيع الأخبار ، لا يطيش لهم سهم ، ولا يسقط لهم وَهْم ، وعليكم بآراء الشيوخ ؛ فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع . . فقد أفادتهم الأيام حُنكة وتجربة)(٣) .

وقال الشاعر(٤) : [من الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلْعَقْـلَ زَيْـنٌ لِأَهْلِـهِ ... وَلَـٰكِنْ تَمَـامُ ٱلْعَقْلِ طُـولُ ٱلتَّجَارِبِ

وقال آخر(٥) : [من الطويل]

إِذَا طَـالَ عُمْـرُ ٱلْمَـرْءِ فِـي غَيْـرِ آفَةٍ ... أَفَـادَتْ لَـهُ ٱلْأَيَّـامُ فِـي كَرِّهَـا عَقْـلَا

غير أن للعقل آفاتٍ ، كما قال بعض الحكماء : (كيف يرجو العاقلُ النجاةَ ، والهوىٰ والشهوةُ قد اكتنفاه ؟!)(٦) .

والهوىٰ أبعد من أن تَنفُذَ فيه حيلة الحازم المحتال ، وهو أغمض مسلكاً في الجَنان(٧) من الروح في الجثمان ، وأملكُ بالنفس من النفس ، والمالك للشيء

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٥) ، و« لباب الآداب » (ص ٢٣٥ ، ٢٣٨) ، ونسبه لأرسطاطاليس .

(٢) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٥) ، و« لباب الآداب » (ص ٦٨) ، ونسبه للصغاني في « الفرائد والقلائد » ، والغِرَّة : الاغترار .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٥) .

(٤) أورده في « العقد الفريد » (٢/٢٤٦) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦) .

(٥) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦) .

(٦) أورده في « البصائر والذخائر » (١/١٤٢) .

(٧) في النسخ كلها عدا (ب ، و) : (في الحيوان) .

أملكُ به ؛ ولهٰذا قيل : (كم من عقل أسير ، عند هوىً أمير)[1] .

فمن أحبَّ أن يكون حُرّاً . . فلا يهوىٰ ، وإلا . . صار عبداً ، كما قال علي بن الجهم[2] : [من الخفيف]

أَنْفُـــسٌ حُـــرَّةٌ وَنَحْـــنُ عَبِيـــدُ ... إِنَّ رِقَّ ٱلْهَـــوَىٰ لَـــرِقٌّ شَـــدِيدُ

واختلف الناس في العقل المكتسب إذا تناهىٰ وزاد في الإنسان ؛ هل يكون فضيلة أم لا ؟

فقال معظم العقلاء : (إنه فضيلة إذا كان مجموعَ آحاد ، والآحادُ فضائل ، فلا شك أن كثرة الفضائل فضيلة ، وإنما الشيء المحدود تكون الزيادة فيه نقصاً من المحدود ، كالتهور في الشجاعة والتبذير في الكرم ، فأما الزيادة في العقل المكتسب . . فزيادة علم بالأمور ، وحسن إصابة بالظنون ، ومعرفة ما لم يكن بما قد كان)[3] .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَفْضَلُ ٱلنَّاسِ : أَعْقَلُ ٱلنَّاسِ »[4] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ٱلْعَقْلُ حَيْثُ كَانَ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ »[5] .

وقال القاسم بن محمد : (من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه . . كان حَتفُه في أغلب الخصال عليه)[6] .

ألا ترىٰ أنه لما مات بعض الخلفاء . . احتشدت الروم ، واجتمعت ملوكها ،

---

(١) أورده بنحوه في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٣) .

(٢) البيت في « ديوانه » (ص ٩٧) .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٥١ ـ ٥٢) .

(٤) رواه الحارث بن أبي أسامة كما في « بغية الباحث » (٨٣٧/أ) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وزاد بعده : (قال ابن عباس : وذٰلكم نبيكم صلى الله عليه وسلم) .

(٥) رواه في « مسند الشهاب » (١٢٩) عن سيدنا جابر رضي الله عنه بلفظ : « المؤمن إلف مألوف » .

(٦) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٥٣) ، وفيه : (وقال القاسم بن محمد : كانت العرب تقول . . .) ، و« المصون في الأدب » (ص ١٣٨) ، وفيه : (محمد بن القاسم بن يوسف) بدل (القاسم بن محمد) .

وقالوا : (الآن يشتغل المسلمون بعضُهم ببعض ، فيمكننا الغِرَّةُ منهم ، والوثبةُ عليهم ، وضربوا في ذٰلك مشاورات ، وتراجعوا فيه بالمناظرات ، وأجمعوا علىٰ أنه فرصةُ الدهر ، وثُغرة النحر ، وكان رجل منهم من ذوي الرأي والمعرفة غائباً عنهم ، فقالوا : من الحزم عرضُ الرأي عليه .

فلمَّا أَخبروه بما اجتمعوا عليه . . قال : لا أرىٰ ذٰلك صواباً ، فسألوه عن علة ذٰلك ، فقال : غداً أخبركم إن شاء الله تعالىٰ .

فلمَّا أصبحوا . . غَدَوْا عليه ، فقالوا : الوعد ، قال : نعم ، فأمر بإحضار كلبين عظيمين كان قد أعدَّهما ، ثم حرَّشَ بينهما وألَّبَ كلَّ واحد منهما على الآخر ، فتواثبا وتهارشا حتىٰ سالت دماؤهما .

فلمَّا بلغا الغاية . . فتح باب بيت عنده وأرسل منه على الكلاب ذئباً عنده قد أعده ، فلما أبصراه . . تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ، ووثبا جميعاً على الذئب ، فنالا منه ما أحبا .

ثم أقبل الرجل علىٰ أهل الجمع فقال لهم : مَثَلُكم مع المسلمين مَثَلُ هٰذا الذئب مع الكلاب ؛ لا يزال الهَرْج والقتال بينهم ما لم يظهر لهم عدوٌّ من غيرهم ، فإذا ظهر لهم عدو من غيرهم . . تركوا العداوة بينهم ، وتألفوا على العدو .

فاستحسنوا قوله ، وتفرقوا عن رأيهم) .

وإنما المذموم في هٰذا الباب صرف العقل إلى الدهاء والمكر .

قال الشعبي : (وقعت الفتنة [١] ، ودهاةُ العرب ستة : معاويةُ بن أبي سفيان ، وعمرُو بن العاص ، والمغيرةُ بن شعبة ، وزيادُ بن أبيه ، وقيسُ بن سعد بن عبادة ، وعبدُ الله بن بُديل بن ورقاء) [٢] .

---

(١) قوله : (وقعت الفتنة) سقط من (د) .

(٢) أورده في « الاستيعاب » (ص ٦٦٥) دون الأخيرين ودون قوله : (وقعت الفتنة) .

وقال الأصمعي : (كان معاوية يقول : أنا للأناة ، وعمرٌو للبديهة ، وزيادٌ للصغار والكبار ، والمغيرةُ للأمر العظيم)[1] .

قال قَبيصة بن جابر : (ما رأيت أعطىٰ لجزيلِ مالٍ بغيرِ سلطانٍ من طلحة بن عبيد الله ، ولا رأيت أثقل حلماً ولا أطول أناة من معاوية ، ولا رأيت أغلب للرجال ولا أبذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبهَ سراً بعلانية من زياد ، ولو أن المغيرة كان في مدينة لها ثمانية أبواب لا يُخرج من باب منها إلا بالمكر . . لخرج من أبوابها كلها)[2] .

وقال أبو الدرداء : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا عُوَيْمِرُ ؛ اِزْدَدْ عَقْلاً . . تَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْباً » ، قلت : بأبي أنت وأمي ؛ ومن لي بالعقل ؟! قال : « اِجْتَنِبْ مَحَارِمَ ٱللهِ ، وَأَدِّ فَرَائِضَ ٱللهِ . . تَكُنْ عَاقِلاً ، ثُمَّ تَنَفَّلْ بِصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ . . تَزْدَدْ فِي ٱلدُّنْيَا عَقْلاً ، وَتَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْباً ، وَعَلَيْهِ عِزّاً »[3] .

ويروىٰ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[4] : [من البسيط]

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ ... فَٱلْعَقْلُ أَوَّلُهَا وَٱلدِّينُ ثَانِيهَا
وَٱلعِلْمُ ثَالِثُهَا وَٱلْحِلْمُ رَابِعُهَا ... وَٱلْجُودُ خَامِسُهَا وَٱلْعُرْفُ سَادِيهَا
وَٱلْبِرُّ سَابِعُهَا وَٱلصَّبْرُ ثَامِنُهَا ... وَٱلشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَٱللِّينُ عَاشِيهَا
وَٱلنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أُصَدِّقُهَا ... وَلَسْتُ أَرْشُدُ إِلَّا حِينَ أَعْصِيهَا
وَٱلْعَيْنُ تَعْرِفُ فِي عَيْنَيْ مُحَدِّثِهَا ... إِنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا
عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنَيَّ مِنْكَ عَلَىٰ ... أَشْيَاءَ لَوْلَاهُمَا مَا كُنْتُ أَدْرِيهَا

---

(١) رواه القالي في « ذيل الأمالي » (ص ١٠٢) ، وأورده ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٦٦٥) .
(٢) رواه البسوي في « المعرفة والتاريخ » (١/٤٥٨) .
(٣) رواه الحارث بن أبي أسامة كما في « بغية الباحث » (٨٢٩) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٠٤٥) .
(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢٦٥) عدا البيتين الأخيرين ، فأوردهما في « أدب الدين والدنيا » (ص ٥٥) .

وقال بعض الحكماء : (العاقل : مَنْ عقلُه في إرشاد ، ومن رأيُه في إمداد ؛ فقوله سديد ، وفعله حميد ، والجاهل : مَنْ جهلُه في إغواء ، ومن رأيه في أهواء ؛ فقوله سقيم ، وفعله ذميم) (١) .

فأما من صرف فضل عقله إلى الدهاء والمكر والشر والحيل والخديعة ؛ كالحجاج وزياد وأشباههما . . فمذموم .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لستُ بالخَبِّ ، والخَبُّ لا يَخدَعُني) (٢) .

وقال المغيرة : (كان واللهِ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه أفضلَ من أن يَخدع ، وأعقلَ من أن يُخدَع) (٣) .

والموصوف بالدهاء والمكر مذموم ، وصاحبه محذور ، تخاف غوائله ، وتحذر عواقب حبائله .

وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري أن يعزل زياداً عن ولايته ، فقال زياد : (أعن مَوجِدةٍ أو خيانة يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا عن واحدة منهما ، ولٰكن كرهتُ أن أحمل على الناس فضل عقلك) (٤) .

وكتب زياد إلىٰ معاوية رضي الله عنه : (إن العراق في شِمالي ، ويميني فارغة ، فولِّني الحجاز . . أَكْفِكَ أهله ، فبلغ ذٰلك ابنَ عمر ، فقال : اللهم ؛ اكفنيه ، فطُعِنَ في إصبعه بعد أيام فمات) (٥) .

فنحن ، وإن كنا نرغب عن الدهاء والمكر . . فإنا نرغب في الحيلة ونوصي بها .

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٥٣) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢٤١/٢) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٥٤) .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٨٦/١) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٥٤) .

(٤) أورده في « البيان والتبيين » (٢٦٠/١) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٥٢) .

(٥) أورده في « العقد الفريد » (٨٢/١) ، و« الاستيعاب » (ص ٢٥٨) ، فَطُعِن في إصبعه : أصابه الطاعون .

والاتساعُ في الحيلة ممَّا تواصىٰ به العقلاءُ قديماً وحديثاً ، وليس شيء من أمور الدنيا لطالب الرفعة وباغي الوسيلة ومرتاد أي أمر كان دَقَّ أو جَلَّ . . خيراً من الحيلة .

وأضعف الحيلة أنفع من كثرة الشدة .

وقالت الحكماء : (مِلاك العقل : الحيلة ، والتأني للسببِ الضعيفِ والقويِّ من الأمور) .

وروي أن رجلاً وقف بكسرىٰ فقال : (أنا أصنع ما تَعجِزُ الخلائق عنه ، قال : ما هو ؟ قال : يُشدُّ برِجلِي حبلٌ طرفُه برقبةِ فيلٍ ، وبرِجلِي الأخرىٰ كذٰلك ، ويُشَدُّ طرفُه برقبة فيلٍ آخر ، ثم تُساقُ الفيلةُ بالضرب والزجر ، فلا أتزحزح ، ففعل ذٰلك ، فتمَّت حيلته .

ثم تعاطىٰ أن يفعل ذٰلك بأربعة من الفيلة ، فمرت بحِدَّتها ، فقسموه شطرين ، فقال كسرىٰ : من لم يكن أكبر ما فيه عقله . . هلك بأكبر ما فيه) .

نظمه بعض الشعراء فقال [1] : [من السريع]

مَـنْ لَـمْ يَكُـنْ أَكْثَـرُهُ عَقْلَـهُ أَهْلَكَـهُ أَكْثَـرُ مَـا فِيـهِ

وسمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحكي : أن رجلاً استأذن علىٰ هارون الرشيد وقال : (إني أصنع ما تعجِزُ الخلائق عنه ، قال الرشيد : هات ، فأخرجَ أنبوبةَ قصب فيها إبر عدة ، ثم وضع واحدة في الأرض ، وقام علىٰ قدميه ، وجعل يرمي إبرة إبرة من قامته ، فتقع كل إبرة في عين الإبرة الموضوعة حتىٰ فرغ من دَسْته [2] ، فأمر الرشيد بضربه مئة سوط ، ثم أمر له بمئة دينار .

فسُئِلَ عن جمعه بين الكرامة والإهانة ، فقال : وصلتُه لجودة ذكائه ، وأدَّبتُه كي لا يصرف فرط ذكائه في الفضول) .

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٥٣) لابن لَنْكَك .

(٢) دَسْته : حيلته ولعبه .

ومن زعم أن العقل المكتسب إذا تناهىٰ لا يكون فضيلة .. قال : لأن الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين ، فما جاوز التوسط .. خرج عن حد الفضيلة ؛ كالكَرَمِ الذي هو وسط بين البخل والتبذير ، والشجاعةِ وسط بين التهور والجبن .

وقالت الحكماء للإسكندر : (أيها الملك ؛ عليك بالاعتدال في كل الأمور ؛ فإن الزيادة عيب ، والنقصان عجز)[1] .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خَيْرُ ٱلْأُمُورِ : أَوْسَاطُهَا »[2] .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (خير الأمور : الأوسط ؛ إليه يرجع العالي ، وبه يلحق التالي)[3] .

قالوا : ولأن زيادة العقل تفضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر ، وذٰلك مذموم .

قلنا : هٰذا كله باطل بما قدمناه لنصرة القول الأول ، وهو منقوض بالعقل الغريزي وبالعلوم وبسائر الفضائل .

وأما قولهم : إنه يفضي بصاحبه إلى الدهاء والمكر .

قلنا : الدهاء والمكر كسبُ معانٍ أُخَرَ غيرِ العقل ، ليست من لوازم العقل ؛ فإن شاء .. تداهىٰ ومكر ، وإن شاء .. كَفَّ ، كما نقول في كل شرٍّ يَكسِبُه العاقل باختياره : ليس عقله أوقعه فيه ، بل إنما أوقعه فيه قلة عقله .

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٥١) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٢٧٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٧٦) من قول مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رحمه الله تعالىٰ .

(٣) كذا رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٣٩) ، و(العالي) بالعين المهملة ، وأشار محققه في الحاشية : في غير (ت ، م) : (الغالي) ، وأورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/٣٢٦) بلفظ : (الغالي) .

وكان بُزُرْجُمِهْر لمَّا فَرَغ من كتاب « أمثاله » ونسق كل باب علىٰ حياله يقول : (ليس العجب ممن حفظ هٰذه الأمثال فصار عالماً ، إنما العجب ممن حفظها ولم يصر عالماً) .

وأنا أقول[1] : ليس العجب ممن قرأ كتابي هٰذا فصار مهذباً كاملاً ، إنما العجب ممن قرأه ولم يصر مهذباً كاملاً .

* * *

(١) في (ب ، و) : (قال الشيخ : وأنا أقول) .

الباب الرّابع والعشرون
في الوزراء وصفاتهم

قال الله تعالىٰ في قصة موسىٰ عليه السلام : ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾[1] .

فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء .. لكان أحقَّ الناس بذٰلك كلهم كليمُ الله موسى بن عمران عليه السلام .

ثم ذكر حكمة الوزراء ؛ فقال : ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[2] .

دلت الآية : علىٰ أن موضع الوزارة أن يَشُدَّ قواعدَ المملكة ، وأنْ يُفضِيَ إليه السلطان بعُجَرِه وبُجَره إذا استُكمِلَتْ فيه الخلال المحمودة[3] .

ثم قال : ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾[4] .

دلت هٰذه الكلمات : علىٰ أن نصيحةَ العلماء والصالحين وأهلِ الخبرة والمعرفةِ تنظم أمورَ الدنيا وأمورَ الآخرة .

وكما أن أشجعَ الناس يحتاج إلى السلاح ، وأَفْرَهَ الخيلِ إلى السَّوطِ ، وأَحَدَّ الشِّفارِ إلى المِسَنِّ .. كذٰلك يحتاج أجلُّ الملوك وأعظمُهم وأعلمُهم إلى الوزير .

ورَوىٰ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « مَا بَعَثَ ٱللَّهُ نَبِيّاً وَلَا ٱسْتَخْلَفَ

---

(١) سورة طه : (٢٩) .

(٢) سورة طه : (٣١ ـ ٣٢) .

(٣) بعُجَره وبُجَره : بهمومه وأحزانه وأسراره وعيوبه ، وأصل العُجْرة : نفخة في الظهر ، فإذا كانت في السُّرة .. فهي بُجْرة ، وقيل : العُجَر : العروق المتعقدة في الظهر ، والبُجَر : العروق المتعقدة في البطن ، ثم نُقلا إلى الهموم والأحزان والأمور ما ظهر منها وما بطن .

(٤) سورة طه : (٣٣ ـ ٣٤) .

مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ : بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِٱلشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَٱلْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[١] .

وإنما اشتقت (الوِزارة) من (الوِزْر) وهو : الثِّقْل ؛ يراد : أنه يحمل من أمر المملكة وأعبائها وأثقالها مثل الأوزار .

أسعدُ الملوك : ملكٌ له وزيرُ صِدْقٍ ؛ إنْ نَسِيَ . . ذكَّره ، وإنْ ذَكَرَ . . أعانه .

وقال وهب بن منبه : قال موسىٰ عليه السلام لفرعون : (آمِنْ ولكَ الجنة ، ولك ملكك ، قال : حتىٰ أشاور هامان ، فشاوره في ذٰلك ، فقال له هامان : بينما أنتَ إلـٰهٌ تُعبَدُ . . إذْ صِرْتَ تَعبُد ! فأنِفَ واستكبر ، وكان من أمره ما كان)[٢] .

وعلىٰ هـٰذا النمط كان وزيرُ الحجاجِ يزيدُ بنُ أبي مُسلم مع الحجاج ، لا يألوه خبالاً[٣] ، ولبئس القرناء ؛ شرُّ قرينٍ لشرِّ خَدِين[٤] .

* * *

واعلم : أن أول ما يستفيد الملك من الوزراء أمران : علم ما كان يجهله ، ويقوىٰ عنده علم ما كان يعلمه ، فيزول شكه .

وأشرفُ منازل الآدميين : النبوة ، ثم الخلافة ، ثم الوِزارة .

الوزير عونٌ على الأمور ، وشريك في التدبير ، وظهير على السياسة ، ومفزع عند النازلة .

الوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه .

وفي الأمثال : (نعمَ الظهيرُ الوزيرُ)[٥] .

---

(١) رواه البخاري (٧١٩٨) .
(٢) رواه بنحوه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٩١٢٠) عن السدي ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/٦١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) لا يألوه خَبالاً : لا يقصِّر في إفساده .
(٤) في (أ ، ب ، ج) : (قرين) .
(٥) أورده في « المستطرف » (٢٩٧/١) .

وأول ما يظهر نبلُ السلطان وقوةُ تمييزه وجودةُ عقله : في استنخاب الوزراء ، واستنقاد الجلساء ، ومحادثة العقلاء ، فهٰذه ثلاث خلال تدل علىٰ كماله ، وبهٰذه الخلال يجملُ في الخلق ذكره ، ويَجِلُّ في العقول قدره ، وترسخ في النفوس عظمته ، والمرء موسوم بقرينه .

وكان يقال : (حِليةُ الملوك وزينتُهم : وزراؤهم)[1] .

وفي كتاب « كليلة ودمنة » : (لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان ، ولا الأعوان إلا بالمودة والنصيحة ، ولا المودة والنصيحة إلا بالرأي والعفاف .

وأعظم الأشياء ضرراً على الناس عامة وعلى الولاة خاصة : أن يحرموا صالح الوزراء والأعوان ، فتكون أعوانهم غير ذي مروءة وغنىً)[2] .

ويحذر الملك أن يولي الوزارة غير المتحرين[3] ؛ كي لا تضيع الأمور ، كما يحذر أن يتطبب بغير طبيب بصير مأمون .

قال شُريح بن عبيد : (لم يكن في بني إسرائيل مَلِكٌ إلا ومعه رجل حكيم ، إذا رآه غضبان . . كتب له صحائف ، في كل صحيفة : ارحم المسكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة ، فكلما غَضِب الملك . . ناوله صحيفة حتىٰ يسكن غضبه)[4] .

وقال أَرْدَشِير : (يَحِقُّ على الملك : أن يكون ألطفَ ما يكون نظراً أعظمَ ما يكون خطراً ، ولا يذهبُ حسنَ أَثَرِهِ في الرعية خوفُه لها ، ولا يستغني بتدبير

---

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (٢٤/٣٤٧) من قول الأحنف بن قيس رحمه الله تعالىٰ .

(٢) كليلة ودمنة (ص ٢٨٣) إلىٰ قوله : (بالرأي والعفاف) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٢٤/٣٤٧) من قول الأحنف بن قيس رحمه الله تعالىٰ .

(٣) في (أ) : (المجربين) ، و(ز) : (المتبحرين) .

(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٤٥٩) .

اليوم عن تدبير غد ، وأن يكون حذرُه للملاقين أكثرَ من حذره للمتباعدين ، وأن يتقي من بطانة السوء أشد من اتقائه العامة ، ولا يطمعَنَّ في إصلاح العامة إلا بالخاصة)[1] .

وقال أَرْدَشِير : (لكل ملكٍ بطانةٌ حتىٰ يجمعَ ذٰلك جميعُ المملكة ، فإذا أقام الملكُ بطانته علىٰ حال الصواب . . أقام كلُّ امرئ منهم بطانتَه علىٰ مثل ذٰلك ، حتىٰ تجتمع على الصلاح عامةُ الرعية)[2] .

ومَثَلُ المَلِكِ الخيِّرِ والوزيرِ السُّوءِ الذي يمنع الناسَ خيرَه ولا يمكِّنُهم من الدُّنُوِّ منه . . كالماء الصافي فيه التمساح ، فلا يستطيع المرء دخولَه وإن كان سابحاً وكان إلى الماء محتاجاً .

ومَثَلُ السلطانِ مَثَلُ الطبيب ، ومَثَلُ الرعية كمثل المرضىٰ ، ومثلُ الوزيرِ كمثل السفيرِ بين المرضىٰ والأطباء ؛ فإن كذب السفير . . بطل التدبير ، وكما أن السفيرَ إذا أراد أن يقتل أحداً من المرضىٰ . . وصف للطبيب نقيض دائه ، فإذا سقاه الطبيب علىٰ صفة السفير . . هلك العليل ، وكذٰلك الوزير ينقل للملك ما ليس في الرجل ، فيقتله الملك .

فمن هٰهنا شَرَطْنا : أن يكون الوزير صدوقاً في لسانه ، عدلاً في دينه ، مأموناً في أخلاقه ، بصيراً بأمور الرعية ، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة .

❁ ❁ ❁

ويحذر الملك أن يُولِّي الوِزارة لئيماً ؛ فاللئيم إذا ارتفع . . جفا أقاربَه ، وأنكر معارفَه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر علىٰ ذوي الفضل .

ولما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتبَ الحجَّاج يزيدَ بنَ أبي

---

(١) أورده في « تجارب الأمم » (١/١٣٦) .

(٢) أورده في « تجارب الأمم » (١/١٣٦) .

مسلم . . قال له عمر بن عبد العزيز : (أسألك بالله يا أمير المؤمنين ألا تحيي ذكرَ الحجاج باستكتابك إياه ، فقال : يا أبا حفص ؛ إني لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم ، قال عمر : أنا أوجدك من هو أعف منه في الدينار والدرهم ، قال : ومن هو ؟ قال : إبليس ؛ ما مسَّ ديناراً ولا درهماً ، وقد أهلك هٰذا الخلق)[1] .

ودخل رجل له عقل وأدب علىٰ بعض الخلفاء ، فوجد عنده رجلاً ذمياً كان الخليفة يميل إليه ويقربه ، فقال[2] : [من السريع]

يَـا ذَا ٱلَّـذِي طَاعَتُـهُ قُرْبَـةٌ ... وَحُبُّـهُ مُفْتَـرَضٌ وَاجِـبُ
إِنَّ ٱلَّـذِي شُـرِّفْتَ مِـنْ أَجْلِـهِ ... يَزْعُـمُ هَـٰذَا أَنَّـهُ كَاذِبُ

وأشار إلى الذمي ، فسأله يا أمير المؤمنين عن ذٰلك ، فسأله ، فلم يجد بُدّاً من أن يقول : هو صادق ، فاعترف بالإسلام .

لا يَعرِفُ وزيرُ الملك ما له وما عليه حتىٰ يُراعِيَ من صاحبه الواثق به ما يراعيه العاشق الغيور من المعشوقة المتهمة .

وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رِقاع وقال لوزيره : (إذا رأيتني غضبان . . فادفع إليَّ رُقعةً بعد رقعة ، فكان في الواحدة : إنك لستَ بإلـه ، وإنك ستموت وتعود إلى التراب ، فيأكل بعضك بعضاً ، وفي الثانية : ارحم من في الأرض . . يرحمك من في السماء ، وفي الثالثة : اقض بين الناس بحكم الله ؛ فإنه لا يصلحهم إلا ذٰلك)[3] .

---

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (٣٩٢/٦٥) .

(٢) أورد الخبر بنحوه مع البيتين في « وفيات الأعيان » (٢٦٣/٤) ، و« نفح الطيب » (٨٧/٢) ، وفيهما : أن الطرطوشي دخل على الأفضل بن أمير الجيوش فوعظه ، ثم أنشد البيتين ، وأورده بنحوه مع البيت الثاني في « بهجة المجالس » (٣٥٩/١) ، وفيه : أن بعض شيوخ الفقهاء استأذن على المأمون .

(٣) أورده في « التعازي والمراثي » (ص ٣٠٢) .

إذا كان الوزيرُ يساوي الملكَ في المال والهيبة والطاعة . . فليصرعْه الملك ، فإن لم يفعل . . فليعلم أنه المصروع .

وفي الأمثال : (إذا سكنت الدهماء . . خافت الوزراء)[1] .

ولما كانت أمورُ المملكة عائدةً إلى الوزراء وأزمَّةُ الملوك في أكف الوزراء . . سبق فيهم من العقلاء المثلُ السائر فقالوا : (لا تغترَّ بمودة الأمير ، إذا غَشَّكَ الوزير)[2] .

و(إذا أحبك الوزير . . فلا تخش الأمير)[3] .

ويقال : الخُرْقُ مماراةُ الأمراء ومعاداة الوزراء .

ورُبَّ أمرٍ كرهه الأمير فتم بالوزير ، وكم من أمر أراده الأمير فثناه عنه الوزير .

وإنما السلطان كالدار والوزير بابها ؛ فمن أتى الدار من بابها . . وَلَج ، ومن أتاها من غير بابها . . أُزعِج .

* * *

كاتِبُ الملكِ مُستقَرُّ أسراره ، ولسانُه الناطق عنه في آفاق مملكته ، والمخصوصُ بقربه ولزومِه دون نظرائه .

ظهير الأمير : وزيره ، وزينتُه : حاجبه ، ولسانُه : كاتبُه ، ورسولُه : عينُه .

الكتابةُ قِوامُ الخلافة ، وقرينةُ الرياسة ، وعمودُ المملكة .

للكاتب على الملك ثلاثةُ أشياء : يرفعُ الحجابَ عنه ، ويتهم الوشاة عليه ، ويُفشِي سرَّه إليه .

---

(١) أورده الطبري في « تاريخه » (٤٨٣/٧) من قول أبي مسلم الخراساني عن ملوك آل ساسان ، والثعالبي في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٤٣) من قول مروان بن محمد .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٨٠/٣) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٤٥/١) من قول ميمون بن ميمون .

وقال أنُوشرْوانُ : (لا يَتِمُّ للملك أمرُه حتىٰ يرفع نفسه عن كل عيب ، ويكون له جليس مأمون الغيب ، وخادم ناصح الجيب)[١] .

وموقعُ الوزارة من المملكة موقعُ المرآة من البصر ؛ فكما أن من لم ينظر في المرآة لا يرىٰ محاسنَ وجهه وعيوبَه . . كذٰلك السلطان إذا لم يكن له وزير . . لا يعرف محاسنَ دولته وعيوبَها .

وقد قالت الحكماء : (لا يطمعنَّ ذو الكِبْرِ في الثناء ، ولا الخَبُّ في كَثرة الصديق ، ولا السيئُ الأدبِ في الشرف ، ولا الشحيحُ في البِر ، ولا الحريصُ في قلة الذنوب ، ولا الملكُ المتهاونُ الضعيفُ الوزراء في بقاء الملك)[٢] .

وكما أن المرآة لا تريك وجهك إلا بصفاءِ جوهرِها ، وجودةِ صَقْلِها ، ونقائِها من الصدأ . . كذٰلك الوزير لا يكمل أمره إلا بجودة عقله ، وصحة فهمه ، وصفاء نفسه ، ونقاء قلبه .

* * *

ومن شروط الوزير : أن يكون مكين الرحمة للخلق ، رؤوفاً بهم ؛ ليأنسوا برحمته ما يوحشه السلطان بغلظته .

ومن شروطه : أن يكون نقي الجيب ، ناصح الغيب ، لا يقبل دقيقة ، ولا يكتم نصيحة .

وقال بعض الملوك لوزيره : (لا تكونن إلىٰ ما تَسُرُّني به أسرعَ مبادرةً منك إلىٰ إنذاري فيما تخاف عليَّ منه) .

وقال بعض الملوك : (أعط من أتاك بما تكره كما تعطي من أتاك بما تحب ؛ فإن من أنذر كمن بَشَّر)[٣] .

---

(١) ناصح الجيب : نقي القلب والصدر .

(٢) أورده في « الأدب الصغير » ضمن رسائل البلغاء (ص ٥٨) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٣٤١/٢٤ ـ ٣٤٢) من قول الأحنف بن قيس رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « بهجة المجالس » (٣٣٥/١) إلىٰ قوله : (بما تحب) من قول سيدنا معاوية رضي الله ←

ومن شروطه : أن يكون معتدلاً كلَيلِ تِهامةَ ؛ لا حَرٌّ ولا قرٌّ .

وموقع الوزير من الملك موقع الملك من العامة ، وكما أن السلطان إذا صلح صلحت الرعية ، وإذا فسد فسدوا . . كذلك الوزراء إذا فسدوا فسد الملك ، وإذا صلحوا صلح الملك .

وكان يقال : (آفة العقل : الهوىٰ ، وآفة الأمير : سخافة الوزير) .

وقال المقتدر بالله لوزيره علي بن عيسى : (اتقِ اللّهَ . . يُعطِّفْني عليك ، ولا تعصه . . فيسلِّطَني عليك)[1] .

وقال المأمون لمحمد بن يزداد : (إياك أن تعصي الله فيما تتقرب به إليَّ فيسلِّطَني عليك)[2] .

* * *

واعلم : أنه ليس للوزير أن يكتم السلطانَ نصيحةً وإن استقلها .

وموقع الوزير من المملكة كموقع العينين من الإنسان وكاليدين ؛ فإنه إذا صح قبضهما وبسطهما . . صحَّ التدبير ، وإذا سَقِما . . دخل النقص على الجسد .

ولا تصلح الوزارة أن تكون في غير أهلها ، كما لا يصلح المُلك أن يكون في غير أهله .

وشر الوزراء : من كان له الأشرار أنصاراً ووزراء وبطانة ودخلاء .

وأوصت امرأة ابنها وكان ملكاً فقالت : (يا بُنَيَّ ؛ ينبغي للملك أن يكون له ستةُ أشياء : وزيرٌ يثق برأيه ويفضي إليه بأسراره ، وحصنٌ يلجأ إليه إذا فَزِعَ ،

← عنه لابنه يزيد ، وأورد الباقي في « البصائر والذخائر » (١/٩٤) دون نسبة .

(١) أورده في « بدائع السلك » (٢/٦٠٩) .

(٢) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (١/٤٤٨) ، وفيه : (لبعض ولاته) ، و« بدائع السلك » (٢/٦٠٩) ، وفيه : (لبعض وزرائه) .

وسيفٌ إذا نازل الأقران .. لم يخف أن يخونه ، وذخيرةٌ خفيفة المحمل إذا نابته نائبة .. كانت معه ، وامرأةٌ إذا دخل عليها .. أذهبت همه ، وطباخٌ إذا لم يَشْتَهِ الطعام .. صنع له ما يشتهيه)[1] .

* * *

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/١١٠ ـ ١١١) ، وفيه : (قال الأصمعي : قالت أم جُبْغُويَه ملك طَخَارُستان لنصر بن سيار) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٦٤) ، وفيه : (عن الأصمعي قال : قال بعض حكماء العرب من أهل خراسان لنصر بن سيار) .

الباب الخامس والعشرون
في الجلساء وآدابهم

قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[2] .

فكل خليلين أو صفيَّين أو صاحبين أو متوادين اجتمعا علىٰ معصية . . فهم الأعداء حق الأعداء .

وينبغي للملك : أن يجالس أهل العقل والأدب ، وذوي الرأي والحسب ، وذوي التجارب والعبر ؛ فمجالسة العقلاء لقاح العقل ومادته ، ولذٰلك حُمِدَت آراء الشيوخ فقال القدماء : (المشايخ أشجار الوقار ، وينابيع الأخبار ، لا يطيش لهم سهم ، ولا يسقط لهم وَهْم)[3] .

وقالوا : (عليكم بآراء الشيوخ ؛ فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع . . فقد مرت علىٰ عيونهم وجوهُ العبر ، وتصدت لأسماعهم آثار الغير)[4] .

وقالوا : (رأي الشيخ خير من مشهد الغلام)[5] .

وقال عبد الملك بن مروان لجلسائه : (جنبوني ثلاثاً : لا تطروني ؛ فإني

---

(١) سورة الزخرف : (٦٧) .

(٢) سورة الفرقان : (٢٧ ـ ٢٩) .

(٣) تقدم (ص ٢٤٨) .

(٤) تقدم (ص ٢٤٨) .

(٥) أورده ابن سلام في « الأمثال » (ص ١٠٨) ، ورواه البيهقي في « الكبرىٰ » من قول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

أَعْرَفُ بنفسي منكم ، ولا تكذبوني ؛ فإنه لا رأي لكذوب ، ولا تغتابوا عندي أحداً ؛ فيفسد قلبي عليكم)[1] .

وقال بعض الحكماء : (كفىٰ بالتجارب تأدُّباً ، وبتقلب الأيام عظة)[2] .

وقالوا : (التجربةُ : مرآة العقل ، والغِرَّةُ : ثمرة الجهل)[3] .

وقد قال هَرِمُ بنُ قُطْبة ـ وهو أحد حكماء العرب ـ حين تنافر إليه عامرُ بن الطفيل وعلقمةُ بن عُلَاثَة : (عليكم بالحديث السِّن ، الحديد الذهن)[4] .

وقال كبير من حكماء العرب : (عليكم بمشاورة الشباب ؛ فإنهم يَنتِجُون رأياً لم يَفُلَّهُ طولُ القِدَم ، ولا استولت عليه رطوبةُ الهَرَم)[5] .

والمذهب الأول أصدق على العقول .

* * *

وقال عبد العزيز بن زرارة لمعاوية : (يا أمير المؤمنين ؛ عليك بمجالسة الأَلِبَّاء أعداءً كانوا أو أصدقاءَ ؛ فإن العقل يقع على العقل)[6] .

وقال ابن عباس : (مجالسة العقلاء تزيد في الشرف)[7] .

وقال سفيان بن عيينة : (إن الرجل ممن كان قبلكم ليلقى الرجل العاقل ، فيكون بعقله عاقلاً أياماً)[8] .

وقال مالك بن أنس رحمه الله : (مر سليمان بن داوود عليهما السلام بقصر

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٢٣/٢) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٣١) .

(٢) تقدم (ص ٢٤٨) .

(٣) تقدم (ص ٢٤٨) .

(٤) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦) .

(٥) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٧) .

(٦) أورده في « نثر الدر » (٢٠٦/٤) .

(٧) أورده في « التذكرة في الوعظ » (ص ١١٩) دون نسبة وبلفظ : (مجالسة العقلاء تزيد في العقل) .

(٨) رواه في « روضة العقلاء » (٣٩٨/١) عن سفيان عن موسى بن عقبة بلفظ : (إن كنت لألقى الأخ من إخواني ، فأكون بلقيه عاقلاً أياماً) .

بأرض مصر ، فوجد فيه مكتوباً : [من الهزج]

غَدَوْنَا مِنْ قُرَى ٱصْطَخْرٍ إِلَى ٱلْقَصْرِ فَقِلْنَاهُ
فَمَنْ يَسْأَلْ عَنِ ٱلْقَصْرِ فَمَبْنِيّاً وَجَدْنَاهُ
يُقَاسُ ٱلْمَرْءُ بِٱلْمَرْءِ إِذَا مَا ٱلْمَرْءُ مَاشَاهُ
وَفِي ٱلشَّيْءِ عَلَى ٱلشَّيْءِ عَلَامَاتٌ وَأَشْبَاهُ
فَلَا تَصْحَبْ أَخَا ٱلْجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَىٰ حَلِيماً حِينَ آخَاهُ

قال : ووجد عليه نَسراً واقعاً ، فدعاه فقال : من بنىٰ هٰذا القصر ؟ قال : لا أدري ، قال : فكم لك منذ وقعت عليه ؟ قال : تسع مئة سنة)[1] .

وفي الأمثال : (يظن بالمرء ما يظن بخليله)[2] .

ولما حج عبد الله بن جعفر . . نزل مكة ليلاً ، فلما أصبح . . قال : (يا أهل مكة ؛ عرفنا خياركم من شراركم في ليلة واحدة ، قالوا : كيف ذٰلك ؟ قال : نزلنا ومعنا أخيار وأشرار ، فنزل خيارنا علىٰ خياركم وشرارنا علىٰ شراركم ، فعرفناكم)[3] .

❀ ❀ ❀

واعلم : أنه ليس الدخان على النار بأدلَّ من الصاحب على الصاحب .

وقال الأوزاعي : (الصاحب للصاحب كالرُّقعة في الثوب ؛ إن لم تكن مثله . . شَانَتْه)[4] .

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢/٣٣١) ، و« البيان والتحصيل » (١٨/٤٩٥) ، والأبيات الأربعة الأخيرة لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ٢٦٣) ، ولأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦) ، وقلناه : اتخذناه مقيلاً .

(٢) أورده الجاحظ في « المعاش والمعاد » (١/١٢٦) ، والميداني في « مجمع الأمثال » (٣/٦٣٣) .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (٣/٨) من قول إياس بن معاوية .

(٤) أورده في « بهجة المجالس » (١/٧٠٣) .

وقال مالكُ بنُ مِسمَع للأحنف بن قيس : (يا أبا بحر ؛ ما أشتاق إلىٰ غائب إذا حضرت ، ولا أنتفع بحاضر إذا غبت) ، فأخذه إبراهيم بن العباس الكاتب فنظمه فقال (١) : [من المتقارب]

وَأَنْـتَ هَـوَى ٱلنَّفْـسِ مِـنْ بَيْنِهِـمْ ... وَأَنْـتَ ٱلْحَبِيـبُ وَأَنْـتَ ٱلْمُطَـاعُ

وَمَـا بِـكَ إِنْ بَعُـدُوا وَحْـدَةٌ ... وَمَـا مَعَهُـمْ إِنْ بَعُـدْتَ ٱجْتِمَـاعُ

وقال عبد الله بن طاهر : (المال غادٍ ورائح ، والسلطان ظل زائل ، والإخوان كنوز وافرة) (٢) .

وقال الأصمعي : (تناظر رجلان وأعرابي حاضر ، فقال لأحدهما : مناظرة مثلك في الدين فرض ، والاستماع منك أدب ، ومجالستك زين ، ومعرفتك عز ، ومذاكرتك تلقيح للعقول وشحذ ، وإخاؤك شرف وفخر) (٣) .

وقال السِّمْسماني : (غَنَّىٰ مُخارِقٌ بين يدي المأمون : [من الطويل]

وَإِنِّـي لَمُشْـتَاقٌ إِلَـىٰ ظِـلِّ صَاحِـبٍ ... يَـرُوقُ وَيَصْفُـو إِنْ كَـدِرْتُ عَلَيْـهِ

عَذِيـرِي مِـنَ ٱلْإِنْسَـانِ لَا إِنْ جَفَوْتُهُ ... صَفَـا لِـي وَلَا إِنْ صِـرْتُ طَـوْعَ يَدَيْهِ

فطَرِبَ المأمون وقال : ويحك يا مخارق ! خذ مني نصف الخلافة ، وأعطني هٰذا الإنسان) (٤) .

وقالت الحكماء : (النظر في عواقب الأمور تلقيح العقول) (٥) .

وقالوا : (العاقل لا تنقطع صداقته ، والأحمق لا تدوم مودته ؛ فاتخذ من

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (١٠٢١/٢) ، والبيتان في « ديوانه » ضمن الطرائف الأدبية (ص ١٤٦) .

(٢) رواه في « تاريخ دمشق » (٢٣٧/٢٩) .

(٣) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (١٥١/١) دون نسبة .

(٤) أورده في « الأغاني » (٤١٣٢/١١ ـ ٤١٣٣) ، وفيه : (عَلُّويَه) بدل (مخارق) ، والبيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٤١٨) في الهامش .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » (٧٨/٣) من قول أبي حارثة المدني ، وفي « جمهرة الأمثال » (٤٢٧/٢) من قول أبي حازم .

نصحاء أصحابك مرآة لطبائعك وفعائلك ، كما تتخذ لوجهك المرآة المجلوة ؛ فإنك إلىٰ صلاح طبائعك أحوج منك إلىٰ تحسين صورتك) .

وقال المأمون للحسن بن سهل : (نظرت في اللذات ، فوجدتها كلها مملولة خلا سبعة ، قال : وما السبع يا أمير المؤمنين ؟ قال : خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش الوطيء ، والنظر إلى الحسن من كل شيء ، قال : فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال ؟ قال : صدقت ، وهي أولاهن)(١) .

وقال هشام بن عبد الملك : (قد قضيت الوطر من كل شيء ؛ فأكلت الحلو والحامض حتىٰ لا أجدُ لواحد منهما طعماً ، وشممت الطيب حتىٰ لا أجدُ له رائحة ، وأتيت النساء حتىٰ ما أبالي امرأة أتيت أم حائطاً ، فما وجدت شيئاً ألذ من جليس يسقط بيني وبينه مؤونة التحفظ)(٢) .

وقال عبد الملك بن مروان : (قد قضيتُ الوَطَرَ من كل شيء إلا من محادثة الإخوان في الليالي الزُّهْر ، على التِّلال العُفْر)(٣) .

وقال عبد الملك بن مروان : (من قَرَّب السَّفِلة وأدناهم ، وباعد ذوي الفضل وأقصاهم . . استحقَّ الخِذلان ، ومن منع المال من الحمد . . ورثه من لا يحمده)(٤) .

* * *

ومن الكلام الشريف : قول الحكماء : (ما أحوج ذا القدرة إلىٰ دين يَحجُزه ، وحياءٍ يكفُّه ، وعقلٍ يُعدِّله ، وإلىٰ تَجرِبة طويلة ، وعِبَرٍ محفوظة ، وإلىٰ أعراقٍ

---

(١) رواه ابن المقير في « جزئه » ضمن فوائد ابن منده (١٣٣٥) ، وأورده ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٨٤/٢) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٣٧٩/٦ ـ ٣٨٠) .

(٣) أورده المبرد في « الكامل » (٣٠٨/١) ، وأبو حيان في « الصداقة والصديق » (ص ٤٥ ـ ٤٦) .

(٤) قوله : (ومن منع . . .) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٦) من قول أردشير .

تسري إليه ، وأخلاقٍ تسهلُ الأمورَ عليه ، وإلىٰ جليسٍ رفيق ، ورائدٍ شفيق ، وإلىٰ عينٍ تبصر العواقب ، وعقلٍ يخاف الغِيَر .

ومن لم يعرف لؤم ظَفَر الأيام . . لم يحترس من سَطَوات الدهر ، ولم يتحفظ من فلتات الزلل ، ولم يتعاظَمْه ذنبٌ وإن عظم ، ولا ثناء وإن سَمُج)[١] .

وإذا رأيت من جليسك أمراً تكرهه ، أو خَلَّة لا تحبها ، أو صدرت منه كلمة عوراء ، أو هفوة غبراء . . فلا تقطع حبله ، ولا تصرِم وده ، ولـٰكن دَاوِ كَلْمَه ، واستر عورته ، فإنْ رَجَع ، وإلَّا . . فاتَّقِه وابرأْ من عمله ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٢] ، فلم يأمره بقطعهم ، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السُّوء .

وقال الشاعر[٣] : [من الطويل]

إِذَا رَابَ مِنِّي مَفْصِلٌ فَقَطَعْتُهُ ... بَقِيتُ وَمَا بِي لِلنُّهُوضِ مَفَاصِلُ

وَلَـٰكِنْ أُدَاوِيهِ فَإِنْ صَحَّ سَرَّنِي ... وَإِنْ هُوَ أَعْيَا كَانَ فِيهِ تَحَامُلُ

وأتىٰ رجل إلىٰ بعض الحكماء ، فشكا إليه صديقه ، وعَزَمَ علىٰ قطعه والانتقامِ منه ، فقال له الحكيم : (أتفهم ما أقول لك فأكلِّمَك ، أم بك من فَورة الغضب ما يَشغَلُك عنه ؟ فقال : إني لما تقول واعٍ ، قال : أسرورُك بمودته كان أطولَ أم غمُّك بذنبه ؟ قال : بل سروري ، قال : أفحسناته عندك أكثر أم سيئاته ؟ قال : بل حسناته ، قال : فاصفح بصالح أيامك عن ذنبه ، وهَبْ لسرورك جُرمَه ، واطرح مؤونة الغضب والانتقامِ منه ، ولعلك لا تنال ما أمَّلْتَ فتطولَ مصاحبةُ الغضب لك ، وأنت صائر إلىٰ ما تحب) .

* * *

(١) أورده في « العقد الفريد » (٤١/١) من قول أبي عبيد الله كاتب المهدي .

(٢) سورة الشعراء : (٢١٦) .

(٣) أورد البيتين في « العقد الفريد » (٣١٠/٢) ، و« معجم الشعراء » (ص ٤٤٣) لمحمد بن أبان .

الباب السادس والعشرون
في معرفة الخصال التي هي جمال السلطان

قد ذكرنا الخصال التي تجري من المملكة مجرى الأساس من البنيان، ونذكر الآن الخصال التي تجري من المملكة مجرى التاج من الطَّيْلَسان، وحسن الهيئة والكمال.

فأصلها وقاعدتها: العفو، قال الله تعالىٰ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (١).

فلمَّا نزلت هٰذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم.. قال النبي صلى الله عليه وسلم: « يَا جِبْرِيلُ ؛ مَا هَٰذَا ؟ » قال: لا أدري حتىٰ أسأل العالِم، فذهب جبريل، ثم عاد فقال: يا محمد؛ إنَّ ربك يأمرك: أن تصلَ من قطعك، وتُعطيَ من حرمك، وتعفوَ عمَّن ظلمك (٢).

واعلموا أرشدكم الله تعالىٰ: أن الله سبحانه وتعالىٰ أمر بالعفو وندب إليه، وذكر فضله وحث عليه، ووصف به نفسه تعالىٰ؛ فقال سبحانه: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣)، فأوجب الله تعالىٰ محبته للعافين، وأثنىٰ عليهم بالإحسان؛ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٤)، وعزائمُ الأمور من صفات المصطفَين من الرسل عليهم

---

(١) سورة الأعراف: (١٩٩).
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/١٩٣)، وابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥).
(٣) سورة آل عمران: (١٣٤).
(٤) سورة الشورىٰ: (٤٣).

السلام ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (٢) ، وقال سبحانه : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٣) ، فاستعطف الخلق عليهم ، وندبهم إلىٰ أن يعفوا عن الجُناة والظالمين والخاطئين كما يحبون أن يفعل الله بهم .

وقال فيمن انتصر ولم يعف : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ (٤) ، فرفع الحرج عن المنتصر والمنتقم ، ولم يوجب له فضيلة .

ثم كشف الغطاء ، وأزاح العذر ، وصرح بتفضيل العافين على المنتصرين ، والواهبين حقوقَهم على المنتقمين ؛ فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٥) ، فهٰذا نص لا يحتمل التأويل ، وتحقيق القول في ذٰلك : أن الانتصار عدل ، والعفو فضل ، وفضل الله أحب إلينا من عدله ؛ لأنه إن عَدَلَ علينا فآخَذَنا بحقِّه . . هلكنا ، وإن عفا عنا برحمته . . تخلصنا .

ولو كان العدل يسع الخلائق . . لما قرنه الله بالإحسان ، فلما علم سبحانه أن في العدل استقصاءً ومناقشة ؛ وذٰلك مما تضيق عنده النفوس وتَحرَج له الصدور . . ناط (٦) الإحسان بالعدل ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (٧) .

وأيضاً فإن الانتصار انتقام وعذاب بلا امتنان ، والعفو محبة من الله تعالىٰ وإحسان .

---

(١) سورة الأحقاف : (٣٥) .
(٢) سورة الشورىٰ : (٣٧) .
(٣) سورة النور : (٢٢) .
(٤) سورة الشورىٰ : (٤١) .
(٥) سورة النحل : (١٢٦) .
(٦) في (ب ، د) : (ربط) ، وناط : علَّق .
(٧) سورة النحل : (٩٠) .

وأيضاً فإن الانتصار سيئة، والعفو حسنة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾[1]، والدليل علىٰ أن الانتصار يسمىٰ سيئة: قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[2]، غير أنه إنما سميت سيئة لمَّا كانت نتيجة سيئة، لا أنه لا يجوز الانتصار، وإنما هو كقول عمرو بن كلثوم التغلبي[3]: [من الوافر]

أَلَا لَا يَجْهلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ ٱلْجَاهِلِينَا

فسمى الجزاء على الجهل جهلاً وإن لم يكن في الحقيقة جهلاً.

وعن هٰذا روت عائشة رضي الله عنها قالت: (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مَظْلِمة ظُلِمَها قطُّ، غير أنه إذا انتُهِك شيء من محارم الله.. فلا يقوم لغضبه شيء)[4].

وروي أنه قال: «يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى ٱللهِ أَجْرٌ.. فَلْيَقُمْ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا فِي ٱلدُّنْيَا»[5].

* * *

فإن عفوت أيها الطالب.. كان أجرك على الله، وإن لم تعف.. كان حقك قِبَل من ظلمك، ولأن يكون أجرك في ضمان الله تعالىٰ أوثق من أن يكون قبل مخلوق.

وأيضاً فإنك إذا لم تعف.. نلت حقك بلا زيادة عليه، وإن عفوت.. كانت لك حسنة أسديتها لأخيك والله تعالىٰ يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[6].

---

(١) سورة فصلت: (٣٤).

(٢) سورة الشورىٰ: (٤٠).

(٣) البيت في «ديوانه» (ص ١٠١) من معلقته المشهورة.

(٤) رواه الترمذي في «الشمائل» (٣٥٣).

(٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» بنحوه (٧٩٧٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه أسد بن موسىٰ في «الزهد» (٨٠) عن الحسن رحمه الله تعالىٰ.

(٦) سورة الأنعام: (١٦٠).

وشَفَعَ الأحنف بن قيس في محبوس إلى السلطان، فقال له: (إن كان مجرماً.. وسعه العفو، وإن كان بريئاً.. وسعه العدل).

وقيل لبعض الكتاب بين يدي أمير المؤمنين: (بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمرٌ، فقال: لا أبالي، فقيل له: ولِمَ لا تبالي؟ قال: إن صدق الناقل.. وَسِعَني عفوُه، وإن كَذَب الناقلُ.. وَسِعَني عدلهُ).

ولمَّا دخل عيينةُ بنُ حِصْنٍ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أحد المؤلفة قلوبهم.. قال: (يا بن الخطاب؛ والله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر وهَمَّ بأن يوقع به، فقال ابن أخيه: يا أمير المؤمنين؛ إن الله تعالى يقول: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1]، وإن هٰذا من الجاهلين.

فوالله؛ ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان عمرُ وقَّافاً عند كتاب الله تعالى)[2].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « اِرْحَمُوا مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ.. يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ »[3].

وقال: « اِرْحَمْ.. تُرْحَمْ »[4].

وكان يقال: (أولى الناس بالسلطان: أحقُّهم بالرأفة والرحمة).

وفي الإنجيل: (أفلح أهل الرحمة؛ لأنهم سيرحمون).

---

(١) سورة الأعراف: (١٩٩).

(٢) رواه البخاري (٤٦٤٢) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه أبو داوود (٤٩٠٢)، والترمذي (١٩٢٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٧١٣)، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/٣٧٦) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً عن الله تبارك وتعالى مخاطباً سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، ورواه أيضاً في « حلية الأولياء » (٦/٣٧) عن كعب رحمه الله تعالى، قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام في التوراة... الحديث.

وقال سليمان بن داوود عليه السلام : (لقد أبغض الله تعالى المسرعين إلىٰ هرق الدماء ، وإلىٰ هرق الدماء انتهت القسوة والغلظة والتباعد من الرحمة) .

ولمَّا تمكن داوود عليه السلام من قتل جالوت . . أبقىٰ عليه وهو يومئذ عَدوُّه وطالبُه ، وقال : (يا رب ؛ أَعظِمْ دمي في عين أعدائي كما عَظَّمت في عيني دمَ عَدُوِّي ، وكذٰلك خَلِّصني من جميع الهموم) .

وقالت حكماء الهند : (لا سؤدَدَ مع انتقام ، ولا رِياسةَ مع عَزازة نفس وعُجب)[1] .

وقالت الحكماء : (ليس الإفراط في شيء أجودَ منه في العفو ، ولا هو في شيء أقبحَ منه في العقوبة)[2] .

وكذٰلك التقصير مذموم في العفو ، محمود في العقوبة .

* * *

واعلم : أنك أن تخطئ في العفو في ألف قضية خيرٌ من أن تخطئ في العقوبة في قضية واحدة .

وقال معاوية : (إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهلٌ أكبر من حِلمي ، وعورة لا يواريها سِتري)[3] .

وقال المأمون : (ليس عليَّ في الحلم مؤونة ، ولوددت أن أهل الجرائم علموا رأيي في العفو ، فيذهب الخوف ، فتخلص لي قلوبهم)[4] .

وقال رجل للمنصور : (يا أمير المؤمنين ؛ إن الانتقام انتصاف ، والتجاوز فضل ، والمتجاوز قد جاوز حد المنتصف ، ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/١١١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٣٦) .

(٢) أورده بنحوه في « العقد الفريد » (٥/٤٦) من قول عبد الملك بن مروان .

(٣) رواه الطبري في « تاريخه » (٥/٣٣٥) ، وأورده في « العقد الفريد » (٢/٢٧٨) .

(٤) أورده بنحوه في « بهجة المجالس » (١/٣٧١) .

يرضىٰ لنفسه بأوكس النصيبَين ، ولا يرتفع إلىٰ أعلى الدرجتين ؛ فاعف عنا . . يعفُ اللهُ عنك ، فعفا عنهم)[١] .

وأنشدوا[٢] : [من الكامل]

وَإِذَا بَغَىٰ بَاغٍ عَلَيْكَ بِجَهْلِهِ فَٱقْتُلْهُ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا بِٱلْمُنْكَرِ

وقال بعضهم لمسلم بن قتيبة لمَّا عفا عنه : (والله ؛ ما أدري أيها الأمير ؛ أيُّ يوميك أشرف ؛ أيومُ ظَفَرك ، أم يومُ عفوك ؟!)[٣] .

وقال الشاعر[٤] : [من المنسرح]

مَا زِلْتَ فِي ٱلْعَفْوِ لِلذُّنُوبِ وَإِطْـ ـلَاقٍ لِعَانٍ بِجُرْمِهِ غَلِقِ
حَتَّىٰ تَمَنَّى ٱلْبُرَاةُ أَنَّهُمُ عِنْدَكَ أَمْسَوْا فِي ٱلْقِدِّ وَٱلْحَلَقِ

ورُفِعَ إلىٰ أنُوشَرْوان أن العامة تُؤنِّبُ المَلِكَ في معاودة الصفح عن المذنبين مع تتابعهم في الذنوب ، فوقَّعَ : (المذنبون مرضىٰ ونحن أطباء ، وليست معاودة الداء إياهم بمانعنا من معاودة العلاج لهم) .

وقال عمر بن عبد العزيز : (ما قُرِن شيءٌ إلىٰ شيءٍ أفضلُ مِن حِلمٍ إلىٰ علمٍ ، ومن عفوٍ إلىٰ قدرة)[٥] .

وقال رجل لعبد الملك بن مروان لمَّا ظَفِرَ بالمهلب : (ما رأيت أحداً يا أمير المؤمنين ظُلِمَ ظلمَك ، ولا نُصِر نصرَك ، ولا عفا عفوك)[٦] .

وقال بعض التابعين : (المعاقِبُ مُستدعٍ لعداوة أولياء المذنِب ، والعافي

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٢/١١٠) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٢٩) .
(٢) البيت لابن الرومي في « ديوانه » (٣/٩٨٣) .
(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٢/٨٤) ، وفيه : (سَلْم بن قتيبة) .
(٤) البيتان لأبي دَهْبل الجُمَحي في « ديوانه » (ص ٤٧) ، والعاني : الأسير ، والغَلِق : المتروك لا يُفَلُّ ، والقِدُّ : حبلٌ يُشَدُّ به الأسير .
(٥) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/١٢٦) ، ورواه القالي في « الأمالي » (٢/١٧٩) .
(٦) أورده في « البيان والتبيين » (١/٣٩٠) ، و« العقد الفريد » (٢/١٨٨) من قول هُرَيم بن عدي بن أبي طَخْمة ليزيد بن عبد الملك في شأن المهالبة .

مُستدعٍ لشكرهم أو مكافأتِهم أيام قدرتهم ، ولأَنْ يُثنَىٰ عليك باتساع الصدر خير من أن تنسب إلىٰ ضيقه ، وإقالةُ العثرة موجبةٌ إقالة عثرتك من ربك ، وعفوُك عن الناس موصول بعفو الله عنك ، وعقابك لهم موصول بعقاب الله لك ، واللهُ تعالىٰ يحب العافين) [١] .

وقال المنصور : (عقوبةُ الأحرار التعريضُ ، وعقوبةُ الأشرار التصريحُ) [٢] .

وقال المأمون [٣] : [من مخلع البسيط]

لَمَّا رَأَيْتُ ٱلذُّنُوبَ جَلَّتْ عَنِ ٱلْمُجَازَاةِ بِٱلْعِقَابِ
جَعَلْتُ فِيهَا ٱلْعِقَابَ عَفْواً أَمْضَىٰ مِنَ ٱلضَّرْبِ لِلرِّقَابِ

وقال الأحنف : (لا تزالُ العربُ بيّنةَ الفضلِ ما لم تَعُدَّ العفوَ ضيماً والبذلَ سرفاً) [٤] .

وفي الحكمة : (إذا انتقمتَ . . فقد انتصفت ، وإذا عفوتَ . . فقد تفضَّلت) [٥] .

وقال بعض الحكماء : (اقبل العذر وإن كان مصنوعاً إلا أن يكونَ ممَّن أوجبت المروءةُ قطيعتَه ، أو يكونَ في قبُولك عُذرَه تشجيعُه على المكروه ، أو عونُه على الشر ؛ فإنَّ قبولَكَ العذرَ فيه اشتراكٌ في المنكر) [٦] .

❊ ❊ ❊

ويروىٰ في بعض الأخبار : أن ملكاً من الملوك أمر بصنع طعام ، وأحضر له

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٢/١١١) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٨٥) ، وفيه : (عقوبة الحلماء ، وعقوبة السفهاء) بدل (عقوبة الأحرار ، وعقوبة الأشرار) .
(٣) أورد البيتين في « الزهرة » (٢/٩٣) .
(٤) أورده بنحوه المبرد في « الكامل » (١/٢٣٢) ، والخطابي في « غريب الحديث » (٣/٣٨) .
(٥) أورده في « البيان والتبيين » (٢/١١٠) .
(٦) أورده في « بدائع السلك » (١/٤٣١) .

قوماً من خاصته ، فلمَّا استوت مجالسه . . أمر خادماً له أن ينقل الطعام إلىٰ مجلسهم ، فدخل الخادم وعلىٰ خدِّه صحن مَرَق ، فمرَّ في السِّماط ، فلمَّا قرب من الملك . . أدركته الهيبة ، فدَهِشَ وعَثَر ، وانهرقَ من مرق الصحن شيء يسير علىٰ طرف ثوب الملك ، فأمر بضرب عنقه .

فلما رأى الخادم العزيمة علىٰ قتله . . عَمَد إلى الصحن ، فصبَّ جميع ما كان فيه علىٰ رأس الملك ، فقال له : ما هـٰذا ؟! فقال : يا مولاي ؛ إنما صنعت هـٰذا شحاً علىٰ عرضك وغَيرةً عليك ؛ لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي تقتلني به : قتله في ذنب خفيف لم يضره ، وأخطأ فيه العبد ولم يقصده ، فَتُنسَب إلى الظلم والجَوْر ، فصنعت هـٰذا الذنب العظيم ؛ لِتُعذر في قتلي وتُرفع عنك الملامة .

قال : فأطرق الملك طويلاً ، ثم رفع رأسه إليه وقال : يا قبيح الفعل ، يا حسن العذر ؛ قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن عذرك ، وأنت حُرٌّ لوجه الله تعالىٰ ، فاذهب حيث شئت .

ولمَّا دخل الفيل دمشق . . حُشِرَ الناس لرؤيته ، وصَعِدَ معاويةُ إلىٰ عِلِّيَّة له متطلعاً ، فبينما هو كذٰلك . . إذ نظر في بعض الحجر في قصره رجلاً مع بعض حرمه ، فأتى الحُجرة ودقَّ الباب ، فلم يكن من فتحه بُدٌّ ، فوقعت عينه على الرجل فقال له : يا هـٰذا ؛ أفي قصري وتحت جناحي تهتِك حُرمتي وأنت في قبضتي ؟! ما حملك علىٰ ذٰلك ؟ فبُهِتَ الرجل وقال : حِلمُك أوقعني ، قال له معاوية : فإن عفوتُ عنك . . تسترها علي ؟ قال : نعم ، فخلّىٰ سبيله (١) .

وهـٰذا من الدهاء العظيم والحلم الواسع أن يطلب السِّترَ من الجاني ، وهو عَروضُ قول الشاعر (٢) :

[من البسيط]

إِذَا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمُ ... وَتُذْنِبُونَ فَنَأْتِيكُمْ فَنَعْتَذِرُ

---

(١) انظر « الفاضل » (ص ٩٤) .

(٢) عَروض : نظير ، والبيت للمؤمَّل بن أُمَيْل في « الزهرة » (١/٩٦) ، و« معجم الشعراء » (ص ٣٥٢) .

وأُتِيَ موسى الهادي برجل قد جنىٰ جناية ، فجعل يُقرّعه بذنوبه ويتهدده ، فقال الرجل : (إن اعتذاري مما تُقرّعني به ردٌّ عليك ، وإقراري بما ذكرتَه ذنبٌ ، ولٰكني أقول : [من الطويل]

فَـإِنْ كُنْـتَ تَرْجُو فِـي ٱلْعُقُوبَةِ رَاحَةً فَلَا تَزْهَدَنْ عِنْـدَ ٱلْمُعَافَاةِ فِي ٱلْأَجْرِ

فأمر بإطلاقه)[١] .

وقال المهلَّب : (لا شيءَ أبقىٰ للمُلْكِ من العفو)[٢] .

فإنَّ المَلِكَ إذا وَثِقَتْ رعيتُه منه بحسن العفو . . لم يوحشها الذنب وإن عظم ، وإن خَشِيَتْ منه العقوبةَ . . أوحشَها الذنبُ وإن صغر ، حتىٰ يضطرها ذٰلك إلى المعصية .

❀ ❀ ❀

ومن الحكمة البالغة في هٰذا : قول سابور وقد جمع أولاده فقال : (يا بَنِيَّ ؛ إنْ أعجزَكم أن تملؤوا قلوب الرعية حُباً . . فاملؤوها خوفاً ، وليس ذٰلك بأن تحمل العقوبة علىٰ من لا يستحقها ، ولٰكن تعجيلها لمستحقها) .

وفي هٰذا المعنىٰ قال الله تعالىٰ : ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾[٣] ، وهٰذا معنىً لا يختلُّ عمَّا أوجبناه وهو معنىٰ قول سابور ، ولا يخالف هٰذا ما قررناه من حسن العفو ، بل هٰذا محمول على الواجب المُستحَق ، أو علىٰ ما في تركه إغراء بركوب أمثاله ، فهٰهنا يكون العفو مفسدة .

فيا أيها المعاقِب ؛ إذا أقمتَ علىٰ مُذنِبٍ عقوبة . . فلا تكن كالمتشفِّي المتلذِّذ بعذابه ؛ لأنك وإياه أخوان لأب وأم ؛ آدم وحواء ، لم تفضله بحولك وقوتك ، بل بما فضلك الله به تَطوُّلاً عليك .

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢/١٤٤) ، و« بهجة المجالس » (١/٣٧١ ـ ٣٧٢) .
(٢) رواه في « تاريخ دمشق » (٦١/٣٠٢) ، وأورده في « سير أعلام النبلاء » (٤/٣٨٥) .
(٣) سورة الأنفال : (٥٧) .

فاذكر لو كنت في مقامه وكان في مقامك ، ولا تأمنْ تقلب الدهر فتقومَ مقامَه بين يدي من لا يرحم ولا ينظر في العواقب .

واحذر التفريط والتقصير ، وأقم نفسك مذنباً أقيم للعقوبة .

وليكن عقابك مقدراً كما كان عطاؤك مقدراً ، وليكن عقابك للتقويم لا للانتقام ، وللزجر لا للهوىٰ .

وعن هـٰذا قال بُزْرُجِمِهْر : (لا ينبغي للملوك أن يكرموا أحداً بهوان من ليس للهوان أهلاً ، ولا أن يهينوا أحداً بكرامة من ليس للكرامة أهلاً) .

لا تكن على الإساءة أقوىٰ منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل .

وقال الشاعر [1] : [من الطويل]

صَفُـوحٌ عَـنِ ٱلْإِجْـرَامِ حَتَّـىٰ كَأَنَّـهُ ... مِنَ ٱلْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ ٱلنَّاسِ مُجْرِمَا

وَلَيْـسَ يُبَالِـي أَنْ يَكُـونَ بِـهِ ٱلْأَذَىٰ ... إِذَا مَا ٱلْأَذَىٰ بِٱلْكُرْهِ لَمْ يَغْشَ مُسلِمَا

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام : (التنكيل والعقوبة أمنية الملك الشرير ، وعلىٰ مثله يبعث الله ملكاً غير رحيم) .

وقال معاوية : (لا ينبغي للملك أن يظهر منه غضبٌ أو رضاً إلا ثواب أو عقاب) .

وقـال أَرْدَشِـير : (فضل الملك على السُّـوقة إنما هو بقدرتـه على اقتناء المحامـد واسـتفادة المـكارم) [2] ، فكلما اسـتكثر منها . . بانـت فضيلته واستحقاقه لموضعه من الولاية عليهم ، وكلما نقص منها . . قرب من السُّوقة .

---

(١) روى البيتين في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٩٨/م) دون نسبة ، وأوردهما في « زهر الآداب » (٥٤٣/١) للحسن بن رجاء .

(٢) أورده في « تجارب الأمم » ط . الكتب العلمية (١٠٣/١) ضمن عهده .

وقال المأمون : (إني لأَجِد لِعفوي لذةً أعظمَ من لذة الانتقام)[1] .

❊ ❊ ❊

واعلم : أنه إذا عاقب الملك أو أهان علىٰ ظن بغير يقين . . أدخل علىٰ نفسه من قبح الخطأ في الرأي أعظمَ مما أدخل علىٰ صاحبه من العقوبة .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (الغالب بالشر مغلوب ، وما ظَفِرَ من ظَفِرَ بالإثم)[2] .

وقيل لأفلاطون : (أيُّ شيء من أفعال الناس يشبه أفعال الله تعالىٰ ؟ فقال : الإحسان إلى الناس)[3] .

وقال الحكيم : (الحِلمُ فِدَامُ السفيه)[4] .

و : (العفو زكاة العقل)[5] .

وقال الحكيم : (السيد : الذي لا يَشينُ حُسْنَ الظَّفَرِ بقبح الانتقام)[6] .

و : (خير مناقب الملوك : العفو)[7] .

وكان يحيى بن معاذ يقول : (سبحان من أذلَّ العبدَ بالذنب ، وأذلَّ الذنبَ بالعفو !

إلـٰهي ؛ إن عفوت . . فخير راحم ، وإن عذبت . . فغير ظالم .

(١) أورده بنحوه في « البصائر والذخائر » (١٥٣/٨) من قول المنتصر .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (١٩٤/٤) دون نسبة .

(٣) أورده في « نثر الدر » (١٦٠/٤) ، و« محاضرات الأدباء » (٥٧٨/٢) دون نسبة .

(٤) أورده في « ربيع الأبرار » (٣١٢/٢) من قول سيدنا علي رضي الله عنه . والفِدام والفَدَّام : ما يُشدُّ علىٰ فم الإبريق والكُوز من خِرقة لتصفية الشراب الذي فيه ، والمعنىٰ : أن الحلم عنه يغطي فاهُ ، ويسكته عن سفهه .

(٥) القول لابن حبان في « روضة العقلاء » (٨٥٣/٢) ، وأورده في « البصائر والذخائر » (٦٥/٩) دون نسبة .

(٦) أورده بنحوه في « زهر الآداب » (١٨٣/١) من قول ابن المعتز .

(٧) أورده في « بهجة المجالس » (٣٧١/١) من قول المهلب بن أبي صفرة .

إلـٰهي ؛ إن كنتَ لا ترضىٰ إلا عن أهل طاعتك . . فكيف يصنع الخاطئون ؟! وإن كان لا يرجوك إلا أهل وفائك . . فبمن يستغيث المستغيثون ؟!) .

وقال الشاعر[١] : [من الوافر]

وَإِنَّ ٱللَّهَ ذُو حِلْمٍ وَلَٰكِنْ ... بِعِزِّ ٱلْحِلْمِ يَنْتَقِمُ ٱلْحَلِيمُ

وروي أن الحجاج أخذ أخاً لقَطَرِيِّ بن الفجاءة فقال : (لأقتلنك ، قال : ولم ؟ قال : لخروج أخيك عليَّ ، قال : إن معي كتابَ أمير المؤمنين : ألا تأخذني بذنب أخي ، قال : هاته ، قال : فإن معي أوكدَ منه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[٢] ، فعجب من جوابه ، وخلَّىٰ سبيله)[٣] .

ولما وفد عقيل بن أبي طالب علىٰ معاوية . . أمر له بمئة ألف درهم ، فلما أراد الانصراف . . رأىٰ في الطريق جارية بأربعين ألف درهم ، فرجع إلىٰ معاوية فأخبره ، قال : وما تصنع بها ؟ قال : تلد لي غلاماً ، إن أغضَبْتَنِي . . يضرب مفرقك بالسيف ، فأمر له بها فابتاعها ، فولدت له مسلم بن عقيل ، ثم قدم مسلم الشام ، فابتاع منه معاويةُ ضيعةً .

فبلغ الحسينَ بن علي رضي الله عنهما الخبرُ ، فكتب إلىٰ معاوية : إني لا أُجيز بيع مسلم ، فأرسل معاويةُ إلىٰ مسلم فقال : هـٰذا كتاب الحسين يأمر برد المال ، فقال له مسلم : أمَّا دون أن أضرب مفرقك بالسيف . . فلا ، فضحك معاوية وقال : والله ؛ لقد تهددني أبوك بذٰلك قبل أن يشتري أمك ، وسوغه المال ، فقال الحسين حين بلغه ذٰلك : غلبنا معاويةُ حلماً وجوداً) .

❋ ❋ ❋

(١) البيت لعمارة بن عقيل في « ديوانه » (ص ١٠٦) .
(٢) سورة الأنعام : (١٦٤) .
(٣) أورده في « وفيات الأعيان » (٤/٩٥) .

الباب السابع والعشرون
في المشاورة والنصيحة

وهٰذا الباب مما يَعُدُّه الحكماء من أساس المملكة ، وقواعد السلطنة ، ويفتقر إليه الرئيس والمرؤوس ، وقد ذكرناه في باب الخصال الفرقانية[١] ، ونذكر هٰهنا فوائدها ومحاسنها :

اعلموا أرشدكم الله : أن المستشير وإن كان أفضل رأياً من المُشِير فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالسَّلِيط ضوءاً[٢] .

فلا يُقذفن في رُوعك أنك إذا استشرت الرجال .. ظهر للناس منك الحاجة إلىٰ رأي غيرك فيقطعك ذٰلك عن المشاورة ؛ فإنك لا تريد الرأي للفخر به ولٰكن للانتفاع به ، وإن أردتَ الذكر .. كان أفخرَ لذكرك وأحسنَ عند ذوي الألباب لسياستك أن يقولوا : لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه .

ولا يمنعْكَ عزمُك علىٰ إنفاذ رأيك وظهورُ صوابه لك عن الاستشارة ؛ ألا ترىٰ أن إبراهيم عليه السلام أُمِرَ بذبح ابنه عزمة لا مشورة فيها ، فحمَلَه حسنُ الأدب وعلمُه بموقعه في النفوس على الاستشارة فيه ، فقال لابنه : (انظر ماذا ترىٰ ؟) .

وهٰذا من أحسنِ ما يُرسَمُ في هٰذا الباب .

وقد أمر الله تعالىٰ نبيه عليه السلام بمشاورة مَن دونه في الرأي والحزم ؛ فقال تعالىٰ جلَّ ذكره : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[٣] .

---

(١) في (أ ، ج ، هـ) : (العرفانية) .

(٢) السليط : الزيت .

(٣) سورة آل عمران : (١٥٩) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (الرأي الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان كالخيطين ، والثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع)[1] .

ويروىٰ أن رومياً وفارسياً تفاخرا ، فقال الفارسي : (نحن لا نُملِّك علينا من يشاور ، وقال الرومي : ونحن لا نُملِّك علينا من لا يشاور)[2] .

وقال بُزُرْجُمِهْر : (إذا أشكل الرأي على الحازم . . كان بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها ، فالتمسها فوجدها ، كذٰلك الحازم يجمع وجوه الرأي في الأمر المشكل ، ثم يضرب بعضها ببعض حتىٰ يخلص له الصواب)[3] .

وكان يقال : (من كَثُرَتْ استشارتهُ . . حُمِدَتْ إمارتُه) .

وفي حكم الهند : قال بعض الملوك : (إن الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحَزَمَة كما يزداد البحر بموادِّه من الأنهار ، وينال بالحزم والرأي ما لا يناله بالقوة والجند)[4] .

ولم تزل حَزَمَةُ الرجال يَستَحْلُون مرارة قول النصحاء كما يستحلي الجاهلُ المساعدة على الهوىٰ .

وقال المأمون لطاهر بن الحسين : (صف لي أخلاق المخلوع ـ يعني : أخاه الأمين ـ فقال : كان واسع الصدر ، ضيق الأدب ، يُبيحُ من نفسه ما تأنَفُه همم الأحرار ، ولا يصغي إلىٰ نصيحة ، ولا يقبل مشورة ، يستبدُّ برأيه ، فيرىٰ سوء عاقبته ، فلا يردعه ذٰلك عما يَهُمُّ به ، قال : فكيف كانت حروبه ؟ قال : كان يجمع الكتائب بالتبذير ، ويفرقها بسوء التدبير ، فقال المأمون : لذٰلك ما حل

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٣١/١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٩٣) ، وفيهما : (كالخيطين المُبرَمين) ، والسحيل : الخيط الذي فُتِل فتلاً رِخواً ، وخلافه المبرم .

(٢) أورده في « ديوان المعاني » (٣١٣/١) ، وفيه أن الذين لا يملكون من يشاور هم الروم عكس الذي هنا .

(٣) أورده في « ربيع الأبرار » (٤١/٤) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٢٧/١) .

محله ، أَمَا والله ؛ لو ذاق لذات النصائح ، واختار مشورات الرجال ، وملك نفسه عند شهواتها . . ما ظُفِرَ به)[١] .

وقال بعضهم : (إنفاذ الملك الأمورَ بغير روية ، كالعبادة بغير نية ، ولم تزل العقلاء على اختلاف مذاهبهم يستهدون العيوب ويستثيرون صواب الرأي من كل أحد حتى الأَمَة الوَكْعاء)[٢] .

هٰذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (رحم الله امرأً أهدىٰ إلي عيوبي)[٣] .

وكان يقال : (من أعطي أربعاً . . لم يمنع أربعاً : من أعطي الشكر . . لم يُمنع المزيد ، ومن أعطي التوبة . . لم يُمنع القَبول ، ومن أعطي الاستخارة . . لم يمنع الخِيَرة ، ومن أعطي المشورة . . لم يُمنع الصواب)[٤] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا نَدِمَ مَنِ ٱسْتَشَارَ ، وَلَا خَابَ مَنِ ٱسْتَخَارَ »[٥] .

وقال بعضهم : (خميرُ الرأي خير من فَطيره ، وتأخيره خير من تقديمه)[٦] .

وكان عامر بن الطفيل حكيم العرب يقول : (دَعُوا الرأي يَغِبُّ حتىٰ يختمر ، وإياكم والرأيَ الفطير)[٧] ، فتجب الأَناة في الرأي والتثبت .

وذكر صاحب كتاب « التاج » : أن بعض ملوك العجم استشار وزراءه ، فقال

---

(١) رواه ابن طيفور في « كتاب بغداد » (ص ٢٢) ، وأورده الحصري القيرواني في « زهر الآداب » (٥٣٩/١) .

(٢) القول بنحوه لابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢٨/١) ، والوكعاء : الحمقاء .

(٣) رواه الدارمي (٦٧٥) .

(٤) أورده في « البيان والتبيين » (١٩٧/٢) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٩٥) .

(٥) رواه الشهاب في « مسنده » (٧٧٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٦٢٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٦) أورده في « عيون الأخبار » (٣١/١) .

(٧) أورده في « العقد الفريد » (٦٢/١) من قول عامر بن الظَّرِب ، ويَغِب : يبيت .

أحدهم : (لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحداً إلا خالياً ؛ فإنه أَمْوَتُ للسر ، وأحزم في الرأي ، وأجدر بالسلامة ، وأعفىٰ لبعضنا من غائلة بعض)[١] .

وكان بعض ملوك العجم إذا شاور مَرَازِبتَه فقصروا في الرأي . . دعا الموكَّلين بأرزاقهم فعاقبهم ، فيقولون : (تخطئ مَرَازِبتُكَ وتُعاقِبُنا ؟! فيقول : نعم ؛ لم يخطئوا إلا لتعلق قلوبهم بأرزاقهم ، وإذا اهتموا . . أخطؤوا)[٢] .

وكانوا إذا اهتموا بمشاورة رجل . . بعثوا إليه بقوته وقوت عياله لسنته ؛ ليتفرَّغ لبُّه .

وكان يقال : (النفس إذا أحرزت قوتها . . اطمأنت)[٣] .

وإذا شاورت . . فاصدق الخبر بصدقْك المشورةَ[٤] ، ولا تكتم المستشار فتؤتىٰ من قبل نفسك[٥] .

وقال بعض ملوك العجم : (لا يمنعك شدةُ بأسك في باطنك ولا علوُّ مكانك في نفسك من أن تجمع إلىٰ رأيك رأيَ غيرك ؛ فإن أَحمدتَ . . اجتنيت ، وإن أخفقت . . عُذِرت ، فإن في ذٰلك خصالاً ؛ منها : إن وافق رأيَك رأيُ غيرك . . ازداد رأيُك شدةً عندك ، وإن خالف رأيك . . عرضته علىٰ نظرك ؛ فإن رأيته معتلياً لِما رأيته . . قَبِلته ، وإن رأيته مُتَّضِعاً عنه . . استغنيت ، ومن ذٰلك : أنه يجدد لك النصيحة ممن شاورته وإن أخطأ ، ويمحض لك مودته وإن قصر)[٦] .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٢٧/١) ، و« العقد الفريد » (٦٦/١) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٣٢/١) ، ومَرازِبة : جمع مَرْزُبان ؛ وهو الفارس الشجاع المقدَّم على القوم دون الملك .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢١٩/٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١١٦٦) من قول سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(٤) في (ج ، هـ) : (بصدقك النصيحة والمشورة) ، وفي (ب ، د ، و) : (تصدقك) بدل (بصدقك) .

(٥) قوله : (لا تكتم المستشار . . فتؤتىٰ من قبل نفسك) من الأمثال السائرة ، أورده في « مجمع الأمثال » (٦٩٣/٣) من قول سيدنا أبي بكر رضي الله عنه .

(٦) أورده في « عيون الأخبار » (٣٠/١) من قول إبرويز لابنه شيرويه وهو في حبسه .

ولو لم يكن من فضيلة المشاورة إلا أنك إن أصبت مستبداً[١] سلبت فائدة[٢] الإصابة بألسنة الحسدة[٣] ، وقال قائل : هٰذا اتفاق ، ولو فعل كذا .. لكان أحسن ، وإذا شاورت فأصبت .. أحمدت الجماعةُ رأيَك ؛ لأنهم لنفوسهم يحمدون ، وإن أخطأت .. حملت الجماعة عنك خطأك ؛ لأنهم عن أنفسهم يكافحون .

* * *

واعلم : أن القول الغليظ يُستمع لفضل عاقبته ، كما يُتكاره على شرب الدواء المر لفضل مَغَبَّته .

وقال أعرابي : (ما عَثَرْتُ قطُّ حتىٰ عَثَرَ قومي ، قيل له : وكيف ذٰلك ؟ قال : لا أفعلُ شيئاً حتىٰ أشاورَهم)[٤] .

وقيل لرجل من بني عبس : (ما أكثرَ صوابَكم يا بني عبس ! فقال : نحن ألفُ رجل ، وفينا حازمٌ واحدٌ ، ونحن نطيعه ، فكأنَّا ألف حازم)[٥] .

وكان ابن هبيرة أمير البصرة يقول : (اللهم ؛ إني أعوذُ بك من صحبةِ مَنْ غايتُه خاصةُ نفسِه ، والانحطاطُ في هوىٰ مستشيره)[٦] .

وفي حكم الهند : (من التمسَ من الإخوان الرخصةَ عند المشورة ، ومن الأطباءِ عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبهة .. أخطأَ الرأيَ ، وازدادَ مرضاً ، وحملَ الوِزرَ)[٧] .

---

(١) في (ب) : (أصبت مشيراً) ، و(ج ، هـ) : (مستشيراً) ، و(ز) : (مستنداً) .
(٢) في (ج) : (أسكنت فائدة) ، و(ب) : (فضيلة) ، و(هـ) : (سكنت) .
(٣) في (ج ، هـ) : (ألسنة الحسدة) .
(٤) أورده في « البيان والتبيين » (٣٠٣/٢) ، و« عيون الأخبار » (٣٢/١) .
(٥) أورده في « البيان والتبيين » (٣٠٣/٢) ، و« عيون الأخبار » (٣٢/١ ـ ٣٣) .
(٦) أورده في « عيون الأخبار » (٣١/١) ، و« الصداقة والصديق » (ص ١٨٩) .
(٧) أورده في « كليلة ودمنة » (ص ١٣٩) ، و« عيون الأخبار » (٣٠/١) .

وقالت الحكماء : (لا تشاور معلِّماً ، ولا راعيَ غنم ، ولا كثيرَ القعود مع النساء ، ولا صاحبَ حاجةٍ يريد قضاءها ، ولا جائعاً ، ولا من يُرهقه أحدُ السبيلين)[١] .

وقالوا : (لا رأيَ لحاقنٍ ، ولا لحازقٍ ، ولا لحاقبٍ)[٢] .

و : (لا تشاور من لا دقيق عنده)[٣] .

والحازق : هو الذي ضغطه الخُفُّ الضيق ، والحاقب : هو الذي يجد في بطنه رِزّاً[٤] .

وقالوا : (من شكا إلىٰ عاجز . . أعاره من عَجْزه ، وأمدَّه من جَزَعِه) .

وقالوا : (مشاورةُ المشفق الحازم ظَفَر ، ومشاورة المشفق الغير الحازم خَطَر)[٥] .

وقال الإسكندر : (لا تستحقر بالرأي الجزيل من الرجل الحقير ؛ فإن الدُّرَّة لا تستهان لهوان غائصها)[٦] .

وقال الشاعر[٧] : [من البسيط]

اَلـرَّأْيُ كَٱللَّيْـلِ مُسْـوَدٌّ جَوَانِبُـهُ   وَٱللَّيْـلُ لَا يَنْجَلِـي إِلَّا بِمِصْبَـاحِ
فَاضْمُـمْ مَصَابِيـحَ آرَاءِ ٱلرِّجَـالِ إِلَىٰ   مِصْبَـاحِ رَأْيِكَ تَـزْدَدْ ضَـوْءَ مِصْبَاحِ

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/٣١) ، و« العقد الفريد » (١/٦٤) .
(٢) أورده ابن قتيبة في « غريب الحديث » (٢/٣٦١) ، و« عيون الأخبار » (١/٣٢) ، وابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١/٦٤) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/٣٢) .
(٤) الرِّز : الصوت في البطن من القرقرة ونحوها ، وأصل الرِّز : الوجع يجده الرجل في بطنه .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٨) من قول ابن المعتز ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٨٧) دون نسبة .
(٦) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٥٢) .
(٧) أورد البيتين في « العقد الفريد » (١/٦٣) .

وقال آخر [١] : [من البسيط]

وَعَاجِـزُ ٱلـرَّأْيِ مِضْيَـاعٌ لِفُرْصَتِـهِ ... حَتَّـىٰ إِذَا فَـاتَ أَمْـرٌ عَاتَـبَ ٱلْقَـدَرَا
يَقُـولُ يَـا لَيْتَنِـي أَوْ لَيْـتَ كَانَ كَـذَا ... وَيَقْبُـحُ ٱلْعَتْبُ فِي أَمْرٍ مَضَىٰ وَجَرَىٰ

ومن لطيف ما جرىٰ في الاستشارة : أن زياد بن عبيد الله الحارثي استشار عبيد الله بن عمر في أخيه أبي بكر أن يُولِّيَه القضاء ، فأشار به ، فبعث إلىٰ أبي بكر فامتنع عليه ، فبعث زياد إلىٰ عبيد الله يستعين به علىٰ أبي بكر ، فقال أبو بكر لعبيد الله : (أنشدك الله ؛ أترىٰ لي أن أَلِيَ القضاء ، قال : اللهم ؛ لا ، قال زياد : سبحان الله ! استشرتك فأشرت عليَّ به ، ثم أسمعك تنهاه ! فقال : أيها الأمير ؛ استشرتني فاجتهدت لك الرأي ونصحتك ونصحت للمسلمين ، واستشارني فاجتهدت له رأيي ونصحته) [٢] .

وروي أن الحجاج بعث إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة ، فكتب إليه المهلب : (إن من البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره) [٣] .

فَصْلٌ
في النصيحة

اعلموا أرشدكم الله : أن النصح للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين ، قال الله تعالىٰ إخباراً عن نوح عليه السلام : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [٤] .

وقال شعيب عليه السلام : ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [٥] .

---

(١) أورد البيت الأول في « البيان والتبيين » (٢/٣٥٠) ، و« عيون الأخبار » (١/٣٤) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٩) .
(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/٢٥٣) ، و« عيون الأخبار » (١/٣١) .
(٤) سورة هود : (٣٤) .
(٥) سورة الأعراف : (٩٣) .

﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[1] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱلْعَبْدَ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ ٱللهِ . . فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ »[2] .

وروىٰ أبو هريرة أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ ٱلدِّينَ ٱلنَّصِيحَةُ ، إِنَّ ٱلدِّينَ ٱلنَّصِيحَةُ ، إِنَّ ٱلدِّينَ ٱلنَّصِيحَةُ » ، قيل : لمن يا رسولَ الله ؟ قال : « لِلهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَئِمَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ »[3] .

فالنصحُ في الجملة : فعلُ الشيء الذي به الصلاحُ والملاءمة ، مأخوذة من النِّصاحة ؛ وهي : السُّلوك التي يُخاط بها ، وتصغيرها : نُصَيِّحة ، تقول العرب : هٰذا قميصٌ منصوحٌ ؛ أي : مَخِيط ، ونصحته نصحاً ؛ إذا خِطته .

ويختلف النصح في الأشياء لاختلاف الأشياء :

فالنصح لله : هو وصفُه بما هو أهله ، وتنزيهُه عما ليس بأهل له عقداً وقولاً ، والقيامُ بتعظيمه ، والخضوعُ له ظاهراً وباطناً ، والرغبةُ في محابه ، والبعدُ عن مساخطه ، وموالاةُ من أطاعه ، ومعاداةُ من عصاه ، والجهادُ في ردِّ العصاة إلىٰ طاعته قولاً وفعلاً ، وإرادةُ بثِّ جميع ما ذكرناه في عباده .

والنصيحة لكتابه : إقامتُه في التلاوة ، وتحسينُه عند القراءة ، وتفهُّمُ ما فيه واستعماله ، والذَّبُّ عنه من تأويل المجرمين وطعن الطاعنين ، وتعليمُ ما فيه للخلائق أجمعين ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[4] .

---

(١) سورة الأعراف : (٧٩) .

(٢) رواه البخاري (٢٥٤٦) ، ومسلم (١٦٦٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه بهٰذا اللفظ الترمذي (١٩٢٦) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٧٧٤) .

(٤) سورة صٓ : (٢٩) .

والنصيحةُ للرسول صلى الله عليه وسلم : مؤازرتُه ونصرتُه ، والحمايةُ من دونه حياً وميتاً ، وإحياءُ سنته بالطلب ، وإحياءُ طريقته في بثِّ الدعوة ، وتأليفِ الكلمة ، والتخلقِ بالأخلاق الطاهرة .

والنصيحةُ للأئمة : معاونتُهم علىٰ ما تكلفوا القيامَ به في تنبيههم عند الغفلة ، وإرشادِهم عند الهفوة ، وتعليمُهم ما جَهِلوا ، وتحذيرُهم ممن يريد بهم السوء ، وإعلامُهم بأخلاق عُمَّالهم وسيرتهم في الرعية ، وسدُّ خَلَّتهم عند الحاجة ، ونصرتُهم في جمع الكلمة عليهم ، وردِّ القلوب النافرة إليهم .

❊ ❊ ❊

والنصحُ لجماعة المسلمين : الشفقةُ عليهم ، وتوقيرُ كبيرهم ، والرحمةُ لصغيرهم ، وتفريجُ كربهم ، ودعوتُهم إلىٰ ما يسعدهم ، وتَوَقِّي ما يَشغَلُ خواطرَهم ويفتحُ باب الوسواس عليهم .

ومِن النصيحة للمسلمين : رفعُ مُؤنة نفسه وبدنِه وحوائجِه عنهم .

قال الأصمعي : (لَقَطَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه نواةً من الطريق ، فأمسكَها بيده حتىٰ مرَّ بدارِ قومٍ ، فألقاها في الدار ، وقال : يأكلُها داجنُهم)(١) .

❊ ❊ ❊

والنصحُ لجميع المِلل : أن يحبَّ إسلامَهم ، ويدعوَهم إلى الإيمان بالقول ، ويحذِّرَهم سوء مَغَبَّة الكفر بالسيف إن كان ذا سلطان ، أو يكفُّوا عن قتال المسلمين فيكونوا أهل ذمة ، وإلا . . فالقتلُ نصحاً لله لإقامة أمره فيهم .

وروىٰ معاذ بن جبل أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ

---

(١) رواه ابن قتيبة في « غريب الحديث » (٣١٢/١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٠٠٤) ، وداجنهم : ما يعلفونه في منازلهم من الشاء .

عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ : اَلْعَمَلُ لِلهِ ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ ٱلْأَمْرِ ، وَٱلِاعْتِصَامُ بِجَمَاعَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ »[١] .

وقال جابر بن عبد الله : (بايعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم على السمعِ والطاعة ـ فَلَقَّنَنِي : « فِيمَا ٱسْتَطَعْتُ » ـ والنصحِ لكل مسلم)[٢] .

وروىٰ أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[٣] .

وقال أبو الدرداء : (العلمُ يبلُغُه البَرُّ والفاجر ، والحكمةُ يَنطِقُ بها البَرُّ والفاجر ، والنصيحةُ لله تعالىٰ لا تثبتُ إلا في قلوب المنتخبين[٤] الذين صحَّت عقولُهم ، وصدقت نياتُهم) .

واعلم : أنَّ جُرْعة النصيحة مُرَّةٌ لا يَقبلُها إلا أولو العزم .

وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (رحمَ اللهُ امرأً أهدىٰ إليَّ عيوبي)[٥] .

وقال ميمون بن مهران : قال لي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : (قلْ لي في وجهي ما أكرهُ ؛ فإنَّ الرجلَ لا ينصحُ أخاه حتىٰ يقولَ له في وجهه ما يكرَه)[٦] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨٢/٢٠) ، و« الأوسط » (٦٧٧٧) ، و« يُغِلُّ » : من الإغلال ؛ وهو الخيانة في كل شيء ، ويروىٰ « يَغِلُّ » : ـ بفتح الياء ـ من الغِلِّ ، وهو الحقد والشحناء ؛ أي : لا يدخله حقد يُزيله عن الحق ، ويروىٰ « يَغِلُ » ـ بالتخفيف ـ من الوُغول ؛ وهو الدخول في الشر ، والمعنىٰ : أنَّ هـٰذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب ، فمن تمسك بها . . طهر قلبه من الخيانة والحقد والشر .

(٢) رواه البخاري (٧٢٠٤) ، ومسلم (٥٦/٩٩) عن سيدنا جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) .

(٤) في (ج) : (المحبين) ، و(ز) : (المنتجبين) .

(٥) تقدم (ص ٢٨٥) .

(٦) رواه في « حلية الأولياء » (٨٦/٤) ، وفيه : (جعفر بن بُرقان ، قال : قال لي ميمون بن مهران) .

وقال مالك : (النصيحةُ لله في أرضه : هي التي بعث اللهُ تعالىٰ بها أنبياءَه) .

ومن أمرِ الإسلام : القصدُ والنصيحةُ لعباد الله في أمورهم[1] ، فالنفوسُ مستثقلةٌ للنصح ، نافرةٌ عن أهله ، مائلةٌ إلىٰ ما وافقَ هواها .

وفي منثور الحكم : (وَدَّكَ من نَصَحَك ، وقَلاكَ من مشىٰ في هواك)[2] .

وكان يقال : (أخوك من احتملَ ثقلَ نصيحتِك)[3] .

وقال بعضهم[4] : [من الوافر]

عَرَضْتُ نَصِيحَةً مِنِّي لِزَيْدٍ ... فَقَالَ غَشَشْتَنِي وَٱلنُّصْحُ مُرُّ
وَمَا لِي أَنْ أَكُونَ غَشَشْتُ زَيْداً ... وَزَيْدٌ طَاهِرُ ٱلْأَثْوَابِ بَرُّ
وَلَٰكِنْ قَدْ أَتَانِي أَنَّ زَيْداً ... يُقَالُ عَلَيْهِ فِي بَقْعَاءَ شَرُّ
فَقُلْتُ لَهُ تَجَنَّبْ كُلَّ شَيْءٍ ... يُقَالُ عَلَيْكَ إِنَّ ٱلْحُرَّ حُرُّ

وقال آخر[5] : [من مجزوء الكامل]

وَعَلَى ٱلنَّصُوحِ نَصِيحَتِي ... وَعَلَيَّ عِصْيَانُ ٱلنَّصُوحْ

وللقَطامي[6] : [من الوافر]

وَمَعْصِيَةُ ٱلشَّفِيقِ عَلَيْكَ مِمَّا ... يَزِيدُكَ مَرَّةً مِنْهُ ٱسْتِمَاعَا
وَخَيْرُ ٱلْأَمْرِ مَا ٱسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ ... وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ ٱتِّبَاعَا

---

(١) زيد في (ج) : (ولأولي العزم) .
(٢) أورده في « المستطرف » (٢٥٤/١) .
(٣) أورده في « البخلاء » (ص ١٩٠) .
(٤) أورد الأبيات المبرد في « الكامل » (٦١/١) ، والأصبهاني في « الزهرة » (١٩٧/١) لمخيّس بن أرطاةَ ، وبقعاء : قرية من قرى اليمامة .
(٥) البيت للصنوبري في « ديوانه » (ص ٤١٢) بلفظ :
وعلى النصيح ملامتي ... وعليَّ أن أعصي النصيح
(٦) البيتان في « ديوانه » (ص ٢٦٣) .

ولورقة بن نوفل [1] : [من البسيط]

لَقَدْ نَصَحْتُ لِأَقْوَامٍ وَقُلْتُ لَهُمْ ... أَنَا ٱلنَّذِيرُ فَلَا يَغْرُرْكُمُ أَحَدُ
لَا شَيْءَ مِمَّا تَرَىٰ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ ... إِلَّا ٱلْإِلٰهُ وَيُودِي ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْماً خَزَائِنُهُ ... وَٱلْخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا

وقال وهب بن منبه : (إنما يحسنُ الاختيارَ لغيره من يحسنُ الاختيارَ لنفسه ، ولا خيرَ لك فيمن لا خيرَ له في نفسه) [2] .

وقالت العلماء : (لن ينصحَك امرؤٌ لا ينصحُ لنفسه) .

وقال بعضهم : (رأيي ورأيُك في المعرفة أمثلُ لنفسك من رأيك ؛ لأنه خِلْوٌ من هواك) [3] .

وقال أبو الدرداء : (إن شئتم . . لأنصحن لكم ؛ إنَّ أحبَّ عبادِ الله إلى الله : الذين يُحبِّبون اللهَ إلىٰ عباده ، ويعملون في الأرض نُصحاً) [4] .

وروي أنَّ رجلاً لَطَم إبراهيمَ بنَ أدهم رحمه الله ، فرفع رأسه إلى السماء وقال : (إلٰهي ؛ إنك تُثِيبُني وتعاقبه ، فلا تُثبني ولا تعاقبه) [5] .

ومن الخصال التي تجري مجرى الجمال والكمال : الحِلْمُ .

* * *

(١) أورد الأبيات في « نسب قريش » (ص ٢٠٨) ، و« الأغاني » (٩٦٧/٣) .
(٢) روى الشطر الأول في « روضة العقلاء » (٤٣٦/١) من قول رجل من الأعراب .
(٣) أورده بنحوه في « لباب الآداب » (ص ٤٥٦) .
(٤) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (٧٧٠) .
(٥) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٤) ، و« إحياء علوم الدين » (٣١٤/٦) .

الباب الثامن والعشرون

في الحلم ومحاسنه، ومحمود عواقبه

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾[٢] .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (الصفحُ الجميلُ : الرضا بلا عتاب)[٣] .

وقيل : (الصفحُ الجميلُ : الرضا بلا توبيخٍ فيه ولا حِقْدٍ معه)[٤] .

وفي الأمثال القديمة : (كاد الحليم أن يكون نبياً)[٥] .

ويروىٰ أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ علِّمني كلماتٍ أعيشُ بهنَّ ، ولا تُكثر عليَّ فأنسىٰ ، قال : « لَا تَغْضَبْ »[٦] .

واعلم : أن الحِلم أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب ؛ لما فيه من راحة السر ، واجتلاب الحمد .

---

(١) سورة هود : (٧٥) .

(٢) سورة الحجر : (٨٥) .

(٣) رواه ابن الفرضي في « تاريخ العلماء بالأندلس » (١/٣٧٦) .

(٤) قاله سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالىٰ . انظر « تفسير التستري » (ص ٨٩) ، وتفسير الماوردي « النكت والعيون » (٣/١٧٠) .

(٥) رواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٢/٣٨٠) عن يزيد القرشي ، عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٢٢١) ، وقال : (هٰذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويزيد القرشي متروك) .

(٦) رواه بهٰذا اللفظ الإسماعيلي في « معجمه » (٢٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر « صحيح البخاري » (٦١١٦) .

وأحق الناس به : السلطان ؛ لأنه منصوب لإقامة أَوَدِ الخلائق ، وممارسة أخلاقهم ، ولا يُطيفون به في حال سلمهم ، وإنما يَغْشَون بابه حين تَنازُعِهِم وخصوماتهم وشرورهم ، وتكدُّرِ نفوسهم ، وضيق أخلاقهم ، فإن لم يكن معه حلم يرد به بوادرهم ، وإلا . . وقع تحت حمل ثقيل .

وكان أنوشَرْوان ذا حِلمٍ وأَناةٍ ، وكان يقول : (فيَّ خَصلتان لولا أنهما ظاهرتان عند الرعية . . لضقت بهما ذرعاً : الحِلمُ ، والأَناة) .

وروي أن يحيى بن زكريا عليهما السلام لقي عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : (يا روح الله ؛ أخبرني بأشد الأشياء في الدارين ، قال : غضب الله تعالىٰ ، قال : يا روح الله ؛ وما ينجيني من غضب الله تعالىٰ ؟ قال : ترك الغضب ، قال : يا روح الله ؛ كيف بدوُّ الغضب ؟ قال : التعزز ، والتكبر ، والفخر على الناس) .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وَجَبَتْ مَحَبَّةُ ٱللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَنْ أُغْضِبَ فَحَلُمَ »(١) .

والذي بحلمه تضرب الأمثال في هٰذا الباب : قصة إسحاق(٢) عليه السلام ؛ قال له إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٣) ، ثم إنه تلَّه للجبين وأَمَرَّ علىٰ حَلْقه السكين ، فلم يقل إلا خيراً ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾(٤) .

---

(١) رواه الشهاب في « المسند » (٥٦٩) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/٣٧٨) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٢) في (ز) : (إسماعيل) ، واختلف العلماء في المذبوح ؛ هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ والأكثرون علىٰ أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام . انظر « تهذيب الأسماء واللغات » (١/٣٠٤) ، و« نسيم الرياض » (٢/٢٢٣ ـ ٢٢٤) .

(٣) سورة الصافات : (١٠٢) .

(٤) سورة الصافات : (١٠١) .

وفي الأخبار : يقول إبليس لعنه الله : إن الحديد من الرجال لم نيئس منه وإن كان يحيي الموتىٰ بدعائه ؛ لأنه يأتي عليه ساعة يحتَدُّ فيها ، فنصير منه إلىٰ ما نريد(١) .

* * *

ويروىٰ أن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما دخل على الرشيد وقد استخفه الغضب ، فقال له : (يا أمير المؤمنين ؛ إنك إنما تغضب لله تعالىٰ ، فلا تغضب له بأكثر من غضبه لنفسه)(٢) .

واعلم أرشدك الله تعالىٰ : أن هـٰذه الكلمة لا قيمة لها ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، فما أفخمَها ، وأجلَّ قدرَها ، وأعظمَ شأنَها ! لأنك إذا كنت أيها السلطان إنما تتصرف في ملك الله بأمر الله . . فالله تعالىٰ قد حدَّ حدوداً ، وشرع شرائع ، وأقام فروضاً وسنناً ، ونهىٰ عن حدود ورسوم ، ثم قدر في كل خصلة عند مخالفته حداً محدوداً ، ونهىٰ أن يُتجاوز ذٰلك الحد ؛ فلا يُقتل من استحق القطع والحبس والأدب والحد ، ولا يقطع من استحق القتل والأدب ، ولا يُحبس غير من استوجب الحبس .

* * *

وكانت الخلفاء يؤدبون الناس علىٰ قدر منازلهم ؛ فمن عَثَرَ من ذوي المروءات . . أُقِيلت عثرتُه ، ولم يقابل بشيء ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أَقِيلُوا ذَوِي ٱلْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ »(٣) .

ومَنْ سواهم كان يُقابل علىٰ قدر منزلته وهفوته ؛ فكان بعضهم يُقام قائماً في مجلس يقعد فيه نظراؤه ، فتكون هـٰذه عقوبتَه وتأديبه ، وآخرُ يُشَقُّ جيبه ،

---

(١) رواه مطولاً في « حلية الأولياء » (٤/٥٢ ـ ٥٣) .
(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٥/٦٢٣) ، و« إتحاف السادة المتقين » (٨/٢٤) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٣٧٥) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٢٥٣) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

وآخرُ تُنزَعُ عمامتُه من رأسه ، وآخرُ يُكَلَّم بالكلام الذي فيه بعض الغِلظة .

وقال الشعبي : (كانت القضاة [١] في زمن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم إذا أخل الرجل منهم بثَغرِهِ .. نزعت عمامته ، وطِيف به في المسجد علىٰ قومه ، وقيل : هـٰذا أُخِذَ بثَغْرِهِ ، فلما ولي زياد .. ضربهم ونزع عمائمهم ، فلما ولي مصعب بن الزبير .. حلق مع الضرب رؤوسهم ، فلما ولي بشر بن مروان .. أقامهم على الكراسي ، ثم مُدَّت أيديهم وسَمَّرها بمسامير ، ثم نَزَعَ الكرسي من تحت رجليه حتىٰ تنخرم يده ؛ فمِن ميتٍ ومِن حي ، فلما ولي الرجل المعروف بالحجاج .. قالَ : كل هـٰؤلاء يلعب ، من أُخِذَ بثَغْره .. ضُرِبت عُنقُه) [٢] .

وقال أرِسطاطاليس : (النفسُ الذليلةُ لا تجد ألمَ الهوان ، والنفسُ الشريفة يُؤثِّر فيها يسيرُ الكلام) [٣] .

وفيه قيل [٤] : [من الخفيف]

مَـنْ يَهُـنْ يَسْـهُلِ ٱلْهَـوَانُ عَلَيْـهِ مَـا لِجُـرْحٍ بِمَيِّـتٍ إِيـلَامُ

واعلم : أن من تجاوز في العقوبة فوق ما حد الله سبحانه فيها .. فقد شارك المجرم في الذنب ، واستوجب ما استوجبه المجرم من العقوبة ، وتبين بالآخرة أنه إنما يعاقب للهوىٰ والتشفي ، إذاً : فما غَضِبَ لله تعالىٰ .

وفي كتاب سليمان بن داوود عليهما السلام : (القاهر لنفسه أشد ممن يفتتح مدينة وحده) .

---

(١) في (هـ ، و ، ز) : (العصاة) .
(٢) أورده مختصراً في « الكامل في التاريخ » (٤٢٥/٣) .
(٣) أورده في « معاهد التنصيص » (١٩٠/٤) .
(٤) البيت للمتنبي في « ديوانه » (٩٤/٤) .

وصدق نبي الله عليه السلام ؛ فإن السلطان يفتتح المدينة ، ويقهر أهلها ، ويغلبُ جنودها وكُماتها ، ويقتل أبطالها وحماتها ، ثم تغلبه شهوته ، ويبقىٰ أسيراً في ذل هواه ، قد قهرته قَينةٌ بطُنبورها ، أو قَدَحُ خمر يذهب بعقله .

وقال أكثم بن صيفي : (الصبر علىٰ جُرَعِ الحِلم أعذب من جَنْيِ ثمرِ الندم)(١) .

وسأل عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه كبيراً من كبراء فارس عن أحمد ملوكهم عندهم ، قال : (لأَردشير فضلُ السبق ، غير أن أحمدَهم سيرة : أنوشَروان ، قال : فأيُّ أخلاقه كان أغلب عليه ؟ قال : الحِلم ، والأناة ، فقال علي عليه السلام : هما توءمان يُنتجهما علو الهمة)(٢) .

ومن محمود السيرة : أن يعرف الناس من أخلاقك أنك لا تعجَل بالثواب ولا بالعقاب ؛ فإن ذٰلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي .

وقال محمود الوراق(٣) : [من الطويل]

سَأُلْزِمُ نَفْسِي ٱلصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ   وَإِنْ عَظُمَتْ مِنْهُ عَلَيَّ ٱلْجَرَائِمُ
فَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ   شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلِي مُقَاوِمُ
فَأَمَّا ٱلَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ   وَأَتْبَعُ فِيهِ ٱلْحَقَّ وَٱلْحَقُّ لَازِمُ
وَأَمَّا ٱلَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ   إِجَابَتِهِ نَفْسِي وَإِنْ لَامَ لَائِمُ
وَأَمَّا ٱلَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا   تَفَضَّلْتُ إِنَّ ٱلْحِلْمَ بِٱلْفَضْلِ حَاكِمُ

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : (أسرعُ الناس جواباً : من لم يغضب)(٤) .

---

(١) أورده في « البصائر والذخائر » (١/١٥٤) .
(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥) ، و« محاضرات الأدباء » (١/٤٥٦) .
(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٤٩) .

لا توقدنَّ بين جنبيك جمرة الغضب ، واردد إساءته بالحلم ؛ فإن شجر النار[1] إذا ألحت عليها الرياح . . تحاكَّت أغصانها ، فتشتعل ناراً وتحترق من أصولها ، فيكون منها الطباشير[2] .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : (ثلاثٌ من اجتمعن فيه . . فقد سَعِدَ : من إذا غضب . . لم يُخرجه غضبُه عن الحق ، وإذا رضي . . لم يُدخله رضاه في باطل ، وإذا قَدَرَ . . عَفَّ وكَفَّ)[3] .

وسئل جعفر بن محمد رضي الله عنهما عن حَدِّ الحِلم ، فقال : (وكيف يعرف فضل شيء مَن لم ير كمالَه في أحد ؟!)[4] .

وقال الأحنف لابنه : (يا بُني ؛ إذا أردتَ أن تؤاخيَ رجلاً . . فأغضبه ، فإن أنصفَك ، وإلا . . فاحذره)[5] .

قال الشاعر[6] : [من الطويل]

إِذَا كُنْتَ مُخْتَصّاً لِنَفْسِكَ صَاحِباً ... فَمِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْدَأْهُ بِٱلْوُدِّ أَغْضِبْهُ
فَإِنْ كَانَ فِي حَالِ ٱلتَّغَضُّبِ مُنْصِفاً[7] ... وَإِلَّاهُ فَٱصْرِمْ حَبْلَهُ وَتَجَنَّبْهُ

وكان سَلْمُ بنُ نوفل سيدَ بني كنانة ، فضربه رجل من قومه بسيفه ، فأُخِذَ فأُتِيَ به إليه ، فقال له : ما الذي فعلتَ ؟! أما خشيتَ انتقامي ؟! قال : فلِمَ

---

(١) في (ج) : (شجر البان) .
(٢) الطباشير : دواء يكون في جوف القنا الهندي محترقاً ؛ لاحتكاك أطرافها عند عصف الرياح بها .
(٣) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (١/٢٩٠) من قول لقمان الحكيم رضي الله عنه ، و« العقد الفريد » (٢/٢٨٢) دون نسبة .
(٤) أورده في « العقد الفريد » (٢/٢٨٢) من قول كسرىٰ أنوشروان .
(٥) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٩٠) من قول لقمان الحكيم رضي الله عنه لابنه .
(٦) أورد البيتين في « فاكهة الخلفاء » (ص ١١٥) بلفظ :

إذا رُمتَ أن تصفي لنفسك صاحباً ... فمن قبلِ أن تصفي له الودَّ أغضبْهُ
فإن كان في وقت التغاضُبِ راضياً ... وإلا فقد جربْتَهُ فتجنَّبْهُ

(٧) في (د) : (في حال التغيظ صابراً) .

سوَّدناك إلا أن تكظِمَ الغيظَ ، وتعفوَ عن الجاني ، وتحلم عن الجاهل ، وتحتمل المكروه في النفس والمال ، فخلىٰ سبيله ، فقال قائلهم : [من الطويل]

يُسَــوَّدُ أَقْــوَامٌ وَلَيْسُــوا بِسَــادَةٍ ... بَلِ ٱلسَّيِّدُ ٱلْمَعْرُوفُ سَلْمُ بْنُ نَوْفَلِ (١)

وقال رجل من كلب للحكم بن عوانة : (إنما أنت عبد ، فقال : والله ؛ لأعطينك عطية ما يعطيها العبد ، فأعطاه مئة رأس من السبي) (٢) .

ومن أمثال العرب : (احلُم . . تَسُدْ) (٣) .

ويروىٰ أن هشاماً غضب علىٰ رجل من أشراف الناس فشتمه ، فوبخه الرجل وقال : (أما تستحي أن تَشتِمني وأنت خليفة الله في أرضه ؟! فاستحيا هشام وقال : اقتص ، فقال : إذاً أكون سفيهاً مثلك ! قال : فخذ عن ذٰلك عوضاً من المال ، قال : ما كنت لأفعل ، قال : فهبها لله ، قال : هي لله ثم لك ، فنكَسَ هشام رأسه وقال : والله ؛ لا أعود إلىٰ مثلها أبداً) (٤) .

وقال الشاعر (٥) : [من البسيط]

لَـنْ يَبْلُـغَ ٱلْمَجْـدَ أَقْـوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا ... حَتَّـىٰ يَذِلُّـوا وَإِنْ عَـزُّوا لِأَقْـوَامِ
وَيُشْـتَمُوا فَتَـرَى ٱلْأَلْـوَانَ مُسْـفِرَةً ... لَا صَفْـحَ ذُلٍّ وَلَٰكِنْ صَفْـحَ إِكْـرَامِ

وقال آخر (٦) : [من الطويل]

وَجَهْـلٍ رَدَدْنَـاهُ بِفَضْـلِ حُلُومِنَـا ... وَلَـوْ أَنَّنَـا شِـئْنَا رَدَدْنَـاهُ بِٱلْجَهْـلِ

---

(١) أورد الخبر مع البيت في « العقد الفريد » (٢/٢٨٨) ، و« البصائر والذخائر » (٣/ ٥١ ـ ٥٢) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٩٠٤) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٨٢) .
(٤) أورده ابن الأبَّار بنحوه في « إعتاب الكتاب » (ص ٦٠) ، وفيه : أن المشتوم هو كاتب هشام سعيد بن الوليد الكلبي الأبرش .
(٥) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي في « ديوانه » (ص ١٨٧) ، وأوردهما في « البصائر والذخائر » (٩/٢٠٢) للنظَّام ، و« الحماسة البصرية » (٢/٧٩١) لعبيد الله بن زياد الحارثي .
(٦) أورد البيتين في « غرر الخصائص الواضحة » (ص ٣٧٣) .

رَجَحْنَا وَقَدْ خَفَّتْ حُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَعُدْنَا عَلَىٰ أَهْلِ ٱلسَّفَاهَةِ بِٱلْفَضْلِ

وقال هشام لخالد بن صفوان : (صِفْ لي الأحنف بن قيس ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن شئت .. أخبرتك عنه بثلاث ، وإن شئت .. باثنتين ، وإن شئت .. بواحدة ، قال : أخبرني عنه بثلاث ، قال : كان لا يحرص ، ولا يجهل ، ولا يدفع الحق إذا نزل به ، قال : فأخبرني عنه باثنتين ، قال : كان يأتي الخير ، ويتوقى الشر ، قال : فأخبرني عنه بواحدة ، قال : كان أعظمَ الناس سلطاناً علىٰ نفسه)[1] .

وقال أكثم بن صيفي : (الغَلَبَةُ والعِزُّ للحِلم)[2] .

وقال الأحنف : (وجدت الحِلم أنصرَ لي من الرجال)[3] .

وصدق الأحنف ؛ فإنَّ مَن حَلُمَ .. كان الناسُ أنصارَه .

كما روي أن رجلاً أسرع في شتم بعض الأدباء وهو ساكت ، فحمىٰ له بعض المارّين في الطريق وقال له : (يرحمك الله ؛ ألا أنتصر لك ؟ قال : لا ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأني وجدت الحِلمَ أنصرَ لي من الرجال ، وهل حاميت لي إلا لحلمي ؟!) .

وقال رجل لعمرو بن العاص : (والله ؛ لأتفرَّغَنَّ لك ، قال : الآن وقعت في الشغل يا بن أخي)[4] .

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : (إن رجلاً ممن كان قبلكم استضاف قوماً ، فأضافوه ولهم كلبة تنبح ، فقالت : والله ؛ لا أنبح ضيفَ أهلي

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٢٨) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٨٤) .
(٣) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٨٢١) ، وأورده في « العقد الفريد » (٢/٢٨٣) .
(٤) أورده في « العقد الفريد » (٢/٢٧٥) ، و« بهجة المجالس » (١/٩٦) .

الليلة ، فعوىٰ جراؤها في بطنها ، فبلغ ذٰلك نبياً لهم أو قَيْلاً من أقيالهم ، فقال : مثل هٰذا مثل أُمَّة تكون بعدكم يظهر سفهاؤها علىٰ حلمائها)[١] .

وقال الأحنف : (إياكم ورأيَ الأوغاد ، قالوا : وما رأي الأوغاد ؟ قال : الذين يرون الصفح والعفو[٢] عاراً)[٣] .

وسئل الأحنف عن الحلم فقال : (هو الذل يُصبر عليه ، ولست بحليم ولٰكني صبور)[٤] .

ويروىٰ أن المهلب نازعه رجل من كبار بني تميم ، فأربىٰ على المهلبِ والمهلبُ ساكت ، فقيل له في ذٰلك ، فقال : (كنتُ إذا سبَّني . . استحييت من سُخف السِّباب ، ورغبت عن غلبةِ اللئام والسَّفِلة ، وكان إذا سبني . . تهلَّل وجهُه وشَمخت نفسُه ، فإن ظَفِرَ . . فبفضل القِحَة ، ونبذِ المروءة ، وخلعِ رِبْقة الحياء ، وقلةِ الاكتراث بسوء الثناء)[٥] .

ومر المسيح عليه السلام علىٰ قوم من اليهود فقالوا له شراً ، وقال لهم خيراً ، فقيل له : (إنهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً ! فقال : كل ينفق مما عنده)[٦] .

وقال أكثم بن صيفي : (من حَلُم . . ساد ، ومن تفهم . . ازداد ، وكفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، ولقاء الإخوان غنم ، والمباشرة يمن ، ومن الفساد إضاعة الزاد)[٧] .

---

(١) رواه الرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٦٠) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً .
(٢) في (د) : (الصفح والحلم) .
(٣) أورده بنحوه الجاحظ في « كتاب فصل ما بين العداوة والحسد » ضمن رسائله (١/٣٦١) ، والبلاذري في « أنساب الأشراف » (٤/١٧٢) .
(٤) أورده بنحوه في « بهجة المجالس » (١/٦١٨) .
(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/٤٥) .
(٦) أورده في « العقد الفريد » (٢/٢٧٦) ، و« إحياء علوم الدين » (٥/٦٣٧ ـ ٦٣٨) .
(٧) أورده إلىٰ قوله : (ازداد) في « البيان والتبيين » (٤/٩٣) من قول عبد الملك بن صالح ، وإلىٰ قوله : ←

وسب رجل الشعبي بقبائح نسبها إليه ، فقال الشعبي : (إن كنتَ كاذباً . . فغفر الله لك ، وإن كنت صادقاً . . فغفر الله لي)[١] .

وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : (لأَسبَّنَّك سبّاً يدخل معك في قبرك ، فقال أبو بكر : معك واللهِ يدخل لا معي)[٢] .

وقال رجل للأحنف بن قيس : (إن قلت لي كلمة . . لتسمعن عشراً ، فقال : لكنك لو قلت عشراً . . لم تسمع مني واحدة)[٣] .

ويروىٰ أن رجلاً سب الأحنف وهو يماشيه في الطريق ، فلما قرب من المنزل . . وقف الأحنف وقال : (يا هـٰذا ؛ إن كان بقي معك شيء . . فهاته وقله هـٰهنا ؛ فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك ، ونحن لا نحب الانتصار)[٤] .

وسب رجل بعض الحكماء ، فقال له الحكيم : (لست أدخل في حربٍ الغالبُ فيه شرٌّ من المغلوب)[٥] .

وقال لقيط بن زُرارة[٦] : [من الطويل]

فَقُـلْ لِبَنِـي سَـعْدٍ فَمَا لِي وَمَـا لَكُمْ ... تُرِقُّـونَ مِنِّـي مَـا ٱسْـتَطَعْتُمْ وَأُعْتِـقُ
أَغَرَّكُـمُ أَنِّـي بِأَحْسَـنِ شِـيمَةٍ ... بَصِيـرٌ وَأَنِّـي بِٱلْفَوَاحِـشِ أَخْـرَقُ
وَأَنَّـكَ قَـدْ سَـابَبْتَنِي فَقَهَرْتَنِـي ... هَنِيئـاً مَرِيئـاً أَنْـتَ بِٱلْفُحْـشِ أَحْذَقُ

← (شؤم) في « العقد الفريد » (٣/١٥٧) من قول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وانظر « بهجة المجالس » (٢/١٨٧) .

(١) أورده الجاحظ في « البيان والتبيين » (٢/٧٨) ، والمبرد في « الكامل » (٢/٥١٤) .

(٢) أورده المبرد في « الكامل » (٢/٥١٤) ، وابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٢٧٥) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٨٥) دون نسبة ، و« محاضرات الأدباء » (١/٤٦٢) منسوباً للأحنف رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (١/٢٨٧) .

(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/٤٥) .

(٦) أورد الأبيات في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٠٥) ، و« الزهرة » (٢/٢٠٠) دون البيت الأول ، وأخرق : أحمق .

وقال رجل لأبي ذر رضي الله عنه : (أنت الذي نفاك معاوية من الشام ، لو كان فيك خير . . ما نفاك ، فقال : يا بن أخي ؛ إن ورائي عقبةً كؤوداً ؛ إن نجوتُ منها . . لم يضرني ما قلت ، وإن لم أنجُ منها . . فأنا شرٌّ مما قلت)(١) .

وقال لقمان لابنه : (يا بُني ؛ ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه)(٢) .

وسبَّ رجلٌ بعضَ الحكماء فأعرض عنه ، فقال له : (إيَّاك أعني ، فقال له الحكيم : وعنك أُعرِضُ)(٣) .

وفي هٰذا المعنىٰ قيل(٤) : [من البسيط]

قُـلْ مَـا بَدَا لَكَ مِـنْ زُورٍ وَمِنْ كَذِبٍ　　حِلْمِـي أَصَـمُّ وَأُذْنِـي غَيْـرُ صَمَّـاءِ

* * *

وقيل يوماً للأحنف : (ما أحلمَك ! فقال : لست بحليم ولٰكني أتحالم ، والله ؛ إني لأسمع الكلمة فأُحَمُّ لها ثلاثاً ، ما يمنعني من جوابها إلا الخوف من أن أسمع ما هو شر منها)(٥) .

وقال الشاعر(٦) : [من الطويل]

وَلَيْـسَ يَتِـمُّ ٱلْحِلْـمُ لِلْمَـرْءِ رَاضِيـاً　　إِذَا كَانَ عِنْـدَ ٱلسُّـخْطِ لَا يَتَحَلَّـمُ

كَمَـا لَا يَتِـمُّ ٱلْجُـودُ لِلْمَـرْءِ مُوسِـراً　　إِذَا كَانَ عِنْـدَ ٱلْعُسْـرِ لَا يَتَجَشَّـمُ

---

(١) أورده بنحوه في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٤٤) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٧٦/٢) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٢٠) .

(٣) أورده المبرد في « الكامل » (٩٨٣/٢) دون نسبة ، والماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٠٥) ، وفيه : (وأسمع رجل ابن هبيرة . . .) .

(٤) البيت لبشار في « ديوانه » (١٥٠/١) .

(٥) رواه بنحوه ابن سعد في « الطبقات » (٩٤/٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦١٣٩) ، وفي (ج) : (فأهم) بدل (فأحم) .

(٦) أورد البيتين في « الزهرة » (٢٠٣/٢) ، و« ديوان المعاني » (٣٠٧/١) .

ويروىٰ أن رجلاً سب الإمام جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما ، فقال : (أما ما قلت مما هو فينا . . فإنا نستغفر الله منه ، وما قلت مما ليس فينا . . فإنا نكلك فيه إلى الله تعالىٰ) .

وقال بعض الحكماء : (احذروا الغضب ؛ فرب غضب استحق الغضبانُ به غضبَ الله تعالىٰ)[1] .

وقال أكثم بن صيفي : (لا يكون الرجل حليماً حتىٰ يقول السفيه : إنه لضعيف مستذل ، ولا يكون مخلصاً حتىٰ يقول الأحمق : إنه لمفسد) .

ومن أشعر بيت قيل في الحلم : قول كعب بن زهير[2] : [من الطويل]

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ ٱلْجَهْلِ وَٱلْخَنَا أَصَبْتَ حَلِيماً أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلُ

ووصف أعرابي رجلاً فقال : (كان أحلمَ من فرخ طائر)[3] .

وقال أعرابي : (إن الغضب عدو العقل ؛ ولذٰلك يحول بين صاحبه وبين العقل والفهم)[4] .

وقال صعصعة بن صُوحان : (الغضب مِقدحةُ العقل ؛ فربما أصلدَ ، وربما أزندَ) .

وقال أعرابي : (إذا جاء الغضب . . تسلط العطب)[5] .

وكان ابن عون إذا غضب علىٰ أحد من أهله . . قال : (سبحان الله ! بارك الله فيك)[6] .

---

(١) أورده في « غرر الخصائص » (ص ٣٩٦) .

(٢) البيت في « ديوانه » (ص ٢٥٧) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٢٨٤/١) دون نسبة ، و« العقد الفريد » (٢٨٠/٢) ، وفيه : (كان سنان بن أبي حارثة أحلمَ من فرخ الطائر ، قلت : وما حلم فرخ الطائر ؟ قال : إنه يخرج من بيضة في رأس نِيق ـ أرفعِ موضع في الجبل ـ ولا يتحول حتىٰ يتوفر ريشُه ، ويقوىٰ على الطيران) .

(٤) أورده في « غرر الخصائص » (ص ٣٩٦) .

(٥) أورده في « بدائع السلك » (٤٤٠/١) .

(٦) رواه بنحوه في « تاريخ دمشق » (٣٥٢/٣١) .

وقال الأصمعي : (دفع أردشيرُ إلىٰ رجل كان يقوم علىٰ رأسه كتاباً ، وقال له : إذا رأيتني اشتد غضبي . . فادفعه إلي ، وكان فيه : اسكن فلست بإلـٰه ، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً ، وتصيرَ عن قريب للدود والتراب)[١] .

وهـٰذه السيرة أول من سنها ملك تُبَّع ؛ أمر أن يكتب في كتاب : (اسكن فلست بإلـٰه) ، وقال لصاحبه : (إذا غضبت . . فاعرضه عليَّ) ، فكان إذا غضب . . عرضه عليه ، فإذا قرأه . . سكن غضبه .

وقال معاوية : (أفضل ما أعطي الرجل : العقلُ ، والحلمُ ؛ فإذا ذُكِّر . . ذَكَر ، وإذا أعطي . . شكر ، وإذا ابتلي . . صبر ، وإذا غضب . . كظم ، وإذا قدر . . عفا ، وإذا أساء . . استغفر ، وإذا وعد . . أنجز)[٢] .

وفي الحكمة مكتوب : (من أطاع الغضب . . حُرم السلامة ، ومن عصى الحق . . غمره الذل)[٣] .

وقال بعض الحكماء : (كظم الغيظ حلم ، والحلم صبر ، والتشفي ضرب من الجزع)[٤] .

وقال آخر : (أول الغضب : جنون ، وآخره : ندم)[٥] .

وقال بعض الحكماء : (إذا غلب على الرجل أربع خصال . . فقد عَطِب : الرغبة ، والرهبة ، والشهوة ، والغضب) .

❁ ❁ ❁

وقيل لبعض الصالحين : (إن فلاناً يقع فيك ، فقال : لأغيظن مَنْ أَمَره ؛

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٧٣) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٣١٣) .
(٢) رواه الطبري في « تاريخه » (٥/٣٣٦) ، وأورده بنحوه الحصري القيرواني في « زهر الآداب » (١/٤٩) .
(٣) قوله : (من أطاع . . . السلامة) أورده في « بدائع السلك » (١/٤٤٠) .
(٤) أورده في « البيان والتبيين » (٢/١١٠) .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٠) ، و« بهجة المجالس » (١/٣٧٦) .

يغفر الله لي وله ، قيل : ومن أمره ؟ قال : الشيطان)[1] .

وقال رجل لأخيه : (إني مررت بفلان وهو يقع فيك ويذكرك بأشياء رحمتُك منها ، قال : فهل سمعتني أذكره بشيء ؟ قال : لا ، قال : فإياه فارحم)[2] .

وقال الفضيل : (ثلاثة لا يلامون على الغضب : المريض ، والصائم ، والمسافر)[3] .

وقال الأحنف بن قيس : (لقد تعلمتُ الحِلمَ من قيس بن عاصم المِنقَري ؛ إني لجالس معه في فِناء وهو يحدثنا . . إذ جاءت جماعة يحملون قتيلاً ومعهم رجل مكتوف ، فقيل له : هـٰذا ابنك قتله أخوك ، فوالله ؛ ما قطع حديثه ولا حلَّ حَبوتَه حتىٰ فرغ من مَنطِقه ، ثم أنشأ يقول : [من البسيط]

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيَةً ... إِحْدَىٰ يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرِدِ

كِلَاهُمَا خَلَفٌ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ ... هَـٰذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي

ثم التفت إلىٰ بعض ولده وقال : قم فأطلق عمك ، ووار أخاك ، وسُق إلىٰ أمه مئة من الإبل ؛ فإنها غريبة)[4] .

ومن أنبل بيت قالته العرب : قول بعضهم : [من الرمل]

فُصُحٌ بِٱلْخَيْرِ خُرْسٌ بِٱلْخَنَا ... رُجُحُ ٱلْأَحْلَامِ ذَيَّالُو ٱلْأُزُرْ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٧٠) عن أبي رزين قال : (جاء رجل إلى الفضيل بن بزوان فقال . . .) ، وأورده أبو حيان في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٤٤) .

(٢) أورده بنحوه في « العقد الفريد » (٢/٢٧٥) ، والقائل : عمرو بن عبيد رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده بنحوه في « زهر الآداب » (٢/٨٦٣) ، و« بهجة المجالس » (٢/١٢٥) دون نسبة .

(٤) أورد الخبر دون البيتين في « عيون الأخبار » (١/٢٨٦) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٠٤) ، وفيهما وفي (د) : (ابن أخيك) بدل (أخوك) ، و(ابن عمك) بدل (عمك) ، والبيتان في « الزهرة » (٢/٧٧) دون نسبة ، و« الحماسة البصرية » (١/١٢٨) للعُريان بن سهلة النبهاني .

وقال غيره[1] : [من الطويل]

بِأَحْـلَامِ عَـادٍ لَا يَخَـافُ جَلِيسُـهُمْ إِذَا نَطَـقَ ٱلْعَـوْرَاءَ غَـرْبَ لِسَـانِ
إِذَا حُدِّثُوا لَمْ يُخْشَ سُوءُ ٱسْتِمَاعِهِمْ وَإِنْ حَدَّثُـوا أَدَّوْا بِحُسْـنِ بَيَـانِ

* * *

وقال المسيح عليه السلام : (ما حِلْمُ من لم يصبر عند الجهل ؟! وما قوةُ من لم يردّ الغضب ؟! وما عبادةُ من لم يتواضع للرب تعالىٰ ؟!) .

وقيل للإسكندر : (إن فلاناً وفلاناً ينتقصانك ويثلبانك ، فلو عاقبتهما ، فقال : هما بعد العقوبة أعذر في ثَلْبي وتنقُّصي)[2] .

ويروىٰ أن جرير بن عبد الله بينما هو راكب قد أردف ابنه . . إذ لقيه رجل ، فنال منه وجرير ساكت ، فلما ولَّىٰ . . قال له ابنه : (يا أبت ؛ لم سكتَّ عنه ؟ قال : يا بني ؛ أفأوسِّعُ جرحي ؟!)[3] .

وقال بعض الحكماء : (متىٰ أشفي غيظي ؟ أحين أَقدِرُ فيقال : لو عفوت ، أو حين أعجِزُ فيقال : لو صبرت)[4] .

وسئل بعض أصحاب الأحنف : (أكان الأحنف يغضب ؟ قال : نعم ؛ لو لم يغضب . . ما بان حلمه ؛ كان يغضبه الشيء يبين في وجهه اليومين والثلاثة وهو يصبر ويحلم) .

ومن لم يغضب من الأشياء التي مثلها يغضب . . فقدْ فقدَ من الفضائل :

---

(١) أورد البيتين القالي في « الأمالي » (٢٣٨/١) ، والثعالبي في « ثمار القلوب » (١٦٠/١) ، وأحلام عاد : العرب تضرب المثل بأحلام عاد ؛ لِما تتصور من عظيم خَلقها ، وتزعُم أن أحلامها علىٰ مقادير أجسامها ، والعوراء : الكلمة القبيحة ، وغَرْب لسان : حدَّتُه .

(٢) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٠٦) .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٨٠/٢) ، و« عيون الأخبار » (٢٢/٣) ، وفيهما : (قال عقال بن شبة : كنت رديف أبي ، فلقيه جرير ـ أي : الشاعر ـ . . .) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٢٩٠/١) من قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ .

الشجاعةَ والأنفةَ ، والحمية والدفاع ، والأخذ بالثأر والغَيرة ؛ لأن هٰذه الخصال نتائج الغضب ، فمن فقد الغضب . . فقد فقدَ أُسَّ الفضائل علىٰ ما سنذكره في (باب الشجاعة) إن شاء الله تعالىٰ .

وعند فقد الشجاعة تكون المهانة ، ومن المهانة يكون سَفساف الأخلاق ورَذالة الطباع ، فلا يبقىٰ لسائر فضائله موقع .

وكان يقال : (من لم يغضب . . فليس بحليم ؛ لأن الحليم إنما يعرف عند الغضب)(١) .

وكان الشعبي يقول : (الجاهل خصم ، والحليم حاكم) .

وقال الشافعي رضي الله عنه : (من استُغضب فلم يغضب . . فهو حمار ، ومن استُرضي فلم يرض . . فهو شيطان)(٢) .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يغضب ، ولٰكنه إنما كان يغضب لا لنفسه بل عند انتهاك حرمة ربه .

* * *

واعلم : أن الله تعالىٰ ما مدح من لا يغضب ، وإنما مدح من كظم الغيظ ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾(٣) .

وقد أنشد النابغة الجعدي بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم(٤) : [من الطويل]

وَلَا خَيْـرَ فِـي حِلْـمٍ إِذَا لَـمْ يَكُنْ لَهُ   بَـوَادِرُ تَحْمِـي صَفْـوَهُ أَنْ يُكَـدَّرَا
وَلَا خَيْـرَ فِـي جَهْـلٍ إِذَا لَـمْ يَكُنْ لَهُ   حَلِيـمٌ إِذَا مَـا أَوْرَدَ ٱلْأَمْـرَ أَصْـدَرَا

فلم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم قوله .

---

(١) رواه بنحوه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨١٥٨) من قول ذي النون رحمه الله تعالىٰ .
(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٧٣٤) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٤٣/٩) .
(٣) سورة آل عمران : (١٣٤) .
(٤) رواه الحارث ابن أبي أسامة كما في « بغية الباحث » (٨٩٤) ، والبيتان في « ديوان النابغة الجعدي » رضي الله عنه (ص ٨٥) .

وكان ابن عمر إذا سافر . . استتبع سفيهاً وقال : (نستدفع به شر السفهاء عنا)[1] .

* * *

واعلموا أرشدكم الله : أن أحسن خصال الملوك ، وأجلها قدراً ، وهي حلية الأنبياء ، ولِبسة الأصفياء والأولياء ، وجمال السُّوقة والرؤساء ، وأعظمها في النفوس موقعاً ، وأعمها على الرعايا نفعاً ، وأخلدها علىٰ مر الأيام ذكراً ، وأجملها في المحافل والمجالس نشراً ، وهي الفضيلة التي تعم سائر الفضائل ، ويكمل بها سائر المحاسن . . هي الحلم .

وها أنا أتلو عليك من ذٰلك ما يقتضي منه العجب :

هٰذه دولة آل العباس ؛ أولهم : أبو العباس السفاح ، وإلىٰ يومنا هٰذا لم يكن فيهم أحلم من المأمون ، بلغ من حلمه أنه كان يقول : (لو علم الناس ما لي في لذة العفو . . ما تقربوا إلي إلا بالجرائم)[2] ، فعمَّ حلمه سائر خلفاء بني العباس ، حتىٰ صار يضرب المثل بحلمه ، وبهٰذه الخصلة تهيأ ملكه ، وقهر أخاه الأمين .

ومنها : دولة بني أمية ؛ أولهم : معاوية بن أبي سفيان ، وآخرهم : مروان الجعدي ، لم يكن فيهم أحلم من معاوية ، لا جرم دانت له الدنيا ، وملك بها رقاب العرب والعجم ، حتىٰ لم يبق له مناوئ ، وصار حلمه يضرب به المثل ، ويقتدي به الخلق ، ويتخلق به العقلاء ، حتىٰ حكي عنه أنه كان يقول : (لو كانت بيني وبين الناس شعرة . . ما انقطعت ؛ إذا جذبوها . . تركتها ، وإذا تركوها . . جبذتها)[3] .

---

(١) أورده بنحوه في « بهجة المجالس » (١/٦٢١) .

(٢) أورده بنحوه في « بهجة المجالس » (١/٣٧١) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/٩) ، ورواه في « روضة العقلاء » (١/٣٢٥) .

وقالوا لزياد : (بما ضبطت العراق ؟ قال : بالسيف ، فقال : أبا هند ؛ ضبطت العراق والحجاز واليمن والشام بالحلم)[1] .

وهـٰذه دولة الفرس ، وكانت أعظم دول الأرض ، وأشدها بأساً ، وأكثرها علوماً وحكماً ، لم يكن في أكاسرها أحلم من كسرىٰ أنوشروان ، وصار يضرب بحلمه المثل ، وتطرز بسيرته الكتب والمصنفات .

ويروىٰ أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه لقي كبيراً من كبراء فارس فقال له : (ما أحمد خصال ملوككم ؟ فقال : السبق لأردشير ، وأحمدهم سيرة : أنوشروان ، فقال له علي : وما كان أغلب خصاله عليه ؟ قال : الحلم ، والأناة ، قال علي : هما توءمان ينتجهما علو الهمة)[2] .

وبلغ من حلمه أنه كان يضيق صدره بحلمه فيقول : (فيَّ خصلتان لولا أنهما ظاهرتان عند الرعية . . لضقت بهما ذرعاً : الحلم ، والأناة) .

فأخلِقْ بخَصلةٍ تعمُّ منفعتُها ، ويبقىٰ على الدهر جمالُها ، وتخلدُ في العقلاء والعلماء والملوك والسُّوقة بهجتُها ، وحسنُ مصادرها ومواردها . . أن يتخذها الملوكُ شِعاراً ودِثاراً !

وإنما قصدت الحكماءَ من الملوك خاصة ، وأمَّا من سواهم من الرعية ؛ كالأحنف بن قيس ونظرائه . . فلا يحصون كثرة .

* * *

(١) أورده في « أنساب الأشراف » (١٥٦/٢) بلفظ : (قال معاوية : ضبط زياد العراق بالسيف ، وضبطت العراق والشام والحجاز واليمن بالحلم) ، والخبر زيادة من (ب) ، وفيها (بما) بإثبات الألف ، وهي لغة نادرة ، وعليها قراءة بعضهم : (عمَّا يتساءلون) ، وانظر « المحتسب » (٣٤٧/٢) ، و« مغني اللبيب » (٣٩٤/١) .

(٢) تقدم (ص ٢٩٩) .

الباب التاسع والعشرون
فيما يسكن به الغضب

فأول ذلك : أنك لو نظرت إلىٰ تغير أشكالك ، وتبدلِ صورتك ، واحمرارِ وجهك ، وانتفاخِ أوداجك ، وذهابِ حيائك ، وسَقَطِ كلامك ، وفحشِ ما يخرج من فيك . . لأمسكت عن الغضب .

ولطالما كنت تستحيي أن تتكلم بين يدي جلسائك باليسير الجائز ، فصرت[1] تَهذِرُ بالكثير الفاحش .

ولو أن من غضب استذكر إذا صحا وسكن . . عزَّ به انقلابُ صورته ، وتغيرُ وجهه ، واضطرابُ شفتيه ، وارتعادُ أطرافه ، وسَقَطُ كلامه ، وفحشُ خطابه ، والتفافُ[2] لسانه ، وخفةُ عقله ، وطيشُه ، ووثوبُه من مجلسه كأنه نمر ، وسرعةُ التفاته يميناً وشمالاً كأنه قرد ، وعدمُ فهمه لما يسمع كأنه بهيمة ، وقلةُ التفاته إلىٰ من يعظه وينصحه كأنه أحمق[3] ، ولعمري إن الغضب قد يزيد على الحمق .

* * *

ومن شؤم الغضب وعظم بليته : أنه قد يقتل النفوس ، ويسلب الأرواح .

وكان سبب موت مروان بن عبد الملك : أنه وقع بينه وبين أخيه سليمان كلام ، فعجَّل عليه سليمان فقال : (يا من يلحق أمه ، ففتح فاه ليجيبه ؛ وإذا بجنبه عمر بن عبد العزيز ، فأمسك علىٰ فيه ، ورد كلمته وقال له : يا أبا عبد الملك ؛

(١) في (أ ، د ، ز) : (فعمدت) ، و(هـ) : (فعدت) .
(٢) في (ب ، د ، هـ) : (والتفات) .
(٣) في (أ) : (سبع) ، و(د) : (أخرس أصم) .

أخوك وإمامك وله السن عليك ، فقال : يا أبا حفص ؛ قتلتني ، قال : وما صنعت بك ؟ قال : رددتَ في جوفي أحرَّ من الجمر ، ومال لجنبه فمات)[١] .

ولعَمري ؛ إنه قد يزيد علىٰ قدر الجمر[٢] .

ومنها : أن ينتقل عن الحالة التي كان عليها إلىٰ حالة غيرها ، وكانت الفرس تقول : (إذا غضب القائم . . فليجلس ، وإذا كان جالساً . . فليقم)[٣] ، وبهٰذا المذهب كان المأمون يأخذ نفسَه .

وروي أن رجلاً شكا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة ، فقال : « اِطَّلِعْ فِي ٱلْقُبُورِ ، وَٱعْتَبِرْ بِٱلنُّشُورِ »[٤] .

وكان بعض ملوك الطوائف إذا غضب . . ألقي بين يديه مفاتيح تُرَب الملوك ، فيزول غضبه[٥] .

وكان عكرمة يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾[٦] : (يعني : إذا غضبت)[٧] ، فإنه إذا ذكر الله تعالىٰ . . خاف منه ، فيزول غضبه .

وفي التوراة : (يا بن آدم ؛ اذكرني حين تغضب . . أذكرْك حين أغضب ، فلا أمحَقك فيمن أَمحَق)[٨] .

---

(١) أورده في « التعازي والمراثي » (ص ١٤٣ ـ ١٤٤) ، و« الزهرة » (٥٦/٢) .
(٢) في (أ ، ج ، د ، هـ) : (يزيد على الحمقىٰ) ، و(ز) : (. . . الحمقاء) .
(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤١٤) ، وروى ابن حبان (٥٦٨٨) ، وأبو داوود (٤٧٨٢) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا غضب أحدكم وهو قائم . . فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب ، وإلا . . فليضطجع » .
(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٨٥٢) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٥) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤١٣) .
(٦) سورة الكهف : (٢٤) .
(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٦١٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٩٤٣) .
(٨) رواه في « روضة العقلاء » (٢/ ٥٥١ ـ ٥٥٢) ، و« حلية الأولياء » (٦٥/٣) ، وفيهما : (في الإنجيل) .

ومنها : أن يتذكر نفرة القلوب عنه ، وسقوط منزلته عند أبناء جنسه ، ووصفهم لمقابحه وطيشه وسخفه ، فيكون ذٰلك سبباً لزوال غضبه .

ومنها : أن يتذكر انعطاف القلوب عليه ، وانطلاق الألسنة بالثناء عليه ، وميل النفوس إليه ، وأن الحلم عز وزَين ، وأن السفه ذل وشَين .

روىٰ أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَا ٱزْدَادَ رَجُلٌ بِعَفْوٍ إِلَّا عِزّاً ، فَٱعْفُوا . . يُعِزَّكُمُ ٱللهُ »[١] .

وقال بعض الحكماء : (من تذكر قدرة الله . . لم يستعمل قدرته في ظلم عباده)[٢] .

وكتب بعض ملوك الفرس كتاباً ، ودفعه إلىٰ وزيره وقال له : (إذا غضبت . . فناولنيه) ، وفيه مكتوب : (ما لك وللغضب ؟! إنما أنت بشر ، ارحم من في الأرض . . يرحمْك من في السماء)[٣] .

وكان معاوية كثيراً ما ينشد[٤] : [من السريع]

إِنَّـا إِذَا مَالَـتْ دَوَاعِـي ٱلْهَـوَىٰ ... وَأَنْصَـتَ ٱلسَّـامِعُ لِلْقَائِـلِ
وَٱعْتَلَـجَ ٱلنَّـاسُ بِأَلْبَابِهِـمْ ... نَقْضِـي بِحُكْـمٍ عَـادِلٍ فَاصِـلِ
نَخَـافُ أَنْ تَسْـفَهَ أَحْلَامُنَـا ... فَنَخْمُـلَ ٱلدَّهْـرَ مَـعَ ٱلْخَامِـلِ

وقال بعض البلغاء : (إياك وعِزَّةَ الغضب ؛ فإنها تُفضي إلىٰ ذِلَّة العُذر)[٥] .

---

(١) رواه بنحوه البزار في « مسنده » (١٠٣٢) ، والشهاب في « المسند » (٨١٧) عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها .
(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٣/١٤٤) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٢) .
(٣) أورده بنحوه في « التعازي والمراثي » (ص ٣٠٢) .
(٤) أورد الأبيات في « البيان والتبيين » (١/٢١٣) للرَّبيع بن أبي الحُقيق اليهودي ، ورواها في « الأغاني » (٢٥/٨٨٢٥ ـ ٨٨٢٦) لِسَعية بن غريض اليهودي ، وقد تمثل بها سيدنا معاوية رضي الله عنه .
(٥) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٩١) دون نسبة ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢١٤٢) من قول بزرجمهر .

وقال الشاعر[1] : [من الخفيف]

وَإِذَا مَـا ٱعْتَرَتْـكَ فِي ٱلْغَضَـبِ ٱلْعِزَّ ... ةُ فَٱذْكُـــرْ تَذَلُّـــلَ ٱلْإِعْتِـــذَارِ

وقال غيره : [من الطويل]

زَرَرْنَـا عَلَىٰ غَيْـرِ ٱلْفَوَاحِـشِ قُمْصَنَا ... وَلَـمْ نَسْـتَجِزْ إِلَّا ٱلَّـذِي هُـوَ أَجْـوَزُ

وقال عبدُ الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد : (يا أمير المؤمنين ؛ أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك ، وبالذي هو أقدرُ علىٰ عقابك منك علىٰ عقابي . . لمَّا عفوتَ عني) ، فعفا عنه لمَّا ذكَّره قدرةَ الله تعالىٰ عليه[2] .

وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن الأشعث : (إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر ، فأعط الله ما يحب من العفو)[3] .

وقال المأمون لعمه إبراهيم بن المهدي ـ وكان مع أخيه عليه ـ : إني شاورت في أمرك ، فأشاروا عليَّ بقتلك ، إلا أني وجدت قدرك فوق ذنبك ، فكرهت القتل للازم حرمتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة ، إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث عُوِّدته من العفو ؛ فإن عاقبت . . فلك نظير ، وإن عفوت . . فلا نظير لك ، وأنشأ يقول : [من البسيط]

اَلْبِـرُّ بِـي مِنْكَ وَطَّا ٱلْعُـذْرَ عِنْدَكَ لِي ... فِيمَـا فَعَلْـتُ فَلَـمْ تَعْـذُلْ وَلَـمْ تَلُـمِ

وَقَـامَ عِلْمُـكَ بِي فَٱحْتَـجَّ عِنْدَكَ لِي ... مَقَـامَ شَـاهِدِ عَـدْلٍ غَيْـرِ مُتَّهَـمِ[4]

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤١٤) .

(٢) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (١٠٢/١) دون نسبة ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤١٣) بهٰذا اللفظ والنسبة .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١٠٧/٢) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤١٥) .

(٤) أورد الخبر بنحوه القالي في « الأمالي » (١٩٩/١) ، والماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤١٦) بلفظه مع البيتين .

وقال بعض الحكماء : (الغضبُ علىٰ من لا تملك عجزٌ ، وعلىٰ من تملك لؤمٌ)[1] .

* * *

ومنها : أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ، ومذمة الانتقام ، وشروع القصاص في يديه[2] بين يدي من لا يرحمه ؛ فإن ذٰلك مما يَزَعُه عن الغضب .

* * *

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤١٤) .
(٢) في (د) : (بدنه) .

الباب الثلاثون

في الجود والسخاء

وهٰذه الخَصلةُ الجليلُ قدرُها ، العظيمُ موقعُها ، الشريفُ موردُها ومصدرُها ، وهي إحدىٰ قواعد المملكة وأساسها ، وتاجها وجمالها . . تعنو لها الوجوه ، وتَذِلُّ لها الرقاب ، وتخضع لها الجبابرة ، وتُستَرقُّ بها الأحرار ، وتُستمال بها الأعداء ، وتُستكثر بها الأولياء ، ويَحسن بها الثناء ، وتُملك بها القرباء والبعداء ، وتسودُ بها في غير عشائرهم الغرباء .

وهٰذه الخَصلة بالعزائم الواجبات أشبه منها بالجمال والمتممات .

وكم قد رأينا من كافر ترك دينه والتزم دين الإسلام ؛ ابتغاء عرض قليل من الدنيا يناله ، وكم قد سمعنا من مسلم ارتد في أرض الشرك ؛ افتتاناً بيسير من عرض الدنيا ، وأَخلِقْ بخصلة يترك لها الإنسان دينه الذي يبذل دونه نفسه أن تكون جليلةَ القدر ، عظيمةَ الخطر !

وأحوجُ خلق الله تعالىٰ إليها : أفقرُهم إلىٰ عطفِ القلوب عليه ، وصرفِ الوجوه إليه ؛ وهم الملوك والولاة .

* * *

واعلموا يا معشر من وسع الله عليه دنياه ، وأسبغ عليه آلاءه ونعماه : أنه ليس في الجنة (لا) ، ولهٰذا وصف بعض البلغاء رجلاً بخيلاً فقال : (هو جَلَمٌ ؛ من حيث جئته . . وجدت « لا »)[1] ، وحسبك بكلمةٍ لا تدخل الجنة سقوطاً وضَعةً ، وإنما أُسست الجنة علىٰ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/٢١١) ، والجَلَم : المِقَص .

وهٰذه الخصلة ـ أعني : الكرم والجود والسخاء والإيثار ـ بمعنىً واحدٍ .

ويوصف الباري تعالىٰ بالجود ولا يوصف بالسخاء ، كما يوصف بالعلم ولا يوصف بالعقل ؛ لعدم التوقيف .

وحقيقة الجود : ألا يصعب عليه البذل .

ويقال : السخاء هو الرتبة الأولىٰ ، ثم الجود ، ثم الإيثار ؛ فمن أعطى البعض وأمسك البعض . . فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر . . فهو صاحب جود ، ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضر . . فهو صاحب إيثار .

وقال ذو النون : (بدايةُ السخاء : أن تسخو نفسك بما في يديك ، ونهايتُه : أن تسخو نفسك بما في أيدي الناس للناس ، وألا تبالي من أكل الدنيا) .

وتذاكر قوم من الزهاد عند رابعة العدوية ، فجعلوا يذمون الدنيا ويكثرون من ذٰلك ، فقالت رابعة العدوية : (من أحب شيئاً . . أكثر من ذكره)[(١)] .

وأصل السخاء : هو السماحة ، وأن يأتي بما يأتيه عن طيب نفس .

وقد يكون المعطي بخيلاً إذا صعب عليه البذل ، والممسك سخياً إذا كان لا يستصعب العطاء وإن مَنَع ؛ ولهٰذا قال علماؤنا : (إن الله تعالىٰ لم يزل جواداً وإن لم يقع منه عطاء في الأزل ؛ لأن العطاء فعل ، والفعل في الأزل مستحيل)[(٢)] .

وقالت الحكماء : (أيها الجامع ؛ لا تُخْدعن ؛ فالمأكول للبدن ، والموهوب للمعاد ، والمتروك للعدو)[(٣)] .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[(٤)] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » ضمن رسائله (٤٦٤) ، وأورده في « بهجة المجالس » (٢/٢٨١) .

(٢) انظر « مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري » (ص ٤٦) .

(٣) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (٢/٣٢٤) .

(٤) سورة الحشر : (٩) .

قال أبو هريرة : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إني جائع فأطعمني ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ أزواجه فقلن : والذي بعثك بالحق ؛ ما عندنا إلا الماء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَا عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ مَا يُطْعِمُكَ ٱللَّيْلَةَ » ، ثم قال : « مَنْ يُضِيفُ هَـٰذَا هَـٰذِهِ ٱللَّيْلَةَ رَحِمَهُ ٱللهُ ؟ » ، فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله ، فحمله إلىٰ منزله وقال لأهله : هـٰذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميه ولا تدخري عنه شيئاً ، فقالت : ما عندنا إلا قوت الصبية ، فقال : قومي فعلِّليهم عن قوتهم حتىٰ يناموا ، ثم أسرجي وأبرزي ، فإذا أخذ الضيف يأكل . . قومي كأنك تصلحين السراج ، فأطفئيه وتعالَيْ . . نمضغ ألسنتنا لضيف النبي صلى الله عليه وسلم ، ففعلت ، وجعلا يمضغان ألسنتهما والضيف يظن أنهما يأكلان ، وباتا طاويين ، فلما أصبحا ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إليهما . . تبسم ، وقال : « لَقَدْ عَجِبَ ٱللهُ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ هَـٰذِهِ ٱللَّيْلَةَ »[1] ، ونزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2] .

وقال أنس : (أهدي لبعض الصحابة رأس شاة مشوي ، وكان مجهوداً ، فوجهه إلىٰ جار له ، فوجه به الجار إلىٰ أهل بيت آخر ، فتداولته سبعة أبيات حتىٰ عاد إلى الأول ، فنزلت : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾)[3] .

وقال حذيفة العدوي : (انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء ، وأنا أقول : إن كان به رَمَقٌ . . سقيته ؛ فإذا أنا به بين القتلىٰ ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار : أن نعم ؛ فإذا رجل يقول : آه ، فأشار ابن عمي : أن انطلق إليه ؛ فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فسمِعَ آخرَ يقول : آه ، فأشار

---

(١) رواه البخاري (٤٨٨٩) ، ومسلم (٢٠٥٤) ، والثعلبي في « تفسيره » (٩/٢٧٨ ـ ٢٧٩) .

(٢) سورة الحشر : (٩) .

(٣) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٩/٢٧٩) .

هشام : أن انطلق إليه ، فجئته ؛ فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلىٰ هشام ؛ فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلى ابن عمي ؛ فإذا هو قد مات)[١] .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اَلسَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ ٱللهِ ، قَرِيبٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَٱلْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ ٱللهِ ، بَعِيدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَٱلْجَاهِلُ ٱلسَّخِيُّ أَحَبُّ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ مِنَ ٱلْعَابِدِ ٱلْبَخِيلِ »[٢] .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اِبْنَ آدَمَ ؛ مَا لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ »[٣] .

* * *

واعلم : أن السخاء علىٰ وجوه : سخاء في الدنيا ، وسخاء في الدين .

فالسخاء في الدنيا : البذل ، والعطاء ، والإيثار ، وسماحة النفس ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٤] .

وعلامته : ترك الادخار ، وبغض جمع المال ، وتعاهد الإخوان مسروراً قلبه بذٰلك .

والسخاء في الدين : أن تسخو نفسك ؛ أن تتلفها لله تعالىٰ ، وتريق دمك في الله سبحانه سماحة من غير كراهة ، لا تريد بذٰلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً وإن كان غير مستغن عن الثواب ؛ لأن الغالب علىٰ قلبه حسن كمال السخاء

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٢٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٢٠٨) .

(٢) رواه الترمذي (١٩٦١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٥٢) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٨) عن سيدنا عبد الله بن الشخير رضي الله عنه .

(٤) سورة الحشر : (٩) .

بتـرك الاختيـار علـى الله تعالـىٰ حتـىٰ يفعـل الله بك مـا لا يحسـن أن تختاره لنفسك .

وقيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : (من السيد ؟ قال : الجواد إذا سُئل ، الحليم إذا استُجهل ، الكريم المجالسة لمن جالسه ، الحسن الخلق لمن جاوره)[1] .

وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه : (من أفضلُ الناس عيشاً ، وأنعمُهم بالاً ، وأكرمُهم طباعاً ، وأجلُّهم في النفوس قدراً ؟ فسكت القوم ، فقال فتىً : أبيتَ اللَّعنَ ؛ أفضلُ الناس عيشاً : من عاش الناسُ في فضله ، قال : صدقت)[2] .

وقال الحسن : (باع طلحة من عثمان رضي الله عنه أرضاً بسبع مئة ألف درهم ، فلما جاءه المال . . قال : إن رجلاً تبيت هـٰذه عنده لا يدري ما يطرقه لَغريرٌ بالله ، ثم جعل رسوله يختلف حتىٰ قسمها ، وما أصبح عنده منها درهم)[3] .

وكان أسماءُ بنُ خارجةَ يقول : (ما أُحِبُّ أن أردَّ أحداً عن حاجة ؛ لأنه إن كان كريماً . . أصونُ عِرضه ، وإن كان لئيماً . . أصون عنه عرضي)[4] .

وكان مُورِّقٌ العِجْليُّ يتلطف في إدخال السرور والرفق علىٰ إخوانه ؛ فيضع عند أحدهم ألف درهم ويقول : (أمسكوها حتىٰ أعود إليكم) ، ثم يرسل إليهم : (أنتم منها في حِلٍّ)[5] .

وقال العُتبي : (أعطى الحكم بن المطلب جميع ما يملكه ، فلما نفد ما

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (١/٣٥) .

(٢) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (٢/٤٢٧) دون نسبة .

(٣) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٣/٢٠١ ـ ٢٠٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٤٨٤) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٣/١٣٩) ، و« العقد الفريد » (١/٢٣١) .

(٥) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٩/٢١٤) ، وأورده ابن قتيبة في « المعارف » (ص ٤٧٠) .

عنده .. ركب فرسه وأخذ رمحه يريد الغزو فمات بمَنْبِج ، فأخبرني رجل من أهل منبج قال : قدم علينا الحكم وهو مملق لا شيء معه فأغنانا ، قيل : كيف أغناكم وهو مملق ؟ فقال : ما أغنانا بمال ، ولـٰكنه علمنا الكرم ، فعاد بعضنا علىٰ بعض فاستغنينا)[١] .

❁ ❁ ❁

وأكرمُ العرب في الإسلام : طلحةُ بن عبد الله ، جاءه رجل فسأله برحم بينه وبينه ، فقال : (هـٰذا حائطي بمكان كذا وكذا ، وقد أُعطيتُ به ستَّ مئة ألف درهم ، يُراح بالمال إليَّ العشيةَ ، فإن شئت .. فالمال ، وإن شئت .. فالحائط)[٢] .

ويروىٰ أن رجلاً بعث إلىٰ جبلة بجارية ، فوافته بين أصحابه ، فقال : (قبيح أن أتخذها لنفسي وأنتم حضور ، وأكره أن أخص بها واحداً منكم ، وكلكم له حق وحرمة ، وهـٰذه لا تحتمل القسمة) ، وكانوا ثمانين رجلاً ، فأمر لكل واحد منهم بجارية أو وصيف[٣] .

وقيل لقيس بن سعد : (هل رأيت أحداً قطُّ أسخىٰ منك ؟ قال : نعم ، نزلنا بالبادية على امرأة ، فحضر زوجها ، فقالت : إنه نزل بك ضِيفان ، فجاء بناقة فنَحَرها ، وقال : شأنكم ، فلما كان من الغد .. جاء بأخرىٰ فنحرها ، وقال : شأنكم بها ، فقلنا : ما أكلنا من التي نحرتَ البارحةَ إلا اليسير ، فقال : إني لا أطعم أضيافي الغابَّ ، فبقينا عنده أياماً والسماء تمطر ، وهو يفعل كذٰلك ، فلما أردنا الرحيل .. وضعنا مئة دينار في بيته ، وقلنا للمرأة : اعتذري لنا إليه ، ومضينا ، فلما مَتَعَ النهار .. إذا برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللئام ؛

(١) أورده بنحوه القالي في « ذيل الأمالي » (ص ٢١٦) ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٩٢٣) .

(٢) أورده بنحوه في « المحبر » (ص ١٥١) .

(٣) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٩) .

أعطيتموني ثمن قراي ؟! ثم إنه لحقنا ، وقال : لتأخذُنَّها ، وإلا .. طعنتكم برمحي ، فأخذناها وانصرف)[1] .

وقال ميمون بن مهران : (من طلب مرضاةَ الإخوان بلا شيء .. فليصحبْ أهلَ القبور)[2] .

وقال ابن عباس : (لا يَتِمُّ المعروفُ إلا بثلاث : تعجيلِه ، وتصغيرِه ، وسترِه ؛ فإذا عجَّله .. فقد هنَّاه ، وإذا صغَّره .. فقد عظَّمه ، وإذا ستَره .. فقد تمَّمه)[3] .

وقال الحسن : (كان أحدهم يشق إزاره لأخيه نصفين)[4] .

وقال المغيرة : (في كل شيء سرف إلا في المعروف)[5] .

وقيل للحسن بن سهل : (لا خيرَ في السَّرف ، فقال : لا سرفَ في الخير) فقلب اللفظ ، واستوفى المعنىٰ[6] .

وقد نظمه محمد بن حازم فقال[7] : [من المنسرح]

لَا ٱلْفَقْرُ عَارٌ وَلَا ٱلْغِنَىٰ شَرَفُ وَلَا سَخَاءٌ فِي طَاعَةٍ سَرَفُ
مَا لَكَ إِلَّا شَيْءٌ تُقَدِّمُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَّرْتَهُ تَلَفُ

وأما طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي المعروف بطلحة الطَّلَحات ، وإنما سمي بهـٰذا الاسم ؛ لأنه كان عظيم البذل في كل وجه ، وكان يبتاع الرقاب ويعتقها ، وكان كل معتق يولد له ولد ذكر سماه طلحة ، فبلغ عددهم

---

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٠) ، والغابُّ : البائت ، ومَتَع النهار : ارتفع .
(٢) رواه بنحوه ابن المقرئ في « المعجم » (٣٣) ، وأورده الغزالي في « الإحياء » (٧١/٤) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١٧٧/٣) ، و« بهجة المجالس » (٣٠٣/١) .
(٤) أورده في « الصداقة والصديق » (ص ٢٤٤) ، و« الإحياء » (٧٠/٤) .
(٥) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٧٢) ، و« زهر الآداب » (٥٥/١) .
(٦) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ١٠٨) ، و« زهر الآداب » (٥٥/١) .
(٧) البيتان في « ديوانه » (ص ٧٤) .

ألف رجل ، كل يسمىٰ طلحة ، فسمي طلحة الطلحات ، ثم ولي سجستان وتوفي بها ، وفيه يقول الشاعر[1] : [من الخفيف]

نَضَّـــرَ ٱللهُ أَعْظُمـــاً دَفَنُوهَـــا بِسِجِسْـــتَانَ طَلْحَـــةَ ٱلطَّلَحَـــاتِ

وبلغَه أنَّ مُعلِّمَه كان في الكُتَّاب بالحجاز قد قعد به الدهر ، فأرسل إليه مع غلامه مئة ألف درهم ، وقال : (سَلِّمْها إليه ؛ فإن يكن قد مات وله ولد . . فادفعها إلىٰ ولده ، وإن لم يكن له ولد . . ففرِّقها علىٰ قومه ، فوافاه الرسول وقد مات ولم يُعقب ، ففرقها علىٰ قومه) .

وقال زيد بن أسلم ـ وكان من الخاشعين ـ : (يا بن آدم ؛ أمرك الله أن تكون كريماً وتدخل الجنة ، ونهاك أن تكون لئيماً وتدخل النار)[2] .

وقال حكيم بن حزام : (ما أصبحت قط صباحاً ولم أر ببابي طالب حاجة . . إلا عددتها مصيبة أرجو ثوابها)[3] .

وقال أبو علي الثقفي : (المعروف كنز ، لا يبعد من برٍّ ولا فاجر)[4] .

وكان الزبير من أجود الناس وأشجعهم ، ولما مات . . وجد عليه مئتا ألف دينار .

ووجد مكتوباً علىٰ حجر : (انتهز الفرصة عند إمكانها ، ولا تحمل علىٰ نفسك همَّ ما لم يأتك ، واعلم أن تقتيرك علىٰ نفسك توفير علىٰ خزانة غيرك ، فكم من جامعٍ لبعلِ حليلته)[5] .

---

(١) أورده بنحوه مختصراً في « ربيع الأبرار » (٥٦٧/٤) ، والبيت لعبيد الله بن قيس الرقيات في « ديوانه » (ص ٢٠) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٧٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٤٢٤) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٩٣) .

(٤) أورده في « طبقات الصوفية » (ص ٣٦٥) .

(٥) أورده الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٦٥) ، وابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢١١/٣) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (ما جمعتَ من المال فوق قُوتِكَ . . فإنما أنت فيه خازن لغيرك)[(١)] .

وروىٰ مالك في « الموطأ » : أن مسكيناً سأل عائشة وهي صائمة ، وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لمولاة لها : (أعطيه إياه ، فقالت : ليس لك ما تُفطرين عليه ، فقالت : أعطيه إياه ، قالت : ففعلتُ ، فلما أمسينا . . أهدىٰ لنا أهلُ بيت شاةً وكَفَنَها ـ يعني : ملفوفة بالزُّغفان ـ فقالت لي عائشة : كُلِي ، هـٰذا خير من قُرصك)[(٢)] .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : (ما كان أحدُنا علىٰ عهد النبي صلى الله عليه وسلم يَحسَبُ أن له في الفضل شيئاً) .

وقال الحسن : (كنَّا نَعُدُّ البخيلَ من يُقرِضُ أخاه الدِّرهم)[(٣)] .

ومن عجيب ما روي في الإيثار : ما ذكره أبو محمد الأزدي ، قال : (لمَّا احترق المسجد بمصر . . ظن المسلمون أن النصارىٰ أحرقوه ، فأحرقوا خاناً لهم ، فقبَضَ السلطانُ جماعة من الذين أحرقوا الخان ، وكتب رِقاعاً ، فيها : القتل ، وفيها : القطع ، وفيها : الجَلد ، ونثرها عليهم ؛ فمن وقعت له رُقعة . . فَعل به ما فيها ، فوقعت رُقعة فيها القتل بيد رجل ، فقال : ما كنت أبالي لولا أُمٌّ لي ، وكان بجنبه بعض الفتيان ، فقال : في رُقعتي الجَلْد وليست لي أُمٌّ ، فادفع إليَّ رُقعتك وخذ رُقعتي ، ففعلا ، فقتل ذٰلك ، وتخلص هـٰذا)[(٤)] .

وحكي عن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نَيِّفٌ وثلاثون رجلاً بقرية بقرب الري ، ولهم أرغفة لم تسع جميعهم ، فكسروا الرُّغفان ، وأطفؤوا السراج ، وجلسوا للطعام إلىٰ أن كُفوا ، فلمَّا رفع . . فإذا الطعام بحاله لم

---

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (١٤٩/٥) .
(٢) الموطأ (٩٩٧/٢) .
(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٨٠) .
(٤) أورده التنوخي في « المستجاد » (ص ٣٧) .

يأكل واحد منهم شيئاً ؛ إيثاراً لصاحبه علىٰ نفسه[1] .

وروي أنه اجتمع بالرَّملة جماعة من أرباب القلوب ، فحضر طبق فيه طيب وتين أخضر وقد غسق الليل ، فكان الواحد منهم يمد يده ؛ فإن ظفر بحبة خضراء . . أكلها ، وإن ظفر بطيب . . دفعه إلىٰ صاحبه ولم يأكله ، فلما رفع الطبق . . إذا الطيب كله في الطبق لم يأكلوا منه شيئاً .

وقال بعض الرواة : (دخلت علىٰ بِشرٍ الحَافي في يوم شديد البرد وقد تعرَّىٰ من الثياب ، فقلت : يا أبا نصر ؛ الناس يزيدون الثياب في مثل هٰذا اليوم وأنت قد نقصت ! فقال : ذكرت الفقراء وما هم فيه ، ولم يكن لي ما أُواسيهم به ، فأردت أن أوافقهم بنفسي في مقاساة البرد)[2] .

وقال الأستاذ أبو علي : (لمَّا سعىٰ غلام خليل بالصوفية إلى الخليفة بالزندقة . . أَمَرَ بضرب أعناقهم ؛ فأما الجُنيد : فإنه تستَّر بالفقه ، وكان يُفتي علىٰ مذهب أبي ثور ، وأما الشَّحَّام والرَّقَّام والنُّوري وجماعة : فقُبِضَ عليهم وبُسط النِّطْعُ لضرب أعناقهم .

فتقدَّم النُّوري أمامَهم ، فقال له السَّيَّاف : أتدري لماذا تتقدم وتسابق ؟ قال : نعم ، قال : وما يُعجِلُك ؟ قال : أُوثِرُ أصحابي بحياةِ ساعةٍ ، فتحيَّر السَّيافُ وأتى الخبر إلى الخليفة ، فردَّهم إلى القاضي ؛ ليتعرَّفَ حالَهم ، فألقى القاضي علىٰ أبي الحسين النُّوري مسائلَ فقهيةً فأجاب عن الكل ، ثم أخذ يقول : إنَّ لله عباداً إذا قاموا . . قاموا بالله ، وإذا نطقوا . . نطقوا بالله ، وسَرَدَ ألفاظاً حتىٰ أبكى القاضي ، فأرسل إلى الخليفة وقال : إن كان هٰؤلاءِ زنادقةً . . فما علىٰ وجه الأرض مسلم) ، فأمر بإطلاقهم[3] .

---

(١) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٢٧٩/٩) ، والغزالي في « الإحياء » (٢٠٤/٦) .

(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢٥٠/١٠ ـ ٢٥١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٢١٢) .

ولمَّا مَرِضَ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادةَ .. استبطأ إخوانه في العيادة ، فسأل عنهم ، فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّين ، فقال : (أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر من ينادي : من كان لقيسٍ عنده مالٌ .. فهو منه في حِلٍّ) ، فكُسِرَت عَتَبةُ بابهِ بالعشي لكثرةِ العُوَّاد (١) .

ويروىٰ أن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما ـ وكانَ أحدَ الأجواد ـ خرجَ إلىٰ ضَيعةٍ له ، فنزل علىٰ نخيل قوم وفيها غُلامٌ أسودُ يقوم عليها ، فأُتِيَ بِقُوتِه ثلاثةِ أقراصٍ ، ودخل كلبٌ فدنا من الغلام ، فرمىٰ إليه بقرصٍ فأكله ، ثم رمىٰ إليه بالثاني والثالثِ فأكلهما وعبد الله ينظر ، فقال : (يا غلام ؛ كم قُوتُك كلَّ يوم ؟ قال : ما رأيتَ ، قال : فَلِمَ آثرتَ هـٰذا الكلبَ ؟ قال : ما هي بأرضِ كلابٍ ، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت ردَّه ، قال : فما أنت صانعٌ اليومَ ؟ قال : أطوي يومي هـٰذا ، فقال عبدُ الله بن جعفر : أُلامُ على السخاء ؟! إن هـٰذا لأَسخىٰ مني ، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من آلات ، وأعتق الغلامَ ووهبَ ذٰلك له) (٢) .

وقال الثوري : (رأيت محمد بن سُوقة بالغداة صاحب مئة ألف ، وبالعشي سألنا له من أصحابه خبزة) .

وقال أبو عبد الرحمـٰن السُّلمي : (دخل أبو عبد الله الرُّوذْبَاري إلىٰ دار بعض أصحابه فوجده غائباً ، وهناك بيت مقفل ، فكسر القُفْل ، وأمر بجميع ما وجد فيه وأنفذه إلى السوق ، وباعوه ، وأصلحوا وقتاً من الثمن ، فجاء صاحب الدار ولم يقل شيئاً ، فدخلت امرأته بعدهم الدار ، وعليها كساء ، فدخلت بيتاً ، ورمت الكساء ، وقالت : يا أصحابَنا ؛ هـٰذا أيضاً من جملة المتاع فبيعوه ، فقال زوجها : لم تكلفت هـٰذا باختيارك ؟ فقالت له : اسكت ،

---

(١) أورده التنوخي في « المستجاد » (ص ١٣٥) ، وأبو حيان في « البصائر والذخائر » (٤/٢٤١) .
(٢) أورده التنوخي في « المستجاد » (ص ١٩) ، والقشيري في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢١) .

مثل هـٰذا الشيخ يباسطنا ، ويحكم علينا ، ويبقىٰ لنا شيء ندَّخِره عنه !)[١] .

* * *

وأما عبد الملك بن بحر . . فورث خمسة آلاف درهم[٢] ، فبعث بها إلىٰ إخوانه صرراً وقال : (ما كنتُ لِأَسأَلَ لإخواني الجنة في صلاتي وأبخل عليهم بحلالي) .

ويروىٰ أن الأشعث بن قيس أرسل إلىٰ عَدِيّ بن حَاتِمٍ يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم ، فملأها وبعث بها إليه وقال : (إنا لا نُعيرها فارغة)[٣] .

وقال بُزْرُجُمِهْر : (لا عزَّ أثبتُ أركاناً ، ولا أبذخُ بنياناً . . من بث الكرم ، واكتساب الشكر) ، وذٰلك أن عز التعظيم بالفعل الجميل باقٍ في قلوب الرجال ، ومن تحصن بالجود ، وتحرز بالمعروف . . فقد ظَفِر بما ناوأه ، ورَبِحَ الشكر والثواب .

ويروىٰ أن عبيد الله بن أبي بكرة[٤] ـ وكان أحد الأجواد ـ عَطِشَ يوماً في طريقه ، فاستسقىٰ من منزل امرأة ، فأخرجت إليه كوزاً ، وقامت خلف الباب وقالت : (تنحَّوا عن الباب ، وليأخذه بعض غلمانكم ؛ فإني امرأة من العرب ، مات خادمي منذ أيام ، فشرب [عبيد الله][٥] الماء وقال : يا غلام ؛ احمل إليها عشرة آلاف درهم ، فقالت : سبحان الله ! تسخر بي ؟! فقال : يا غلام ؛ احمل إليها عشرين ألف درهم ، فقالت : أسأل الله تعالى العافية ، فقال : يا غلام ؛

---

(١) أورده بنحوه في « طبقات الصوفية » (ص ٤١٦) ، و« الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٠ ـ ٤٢١) بلفظه ، وفي (ب ، و) : (وأصلحوا قوتاً) ، و(ج) : (وأصلحوا حالهم) .

(٢) في (أ ، ج) : (فوزن خمسة) ، و(و) : (خمسين ألف) .

(٣) رواه بنحوه ابن دريد كما في « تعليق من أمالي ابن دريد » (ص ١٦٣) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (١٨٩) .

(٤) في النسخ جميعاً عدا (و) : (عبد الله بن أبي بكر) .

(٥) في النسخ جميعاً : (عبد الله) ، والتصويب من « الرسالة القشيرية » .

احمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فقالت : أُفٍّ لك ، فحمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فما أمست حتىٰ كثر خُطَّابها)[١] .

وقال بعض الرواة : (قصد رجل إلىٰ صديق له ، فدق عليه الباب ، فلما خرج إليه . . قال : ما حاجتك ؟ قال : أربع مئة درهم عليَّ دين ، فدخل الدار وأخرجها إليه ، ثم دخل الدار باكياً ، فقالت له امرأته : هلا تعلَّلت حين شقَّ عليك الإجابة ؟ فقال : إنما أبكي ؛ لأني لم أتفقَّد حاله حتى احتاج إلىٰ مكاشفتي)[٢] .

وقال أكثم بن صيفي : (صاحبُ المعروف لا يقع ، وإن وقع . . وجد متكأً)[٣] .

وقال الفضيل : (ما كانوا يعدون القرض معروفاً)[٤] .

وروي عن امرأة من المتعبدات أنها قالت لحَبَّانَ بن هلال ـ وهو في جماعة من أصحابه ـ ما السخاء عندكم ؟ قال : البذل والإيثار ، قالت : فما السخاء في الدين ؟ قال : أن تعبدي الله سبحانه سخية به نفسك غير مكرهة ، قالت : أفتريدون علىٰ ذٰلك أجراً ؟ قالوا : نعم ؛ لأن الله تعالىٰ وعد على الحسنة بعشر أمثالها ، قالت : سبحان الله ! فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة . . فبأي شيء تسخَّيتم به ؟!

وإنما السخاء : أن تعبدوا الله تعالىٰ متنعمين متلذِّذين بطاعته ، غيرَ كارهين ، لا تريدون بذٰلك أجراً ، ألا تستحيون أن يطلع علىٰ قلوبكم فيعلم منها أنها تريد شيئاً بشيء ؟!)[٥] .

---

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٩ ـ ٤٢٠) .
(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢١ ـ ٤٢٢) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١٧٥/٣) ، و« محاضرات الأدباء » (٥٧٨/٢) من قول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .
(٤) أورده في « المستطرف » (٤٨٣/١) .
(٥) أورده في « الإحياء » (٢١١/٦ ـ ٢١٢) .

وقالت بعض المتعبدات لبعض المتعبدين : (أتظن السخاء في الدينار والدرهم فقط ؟ إنما السخاء في بذل مهج النفوس لله تعالىٰ)(١) .

وقال أبو بكر الدقاق : (ليس السخاء أن يعطي الواجِدُ المُعدِمَ ، إنما السخاء أن يعطي المُعدِمُ الواجِدَ)(٢) .

* * *

وقال الشيخ أبو عبد الرحمٰن : (كان الأستاذ أبو سهل الصُّعلوكي من الأجواد ، لم يناول أحداً شيئاً بيده ، وإنما كان يطرحه على الأرض ، فيتناوله الآخذ من الأرض ، وكان يقول : الدنيا أقل خطراً من أن يرىٰ من أجلها يدي فوق يد أحد ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ٱلْيَدُ ٱلْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ ٱلْيَدِ ٱلسُّفْلَىٰ »)(٣) .

وكان يتوضأ يوماً في صحن داره ، فدخل عليه إنسان وسأله شيئاً ، ولم يحضره شيء ، فقال : اصبر حتىٰ أفرغ ، فصبر ، فلما فرغ . . قال : خذ القُمْقُمة واخرج ، فلما خرج وعلم أنه بَعُد . . صاح وقال : دخل إنسان وأخذ القُمْقُمة ، فمشوا خلفه فلم يدركوه ، وإنما فعل ذٰلك ؛ لأنهم كانوا يلومونه على البذل(٤) .

وفي معناه قيل(٥) : [من الوافر]

مَلأْتُ يَدِي مِنَ ٱلدُّنْيَا مِرَاراً ... فَمَا طَمِعَ ٱلْعَوَاذِلُ فِي ٱقْتِصَادِي

وَلَا وَجَبَتْ عَلَيَّ زَكَاةُ مَالٍ ... وَهَلْ تَجِبُ ٱلزَّكَاةُ عَلَىٰ جَوَادِ

---

(١) أورده في « الإحياء » (٦/٢١٢) .

(٢) أورده في « طبقات الصوفية » (ص ٢٩٨) من قول أبي حمزة البغدادي ، و« الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٥) ، وفيه : (سمعت أبا عبد الرحمٰن السلمي يقول : سمعت أبا بكر الرازي يقول : سمعت الدقاق يقول . . .) .

(٣) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣) ، والحديث رواه البخاري (١٤٢٧) ، ومسلم (١٠٣٤) عن سيدنا حكيم بن حزام رضي الله عنه .

(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٣) ، والقُمْقُمة : وعاء من نحاس ذو عروتين .

(٥) البيتان للبحتري في « ديوانه » (٢/٨٠٤) .

وكان أبو مَرْثد أحد الكرام ، فمدحه بعض الشعراء ، فقال : (ما عندي ما أعطيك ، ولٰكن قدمني إلى القاضي ، وادَّعِ عليَّ عشرة آلاف درهم حتىٰ أُقِرَّ لك بها ، ثم احبسني ؛ فإن أهلي لا يتركونني محبوساً ، ففعل ذٰلك ، فلم يُمسوا حتىٰ دفعوا إليه عشرة آلاف درهم)(١) .

وقال زياد بن جرير : (رأيت طلحة بن عبيد الله فرَّقَ مئةَ ألفٍ في مجلس ، وإنه لَيَخِيطُ إزارَه بيده)(٢) .

ولمَّا دخلَ المُنكدر علىٰ عائشة رضي الله عنها . . قال لها : (يا أم المؤمنين ؛ أصابتني فاقة ، فقالت : ما عندي شيء ، ولو كانت عندي عشرة آلاف درهم . . لبعثت بها إليك ، فلما خرج من عندها . . جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أَسيد ، فقالت : ما أسرع ما ابتليت ! فأرسلت بها في أثره ، فدخل السوق فاشترىٰ جارية بألف درهم ، فولدت له ثلاثة أولاد ، فكانوا عُبَّاد المدينة : محمد وأبو بكر وعمر بنو المنكدر)(٣) .

وقال يحيى بن معين : (كان جرير بن يزيد في دار المطلب ، فجاء إنسان يسأله ، فقال للغلام : اذهب إلى الجواري فقل لهن : من أراد منهن أن تصبغ ثيابها . . فلتبعث بها ، فجاء الغلام بثياب كثيرة ، فقال للسائل : خذها)(٤) .

وقال الأصمعي : (كانت حرب بالبادية ، ثم اتصلت بالبصرة ، فتفاقم الأمر فيها حتىٰ مُشِي بين الناس بالصلح ، فاجتمعوا في المسجد الجامع ، قال : فبُعِثت وأنا غلام إلىٰ ضرار بن القعقاع ابن دارم ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت ؛ فإذا هو في شَمْلَةٍ يخلِط بَزْراً لعَنْزٍ له حَلُوبٍ ، فخبَّرته بمُجتمع القوم ، فأمهل حتىٰ أَكَلتِ العَنْزُ ، ثم غسل القَصْعة وقال : يا جارية ؛ غَدِّينا ، فأتته

---

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٣) ، و« الإحياء » (١٧٢/٦) .

(٢) أورده في « المستطرف » (٤٨٥/١) ، وانظر « غرر الخصائص الواضحة » (ص ٢٤٨) .

(٣) أورده في « ربيع الأبرار » (٢٣١/٢) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣٠٧/٢) .

(٤) تاريخ ابن معين برواية الدوري (١٧٢/٢) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٨٧) .

بزيت وتمر ، قال : فدعاني فَقَذِرْتُه أن آكل معه ، حتىٰ إذا قضىٰ من أكله حاجته . . وثب إلىٰ طينٍ ملقىً في الدار ، فغسل به يده ثم صاح : يا جارية ؛ اسقيني ماء ، فأتته بماء ، فشربه ومسح فَضْلَه علىٰ وجهه ، ثم قال : الحمد لله ، ماء الفرات ، بتمر البصرة ، بزيت الشام ، متىٰ نؤدي شكر هٰذه النعمة ؟! ثم قال : علي بردائي ، فأتته برداء عَدَنِيّ ، فارتدىٰ به علىٰ تلك الشَّمْلة .

قال الأصمعي : فتجافيت عنه استقباحاً لزِيّه ، فدخل المسجد وصلىٰ ركعتين ، ومشىٰ إلى القوم ، فلم تبق حُبوة إلا حُلَّتْ إعظاماً له ، ثم جلس ، فتحمل جميع ما كان بين الأحياء من الدِّيَات في ماله وانصرف)[1] .

* * *

وكان البُهْلول بن راشد الفقيه لمَّا سُجِنَ يعطي كلَّ يوم ديناراً للسجَّان ، فاستكثره أصحابه وكلموه في ذٰلك ، فقال لهم حفص بن عمارة : (سمعت سفيان الثوري يقول : إذا كمل صدق الصادق . . لم يملك ما في يده ، فخرَّ بهلول علىٰ يديه يقبِّلهما وجعل يقول : سألتك بالله ، أنتَ سمعتَه يقول هٰذا ؟ فحلف بالله ؛ لقد سمعته يقول هٰذا)[2] .

وقال الشاعر[3] : [من الطويل]

ذَرِينِي أَكُنْ لِلْمَالِ رَبّاً وَلَا يَكُنْ ... لِيَ ٱلْمَالُ رَبّاً تَحْمَدِي غِبَّهُ غَدَا
أَرِينِي جَوَاداً مَاتَ هَزْلاً لَعَلَّنِي ... أَرَىٰ مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلاً مُخَلَّدَا

وكان عبيد الله بن أبي بكرة ينفق علىٰ أربعين داراً من جيرانه عن يمينه ،

(١) أورده بنحوه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/٣٣٢ ـ ٣٣٣) ، وفيه : (عن الأصمعي . . . أن قتيبة بن مسلم قال : أرسلني أبي إلىٰ ضرار بن القعقاع . . .) ، والمبرد في « الكامل » (١/١٨١ ـ ١٨٢) بلفظه .
(٢) أورده بنحوه أبو العرب في « المحن » (ص ٤٢٨) .
(٣) أورد البيتين في « عيون الأخبار » (٣/١٨١) ، و« الشعر والشعراء » (١/٢٤٨) لحُطائط بن يَعفُر ، والبيت الثاني لحاتم الطائي في « ديوانه » (ص ٢٣٠) ، ولدريد بن الصمة في « ديوانه » (ص ١٨٨) ، ولمعن بن أوس في « ديوانه » (ص ٨٠) ، وغِبَّه : عاقبته .

وأربعين عن يساره ، وأربعين أمامه ، وأربعين خلفه ، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد ، ويعتق في كل عيد مئة مملوك ، واشترىٰ يوماً جارية بعشرة آلاف ، فطلب دابة يحملها عليها ، فقال رجل : (هـٰذه دابتي ، فقال : احملوها علىٰ دابته إلىٰ داره)[1] .

وقال عبد الله بن زهير[2] : [من الطويل]

وَعَاذِلَـةٍ تَخْشَـى ٱلـرَّدَىٰ أَنْ يُصِيبَنِي ... تَـرُوحُ وَتَغْـدُو بِٱلْمَلَامَـةِ وَٱلْقَسَـمْ

تَقُـولُ هَلَكْنَـا إِنْ هَلَكْـتَ وَإِنَّمَـا ... عَلَـى ٱللهِ أَرْزَاقُ ٱلْعِبَـادِ كَمَـا زَعَـمْ

وَإِنِّـي أُحِـبُّ ٱلْخُلْـدَ لَـوْ أَسْتَطِيعُهُ ... وَكَٱلْخُلْدِ عِنْـدِي أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ أُلَمْ

وروي أنَّ أعرابياً قدم علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : (يا أمير المؤمنين ؛ لي إليك حاجة الحياءُ يمنعني أن أذكرها ، قال : خُطَّها في الأرض ، فخَطَّ فيها : إني فقير ، فقال لغلامه : يا قَنْبَر ؛ أُكسُه حُلَّتي ، فكساه الحلة ، فقال الأعرابي : [من البسيط]

كَسَـوْتَنِي حُلَّـةً تَبْلَـىٰ مَحَاسِـنُهَا ... فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ ٱلثَّنَا حُلَلَا

إِنَّ ٱلثَّنَـاءَ لَيُحْيِـي ذِكْـرَ صَاحِبِـهِ ... كَٱلْغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ ٱلسَّهْلَ وَٱلْجَبَلَا

إِنْ نِلْتَ حُسْـنَ ثَنَائِـي نِلْتَ مَكْرُمَةً ... وَلَسْـتَ تَبْغِـي بِمَـا قَـدْ نِلْتَـهُ بَـدَلَا

لَا تَزْهَـدِ ٱلدَّهْـرَ فِي عُـرْفٍ بَدَأْتَ بِهِ ... كُلُّ ٱمْرِئٍ سَـوْفَ يُجْزَىٰ بِٱلَّذِي فَعَلَا

قال علي رضي الله عنه : زده مئة دينار ، فأعطاه إياها ، فلما ولَّى الأعرابي . . قال قنبر : يا أمير المؤمنين ؛ لو فرقتَها في المسلمين . . لأصلحتَ بها من شأنهم ، فقال : مه يا قنبر ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) أورده بنحوه في « ربيع الأبرار » (٤٧٦/١) ، وفيه : (عبد الله) بدل (عبيد الله) .

(٢) الأبيات لعبادة بن أنف الكلب في « الوحشيات » (ص ٦٩) ، ولمُضَرِّس بن رِبْعي في « معجم الشعراء » (ص ٣٦٢) ، والبيتان الأولان لعمرو بن شأس في « ديوانه » (ص ٨٣) .

« أُشْكُروا لِمَنْ أَثْنَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَإِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ . . فَأَكْرِمُوهُ »)[1] .

وقال مُطَرِّفُ ابنُ الشِّخِّير : (إذا أراد أحدكم مني حاجة . . فليرفعها في رُقعة ؛ فإني أكره أن أرىٰ في وجهه ذل سؤال)[2] .

❁ ❁ ❁

وقُرئ على القاضي أبي الوليد ـ وأنا أسمع ـ هـٰذه الأبيات ، وهي لإسحاق بن إبراهيم[3] : [من الطويل]

وَآمِـرَةٍ بِٱلْبُخْـلِ قُلْـتُ لَهَـا ٱقْصُـرِي ... فَلَيْـسَ إِلَيْـهِ مَـا حَيِيـتِ سَـبِيلُ
أَرَى ٱلنَّـاسَ خُـلَّانَ ٱلْكِـرَامِ وَلَا أَرَىٰ ... بَخِيـلاً لَـهُ فِـي ٱلْعَالَمِيـنَ خَلِيـلُ
وَإِنِّـي رَأَيْـتُ ٱلْبُخْـلَ يُـزْرِي بِأَهْلِـهِ ... فَأَكْرَمْـتُ نَفْسِـي أَنْ يُقَـالَ بَخِيـلُ
وَمِنْ خَيْـرِ حَالَاتِ ٱلْفَتَىٰ لَـوْ عَلِمْتِهِ ... إِذَا نَـالَ خَيْـراً أَنْ يَكُـونَ يُنِيـلُ
فِعَالِـي فِعَـالُ ٱلْمُكْثِرِيـنَ تَجَمُّـلاً ... وَمَالِـي كَمَـا قَـدْ تَعْلَمِيـنَ قَلِيـلُ
وَكَيْفَ أَخَـافُ ٱلْفَقْرَ أَوْ أُحْرَمُ ٱلْغِنَىٰ ... وَرَأْيُ أَمِيـرِ ٱلْمُؤْمِنِيـنَ جَمِيـلُ

ولعروة بن الورد[4] : [من الطويل]

وَإِنِّـي ٱمْـرُؤٌ عَافِـي إِنَائِـيَ شِـرْكَةٌ ... وَأَنْـتَ ٱمْـرُؤٌ عَافِـي إِنَائِـكَ وَاحِـدُ
أَتَضْحَـكُ مِنِّي أَنْ سَـمِنْتَ وَأَنْ تَرَىٰ ... بِجِسْمِي شُحُوبَ ٱلْحَقِّ وَٱلْحَقُّ جَاهِدُ
أُقَسِّـمُ جِسْـمِي فِـي جُسُـومٍ كَثِيـرَةٍ ... وَأَحْسُـو قَـرَاحَ ٱلْمَـاءِ وَٱلْمَـاءُ بَـارِدُ

---

(١) أورده بنحوه ابن رشيق في « العمدة » (١/٢٥ ـ ٢٦) دون البيت الثالث ، والحديث رواه ابن ماجه (٣٧١٢) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٨/١٦٨) ، وفي (ب ، ج) : (أكرموا من أثنىٰ عليكم) .

(٢) أورده في « بهجة المجالس » (١/١٦٨) .

(٣) أورد الأبيات أبو الفرج الأصبهاني في « الأغاني » (٥/١٩٦٦) ، والقالي في « الأمالي » (١/٣١) .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ٦٨ ـ ٦٩) ، وعافِي إنائي شركة : يأتيني من يشركني فيه ، وعافي إنائك واحد : تستأثر لنفسك وحدك دون أضيافك ، فتشبع وهم يجوعون ، وأنا أُهزَل وأضيافي يَسمَنون ، وقَراح الماء : الذي لا يخلطه لبن ولا غيره .

وقال بعض الحكماء : (أصل المحاسن كلها : الكرم ، وأصل الكرم : نزاهة النفس عن الحرام ، وسخاؤها بما ملكت على الخاص والعام ، وجميعُ خصالِ الخير من فروعه)[١] .

وروي أنه كان عند البُهلول بن راشد طعام ، فغلا السعر ، فأمر به ، فبيع له ، ثم أمر أن يُشترىٰ له نصف رُبع قَفيز ، فقيل له : (تبيع وتشتري ؟ فقال : نفرح إذا فرح الناس ، ونحزن إذا حزنوا)[٢] .

ولأمِّ حاتم طيِّئ[٣] : [من الطويل]

لَعَمْـرِي لَقِدْماً عَضَّنِـي ٱلْجُوعُ عَضَّةً ... فَآلَيْـتُ أَلَّا أَمْنَـعَ ٱلدَّهْـرَ جَائِعَـا
فَقُـولَا لِـهَـٰذَا ٱللَّائِـمِ ٱلآنَ أَعْفِنِـي ... فَـإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَـلْ فَعَضَّ ٱلْأَصَابِعَا
فَهَـلْ مَـا تَـرَوْنَ ٱلْيَـوْمَ إِلَّا طَبِيعَـةً ... فَكَيْـفَ بِتَرْكِـي يَـا بْـنَ أُمِّ ٱلطَّبَائِعَـا

وقال آخر[٤] : [من البسيط]

أَصُـونُ عِرْضِـي بِمَالِـي لَا أُدَنِّسُـهُ ... لَا بَـارَكَ ٱللهُ بَعْدَ ٱلْعِـرْضِ فِي ٱلْمَالِ
أَحْتَـالُ لِلْمَـالِ إِنْ أَوْدَىٰ فَأَجْمَعُـهُ ... وَلَسْـتُ لِلْعِـرْضِ إِنْ أَوْدَىٰ بِمُحْتَالِ

ويروىٰ أن رجلاً سأل الحسن بن علي رضي الله عنهما شيئاً ، فأعطاه خمسين ألف درهم وخمس مئة دينار وقال : (ائت بحمَّال يحمله لك ، فأتىٰ بحمَّال ، فأعطاه طيلسانه وقال : يكون كِراءُ الحمَّال من قِبَلي)[٥] .

ويروىٰ أن الليث بن سعد سألته امرأةٌ سُكُرُّجَةَ عسل ، فأمر لها بزِقِّ عسل ،

---

(١) أورده في « المستطرف » (١/٤٨٢) .
(٢) أورده في « ترتيب المدارك » (٣/٩٠) .
(٣) أورد الأبيات في « عيون الأخبار » (١/٣٣٦) ، و« الأغاني » (١٩/٦٦٩٦) ، وفيهما : (اللائمي) بالياء .
(٤) البيتان لسيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه في « ديوانه » (١/٣١٤) .
(٥) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٣) .

فقيل له في ذٰلك ، فقال : (إنها سألت علىٰ قدر حاجتها ، ونحن نعطي علىٰ قدر نعمتنا)[1] .

وروي أن رجلاً استضاف عبد الله بن عامر بن كُريز ، فلما أراد الرجل أن يرتحل . . لم يُعِنه غلمانه ، فسأل عن ذٰلك ، فقال عبد الله : (إنهم لا يعينون من يرتحل عنا)[2] .

وفي معناه قال المتنبي[3] : [من البسيط]

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَٱلرَّاحِلُونَ هُمُ

* * *

(١) رواه في « حلية الأولياء » (٣٢٠/٧) ، وأورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٣) ، وسُكُرُّجة : إناء صغير ، وزِق : وعاء من جلد .

(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٤) .

(٣) البيت في « ديوانه » (٣٧٢/٣) ، يشير بهٰذا : إلىٰ إقامة عذره في فراقهم ؛ أي : أنتم تختارون الفراق إذ ألجأتموني إليه .

الباب الحادي والثلاثون
في بيان الشحّ والبخل، وما يتعلّق بهما

الشُّحُّ في كلام العرب : البخلُ ومنعُ الفضل .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شُحِّ نَفْسِي وَإِسْرَافِهَا وَوَسْوَاسِهَا »(١) .

وروىٰ جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اِتَّقُوا ٱلشُّحَّ ؛ فَإِنَّ ٱلشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَىٰ أَنْ سَفَكُوا ٱلدِّمَاءَ وَٱسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ »(٢) .

وقد فَرَّقَ بينهما مُفرِّقون ، فقالوا : الشح أشد من البخل ؛ فإن البخل أكثر ما يقال في النفقة وإمساكها ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾(٣) ، وقال : ﴿ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾(٤) .

وقال في الشح : ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ ﴾(٥) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(٦) .

فالشحُّ يبنىٰ على الكزازة والامتناع(٧) ، وهو يكون في المال وفي جميع منافع البدن .

---

(١) رواه الثعلبي في « تفسيره » (٢٨١/٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٨) .

(٣) سورة آل عمران : (١٨٠) .

(٤) سورة محمد : (٣٨) .

(٥) سورة الأحزاب : (١٩) .

(٦) سورة التغابن : (١٦) .

(٧) الكَزَازة : الانقباض واليبس .

وقال ابن عمر : (ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، وإنما الشح أن يطمع فيما ليس له)[١] .

ولهٰذا قال ابن المبارك : (سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل)[٢] .

وقال رجل لابن مسعود : (إني أخاف أن أكون قد هلكت ، سمعت الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ ﴾[٣] وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء ، فقال : ليس بالشح الذي ذكره الله تعالىٰ ، ولـٰكن الشح : أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولـٰكن ذٰلك البخل ، وبئس الشيء البخل)[٤] ، ففرَّق بينهما كما ترىٰ .

وقال ابن عباس : (الشح : أن يتبع هواه فلا يقبل الإيمان)[٥] .

وقال طاووس : (الشح : أن يبخل المرء بما في أيدي الناس ، والبخل : أن يبخل بما في يديه)[٦] .

وروىٰ أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بَرِئَ مِنَ ٱلشُّحِّ : مَنْ أَدَّى ٱلزَّكَاةَ ، وقَرَى ٱلضَّيْفَ ، وَأَعْطَىٰ فِي ٱلنَّائِبَةِ »[٧] .

وقال ابن زيد : (من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه ، ولم يَدْعُهُ الشُّحُّ إلىٰ أن يمنع شيئاً أمره الله به . . فقد وقاه الله شح نفسه)[٨] .

---

(١) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٩/٣٣٠) ، والبغوي في « تفسيره » (٤/٣٢٠) .

(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٥) .

(٣) سورة التغابن : (١٦) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (١٤/٥٥) ، والثعلبي في « تفسيره » (٩/٢٨٠) .

(٥) أورده بنحوه الثعلبي في « تفسيره » (٩/٢٨٠) .

(٦) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٩/٢٨٠) .

(٧) رواه الطبري في « تفسيره » (١٤/٥٥) ، والثعلبي في « تفسيره » (٩/٢٨١) .

(٨) رواه الطبري في « تفسيره » (١٤/٥٦) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (٩/٢٨٠) .

وقال أبو الهيَّاج الأَسَدي : (رأيت رجلاً في الطواف يقول : اللهم ؛ قني شح نفسي ، لا يزيد علىٰ ذٰلك ، فسألته عن ذٰلك ، فقال : إذا وُقِيتُ شُحَّ نفسي .. لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل ؛ وإذا الرجل عبد الرحمـٰن بن عوف)[1] .

واعلم : أن البخل يكون من سوء الظن بالله تعالىٰ ألا يُخلِفَ ولا يُثِيب ، وهـٰذا يوهن التصديق بما تكفل الله به ، ويطرق الخلل والامتناع إلىٰ جميع الأوامر بين العبد وبين الخالق ، وبين العبد والخلق في ترك معاونتهم والنصحِ لهم .

وقال كسرىٰ لأصحابه : (أيُّ شيءٍ أضرُّ بابن آدم ؟ قالوا : الفقر ، فقال كسرى : الشح أضر من الفقر ؛ لأن الفقير إذا وجد .. اتسع ، والشحيح لا يتسع أبداً)[2] .

ولما قدم الشافعي من صنعاء إلىٰ مكة .. كان معه عشرة آلاف دينار ، فقيل له : تشتري بها ضيعة ، فضرب خيمته خارج مكة ، وصب الدنانير ، فكل من دخل عليه كان يعطيه قبضة قبضة ، فلما جاء وقت الظهر .. قام ونفض الثوب ولم يبق شيء ، ولما قربت وفاته .. قال : مُرُوا فلاناً يغسلُني ، وكان الرجل غائباً ، فلما قدم .. أُخبِر بذٰلك ، فدعا بتذكرته ، فوجد عليه سبعين ألف درهم ديناً ، فقضاها وقال : هـٰذا غسلي إياه)[3] .

وروي أن رجلاً أراد أن يؤذي عبد الله بن عباس ، فأتىٰ وجوهَ البلد وقال لهم : يقول لكم ابن عباس : تَغدَّوا اليوم عندي ، فأتوه فملؤوا الدار ، فقال : ما

---

(١) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٢٨١/٩) بهـٰذا اللفظ ، وابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٤٤٤) مختصراً .

(٢) أورده في « روضة العقلاء » (٨٦١/٢) .

(٣) أورده البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٢٠/٢) مختصراً ، والقشيري في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤) بلفظه .

هٰذا ؟ فأُخبِر الخبر ، فأمر أن تشترى الفواكه في الوقت ، وأمر بالخَبْز والطبخ ، وأصلح أمراً ، فلما فرغ . . قال لوكلائه : أموجود لنا هٰذا كل يوم ؟ قالوا : نعم ، قال : فليتغد هٰؤلاء كلهم عندنا كل يوم)[١] .

ومن الخصال الجارية مجرى الكمال والجمال ، ولعلها من الأصول : الصبر .

* * *

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٢) .

الباب الثاني والثلاثون

في معرفة الصبر وجميل عواقبه

الصبر زمامُ سائر الخصال ، وزعيمُ الغُنم والظفر ، ومِلاكُ كل فضيلة ، وبه يُنال كل خير ومكرمة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾[1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] .

فمعظم وظائف الدين ذكَر الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم جزاءً معلوماً لمن أقامها إلا الصبر ؛ فإنه مجازىً عليه بغير حساب .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾[3] قيل : (عن الدنيا)[4] .

وقال ابن عيينة : (لما أخذوا برأس الأمر . . جعلهم الله رؤوساً)[5] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[6] .

وقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[7] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا . . . ﴾ الآية[8] .

---

(١) سورة الأعراف : (١٣٧) .

(٢) سورة الزمر : (١٠) .

(٣) سورة السجدة : (٢٤) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (١٣٧/١١) عن وكيع .

(٥) أورده ابن كثير في « تفسيره » (٤٦٣/٣) .

(٦) سورة الحجر : (٩٧) .

(٧) سورة الأنعام : (٣٣) .

(٨) سورة آل عمران : (١٨٦) .

ثم ندبهم إلى الصبر مع وجود الأذىٰ فقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (١) .

فالصبر : حبس النفس على الأوامر والمكاره ، وعن النواهي والمعاصي ؛ ألا ترىٰ أن أهل الجنة نودوا فقيل لهم : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (٢) ، فأخبر الله تعالىٰ أنه آتاهم جنته بصبرهم ؛ يعني : صبرتم علىٰ طاعة الله ، وصبرتم عن معاصي الله .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ . . . ﴾ الآية (٣) ؛ أي : احبس نفسك .

فمن أمارات حسن التوفيق وعلامات السعادة : الصبر في الملمات ، والرفق عند النوازل .

وفيما يروىٰ أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوود عليه السلام : (يا داوود ؛ من صبر علينا . . وصل إلينا) (٤) .

وقال سفيان رضي الله عنه : (بلغنا أن لكل شيء ثمرةً ، وثمرةُ الصبرِ : الظَّفر) (٥) .

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٦) ، فعلق الفلاح على الصبر والتقوىٰ ؛ يعني : اصبروا علىٰ ما فرض الله عليكم ، وصابروا عدوكم .

﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : رابطوا على الجهاد ، والثاني : رابطوا

---

(١) سورة آل عمران : (١٨٦) ، في (ب ، و) : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

(٢) سورة الرعد : (٢٤) .

(٣) سورة الكهف : (٢٨) .

(٤) أورده في « حلية الأولياء » (١٠/٣٦٠) من قول أبي علي الكاتب قال : (قال الله . . .) .

(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/٣٢٨) دون نسبة .

(٦) سورة آل عمران : (٢٠٠) .

على انتظار الصلوات [1] ؛ بدليل ما روىٰ أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَا يَمْحُو ٱللهُ بِهِ ٱلْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ ٱلدَّرَجَاتِ ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « إِسْبَاغُ ٱلْوُضُوءِ عِنْدَ ٱلْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ ٱلْخُطَا إِلَى ٱلْمَسَاجِدِ ، وَٱنْتِظَارُ ٱلصَّلَاةِ بَعْدَ ٱلصَّلَاةِ ؛ فَذَٰلِكُمُ ٱلرِّبَاطُ » [2] .

وقال الحسن في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [3] قال : (ابتلاه بالكوكب فصبر ، وبالقمر فصبر ، وبالشمس فصبر ، وابتلاه بذبح ابنه فصبر) [4] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [5] فبدأ بالصبر قبل الصلاة ، ثم قال قولاً عظيماً ؛ فجعل نفسه مع الصابرين دون المصلين .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار : « مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ . . فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ . . يُعِفَّهُ ٱللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ . . يُغْنِهِ ٱللهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ . . يُصَبِّرْهُ ٱللهُ ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ ٱلصَّبْرِ » [6] .

وقال ابن مسعود : قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسماً ، فقال رجل من الأنصار : والله ؛ إنها لَقِسْمةٌ ما أُريد بها وجهُ الله ، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم ، فشق ذٰلك عليه ، وتغير وجهه وغضب ، حتىٰ وَدِدْتُ أني لم أكن أخبرته ، ثم قال : « قَدْ أُوذِيَ مُوسَىٰ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَصَبَرَ » [7] .

---

(١) انظر « تفسير الطبري » (٣/٢٧٦ ـ ٢٧٧) .
(٢) رواه مسلم (٢٥١) .
(٣) سورة البقرة : (١٢٤) .
(٤) انظر « تفسير الطبري » (١/٦٩١ ـ ٦٩٢) .
(٥) سورة البقرة : (١٥٣) .
(٦) رواه البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٧) رواه البخاري (٦١٠٠) ، ومسلم (١٠٦٢/١٤١) .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم مَرَّ على امرأة تبكي على قبر ، فقال لها : « اِتَّقِي ٱللَّهَ وَٱصْبِرِي » ، فقالت : إليك عني ؛ فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي ، فلما انصرف . . قيل لها : هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت إليه تعتذر أنها لم تعرفه ، وقالت : سأصبر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلصَّدْمَةِ ٱلْأُولَىٰ »(١) .

ويحتمل هـٰذا الحديث وجهين :

أما الخَطَّابي . . فقال : (معناه : أن الصبر المحمود عند أول نزول المصيبة ، وقد فاتكِ بالجزع)(٢) .

وأما القابسي . . فقال : (معناه : أن الصدمة الأولىٰ وقت أمرها النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر) ، وكان هـٰذا تعليماً لكل من فاته الصبر بذهول أو نسيان أو غلبة .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئِل عن الإيمان ، فقال : « اَلصَّبْرُ وَٱلسَّمَاحَةُ »(٣) .

وفي منثور الحكم : (قالت الصحة : أنا لاحقة بأرض العرب ، قال الجوع : أنا معك ، قال الإيمان : أنا لاحق بأرض الحجاز ، قال الصبر : أنا معك ، قال المُلك : أنا لاحق بأرض العراق ، قال القتل : أنا معك)(٤) .

* * *

واعلم : أن العجلة خُرْق ، ومخرجُها من قلة العقل ، وأخرقُ من ذٰلك :

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) أورده بنحوه في « فتح الباري » (٣/١٤٩ ـ ١٥٠) .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٢٦١) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٠١٧) ، وبنحوه في « تاريخ دمشق » (١/٣٥٥) عن حكيم بن جابر رحمه الله تعالىٰ ، وفي النسخة (ب) و« تاريخ دمشق » : (بأرض المغرب) بدل (بأرض العرب) .

التفريطُ في الأمر[1] بعد القدرة[2] عليه ، ومثال ذلك : كالقِدْرِ على النار ؛ إن كان ماؤها قليلاً . . غلت بيسير من النار ، وإن كانت مملوءة . . لم تغلِ حتىٰ تكثر نارها ، وتطول مدتها .

وفي كتاب « جاويدان خِرَد »[3] ـ وليس للعجم كتاب مثله ـ قال : (مُحرَّمٌ على السامع تكذيب القائل إلا في ثلاث هن غير الحق : صبر الجاهل علىٰ مضض المصيبة ، وعاقل أبغض من أحسن إليه ، وحماة أحبت كَنَّة)[4] .

فَصْلٌ

[في أقسام الصبر]

واعلم : أن الصبر علىٰ أقسام ؛ صبر علىٰ ما هو كسبٌ للعبد ، وصبر علىٰ ما ليس بكسب له .

فالصبر على المكتسب علىٰ قسمين : صبر علىٰ ما أمر الله تعالىٰ به ، وصبر علىٰ ما نهى الله عنه .

وأما الصبر علىٰ ما ليس بمكتسب للعبد : فصبره علىٰ مقاساة ما يتصل به من حُكم الله تعالىٰ فيما له فيه مشقة .

وينقسم من وجه آخر علىٰ أربعة أقسام :

فأول أقسامه وأَولاه : الصبر على امتثال ما أمر الله تعالىٰ به ، والانتهاء عما نهى الله عنه .

---

(١) في (د) : (في الأمن) .

(٢) في (أ ، ب ، د) : (بعد القوة) .

(٣) جاويدان خِرَد : لفظة فارسية ، ومعناها : الحكمة الخالدة ، قال في « كشف الظنون » (١/٥٧٧ ـ ٥٧٨) : (اسم كتاب للفرس منسوب إلىٰ هوشنك شاه [وقد نسبه الطرطوشي في (ص ٦٣٤) إلىٰ كنجور] وقد عرَّبه حسن بن سهل وزيرُ المأمون ، ولخصه أيضاً في تعريبه ، وأورد الشيخ أبو علي ابن مسكويه هذا الملخص في مقدمة كتابه المسمىٰ بـ « آداب العرب والفرس ») ، وانظر « ربيع الأبرار » (٤/١٢٤ ـ ١٢٥) .

(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/٢٥٣) .

والثاني : الصبر على ما فات إدراكه من مسرَّة ، أو تَقضَّتْ أوقاته من مصيبة .

والثالث : الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها ، أو يخشىٰ حدوثه من رهبة يخافها .

والرابع : الصبر على ما نزل من مكروه ، أو حل من أمر مَخُوف .

وجميع أقسامه محمودة بكل لسان ، وفي كل ملة ، وعند كل أمة مؤمنة أو كافرة .

وقال أكثم بن صيفي : (من صَبَرَ . . ظَفِر)(١) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (الصبرُ مطيَّةٌ لا تكبو ، والقناعةُ سيفٌ لا ينبو)(٢) .

وقال أردشير : (الصبرُ : الدَّرَك)(٣) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اَلصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَبِٱلصَّبْرِ يُتَوَقَّعُ ٱلْفَرَجُ »(٤) .

وقال عليه السلام : « اَلصَّبْرُ سَتْرٌ مِنَ ٱلْكُرُوبِ ، وَعَوْنٌ عَلَى ٱلْخُطُوبِ »(٥) .

وقال ابن عباس : (أفضل العُدَّة : الصبرُ على الشدة)(٦) .

وقال عبد الحميد الكاتب : لم أسمع أعجبَ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لو كان الصبر والشكر مطيتين . . ما باليتُ أيَّهما رَكِبتُ)(٧) .

---

(١) رواه القالي في « الأمالي » (١٧٢/٢) ، وأورده الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٦) .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (١٤٩/٢) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٠) .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٧) بلفظ : (الصبر مفتاح الدَّرَك) .

(٤) الشطر الأول من الحديث : رواه مسلم (٢٢٣) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، والثاني : أورده الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٦) .

(٥) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦١) ، و« محاضرات الأدباء » (٣٢٧/٤) .

(٦) أورده في « المحاسن والمساوئ » (ص ٣٠٥) دون نسبة ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٢) بهٰذه النسبة .

(٧) أورده في « البيان والتبيين » (١٢٦/٣) عن أبي عبد الحميد ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصبر » (٧) عن عبد الله بن عمر قال : قال عمر . . . الحديث .

وقال بعض الحكماء : (بالصبر علىٰ مواقع المكروه تدرك الحظوظ)[1] .

وقال ابن المقفع في كتاب « اليتيمة » : (الصبر صبران ؛ فاللئام أصبر أجساماً ، والكرام أصبر نفوساً ، وليس الصبر الممدوحُ صاحبُه أن يكون قوي الجسد على الكَدِّ والعمل ؛ فإن هـٰذا من صفات الحمير ، ولـٰكن أن يكون للنفس غلوباً ، وللأمور محتملاً ، ولجأشه عند الحِفاظ مرتبطاً)[2] .

وفي منثور الحكمة : (من أحب البقاء . . فليعد للمصائب قلباً صبوراً)[3] .

وقال بزرجمهر : (لم أر ظهيراً علىٰ تنقل الدول كالصبر ، ولا مُذِلّاً للحُسَّاد كالتجمُّل ، ولا مَكسبةً للإجلال كتوقِّي المزاح ، ولا مَجلبةً للمقت كالعجب ، ولا مَتلفةً للمروءة كاستعمال الهزل في مواضع الجد)[4] .

* * *

فأما القسم الأول ـ وهو الصبر على امتثال أوامر الله تعالىٰ ، والانتهاء عن محارمه ـ : فبه يصح أداء الفرائض ، واستكمال السنن ، ويدخل في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ . . . ﴾ الآية[5] .

ولذٰلك قال علي رضي الله عنه : (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد)[6] .

وقال الجنيد : (المسير من الدنيا إلى الله سهل هين على المؤمن ، وهجر الخلق في جنب الله تعالىٰ شديد ، والمسير من النفس إلى الله تعالىٰ صعب

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٢) .

(٢) الدرة اليتيمة (ص ١٠١) بنحوه ، والجأش : القلب والنفس ، والحِفاظ : الذَّبُّ عن المحارم ، والمنع عند الحروب .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٢) .

(٤) أورده مختصراً في « محاضرات الأدباء » (٢/٣٣٦) .

(٥) سورة الزمر : (١٠) .

(٦) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٧٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٠) .

شديد ، والصبر مع الله أشد)(١) .

وسئل عن الصبر فقال : (تجرُّعُ المرارةِ من غير تَعبِيس)(٢) .

وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هـٰذه الآية : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾(٣) . . بكىٰ ، وقال : (وا عجباه ! أعطىٰ وأثنىٰ)(٤) .

وقال الخَوَّاص : (الصبر : هو الثبات علىٰ أحكام الكتاب والسنة)(٥) .

وقال عبد الواحد بن زيد : (من نوى الصبر علىٰ طاعة الله . . صبَّره الله عليها وقوَّاه ، ومن عَزَم على الصبر عن معاصي الله . . أعانه الله عليها وعصمه عنها)(٦) .

وقال عمر بن عبد العزيز للقاسم بن محمد : (أوصني ، فقال القاسم : عليك بالصبر في مواضع الصبر)(٧) .

وقال الحسن : (الصبر صبران : صبر عند المصيبة ، وصبر عما نهى الله تعالىٰ عنه ، وهو الأفضل)(٨) .

وإنما يختلف الصبر بالخوف والرجاء ؛ فمن خاف شيئاً . . صبر على الفرار منه ، وصبر عنه كراهة ما يحذر من ضرره ، ومن رجا شيئاً . . صبر علىٰ طلبه ليظفر به .

❊ ❊ ❊

---

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٤) .

(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٤) .

(٣) سورة صٓ : (٤٤) .

(٤) أورده في « الإحياء » (٢١٢/٧) .

(٥) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٥) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصبر » (١٤٦) .

(٧) أورده ابن رشد في « البيان والتحصيل » (٤٧٢/١٨) .

(٨) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٠٢/١) من قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابن أبي الدنيا في « الصبر » (١٨) من قول ميمون بن مهران رحمه الله تعالىٰ .

وأما القسم الثاني ـ وهو الصبر علىٰ ما فات إدراكه من مسرَّة ، أو تقضَّتْ أوقاتُه من مصيبة ـ : فإنه يتعجل به الراحة مع اكتساب المثوبة ؛ فإن صبر طائعاً . . استراح وأحرز الثواب ، وإن لم يصبر . . حمل الهم والوزر .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه للأشعث بن قيس : (إن تجزع على ابنك . . فقد استحقَّت الرَّحِمُ ذٰلك منك ، وإن تصبر . . ففي ثواب الله تعالىٰ خلف من ابنك ؛ إن صبرت . . جرىٰ عليك القلم وأنت مأجور ، وإن جَزِعت . . جرىٰ عليك القلم وأنت مأزور)[1] .

ونظمه أبو تمام فقال في ذٰلك[2] : [من الطويل]

وَقَـالَ عَلِـيٌّ فِـي ٱلتَّعَـازِي لِأَشْـعَثٍ ... وَخَـافَ عَلَيْـهِ بَعْـضَ تِلْـكَ ٱلْمَآثِـمِ

أَتَصْبِـرُ لِلْبَلْـوَىٰ عَـزَاءً وَحِسْـبَةً ... فَتُؤْجَـرَ أَمْ تَسْـلُو سُـلُوَّ ٱلْبَهَائِـمِ

خُلِقْنَـا رِجَـالاً لِلتَّصَبُّـرِ وَٱلْعَـزَا ... وَتِلْـكَ ٱلْأَيَامَـىٰ لِلْبُـكَا وَٱلْمَآتِـمِ

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل : (إن صبرت . . مضىٰ أمر الله وأنت مأجور ، وإن جَزِعت . . مضىٰ أمر الله وأنت مأزور)[3] .

وقال الحسن : (والله ؛ لو كُلِّفنا الجَزَعَ . . ما قمنا به ؛ فالحمد لله الذي آجرنا علىٰ ما لو نهانا عنه . . لصرنا إليه)[4] .

وعن هٰذا قالت الحكماء : (الجزع أتعب من الصبر)[5] .

ففي الجزع : التعب والوزر ، وفي الصبر : الراحة والأجر ، ولو صُوِّرَ الصبر والجزع . . لكان الصبر أحسن صورة وأكرم طبيعة ، وكان الجزع أقبح صورة

---

(١) أورده في « التعازي والمراثي » (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦) ، و« العقد الفريد » (٣/٣٠٤) .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (٣/٢٥٩) .

(٣) رواه بنحوه ابن المقرئ في « المعجم » (٣٩٠) من قول محمد بن أحمد بن إسرائيل الفريابي رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورده بنحوه المبرد في « الكامل » (٣/١٣٦١) .

(٥) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٣٧) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

وأخور طبيعة ، ولكان الصبر أولاهما بالغلبة ؛ لحسن الخلقة وكرم الطبيعة .

وقال بعض العلماء : (لو وُكِّلَ الناسُ بالجزع .. لَلَجؤوا إلى الصبر)[١] .

وقال شبيب بن شيبة للمهدي : (إن أحقَّ ما صُبِرَ عليه : ما لم تجد سبيلاً إلىٰ دفعه)[٢] .

وأنشدوا[٣] : [من الكامل]

وَإِذَا تُصِبْـكَ مُصِيبَـةٌ فَاْصْبِـرْ لَهَـا   عَظُمَـتْ مُصِيبَـةُ مُبْتَلـىً لَا يَصْبِـرُ

وقال آخر[٤] : [من الطويل]

وَعُوِّضْـتَ أَجْـراً مِنْ فَقِيـدٍ فَلَا يَكُنْ   فَقِيـدُكَ لَا يَأْتِـي وَأَجْـرُكَ يَذْهَـبُ

وقال بعض الحكماء : (ليس بمجموع له الرشد : من يتابع التلهف علىٰ فائت ، أو يكثر الفرح عند مستطرف) .

وقال الحكيم : (إن كنت جازعاً علىٰ ما تفلَّت من يدك .. فاجزع علىٰ ما لم يصل إليك ، ومن أيقن أن كل فائت إلى انقضاء .. حَسُنَ عزاؤه عند نزول البلاء)[٥] .

وقال الشاعر : [من الطويل]

إِذَا طَـالَ بِٱلْمَحْـزُونِ أَيَّـامُ صَبْـرِهِ   كَسَاهُ ضَنىً طُولُ ٱلْمُقَامِ عَلَى ٱلصَّبْرِ

وَلَا شَـكَّ أَنَّ ٱلصَّبْـرَ يُحْمَـدُ غِبُّـهُ   وَلَـٰكِنَّ إِنْفَاقِـي عَلَيْـهِ مِـنَ ٱلْعُمْـرِ

---

(١) أورده في « التعازي والمراثي » (ص ٩) .

(٢) أورده في « التعازي والمراثي » (ص ١٤١) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٤) .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٤) دون نسبة ، ورواه في « تاريخ بغداد » (٣٩١/٩) لسليمان بن عبد الملك .

(٤) أورده في « العقد الفريد » (٣٠٣/٣) للحسن بن أبي الحسن كتبها إلىٰ عمر بن عبد العزيز يعزيه في ابنه عبد الملك .

(٥) روى الشطر الأول : ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٩٨) عن شيخ من قريش ، وأورده في « العقد الفريد » (١٥٧/٣ ـ ١٥٨) ، وأورد الشطر الثاني : الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٧٣) دون نسبة .

وقال بعض القدماء : (الصبر علىٰ أربع مراتب : على الشوق ، والإشفاق ، والزهادة ، والترقب ؛ فمن اشتاق إلى الجنة . . سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار . . رجع عن المحرمات ، ومن زَهِدَ في الدنيا . . تهاون بالمصيبات ، ومن راقب الموت . . أقصر عن الخطيئات)[١] .

وأما القسم الثالث ـ وهو الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها ، أو يخشىٰ حدوثه من رهبة يخافها ـ : فبالصبر والتلطف يدفع عادِيَةَ ما يخاف ، وينال نفع ما يرجو .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اِنْتِظَارُ ٱلْفَرَجِ مِنَ ٱللهِ بِٱلصَّبْرِ عِبَادَةٌ »[٢] .

وقال محمد بن بشير[٣] : [من البسيط]

إِنَّ ٱلْأُمُـورَ إِذَا ٱنْسَـدَّتْ مَسَـالِكُهَا ... فَٱلصَّبْـرُ يَفْتَـحُ مِنْهَا كُلَّ مَـا ٱرْتَتَجَا
لَا تَيْـأَسَـنَّ وَإِنْ طَالَـتْ مُطَالَبَـةٌ ... إِذَا ٱسْـتَعَنْتَ بِصَبْـرٍ أَنْ تَـرَىٰ فَرَجَـا
أَخْلِقْ بِذِي ٱلصَّبْرِ أَنْ يَحْظَىٰ بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِـنِ ٱلْقَـرْعِ لِلْأَبْـوَابِ أَنْ يَلِجَـا

وقال بعض الرواة : (دخلت مدينة يقال لها : « ظَفار » ، فبينا أنا أطوف في خرابها . . إذ رأيت مكتوباً علىٰ باب قصر خراب هٰذه الأبيات : [من البسيط]

يَـا مَـنْ أَلَـحَّ عَلَيْـهِ ٱلْهَـمُّ وَٱلْفِكَـرُ ... وَغَيَّـرَتْ حَالَـهُ ٱلْأَيَّـامُ وَٱلْغِيَـرُ
أَمَـا سَـمِعْتَ بِمَا قَـدْ قِيلَ فِـي مَثَلٍ ... عِنْـدَ ٱلْإِيَـاسِ فَأَيْـنَ ٱللهُ وَٱلْقَـدَرُ
نَـمْ لِلْخُطُـوبِ إِذَا أَحْدَاثُهَـا طَرَقَتْ ... وَٱصْبِـرْ فَقَـدْ فَـازَ أَقْـوَامٌ بِمَـا صَبَرُوا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصبر » (٩) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/٧٤) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٣١) عن سيدنا علي رضي الله عنه .

(٣) الأبيات مِمَّا نسبت لمحمد بن بشير الخارجي في « ديوانه » (ص ١٣٣) ، وأوردها في « البيان والتبيين » (٢/٣٦٠) ، و« الشعر والشعراء » (٢/٨٧٩) لمحمد بن يسير .

فَكُلُّ ضِيقٍ سَيَأْتِي بَعْدَهُ سَعَةٌ وَكُلُّ فَوْتٍ وَشِيكٌ بَعْدَهُ ٱلظَّفَرُ

وتحته مكتوب بخط آخر : لو كان كل من صبر أُعقِب الظَّفر . . صبرت ، ولٰكن نجد الصبر في العاجل يفني العمر ، ويدني من القبر ، وما كان أصلحَ لذي العقل موتُه وهو طفل ، والسلام)(١) .

قلت : لو رأيته . . لكتبت تحته : في الصبر : استعجال الراحة ، وانتظار الفرج ، وحسن الظن بالله ، وأجر بغير حساب ، وفي الجزع : استعجال الهم ، ونَهْك البدن ، واستشعار الخيبة ، وسوء الظن بالله تعالىٰ ، وحمل الإثم ، وانتظار العقوبة ، وما أحسن بذي العقل اجتناب هٰذا ! والسلام .

وقال بعض البلغاء : (من صبر . . نال المنىٰ ، ومن شكر . . حَصَّنَ النُّعْمىٰ)(٢) .

وقال الشاعر(٣) : [من مخلع البسيط]

اَلصَّبْرُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ وَكُلُّ صَعْبٍ بِهِ يَهُونُ

فَٱصْبِرْ وَإِنْ طَالَتِ ٱللَّيَالِي فَرُبَّمَا سَاعَدَ ٱلْحَرُونُ

وَرُبَّمَا نِيلَ بِٱصْطِبَارٍ مَا قِيلَ هَيْهَاتَ لَا يَكُونُ

وقال عمر بن عبد العزيز : (ما أنعم الله علىٰ عبد نعمة ، فانتزعها منه ، وعوَّضه منها الصَّبرَ . . إلا كان ما عوَّضه أفضل مما انتزع منه ، وقرأ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾)(٤) .

---

(١) رواه في « أدب الغرباء » (ص ٦٠ ـ ٦١) .

(٢) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٧) .

(٣) الأبيات لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ٢٥٠) ، وفيه : (وكل خير) بدل (وكل صعب) ، وفي (أ ، د ، و ، ز) : (وكل شر) ، والحَرُون : فرسٌ حَرُونٌ : لا ينقاد ، وإذا اشتد به الجري . . وقف .

(٤) رواه في « البيان والتبيين » (٣/١٤٢) ، و« التعازي والمراثي » (ص ٦٣) ، والآية من سورة الزمر : (١٠) .

وروي أن جارية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كانت تتصرف في حوائجه ، فكلما خرجت . . تصدىٰ لها خياط كان بقرب دار علي عليه السلام ، ويقول لها : (والله ؛ إني لأحبك في الله ، فلما أكثر من ذٰلك . . شكته إلىٰ علي عليه السلام ، فقال لها علي : إذا قال لك مرة أخرىٰ . . فقولي له : وأنا والله أحبك ، ما الذي تريد ؟ فماذا بعد ذٰلك ؟ فقال لها ذٰلك ، فقالت له : وأنا والله أحبك فيه ، فماذا بعد ذٰلك ؟ فقال لها : تصبرين وأصبر حتىٰ يحكم الله وهو خير الحاكمين ، إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب ، فرجعت الجارية وأخبرت مولاها ، فدعا علي عليه السلام الخياط ، فوجد أمره على الصحة ، فوهبها له مع نفقة يستعين بها)[١] .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (الصبر كفيل بالنجاح ، والمتوكِّلُ لا يَخيب ظَنُّه ، والعاقل لا يَذِلُّ بأول نكبة ، ولا يفرح بأول رفعة)[٢] .

وكان يقال : (الصبر سلامة ، والطيش ندامة) .

* * *

وأما القسم الرابع ـ وهو الصبر علىٰ ما نزل من مكروه ، أو حل من أمر مَخُوف ـ : فبالصبر فيه تنفتح وجوه الآراء ، وتتوقىٰ مكايد الأعداء .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[٤] .

---

(١) أورده بنحوه في « الموشىٰ » (ص ٥٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (٢/٢٤١) ، وفيهما قصة جارية لعلي تشكو مؤذناً له .

(٢) أورد الشطر الأول إلىٰ قوله : (ظنه) : في « الفرج بعد الشدة » (١/١٥٤) من قول سيدنا علي رضي الله عنه ، والشطر الثاني : في « الفرج بعد الشدة » (١/١٥٥) دون نسبة .

(٣) سورة الأعراف : (١٣٧) .

(٤) سورة النحل : (١٢٧) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [1] .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [2] .

وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلّٰهِ تَعَالَىٰ بِٱلرِّضَا فِي ٱلْيَقِينِ . . فَٱفْعَلْ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ . . فَٱصْبِرْ ؛ فَإِنَّ فِي ٱلصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً ، وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلنَّصْرَ مَعَ ٱلصَّبْرِ ، وَٱلْفَرَجَ مَعَ ٱلْكَرْبِ ، وَٱلْيُسْرَ مَعَ ٱلْعُسْرِ » [3] .

وقال علي رضي الله عنه : (الصبرُ : مُناضِلُ الحَدَثان ، والجَزَعُ : من أعوان الزمان) [4] .

وقال الحكيم : (بمفتاح عزيمة الصبر تُعالَجُ مغاليقُ الأمور) [5] .

وأنشدوا [6] : [من الرمل]

إِنَّمَـــا أَجْـــزَعُ مِمَّـــا أَتَّقِـــي ... فَـــإِذَا حَـــلَّ فَمَـــا لِـــي وَٱلْجَـــزَعْ

ولما حُبِسَ أبو أيوب في الحبس خمس عشرة سنة . . ضاقت حيلته ، وقل صبره ، فكتب إلىٰ بعض إخوانه يشكو طول حبسه ، وقلة صبره ، فرد عليه جواب رقعته : [من الكامل]

صَبْـراً أَبَـا أَيُّـوبَ صَبْـرَ مُبَـرَّحٍ ... فَـإِذَا عَجَزْتَ عَنِ ٱلْخُطُوبِ فَمَنْ لَهَا

إِنَّ ٱلَّـذِي عَقَـدَ ٱلَّـذِي ٱنْعَقَـدَتْ بِـهِ ... عُقَـدُ ٱلْمَكَـارِهِ فِيـكَ يَمْلِـكُ حَلَّهَـا

صَبْـراً فَـإِنَّ ٱلصَّبْـرَ يُعْقِـبُ رَاحَـةً ... وَلَعَلَّهَـــا أَنْ تَنْجَلِـــي وَلَعَلَّهَـــا

---

(1) سورة لقمان : (١٧) .

(2) سورة الشورىٰ : (٤٣) .

(3) رواه الحاكم (٥٤١/٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٢٨) .

(4) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٨) ، والمناضلة : المراماة ، والحَدَثان : نوائب الدهر ومصائبه .

(5) أورده في « جمهرة الأمثال » (٣٠٢/١) ، و« البصائر والذخائر » (١٥٣/٤) .

(6) أورده في « الفتوحات المكية » (٥٩/٢) .

فأجابه أبو أيوب : [من الكامل]

صَبَّرْتَنِـي وَوَعَظْتَنِـي وَأَنَـا لَهَـا ... وَسَـتَنْجَلِي بَـلْ لَا أَقُـولُ لَعَلَّهَـا

وَيَحُلُّهَـا مَـنْ كَانَ صَاحِـبَ عَقْدِهَـا ... كَرَمـاً بِـهِ إِذْ كَانَ يَمْلِـكُ حَلَّهَـا

فما لَبِث بعد ذٰلك إلا أياماً حتىٰ أُطلِقَ مُكَرَّماً (١) .

ولتميم بن المعز (٢) : [من الطويل]

سَأَسْكُتُ صَبْراً وَٱحْتِسَاباً فَإِنَّنِي ... أَرَى ٱلصَّبْرَ سَيْفاً لَيْسَ فِيهِ فُلُولُ

عَدَانِيَ أَنْ أَشْكُو إِلَى ٱلنَّاسِ أَنَّنِي ... عَلِيلٌ وَمَـنْ أَشْكُو إِلَيْـهِ عَلِيلُ

وَإِنَّ ٱمْـرَأً يَشْكُو إِلَـىٰ غَيْـرِ نَافِـعٍ ... وَيَسْـخُو بِمَـا فِـي نَفْسِـهِ لَجَهُـولُ

وقال غيره (٣) : [من المتقارب]

دَعِ ٱلدَّهْـرَ يَجْـرِي بِمِقْـدَارِهِ ... وَيَقْضِـي عَجَائِـبَ أَوْطَـارِهِ

وَنَـمْ نَوْمَـةً عَـنْ وُلَاةِ ٱلْأُمُـورِ ... وَخَـلِّ ٱلزَّمَـانَ بِتَـدْوَارِهِ

فَإِنَّـكَ تَرْحَـمُ مَـنْ قَـدْ غَبَطْـتَ ... وَتَعْجَـبُ مِـنْ قُبْـحِ آثَـارِهِ

وأنشد بعضهم (٤) : [من الطويل]

وَيَمْنَعُنِي ٱلشَّكْوَىٰ إِلَى ٱلنَّاسِ أَنَّنِي ... عَلِيلٌ وَمَـنْ أَشْكُو إِلَيْـهِ عَلِيلُ

وَيَمْنَعُنِـي ٱلشَّـكْوَىٰ إِلَـى ٱللهِ أَنَّـهُ ... عَلِيـمٌ بِمَـا أَلْقَـاهُ قَبْـلَ أَقُـولُ

وقال آخر (٥) : [من البسيط]

إِذَا ٱبْتُلِيـتَ فَثِـقْ بِـٱللهِ وَٱرْضَ بِـهِ ... إِنَّ ٱلَّـذِي يَكْشِـفُ ٱلْبَلْـوَىٰ هُـوَ ٱللهُ

---

(١) رواه في « الفرج بعد الشدة » (١٨٦/١ ـ ١٨٧) ، وأورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٨١) .

(٢) هو تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، والأبيات في « ديوانه » (ص ٣٢٦) .

(٣) أورد الأبيات في « البصائر والذخائر » (٧١/٥) .

(٤) البيتان لتميم بن المعز لدين الله الفاطمي في « ديوانه » (ص ٣٢٦) .

(٥) أورد البيتين الأولين في « المحاسن والأضداد » (ص ١١٢) دون نسبة ، والأبيات جميعاً في « الفرج بعد الشدة » (٢٠/٥) فيما يروىٰ لأبي العتاهية ، وليس في « ديوانه » .

اَلْيَــأْسُ يَقْطَــعُ أَحْيَانــاً بِصَاحِبِــهِ   لَا تَيْئَسَـــنَّ فَـــإِنَّ ٱلصَّانِـــعَ ٱللهُ

إِذَا قَضَــى ٱللهُ فَٱسْتَسْـلِمْ لِقُدْرَتِــهِ   مَـا لِٱمْـرِئٍ حِيلَــةٌ فِيمَـا قَضَـى ٱللهُ

ويتصرَّف من هٰذه اللفظة : صابر ، وصبور ، وصبَّار ، ومتصبِّر .

فالمتصبِّر : من صبر في الله على المكاره ، فتارة يعجز ، وتارة يصبر .

والصابر : من لا يشكو ولا يعجز .

والصبَّار : هو الذي لو وقع عليه جميع البلايا والمحن . . لم يتغير من جهة الحقيقة وإن تغير من جهة الرسم والبشرية والخلقة ، كما قال القائل (١) : [من الخفيف]

صَابَـرَ ٱلصَّبْـرَ فَٱسْـتَغَاثَ بِـهِ ٱلصَّبْـ   ـرُ فَصَاحَ ٱلصَّبُـورُ بِٱلصَّبْـرِ صَبْـرَا

وهٰذا أقوىٰ بيت قيل في الصبر وأحسنهُ .

وقريب منه : قول القائل (٢) : [من الطويل]

صَبَرْتُ عَلَـى ٱلْأَقْدَارِ صَبْراً أَصَارَنِي   إِلَىٰ أَنْ يُنَادِي ٱلْحَالُ لَا صَبْرَ لِلصَّبْرِ

والصبور : هو الثابت علىٰ هٰذه المقامات .

وقيل : أوحى الله تعالىٰ إلىٰ داوود عليه السلام : (تخلق بأخلاقي ، وإن من أخلاقي : أني أنا الصبور) (٣) .

يقال : (الصبر لله عناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر في الله بلاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء) (٤) .

---

(١) البيت لأبي بكر الشبلي في « ديوانه » (ص ١٠٤) .

(٢) في (ز) : (صبرت على الأيام صبراً أصاب بي) ، و(د) : (. . . صبراً أنالني) ، وفي النسخ جميعاً عدا (ز) : (ينادي الصبر) .

(٣) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٧) ، و« الإحياء » (٢١٠/٧) .

(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٧) ، و« الإحياء » (٢٧١/٧) .

وأنشدوا[1] : [من الوافر]

إِذَا لَعِبَ ٱلرِّجَالُ بِكُلِّ شَيْءٍ ... رَأَيْتُ ٱلْحُبَّ يَلْعَبُ بِٱلرِّجَالِ
وَكَيْفَ ٱلصَّبْرُ عَمَّنْ حَلَّ مِنِّي ... بِمَنْزِلَةِ ٱلْيَمِينِ مِنَ ٱلشِّمَالِ

وقال المحاسبي : (بين الصبر والتصبر حالة هي التنعم ؛ وذٰلك إذا رفع الله له علماً من أعلام الآخرة .. يدله علىٰ منازل الصابرين عنده ، فيتنعم القلب بسرور النِّعم) .

وقال أبو محمد الجُريري : الصبر : ألا يُفرِّقَ بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما ، والتصبر : هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحبة .

وأنشدوا : [من الطويل]

صَبَرْتُ وَلَمْ أُطْلِعْ هَوَاكَ عَلَىٰ صَبْرِي ... وَأَخْفَيْتُ مَا بِي مِنْكَ عَنْ مَوْضِعِ ٱلصَّبْرِ
مَخَافَةَ أَنْ يَشْكُو ضَمِيرِي صَبَابَتِي ... إِلَىٰ دَمْعَتِي سِرّاً فَتَجْرِي وَلَا أَدْرِي[2]

وقيل للمحاسبي : بماذا يقوى الصابر علىٰ صبره ؟ فقال : إذا علمت أن في صبرك رضا مولاك ؛ أما سمعت قول الحكيم : [من الطويل]

رَضِيتُ وَقَدْ أَرْضَىٰ إِذَا كَانَ مُسْخِطِي ... مِنَ ٱلْأَمْرِ مَا فِيهِ رِضَا مَنْ لَهُ ٱلْأَمْرُ[3]

وفي معناه[4] : [من الطويل]

سَأَصْبِرُ كَيْ تَرْضَىٰ وَأُتْلَفُ حَسْرَةً ... وَحَسْبِيَ أَنْ تَرْضَىٰ وَيُتْلِفَنِي صَبْرِي

قال شيخنا : وثُكْلُك لمن تحبه أعظم من ثُكْلِك لنفسك ، هٰذا أيوب عليه السلام لمَّا أصيب بنفسه .. قال : ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾[5] ، ويعقوب عليه السلام

---

(١) أورد البيتين في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٧) .
(٢) رواه في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٦) ، والبيتان دون نسبة في المصدر .
(٣) رواه بنحوه في « حلية الأولياء » (٨٩/١٠) ، والبيت لأبي تمام في « ديوانه » (٥٧١/٤) .
(٤) رواه في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٦) لابن عطاء رحمه الله تعالىٰ .
(٥) سورة الأنبياء : (٨٣) .

لمَّا أصيب بحبيبه . . قال : ﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾[1] .

وقال أحمد بن أبي الحواري : (قال لي أبو سليمان الداراني : أتدري بماذا أزال العقلاء اللائمة عمن أساء إليهم ؟ قلت : لا ، قال : لعلمهم بأن الله تعالى ابتلاهم بذلك ، فصبروا)[2] .

ويروىٰ أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعض أنبيائه : (أنزلتُ بعبدي بلائي فدعاني ، فماطلتُه بالإجابة فشكاني ، فقلت : عبدي ؛ كيف أرحمُك من شيء به أَرحَمُك ؟!)[3] .

وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴾[4] : (إنه الصبر الذي لا شكوىٰ فيه ولا بَثَّ)[5] .

قال أنس : (ما صَبَرَ من بَثَّ)[6] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لا تستغزروا الدموعَ بالتذكُّر)[7] .

وقال الشاعر[8] : [من الطويل]

. . . . وَلَا يَبْعَـثُ ٱلْأَحْـزَانَ مِثْـلُ ٱلتَّذَكُّـرِ

ومما يعين علىٰ عِظَم الأسىٰ وشدة الجزع : تذكُّرُ المَسَارِّ المُنقضِية ، وتصوُّرُ المَضَارِّ[9] الذاهبة ، وكثرةُ الشكوىٰ ، وشدة الأسف .

---

(١) سورة يوسف : (٨٤) .

(٢) رواه بنحوه الثعلبي في « تفسيره » (٣٢٠/٨) ، وأورده القرطبي في « تفسيره » (٣١/١٦) .

(٣) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٩) .

(٤) سورة المعارج : (٥) .

(٥) انظر « تفسير الطبري » (٨٨/١٤) .

(٦) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٣/٢) ، وأورده الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٧٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وبَثَّ : نشر بلاءه .

(٧) كذا أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٧٧) ، وفي « عيون الأخبار » (٢٩٨/٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٧٣٦/م) بلفظ : (استغزروا العيون بالتذكُّر) .

(٨) البيت لليلى الأخيلية في « ديوانها » (ص ٧١) ، وصدره : (سَمِعْنَ بهَيْجا أرهقت فَذَكَرْنَه . . .) .

(٩) في (د) : (الملاذ) .

وقال الشاعر[1] : [من مشطور الرجز]

لَا تُكْثِـرِ ٱلشَّـكْوَىٰ إِلَـى ٱلصَّدِيـقِ
وَٱرْجِـعْ إِلَى ٱلْخَالِـقِ لَا ٱلْمَخْلُـوقِ
لَا يُخْـرِجُ ٱلْغَرِيـقُ بِٱلْغَرِيـقِ

وفي منثور الحكم : (المصيبةُ بالصبر أعظمُ المصيبتين)[2] .

* * *

واعلم : أنه قل من صبر علىٰ شدة إلا ونال ما يرجوه من فرج .

وينبغي لمن نزلت به مصيبة أو كان في شدة : أن يسعىٰ في تسهيلها علىٰ نفسه ، ولا يَغفُل عن تذكر ما يَتيقَّنه من وجوب الفناء ، وتَقضِّي المَسارِّ ؛ فإن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يَجمع من لا عقل له ، وعليها يُعادي من لا علم له ، وعليها يَحسُد من لا فقه له ، ولها يَسعىٰ من لا ثقة له[3] .

من صح فيها . . سَقِم ، ومن سَقِمَ فيها . . بَرِم[4] ، ومن افتقر فيها . . حَزِن ، ومن استغنىٰ فيها . . فُتِن .

حلالُها حساب ، وحرامُها عقاب ، ومتشابهُها عتاب .

لا خيرُها يدوم ، ولا شرُّها يبقىٰ ، ولا فيها لمخلوق بقاء .

فإذا تصوَّر حقيقتها . . فحينئذ يرى الحوادث سهلة ، والمصائب هينة .

---

(١) أورد الأبيات في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٧٩) .

(٢) أورده في « المحاسن والمساوئ » (ص ٣٩٦) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٧٩) ، والمصيبة بالصبر أعظم المصيبتين ؛ لأن الصبر عوض عن المفقود ، ولا عوض عن الصبر ؛ فلذا كان أعظم المصيبتين .

(٣) في (أ ، و) : (من لا نية له) .

(٤) في (ب ، و) : (نَدِم) ، وبَرِم بالشي : سئمه وضجر به ، وبمنطقه : عَيَّ .

وقال الشاعر[1] : [من المتقارب]

يُمَثِّـلُ ذُو ٱللُّـبِّ فِـي نَفْسِـهِ مَصَائِبَـهُ قَبْـلَ أَنْ تَنْـزِلَا
فَـإِنْ نَزَلَـتْ بَغْتَـةً لَـمْ تُرِعْـهُ لِمَـا كَانَ فِـي نَفْسِـهِ مَثَّـلَا
رَأَى ٱلْأَمْـرَ يُفْضِـي إِلَـىٰ آخِـرٍ فَصَيَّـرَ آخِـرَهُ أَوَّلَا
وَذُو ٱلْجَهْـلِ يَأْمَـنُ أَيَّامَـهُ وَيَنْسَـىٰ مَصَارِعَ مَـنْ قَـدْ خَـلَا
فَـإِنْ دَهَمَتْـهُ صُـرُوفُ ٱلزَّمَـانِ بِبَعْـضِ مَصَائِبِـهِ أَعْـوَلَا
وَلَـوْ قَـدَّمَ ٱلْحَـزْمَ فِـي نَفْسِـهِ لَعَلَّمَـهُ ٱلصَّبْـرَ عِنْـدَ ٱلْبَـلَا

وقال بعض الحكماء : (مَنْ حاذر .. لم يُخدع ، ومن راقب .. لم يَهلَع ، ومن كان مُتوقِّعاً .. لم يُلْفَ متوجِّعاً)[2] .

ومن لم يُشعر نفسه بما ذكرنا من أحوال الدنيا ، وتقضِّي المَسَارِّ ، ثم الثواء في اللُّحود بين أطباق التراب والجنادل ، قد فارقه الأحبَّاء ، وأسلمه الأولياء ، وهجره القرباء والبعداء .. أَلْفَتْهُ الحوادثُ واثقاً[3] ، فسلبته الصَّبرَ ، وضاعفت عليه الأسىٰ .

وقال ابن الرومي[4] : [من الكامل]

إِنَّ ٱلْبَـلَاءَ يُطَـاقُ غَيْـرَ مُضَاعَـفٍ فَـإِذَا تَضَاعَـفَ كَانَ غَيْـرَ مُطَـاقِ

وأنشدوا[5] : [من الطويل]

تَعَـوَّدْتُ مَـسَّ ٱلضُّـرِّ حَتَّـىٰ أَلِفْتُـهُ وَأَسْـلَمَنِي حُسْـنُ ٱلْعَزَاءِ إِلَى ٱلصَّبْرِ

---

(١) الأبيات لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ٢١٣ ـ ٢١٤) ، ولمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩) ، وخلا : سبق ، وأعولا : بكىٰ .
(٢) أورده مختصراً في « محاضرات الأدباء » (٣٢٩/٤) .
(٣) في (ب) : (ألقته الحوادث واثقاً) ، و(و) : (... الحوادث راتعاً) .
(٤) البيت في « ديوانه » (١٦٦٢/٤) .
(٥) الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٧٥) ، والبيتان الأولان لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص ٣٤٠) .

وَوَسَّعَ صَدْرِي لِـلْأَذَىٰ كَثْـرَةُ ٱلْأَذَىٰ وَإِنْ كُنْـتُ أَحْيَانـاً يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي
وَحَسَّـنَ لِي يَأْسِـي مِنَ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمْ لِعِلْمِي بِصُنْعِ ٱللهِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي

ولبعض الأعراب (١) : [من الطويل]

تَعَـزَّ فَـإِنَّ ٱلصَّبْـرَ بِٱلْحُـرِّ أَجْمَـلُ وَلَيْـسَ عَلَـىٰ رَيْـبِ ٱلزَّمَـانِ مُعَـوَّلُ
فَلَوْ كَانَ يُغْنِي أَنْ يُرَى ٱلْمَرْءُ جَازِعاً لِنَازِلَـةٍ أَوْ كَانَ يُغْنِـي ٱلتَّذَلُّـلُ
لَـكَانَ ٱلتَّعَـزِّي عِنْـدَ كُلِّ مُصِيبَـةٍ وَنَازِلَـةٍ بِٱلْحُـرِّ أَوْلَـىٰ وَأَجْمَـلُ
فَكَيْـفَ وَكُلٌّ لَيْـسَ يَعْـدُو حِمَامَـهُ وَمَـا لِامْـرِئٍ عَمَّـا قَضَـى ٱللهُ مَرْحَلُ
فَـإِنْ تَكُـنِ ٱلْأَيَّـامُ فِينَـا تَبَدَّلَـتْ بِبُـؤْسٍ وَنُعْمَـىٰ وَٱلْحَـوَادِثُ تَفْعَـلُ
فَمَـا لَيَّنَـتْ مِنَّـا قَنَـاةً صَلِيبَـةً وَلَا ذَلَّلَتْنَـا لِلَّـذِي لَيْـسَ يَجْمُـلُ
وَلَٰكِنْ رَحَلْنَاهَـا نُفُوسـاً كَرِيمَـةً تُحَمَّـلُ مَـا لَا يُسْـتَطَاعُ فَتَحْمِـلُ
وَقَيْنَـا بِفَضْـلِ ٱللهِ مِنَّـا نُفُوسَـنَا فَصَحَّتْ لَنَا ٱلْأَعْرَاضُ وَٱلنَّاسُ هُزَّلُ (٢)

* * *

(١) الأبيات من حماسية لإبراهيم بن كُنيف النبهاني كما في « شرح الحماسة » للتبريزي (١/٢٤٩ ـ ٢٥٢) .

(٢) جاء في (هـ) : (تمَّ الجزء الأول بفضلِ اللهِ وحُسنِ مَنِّه ، يتلوه الجزء الثاني إن شاء الله تعالىٰ) .

الباب الثالث والثلاثون
في كتمان السر

قال الله تعالىٰ حكاية عن يعقوب عليه السلام : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ (١) ، فلمَّا أفشىٰ يوسف رؤياه بمشهد امرأة يعقوب . . أخبرت إخوته فحَلَّ به ما حَلَّ .

وفي الحديث : « اِسْتَعِينُوا عَلَىٰ قَضَاءِ ٱلْحَوَائِجِ بِٱلْكِتْمَانِ ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ » (٢) .

* * *

واعلم : أن كتمان السر من الخصال المحمودة في جميع الخلق ، ومن اللوازم في حقوق الملوك ، ومن الفرائض الواجبة على الوزراء وجلساء الملوك والأتباع .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (سِرُّك أَسِيرُك ؛ فإذا تكلَّمتَ به . . صِرْتَ أَسِيرَه) (٣) .

* * *

واعلم : أن أُمناء الأسرار أشدُّ تعذُّراً وأقلُّ وجوداً من أُمناء الأموال ، وحفظَ الأموال أيسرُ من كتم الأسرار ؛ لأن أَحرازَ الأموال منيعة بالأبواب والأقفال ، وأحرازَ الأسرار بارزة ، يذيعها لسان ناطق ، ويشيعها كلام سابق .

---

(١) سورة يوسف : (٥) .

(٢) رواه الشهاب في « مسنده » (٧٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٩٤) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وفيه : « علىٰ إنجاح » بدل « علىٰ قضاء » .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٥) .

وعبءُ الأسرار أثقلُ من عبء الأموال ، وإن الرجل يستقِلُّ بالحِملِ الثقيل يحمله ويمشي به ويُقِلُّه ولا يستطيع كتم السر ، وإن الرجل يكون سِرُّه في قلبه ، فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه بحمل الأثقال ، فإذا أذاعه . . استراح قلبُه ، وسكن جَأْشُه ، وكأنما ألقىٰ عن نفسه حملاً ثقيلاً أو جبلاً .

وقال عمر بن عبد العزيز : (القلوبُ أوعية ، والشِّفاهُ أقفالها ، والألسنُ مفاتيحُها ؛ فليحفظْ كُلُّ امرئٍ مفتاحَ سِرِّه)[1] .

ومن أعجب الأمور : أن أعلاق الدنيا كلما كثر خُزَّانُها . . كان أوثق لها إلا السر[2] ؛ فإنه كلما كثر خُزَّانه . . كان أضيع له ، وكم من إظهار سِرٍّ أراق دمَ صاحبه ، ومنع من بلوغ مآربه ، ولو كتمه . . أَمِن من سَطَواته .

وقال أَنُوشَرْوان : (من حصَّنَ سِرَّه . . فله بتحصينه خَصلتان : الظَّفَرُ بحاجته ، والسلامةُ من السَّطَوات)[3] .

وقال بعض الحكماء : (سِرُّك من دمك ؛ فلا تُجرِه في غير أوداجك ، فإذا تكلمت به . . فقد أرقته)[4] .

وكان لعثمان بن عفان رضي الله عنه كاتب اسمه : حُمران ، فاشتكىٰ عثمانُ فقال : (اكتب العهد بعدي لعبد الرحمـٰن بن عوف ، فانطلق حُمران فقال لعبد الرحمـٰن : البشرىٰ ، قال : لك البشرىٰ ، بماذا ؟ فأخبره الخبر ، فانطلق عبد الرحمـٰن فأَخبرَ عثمان بذلك ، فقال عثمان رضي الله عنه : أعاهد الله أَلَّا يساكنني حُمران أبداً)[5] ، ونفاه إلى البصرة ، فلم يزل بها حتىٰ قتل عثمان رضي الله عنه .

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٧) .

(٢) أعلاق : جمع عِلْق ؛ وهو النفيس من كل شيء .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٦) .

(٤) أورده بنحوه في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٨٨) من قول أكثم بن صيفي ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٧) دون نسبة .

(٥) رواه ابن شبة في « تاريخ المدينة » (١٠٢٨/٣) .

واعلم : أن كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال ، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها . . فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سِرَّه .

ويروى أن رجلاً أودع سِرَّه عند صديق له ، فقال له : (أفهمت ؟ قال : بل جهلت ، فقال : أحفظت ؟ قال : بل نسيت)[1] .

وقيل لبعضهم : (كيف كتمانك للسِّرِ ؟ قال : أَجحدُ المُخبِر ، وأَحلِفُ للمُستخبِر)[2] .

وقال الشاعر[3] : [من البسيط]

وَلَوْ قَدَرْتُ عَلَىٰ نِسْيَانِ مَا ٱشْتَمَلَتْ ... مِنِّي ٱلضُّلُوعُ مِنَ ٱلْأَسْرَارِ وَٱلْخَبَرِ

لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ يَنْسَىٰ سَرَائِرَهُ ... إِذْ كُنْتُ مِنْ نَشْرِهَا يَوْماً عَلَىٰ خَطَرِ

قال شيخنا : ومن أحسن شيء سمعته في كتمان السر : ما أنشدنيه بعض فقهاء البصريين بالبصرة فقال[4] : [من الكامل]

وَلَهَا سَرَائِرُ فِي ٱلضَّمِيرِ طَوَيْتُهَا ... نَسِيَ ٱلضَّمِيرُ بِأَنَّهَا فِي طَيِّهِ

وأنشدوا[5] : [من الطويل]

وَمُسْتَوْدِعِي سِرّاً كَتَمْتُ مَكَانَهُ ... عَنِ ٱلْحِسِّ خَوْفاً أَنْ يَنُمَّ بِهِ ٱلْحِسُّ

وَخِفْتُ عَلَيْهِ مِنْ هَوَى ٱلنَّفْسِ شُهْرَةً ... فَأَوْدَعْتُهُ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُ ٱلنَّفْسُ

يعني : العقل .

قال العُتْبِيُّ : (أَسَرَّ معاوية رضي الله عنه إلى عثمان بن عَنْبسة حديثاً ، قال عثمان : فقلت لأبي : إن أمير المؤمنين أَسَرَّ إليَّ حديثاً ؛ أفأحدِّثُك به ؟

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/٣٩) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٩) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/٤٠) ، ورواه في « الموشى » (ص ٤٨) .

(٣) أورد البيتين في « الحيوان » (٥/١٨٣) ، و« عيون الأخبار » (١/٣٩) .

(٤) البيت رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٦٨٨) .

(٥) أورد البيتين في « المستطرف » (٢/٣٠) .

قـال : لا ، إنـه من كتـم حديثه . . كان الخِيـار إليه ، ومن أظهـره . . كان الخِيار عليه ، فلا تجعل نفسك مملوكاً بعد أن كنت مالكاً ، فقلت : يا أبت ؛ أفيدخل هٰذا بين الرجل وأبيه ؟! قال : لا ، ولٰكني أكره أن تُذلِّلَ لسـانك بإفشـاء السِّـرِّ ، قال : فحدثت به معاوية ، فقال : أَعتقَكَ أخي من رِقِّ الخطأ)[1] .

وقيل لبعض الحكماء : (ما أصعبُ الأشياء على الإنسان ؟ قال : أن يعرف قدره ، ويكتم سره)[2] .

وقال قيس بن الخطيم[3] : [من الطويل]

أَجُـودُ بِمَكْنُـونِ ٱلتِّـلَادِ وَإِنَّنِـي ... بِسِـرِّكَ عَمَّـنْ سَـالَنِي لَضَنِيـنُ

إِذَا جَـاوَزَ ٱلْإِثْنَيْـنِ سِـرٌّ فَإِنَّـهُ ... بِنَـثٍّ وَتَكْثِيـرِ ٱلْحَدِيـثِ قَمِيـنُ

وَإِنْ ضَيَّـعَ ٱلْأَقْـوَامُ سِـرّاً فَإِنَّنِـي ... كَتُـومٌ لِأَسْـرَارِ ٱلْعَشِـيرِ أَمِيـنُ

يَكُـونُ لَـهُ عِنْـدِي إِذَا مَـا ضَمِنْتُـهُ ... مَـكَانُ سُـوَيْدَاءِ ٱلْفُـؤَادِ كَنِيـنُ

وقال شيخنا : قلت : الناس يقولون : أراد بـ (الاثنين) : المُودِعَ والمُودَع ، ولا يبعد أن يريد به : الشفتين .

وكان يقال : (أصبرُ الناس : مَنْ صبرَ علىٰ كتمان سره ؛ فلم يُبدِه لصديقه ، فيوشك أن يصير عدواً)[4] .

وقد روي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِذَا حَدَّثَ ٱلرَّجُلُ ، ثُمَّ ٱلْتَفَتَ . . فَهِيَ أَمَانَةٌ »[5] .

---

(١) كذا أورده المبرد في « الكامل » (٢/٨٧٩) ، وفي « عيون الأخبار » (١/٤٠) ، و« الصمت وآداب اللسان » لابن أبي الدنيا (٤٠٧) أن معاوية رضي الله عنه أسرَّ إلى الوليد بن عتبة .

(٢) أورده في « ديوان المعاني » (٢/٨٣٩) من قول فيثاغورث .

(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٦٢ ـ ١٦٤) عدا البيت الأول ؛ فأورده القالي في « الأمالي » (٢/١٧٧) ، والنَّثُّ : الإفشاء .

(٤) أورده المبرد في « الكامل » (٢/٨٨١) بلفظ : (. . . أن يصير عدواً فيذيعه) .

(٥) رواه أبو داوود (٤٨٣٥) ، والترمذي (١٩٥٩) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

قلت : وإذا كانت أمانة .. حرمت فيها الخيانة ؛ كالأمانات في الدماء والأموال .

وقال أبو بكر ابن حزم : (إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله ؛ فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره)[1] .

وقال هشام بن عروة : (ما من رجل يَنتقص من أمانته .. إلا نقص من إيمانه)[2] .

وقال جعفر بن عثمان[3] : [من السريع]

يَـا ذَا ٱلَّـذِي أَوْدَعَنِـي سِـرَّهُ ... لَا تَـرْجُ أَنْ تَسْـمَعَهُ مِنِّـي

لَـمْ أُجْـرِهِ قَـطُّ عَلَـىٰ خَاطِـرِي ... كَأَنَّـهُ لَـمْ يَجْـرِ فِـي أُذْنِـي

ولبعضهم[4] : [من السريع]

أَصْـلُ ٱلْفَتَـىٰ خَـافٍ وَلَـٰكِنَّهُ ... أَفْعَالُـهُ تُظْهِـرُ خَافِيَـهِ

مَـنْ لَـمْ يَكُـنْ عُنْصُـرُهُ طَيِّبـاً ... لَا يَظْهَـرُ ٱلطَّيِّـبُ مِـنْ فِيـهِ

لِسَـانُ مَـنْ يَعْقِـلُ فِـي قَلْبِـهِ ... وَقَلْـبُ مَـنْ يَجْهَـلُ فِـي فِيـهِ

مَـنْ أَطْلَـعَ ٱلنَّـاسَ عَلَـىٰ سِـرِّهِ ... أَصْبَـحَ فِـي أَسْـرِ أَعَادِيـهِ

لَا يَنْهَـضُ ٱلْعَاقِـلُ فِـي حَاجَـةٍ ... حَتَّـىٰ يَـرَى ٱلدَّهْـرَ مُوَاتِيـهِ

يَكْفِيـكَ مِـنْ عَقْـلِ ٱلْفَتَـىٰ صُحْبَـةٌ ... وَتَرْكُـهُ مَـا لَيْـسَ يَعْنِيـهِ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٦٧٧) مرسلاً عن أبي بكر ابن حزم رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٠٢) عن هشام بن عروة عن أبيه رحمهما الله تعالىٰ .

(٣) أورد البيتين في « جذوة المقتبس » (ص ١٨٧ - ١٨٨) .

(٤) أورد البيتين الأولين بنحوهما في « غرر الخصائص الواضحة » (ص ٥٤) ، والثالث في « تاريخ الإسلام » (٣٦٧/٣٨) للعنتري الطبيب .

وكان عمرو بن العاص يقول : (ما أفشيتُ سِرّي إلىٰ رجل فأفشاه عليَّ فلمتُه ؛ إذ كان صدري به أضيقَ)[1] .

وقال الأحنف بن قيس : (يضيق صدر أحدهم بسره حتىٰ يُحدِّثَ به ، ثم يقول : أُكتمه عليَّ)[2] .

ومن أمثال الفرس : (إذا أفشيت إليَّ سِرَّك ، وأوصيتني ألَّا أبوح به .. فهلَّا أوصيت بهٰذا نفسك) .

وفي منثور الحكم : (انفرد بسِرِّك ، ولا تُودِعْه حازماً فَيَزِلَّ ، ولا جاهلاً فيخونَ)[3] .

وأنشدوا[4] : [من الطويل]

إِذَا ضَاقَ صَدْرُ ٱلْمَرءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِهِ ... فَصَدْرُ ٱلَّذِي يُسْتَوْدَعُ ٱلسِّرَّ أَضْيَقُ

وفي منثور الحكم : (من أفشىٰ سِرَّه .. كثر عليه المتآمرون)[5] .

وقال الشاعر[6] : [من المتقارب]

وَسِرُّكَ مَا كَانَ عِنْدَ ٱمْرِئٍ ... وَسِرُّ ٱلثَّلَاثَةِ غَيْرُ ٱلْخَفِيِّ

وقال آخر[7] : [من الوافر]

وَلَا تَنْطِقْ بِسِرِّكَ كُلُّ سِرٍّ ... إِذَا مَا جَاوَزَ ٱلإِثْنَيْنِ فَاشِ

---

(١) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/٤٠) ، ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٩٠٥٤) .

(٢) رواه في « روضة العقلاء » (٧٢٢/٢) من قول الأعمش رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٠) من قول ابن المعتز ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٦) دون نسبة .

(٤) البيت للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ٩٨) ، وللعُتْبي في « الكامل » للمبرد (٨٨١/٢) .

(٥) أورده الجاحظ في « المعاش والمعاد » (١١٦/١ ـ ١١٧) ، والماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٩) .

(٦) أورد البيت في « عيون الأخبار » (٣٩/١) ، والمرزوقي في « شرح الحماسة » (١٢١١/٣) للصَّلَتان العبدي ، وأورده في « الحيوان » (٤٧٨/٣) للصلتان السعدي .

(٧) البيت لقيس بن الخطيم في « ديوانه » (ص ٢٣٥) ، ونسبه أبو عبيد في « غريب الحديث » (٢٦٥/٢) ، وابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٤٦١/١) لسابق البربري .

وقال الشاعر [1] : [من المتقارب]

تَبُوحُ بِسِرِّكَ ضِيقاً بِهِ وَتَبْغِي لِسِرِّكَ مَنْ يَكْتُمُ
وَكِتْمَانُكَ ٱلسِّرَّ فِيمَا تَخَافُ وَفِيمَا تُحَاذِرُهُ أَحْزَمُ
إِذَا ضَاعَ سِرُّكَ مِنْ مُخْبَرٍ فَأَنْتَ إِذَا لُمْتَهُ أَلْوَمُ

وقال آخر [2] : [من الوافر]

إِذَا مَا ضَاقَ صَدْرُكَ مِنْ حَدِيثٍ وَأَفْشَتْهُ ٱلرِّجَالُ فَمَنْ تَلُومُ
إِذَا عَاتَبْتُ مَنْ أَفْشَىٰ حَدِيثِي وَسِرِّي عِنْدَهُ فَأَنَا ٱلْمَلُومُ

وكان يقال : (ما كتمته من عَدُوِّك . . فلا تُطلع عليه صديقك) [3] .

فإن لم يكن لك بُدٌّ من إذاعته لقرينة تقتضيه ؛ من صديق مساهم ، أو استشارة ناصح مسالم . . فمن صفات أمين الأسرار : أن يكون ذا عقل ، ودين ، ونصح ، ومودة [4] ؛ فإن هٰذه أمور تمنع من الإذاعة ، وتوجب حفظ الأمانة ، فمن كانت فيه . . فهو عنقاءُ مُغْرِبٌ [5] .

ولا تُودِعْ سِرَّك عند من يستدعيه ؛ فإن طالب الوديعة خائن .

وقال صالح بن عبد القدوس [6] : [من الرمل]

لَا تُذِعْ سِرّاً إِلَىٰ طَالِبِهِ مِنْكَ فَٱلطَّالِبُ لِلسِّرِّ مُذِيعُ

وفي الجملة : إذا زال سِرُّك عن عَذَبَة لسانك . . فالإذاعة [7] مستولية عليه ،

---

(١) الأبيات لبشار بن برد في « ديوانه » (٤/٢٠٥) .
(٢) أورد البيتين في « الحيوان » (٥/١٨٨) لرجل من بني سعد ، و« عيون الأخبار » (١/٣٩) دون نسبة .
(٣) أورده في « الموشىٰ » (ص ٤٦) ، و« بهجة المجالس » (١/٤٦٦) .
(٤) في (ز) : (ومروءة) .
(٥) في المثل : (أعزُّ من عَنقاءَ مُغرِبٍ) يُضرب في الشيء يُسمع به ولا يُرىٰ ، وأغرب في الطيران : أبعد . انظر « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٧) .
(٦) البيت في « ديوانه » (ص ١١٩) .
(٧) في (و) : (فالإضاعة) ، وعَذَبة لسانك : طرفه .

وإن أودعته قلب ناصح محب .. فاحتمال مرارة الكتمان على قلبك أسهل عليك من التململ بتمليك سرك غيرك .

واعلم : أن إفشاء سر غيرك أقبحُ من إظهارِ سِرِّ نفسك ؛ لأنه يبوح[١] بإحدى وَصْمَتين ؛ إما الخيانة إن كان مؤتمناً ، أو النميمة إن كان مستخبراً .

وقال بعض الحكماء لابنه : (يا بُنيَّ ؛ كن جواداً بالمال في موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق ؛ فإنَّ أحمدَ جود المرء : الإنفاق في وجه البر ، والبخل بمكتوم السر)[٢] .

وكان يقال : (صدورُ الأحرار قبورُ الأسرار)[٣] .

وقال الشاعر[٤] : [من المتقارب]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ وُشَاةَ ٱلرِّجَا ... لِ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيماً صَحِيحَا
فَلَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ ... فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحَا

وقال غيره : [من السريع]

مَا كُلُّ مَكْتُومٍ يُبَاحُ بِهِ ... اِحْذَرْ لِسَانَكَ مِنْ جَوَالِبِهِ
فَمَرَارَةُ ٱلْكِتْمَانِ أَعْذَبُ مِنْ ... بَثٍّ تُحَاذِرُ مِنْ عَوَاقِبِهِ
لَيْسَ ٱلْهَوَىٰ مَا كُنْتَ تَعْرِفُهُ ... أَيَّامَ تَلْعَبُ فِي جَوَانِبِهِ
هَٰذَا هَوىً لَوْ قَدْ فَصَحْتَ بِهِ ... ضَحِكَ ٱلْحُسَامُ إِلَىٰ مَضَارِبِهِ

* * *

(١) في (هـ) وهامش (أ) : (يبوء) .
(٢) رواه القالي في « الأمالي » (٢٠٢/٢) من قول عبد الله بن شداد رحمه الله تعالى ، وأورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٥) دون نسبة .
(٣) رواه في « حلية الأولياء » (٣٧٧/٩) من قول ذي النون المصري رحمه الله تعالى ، وأورده في « الرسالة القشيرية » (ص ١٧٦) دون نسبة .
(٤) البيتان لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ٩٦ ـ ٩٧) .

الباب الرّابع والثّلاثون

في بيان الخَصلة الّتي هي رهنٌ بسائر الخصال وزعيمٌ بالمزيد من النّعماء والآلاء من ذي الجلال وهي : الشّكر

قال الله تعالىٰ حكاية عن سليمان عليه السلام وقد آتاه الله تعالىٰ ملك الدنيا والإنس والجن ، والطير والوحش ، والريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب ، فلما استمكن[(١)] ملكه . . قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ ﴾[(٢)] .

فما عدَّها نعمة كما عدَّها ملوك الأرض ، ولا حَسِبها كرامة من الله تعالىٰ عليه كما ظنَّها ملوك الأرض ، بل خاف أن يكون ذٰلك استدراجاً من حيث لا يعلم ، كما قال الله تعالىٰ في أمة أراد هلاكَهم : ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾[(٣)] جاء في التفسير : (أَصُبُّ عليهم النعم ، وأُنسِيهم الشكر)[(٤)] .

فأما الفرح بما أوتي من الدنيا ، والغبطةُ بزهرتها ، والاغترارُ بزخرفها . . فمن شعار الكفار .

ألا ترىٰ إلىٰ قول قارون اللعين : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾[(٥)] ، فكان

---

(١) في (أ ، و) : (استوسق) أي : اجتمع وقَوِي .

(٢) سورة النمل : (٤٠) .

(٣) سورة الأعراف : (١٨٢ ـ ١٨٣) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (١١٤) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/٧) من قول سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ .

(٥) سورة القصص : (٧٨) .

جوابه : ما قال الله تعالىٰ : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ (١) .

ولما خاف سليمان صلوات الله عليه أن يكون استدراجاً . . كان جوابه : ما قال الله تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

واعلم أرشدك الله : أنه ليس الشكر حافظاً للنعم فقط ، بل هو مع حفظها زعيم بزيادة النعم ، وأمان من حلول النقم .

والشكر علىٰ ثلاث مراتب : شكر بالقلب ، وشكر باللسان ، وشكر بالجوارح .

فأما الشكر الواجب علىٰ جميع الخلق : فشكر القلب ؛ وهو أن يعلم أن النعمة من الله عز وجل وحده ، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالىٰ ، حتىٰ يكون الشكر لله تعالىٰ عن نفسك وعن غيرك بمعرفة نعم الله تعالىٰ عليك وعلىٰ غيرك ، وهٰذا النوع هو الذي يقال فيه : إنه يجب على العبد أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ نعم أُسديت إليه وإلىٰ غيره .

والدليل علىٰ أن الشكر محله القلب ـ وهو المعرفة ـ : قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (٣) أي : أيقنوا أنها من الله تعالىٰ ، وإلىٰ هٰذه الكلمة انتهىٰ جميع ما قاله الخلق في الشكر .

والدليل عليه أيضاً : قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) أي : اتقوني ؛ فإنه شكر لنعمتي .

---

(١) سورة القصص : (٨١) .

(٢) سورة صٓ : (٣٩) .

(٣) سورة النحل : (٥٣) .

(٤) سورة آل عمران : (١٢٣) .

وخلق الله تعالى الحياة نعمة على العبد ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1] .

والعبارة عنه أن يقال : الشكر : اعتراف القلب بإنعام الله تعالىٰ علىٰ وجه الخضوع .

ويقال فيه : الشكر : اعتكاف علىٰ بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة .

وقال أبو عثمان : (الشكر : معرفة العجز عن الشكر) [2] .

وروي أن داوود عليه السلام قال : (إلٰهي ؛ كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك ؟!) فأوحى الله إليه : (الآن قد شكرتني) [3] .

وقال وهب بن منبه : قال داوود عليه السلام : (إلٰهي ؛ ابنُ آدم ليس منه شعرةٌ إلا تحتَها نِعمة ، وفوقها منك نعمة ، فمن أين يكافئها ؟!

فأوحى الله تعالىٰ إليه : يا داوود ؛ إني أعطي الكثير ، وأرضىٰ باليسير ، وإن شكر ذٰلك : أن تعلم أن ما بك من نعمة فمني) [4] .

وفي هٰذا يقال : الشكر على الشكر أتمُّ الشكر ؛ وذٰلك بأن ترىٰ شكرك بتوفيقه ، ويكون ذٰلك التوفيق من أجلِّ النعم عليك ، فتشكره على الشكر ، ثم تشكره علىٰ شكر الشكر . . . إلىٰ ما لا يتناهىٰ ، وهٰذا الشكر أيضاً واجب .

ولمحمود الوراق في ذٰلك [5] : [من الطويل]

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ ٱللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ ٱلشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ ٱلشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ ٱلْأَيَّامُ وَٱتَّصَلَ ٱلْعُمْرُ

---

(١) سورة البقرة : (٥٦) .
(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٢) .
(٣) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٣) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٢٠) .
(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٢١) .

إِذَا مَـسَّ بِٱلسَّـرَّاءِ عَـمَّ سُـرُورُهَا   وَإِنْ مَـسَّ بِٱلضَّـرَّاءِ أَعْقَبَهَـا ٱلْأَجْـرُ
فَمَـا مِنْهُمَـا إِلَّا لَـهُ فِيـهِ نِعْمَـةٌ   تَضِيـقُ بِهَا ٱلْأَوْهَـامُ وَٱلسِّرُّ وَٱلْجَهْرُ

ومن أقرَّ بنعم الله وإحسانه . . فقد أقرَّ بقدر ما كُلِّف ؛ لأن أحداً لا يمكنه أن يُوازي[1] شكر نعم الله تعالىٰ عليه .

وفي مناجاة موسىٰ عليه السلام : (إلٰهي ؛ خلقتَ آدم بيدك ، وفعلتَ وفعلتَ ، فكيف شكَرك ؟ فقال : عَلِمَ أن ذٰلك مني ، فكانت معرفتُه بذٰلك شكرَه لي)[2] .

فَصْلٌ
[في شكر اللسان]

وأما شكرُ اللسان : فقال الله تعالىٰ فيه : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[3] قيل : يعني : النبوة ، وقيل : يعني : القرآن ، وحكمُ الآية عامٌّ في جميع النعم[4] .

وروى النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلْقَلِيلَ . . لَمْ يَشْكُرِ ٱلْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلنَّاسَ . . لَمْ يَشْكُرِ ٱللهَ ، وَٱلتَّحَدُّثُ بِٱلنِّعَمِ شُكْرٌ »[5] .

وقال الله تعالىٰ حكاية عن أهل الجنة أنهم قالوا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾[6] .

وقال عمر بن عبد العزيز : (تذاكروا النِّعَم ؛ فإن ذكرها شكرها)[7] .

وكتب عَدِيُّ بن أرطاة إلىٰ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لمَّا حفر نهر

---

(١) في (و) : (يؤدي) .
(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٣) .
(٣) سورة الضحىٰ : (١١) .
(٤) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٢٣١/١٠) .
(٥) رواه الإمام أحمد (٢٧٨/٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٦٩٨) .
(٦) سورة الزمر : (٧٤) .
(٧) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٣٦٣) .

البصرة الذي يقال له : نهر عمر : (إني حفرت لأهل البصرة نهراً عَذُبَ لهم مَشربُه ، وجادت عليه أموالُهم ، ولم أَرَ لهم علىٰ ذٰلك شكراً ؛ فإن أَذِنْتَ لي . . قسمتُ عليهم ما أنفقتُه عليه ، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : إني لا أحسبُ أهل البصرة خَلَوْا من رجل قال : الحمد لله حينَ حفرِك هٰذا النهرَ ، وإن الله تعالىٰ قد رضيها شكراً من جنته ، فارض بها شكراً من نهرك ، والسلام)[1] .

وحقيقة الشكر في هٰذا القسم : الثناءُ على المحسن بذكر إحسانه ، وعلىٰ هٰذا القول : يوصف الرب تعالىٰ بأنه شكور حقيقة .

فشكرُ العبد لله تعالىٰ : ثناؤه عليه بذكر إحسانه .

وشكرُ الله تعالىٰ للعبد : ثناؤه عليه بإحسانه ، وإحسانُ الرب للعبد إنعامُه عليه .

وهٰذه اللفظة مأخوذة من قولهم : دابة شكور ؛ إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تعطىٰ من العلف ، ويقال : وجه شكور ؛ إذا كان ممتلئ المحاسن ظاهرَها .

وفي الحديث : « يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ : أَنَا وَٱلْجِنُّ وَٱلْإِنْسُ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ ؛ أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي ، وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ غَيْرِي ! »[2] .

وقال بعضهم : (إنما أوتي الناس ؛ لأنهم في موضع صبرٍ وهم يحسبون أنهم في موضع شكر) .

فَصْلٌ

[في شكر الجوارح]

وأما الشكر الذي على الجوارح : فقال الله تعالىٰ : ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[3] فجعل العمل شكراً .

---

(١) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٤/٩٦) ، وفيه : (نهر عدي) بدل (نهر عمر) .

(٢) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٩٧٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٢٤٣) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) سورة سبأ : (١٣) .

وقال عطاء : دخلت علىٰ عائشة رضي الله عنها أنا وعبيد بن عمير ، فقال لها عبيد بن عمير : يا أُمَّ المؤمنين ؛ حدِّثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكت وقالت : وأيُّ شأنِه لم يكن عجباً ؟!

إنه أتاني في ليلتي ، فدخل معي في فراشي حتىٰ مسَّ جلدُه جلدي ، ثم قال : « يَا بْنَةَ أَبِي بَكْرٍ ؛ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي » ، قالت : قلت : إني أحب قربك ، فأذنت له ، فقام إلىٰ قِربة من ماء فتوضأ ، وأكثر صَبَّ الماء ، ثم قام يصلي ، فبكىٰ حتىٰ سالَتْ دموعُه علىٰ صدره ، ثم ركع فبكىٰ ، ثم سجد فبكىٰ ، ثم رفع رأسه فبكىٰ .

فلم يزل كذٰلك حتىٰ جاء بلال فآذنه بالصلاة ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ، فَلِمَ لَا أَفْعَلُ وَقَدْ أَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيَّ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ . . . ﴾ » الآية [١] .

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الشكر بالعمل ، وبيَّن به مراد الكتاب .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [٢] أي : كل واحد منهما يخلف الآخر ؛ فمن فاته العمل في أحدهما . . عمله في الآخر ، فجعل الأوراد والأعمال بالجوارح شكراً .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قام حتى انتفخت قدماه ، فقيل : يا رسول الله ؛ تفعل هٰذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! فقال : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً » [٣] .

---

(١) سورة آل عمران : (١٩٠) ، رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم » (٥٢١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) .

(٢) سورة الفرقان : (٦٢) .

(٣) رواه البخاري (٤٨٣٦) ، ومسلم (٢٨١٩) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

وقال أبو هارون : دخلت علىٰ أبي حازم ، فقلت له : (رحمك الله ، ما شكر العينين ؟ قال : إذا رأيت بهما خيراً . . أذعته ، وإن رأيت بهما شراً . . سترته .

قلت له : فما شكر الأذنين ؟ فقال : إذا سمعت بهما خيراً . . حفظته ، وإذا سمعت بهما شراً . . نسيته .

قلت : فما شكر اليدين ؟ قال : ألا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنعَ حقاً لله فيهما .

قلت : فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله صبراً وأعلاه عِلماً .

قلت : فما شكر الفرج ؟ قال : كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [1] .

فإن أنت فعلت . . فأنت الشاكر لله حقاً) [2] .

وفي حكمة إدريس عليه السلام : (لن يستطيع أحد أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ نعمه بمثل الإنعام علىٰ خلقه ؛ ليكون صانعاً إلى الخلق مثل ما صنع به الخالقُ تعالىٰ) [3] .

وإذا ثبت أن فعل الطاعات شكر . . فإن منها ما هو أشد ملازمة [4] من غيره :

فالطاعة في مواساة الفقراء : أشكلُ بالشكر على الغنىٰ من غيرها ؛ لأنها من جنس النعمة ، فإذا أردت أن تحرس دوام نعم الله تعالىٰ عليك . . فأدم مواساة الفقراء .

---

(١) سورة المؤمنون : (٥ ـ ٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٢٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٢٤٤) .
(٣) أورده في « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (ص ٥) ، و« المستطرف » (١١١/٢) .
(٤) في (أ ، ج) : (ملاءمة) .

والطاعة في رفع ذوي الضَّعة والخمول والمسكنة بغير معصية : أشبهُ بالشكر علىٰ ما رفع اللهُ تعالىٰ من قدرك ، والتنويه باسمك .

والطاعة في تمريض الفقراء وتلطيفِ[1] أغذيتهم : أشبهُ بالشكر على العافية من سائر الطاعات .

والطاعة في الشفاعات عند السلطان ، وقضاء حوائج الغرباء والإخوان : أشكل بذوي الجاه من سائر الطاعات ، وعلىٰ هـٰذا القانون ينبغي أن يقابل سائر نعم الله تعالىٰ على العبيد .

ومن العبارات الجامعة للشكر : أن يقال : الشكر : معرفة بالجَنان ، وذكر باللسان ، وعمل بالجوارح .

فصل

في الكلام على الزيادة

قال الله تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[2] .

فقال قوم : (إنما خاطب الله تعالىٰ بهـٰذا وبقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[3] قوماً دون قوم ، والدليل عليه : أنا نرىٰ من يشكر على الغنىٰ ثم يبتلىٰ بالفقر ، ومن يشكر على العافية ثم يبتلىٰ بالمرض ، والله تعالىٰ لا يخلف وعده) .

وقال قوم : (معناه : لأزيدنكم نعم الآخرة)[4] .

فإن قيل : إنما تكون الزيادة من جنس المزيد عليه .

فأجابوا : إن النعم الدنيوية والأخروية ـ وإن تفاضلت واختلفت ـ فإنها كلها متجانسة من حيث إنها نعمة .

---

(١) في (هـ) : (وتنظيف) .

(٢) سورة إبراهيم : (٧) .

(٣) سورة غافر : (٦٠) .

(٤) أورده الثعالبي في « تفسيره » (٥/٣٧٥) .

وقال قوم : (معناه : لأزيدنكم خيراً)[1] .

والخير والصلاح قد يكون في كثير من الأوقات بالمنع والسقم ونحوهما ؛ فإن من سأل الله تعالىٰ أن يعطيه مالاً ، أو يصِحَّ جسمه ، وهو يعلم أنه إن وهبه المال .. أنفقه في المعاصي ، أو وهبه الصحة .. صرف صحته إلى المشي في الآثام .. فالمنع هٰهنا موهبة من الله تعالىٰ جزيلة ، وعن هٰذا قال العلماء : (منع الله تعالىٰ عطاء)[2] .

وقال قوم : (يمكن تقدير الاستثناء فيها : لئن شكرتم لأزيدنكم ، إلا أن تعصوا فأعاقبكم بالحرمان ، فأجعل ذٰلك كفارة لكم ، وهو أصلح من أن أعاقبكم في الآخرة) .

والناس لا يَسلمون من الذنوب ، ولو تهيأ أن يسلموا من الذنوب .. لدرت الزيادات ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾[4] .

وقال قوم : (الآية خاصة لا محالة ؛ إذ لو كانت علىٰ عمومها .. لوجب ألا يموت من شكر الله تعالىٰ على الحياة) .

وقال الشيخ رضي الله عنه : قلت : إن الله تعالىٰ قد وعد الزيادة ، وقولُه الحق ، وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر ؛ فمن لم يظهر عليه المزيد .. علمنا أنه لم يشكر ، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالىٰ بلسانه ومالُه في نقصان .. علمنا أنه قد أخلَّ بالشكر الذي أخذ عليه ؛ إما ألا يُزَكِّيه أو يُزَكِّيه

---

(١) أورده في « زاد المسير » (٣٤٧/٤) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٦٨) ، و« حلية الأولياء » (٦/٧) من قول أبي حبيب البدوي لسفيان الثوري رحمهما الله تعالىٰ .

(٣) سورة المائدة : (٦٦) .

(٤) سورة نوح : (١٠ ـ ١٢) .

لغير أهله ، أو يؤخِّره عن وقته ، أو يمنع حقاً واجباً عليه فيه ؛ من كُسوة عُريان ، أو إطعام جائع وشبهه ، فيدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ صَدَقَ ٱلسَّائِلُ . . مَا أَفْلَحَ مَنْ رَدَّهُ »[١] .

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[٢] إذا غيروا ما بهم من الطاعات . . غيَّر الله تعالىٰ ما بهم من الإحسان ، وإذا كان القوم في ظل من العافية . . فإن الله تعالىٰ لا يغير ما بهم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم ؛ بترك أدب ، أو إخلال بحق ، أو إلمام بذنب ، كما قال بعضهم : (أدنى الشكر : ألا تعصي الله بنعمه ؛ فإن جوارحك كلها من نعم الله تعالىٰ عليك ، فلا تعصه بها)[٣] .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : لئن شكرتم . . لأزيدنكم إن شئنا ؛ ألا ترىٰ أنه قال : ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾[٤] ، وكثير من الخلق يريدون حرثَ الدنيا ولا يؤتونه ، فيكون التقدير : نؤته منها لمن نشاء ، بدليل قوله في الآية الأخرىٰ : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾[٥] .

وهـٰكذا قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٦] ، ثم إن كثيراً من الناس يدعون فلا يستجاب لهم ، ولـٰكن معنى الآية : أستجب لكم إن شئت ولمن شئت ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾[٧] وهـٰذا من باب حمل المطلق على المقيد .

---

(١) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٥/٢٩٧) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص ٣٤٤) .
(٢) سورة الرعد : (١١) .
(٣) أورده من دون قوله : (فإن جوارحك . . .) في « تفسير التستري » (ص ١١٠) من قول التستري رحمه الله تعالىٰ .
(٤) سورة الشورىٰ : (٢٠) .
(٥) سورة الإسراء : (١٨) .
(٦) سورة غافر : (٦٠) .
(٧) سورة الأنعام : (٤١) .

قال الجُنيد : (كنت بين يدي السَّرِيِّ وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ؛ ما الشكر ؟ فقلت : ألا تعصي الله بنعمِهِ ، فقال : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك ، فلا أزال أبكي علىٰ هٰذه الكلمة)(١) .

فإن قيل : فما معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾(٢) ، وما حصل من الأفعال في الوجود يمكن إحصاؤه ؟

قلنا : نِعَمُ الله تعالىٰ علىٰ وجهين : دفع ، ومنع .

[فالمنع](٣) : يمكن إحصاؤه ، ودفعُ اللهِ البلايا : نِعَمٌ لا يمكن إحصاؤها ؛ يدفع الله تعالىٰ عنهم مما في مقدوره من ذٰلك ، وما يدفع الله تعالىٰ منها عن العبد لا يحصىٰ .

فَصْلٌ

[في أقوال أخرىٰ للعلماء والحكماء في الشكر]

ثم عدنا إلىٰ أقوال العلماء والحكماء في الشكر .

قال بعض الحكماء : (موضع الشكر من النعمة موضع القِرىٰ من الضيف ؛ إن وجده . . لم يَرِم ، وإن عَدِمه . . لم يُقِم)(٤) .

وأجمعت حكماء العرب والعجم علىٰ هٰذه اللفظة فقالوا : (الشكرُ : قيدُ النعم)(٥) .

---

(١) رواه بنحوه في « حلية الأولياء » (١١٩/١٠) ، و« الرسالة القشيرية » (ص ٣١٢) .

(٢) سورة إبراهيم : (٣٤) .

(٣) في النسخ : (فالدفع) ، والمثبت من (ح) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٧) من قول أبي إسحاق الصابئ ، و« زهر الآداب » (٣٣٤/١) دون نسبة .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٦) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٣٣١) .

وقالوا : (الشكرُ : قيدُ الموجود ، وصيدُ المفقود)[١] .

وقالوا : (مصيبةٌ وجبَ أجرُها خيرٌ من نعمة لا يُؤدَّىٰ شكرها)[٢] .

وقال بعض الحكماء : (من أُعطي أربعاً .. لم يُمنع أربعاً : من أُعطي الشكر .. لم يُمنع المزيد ، ومن أُعطي التوبة .. لم يُمنع القَبول ، ومن أُعطي الاستخارة .. لم يُمنع الخِيَرة ، ومن أُعطي المشورة .. لم يُمنع الصواب)[٣] .

وكان يقال : (إذا رُعيت النعم بالشكر .. فهي أطواق ، وإذا رُعيت بالكفر .. فهي أغلال)[٤] .

قال حبيب[٥] : [من الكامل]

نِعَـمٌ إِذَا رُعِيَـتْ بِشُـكْرٍ لَـمْ تَـزَلْ نِعَمـاً فَـإِنْ لَـمْ تُـرْعَ فَهْـيَ مَصَائِـبُ

وبعث الحجاج إلى الحسن بعشرين ألف درهم فقال : (الحمدُ لله الذي ذَكَرني) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (لا تكن ممن يَعجِزُ عن شكر ما أُوتي ، وتبتغي الزيادةَ فيما بقي ؛ تنهىٰ ولا تنتهي ، وتأمر الناس بما لا تأتي ، تحب الصالحين ولا تعمل بأعمالهم ، وتبغض المسيئين وأنت منهم ، تكره الموت لكثرة ذنوبك ولا تدعها في طول حياتك)[٦] .

وقال المغيرة بن شعبة : (أُشكُر من أنعَمَ عليك ، وأَنعِمْ علىٰ من شكرك ؛

---

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٢) .

(٢) أورده في « معجم الأدباء » (٥/٢٢٠) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٥/٢٩٩) من قول علي بن عيسى بن الجراح الوزير .

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٨٥) .

(٤) أورد في « الآداب الشرعية » (٢/٢٨٩) عن بعض الأدباء : (قيدوا النعم بالشكر ؛ فإنها كالنعم لها أوابد) .

(٥) هو أبو تمام ، والبيت في « ديوانه » (١/١٧٥) .

(٦) أورده في « البيان والتبيين » (٢/١٠١) ، و« البصائر والذخائر » (٢/٦٠) .

فإنه لا بقاء للنعمة إذا كُفرت ، ولا زوال لها إذا شُكرت ، وإن الشكر زيادة من النعم ، وأمان من النِّقم)[١] .

وكان الحسن يقول : (ابن آدم ؛ متىٰ تَنفكُّ من شكر النعم وأنت مرتهن بها ؟! كلما شكرت نعمة . . تجدد لك بالشكر أعظمُ منها عليك ؛ فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلىٰ ما هو أعظم منها)[٢] .

وقال سفيان الثوري : (لمَّا جاء البشير إلىٰ يعقوب عليه السلام . . قال : علىٰ أي دين تركته ؟ قال : علىٰ دين الإسلام ، قال : الحمد لله ، الآن تمت النعمة)[٣] .

وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دُعي إلىٰ قوم ليأخذهم علىٰ ريبة ، فافترقوا قبل أن يبلغهم ، فأعتق رقبة شكراً لله ألا يكون جرت علىٰ يديه فضيحة رجل مسلم[٤] .

وقيل : إن الحسن بن علي رضي الله عنهما التزم الركن وقال : (إلـٰهي ؛ نعَّمتني فلم تجدني شاكراً ، وابتليتني فلم تجدني صابراً ؛ فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أنت أدمت النقمة بترك الصبر .

إلـٰهي ؛ ما يكون من الكريم إلا الكرم ، ولا من الجافي إلا الجفا)[٥] .

وقال عون بن عبد الله : (الخير الذي لا شر فيه : الشكر مع العافية ، والصبر عند المصيبة)[٦] .

وروي أن نملة قالت لسليمان بن داوود عليه السلام : (أنا علىٰ قَدْري

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٥٤٤) .

(٢) أورده في « المستطرف » (١١٢/٢) .

(٣) أورده مكي بن أبي طالب في « الهداية إلىٰ بلوغ النهاية » (٣٦٣٣/٥) ، والثعلبي في « تفسيره » (٢٥٧/٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٢١) ، وبنحوه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦٠/١) .

(٥) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٤) .

(٦) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٦٨٥) ، وبنحوه في « حلية الأولياء » (٢٥٤/٤) .

أَشكَرُ لله منك ، وكان علىٰ فرس ذَلُول ، فخر عنه ساجداً ، ثم قال : لولا أني أبجلك . . لسألتك أن تنزع عني ما أعطيتني)[١] .

وقال صدقة بن يسار : (بينما داوود عليه السلام في محرابه . . إذ مرت به دودة ، فتفكر في خلقها وقال : ما يعبأ الله تعالىٰ بخلق هـٰذه ، فأنطقها الله تعالىٰ ؛ فقالت له : يا داوود ؛ تُعجبك نفسك ؟! لأنا علىٰ قَدْرِ ما آتاني الله تعالىٰ أذكَرُ لله وأشكَرُ له منك فيما آتاك الله)[٢] .

ولمحمود الوراق[٣] : [من الطويل]

إِلَـٰهِي لَـكَ ٱلْحَمْدُ ٱلَّـذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... عَلَـىٰ نِعَـمٍ مَـا كُنْتُ قَـطُّ لَهَـا أَهْلَا
مَتَى ٱزْدَدْتُ تَقْصِيـراً تَزِدْنِي تَفَضُّلاً ... كَأَنِّـي بِٱلتَّقْصِيرِ أَسْتَوْجِبُ ٱلْفَضْلَا

وكان لبعضهم صديق ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه ، فقال له صاحبه : (اشكر الله تعالىٰ ، فضُرِبَ الرَّجُلُ ، فكتب إليه : اشكر الله تعالىٰ ، فجيء بمجوسي مبطون وقَيْدٍ ، فجَعلَ حلقة في رِجله وحلقة في رِجل المجوسي ، فكان المجوسي يقوم بالليل مرات ، وهـٰذا يحتاج أن يقوم معه ، ويقف علىٰ رأسه حتىٰ يفرغ ، فكتب إلىٰ صاحبه ، فقال : اشكر الله تعالىٰ ، فقال : إلىٰ متىٰ تقول ؟! وأي بلاء فوق هـٰذا ؟! فقال له صاحبه : لو وُضِع الزُّنّار الذي في وسطه في وسطك كما وُضِع القَيد الذي في رِجله في رِجلك . . ماذا كنت تصنع ؟!)[٤] .

ولبعضهم[٥] : [من الكامل]

وَمِـنَ ٱلرَّزِيَّـةِ أَنَّ شُـكْرِيَ صَامِـتٌ ... عَمَّـا فَعَلْـتَ وَأَنَّ بِـرَّكَ نَاطِـقُ
أَأَرَى ٱلصَّنِيعَـةَ مِنْـكَ ثُـمَّ أُسِرُّهَا ... إِنِّـي إِذاً لِيَـدِ ٱلْكَرِيـمِ لَسَـارِقُ

---

(١) أورده في « الهداية إلىٰ بلوغ النهاية » (١٠/٦٢٥٢) .
(٢) رواه في « تاريخ دمشق » (١٧/٩٥) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ١٦٤) .
(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٣) .
(٥) البيتان لأبي تمام في « ديوانه » (٢/٤٥٤) .

وقال رجل لسهل بن عبد الله : (إن اللص دخل داري وأخذ متاعي ، فقال : اشكر الله تعالىٰ ؛ لو دخل اللص قلبك ـ وهو الشيطان ـ وأخذ التوحيد . . ماذا كنت تصنع ؟!)(١) .

ولمَّا بُشِّر إدريس عليه السلام بالمغفرة . . سأل النظرة ، فقيل له فيه ، فقال : (لِأَشكُرَه ؛ فإني كنت أعمل قبله للمغفرة ، فبسط الملك جناحه ، ورفعه إلى السماء)(٢) .

وقيل : (إن نبياً من الأنبياء عليهم السلام مَرَّ بحَجَر صغير يخرج منه الماء الكثير ، فتعجب منه ، فأنطقه الله تعالىٰ ؛ فقال : منذ سمعت الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾(٣) وأنا أبكي من خوفه ، فدعا النبي عليه السلام أن يجيره الله من النار ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : إني قد أجرته من النار ، فمرَّ النبي ، ثم عاد فوجد الحجر يتفجر منه مثلما كان ، فعجب ، فأنطق الله الحجر ، فقال له : لم تبكي ؟ فقال : ذٰلك بكاء الحزن والخوف ، وهٰذا بكاء الشكر والسرور)(٤) .

وروي أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام : (ارحم عبادي ؛ المبتلىٰ والمعافىٰ ، فقال : إلٰهي ؛ ما بالُ المعافىٰ ؟ فقال : لقلةِ شكرهم علىٰ عافيتي إيَّاهم)(٥) .

وأولىٰ رجل رجلاً أعرابياً خيراً فقال : (لا أبلاك الله ببلاء يَعجِز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يَعجِز عنها شكرك)(٦) .

---

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٣) .
(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٤) بلفظ : (سأل الحياة) بدل (سأل النظرة) ، وفي النسخ جميعاً عدا (و) : (سأل المغفرة) .
(٣) سورة التحريم : (٦) .
(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٤) .
(٥) رواه في « تاريخ جرجان » (ص ١٦٠) ، وأورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٥) .
(٦) أورده في « الفاضل » (ص ٩٦) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٢٩٤/٢٧) .

وأنشد بعضهم[1] : [من الطويل]

سَأَشْكُرُ لَا أَنِّي أُجَازِيكَ مُنْعِماً ... بِشُكْرِي وَلَـٰكِنْ كَيْ يُرَىٰ ذَٰلِكَ ٱلشُّكْرُ
وَأَذْكُرُ أَيَّاماً لَدَيَّ ٱصْطَنَعْتَهَا ... وَآخِرُ مَا يَبْقَىٰ عَلَى ٱلشَّاكِرِ ٱلذِّكْرُ

وقال آخر[2] : [من الكامل]

أَوْلَيْتَنِي نِعَماً أَبُوحُ بِشُكْرِهَا ... وَكَفَيْتَنِي كُلَّ ٱلْأُمُورِ بِأَسْرِهَا
فَلَأَشْكُرَنَّكَ مَا حَيِيتُ وَإِنْ أَمُتْ ... فَلَتَشْكُرَنَّكَ أَعْظُمِي فِي قَبْرِهَا

وقال آخر[3] : [من الطويل]

أَيَا رَبِّ قَدْ أَحْسَنْتَ بَدْءاً وَعَوْدَةً ... إِلَيَّ فَلَمْ يَنْهَضْ بِإِحْسَانِكَ ٱلشُّكْرُ
فَمَنْ كَانَ ذَا عُذْرٍ لَدَيْكَ وَحُجَّةٍ ... فَعُذْرِيَ إِقْرَارِي بِأَنْ لَيْسَ لِي عُذْرُ

وكان مُطرِّف يقول : (إلـٰهي ؛ منك تكون النعمة وعليك تمامها ، وأنت تعين علىٰ شكرها وعليك ثوابها) .

وهـٰذا باب عظيم من النعم على العباد ؛ قال الله تعالىٰ في الثناء علىٰ بعض عباده : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾[4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ ﴾[5] ، وكذٰلك سائر ما أثنى الله تعالىٰ علىٰ عباده .

ثم قال : ﴿ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ ﴾[6] ، وقال : ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ ﴾[7] ، وقال : ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ ﴾[8] ليس للرب تعالىٰ فيها

---

(١) البيتان للبحتري في « ديوانه » (٢/٨٩٥) .
(٢) أورد البيتين في « عوارف المعارف » (٢/٨٥١) .
(٣) البيتان لأبي نواس في « ديوانه » (١/٣٥١) ، ولمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٢٢٢) .
(٤) سورة الإسراء : (٣) .
(٥) سورة النحل : (١٢١) .
(٦) سورة لقمان : (١٢) .
(٧) سورة فاطر : (١٨) .
(٨) سورة الإسراء : (٧) .

لا قليل ولا كثير ؛ فإنه أجَلُّ من أن ينال الحظوظ ، وأجَلُّ من أن يلحقه ثناءُ مُثنٍ أو شكرُ شاكر ، فأخبر أن العلو والجلال له دونهم ، وأنه يتقدس عن التأثير[1] بثناء مُثنٍ أو كفرِ كافر .

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم ﴾[2] فوا عجباً ! أعطىٰ ثم أثنىٰ ؟!

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (كفر النعمة داعية المقت ، ومن جازاك بالشكر . . فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك) .

وحقيق بمن أُسديت إليه نعمة أو قُضيت له حاجة . . أن يكافئ ؛ فإن لم يقدر . . فليشكر ، فإن شَكَرها . . فقد أدىٰ حقها .

قال الشاعر[3] : [من الطويل]

فَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِي عَنِ ٱلشُّكْرِ مَاجِدٌ ... لِرِفْعَةِ حَالٍ أَوْ عُلُوِّ مَكَانِ

لَمَا أَمَرَ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِٱلشُّكْرِ خَلْقَهُ ... فَقَالَ ٱشْكُرُوا لِي أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ

وقال البُستي[4] : [من الطويل]

لَئِنْ عَجَزَتْ عَنْ شُكْرِ بِرِّكَ قُوَّتِي ... وَأَقْوَى ٱلْوَرَىٰ عَنْ شُكْرِ بِرِّكَ عَاجِزُ

فَإِنَّ ثَنَائِي وَٱعْتِقَادِي وَطَاعَتِي ... لِأَفْلَاكِ مَا أَوْلَيْتَنِيهِ مَرَاكِزُ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : وقفت علينا امرأة فقالت : (يا قوم ؛ تغيَّر علينا الدهر ؛ إذ قلَّ منا الشكر ، وفارقنا الغنىٰ ، وحالفنا الفقر ، فرحم الله امرأً فهم بعقل ، وأعطىٰ من فضل ، وواسىٰ من كَفاف ، وأعان علىٰ عَفاف)[5] .

---

(١) في النسخ ما عدا (و ، ز) : (الناس) ، وفي (ز) : (التأسي) .

(٢) سورة إبراهيم : (١٠) .

(٣) البيتان لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ١٩٦) .

(٤) البيتان في « ديوانه » (ص ٢٠٠) .

(٥) أورده في « زهر الآداب » (١٠٥٩/٢) .

وأنشدوا[1] : [من المتقارب]

فَلَـوْ كَانَ لِلشُّـكْرِ شَـخْصٌ يَبِيـنُ ... إِذَا مَـــا تَأَمَّلَـــهُ ٱلنَّاظِـــرُ
لَمَثَّلْتُـــهُ لَـــكَ حَتَّـــىٰ تَـــرَاهُ ... فَتَعْلَـــمَ أَنِّـــي ٱمْـــرُؤٌ شَـــاكِرُ
وَلَـٰكِنَّهُ سَـــاكِنٌ فِـــي ٱلضَّمِيـــرِ ... يُحَرِّكُـــهُ ٱلْكَلِـــمُ ٱلسَّـــائِرُ

وقيل لكسرىٰ : (ما الشكر ؟ فقال : المكافأة علىٰ قدر الطاعة[2] ، قيل : فما الكفر ؟ قال : ترك الجزاء ولو بالثناء ، قيل : وهل يكون أحد أبخل ممن يبخل بالثناء ؟ قال : نعم ، من عادىٰ على الصنيعة) .

❋ ❋ ❋

---

(١) الأبيات لعلي بن الجهم في « ديوانه » (١٣٣ ـ ١٣٤) ، وأورد البيتين الأولين في « الأغاني » (٤٦٢٢/١٣) للعَتَّابي .
(٢) في (ج ، د ، و) : (الطاقة) .

الباب الخامس والثلاثون

في بيان السيرة التي يصلح عليها الأمير والمأمور ويستريح بها الرئيس والمرؤوس، مستخرجةً من القرآن العظيم

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (١) ، فأثبت الله تعالى المماثلة بيننا وبين سائر البهائم .

ومعلومٌ : أنهم ما ماثلونا في خَلقنا ولا في أشكالنا ، ولا في عقولنا ، ولا في سائر ما تدركه العين منهم ومنا ، فتبقى المماثلة في الأخلاق ؛ فلا أحد من الخلق إلا وفيه خُلق من أخلاق البهائم .

ولهٰذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة ؛ فإذا رأيت من الإنسان خُلقاً خارجاً عن الاعتدال . . فانظر ما يماثل ذٰلك الخُلق من أخلاق سائر الحيوان فألحِقْه به ، وعامله كما كنت تعامله ؛ فحينئذ تستريح من منازعتهم ، ويستريحون منك ، وتدوم الصحبة .

فإذا رأيت الرجل الجاهلَ في خلائقه ، الغليظَ في طباعه ، القويَّ في بدنه ، الذي لا يؤمن طغيانه وإفراطه . . فألحِقْه بعالم النُّمور ، والعرب تقول : (أجهلُ من نَمِرٍ) (٢) ، وأنت إذا رأيت النَّمِر . . بعدت عنه ولم تخاصمه ولم تشاتمه ؛ فاسلك بالرَّجُلِ كذٰلك .

وإذا رأيت الرجلَ الغالبَ علىٰ أخلاقه السرقةُ خفيةً ، والنقبُ ليلاً علىٰ وجه الاستسرار . . قلنا : هٰذا يماثل عالم الجُرَذ ؛ فدع مُلاحاتَه ومخاصمتَه كما تدع

---

(١) سورة الأنعام : (٣٨) .

(٢) ومن جملة ما يكنىٰ به : أبو جهل . انظر « حياة الحيوان الكبرىٰ » (٤/٩٨) .

سباب الجُرَذ إذا أفسد رَحْلك ، ثم أَحيِ رَحلك بما يصلح له .

وإذا رأيت الرجل هَجَّاماً علىٰ أعراض الناس وثَلْبهم . . فقد ماثل عالم الكلاب ؛ فإنَّ دَأْبَ الكلب أن يجفو من لا يجفوه ، ويبتدي بالأَذِيَّة من لا يؤذيه ؛ فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نَبَحك ، ألست تذهب في شأنك وتترُكه ولا تخاصِمُه ولا تَسبُّه ؟! فافعل بمن يهتضم عِرضَك مثل ذٰلك .

وإذا رأيت إنساناً قد جُبِلَ على الخلاف ؛ إن قلت : (لا) قال : (نعم) ، أو قلت : (نعم) قال : (لا) . . فألحقه بعالم الحمير ؛ فإنَّ دَأْبَ الحمار إن أدنيته . . بَعُد ، وإن أبعدته . . قَرُب ، وأنت تستمتع بالحمار ، ولا تَسبُّه ولا تفارقُه ، فاستمتع أيضاً بهٰذا الإنسان ، ولا تَسبَّه ولا تفارِقْه .

وإذا رأيت رجلاً يطلب عَثَرات الناس وسَقَطاتهم . . فمَثَلُه في الآدميين كمثل الذباب في عالم الطير ؛ فإن الذباب يقع على الجسد فيتحامىٰ صحيحَه ، ويطلب المواضِعَ النَّغِلةَ منه وذواتِ المادةِ والدم والنجاسة [١] .

* * *

وإذا بُلِيت بسلطان يهجم على الأموال والأرواح . . فَأَلْحِقْه بعالم الأسود ، وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد ، وليس إلا الهرب منه ، كما قال النابغة [٢] : [من البسيط]

. . . . وَلَا قَـرَارَ عَلَـىٰ زَأْرٍ مِـنَ ٱلْأَسَـدِ

وإذا بُلِيت بإنسان خبيثٍ كثيرِ الرَّوَغان والمفاجرة . . فأَلْحِقْه بعالم الثعالب .

وإذا بُلِيت بمن يمشي بالنمائم ويفرق بين الأحبة . . فأَلْحِقْه بعالم الظَّرِبان ؛ وهي دابة صغيرة لا يُطاق فسوها ، تقول العرب عند تفرق الجماعة : (فسا بينهم

---

(١) النَّغِلة : المتغيرة الزَّنِخَة الفاسدة .

(٢) البيت في « ديوانه » (ص ٢٦) من معلقته المشهورة ، وصدره : (أُنبِئْتُ أنَّ أبا قابوسَ أوعدني . . .) .

ظَرِبان فتفرقوا)[1] ، وخاصيَّة هٰذه الدُّوَيْبَّة إذا حصلت وسط جماعة . . يوشك أن يتفرقوا ، وكما أن الجماعة إذا أقبلت نحوهم هٰذه الدابة طردوها ومنعوها الدخول بينهم . . كذٰلك ينبغي إخراج النمَّام من بين الجماعة ؛ فإن لم يفعلوا . . يوشك أن يفرق فيما بينهم ، ويفسد قلوب بعضهم علىٰ بعض .

❁ ❁ ❁

وإذا رأيت إنساناً لا يسمع العلم والحكمة ، ويَنفِرُ من مجالس العلماء والحكماء ، ويَألَفُ سماع أخبار الدنيا وسائر الخرافات وما يجري في مجالس العوام . . **فَأَلحِقْه بعالم الخنافس** ؛ فإنه يعجبه أكل العَذِرات ، ويألَفُ روائح النجاسات ، ولا تراه إلا مُلابساً للأَخْلِيَة والمرحاضات ، ويَنفِرُ من روائح المسك والورد ، وإذا طُرح عليه المسك والورد . . مات .

وإذا رأيت إنساناً إنما دأبُه خطفُ الدنيا ، لا يستحيي في الوثوب عليها . . **فَأَلحِقْه بعالم الأَحْدِيَة** ؛ بأن تُكِنَّ رَحْلك عنه[2] .

❁ ❁ ❁

وإذا بُليت بالرجل عليه الديانة والسكينة ، وقد نَصب أشراكه لاقتناص الدنيا ، وأكل أموال الودائع والأمانات ، وأموال الأرامل واليتامىٰ . . **فَأَلحِقْه بعالم الذئاب** ، فهو كما قال فيه القائل[3] : [من مجزوء الكامل]

ذِئْبٌ تَرَاهُ مُصَلِّياً ... فَإِذَا مَرَرْتَ بِهِ رَكَعْ
يَدْعُو وَجُلُّ دُعَائِهِ ... مَا لِلْفَرِيسَةِ لَا تَقَعْ
عَجِّلْ بِهَا يَا ذَا ٱلْعُلَا ... إِنَّ ٱلْفُؤَادَ قَدِ ٱنْصَدَعْ

---

(١) أورده في « أدب الكاتب » (١٩٨) ، و« جمهرة الأمثال » (١/٢٢١) .

(٢) قال أبو بكر الزُّبيدي في « لحن العوام » (ص ٢٠٦) : (ويقولون لجمع الحِدَأة : أَحْدِيَة ، والصواب : حِدَأة ، وثلاث حِدَآت ، وهي الحِدَأُ ، ويقال : حِدْآن أيضاً) .

(٣) أورد البيتين الأولين في « معجم البلدان » (٢/٣١١) .

فاحترزْ منه كما تحترز من الذئب .

وإذا بُليت بصحبة إنسان كذَّاب . . فاعلم أنَّ الإنسان الكذَّاب كالميت في الحكم ؛ لأنه لا يُقبل له خبر كما لا خبر للميت ، وكما لا تصحب الموتىٰ . . لا تصحب الكذَّاب ، وقد قيل في الأمثال : (كلُّ شيءٍ شيءٌ ، وصُحبةُ الكذَّاب لا شيء)[١] .

كما قيل[٢] : [من مجزوء الكامل]

لِـــي حِيلَـــةٌ فِيمَـــنْ يَنُـــمُّ   وَلَيْـــسَ فِـــي ٱلْكَـــذَّابِ حِيلَـــهْ
مَـــنْ كَانَ يَخْلُـــقُ مَـــا يَقُـــو   لُ فَحِيلَتِـــي فِيـــهِ قَلِيلَـــهْ

ويجوز أن يلحق بعالم النَّعَام ؛ فإنه يَدفِنُ جميع بيضه تحت الرمل ، ثم يترك بيضة علىٰ وجه الرمل ، وأخرىٰ تحت طاقة من الرمل ، ويُبقي سائرَ بيضه في قعر الحفرة ؛ فإذا رآه الغِرُّ . . يأخذُ تلك البيضة وينصرف ، أو يكشفُ عن وجه الرمل فيجد الأخرىٰ ، فيظن أنه ليس ثَمَّ شيء آخر ، والخبير بحيلة[٣] النَّعَام إذا رأى البيضة . . لا يزال يَحفِرُ حتىٰ يصل إلىٰ حاجته ولا يغترُّ بتلك البيضة ؛ كذٰلك الكذَّاب إذا سمعت منه خبراً . . لا تصدقه حتىٰ تبلغ الغاية في الكشف عنه .

وإذا رأيت الرجل إنما دأبه أن يصنع نفسه كما تصنع العروس لبعلها ؛ يُبيِّض ثيابه ، ويُعدِّل عِمامته ، ويتَّقي أن يمسه شيء غيره ، وينظر في عِطْفَيه ، ويطرح القذىٰ عن ثوبيه ، ليس له همة بين الجلساء إلا نظره إلىٰ نفسه ، وإصلاح ما انثنىٰ من ثيابه . . فَأَلحِقْه بعالم الطواويس الذي هٰذه صفته ؛ فإنه يتبختر في

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٤٨) .
(٢) تقدم البيتان وتخريجهما (ص ٢١٣) .
(٣) في (أ ، ب ، د ، ز) : (بحالة) .

مشيه ، وينظر إلىٰ نفسه ، ويفرِش ذَنَبه ، فيتخذه الملوك استحساناً له .

وإذا بُليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ، ويجازي بعد المدة على السقطات . . فَأَلحِقْه بعالم الجِمال ، والعرب تقول : (فلانٌ أحقدُ من جَمَل)[1] ، فتجنَّب قُربَ الجَمل الحَقُود ، واجتنب صُحبةَ الرجل الحقود .

وإذا بُليت بإنسان منافق يبطن خلاف ما يظهر . . فَأَلحِقْه بعالم اليرابيع ؛ فإن اليَربوع ـ وهو فأر يكون في البرية ـ يتخذ جُحراً تحت الأرض يقال له : النَّافقاء ، وله فُوَّهتان ، يدخل من إحداهما ، ويخرج من الأخرىٰ ، ومنه اشتق اسم المنافق ، فإذا هَمَّ أحد بأخذه . . دخل جُحره وخرج من الباب الآخر ، فيحفر الصياد خلفه ، فلا يلحقه ولا يظفر بشيء ؛ كذٰلك حال الرجل المنافق لا يَصِحُّ منه شيء .

* * *

وعلىٰ هـٰذا النمط كن في صحبة الناس ، تستريحُ منهم وتُريحهم منك ، فَلَعَمْرُ اللهِ ؛ ما استقامت لي صحبة الناس ، وسكنت نفسي ، واسترحت من مكابدة أخلاقهم . . إلا من حين سرت معهم بهـٰذه السيرة .

وقال الرِّياحي : (يا بَني رِياح ؛ لا تَحقِروا صغيراً تأخذون عنه ؛ فإني أخذت من الثعلب رَوَغانه ، ومن القِرد حكايتَه ، ومن السِّنَّور ضَرَعه ، ومن الكلب نُصرته ، ومن ابن آوىٰ حَذَره ، وقد تعلمت من القمر سير الليل ، ومن الشمس ظهور الحِين بعد الحين)[2] .

* * *

(١) أورده في « ثمار القلوب » (١/٥٢٥) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/٢٥٨) .

الباب السّادس والثّلاثون
في بيان الخَصلة التي فيها غاية كمال السّلطان وشفاء الصّدور، وراحة القلوب، وطيب النّفوس

اعلم أيُّها الملك : أنه متىٰ كملت فيك الخصالُ المحمودة ، والأخلاق المشكورة ، والسيرة المستقيمة ، وملكتَ نفسَك ، وقهرتَ هواك ، ووضعتَ الأشياء مواضعها ، ثم إن الرعية اهتضمت حقك ، وجَهلتْ قدرك ، ولم تُوفِكَ قيمتك ، فبلغك منهم ما يسوءك ، ورأيت منهم ما لا يعجبك . . فاعلم أنك لست بإلـٰه ؛ فلا تطمعن أن يصفو لك منهم ما لا يصفو منهم للإلـٰه .

وفصل الخطاب في هـٰذا الباب : أن تعلم أن الله تعالىٰ خلق الخلائق أجمعين ، وأنعم عليهم بأنواع من النعم ؛ فأكمل حواسهم ، وخلق فيهم الشهوات ، ثم أفاض عليهم نعمه ؛ فكملت لهم اللذات ، وبعدَ هـٰذا فما قَدَروا الله حقَّ قَدْرِه ، ولا عظَّموه حقَّ عظمته ، بل قالوا فيه ما لا يليق به ، ووصفوه بما يستحيل عليه ، وأضافوا إليه ما يتقدس عنه ، وسلبوه ما يجب له من الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا ؛ فمنهم من قال : هو ثالث ثلاثة ، ومنهم من قال : له زوجة ، ومنهم من قال : له ابن ، ومنهم من قال : له البنات ، ومنهم : من يجسمه ، ومنهم : من يشبهه ، ومنهم : من أنكره رأساً وقال : ما للخلق صانع ، كما حكاه الخالق عنهم فقال : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (١) .

وهو مع ذٰلك يحييهم ويبقيهم ، ويُصِحُّ أجسامهم وحواسهم ، ويرزقهم وينعشهم ، ويقضي مآربهم وأوطارهم ، ويمتعهم متاعاً حسناً ، ويبلغهم أمانيهم

---

(١) سورة الجاثية : (٢٤) .

في معظم ما يحتاجون إليه ؛ فمعاصيهم إليه صاعدة ، وبركاته عليهم نازلة ، كلٌّ يعمل علىٰ شاكلته وينفق مما عنده ، وكل ذي حال أولىٰ بها .

وفي مناجاة موسىٰ عليه السلام أنه قال : (إلـٰهي ؛ أسألك ألَّا يقال فيَّ ما ليس فيَّ) ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : (يا موسىٰ ؛ ذٰلك شيء ما فعلته لنفسي ، فكيف أفعله لك ؟!) [١] .

وفي هـٰذه السيرة عبرة لمن اعتبر ، وذكرىٰ لمن ادَّكَر ، مع أنك إن التمست رضا جميع الناس . . التمست ما لا يدرك ، وكيف يدرك رضا جميع المخلوقين المختلفين ؟!

فيا أيها الملك الذي كُتب عليه القضاء والفناء ، والعمر القصير ، والزمان اليسير ، والأيام المعدودة ، والأنفاس المحصورة ؛ كيف أردت أن يصفو لك من الرعية ما لم يصفُ منهم لخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم ؟!

هيهات هيهات ، بعيد ما أملت ، ومستحيل ما طلبت ، فلك في الله أسوة حسنة أن ترضىٰ منهم بما رضي منهم خالقهم ، وتسير فيهم سيرة ربهم فيهم ، ألم تر كيف أحسن إليك ؛ فرضي منك باليسير من العمل ، وأكثر لك من النعم والأموال والخَوَل ؟!

وانظر كيف يستر زلاتك ، ويتغمد سيئاتك ، ولا يفضحك في خلواتك ؛ ففي هـٰذا ما يمهد النفوس ، ويؤدب ذوي العقول ، ويهدي إلى الصواب ، ويوضح طرق الرشاد ، والله أعلم .

ولله دَرُّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ! لقد كان واعياً لما تلوته عليك ؛ فإنه روي عنه أنه كتب إلىٰ عمرو بن العاص : (كن لرعيتك كما تُحِبُّ أن يكون لك أميرُك) [٢] .

---

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٣) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٤٦) ، وأورده في « العقد الفريد » (٢٠٦/٤) .

الباب السّابع والثلاثون
في بيان الخصلة التي فيها ملجأُ الملوك عند الشّدائد ومعقل السّلاطين عند اضطراب الأمور وتغيّر الوجوه والأحوال

اعلم أيها الملك : أنه إذا اختلجت الأمور في صدرك ، واضطربت عليك القواعد ، ومَرِجَتْ في قلبك وجوهُ الرأي[1] ، وتنكَّرت عليك المعارف ، واكفهرَّ لك وجه الزمان ، ورأيت آثار الغِيَر . . فلا يَعزُبْ عنك خَصلتان : اترك للناس دينهم ودنياهم ، ولك الأمان من طوارق الحَدَثان ، وما يأتي به المَلَوان .

وقد روي أن المأمون قال في آخر مواقفه مع أخيه الأمين وقد نَفِدَتْ بيوت الأموال ، وألحت الأجناد في طلب الأرزاق ، فقال المأمون : (بقيت لأخي خَصلة لو فعلها . . ملك موضع قدميَّ هاتين ، قيل له : وما هي ؟ فقال : والله ؛ إني لأضَنُّ بها على نفسي فكيف على غيري ؟! فلما خلص له الأمر . . سئل عن تلك الخَصلة ، فقال : لو أن الأمين نادى في جميع بلاده أنه قد حَطَّ الخَراجات والوظائف السلطانية وسائر الجبايات عشرَ سنين . . لملك الأمر عليَّ ، ولـٰكن الله غالب على أمره)[2] .

ولَمّا خشي المأمون انتقاض بيعته مع أهل خراسان في أمر فتنته مع أخيه الأمين . . استشار الفضل بن سهل ـ وكان وزيرَه ـ فقال له الفضل : قد قرأت القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذي عندي : أن

---

(١) مَرِجَتْ : اختلطت .

(٢) انظر « تاريخ الطبري » (٨/٣٨٥) .

تجمع الفقهاء وتدعوهم إلى الحق والعمل به ، وإحياء السُّنة ، وبسط العدل ، والقعود على اللُّبود ، وتُواصِلَ النظر في المظالم ، وتُكرمَ القُوَّاد والملوك وأبناء الملوك ، وتَعدَهم بالمواعيد الكريمة ، والمراتب السَّنِيَّة ، والولايات المشاكِلة .

ففعل ذلك ، وحَطَّ عن أهل خراسان ربع الخَراج ، فمالت وجوه الخلائق إليه ، وكانوا يقولون : ابن أخينا[1] ، وابن عمِّ نبينا صلى الله عليه وسلم[2] ، وانقاد إليه رافع بن الليث وكان من عظماء الملوك بخراسان[3] .

* * *

ويدخل تحت هذه الترجمة : أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند ؛ وهو : أن يصطنع وجوهَ كل قبيلة ، والمقدمين من كل عشيرة ، ويحسن إلىٰ حملة العلم وحفاظ الشريعة ، ويدني مجالسهم ، ويقرب الصالحين والمتزهدين وكُلَّ متمسك بعروة الدين .

وكذلك فليفعل بالأشراف من كل قبيلة ، والرؤساء المتبوعين من كل نمط ، فهؤلاء هم أَزِمَّة الخلق[4] ، وبهم يملك مَنْ سواهم .

فمِنْ كمال الرياسة والسياسة : أن تُبقي علىٰ كل ذي رياسة رياسته ، وعلىٰ كل ذي عز عزه ، وعلىٰ كل ذي منزلة منزلته ؛ فحينئذ يكون الرؤساء لك أعواناً ، ومن دانت له الفضلاء من كل قبيلة . . فأخلق به أن يدوم سلطانه !

والعامة والأتباع دون مقدميهم وساداتهم أجسادٌ بلا رؤوس ، وأشباحٌ بلا أرواح .

---

(١) في (ج) وهامش (أ) : (ابن أختنا) .
(٢) انظر « نهاية الأرب » (٢٢/١١٨) .
(٣) أورده في « نهاية الأرب » (٢٢/١١٩) .
(٤) أزمَّة : جمع زِمام ؛ هو زمام قومه : قائدهم ومقدَّمهم وصاحب أمرهم .

ولمَّا قامت العامة على السلطان بقرطبة ولَبِسوا السلاح . . كان شيخ جالس على كِيره يعالج صنعته[1] ، فقال : (ما بالُ الناس ؟ قالوا : قامت العامة على السلطان ، فقال : ولهم رأس ؟ قالوا : لا ، قال : شُقَّ الكير يا صبي) فذهبت مَثلاً .

* * *

(١) كِيرُ الحدَّاد : منفاخه الذي ينفخ به في النار .

الباب الثامن والثلاثون

في بيان الخصال الموجبة لذم الرعية للسلطان

قال حكيم الفرس : (ذمُّ الرعية للملك من ثلاثة أوجه : إما كريم قُصِّر به عن قدره فأورثه ذٰلك ضغناً ، وإما لئيم بُلِغ به فوق قدره فأورثه ذٰلك بَطَراً ، وإما رجل مُنِعَ حظَّه من الإنصاف)(١) .

وفي الأمثال : (إحسانك إلى الحر يبعثه على المكافأة ، وإحسانك إلى اللئيم الخسيس يبعثه علىٰ معاودة المسألة)(٢) .

وقيل للإسكندر : (إن فلاناً ينتقصك ويسيء الثناء عليك ، فقال : أنا أعلم أنه ليس بشرير ، فينبغي أن نعلم : هل ناله من ناحيتنا أمر دعاه إلىٰ ذٰلك ؟ فبحث عن حاله ، فوجدها رَثَّة ، فأمر له بصلة سَنِيَّة ، فبلغه بعد ذٰلك أنه بسط لسانه بالثناء عليه ، فقال : أما ترون أن الأمر إلينا أن يقال فينا خير أو شر)(٣) .

وينبغي للسلطان : ألَّا يتخذ الرعية مالاً وقُنْية ؛ فيكون عليهم بلاء وفتنة ، ولٰكن يتخذهم أهلاً وإخواناً ؛ فيكونون له جنداً وأعواناً .

وقد سبق المثل : (إصلاحُ الرعية خيرٌ من كنزِ الكنوز وكثرةِ الجنود) .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (١/٤٣) .

(٢) أورده في « شرح نهج البلاغة » (٢٠/٢٦٨) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٣) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٥٦) .

الباب التّاسع والثّلاثون
في مثل السّلطان العادل والجائر

اعلم : أنَّ مَثَلَ السلطان العادل مَثَلُ الياقوتة النفيسة الرفيعة في وسط العِقْد ، ومَثَلَ الرعية مَثَلُ سائر الشَّذْر [1] ، فلا تلحظ العيون إلا الواسطة ، وأول ما يبصر المقلِّبون وينقد الناقدون : الواسطة ، وإنما يُثني المُثنون على الواسطة ، وكلما حسنت الواسطة . . غَمَرت [2] سائر الشَّذْر ، فلا تكاد تذكر ؛ كما [قالت سعدة بنت عبد الله] : (لقيت بالحجاز بين مكة والمدينة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما ، فسَفَرَتْ لي عن وجه ابنتها ؛ فإذا وجه كأنه قطعة قمر ، وقد أثقلتها بالجواهر واليواقيت وأنواع الدُّر والحلي ، فالتفتت المرأة إليَّ وقالت : والله ؛ ما علَّقته عليها إلا لتفضحه) [3] .

وكما أن جمال السِّلك أن يليَ الواسطةَ الأفضلُ فالأفضلُ من الشَّذْر ، وإن كان علىٰ خلاف ذٰلك كان سيئ النظم . . كذٰلك السلطان ينبغي أن يكون الأقربَ فالأقربَ إليه أهلُ العلم والعقل والأدب ، والرأي والأصالة [4] والشرف ، والحَصافة وذوي الكمال من كل قبيلة ، وإن كان علىٰ خلاف ذٰلك . . كان نقصاً في التدبير .

وكما أن كمال العقد بواسطته . . فكذٰلك كمال الرعية بكمال السلطان وفضله وبراعته وعدله .

---

(١) الشَّذْر : اللؤلؤ الصغار .

(٢) في (ب ، ج ، د ، ز) : (عمرت) .

(٣) رواه في « تاريخ دمشق » (٢٠٨/١٦) ، وأورده في « الأغاني » (٥٩٣٢/١٦) ، وفي النسخ عدا (ب) : (قال ابن صعدة) ، وفي (ب) : (قال أبو صعدة) ، والمثبت من المصدرين .

(٤) في (ب ، ج) : (والإصابة) .

ومَثَلُ السلطان الجائر مَثَلُ الشوكة في الرِّجل ، فصاحبُها تحت ألم وقلق ، ويتداعىٰ لها سائر الجسد ، ولا يزال صاحبها يَرومُ قَلْعَها ، ويستعين بما في ميسوره من الآلات والمَنَاقِش[1] والإبر علىٰ إخراجها ، ولا يقدر علىٰ ذٰلك ؛ لأنها في غير موضعها الطبيعي ، ويوشك أن تقلع بالآخرة[2] .

فأين غُرَر الياقوت من شوك القَتاد ؟!

وروىٰ أبو الزِّناد أن خاتم دانيال عليه السلام كان عليه منقوشاً صورةُ أَسَدين ، وبينهما صورةُ دانيال ، وهما يَلحسانه ؛ لئلا ينسىٰ نعمة الله عليه[3] .

❋ ❋ ❋

---

(١) في (ج ، هـ) : (المناقيش) ، والمناقيش والمَنَاقِش : جمع مِنقاش ؛ وهو آلة تستخرج بها الشوكة .

(٢) في (ب) : (بالأخذة) ، و(ز) : (بالأجرة) .

(٣) رواه في « البداية والنهاية » (٢/٢٠٩) .

الباب الأربعون
فيما يجب على الرعيّة إذا جار السلطان

اعلم أرشدك الله : أنَّ الزمان وعاءٌ لأهله ، ورأس الوعاء أطيب من أسفله ، كما أن رأس الجَرَّة أرقُّ وأصفىٰ من أسفلها .

فلئن قلت : إن الملوك اليوم ليسوا كمن مضىٰ من الملوك . . فاعلم أن الرعية أيضاً ليسوا كمن مضىٰ من الرعية ، ولستَ بأن تَذُمَّ أميرَك إذا نظرتَ آثار من مضىٰ منهم بأولىٰ من أن يَذُمَّك أميرُك إذا نظر آثار من مضىٰ من الرعية ، فإذا جار عليك السلطان . . فعليك الصبر ، وعليه الوِزر .

وروى البخاري عن عبادة بن الصامت قال : (بايَعْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال فيما أخذ علينا : أن بايَعَنا على السمع والطاعة في منشَطنا ومكرَهنا ، وعُسرنا ويُسرنا ، وأَثَرةٍ علينا ، وألا ننازع الأمرَ أهلَه ، إلا أن تروا كفراً بَوَاحاً عندكم من الله فيه برهان) (١) .

ومنه قال ابن عباس : « من كَرِهَ من أميره شيئاً . . فليصبر عليه ؛ فإنه من خَرَجَ من السلطان شبراً . . مات ميتة جاهلية » (٢) .

وفي رواية أخرىٰ : « من فارق الجماعة شبراً فمات . . إلا مات ميتة جاهلية » (٣) .

ومنه قال ابن مسعود : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُمْ

---

(١) صحيح البخاري (٧٠٥٥) ، وأثرة علينا ـ بفتحتين أو بضم فسكون ـ أي : على الصبر إن فُضِل أحدٌ علينا .

(٢) رواه البخاري (٧٠٥٣) ، ومسلم (١٨٤٩/٥٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٣) رواه البخاري (٧٠٥٤) ، ومسلم (١٨٤٩/٥٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُوراً تُنْكِرُونَهَا » ، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « أَدُّوا إِلَيْهِمْ حُقُوقَهُمْ ، وَٱسْأَلُوا ٱللهَ حَقَّكُمْ »(١) .

وروىٰ أبو داوود في « سننه » أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سَيَأْتِيكُمْ رَكْبٌ مُبَغَّضُونَ ، يَطْلُبُونَ مِنْكُمْ مَا لَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا سَأَلُوا ذَٰلِكَ . . فَأَعْطُوهُمْ ، وَلَا تَسُبُّوهُمْ ، وَلْيَدْعُوا لَكُمْ »(٢) .

وهٰذا حديث عظيم الموقع في هٰذا الباب ؛ فندفع إليهم ما طلبوا من الظلم ، ولا ننازعهم فيه ، ونكف ألسنتنا عن سبهم .

❊ ❊ ❊

يا عبد الله ؛ لا تجعل سلاحك علىٰ من ظلمك الدُّعاءَ عليه ، ولٰكن الثقة بالله ؛ فلا محنة فوق محنة إبراهيم عليه السلام لمَّا جعلوه في كِفَّة المَنجنيق ليقذف به في النار . . قال : (اللهم ، إنك تعلم إيماني بك ، وعداوة قومي فيك ؛ فانصرني عليهم ، واكفني كيدهم) .

وقال مالك بن دينار : وجدت في بعض الكتب : يقول الله تعالىٰ : (إني أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ؛ فمن أطاعني . . جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني . . جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك ، ولٰكن توبوا إليَّ . . أُعطِّفهم عليكم)(٣) .

وفي بعض الكتب : (ابن آدم ؛ تدعو علىٰ من ظلمك ويدعو عليك من ظلمته ؛ فإن شئت . . أجبناك وأجبنا عليك ، وإن شئت . . أَخَّرْتُ الأمرَ إلىٰ يوم القيامة ؛ فيسعكم العفو)(٤) .

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٢) ، ومسلم (١٨٤٣) .

(٢) سنن أبي داوود (١٥٨٣) بنحوه عن سيدنا جابر بن عتيك رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٣٠) بلفظ : (فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك) ، وكذٰلك في (ج ، د) ، ورواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٧٢/٦) .

(٤) رواه في « حلية الأولياء » (٢٣٩/٥) .

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام : (لا تجعل ملجأك في الأعداء المكافأة ، ولـٰكن الثقة بالله) .

وروىٰ أبو داوود في « السنن » قال : سُرقت مِلْحفَةٌ لعائشة رضي الله عنها ، فجعلت تدعو علىٰ من أخذها ، فسمعها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « لَا تُسَبِّخِي عَنْهُ »[1] ؛ يعني : لا تخفِّفي عنه ، فنهاها عن الدعاء على الظالم كما ترىٰ .

فإذا قال المظلوم في دعائه على السلطان : اللهم ؛ لا توفقه .. فقد دعا علىٰ نفسه وعلىٰ سائر الرعية ؛ لأنه من قلة توفيقه ظلمك ، ولو كان موفقاً .. ما ظلمك ؛ فإن استجيب دعاؤك فيه .. زاد ظلمه لك .

ومن الألفاظ المروية عن سلف هـٰذه الأمة : قولهم : (لو كانت عندنا دعوةٌ مستجابة .. ما جعلناها إلا في السلطان)[2] .

وروي عن الفضيل أنه قال : (لو ظَفِرْتُ ببيت المال .. لأخذتُ من حلاله وصنعتُ منه أطيبَ الطعام ، ثم دعوت الصالحين وأهل الفضل من الأبرار والأخيار ، فإذا فرغوا .. قلت لهم : تعالَوا ندعو ربنا أن يُوفِّق ملوكَنا وسائر من يلي علينا أمرنا وجُعِل إليه أمرُنا) .

ولـمَّا قَدِمَ معاوية المدينة .. دخل دار عثمان ، فقالت عائشة بنت عثمان : (وَا أبتاه ، فقال معاوية : يا بنة أخي ؛ إن الناس أَعطَوْنا طاعة ، وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حِلْماً تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه ، وهو يرىٰ مكان أنصاره ؛ فإن نكثنا بهم .. نكثوا بنا ، ولا

(١) سنن أبي داوود (١٤٩٧) .
(٢) رواه في « حلية الأولياء » (٩١/٨) من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ .

ندري أعلينا تكون أم لنا ، ولأَنْ تكوني ابنةَ عم أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عُرْض المسلمين)[١] .

وروي أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضَيعةً له ، فاستعدىٰ عليه إلى المنصور ، فقال له : (أصلحك الله ، أذكر لك حاجتي أم أضربُ قبلها مثلاً ؟ فقال : بل اضرب لي قبلها مثلاً ، قال : أصلحك الله ، إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه . . فإنما يفر بالشكوىٰ إلىٰ أمه ؛ إذ لا يعرف غيرها ، وظناً منه أنه لا ناصر له فوقها ، فإذا ترعرع واشتد فأوذي . . كان فراره وشكواه إلىٰ أبيه ؛ لعلمه بأن أباه أقوىٰ من أُمه علىٰ نصرته ، فإذا بلغ وصار رجلاً وحَزَبه أمر . . شكا إلى الوالي ؛ لعلمه بأنه أقوىٰ من أبيه ، فإذا زاد عقله واشتدت شَكيمتُه وأوذي . . شكا إلى السلطان ؛ لعلمه بأنه أقوىٰ ممن سواه ، فإن لم ينصفه السلطان . . شكا إلى الله تعالىٰ ؛ لعلمه بأنه أقوىٰ من السلطان .

وقد نزلت بي نازلة ، وليس فوقك أحد أقوىٰ منك إلا الله عز وجل ، وإن عامِلَك فلاناً غَصَبني ضَيعةً بموضع كذا وكذا ، فإن أنصفتني ، وإلا . . رفعت أمرها إلى الله عز وجل في الموسم ، فإني متوجِّهٌ إلىٰ بيته وحَرَمه ؛ إذ ليس فوقك أحد إلا الله تعالىٰ ، قال : بل ننصفك ، وأمر بأن يكتب إلىٰ واليه بردِّ ضَيعته إليه)[٢] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه في « البيان والتبيين » (٣/٣٠٠) ، وأورده في « عيون الأخبار » (١/١٤) ، وعُرْض المسلمين : عامتهم .
(٢) رواه في « الفوائد والأخبار » (٧) ، وانظر التعليق من « تاريخ دمشق » (٣٢/٣٢٩) .

الباب الحادي والأربعون

في « كما تكونون يُولَّىٰ عليكم »[١]

لم أزل أسمع الناس يقولون : (أعمالُكم عُمَّالُكم ، كما تكونون يُولَّىٰ عليكم)[٢] إلىٰ أن ظَفِرْتُ بهٰذا المعنىٰ في القرآن ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[٣] .

وكان يقال : (ما أنكرتَ من زمانك . . فإنما أفسده عليك عَملُك)[٤] .

وقال عبد الملك بن مروان : (أنصفونا يا معشر الرعية ؛ تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرتهما ؟! نسأل الله أن يُعين كُلّاً علىٰ كلٍّ)[٥] .

وقال قتادة : قالت بنو إسرائيل : إلٰهنا ؛ أنت في السماء ونحن في الأرض ، فكيف نعرف رضاك من غضبك ؟ فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ بعض أنبيائهم : (إذا استعملتُ عليكم خِياركم . . فقد رضيتُ عنكم ، وإذا استعملت عليكم شراركم . . فقد سَخِطت عليكم)[٦] .

---

(١) في (ب ، هـ) : (تكونوا) بدل (تكونون) .
(٢) في (أ ، ب ، هـ) : (تكونوا) ، ولعل الأولىٰ ما أثبتناه ، انظر « الإيضاح في شرح المفصل » لابن الحاجب (٢/٢٢٧) ، و« مغني اللبيب » (٢/٩١٥) ، و« خزانة الأدب » (٨/٤٢٥) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص ٣٢٦) ، وفيه : (تكونون) و« كشف الخفاء » (٢/١٢٦ ـ ١٢٧) ، وفيه : (تكونوا) .
(٣) سورة الأنعام : (١٢٩) .
(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٥١٠) من قول أبي يوسف القاضي رحمه الله تعالىٰ .
(٥) أورده في « البيان والتبيين » (١/٢٦٥) ، و« عيون الأخبار » (١/٩) .
(٦) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٥٧٧) ، وابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٣٢) من قول سيدنا موسىٰ صلى الله عليه وسلم .

وقال عَبِيدةُ[1] السَّلماني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : (يا أمير المؤمنين ؛ ما بالُ أبي بكر وعمر انطاعَ الناسُ لهما ، والدنيا عليهما أضيقُ من شِبر ، فاتسعت عليهما ، ووُلِّيتَ أنتَ وعثمانُ الخلافةَ ولم ينطاعوا لكما ، وقد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر ؟! فقال : لأن رعية أبي بكر وعمر : كانوا مثلي ومثل عثمان ، ورعيتي أنا اليوم : مثلك وشبهك) .

وكتب أخ لمحمد بن يوسف يشكو إليه جَوْرَ العمال ، فكتب إليه محمد بن يوسف : (بلغني كتابك ، تذكر ما أنتم فيه ، وليس ينبغي لمن يعمل بالمعصية أن ينكر العقوبة ، وما أرىٰ ما أنتم فيه إلا من شؤم الذُّنوب)[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) في (و) : (عبيد الله) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٦٩) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢٣٦/٨) .

الباب الثاني والأربعون
في بيان الخصلة التي تصلح بها الرعيّة

اعلم أصلحك الله تعالىٰ : أنَّ أَدعىٰ خِصال السلطان إلىٰ إصلاح الرعية ، وأقواها أثراً في تمسكهم بأديانهم وحفظهم لمروءاتهم . . إصلاحُ السلطان نفسَه ، وتنزهُه عن سَفساف الأخلاق ، وبُعده عن مواضع الريب ، وترفيعُه نفسه عن استصحاب أهل البطالة والمجون ، واللعب واللهو والإعلان بالفسوق .

وقد كانت صُحبةُ محمدٍ الأمينِ لذٰلك الرجلِ الخليع ، والماجن الرقيع ، أبي نُوَاس الشاعر . . وصمةً عظيمةً عليه ، أوهن بها سلطانه ، ووضع عند الخاص والعام قدره ، وأطلق ألسنة الخلق بالشتم والثناء القبيح علىٰ نفسه ، فخلعه بذٰلك أخوه المأمون عن الولاية ، ووجه طاهرَ بن الحسين لمحاربته ببغداد ، وحاربه حتىٰ قتله ، وأنفذ برأسه إلى المأمون .

وكان يعمل كتباً تقرأ على المنابر من خراسان ، ويقف الرجل فيذم أهل العراق فيقول : أهل العراق أهل فسوق وخمور وماخُور ، ويعيب الأمينَ بذٰلك فيقول : استصحبَ أبا نُواس رجلاً شاعراً ، ماجناً كافراً ، استخلصه معه لشرب الخمور ، وارتكاب المآثم ، ونيل المحارم ، وهو القائل [١] : [من الطويل]

أَلَا فَٱسْقِنِي خَمْراً وَقُلْ لِي هِيَ ٱلْخَمْرُ ... وَلَا تَسْقِنِي سِرّاً إِذَا أَمْكَنَ ٱلْجَهْرُ

وَبُحْ بِٱسْمِ مَنْ تَهْوَىٰ وَدَعْنِي مِنَ ٱلْكُنَىٰ ... فَلَا خَيْرَ فِي ٱللَّذَّاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ

حتىٰ تغيرت عليه نفوس الخلق ، وتنكرت له وجوه الورىٰ ، فلما بلغ ذٰلك الأمينَ . . حبسه ، ثم أطلقه بعد أن أخذ عليه ألا يشرب خمراً ، ولا يقول فيه شعراً .

(١) البيتان في « ديوانه » (٣/١٢٦ ـ ١٢٧) .

فمتىٰ أراد السلطان إصلاح رعيته ، وهو مُتمادٍ علىٰ سيئ أخلاقه .. كان كمن أراد بقاء الجسد مع فقد رأسه ، أو أراد استقامة الجسد مع عدم حياته ، وكمن أراد تقويم الضلع مع اعوجاج الشخص ، وكيف يحيا النُّون مع فساد الماء ؟!

ولقد أصاب الخليلُ في قوله : (أصلح نفسك لنفسك .. يكن الناس تبعاً لك)[١] .

وقديماً قيل : (من أصلحَ نفسه .. أرغم أنف أعاديه ، ومن أعملَ جِدَّه .. بلغ كُنْهَ أمانيه)[٢] .

وسئل بعض الحكماء : (بم ينتقم الإنسان من عدوه ؟ فقال : بإصلاح نفسه)[٣] .

ولأبي الفتح البستي[٤] : [من البسيط]

إِذَا غَـدَا مَلِـكٌ بِٱللَّهْـوِ مُشْـتَغِلاً ... فَٱحْكُمْ عَلَىٰ مُلْكِهِ بِٱلْوَيْلِ وَٱلْحَرَبِ

أَمَا تَرَى ٱلشَّمْسَ فِي ٱلْمِيزَانِ هَابِطَةً ... لَمَّـا غَـدَا وَهْوَ بُـرْجُ ٱللَّهْـوِ وَٱلطَّرَبِ

* * *

وصحبةُ الأشرار تورث الشر ؛ كالريح إذا مرت على النَّتْن .. حملت نَتْناً ، وإذا مرت على الطِّيب .. حملتْ طِيباً ، فمُحال استصلاح رعيتك وأنت فاسد ، وإرشادهم وأنت غاو ، وهدايتهم وأنت ضال .

وقد سبق المثل : (ومن العجائب : أعمشُ كَحَّالٌ)[٥] .

---

(١) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٥٨٤) دون نسبة .

(٢) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٥٨٤) .

(٣) أورده بنحوه في « ربيع الأبرار » (٥٨٢/٢) ، وفيه : (وقيل لأفلاطون) بدل (وسئل بعض الحكماء) .

(٤) البيتان في « ديوانه » (ص ٤٩) ، والحَرَب : الهلاك .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٨٢) ، و« مجمع الأمثال » (٤٢٧/٣) .

وتقول العرب : (يا طبيبُ ؛ طِبَّ لنفسك)[١] .

وكيف يقدِرُ الأعمىٰ علىٰ أن يَهدي ، أو الفقير علىٰ أن يُغني ، أو الذليل علىٰ أن يُعِز ؟! فبُعدُك عن تطهير غيرك من العيوب قبل تطهير نفسك . . كبعد الطبيب من إبراء غيره من داءٍ به مثله .

وقال بعض حكماء الهند : (لن يبلغ ألفُ رجل في إصلاح رجلٍ واحدٍ بحسنِ القولِ دون حسن الفعل . . ما يبلغُ رجلٌ واحد في إصلاح ألف رجل بحسن الفعلِ دون القول) .

وفيه قال القائل[٢] : [من الكامل]

يَـا أَيُّهَـا ٱلرَّجُـلُ ٱلْمُعَلِّـمُ غَيْـرَهُ ... هَـلَّا لِنَفْسِـكَ كَانَ ذَا ٱلتَّعْلِيـمُ
تَصِفُ ٱلدَّوَاءَ لِذِي ٱلسَّقَامِ مِنَ ٱلضَّنَا ... كَيْمَـا يَصِـحَّ بِـهِ وَأَنْـتَ سَـقِيمُ
مَـا زِلْـتَ تُلْقِـحُ بِٱلرَّشَـادِ عُقُولَنَـا ... صِفَـةً وَأَنْـتَ مِـنَ ٱلرَّشَـادِ عَدِيـمُ
فَٱبْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَٱنْهَهَـا عَـنْ غَيِّهَـا ... فَـإِذَا ٱنْتَهَـتْ عَنْـهُ فَأَنْـتَ حَكِيـمُ
فَهُنَـاكَ يُقْبَـلُ مَـا تَقُـولُ وَيُقْتَـدَىٰ ... بِٱلـرَّأْيِ مِنْـكَ وَيَنْفَـعُ ٱلتَّعْلِيـمُ
لَا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَأْتِـيَ مِثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِيـمُ

* * *

ولٰكن أقوى الأسباب في صلاحهم عند فوت صلاحه : استعماله عليهم الخاصة منهم ، وذوي الأحلام الراجحة ، والمروءات القائمة ، والأذيال الطاهرة[٣] ؛ فمتىٰ رَأَسَ العامةَ سَرَاتُهم . . فهو الطريق إلىٰ حفظ أديانهم

(١) أورده في « الأمثال » (ص ٢٠٧) ، و« العقد الفريد » (٣/١١٠) .
(٢) الأبيات للمتوكل الليثي في « ديوانه » (ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤) ، والثلاثة الأخيرة لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص ٤٠٤) .
(٣) في (د) : (والأديان الظاهرة) .

ومروءاتهم[1] ، وتماسكهم عن الانهماك في المحذورات ، وملابسة المحرمات .

وقد قال الشاعر[2] : [من البسيط]

لَا يَصْلُحُ ٱلنَّاسُ فَوْضَىٰ لَا سَرَاةَ لَهُمْ ... وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

وقال مَزْدك الفارسي : (خَلَّتان في السلطان أقربُ إلىٰ صلاح الرعية من سواهما : ثقة الرأي ، وشدة الرحمة) .

وما أحق السلطانَ أن يسلك بالرعية كل سبيل يصلحون عليه ، ويسودون معه ! فحينئذ يكون رئيسَ الرؤساء ، وأميراً على السادة والفضلاء ، وإنْ أهملَهم وركوبَ شهواتِهم وتوسطَ لذاتهم . . ذهبت أديانهم ، وسقطت مروءاتهم ، وبقوا كما جاء المثل في الجماعة المذمومة بقول العرب في القوم الذين لا رؤساء فيهم ولا سراة بينهم : (هم سَواسِيةٌ كأسنان الحمار)[3] ، وتقول : (سَواسِيةٌ كأسنان المُشط)[4] .

وفيهم يقول الشاعر[5] : [من الطويل]

سَوَاسٍ كَأَسْنَانِ ٱلْحِمَارِ فَلَا تَرَىٰ ... لِذِي شَيْبَةٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ نَاشِئٍ فَضْلَا

* * *

ولأَنْ يكونَ أميراً على الفضلاء والرؤساء . . خيرٌ من أن يكون أميراً على الأخسَّاء والرمادة والغَاغة والدُّناة[6] .

وقد قال عبد الملك بن مروان يوماً وقد استقام له الأمر : (من يَعذِرُني من عبد الله بن عمر ؛ فإنه أبىٰ أن يدخل في سلطاني ؟ فقال بعض جلسائه :

---

(١) سَراتهم : رؤساؤهم .

(٢) تقدم البيت وتخريجه في (ص ٢١٣) .

(٣) أورده في « الأمثال » (ص ١٣٢) ، و« مجمع الأمثال » (١٢٥/٢) .

(٤) أورده في « الأمثال » (ص ١٣٢) ، و« مجمع الأمثال » (١٢٥/٢) .

(٥) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي في « ديوانه » (ص ١٣٢) ، ولكثير عزة في « ديوانه » (ص ٣٨٤) .

(٦) الغاغة : الغوغاء .

تستحضره وتضرب عنقه وتستريح منه ، فقال عبد الملك : ويلك ! إذا قتلتُ ابنَ عمر .. فعلىٰ من أكون أميراً ؟!) .

ولمَّا صار داوود إلى الحجاز في الدولة العباسية ليقتلَ مَنْ هناك من بني أمية .. قال له عبد الله بن الحسن : (يا بن عم ؛ إذا أسرعت في قتل أَكْفَائِك .. فمن تُباهي بسلطانك ؟! اعف .. يعف الله عنك ، فعفا)(١) .

وقال أرِسطاطاليس للإسكندر : (استصلحِ الرعيةَ وأذهبْ شرَّهم .. تكن رئيساً لأخيار ممدوحين ، ولا تكن رئيساً لأشرار مذمومين فتكونَ كراعي البقر)(٢) .

ولما استولىٰ تُبَّع علىٰ مَلك الهند بغا .. قال له : (قد وهبتك لقومك ووهبتهم لك ، فأنزلهم منازلهم وبلغهم مراتبهم ؛ فكل أُمَّةٍ لم تبلغ مراتبها .. [دغلت](٣) صدورُها ، [وغلت قلوبها ، فاستحقت فتكها](٤) وهان عليه أعمارُها ، وملك أمورَها شرارُها ، وأنت أعلم بهم .

فمن أطناب المملكة وقواعدها : ألا تسلب رئيساً رياسته ، ويبقىٰ علىٰ كل ذي عز عزه ، ويترك كل ذي منزلة منزلته ، ورتبَة في مرتبته ؛ فحينئذ تأمن توثُّب الأعداء التي هي نتائج الضغائن والأحقاد)(٥) .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢/١٨٨) ، وفيه : (عبد الله) بدل (داوود) ، و« التذكرة الحمدونية » (٢/٤٠) من دون قوله : (اعف . . .) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٤٩) .

(٣) في (و) : (ذغلت) ، والدَّغَل : الفساد .

(٤) في (و) : (ووعت قلوبها فاستخفت ، فبكىٰ) .

(٥) الخبر زيادة من (و) .

الباب الثالث والأربعون
فيما يملك السلطان من الرعية

كتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر : (اِملِك الرعية بالإحسان . . تظفرْ منهم بالمحبة ؛ فإنَّ طلب ذٰلك منهم بالإحسان هو أدومُ بقاءً منه بالاعتساف)(١) .

واعلم : أنك إنما تملك الأبدانَ بالقهر ، والقلوبَ بالإحسان ، فإذا ملكتَ القلوبَ بالإحسان . . انقادت لك الأبدانُ ، فتخطَّها إلى القلوب بالمعروف .

واعلم : أنه إذا عدل السلطان . . ملك قلوب الرعية ، وإذا جار . . لم يملك منهم إلا الرياء والتصنع .

وفي سير الفُرس : (قلوبُ الرعية خزائنُ ملوكها ؛ فما أَودَعُوها من شيء . . فليعلموا أنه فيها)(٢) .

واعلم : أن الرعية إذا قَدَرَتْ علىٰ أن تقول . . قَدَرَتْ علىٰ أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول . . تسلم من أن تفعل .

وليس هـٰذا خلافَ ما روي عن معاوية أن رجلاً أغلظ له فحَلُم عنه ، فقيل له : أتحلم عن مثل هـٰذا ؟! فقال : (إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا)(٣) .

وذٰلك أن تفسير قوله : (فاجتهد ألا تقول) : يعني : إذا عدلت . . لم يتكلموا بشيء .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/٨) ، و« العقد الفريد » (١/٢٤ ـ ٢٥) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٠) ، و« بهجة المجالس » (١/٣٣٧) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/٩) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « حلم معاوية » (٢٧) .

وهـٰذه السيرة أحسن من سيرة أردشير لمَّا رُفِعَ إليه أن جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم فوقَّع : (نحن ـ معاشرَ الملوك ـ إنما نملك الأجساد لا النيات ، ونحكم بالعدل لا بالرضا ، ونفحص عن الأعمال لا عن السرائر)(١) .

قلت : وإنما تحسن هـٰذه السيرة لمن عَجَز عن الأولىٰ ؛ لأن ملك الأجساد قد يكون بالعدل والظلم ، وملك القلوب لا يكون إلا بالعدل ، وأين هـٰذا من قوله وقد رُفع إليه : إنك ركبت أمس في عدة قليلة ، وتلك حالة لا يؤمن اغتيال الأعداء فيها ، فوقَّع : (من عمَّ إحسانه . . أَمِنَ أعداءه) ؟!

وما أحسن ما قال عبد الملك بن مروان : (يا أهل الشام ؛ إنما أنا لكم كالظَّليم الرائح علىٰ فراخه ؛ ينفي عنهم القذر ، ويباعد عنهم الحجر ، ويُكنهم من المطر ، ويحميهم من الضِّباب ، ويحرسهم من الذئاب .

يا أهل الشام ؛ أنتم الجُنَّة والرداء ، وأنتم العُدَّة والحِذاء !)(٢) .

وقالت العجم : (أَسْوَسُ الملوك : من قاد أبدان الرعية إلىٰ طاعته بقلوبها)(٣) .

* * *

ولا ينبغي للوالي : أن يرغب في الكرامة التي ينالها من العامة كرهاً ، ولـٰكن في التي يستحقها بحسن الأثر وصواب التدبير .

وقال عمر بن عبد العزيز : (إني لأُجْمِعُ أن أُخرِجَ للمسلمين أمراً من العدل ، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم ، فأُخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فإن نفرت القلوب من هـٰذا . . سكنت إلىٰ هـٰذا)(٤) .

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢٥/١) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١٤٠/٢) ، و« عيون الأخبار » (١٠/١) من قول الحجاج .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٨/١) ، و« العقد الفريد » (٢٥/١) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٩/١) .

وقال معاويةُ لزياد : (مَنْ أَسْوَسُ الناس ؛ أنا أو أنت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما جعل الله رجلاً حفظ الناس بسيفه كمن سمع الناس ، وأطاعوا له باللين)[١] .

ويروىٰ أن سُليماً مولىٰ زياد فَخَرَ بزياد عند معاوية ، فقال معاوية : (اسكت ، ما أدركَ صاحبُك بسيفه . . إلا أدركتُ أكثرَ منه بلساني)[٢] .

* * *

(١) أورده بنحوه العسكري في « الأوائل » (٤٢/٢) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٢٥٩/١) ، و« عيون الأخبار » (١٠/١) .

الباب الرّابع والأربعون
في التحذير من صحبة السّلطان

اتفقت حكماء العرب والعجم ووصاياهم على النهي عن صحبة السلطان .

قال في كتاب « كليلة ودمنة » : (ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل : صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم على التجربة)(١) .

وكان يقال : (قد خاطر بنفسه من رَكِبَ البحر ، وأعظمُ منه خطراً : صحبةُ السلطان)(٢) .

وقال مزدك : (أحقُّ الأمور بالتثبت فيها : أمرُ السلطان ؛ فإنه من صَحِبَ السلطان بغير عقل . . فقد لبس شعار الغرور)(٣) .

وفي حكم الهند أيضاً : (صحبةُ السلطان على ما فيها من العِزِّ والثروة عظيمةُ الخطر ، وإنما تُشبَّه بالجبل الوعر ؛ فيه الثمار الطيبة ، والسباع العادية ، والثعابين المهلكة ؛ فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد .

وليس يتكافأ خيرُ السلطان وشرُّه ؛ لأن خير السلطان لا يعدو مزيد الحال ، وشرَّ السلطان قد يزيل الحال ، ويُتلف النفس التي لها طُلِب المزيد ، ولا خير في الشيء الذي سلامتُه مالٌ وجاه ، وفي نكبته الجائحةُ والتَّلَف)(٤) .

---

(١) كليلة ودمنة (ص ١١٠) .

(٢) أورده بنحوه في « الإعجاز والإيجاز » (ص ١٠٣) من قول أبي سلمة الخلّال وزيرِ السفّاح .

(٣) أورده في « المستطرف » (٢٩٢/١) عن بعض الحكماء .

(٤) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١٩/١) ، ورواه القالي في « الأمالي » (١٢١/٢) .

ولهٰذا لمَّا قيل للعَتَّابي : (لِمَ لا تصحب السلطان علىٰ ما فيك من الأدب ؟ قال : لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء ، ويردي من السور في غير شيء ، ولا أدري أيَّ الرجلين أكون)(١) .

وأخبرني أبو العباس الحجازي ـ وكان ممن دوَّخَ أرض الهند والصين ، وانتهىٰ إلىٰ صين الصين ـ أنَّ جبل الياقوت بالهند ، وأن فيه ثعابين ، ليس في معمور الأرض أعظم منها ، وإن الواحد منها ليبتلع الثور صحيحاً ، فلا يصل أحد إلىٰ ذٰلك الجبل ولا يقربه ، فإذا كثرت الأمطار . . أحدرت السيولُ منه الحصىٰ وسائرَ ما فيه من المنافع إلىٰ مستقَرِّ المياه علىٰ مسيرة أيام من الجبل ، فيبحث الناس ذٰلك الحصىٰ ، فيوجد فيه الواحدة بعد الواحدة من أحجار الياقوت .

وقال معاوية لرجل من قريش : (إياك والسلطان ؛ فإنه يغضب غضب الصبي ، ويرضىٰ رضا الصبي ، ويبطِش بطش الأسد)(٢) .

وقال المأمون : (لو كنت رجلاً من العامة . . ما صحبت السلطان) .

وقال الأحنف بن قيس : (ثلاثة لا أقولهن إلا ليُعتبَر بهنَّ : لا أَخلُف جليسي إلا بما أَحضُره به ، ولا أَدخُل في أمر لا أُدخَل فيه ، ولا آتي السلطان إلا أن يُرسل إلي)(٣) .

وقال ابن المقفع لابنه : (إن وجدت من السلطانِ وصحبتِه غنىً . . فأغنِ عنه نفسَك ، واعتزله جَهْدَك ؛ فإنه من يأخذه السلطان بحقه . . يَحُلْ بينه وبين لذة الدنيا ، ومن لا يأخذه بحقه . . يُكسِبْه الفضيحةَ في الدنيا والوِزرَ في الآخرة)(٤) .

---

(١) أورده بنحوه في « بهجة المجالس » (٣٤٨/١) ، و« محاضرات الأدباء » (٣٨٩/١) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢٨٣/١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٠٣) ، والمقول له : أبو الجهم العدوي .

(٣) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٠٨١) .

(٤) الدرة اليتيمة (ص ٩٠) .

وقال ميمون بن مهران : قال لي عمر بن عبد العزيز : (يا ميمون ؛ احفظ عني أربعاً : لا تصحبن سلطاناً وإنْ أمرتَه بالمعروف ونهيتَه عن المنكر ، ولا تخلون بامرأة وإن أقرأتها القرآن ، ولا تَصِلْ من قطع رحمه ؛ فإنه لك أقطع ، ولا تتكلمن بكلام اليوم تعتذر منه غداً)(١) .

وفي منثور الحكم : (كثرة الأشغال مذهلة عن وجود اللذات بكنهها)(٢) .

وكم قد رأينا وبلَغنا ممَّن صَحِبَ السلطانَ من أهل الفضل والعقل والعلم والدين لِيُصلِحَه ففسد هو به ، فكان كما قال الأول(٣) : [من الكامل]

عَـدْوَى ٱلْبَلِيدِ إِلَـى ٱلْجَلِيدِ سَـرِيعَةٌ وَٱلْجَمْـرُ يُوضَـعُ فِي ٱلرَّمَـادِ فَيَخْمُدُ

ومَثَلُ من يصحب السلطان لِيُصلِحَه : مَثَلُ من ذهب ليقيم حائطاً مائلاً ، فاعتمد عليه ليقيمه ، فخَرَّ الحائط عليه فأهلكه .

وفي كتاب « كليلة ودمنة » : (لا يَسعد من ابتُلِيَ بصحبة الملوك ؛ فإنهم لا عهد لهم ولا وفاء ، ولا قريب ولا حميم ، ولا يَكرُمُ عليهم إلا أن يطمعوا فيما عنده فيقربوه عند ذٰلك ، فإذا قَضَوْا حاجتهم .. تركوه ولا وُدَّ ولا إخاء ، إلا البلاء يجزئ والذنب لا يغفر له)(٤) .

وقال بُزُرْجُمِهْر : (لا تصلح صحبة السلطان إلا بالطاعة والبذل ، ولا مواخاة الإخوان إلا باللين والمواساة) .

وقال بعض حكماء الفرس : (المال والسلطان مفسدان لكل أحد ، إلا لرجل له عقل كامل) .

---

(١) رواه ابن الجوزي في « سيرة عمر بن عبد العزيز » (ص ٢٥٩) ، وأورده ابن منظور في « مختصر تاريخ دمشق » (١٤٢/٢٧) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٤٥٠) من قول أفلاطون .

(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ١٧٥) ، و« بهجة المجالس » (٧٠٥/١) لأبي بكر الخوارزمي .

(٤) كليلة ودمنة (٢٧٢) بنحوه .

وقالت الحكماء : (صاحب السلطان كراكب الأسد ؛ يخافه الناس وهو لمركبه أخوف)[١] .

وقالوا : (من لزم باب السلطان بصبر جميل ، وكظم الغيظ ، واطِّراح الأذىٰ . . وصل إلىٰ حاجته)[٢] ، كالكرم لا يتعلق بأرفع الشجر ، لٰكن بأدناها منه .

وكانت العرب تقول : (إن لم تكن من قرباء الملك . . فكن من بعدائه)[٣] .

وفي حكم الهند : (إنما مثل السلطان في قلة وفائه لأصحابه وسخاءِ نفسه عمن فقده منهم . . مثلُ البَغِيِّ والمُكتِّب ؛ كلما ذهب واحد . . جاء آخر)[٤] .

والعرب تقول : (السلطان ذو عَدَوَان ، وذو بَدَوان ، وذو تُدْرَأٍ)[٥] ، تريد : أنه سريعُ الانصراف ، كثيرُ البَدَوات ، هَجُومٌ على الأمور ، وأصله : من الدَّرء ؛ وهو : الدفع .

* * *

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٢١/١) من قول ابن المقفع ، و« ثمار القلوب » (٥٧٢/١) دون نسبة .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١٩/١) ، و« محاضرات الأدباء » (٣٩٦/١) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٢٠/١) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٢٥/١) .

(٥) أورده ابن قتيبة في « غريب الحديث » (٣٦٢/٢) ، و« عيون الأخبار » (٢٥/١) .

الباب الخامس والأربعون
في صحبة السلطان

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (قال لي أبي : يا بُني ؛ إني أرىٰ أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإني أوصيك بخلال ثلاث : لا تفشين له سراً ، ولا يجرِّبنَّ عليك كذباً ، ولا تغتابنَّ عنده أحداً .

قال الشعبي : قلت لابن عباس : كل واحدة منهن خير من ألف ، قال : إي والله ، ومن عشرة آلاف)[١] .

وقالوا : (صحبة السلطان بالحذر ، والصديقِ بالتواضع ، والعدو بالجهد[٢] ، والعامة بالبشر ، ولا تحكم لأحد بحسن رأي الملك إلا بحسن أثره)[٣] .

وقال بعض الحكماء : (لا تستطلع السلطان ما كتمك ، ولا تفش ما أطلعك عليه ، ومن أدلَّ على السلطان . . استثقله[٤] ، ومن امتنَّ عليه . . عاداه ، ومن أظهر أنه مستشيره . . باعده) .

وقال بعض الحكماء : (إذا زادك السلطان تأنيساً . . فزده إجلالاً ، وإذا جعلك السلطان أخاً . . فاجعله أباً ، وإن زادك إحساناً . . فزده فعل العبد مع سيده ، وإن ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس ، فأخذوا في الثناء عليه . . فعليك بالدعاء له ، وإن نزلتَ منه منزلة الثقة . . فاعزِل عنه كلام المَلَق ، ولا

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٦٥/١٠) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١٩/١) .
(٢) في (أ ، ج) : (بالجهل) .
(٣) أورده بنحوه في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٨٠) من قول حميد بن الصَّيمري لابنه .
(٤) أدلَّ : انبسطَ واجترأ .

تكثر في الدعاء له عند كل كلمة ؛ فإن ذٰلك شبيه بالوحشة والغربة ، إلا أن تكلمه علىٰ رؤوس الناس فلا تأل في تعظيمه وتكريمه)[١] .

وقال ابن المقفع : (لتكن حاجتك في سلطانك ثلاث خلال : رضا ربك ، ورضا سلطانك ، ورضا من تلي عليه ، ولا عليك أن تلهو عن المال والذِّكر ؛ فسيأتيك منهما ما يكفي ويطيب)[٢] .

وقال مسلم بن عمرو لمن خدم السلطان : (لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ، ولا تتغير إذا أقصاك)[٣] .

وروي أن بعض الملوك استصحب حكيماً ، فقال له : (أصحبُك علىٰ ثلاث خِلال ، قال : وما هي ؟ قال : لا تهتِك لي ستراً ، ولا تشتِم لي عرضاً ، ولا تقبل فيَّ قول قائل حتىٰ تستشيرني ، قال : هٰذا لك ، فما لي عندك ؟ قال : لا أُفشي لك سراً ، ولا أَدَّخر عنك نصيحة ، ولا أُوثر عليك أحداً ، قال : نِعمَ الصاحبُ المُستَصحبُ أنت)[٤] .

وقيل لعبد الله بن جعفر : (ما الخُرْق ؟ قال : الدَّالَّة على السلطان ، والوثبة قبل الإمكان)[٥] .

وقال ابن المقفع : (أولى الناس بالهَلَكةِ الفاحشةِ[٦] : المُقدِمُ على السلطان بالدَّالَّة) .

وقال يحيى بن خالد : (الدَّالَّة : تفسد الحرمة القديمة ، وتضر بالمحبة المتأكدة)[٧] .

---

(١) أورده في « المستطرف » (١/٢٩٠) من دون قوله : (إلا أن تكلمه . . .) ، وانظر « التذكرة الحمدونية » (١/٣٣٣) .

(٢) الدرة اليتيمة (ص ٦٨) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٩) .

(٤) أورده في « إعتاب الكتاب » (ص ٢٤٦) من قول علي بن زيد الكاتب .

(٥) أورده في « أنساب الأشراف » (١٠/٥٠) ، والدَّالَّة : التدلل والانبساط والجرأة .

(٦) في (و) : (الفاحش) .

(٧) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (١/٣٩٢) دون نسبة .

وقال بُزْرُجُمِهْر : (إذا خدمت ملكاً من الملوك . . فلا تطعه في معصية خالقك ؛ فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك ، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه)[١] .

اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار ؛ لأنهم إنما احتجبوا عن الناس ؛ لقيام الهيبة ، فلا تترك الهيبة وإن طال أُنسك بهم ، فهو حسبهم منك .

ولا تعط السلطان مجهودك في أول صحبتك له ، فلا تجد بعدُ موضعاً للمزيد ، ولـٰكن دع للمزيد موضعاً .

علِّم السلطان وكأنك تتعلم منه ، وأَشِرْ عليه وكأنك تستشيره .

إذا أحلَّكَ السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويثق بك . . فإياك والدخولَ بينه وبين بطانته ؛ فإنك لا تدري متىٰ يتغير لك فيكونون عوناً عليك ، إياك أن تعادي من إذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه . . فعل .

وفي الأمثال القديمة : (احذر زَمَّارةَ المِخدَّة)[٢] .

وفيه قيل[٣] : [من البسيط]

لَيسَ ٱلشَّـفِيعُ ٱلَّـذي يَأْتِيـكَ مُؤْتَزِراً ... مِثْـلَ ٱلشَّـفِيعِ ٱلَّـذِي يَأْتِيـكَ عُرْيَانَا

وفي الأمثال : (لا تُدِلَّ فتُمَل ، ولا تُوجِف فتُعجَف) .

وقال الرشيد لإسماعيل بن صبيح : (إياك والدَّالَّةَ ؛ فإنها تفسد الحرمة)[٤] .

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام : (لا تغشَ السلطان ، ولا تقعد عنه)[٥] .

---

(١) أورده في « المستطرف » (١/٢٩١) .
(٢) أورده في « المستطرف » (١/٢٩١) .
(٣) البيت للفرزدق في « ديوانه » (٨٧٣) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٩) ، و« زهر الآداب » (١/٢١٤) .
(٥) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٣٣) .

وقال الحكماء : (شدةُ الانقباض عن السلطان تورث التُّهَمة ، وشدةُ الانبساط تفتحُ باب المَلالة)[1] .

٭ ٭ ٭

واعلم : أن من طلب العز بلا ذل كانت ثمرة سعيه الذل .

أحرز منزلتك عند السلطان بمثل ما اكتسبتها من الجد والمناصحة ، واحذر أن يَحُطَّك التهاون عما رَقَّاك إليه التحفظ .

أشقى الناس بالسلطان : صاحبه ، كما أن أقرب الأشياء إلى النار : أسرعها احتراقاً .

من لزم باب السلطان بصبر جميل ، وكظم الغيظ ، واطِّراح الأذىٰ . . وصل إلىٰ حاجته .

وقال الأحنف بن قيس : (لا تنقبضوا عن السلطان ولا تهالكوا عليه ؛ فإنه مَنْ أشرف إلى السلطان . . أرداه ، ومن تضرَّع له . . تخطَّاه)[2] .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : (ثلاثة من عاداهم . . عادت عزتُه ذلة : السلطان ، والوالد ، والغريم)[3] .

٭ ٭ ٭

واعلم : أنه إنما يستطيع صحبة السلطان أحد رجلين : إما فاجر مصانع ، ينال حاجته بفجوره ، ويسلم بمصانعته ، وإما : مغفل مَهين ، لا يحسده أحد .

فأما من أراد أن يصحب السلطان بالصدق والنصيحة والعفاف . . فقلما تستقيم له صحبتهم ؛ لأنه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد ؛ أما الصديق . . فينافسه في منزلته ، فيطعن عليه ؛ لنصيحته له ،

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٥١/١٩) .
(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (٣٩١/١) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٢٥٧/١) دون نسبة ، و« البصائر والذخائر » (١٣٣/٦) .

فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان .. كان قد تعرض للهلاك .

وقال بعض الحكماء : (من شارك السلطان في عز الدنيا .. شاركه في ذل الآخرة)[1] .

لا يُوحشك من السلطان إكرامُ الأشرار ؛ فإن ذلك للضرورة إليهم ، كما يضطر الملك إلى الحَجَّام ، فيشرِطُ قَفَاهُ ويُخرجُ دَمَه .

وفي الأمثال : (لا حِلم لمن لا سفيه له)[2] .

وكان ابن عمر إذا سافر إلىٰ مكة .. استصحب معه رجلاً فيه ما فيه ، يستدفعُ به شرَّ السفهاءِ وأهلِ الوَغادة والدَّعارة[3] .

وقال المعتصم : (إن للسلطان لَسكرات ؛ فمنها : الرضا عمَّن استوجبَ السُّخط ، والسُّخطُ علىٰ من استوجبَ الرضا)[4] .

ومنه قول الحكماء : (خاطرَ مَن لجَّ في البحر ، وأعظمُ منه خطراً : من صَحِبَ السلطان)[5] .

وقال ابن المقفع لابنه : (لا تَعُدَّنَّ شتمَ السلطان شتماً ، ولا إغلاظه إغلاظاً ؛ فإن ريح العزة تبسطه في غير بأس ولا سُخط)[6] .

وقال ساميد أحد حكماء الفرس : (أربعة أشياء ينبغي أن تفسر للفهيم كما تفسر للبليد ، ولا يتكل فيها علىٰ ذكاء أحد : تأويل الدين ، وأخلاط الأدوية ، وصفة الطريق المخوف ، والرأي في السلطان) .

---

(١) أورده في « المحاسن والمساوئ » (ص ٣٩٦) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٢) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٩٥/١) من قول أكثم بن صيفي رحمه الله تعالىٰ ، وفي (٢٨٠/٢) من قول الأحنف بن قيس رحمه الله تعالىٰ .

(٣) تقدم (ص ٣١١) .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣٠٥/١) من قول سهل بن هارون .

(٥) تقدم (ص ٤١٦) .

(٦) الدرة اليتيمة (ص ٨٢) بنحوه .

واعلم : أن السلطان إذا انقطع منك الآخر[1] . . نسي الأول ، فأرحامهم مقطوعة ، وحبالهم مصرومة ، إلا من رضوا عنه في وقتهم وساعتهم .

وإذا رأيت من الوالي خلالاً لا تنبغي . . فلا تُكابده علىٰ رَدِّها ؛ فإنها رياضة صعبة ، لٰكن أحسن مساعدته علىٰ أحسن رأيه ، فإذا استحكمت منه ناحية من الصواب . . كان ذٰلك الصواب هو الذي يبصره الخطايا اللطيفة أكثر من تبصيرك والعدلَ من حكمتك ؛ فإن الصواب يدعو بعضه إلىٰ بعض ، فإذا تمكن . . اقتلع الخطأ .

ولا تطلب ما قِبَلَ الوالي بالمسألة ، ولا تستبطئه وإن أبطأ ، ولٰكن اطلب ما قِبَلَه بالاستحقاق والاستيناء[2] ؛ فإنك إذا استحققته . . أتاك من غير طلب ، وإذا لم تستبطئه . . كان أعجل له .

وقال يحيى بن خالد : (إذا صحبت السلطان . . فدارِه مداراة المرأة العاقلة القبيحة للزوج الأحمق المبغض)[3] .

وقال يحيى بن خالد لبعض إخوانه : (تنكَّرَ لي هارون الرشيد ، فقال له : ارض بقليله من كثيره ، وإياك أن تسخط فيكون أسخطَ منك) .

❋ ❋ ❋

---

(١) في (د) : (الأخير) .

(٢) الاستيناء : الترفق .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/٣٨٣) ، وفيه : (. . . الأحمق المبغض لها ؛ فإنها لا تدع التصنع له في كل حال) .

الباب السّادس والأربعون
في سيرة السلطان مع الجند

اعلم : أن الجند عُدَدُ الملك ، وحصونُه ومعاقله وأوتاده ، وهم حماة البَيْضة ، والذَّابُّون عن الحرمة ، والدافعون عن العورة ، وهم جُنَن[(١)] الثغور ، وحراس الأبواب ، والعُدَّة للحوادث ، وأمداد المسلمين[(٢)] ، والجسد الذي يلقى العدو ، والسهم الذي يرمىٰ به ، والسلاح المدفوع في نحره .

فبهم يُذَبُّ عن الحريم ، وتؤمن السبل ، وتسد الثغور ، وهم عز الأرض ، وحماة الثغور ، والذادة عن الحريم ، والشوكة على العدو .

وعلى الجند : الجِد عند اللقاء ، والصبر عند البلاء ؛ فإن كانت لهم الغلبة . . فليمعنوا في الطلب ، وإن تكن عليهم . . فليكسروا الأعنة ، وليجمعوا الأسنة ، وليذكروا أخبار غد .

وليعلموا : أنَّ خيرَ الجند أشدُّهم بأساً وأنفذهم في الطاعة بصائر ، والجندُ ـ وإن عظم سوادهم ، وكثر عددهم ، وكملت عدتهم ـ لا يبلغون في نكاية العدو مبلغاً كبيراً موقعه إلا بمحض النصيحة ، وحسن المصاحبة ، و[ملبس] الطاعة ، وصدق البأس .

وعلى الجنود : توطين النفوس علىٰ إيثار الموت دون احتمال العار ، واطراح الجبن عند اللقاء ، مع إحضار اليقين ؛ فإن أحداً لا يموت قبل استيفاء رزقه ، ومن لم يتحقق ذٰلك . . فقد نبذ الدين وراء ظهره[(٣)] .

---

(١) في (د) : (حِرْز) ، وجُنن : جمع جُنَّة ؛ وهي السُّترة ، وكل ما وقىٰ من سلاح وغيره .
(٢) أمداد : جمع مَدَد ؛ وهي العساكر التي تلحق بالمغازي في سبيل الله .
(٣) من قوله : (وليعلموا) إلىٰ هنا زيادة من (و) ، وفيها كلمة غير مقروءة ، ولعلها أقرب ما تكون إلىٰ ←

وينبغي للملك : أن يتفقد جنوده كتفقُّدِ صاحبِ البستان بستانَه ، فيقلع العشب الذي لا ينفعه ؛ فمن العشب ما لا ينفع ، ومع ذٰلك يضر بالنبات النافع ، فهو بالقلع أجدر .

ولا يستصلح الجند إلا بإدرار أرزاقهم ، وسد حاجاتهم ، والمكافأة لهم علىٰ قدر عنائهم وبلائهم .

وجنود الملوك وعددها وقف علىٰ سعود الأئمة ونحوسها .

وقال أَبْرَوِيزُ لابنه شِيرَوَيه : (لا تُوسِّعنَّ علىٰ جندك فيستغنوا عنك ، ولا تُضيق عليهم فيضِجوا منك ، وأعطهم عطاءً قصداً ، وامنعهم منعاً جميلاً ، ووسِّع عليهم في الرجاء ، ولا توسِّع عليهم في العطاء)[١] .

ولمَّا أفضى الأمر إلىٰ أبي جعفر المنصور . . أنفذ جيشاً وقال لقواده : (سيروا بمثل هٰذه السيرة ، ثم قال : صدق الأعرابي إذ قال : أَجِعْ كلبك . . يَتبَعْك ، فقام أبو العباس الطُّوسي فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أخشىٰ أن يلوِّح له غيرُك برغيف فيتبعَه ويدعَك)[٢] .

ويروىٰ أنَّ كسرىٰ صَنعَ طعاماً في سِماط ، فلما فَرَغوا ورُفعت الآلات . . وقعت عينه علىٰ رجل من أصحابه قد أخذ جاماً له قيمةٌ كبيرة ، فسكت عنه ، وجعل الخدم يرفعون الآلات فلم يجدوا الجام ، فسمعهم كسرىٰ يتكلمون فقال : (ما لكم ؟ فقالوا : فقدنا جاماً من الجامات ، فقال : لا عليكم ، أخذه من لا يردُّه ، ورآه من لا يفضحه .

فلما كان بعد أيام . . دخل الرجل علىٰ كسرىٰ وعليه حُلَّة جميلة وحال

← ما أثبتناه بين معقوفين .

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/١١) ، و« العقد الفريد » (١/٢٦) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/١١) ، و« العقد الفريد » (١/٢٦) .

مستجدة ، فقال له كسرىٰ : هٰذا من ذاك ، قال : نعم ، ولم يقل له شيئاً)[1] .

وسئل عمرو بن معاذ ـ وكان على الصوائف ـ : (بِمَ قَدَرتَ علىٰ جيوش الصائفة ؟ وكان يغزو في كل سنة ، ويجرّ الجيوش إلىٰ بلاد الروم ، فقال : بسَمَانة الظهر ، والقديد ، وكثرة الكعك)[2] .

ورُوي أنَّ بعض أمراء العرب كان ظالماً لرعيته ، شديدَ الأذىٰ لهم في أموالهم ، فعُوتب في ذٰلك ، فقال : (أَجِعْ كلبك . . يتبعك ، فوثبوا عليه فقتلوه ، فمرَّ به بعض الحكماء فقال : ربما أكلَ الكلبُ صاحبَه إذا لم يجد شبعه)[3] .

وفي نقيض هٰذا المعنىٰ قالوا : (سَمِّن كلبك . . يأكلك) .

وذٰلك أن رجلاً كان له كلب يسقيه اللبن ويطعمه اللحم ، يرجو أن يصيب به خيراً ، فيحرسه ويصيد به ، فأتاه ذات يوم وهو جائع ، فوثب عليه الكلب فأكله ، فقيل : (سَمِّن كلبك . . يأكلك)[4] .

وفيه أنشدوا : [من الطويل]

هُـمُ سَـمَّنُوا كَلْبـاً لِيَـأْكُلَ بَعْضَهـمْ وَلَوْ أَخَذُوا بِٱلْحَزْمِ لَمْ يَسْمَنِ ٱلْكَلْبُ[5]

* * *

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/٣٣٩) ، و« المحاسن والمساوئ » (ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤) ، والسِّماط : ما يُمد ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها ، والجام : إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها .

(٢) رواه في « عيون الأخبار » (١/١١٦) ، وفيه : (عمرو بن معاوية العقيلي) بدل (عمرو بن معاذ) ، والصائفة : الغزوة في الصيف .

(٣) أورده في « مجمع الأمثال » (١/٤٢١) .

(٤) أورده في « الأمثال » (ص ٢٩٦) ، وانظر « مجمع الأمثال » (٢/١٣٣) .

(٥) الخبر أورده بنحوه في « ثمار القلوب » (١/٥٨٦) ، و« مجمع الأمثال » (٢/١٣٣ ـ ١٣٥) ، والبيت لمالك بن أسماء الفزاري في « جمهرة الأمثال » (١/٥٢٥) ، و« ثمار القلوب » (١/٥٨٦) .

الباب السّابع والأربعون
في سيرة السلطان في استجباء الخراج

أيها الملك ؛ من طال عدوانه . . زال سلطانه :

اعلم : أن المال قوة السلطان ، وعِمارة المملكة ، ولقاحه الأمن ، ونتاجه العدل ، وهو حصن السلطان (١) ، ومادة الملك .

والمال أقوى العُدَد على العدو ، وهو ذخيرة الملك ، وعِمارة المملكة ، وحياة الأرض ، ومن حقه أن يؤخذ من حقه ويوضعَ في حقه ، ويمنع من سَرَف ، ولا يؤخذ من الرعية إلا ما فَضَل من معاشها ومصالحها ، ثم ينفق ذٰلك في الوجوه التي يعودُ عليها نفعها ، فيا أيها الملك ؛ اِحرِص كلَّ الحرص علىٰ عِمارة الأَرَضِين ، والسلام .

أيها الملك ؛ مُرْ جُباة الأموال بالرفق ومجانبةِ الخُرْق ؛ فإن العَلَقَة تَنالُ من الدم بغير أذىً ولا سماعِ صوت ما لا تناله البَعُوضةُ بلسعتها وهول صوتها .

ولمَّا عَزَلَ عثمانُ عمرَو بن العاص عن مصر . . استعمل عليها ابنَ أبي السَّرح ، فحمل من المال أكثر مما كان يحمله عمرو بن العاص ، فقال عثمان : (يا عمرو ؛ أَشَعرتَ أن اللِّقاح دَرَّتْ بعدك ؟ فقال : ذٰلك لأنكم أعجفتم أولادها) (٢) .

---

(١) في (ب ، ج) : (الإسلام) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٤٦٢/٢) ، وأعجفتم أولادها : هَزَلتُموها .

وقال زياد : (أحسنوا إلى المزارعين ؛ فإنكم لن تزالوا سِماناً ما سَمِنوا)[1] .

وفي منثور الحكم : (من جاوز في الحَلْبِ . . حَلَبَ الدم) .

وفي الأمثال : (إذا استقصى العِجْلُ مَصَّ أمه . . رفضته)[2] .

وقال جعفر بن يحيى : (الخَراج عَمود الملك ، وما استُغزِر بمثل العَدْل ، ولا استُنزِر بمثل الظلم)[3] .

وأسرعُ الأمورِ في خَراب البلاد : تعطيلُ الأَرَضِين ، وهلاكُ الرعية ، وانكسارُ الخَراج بالجَوْر والتحامل .

ومَثَلُ السلطان إذا حَملَ علىٰ أهل الخَراج حتىٰ ضعفوا عن عِمارة الأَرَضِين . . مَثَلُ من يقطع لحمه ويأكله من الجوع ؛ فهو وإن قَوِي من ناحية . . ضعف من ناحية أخرىٰ ، وما أَدخل علىٰ نفسه من الوجع والضعف أعظمُ مما دَفَعَ عن نفسه من ألم الجوع .

ومَثَلُ من كَلَّفَ الرعيةَ من الخَراج فوق طاقتها . . كالذي يطين سطحه بتراب أساسِ بيته ، ومن يُدمن حَزَّ العمود ؛ يوشك أن يضعف فتقع الخيمة ، وإذا ضعف المزارعون . . عَجَزوا عن عِمارة الأَرَضِين فيتركونها ؛ فتخرب الأرض ، ويهرب الزُّرَّاع ، فتضعف العِمارة ، ويضعف الخَراج ، وينتج ذٰلك : ضعف الأجناد ، وإذا ضعف الجند . . طمع الأعداء في السلطان .

أيها الملك ؛ كن بما يبقىٰ في يد رعيتك أفرحَ منك بما تأخذ منها ، لا يَقِلُّ مع الصلاح شيء ، ولا يبقىٰ مع الفساد شيء ، وصيانة القليل أولىٰ من تربية الجليل ، فلا مال لأخرق ، ولا عَيلةَ لمُصلح .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٠) ، و« نثر الدر » (٥/١٢) بلفظ : (أحسنوا إلىٰ أهل الخراج . . .) .

(٢) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (٣/١٩١) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/٣٦٤) .

(٣) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ١٠٦) ، و« عيون الأخبار » (١/١٣) .

وروي أن المأمون أَرِقَ ليلة ، فاستدعىٰ سميراً ، فحدثه بحديث فقال : (يا أمير المؤمنين ؛ كان بالمَوصل بُومة وبالبصرة بومة ، فخطبت بومةُ الموصل إلىٰ بومة البصرة بنتَها لابنها ، فقالت بومة البصرة : لا أُنكحك ابنتي إلا أن تجعلي في صداقها مئةَ ضيعة خراب ، فقالت بومة الموصل : لا أقدر عليها الآن ، ولـٰكن إن دام والينا سلمه الله تعالىٰ علينا سنة واحدة . . فعلت لك ذٰلك ، قال : فاستيقظ بها المأمون وجلس للمظالم ، وأنصف الناسَ بعضهم من بعض ، وتفقد أمر الولاة)[1] .

وفي معناه أنشدوا[2] : [من الوافر]

قَلِيلُ ٱلْمَالِ تُصْلِحُهُ فَيَبْقَىٰ وَلَا يَبْقَىٰ ٱلْكَثِيرُ مَعَ ٱلْقَلِيلِ

وسمعت شيوخ بلاد الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون : (ما زال أهل الإسلام ظاهرين علىٰ عدوهم وأمرُ العدو في ضعف وانتقاص لمَّا كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد ، فكانوا يستغلونها ، ويرفقون بالفلاحين ويُربُّونهم كما يُربّي التاجر تجارته ، فكانت الأرض عامرة ، والأموال وافرة ، والأجناد متوافرين ، والكُراع والسلاح فوق ما يُحتاج إليه .

إلىٰ أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر ، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال على النِّطع ، وقدم على الأرض جُباة يجبونها ، فأكلوا الرعايا ، واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم ، فتهاونت الرعايا وضعفوا عن العِمارة ، فقلَّت الجبايات المرتفعة إلى السلطان ، وضعفت الأجناد ، وقوي العدو علىٰ بلاد المسلمين ، حتىٰ أخذ الكثير منها .

---

(١) أورده في « المستطرف » (١/٣٤٦) ، وانظر شبيه هـٰذه القصة في « مروج الذهب » (١/٢٩٣) بين بهرام بن بهرام وموبذان موبذ .

(٢) البيت للمُتَلَمِّس الضُّبَعي في « عيون الأخبار » (٢/١٩٥) ، وعجزه : (ولا يبقى الكثير مع الفساد) ، وفي « ديوانه » (ص ١٧٣) بلفظ :

وإصلاحُ القليلِ يزيدُ فيهِ ولا يبقى الكثيرُ معَ الفسادِ

ولم يزل أمرُ المسلمين في نقص وأمرُ العدو في ظهور إلىٰ أن دخلها الملثمون ، فردوا الإقطاعات كما كانت في الزمان القديم ، ولا أدري ما يكون وراء ذٰلك .

ثم وَلِيَ المُوحِّدون ، ورجع الأمر علىٰ ما كان قبل الملثمين ، ولا أدري ما يكون وراء ذٰلك) .

* * *

الباب الثامن والأربعون

في سيرة السلطان في بيت المال

وهٰذا بابٌ سَلكَتْ فيه ملوكُ الطوائفِ والهندِ والسِّند والصينِ وبعضُ ملوكِ الروم خلافَ سيرة الأنبياءِ والمرسلين عليهم السلام والخلفاءِ الراشدين ؛ فكانت الملوك تَدَّخِر الأموال وتحجبها عن الرعية ، وتُعِدُّها ليوم كَريهةٍ علىٰ ما بَيَّنَّا في الباب قبله ، وكانت الرسل والخلفاء بعدهم تبذل الأموال ولا تدَّخِرها ، وتَصطنع الرعية[١] وتوسع عليها ، فكانت الرعية هم الأجناد والحُماة .

وهٰذه سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عَلِمْتَ أنَّ جُوعه كان أكثر من شِبَعِه ، وأنه مات ودِرعُه مرهونة في صاع من شعير عند يهودي ، وكذٰلك الخلفاء الراشدون بعده ؛ أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وابنه الحسن ، وعمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنهم أجمعين .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا فَتحَ اللهُ عليه اليمنَ كانت تُجبىٰ إليه الأموال ، فيُفرِّقُها ليومها ، وقد توضع في المسجد ، وتُفرش الأَنطاعُ عليها ويُفرقها من الغد ، ولم يكن له بيت مال .

وروىٰ أبو داوود في « السنن » أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى العشاء الآخرة ثم دخل حجرته وخرج مسرعاً وبيده خُرَيقة فيها ذهب فقسمه ثم قال : « مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ لَوْ أَدْرَكَهُ ٱلْمَوْتُ وَهَـٰذَا عِنْدَهُ ؟! »[٢] .

---

(١) في النسخ جميعاً عدا (هـ ، ز) : (الرجال) .

(٢) رواه بنحوه ابن حبان (٣٢١٢) ، وأحمد (٦/٤٩) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم بيتُ مال ، ولا للخلفاء الراشدين بعده ، وإنما كانت الخلفاء تَقسِمُ الأموالَ التي تُجبىٰ من حِلِّها بين المسلمين ، وربما كان يفضُلُ منها فَضَلات فتُجعل في بيت ، أو يكون بالناس عنها غَناءٌ في ذٰلك الوقت فتحصن في بيت ، فمن حضره من غائبٍ أو احتاجَ من حاضر . . قُسِمَ له حظُّه ، ثم يُفرَّقُ حتىٰ لا يبقىٰ في البيت منه درهم واحد .

كما رُوي أنَّ أميرَ المؤمنين عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه أشرف علىٰ بيت المال ، وفيه مال فقال : (يا بيضاء ، ويا حمراء ؛ ابيضِّي واحمَرِّي وغُرِّي غيري) ، ثم أمر فقُسم جميع ما فيه على المسلمين ، وأمر قَنبَراً أن يَكنُسه ويَرُشَّه ، ثم دخل فصلىٰ فيه[1] .

ثم كثير من الملوك ساروا في الأموال علىٰ هٰذه السيرة من ملوك الإسلام وملوك الروم .

ومعظمُ ما أهلكَ بلادَ الأندلس وسلَّط عليها الروم : أنَّ الروم التي كانت تجاورها لم يكن لهم بيوتُ أموال ، فكانوا يأخذون الجِزية من سلاطين الأندلس ، ثم يدخلون الكنيسة فيقسمها سلطانهم علىٰ رجاله بالطَّاس ، ويأخذ مثلما يأخذون ، وقد لا يأخذ منها شيئاً ، وإنما كانوا يصطنعون بها الرجال ، وكانت سلاطيننا تحتجز الأموال وتُضيع الرجال ، فكان للروم بيوت رجال ، وللمسلمين بيوت أموال ، فبهٰذه الخَلَّة قهرونا وظهروا علينا .

وكان من يذهب هٰذا المذهبَ ولا يدَّخر الأموال . . تُضرب فيه الأمثال .

وتقول : عدو المَلِك بيت المال ، وصديقه جنده ؛ فإذا ضعف أحدهما . . قَوِيَ الآخر ، فإذا ضعف بيت المال ببذله للحُماة . . قَوِيَ الناصر واشتد بأس الجند فقوي الملك ، وإذا قَوِيَ بيت المال وامتلأ بالأموال . . قلَّ الناصر وضعفت

---

(١) رواه أبو عبيد في « الأموال » (٦٨٧) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٥٣/١) ، وقَنبر : مولىٰ سيدنا علي رضي الله عنه .

الحماة ، فضعف الملك ، فوثبت عليه الأعداء ، وقد شاهدنا ذٰلك في بلاد الأندلس مشاهدة .

وإذا كان الدفاع في الرجال لا في الأموال ـ وإنما يدافع بالأموال بواسطة الرجال ـ . . فلا شك أن بيت رجال خير من بيت مال .

وقد قال بعض الملوك لابنه : (يا بُني ؛ لا تجمع الأموال لتتقوىٰ بها علىٰ الأعداء ؛ فإن في جمعها تقويةَ الأعداء) يعني : إذا جمعت الأموال . . أضعفت الرجال ؛ فيطمع فيك الصديق ، ويثب عليك العدو .

* * *

وإنما مَثَلُ المَلِكِ في مملكته : مَثَلُ رجل له بستان فيه عينٌ معينة ؛ فإن هو قام على البستان ، فأحسن تدبيره ، وهندس أرضه ، وغرس أشجاره ، وحظر علىٰ جوانبه ، ثم أرسل عليه الماء . . اخضرَّ عُوده ، فقويت أشجاره ، وأينعت ثماره ، وزَكَتْ بركاته ، فكانوا جميعاً في أمان من الضيعة ، لا يخافون فقراً ولا شتاتاً .

وإن هو رغب في غَلَّته وجنىٰ ثمرته ، ولم ينفق فيه ما يكفيه ، ولا ساق إليه من الماء ما يرويه رغبةً في الغَلَّة وضِنَّةً بالمال . . ضَعفت عمارته ، ورقَّت أشجاره ، وقَلَّت ثماره ، وذهبت غَلَّته ، ومَحَقَ الدَّهرُ ما جنىٰ من غَلَّته ، فافتقر القوم وهلكوا وتشتَّتوا .

ومثالُ الملك في جمع المال ليتقوىٰ به علىٰ عدوه : مثالُ طائر يَنتِفُ من ريشه ريشةً ريشةً ، وَيَمَصُّ أصولها ، ويأكل ما نَعِمَ له منها ، فلذَّ له طيبها [1] ، وأَعجَبه خِصْبُ جسمه علىٰ ذٰلك ، وقُوَّتُه علىٰ عَدُوِّه ، فلم يزل كذٰلك حتىٰ خَفَّ ريشُه ، فسقط إلى الأرض فأكلته الهَوَامُّ والحشرات .

ورأيت في أخبار بعض الملوك أن وزيره أشار عليه بجمع الأموال واقتناء

---

(١) في (أ) : (طعمها) .

الكنوز ، وقال : (إن الرجال وإن تفرقوا عنك اليوم ؛ فمتى احتجتهم . . عَرضْتَ عليهم الأموال فتهافتوا عليك .

فقال له الملك : هل لهٰذا من شاهد ؟ قال : نعم ، هل بحضرتنا الساعةَ ذبابٌ ؟ قال : لا ، قال : فأمر بإحضار جَفْنةٍ فيها عسل ، فحضرت ، فتساقط عليها الذباب لوقتها ، فاستشار السلطانُ بعضَ أصحابه في ذٰلك ، فنهاه عن ذٰلك وقال له : لا تُغيِّر قلوب الرجال ، فليس في كل وقت أَرَدْتَهم حضروا .

فقال له : هل لذٰلك من دليل ؟ قال : نعم ، إذا أمسينا . . فسأخبرك ، فلما أظلم الليل . . قال للملك : هات الجَفْنة ، فحضرت ، فلم تحضر ذبابة واحدة)[1] .

وقد رَوينا عن سيرة بعض السلاطين في أرض مصر ـ وكان قد ملكها زماناً طويلاً رجلٌ يُسمَّىٰ : بلدفور[2] ـ أنه كان يجمع الأموال ، ولا يَحفِل بالرجال ، فقال له أصحابه : إن أمير الجيوش بالشام يتواعدك وكأنه قد قَدِمَ عليك ، فاستعِدَّ له بالرجال وأنفق فيهم الأموال ، فأَومأَ إلىٰ صناديق موضوعة عنده وقال : الرجال في الصناديق .

فغزا أميرُ الجيوش ذٰلك المَلِك في مصر وقتله ، وتسلَّم الصناديق والمُلك .

وكان رأيُه رأياً فاسداً ؛ لأن رجالاً يقيمهم لوقته ويجمعهم لحاجته . . إنما يكونون أخيافاً مجتمعين[3] ، وشِرْذِمةً مُلفَّقين ؛ ليس فيهم غِنىً ، ولا عندهم دفاعٌ ، ولا ممارسةٌ للحروب .

---

(١) أورده في « حياة الحيوان الكبرىٰ » (٤١٧/٢) نقلاً عن كتاب « النصائح » لابن ظفر .

(٢) في (ب) : (بلدزقون) ، و(ج) : (يلدفون) ، و(د) : (بلدقون) ، و(هـ) : (يلدقون) ، و(ز) : (بلدقواريه) ، و(ح) : (يلدقوز) .

(٣) أخيافاً : جمع خَيَفٍ ؛ والأخياف من الناس : الضروب المختلفة الأخلاق والأشكال ، وهم أخياف : أمهم واحدة وآباؤهم شتَّىٰ .

ومن السنن المروية في هٰذا الباب : أنه لمَّا فُتحت العراق . . جِيءَ بالمال إلىٰ عمر رضي الله عنه ، فقال صاحب بيت المال : (أُدخِلُه بيتَ المال ؟ قال : لا ورَبِّ الكعبة ؛ لا يُؤْوَىٰ تحت سقف بيت حتىٰ أَقسِمه ، فغُطِّيَ في المسجد بالأَنطاع ، وحَرَسَه رجالٌ من المهاجرين والأنصار ، فلمَّا أصبح . . نظرَ إلى الذهب والفضة والياقوت والزَّبَرْجد والدُّرِّ يتلألأ ، فبكىٰ ، فقال له العباس أو عبد الرحمٰن بن عوف : يا أمير المؤمنين ؛ والله ما هٰذا بيوم بكاء ، ولٰكنه يوم شكر وسرور ، فقال : إني والله ما ذهبتُ حيثُ ذهبتَ ، ولٰكنه والله ما كثر هٰذا في قوم إلا وقعَ بأسُهم بينهم ، ثم أقبل على القبلة ورفع يديه وقال : اللهم ؛ إني أعوذ بك أن أكون مُستدرَجاً ؛ فإني أسمعك تقول : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(١)] .

ثم قال : أين سراقةُ ابنُ جُعشُمٍ ، فأُتِيَ به أشعرَ الذِّراعين دقيقَهما ، فأعطاه سِوارَيْ كسرىٰ فقال : اِلبَسْهُما ، ففعل ، فقال : قل : الله أكبر ، قال : الله أكبر ، قال : قل : الحمد لله الذي سَلَبَهُما كسرىٰ وألبسهما سراقةَ ابنَ جُعشُم أعرابياً من بني مُدْلِج ، ثم قَلَبَهما وقال : إنَّ الذي أَدَّىٰ هٰذا لأَمين ، فقال له رجل : أنا أُخبِرُك : أنت أمين الله تعالىٰ ، وهم يُؤدُّون إليك ما أَدَّيت إلى الله تعالىٰ ، فإذا رَتَعْتَ . . رَتَعُوا ، قال : صدقت .

وإنما ألبسهما سراقة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسراقة ونظر إلىٰ ذراعيه : « كَأَنِّي بِكَ وَقَدْ لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَىٰ » ، ولم يجعل له إلا السِّوَارَين)[(٢)] .

ولمَّا وَلِيَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه . . جاءه مال من العمال ، فَصُبَّ في المسجد ، فأمر فنادىٰ : (من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دينٌ أو عِدَةٌ . . فَلْيَحضُرْ .

---

(١) سورة الأعراف : (١٨٢) .

(٢) رواه الإمام الشافعي في « الأم » (٥/٣٥٢ ـ ٣٥٤) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٦/٣٥٧) ، ومن قوله : (وإنما ألبسهما سراقة . . .) إلىٰ (إلا السوارين) من كلام الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ .

قال أبو أيُّوبَ الأنصاري : فجئته فقلت : يا خليفة رسول الله ؛ إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَوْ قَدْ جَاءَنِي مَالُ ٱلْبَحْرَيْنِ .. لأَعْطَيْتُكَ هَٰكَذَا وَهَٰكَذَا وَهَٰكَذَا » ، وأشار بكفيه ، فسكت أبو بكر ، فانصرفت ثم عاودته ، فسكت عني ، ثم انصرفت ، ثم عاودته فقلت : إمَّا أن تُعطيَني ، وإمَّا أن تَبخَلَ عَنِّي ، قال : ما أبخل عنك ، اذهب فخذ ، فذهبت فحَفَنْتُ حَفْنةً ، قال : عُدَّها ، فعددتها فوجدت فيها خمس مئة دينار ، قال : عُدَّ مِثلَيْها ، فعددت مِثليها ، وانصرفت بألف وخمس مئة دينار)[1] .

وأبو أيُّوب من أغنياء الأنصار ، وهو نزيل النبي صلى الله عليه وسلم .

دلَّ الحديث : علىٰ أن بيت المال للغني والفقير ، ودل أيضاً : علىٰ أنه لا يجب أن يساوىٰ فيه جميع المسلمين ، بل ذٰلك موكول إلى اجتهاد الإمام .

والدليل عليه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له العبَّاس : أعطني من هٰذا المال ، فقال له : « اِذْهَبْ فَخُذْ » ، فبسط ثوبه وحثا فيه ، فلما جاء يحمله .. عَجَز عنه ، فقال : يا رسول الله ؛ مُرْ من يحمله عليَّ ، قال : « لَا » ، فنَثَر منه ، ثم جاء يحمله ، فعجز عنه ، فقال : يا رسول الله ؛ مُرْ من يحمله ، فقال : « لَا » ، فنثَر منه ، ثم حمله علىٰ عاتقه ، فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم بصره حتىٰ غاب عنه[2] .

فَصْلٌ

[في ذكر شيء من سيرة فرعون يوسف عليه السلام في الخراج]

قال الحسن بن علي الأَسَدي : أخبرني أبي قال : (وجدت في كتابٍ قبطيٍّ باللغة الصعيدية ممَّا نُقِل بالعربية مبلغَ ما كان يُستخرج لفرعونِ يوسف عليه

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٣١٣٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه ، وهو الذي سأل سيدَنا أبا بكر رضي الله عنه .

(٢) رواه بنحوه البخاري (٤٢١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

السلام من أموال مصر بحقِّ الخَراج ممَّا يُؤخذ من وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل والإنصاف والرسوم الجارية من غير اضطهاد ولا مناقشة ، وبعدَ وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظراً للمُعامِلين وتقويةً لحالهم . . من العين : أربعةٌ وعشرون ألفَ ألفٍ وأربعُ مئة ألف دينار .

من ذٰلك ما يُصرف في عِمارة البلاد لحفر الخُلُج ، والإنفاق على الجسور ، وسَدِّ التِّراع(١) ، وإصلاح المنشآت ، ثم في تقوية مَن يحتاج التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة في البِذار ، وغير ذٰلك من ثمن الآلات ، وأجرة من يُستعان به لحمل البذار ، وسائرِ نفقات تطبيق الأرض(٢) : ثمان مئة ألف دينار .

ولِمَا يُصرف في أرزاق الأولياء الموسومين بالسِّلاح ، ومن في جملتهم من الشاكريَّة والغِلْمان وأشياعهم(٣) ، وعِدَّةُ جميعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين سوىٰ أتباعهم من الخُزَّان ومن يجري مجراهم . . مئةُ ألفٍ وأحدَ عشر ألفاً : ثمانية آلاف ألف دينار .

ولِمَا يُصرف للأرامل والأيتام يَرضَون به من بيت المال(٤) ، وإن كانوا غير محتاجين ، حتىٰ لا يخلو أمثالُهم من بِرِّ فرعون : أربع مئة ألف دينار .

ولِمَا يُصرف في كَهَنة بَرَابِيهم ، وسائر بيوت صلواتهم : مئتا ألف دينار(٥) .

ولِمَا يُصرف في الصدقات مِمَّا يُصَبُّ صَبّاً ، وينادىٰ : بَرِئَت الذمة من رجل كشف وجهه لِفَاقةٍ إلا حضر ، فيحضر لذٰلك من يحضر ، فلا يُردُّ أحدٌ ، والأُمناء

---

(١) المعروف في كتب اللغة : أن جمع التُّرْعة : تُرَع ، والتُّرْعَةُ : فم الجدول ، والقناة الواسعة للسقي أو الملاحة ، والله أعلم .

(٢) في « الخطط المقريزية » (١/٧٥) : (تطريق أراضيهم) ، والمراد بـ (التطبيق) هنا : المساواة .

(٣) الشاكرية : جمع شاكري ؛ وهو الأجير المستخدم ، أو الجندي المستأجر ، معرب (چاكر) .

(٤) عبارة « الخطط المقريزية » (١/٧٦) : (ولما يصرف في الأرامل والأيتام فرضاً لهم من بيت المال) .

(٥) بَرَابِيهم : جمع بِرْبا ؛ وهو اسم لموضع العبادة ، كلمة قبطية .

جلوس ، فإذا رَأَوْا إنساناً لم يُجرَ رسمُه بأن يأخذ . . أُفرِدَ بعد قَبْضه ما يَقبِضه ، حَتىٰ إذا فُرّقَ المال واجتمع من هٰذه الطائفة عددٌ . . دخل أُمناء فرعون إليه وهَنَّؤُوه بتفرقِة المال ، ودَعَوْا له بطول البقاء ودوام العِزّ والسلامة ، وأَنهَوْا إليه حال تلك الطائفة ، فيأمر بتغيير شَعَثِها بالحمَّام واللِّباس ، ثم يُمَدُّ السِّماطُ فيأكلون بين يديه ويشربون ، ويَستعلِم من كل واحد سببَ فَاقَته ؛ فإن كان من آفة الزمان . . رَدَّ عليه مثل ما كان له ، وإن كان عن سوء رأيٍ وتدبيرٍ غيرِ مستقيم . . ضَمَّه إلىٰ من يُشرف عليه ، ويأخذه بالأدب والمعرفة التي يَصلح له : مئتا ألف دينار .

ولِمَا يُصرف في نفقات فرعون الراتبة لِسَنَته : مئتا ألف دينار .

وتكون النفقاتُ علىٰ ما تقدَّم تفصيلها تسعةَ آلاف ألف وثمان مئة ألف دينار ، ويَحصُلُ بعد ذٰلك ما يتسلَّمه يوسف عليه السلام ويُحصِّلُه لفرعون في بيت المال لنوائبِ الزمان . . أربعةَ عشرَ ألفَ ألفِ دينار وسِتُّ مئة ألف دينار)[1] .

وقال أبو رُهْم : (كانت أرض مصر أرضاً مُدبَّرة ؛ حتىٰ إن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها ، فيحبسونه كيف شاؤوا ، ويرسلونه كيف شاؤوا ، وذٰلك قول فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[2] ، وكان ملك مصر ملكاً عظيماً ، لم يكن في الأرض ملك أعظم من ملك مصر ، وكانت الجنات بحافَتي النيل متصلة ، لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والزروع كذٰلك من أُسْوان إلىٰ رشيد ، وكانت أرض مصر كلها تُروىٰ من ستة عشر ذراعاً ؛ لِما دَبَّروا في جسورها وخُلجانها وحافَاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها إلىٰ

(١) أورده في « الخطط المقريزية » (١/٧٥ ـ ٧٦) .
(٢) سورة الزخرف : (٥١) .

آخرها ، وذٰلك قول الله تعالىٰ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾[1] ، والمقام الكريم : المنابر ، وكان بها ألف منبر)[2] .

* * *

وقال عبد الله بن عمرو : (استعمل فرعونُ هامانَ علىٰ حفر خليج سَرَدُوس ، فأخذ في حفره وتدبيره ، فجعل أهل القرىٰ يسألونه أن يُجري الخليج تحت قريتهم ويعطوه مالاً ، فكان يذهب به من قرية إلىٰ قرية ، من الشرق إلى الغرب ، ومن الشَّمال إلى القبلة ، ويسوقه كيف أراد ، فليس بمصر خليج أكثر عُطوفاً منه ، فاجتمع له في ذٰلك أموال عظيمة ، فحملها إلىٰ فرعون وأخبره بالخبر ، فقال له فرعون : إنه ينبغي للسيد أن يَعطِفَ علىٰ عبيده ، ويُفيض عليهم من خزائنه وذخائره ، ولا يرغب فيما في أيديهم ، رُدَّ علىٰ أهل القرىٰ ما أخذتَ منهم ، فَردَّ عليهم أموالهم)[3] .

فهٰذه سيرة من لا يعرف الله ، ولا يرجو لقاءه ، ولا يخاف عذابه ، ولا يؤمن بيوم الحساب ، فكيف يجب أن تكون سيرة من يقول : لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ، ويوقن بيوم الحساب والثواب والعقاب ؟!

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[4] ، قال : (هي خزائن مصر)[5] .

وكانت مصرُ أربعين فرسخاً في مثلها[6] ، ولم يُطِع يوسفُ فرعونَ ويَخلُفْه

---

(١) سورة الدخان : (٢٥ ـ ٢٧) .
(٢) أورده في « الخطط المقريزية » (١/٢٣) .
(٣) أورده في « معجم البلدان » (٣/٢١٠) .
(٤) سورة يوسف : (٥٥) .
(٥) أورده في « تفسير القرطبي » (٩/٢١٣) عن مالك بن أنس رحمه الله تعالىٰ ، وانظر « نهاية الأرب » (١/٣٤٦) .
(٦) زيد في (أ ، ب ، و ، ز) : (قال) .

ويَنُبْ عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلم ، فحينئذ قال : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ .

ولمَّا استوثق أمرُ يوسف الصديق عليه السلام وكَمَل ، وصارت الأشياء إليه ، وأراد ربك أن يُعوِّضه علىٰ صبره لمَّا لم يرتكب محارمه ، وجاءت سِنُو[1] الغلاء والجوع . . مات العزيز ، وذهبت الذخائر ، وافتقرت زَلِيخا ، وعَمِيَ بصرُها ، وجعلت تتكفف الناس ، فقيل لها : (لو تعرَّضتِ للمَلِك . . لعله أن يرحمك ويغنيك ، فلطالما حفظتيه وأكرمتيه[2] ، ثم قيل لها : لا تفعلي ؛ لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المُرَاودة والحبس ، فيسيء إليك ويكافئك فيما سبق منك إليه ، فقالت : أنا أعلم بحِلمه وكرمه ، وجلست له علىٰ رابية في طريقه يوم خروجه ، وكان يركب في زُهاءِ مئةِ ألف من عظماء قومه وأهل مملكته .

فلمَّا أحسَّت به . . قامت ونادت : سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم !

فقال يوسف عليه السلام : ومن أنت ؟ قالت : أنا التي كنت أخدِمك علىٰ صدور قَدَميَّ ، وأُرجِّل جُمَّتك بيدي ، وأُكرم مثواك بجهدي ، وكان مني ما كان وذقتُ وبال أمري ، وذهبتْ قُوَّتي ، وتَلِفَ مالي ، وعَمِيَ بصري ، وصِرتُ أسأل الناس ؛ فمنهم من يرحمني ، ومنهم من لا يرحمني ، بعدما كنتُ مغبوطةَ أهل مصر كلِّها صِرْتُ مرحومتهم ؛ بل محرومتهم ؛ وهـٰذا جزاء المفسدين .

فبكىٰ يوسف عليه السلام بكاء شديداً وقال لها : هل بقي في قلبك من حُبِّك إيَّايَ شيء ؟ فقالت : والذي اتخذ إبراهيم خليلاً ؛ لَنظرةٌ إليك أحبُّ إلي من مِلْءِ الأرض ذهباً وفضة ، فمضىٰ يوسف عليه السلام وأرسل إليها وقال لها : إن

---

(١) في (هـ) : (سنين) ، وهي جائزة في لغة .

(٢) قال سيبويه رحمه الله تعالىٰ : (وحدثني الخليل أن ناساً يقولون : « ضَرَبْتِيهِ » فيلحقون الياء ، وهـٰذه قليلة) . انظر « الكتاب » (٤/٢٠٠) .

كنت أيِّماً . . تزوَّجناك ، وإن كنت ذات بعل . . أغنيناك ، فقالت : الملكُ أَعرَفُ بالله من أن يستهزئ بي ، هو لم يُردني أيامَ شبابي وجمالي ، فكيف يَقبَلُني وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟!

فأمر بها يوسف عليه السلام فجُهِّزت ، فتزوَّجها وأُدخلت عليه ، فصفَّ يوسف عليه السلام قدميه وجعل يصلي ، ودعا الله تعالىٰ باسمه الأعظم ، فردَّ الله تعالىٰ عليها شبابها وجمالها وبصرها كهيئتها يوم راودته ، فواقعها ؛ فإذا هي بِكر ، فولدت له : أفراييم بن يوسف ومِنَشَّا بن يوسف ، وطاب في الإسلام عيشهما حتىٰ فرَّق الدهر بينهما)[1] .

فيجب للقوي ألَّا ينسى الضعيف ، وللغني ألَّا ينسى الفقير ؛ فرُبَّ مطلوبٍ يصير طالباً ، ومرغوبٍ إليه يصير راغباً ، ومسؤولٍ يصير سائلاً ، وراحمٍ يصير مرحوماً ؛ فهـٰذا يوسف الصديق عليه السلام نَظَرَ إلىٰ ضعفه[2] في يد إخوته يوم الجُبِّ ، ثم ضعفهم بين يديه يوم الصاع ، وهـٰذه زَلِيخا ملكةُ مصر وسيدةُ أهلها عادت تتكفَّفُ الناس في الطرقات .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾[3] ، وكان يوسف عليه السلام بعد هـٰذا يجوعُ ويأكلُ خبز الشعير ولا يشبع ، فقيل له : (أتجوعُ وبيدك خزائنُ الأرض ؟! فقال : أخافُ أن أشبعَ فأنسى الجائعين) .

* * *

وقد رأيت أن ألحقه بمَنْقَبة في مِثلِها يتنافس العقلاء ، ويرغب فيها الملوك والوزراء ؛ وذٰلك أني لمَّا كنت بالعراق وكان الوزيرُ نظامُ الملك ـ الغالبُ

---

(١) في (ب ، ج ، هـ) : (الموت) بدل (الدهر) .
(٢) في (أ ، ب ، ج ، و) : (نفسه) .
(٣) سورة الأعراف : (١٣٧) .

علىٰ ألقابه (خَواجا بُزُرْك) ، رحمه الله ـ قد وَزَرَ لملك التُّرك أبي الفتح بن أَلْبْ أَرْسلان ، وكان قد وَزَرَ لأبيه من قبله ، فقام بدولتهما أحسن قيام ، فشدَّ أركانها ، وشيَّد بنيانها ، واستمال الأعداء ، ووالى الأولياء ، واستعمل الكُفاة ، وعمَّ إحسانُه العدوَّ والصديق ، والمبغضَ والحبيب ، والبعيدَ والقريب ، حتىٰ ألقى المُلْكُ بجِرانِه[١] ، وذَلَّ الخلقُ لسلطانه .

وكان الذي مَهَّد له ذٰلك بإذن الله تعالىٰ وتوفيقه : أنه أقبل بكليته علىٰ مراعاة حَمَلة الدِّين ، وبنىٰ دور العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، وأَسَّسَ الرِّباطات للعُبَّاد والزُّهَّاد وأهل الصلاح والفقراء ، ثم أجرىٰ لهم الجِرايات والكُسا والنفقات ، وأجرى الخير والرزق لمن كان من أهل طلب العلم مضافاً إلىٰ أرزاقهم ، وعم[٢] بذٰلك سائر أقطار مملكته ؛ فلم يكن من إيليا الشام[٣] ـ وهي بيت المقدس[٤] ـ إلىٰ سائر الشام الأعلىٰ ، وديارِ بكر ، والعراقين ، وخراسانَ بأقطارها إلىٰ سَمَرْقَند من وراء نهر جَيْحُون مسيرةَ زُهاء مئة يوم حاملُ علم أو طالبه ، أو متعبِّد أو زاهد في زاويته .. إلا وكرامته شاملة له وسابغة عليه ، وكان الذي يَخرجُ من بيوت أمواله في هٰذه الأبواب ستَّ مئة ألف دينار في كل سنة .

فوشىٰ به الوُشاة إلىٰ أبي الفتح الملك ، وأَوغروا صدرَه عليه ، وقالوا له : إن هٰذا المال المُخرَج من بيوت الأموال تُقيم به جيشاً تُركَزُ رايتُه في سور قُسطَنْطِينيَّة ، فخامر ذٰلك قلبَ أبي الفتح الملك .

فلمَّا دخل عليه .. قال له : (يا أَبَةِ ؛ بلغني عنك أنك تُخرج من بيوت الأموال كلَّ سنة ستَّ مئة ألف دينار إلىٰ من لا ينفعنا ولا يغني عنا ، فبكىٰ

---

(١) ألقى المُلْكُ بجِرَانه : ثبت واستقر .

(٢) في (أ ، ب ، د) : (وعمَّر) .

(٣) في النسخ ما عدا (د) : (أوائل الشام) .

(٤) في (أ ، ب) : (وفي بيت المقدس) .

نظام الملك وقال : يا بُني ؛ أنا شيخ أعجمي ، لو نُودي عليّ فيمن يزيد . . لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تُركيٌّ لو نُودي عليك . . عساك تحفظ ثلاثين ديناراً ، وأنت مشتغل بلذاتك ، ومنهمك في شهواتك ، وأكثرُ ما يَصعَد إلى الله تعالىٰ معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشُك الذين تُعِدُّهم للنوائب إذا احتشدوا . . كافحوا عنك بسيفٍ طوله ذراعان ، وقوسٍ لا ينتهي مدىٰ مرماه إلىٰ ثلاث مئة ذراع ، وهم مع ذٰلك مستغرقون في المعاصي والخمور ، والملاهي والمِزمار والطُّنبور .

وأنا أقمت لك جيشاً يُسمَّىٰ جيشَ الليل ، إذا نامت جيوشُك ليلاً . . قامت جيوش الليل علىٰ أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم ، ومَدُّوا إلى الله تعالىٰ أَكفَّهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خِفَارتِهم تعيشون ، وبدعائهم تثبتون ، وببركاتهم تُمطرون وتُرزقون ، تخرِق سهامُهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرُّع .

فبكىٰ أبو الفتح المَلِكُ بكاءً شديداً ثم قال : شاباش يا أَبَةِ ، شاباش يا أَبَةِ ![1] أَكثِرْ لي من هٰذا الجيش) .

* * *

ومن مناقب هٰذا الرجل وفضائله : أن رجلاً قصده يقال له : أبو سعيد الصوفي ، فقال له : (يا خَواجا ؛ أنا أبني لك مدرسة ببغدادَ مدينةِ السلام ، لا يكون في معمور الأرض مثلُها ، يَخلُد بها ذِكرُك إلىٰ أن تقوم الساعة ، قال : فافعل ، فكتب إلىٰ وُكلائه في بغداد أن يُمكِّنوه من الأموال ، فابتاع بُقعةً علىٰ شاطئ دِجْلة ، وخَطَّ المدرسة النِّظَامية ، وبناها أحسن بنيان ، وكتب عليها اسم « نظام الملك » ، وبنىٰ حولها أسواقاً تكون مُحبَّسة عليها ، وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات ووَقَفها عليها ، فكَمَلت لنظام الملك بذٰلك رِياسةٌ وسُؤدَد ،

---

(١) شاباش : لفظة فارسية للاستحسان والإطراء .

وذكرٌ جميل طبَّقَ الأرضَ خبرُه ، وعمَّ المشارقَ والمغاربَ أثرُه ، وكان ذٰلك في سِنِي عَشْرِ الخمسين وأربع مئة من الهجرة .

ثم رَفع حسابَ النفقات إلىٰ نِظام الملك ، فبلغ ما يقارب سِتِّينَ ألفَ دينار ، ثم نَمَى الخبرُ إلىٰ نظام الملك من الكُتَّاب وأهلِ الحِساب أنَّ جميع ما أنفق فيها نحو من سبعة عشر[1] ألف دينار ، وأن سائر الأموال احتجبها أبو سعيد لنفسه وخانكَ فيها ، فدعاه نظام الملك إلىٰ أصبَهان[2] للحساب .

فلمَّا أحسَّ أبو سعيد بذٰلك . . أرسل إلى الخليفة العباسي[3] يقول له : هل لك في أن أُطبق الأرض بذكرك ، وأنشر لك فخراً لا تمحوه الأيام ؟ قال : وما هو ؟ قال : أن نمحو اسم « نظام الملك » عن هـٰذه المدرسة ، ونكتب عليها اسمك ، وتَزِنَ له سِتِّينَ ألفَ دينار .

فأرسلَ إليه الخليفةُ يقولُ له : أَنفِذْ من يَقبِضُ المال ، فلمَّا استوثق منه . . مضىٰ إلىٰ أصبَهان ، فقال له نظامُ الملك : إنك قد رفعتَ إلينا نحواً من سِتِّين ألفَ دينارٍ نفقةً وأُحِبُّ إخراجَ الحساب ، فقال له أبو سعيد : لا تُطِل الخطاب ، إنْ رَضِيتَ ، وإلا . . مَحَوْتُ اسمَك المكتوبَ عليها وكتبت عليها اسمَ غيرك ، وأرسلْ معي مَن يَقبِضُ المال .

فلمَّا أحسَّ نظامُ الملك بذٰلك . . قال : يا شيخ ؛ قد سَوَّغْنا لك جميعَ ذٰلك كُلِّه ، ولا تَمْحُ اسمَنا) .

ثمَّ إنَّ أبا سعيدٍ بنىٰ بتلك الأموالِ الرِّباطاتِ للصُّوفية ، واشترى الضِّياعَ والخاناتِ والبساتينَ والدُّورَ ، ووقفَ جميعَ ذٰلك على الصُّوفية ، فالصُّوفيةُ إلىٰ يومِنا هـٰذا في رِباط أبي سعيدٍ الصُّوفيِّ وأوقافه يَتقلَّبُون ببغداد .

---

(١) في (د ، هـ ، و ، ز) : (تسعة عشر) .

(٢) في (د) : (أصفَهان) ، وهما اسمان لمكان واحد .

(٣) في (أ ، ب ، د) : (ابن العباس) ، و(ج ، هـ ، ز ، ح) : (أبي العباس) .

ففي مثلِ هٰذه المناقبِ فليتنافس المتنافسون ، ولمثلِ هٰذا فليعمل العاملون ؛ فإنَّ فيها عِزَّ الدنيا وشرفَ الآخرة ، وحُسنَ الصِّيت وخُلودَ جميلِ الذِّكر ، فإنا لم نجد شيئاً يبقىٰ على الدَّهرِ إلا الذِّكرَ حسناً كان أو قبيحاً ، وقد قال الشاعر(١) : [من الوافر]

وَلَا شَـيْءٌ يَـدُومُ فَكُـنْ حَدِيثـاً ... جَمِيـلَ ٱلذِّكْـرِ فَٱلدُّنْيَـا حَدِيـثُ

فانتهِزْ فُرصةَ العُمر ومساعدةَ الدنيا ونفوذَ الأمر ، وقَدِّم لنفسك كما قَدَّموا . . تُذكَرْ بالصالحات كما ذُكِرُوا ، وادَّخِرْ لنفسك في يوم القيامة كما ادَّخَرُوا ، واعلم أن المأكول للبدن ، والموهوبَ للمَعاد ، والمتروكَ للعدو ، فاخترْ أيَّ الثلاثة شئتَ ، والسلام .

وكان ابنُ أبي دُواد الوزيرُ واسعَ النفس ، مبسوطَ اليدين ، يُعطي الجزيل ، ويستقِلُّ الكثير ، ولا يَرُدُّ سؤالاً ، ويبتدئ بالنَّوال ، فقال له الواثقُ أميرُ المؤمنين يوماً : (قد بلغني بَسْطُ يديك بالعطاء ، وهٰذا يُتلِفُ بُيوت الأموال ، فأَطرقَ ساعةً ثم رَفعَ رأسَه وقال : يا أمير المؤمنين ؛ ذخائرُ أجرِها واصلةٌ إليك ، ومفاتيحُ شكرِها موصولةٌ بك ، وإنَّما لي من ذٰلك تعسُّفي(٢) في إيصال الثناء إليك ، فقال له الواثق : للهِ أنت ! جُدْ بالعطاء ، وأكثِرْ من الشكر والثناء) .

❋ ❋ ❋

(١) أورده في « نظم الدرر » (١٣/١٤٤) .

(٢) في (ب ، و ، ز) : (تعشقي) .

الباب التاسع والأربعون

في سيرة السلطان في الإنفاق من بيت المال ، وسيرة العمال

اعلم وفَّقك الله : أنَّ يوسف الصديق عليه السلام لمَّا مَلَكَ خزائن الأرض من مصر . . كان يجوع ويأكل خبز الشعير ، فقيل له : (أتجوعُ وبيدك خزائنُ الأرض ؟! فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين) .

وروى البيهقيُّ بإسناده قال : لمَّا استُخلِفَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه . . غدا إلى السُّوق ، فقال له عمرُ رضي الله عنه : (أين تريد ؟ قال : السُّوق ، قال : قد جاءك ما يَشغَلُكَ عن السوق ، قال : سبحان الله ! يَشغَلُني عن عِيالي ، قال : نفرِضُ لك بالمعروف ، قال : فأنفق في سنتين وبعض أُخرىٰ[1] ثمانيةَ آلافِ درهمٍ ، ووصَّىٰ أن تُرَدَّ من ماله في بيت المال)[2] .

ورَوىٰ هٰذه القصةَ الحسنُ البصريُّ ؛ قال : (لمَّا حَضَرَتْ أبا بكر الصديق رضي الله عنه الوفاةُ . . قال : أُنظروا كم أنفقتُ من مال الله ، فوجدوا قد أَنفقَ في سنتينِ ونصفٍ ثمانيةَ آلافِ درهمٍ ، قال : اِقضُوها عنِّي ، فقَضَوْها عنه .

ثم قال : يا معشر المسلمين ؛ إنه قد حضر من قضاء الله ما ترون ، ولا بُدَّ لكم من رجل يَلِي أمرَكم ، ويُصلِّي بكم ، ويقاتل عدوَّكم ؛ فإنْ شِئتم . . اجتمعتم وَأْتمرتُ لكم ، وإنْ شِئتم . . اجتهدتُ لكم ، فَوَاللهِ الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ ما آلُوكُم ونفسي خيراً ، فَبَكَوْا وقالوا : أنت خيرُنا وأعلَمُنا ، فاختَرْ لنا ، فقال : إنِّي قد اخترتُ لكم عُمَر)[3] .

---

(١) في (ز) : (أو ثلاث) .

(٢) السنن الكبرىٰ (١٠٧/١٠) بنحوه عن الحسن رحمه الله تعالىٰ .

(٣) انظر « إتحاف السادة المتقين » (٣٠٨/١٠) .

وروىٰ مالكٌ هـٰذه القصَّة علىٰ غير هـٰذا الوجه ؛ قال : بَلغني أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لمَّا وَلِيَ . . لم يُنفق من مال الله تعالىٰ شيئاً ، قال : وغدا يوماً إلىٰ بني عمرِو بنِ عوفٍ وكانت له هناك امرأةٌ من الأنصار في جِمالٍ له يريدُ بيعَها ، فَلَقِيَه بعضُ المسلمين فقال له : (ما تصنعُ ، هـٰذا يَشغَلُكَ عن الناس وعن النظر في أمورهم ؟! قال : فكيف أصنع ؟ قال : تتفرَّغ للنظر في أمورهم ، وتستنفق من هـٰذا المال .

قال : فباع تلك الإبلَ وغيرَها من ماله إلا الأرضَ ، ثمَّ طَرَحه في بيت المال ، فكانَ يُنفِقُ من المال علىٰ نفسه وعلىٰ عياله ، ثمَّ كانَ عُمرُ علىٰ مثل ذٰلك .

ثمَّ وَلِيَه عمرُ بنُ عبدِ العزيز ، فلم يُنفِقْ منه ، فقيل له : قد صَنع أبو بكرٍ وعمرُ ما قد عَلِمْتَ ، قال : أجل ، ولـٰكنِّي أَحذَرُ من هـٰذا المال ، فإن يكن لي فيه حقٌّ . . فقد استوفيتُ وزدتُ ، ولولا ذٰلك . . لفعلت .

قال ابن غانم : قلت لمالك : فأين قولهم عن عُمرَ : إنَّه رَدَّ ثمانين ألفاً ؟! قال : كذبوا ، إنما يقول هـٰذا أعداءُ الله ، هو لم يُجِزْ لولده سَلَفَ أبي موسى الأشعري إياه (١) حتىٰ أخذ منه نصفه ، فكيف يأخذ من مالِ اللهِ ثمانينَ ألفاً ؟!) .

* * *

ولمَّا تُوفي أبو بكر رضي الله عنه . . استرجعَ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه ، وجاء مسرعاً باكياً ، وقال : (رحمك الله أبا بكر ، كنتَ أَوّلَ القومِ إسلاماً ، وأَكملَهم إيماناً ، وأَشدَّهم يقيناً ، وأَخوفَهم لله ، وأَحوطَهم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشبهَهم به هَدْياً وخُلقاً ، وسَمْتاً وفضلاً ، وأكرمَهم عليه ، وأرفعَهم عنده ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً ، صَدَّقتَ رسولَ الله

---

(١) في (و) : (لم يجز لولديه سَلَفَ أبي موسى الأشعري إياها) ، ويشهد لهـٰذا رواية « الموطأ » (٢/٦٨٧) : أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه أسلف عبد الله وعبيد الله ابني عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، وانظر ما سيأتي (ص ٤٩١) .

صلى الله عليه وسلم حين كَذَّبه الناس ، فسَمَّاكَ اللهُ في كتابه صِدِّيقاً ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (١) ، وآنستَه حين تخلَّفوا عنه ، وقمتَ معه حين قَعَدوا ، وصَحِبْتَهُ في الشِّدة حينَ تفرَّقُوا ، أكرمَ الصُّحبة ، ثانيَ اثنين ، وصاحبَه في الغار ، ورفيقَه في الهجرة ، والمُنزَلَ عليه السكينةُ .

وخَلَفْتَه في أُمَّته أحسنَ الخِلافة ؛ فقَوِيتَ حين ضعفَ أصحابُك ، وبرزتَ (٢) حين استكانوا ، وقمتَ بالأمرِ حين فَشِلُوا ، ومضيتَ بقوة إذ وقفوا .

كنتَ أطولَهم صمتاً ، وأبلغَهم قولاً ، وأشجعَهم قلباً ، وأشدَّهم يقيناً ، وأحسنَهم عملاً ، كنتَ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم . . ضعيفاً في بدنك ، قوياً في أمر دينك ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً محبوباً إلىٰ أهل السماوات والأرض ، فجزاك الله عنَّا وعن الإسلام خيراً) (٣) .

وقال عمر رضي الله عنه : (رَحِمَ اللهُ أبا بكر ، لقد أتعبَ مَنْ بعده تعباً شديداً) (٤) .

وروى البيهقيُّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (إني أَنزلتُ نفسي من مالِ الله سبحانه بمنزلة والي اليتيم ؛ إن استغنيتُ . . استعففتُ ، وإن افتقرتُ . . أكلتُ بالمعروف) (٥) .

وفي رواية أخرىٰ : (إن احتجتُ . . أخذتُ منه ، فإذا أيسرتُ . . رددتُه) (٦) .

وفي رواية أخرىٰ : (أُخبركم بما أَستحِلُّ من مال الله ـ أو قال : يَحِلُّ لي ـ :

---

(١) سورة الزمر : (٣٣) .

(٢) زيد في (ز) : (للحروب) .

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٩٢٨) عن سيدنا أَسِيد بن صفوان رضي الله عنه .

(٤) رواه البيهقي في « الكبرىٰ » (٦/٣٥٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦١٩) .

(٥) السنن الكبرىٰ (٦/٤) بنحوه ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٥٨٥) .

(٦) السنن الكبرىٰ (٦/٤) ، ورواه سعيد بن منصور في « سننه » (٧٨٨) .

أَستحِلُّ منه حُلَّتينِ : حُلَّةً للشتاءِ ، وحُلَّةً للقَيْظِ ، وما أَحُجُّ عليه وأعتمر ، وقُوتِي وقُوتُ عيالي كقوتِ رجلٍ من قريشٍ لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم ، ثمَّ أنا بعدُ رجلٌ من المسلمين ، يُصيبني ما أصابهم)[١] .

* * *

وقال أنس بن مالك : (غلا الطعامُ علىٰ عهد عمر بن الخطاب ، فأكل خبز الشعير ، وكان قبل ذٰلك لا يأكله ، فاستنكره بطنُه فصوَّت ، فضربه بيده وقال : هو واللهِ ما ترىٰ حتىٰ يُوسِّعَ اللهُ على المسلمين)[٢] .

وقال أبو عثمان النَّهْدي : (رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه جُبَّةُ صُوفٍ فيها اثنتا عشرة رُقعةً ، إحداها بأَدَمٍ أحمر)[٣] .

وقال عطاء بن السَّائب : (استعمل عمرُ بنُ الخطاب السَّائبَ بنَ الأقرعِ على المدائن ، فدخل إيواناً من إيوان كسرىٰ ؛ فإذا صنمٌ يشيرُ بإصبعه إلى الأرض قد عقدَ أربعين ، فقال : واللهِ ؛ ما يُشير هٰذا إلى الأرض إلا وثَمَّ شيءٌ ، فاحتفروا فاستخرجوا سَفَطاً فيه جوهر .

فكتب إلىٰ عمر بن الخطاب : أمَّا بعدُ : فإنِّي دخلتُ إيواناً من إيوان كسرىٰ ، فرأيتُ كذا وكذا ، فاحتفرت فأخرجت سَفَطاً فيه جوهرٌ ، فلم أَجِدْ أحقَّ به منك يا أميرَ المؤمنين ، لم يكن من فَيْءِ المسلمين فأَقْسِمَه بينهم ، إنَّما أَصَبنا شيئاً تحتَ الأرض .

فلمَّا قَدِمَ السَّفَطُ علىٰ عُمرَ وعليه خاتَمُ السائب . . فرأىٰ عمرُ فيما يرى النائمُ كأنَّ ناراً أُجِّجَتْ وهو يُرادُ أن يُلقىٰ فيها ، فكتب إلى السائب أنِ اقدَمْ عليَّ .

قال : فقَدِمْتُ عليه وهو يطوفُ في إبل الصدقة ، فطُفتُ معه إلىٰ نصفِ

---

(١) رواه البيهقي في « معرفة السنن والآثار » (١٣١٩٢) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٢٤) ، وابن شبة في « تاريخ المدينة » (٧٤٢/٢) .
(٣) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٣٠٤/٣) .

النهار ، ثُمَّ دعا بماء فاغتسل ، ودعا لي بماء فاغتسلت ، ثُمَّ ذهب إلىٰ منزله فأتىٰ بلحمٍ غليظٍ وخبزٍ متخشِّن فقال : انظر مَنْ على الباب ؛ فإذا سُودانٌ من الصُّوفية ، فأَذِنَ لهم ، فجعل يأكل معهم ؛ فإذا لحمٌ غليظٌ لا أستطيع أنْ أُسِيغَه وقد كنتُ تعوَّدتُ دَرْمَكَ أصبَهان ، إذا وضعتُه في فمي . . دخل بطني ، ثُمَّ دعا بالسَّفَط وقال : أتعرف خاتَمك ؟ قلتُ : نعم ، قال : كتبتَ ترفقُ بي تَزعُمُ أنِّي أحقُّ به ! من أين أصبته ؟ فأخبرتُه ، قال : اذهبْ فاجعله في بيت مال المسلمين حتىٰ أقسِمَه بينهم)[١] .

وقال قتادة : قَدِمَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه الشَّامَ ، فصُنِعَ له طعامٌ لم يُرَ قبلَه مثلُه ، فقال : (هـٰذا لنا ، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير ؟ قال خالدُ بنُ الوليد : لهم الجَنَّة ، فاغرورقت عينا عُمَر وقال : لَئِنْ كان حَظُّنا في هـٰذا الحُطامَ وذهبوا بالجَنَّة . . لقد بَايَنونا بَوْناً بعيداً)[٢] .

وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرَ العُمَرِيُّ : (إنَّ عمر بن الخطاب حين قَدِمَ الشَّامَ قالَ لأبي عبيدةَ : اذهبْ بنا إلىٰ منزلك ، قال : ما تريد إلا أن تَعصِرَ عينيك عليَّ ، قال : فدخل منزله فلم يَر شيئاً ، فقال عمر : أين متاعُك ؟ لا أرىٰ إلا لِبْداً وشَنّاً وصَحْفةً وأنت أمير ، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلىٰ جَوْنة ، فأخذ منها كُسيرات ، فبكىٰ عمر ، فقال أبو عبيدة : قد قلتُ لك : إنك تَعصِرُ عينيك عليَّ ، يا أمير المؤمنين ؛ يكفيك من الدنيا ما بلغك المَقِيل ، فقال عمر : غرَّتنا الدنيا بعدَك يا أبا عبيدة)[٣] .

وقال النَّخَعِيُّ : (بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مُصَدِّقينَ[٤] ، فأبطؤوا

---

(١) رواه بنحوه مختصراً ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٤٦٠) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٢١٧/١) ، والسَّفَط : وعاء يوضع فيه الطِّيب ونحوه من أدوات النساء ، ودَرْمَك : الدقيق الأبيض .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٨/١٣) ، والثعلبي في « تفسيره » (١٤/٩) .

(٣) رواه أبو داوود في « الزهد » (١٢٣) ، والجَوْنة : الخابية المطليَّة بالقار .

(٤) مُصَدِّقين : جمع مُصَدِّق ؛ وهو آخذ الصدقات .

عليه وبالناس حاجة شديدة ، فجاؤوا بالصدقات ، فقام فيها مُتَّزِراً بعباءة يختلفُ في أولها وآخرها ، يقول : هٰذه لآل فلان ، وهٰذه لآل فلان ، حتى انتصف النهار وجاع ، ودخل بيته حتىٰ إذا أمكنَ أكلُه . . أَكلَه ، ثم قال : من أدخله بطنُه النارَ . . أبعده الله)[1] .

وقال طاووس : (أَجدَبَ الناسُ علىٰ عهد عمر رضي الله عنه ، فما أكلَ سَمْناً ولا سَمِيناً حتىٰ أكل الناس)[2] .

وقال سعيد بن جبير : (إن عليّاً رضي الله عنه قَدِمَ الكوفةَ وهو خليفة وعليه إزاران قِطْرِيَّان[3] ، قد رَقَّعَ إزارَه بخِرْقَةٍ ليست قِطْرِيَّةً مِن ورائه ، فجاء أعرابيٌّ فنظر إلىٰ تلك الخِرْقَة فقال : يا أمير المؤمنين ؛ كُلْ من هٰذا الطعام والبَسْ واركبْ ؛ فإنك ميتٌ أو مقتول ، قال : إنَّ هٰذا خير لي في صلاتي ، وأصلحُ لقلبي ، وأشبهُ بسُنَّة الصالحين قبلي ، وأجدرُ أن يَقتديَ بي من أتىٰ بعدي)[4] .

❁ ❁ ❁

وقال الحسن : (إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينما هو يَعُسُّ في المدينة بالليل . . أتىٰ على امرأةٍ من الأنصار تَحمِلُ قِرْبةً ، فسألها عن حالها ، فذكرت أنَّ لها عيالاً وأنه ليس لها خادم ، وأنها تخرجُ بالليل فتسقيهم الماء ، وتكرهُ أن تخرج بالنهار .

فحمل عمر عنها القِرْبةَ حتىٰ بلغ منزلَها وقال لها : أُغدِي علىٰ عُمرَ غُدوةً . . يُخْدِمْكِ خادماً ، قالت : لا أَصِلُ إليه ، قال : إنك ستجدينه إن شاء الله تعالىٰ ،

---

(١) انظر « الجوع » (٢٧) ، و« أنساب الأشراف » (٤٠١/٣) .

(٢) رواه ابن شبة في « تاريخ المدينة » (٧٤٢/٢) .

(٣) قِطريَّان : مثنىٰ قِطْري ؛ وهو ضرب من البرود فيه حُمرة ، ولها أعلام فيها بعض الخشونة ، وقيل غير ذٰلك .

(٤) رواه بنحوه ابن المبارك في « الزهد » (٧٥٦) عن زيد بن وهب الجهني رحمه الله تعالىٰ .

فغدت عليه ؛ فإذا هي به ، فعرفت أنه الذي حمل قِرْبتَها ، فذهبت تُولّي ، فأرسل في إثْرِها وأمرَ لها بخادم ونفقة) .

ولمَّا حَجَّ عمر رضي الله عنه .. قال : (كم بَلغتْ نفقتُنا يا يَرْفأُ ؟[1] قال : ثمانية عشر ديناراً يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! أَجْحَفْنا ببيت مال المسلمين)[2] .

وقال شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ : (لمَّا قَدِمَ عمر الشام .. طاف بِكُوَرِها حتىٰ نزل حِمْصَ فقال : اكتبوا لي فقراءهم ، فَرَفعوا إليه الرُّقعة ؛ فإذا فيها سعيدُ بنُ عامرٍ ، فقال : مَنْ سعيدُ بنُ عامرٍ ؟ قالوا : أميرُنا ، فعَجِبَ عمرُ وقال : كيف يكونُ أميرُكم فقيراً ؟! قالوا : إنه لا يمسك شيئاً .

فبكىٰ عمر وبعث إليه بألفِ دينارٍ يستعينُ بها في حاجته ، فجعل يسترجع ، فقالت له امرأتُه : ما لكَ ؟ أصابكَ أميرُ المؤمنين بشيءٍ ؟ قال : أعظمُ من ذٰلك ؛ أتتني الدنيا ، دخلتْ عليَّ الدنيا ، وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ فُقَرَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِأَرْبَعِينَ عَاماً »[3] ، فوَاللهِ ؛ ما يسرُّني أني حُبستُ عن الرعيل الأول وأنَّ لي به ما طلعت عليه الشمسُ .

قالت : فاصنع فيه ما شئت ، قال : هل عندكِ معونة ؟ قالت : نعم ، فأتته بخمارها ، فصَرَّ الدنانير فيه صُرَراً ، ثمَّ جعلها في مِخْلاةٍ ، وبات يصلي ويبكي حتىٰ أصبح ، فاعترض جيشاً من جيوش المسلمين فأمضاها كُلَّها فقالت امرأته : رحمك الله ، لو حَبَسْتَ منها شيئاً نستعين به ، فقال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لَوِ ٱطَّلَعَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ إِلَى ٱلْأَرْضِ .. لَمَلأَتِ

---

(١) يَرْفأ : مولىٰ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) رواه بنحوه الإمام أحمد في « الورع » (١/٩٥) ، وانظر « وفيات الأعيان » (٢/٣٨٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/٧٧) عن عبد الرحمٰن بن غَنْم رحمه الله تعالىٰ ضمن قصة .

ٱلْأَرْضَ مِنْ رِيحِ ٱلْمِسْكِ »[١] ، فإني واللهِ ما أختارُكِ عليهنَّ ، فسكتت)[٢] .

ورُوي أنَّ عمر رضي الله عنه استعمل علىٰ حِمْصَ رجلاً يقال له : عميرُ بنُ سعد ، فلمَّا مضت السَّنةُ . . كتب إليه عمر أن يَقدَمَ عليه ، فلم يَشعُرْ به عمر أَنْ قَدِمَ ماشياً حافياً معه عُكَّازتُه وإدَاوَتُه ومِزودَتُه وقَصْعتُه علىٰ ظهره ، فلمَّا نَظر إليه عمر . . قال : (يا عميرُ ؛ أَخُنتنا أم البلادُ بلادُ سَوْءٍ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أَمَا نهاكَ اللهُ أن تجهر بالسُّوء وعن سُوء الظن ؟! وما ترىٰ من سُوء الحال وقد جئتُك بالدنيا أَجُرُّها بقِرابها ؟!

قال : وما معك من الدنيا ؟ قال : عُكَّازةٌ أتوكَّأُ عليها وأدفع بها عَدوّاً إنْ لَقِيتُه ، ومِزْوَدي أَحمِلُ فيه طعامي ، وإدَاوتي هـٰذه أحمِلُ فيها ماءً لِشُربي وصَلاتي ، وقَصْعَتي هـٰذه أتوضَّأُ فيها وأغسِلُ فيها رأسي وآكُلُ فيها طعامي ، فواللهِ يا أمير المؤمنين ؛ ما الدنيا بعدُ إلا تبعاً لِمَا معي .

قال : فقام عمر من مجلسه إلىٰ قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فبكىٰ ، ثم قال : اللهمَّ ؛ أَلحِقْني بصاحبيَّ غيرَ مُفتَضحٍ ولا مُبدِّل .

ثمَّ عاد إلىٰ مجلسه فقال : ما صنعتَ في عملك يا عُمير ؟ قال : أخذتُ الرِّقَّةَ من أهل الرِّقَّة ، والإبلَ من أهل الإبل ، وأخذتُ الجزية من أهل الذمة عن يدٍ وهم صاغرون ، ثمَّ قسمتُها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوَاللهِ يا أمير المؤمنين ؛ لو بقي منها شيء عندي . . لأَتيتُك به .

فقال عمر : عُد إلىٰ عملك ، فقال عمير : أنشدك الله ألَّا تَرُدَّني إلىٰ عملي ، ولم أَسلَمْ منه ؛ حتىٰ قلتُ لِذِمِّيٍّ : أخزاك الله ، ولقد خَشِيتُ أن يَخصِمني له محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، ولقد سمعتُه يقول : « أَنَا حَجِيجُ ٱلْمَظْلُومِ ؛ فَمَنْ حَاجَجْتُهُ . . حَجَجْتُهُ » ، ولـٰكن ائذَنْ لي أنْ آتيَ أهلي ، فأذن له فأتىٰ أهله .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥١٥٦) مرسلاً عن الحسن رحمه الله تعالىٰ .
(٢) رواه في « أسد الغابة » (٢/٣٩٤) .

فبعث عمر رجلاً يُقال له : حبيبٌ بمئةِ دينار ، فقال : ائتِ عُميراً فانزِل عليه ثلاثاً ؛ فإن يكن خائناً . . لم يَخْفَ عليك في عيشِه وحالِ أهل بيته ، وإن لم يكن خائناً . . لم يَخْفَ عليك ، فادفع إليه المئةَ دينار ، فأتاه حبيب فنزل به ثلاثاً فلم يَرَ له عَيشاً إلا الشعيرَ والزيتَ .

فلمَّا مضت ثلاثٌ . . قال : يا حبيب ؛ إنْ رأيتَ أن تتحوَّلَ إلىٰ جيراننا . . فلعلَّ أن يكونوا أوسعَ عيشاً مِنَّا ، أمَّا نحنُ . . فوَاللهِ ؛ لو كان عندنا غيرُ هـٰذا . . لآثرناك به .

قال : فدفع إليه المئة دينار وقال : بعث بها إليك أمير المؤمنين ، فدعا بِفَرْوٍ خَلَقٍ لامرأته ، فصرَّها الخمسةَ والسِّتةَ والسَّبعةَ فقسمها .

فقَدِمَ حبيب علىٰ عمر فقال : يا أمير المؤمنين ؛ جئتُك من عند أزهد الناس ، وما عنده من الدنيا لا قليلٌ ولا كثير .

فبعث إليه عمر وقال : ما صنعت بالمئة يا عمير ؟ قال : لا تسلني عنها ، قال : لتخبرني ، قال : قسمتها بيني وبين إخواني من المهاجرين والأنصار ، قال : فأمر له بوَسْقَينِ من طعام وثوبين ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أمَّا الثوبان . . فأقبل ، وأمَّا الوَسْقان . . فلا حاجة لي بهما ، عند أهلي صاعٌ من بُرٍّ هو كافيهم حتىٰ أرجِع إليهم)[1] .

ورُوي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه صَرَّ أربع مئة دينارٍ وقال للغلام : (اذهب بها إلىٰ أبي عبيدة ابن الجراح ، ثمَّ تَلكَّأْ ساعةً في البيت حتىٰ ترىٰ ما يصنع ، فذهب بها الغلام إليه وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هـٰذه في بعض حاجتك ، فقال : وصلَه اللهُ ورَحِمه ، ثمَّ قال : تعالَيْ يا جاريةُ ؛ اذهبي بهـٰذه السبعةِ إلىٰ فلان ، وبهـٰذه الخمسةِ إلىٰ فلان ، حتىٰ أنفذها .

---

(١) رواه بنحوه في « حلية الأولياء » (١/٢٤٨ ـ ٢٤٩) ، و« تاريخ دمشق » (٤٦/٤٩٢ ـ ٤٩٣) ، والوَسْقُ : ستون صاعاً ؛ أي : ما يعادل (١٢٢ . ٤) كيلو غراماً عند الجمهور ، و(١٩٥) كيلو غراماً عند الحنفية .

ورجع الغلام إلىٰ عمر فأخبره ، فوجده قد أعدَّ مثلَها لمعاذِ بنِ جبل ، فقال له : اذهب بها إلىٰ معاذ بن جبل ، وتلكَّأْ في البيت حتىٰ تنظر ما يصنع فيها ، فذهب بها إليه وقال : إن أمير المؤمنين يقول لك : اجعل هـٰذه في بعض حاجتك ، فقال : رَحِمَه اللهُ ووصله ، ثم قال : يا جارية ؛ اذهبي إلىٰ بيت فلانٍ بكذا وإلىٰ بيت فلانٍ بكذا ، فقالت امرأة معاذ : ونحن واللهِ مساكينُ فأعطِنا ، ولم يَبقَ في الخِرْقةِ إلا ديناران ، فَدَحَا بهما إليها ، فرجع الغلام فأخبر بذٰلك عُمَرَ ، فقال عمر : إنهم إخوةٌ بعضُهم من بعض)[1] .

* * *

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/٣٣ ـ ٣٤) ، وابن المبارك في « الزهد » (٥١١) .

الباب الخمسون
في سيرة السلطان في تدوين الدواوين وفرض الأرزاق، وسيرة العمال

اعلموا أرشدكم الله : أنَّ أولَ من اتخذ الدواوين وأجرى الأَعطِية علىٰ ما رُوِيَ : عُمَرُ بن الخطاب رضي الله عنه .

وكان يُفضِّلُ أهلَ السابقة ثُمَّ الذين يَلُونهم ، حتىٰ أجرىٰ على العامة شيئاً واحداً ثلاث مئة دينار ، وأربع مئة دينار ، وفرضَ للعيال مئةَ درهمٍ في كل سنة .

وكان أبو بكر رضي الله عنه يُسوِّي بين الناس في العطاء ، ولا يُفضِّلُ أهلَ السابقة ، ويقول : (إنما عَمِلوا لله ، وأجورُهم على الله ، وإنما هـٰذا المالُ عَرَضٌ حاضرٌ يأكله البَرُّ والفاجرُ وليس ثمناً لأعمالهم)(١) .

وكان عمر رضي الله عنه يقول : (لا أجعلُ من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه)(٢) .

ولم يُقَدِّرْ عمرُ رضي الله عنه الأرزاقَ إلا في ولاية عمَّار بن ياسر ، فأجرىٰ علىٰ عمَّار ستَّ مئةِ درهمٍ مع عطائه لِوُلاته وكُتَّابه ومؤذنه ومَنْ كان يَلِي معه في كلِّ شهر(٣) لما بعثه ، وبعثَ معه عثمانَ بنَ حُنيفٍ وابنَ مسعودٍ إلى العراق .

---

(١) أورده إلىٰ قوله : (على الله) الإمام الشافعي في « الأم » (٣٤٦/٥) .
(٢) رواه البزار في « مسنده » (٢٨٦) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٣٥٠/٦) .
(٣) في (أ ، ب ، ج ، و) : (شيء) .

وأجرىٰ عليه في كلِّ يومٍ نصفَ شاةٍ ورأسَها وجلدَها وأكارعَها ، ونصفَ جَريبٍ في كلِّ يوم ، وأجرىٰ علىٰ عثمانَ بنِ حُنيفٍ رُبعَ شاةٍ وخمسةَ دراهمَ في كلِّ يوم مع عطائه ، وكان عطاؤُه كلَّ عام خمسةَ آلافِ درهمٍ ، وأجرىٰ علىٰ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ مئةَ درهمٍ في كلِّ شهر ورُبعَ شاةٍ في كلِّ يومٍ ، وأجرىٰ علىٰ شُريحٍ القاضي مئةَ درهمٍ في كلِّ شهرٍ وعَشَرةَ أَجْرِبة ، وإنَّما فَضَّلَ عَمَّاراً عليهم ؛ لأنه كان علىٰ الصلاة(١) .

قال مالك : (وكان عمرُ لا يَفرِضُ لصغير يرضَع ؛ فإذا فُطِم .. فَرضَ له ، فمرَّ من الليل وصبي يبكي يبغي الرَّضاعَ وأُمُّه لا تُرضعه ، فقال لها عُمر : أَرضعِيه ، قالت : إذاً لا يَفرِضُ له عمر ، قال : بلىٰ ، هو يَفرِضُ له ، ثم فَرَضَ عمرُ بعد ذٰلك للمولود مئةَ درهم في السنة)(٢) .

قال ابن حبيب : (وفَرضَ عمرُ للعِيالات لكلِّ عَيِّلٍ من ذكر وأنثىٰ : جَريبين من بُرٍّ في كل شهر ، وقِسْطَينِ من زيت ، وقِسْطَينِ من خَلٍّ ، ومئةَ درهمٍ في كلِّ سنة)(٣) .

قال : (والجَريبُ : قَفيزٌ بالقُرطُبِيِّ ، والقِسطُ(٤) : قدر ثُمُنِ رُبعِ الزَّيتِ بالقُرطُبي) .

قال الحسن : (وكان عطاءُ سلمان خمسةَ آلاف درهم ، وكان علىٰ زُهاءِ ثلاثين ألفاً من الناس ، وكان يخطب الناس في عباءة ، يَلبَسُ نصفها ، ويفترش

---

(١) رواه بنحوه البيهقي في « الكبرىٰ » (٦/٣٥٤) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٦/١٠٠ ـ ١٠١) ، وجَريب : مِكيالٌ قدر أربعة أقفزة ؛ أي : ما يعادل (٩٢, ٩٧) كيلو غراماً عند الجمهور ، و(١٥٦) كيلو غراماً عند الحنفية .

(٢) رواه بنحوه أبو عبيد في « الأموال » (٥٩٥) ، وابن زنجويه في « الأموال » (٨٥٢) .

(٣) انظر « الأموال » لأبي عبيد (٦٢٣ ـ ٦٢٤) ، و« الأموال » لابن زنجويه (٨٩٤) .

(٤) القِسْط : مكيال قدر نصف صاع ؛ أي : (١, ٠٢) كيلو غرام عند الجمهور ، و(١, ٦٢٥) كيلو غرام عند الحنفية .

نصفها ، فإذا خرج عطاؤه . . أمضاه ، وكان يَسُفُّ الخُوص ، ويأكل من سَفيفِ يده)[1] .

* * *

وقال الحسن : (قَدِمَ علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفدٌ من أهل البصرة مِن قِبَل أبي موسى الأشعري ، قال : فكنَّا ندخلُ عليه وله كلَّ يوم خبزٌ يُلَتُّ ، فرُبَّما وافقناها مأدومةً بسمن ، وأحياناً بزيت ، وأحياناً باللبن ، ورُبَّما وافقنا القديدَ اليابسَ قد دُقَّ ، ثُمَّ أُغلِيَ عليه بماء ، ورُبَّما وافقنا اللحمَ الغَريضَ وهو قليل .

فقال لهم يوماً : إنِّي واللهِ أرىٰ تقذيرَكم وكراهيتَكم لطعامي ، فإني لو شئتُ . . لكنتُ أطيبَكم طعاماً ، وأَرقَّكم عيشاً ، أَمَا واللهِ ؛ ما أجهلُ كراكرَ وأَسنِمةً ، وصِلاءً وصِناباً وصَلائِق ـ قال[2] : والصِّلاء : الشِّواء ، والصِّناب : الخَرْدَل ، والصَّلائق : الخبزُ الرُّقاق ـ ولـٰكنِّي سمعت الله تعالىٰ عَيَّرَ أقواماً بأمرٍ فعلوه ؛ فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[3] .

فكلَّمَنا أبو موسىٰ فقال : لو كلَّمتُم أميرَ المؤمنين . . لفرضَ لكم من بيت المال طعاماً تأكلونه ، فكلَّمناه ، فقال : يا معشر الأمراء ؛ هل تَرضَوْنَ لأنفسكم ما أرضىٰ لنفسي ؟ فقلنا : يا أمير المؤمنين ؛ إنَّ المدينةَ أرضٌ العيشُ بها شديدٌ ، ولا نرىٰ طعامك يُغشَىٰ ، ولا يُؤكل طعامك ، وإنَّا بأرضٍ ذاتِ رِيفٍ ، وإنَّ أميرَنا يُغشَىٰ ، وإنَّ طعامه يُؤكل .

قال : فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه فقال : قد فرضتُ لكم من بيت المال

---

(١) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٤/٨٠) ، والإمام أحمد في « الزهد » (٨١٥) ، ويَسُفُّ الخُوص : ينسج ورق النخل بأصابعه .

(٢) القائل هو جرير بن حازم الذي روىٰ عن الحسن كما في المصدر .

(٣) سورة الأحقاف : (٢٠) .

شاتين وجَرِيبين ، فإذا كان بالغداة . . فضع إحدى الشاتين علىٰ أحد الجَرِيبين ، فَكُلْ أنت وأصحابك ، ثمَّ ادعُ بشرابٍ ، ثمَّ اسقِ الذي عن يمينك ، ثم اسقِ الذي عن يسارك ، ثُمَّ قُمْ لحاجتك ، فإذا كان المساء . . فضع الشاة الغابرة على الجَرِيب الآخَر ، فكلْ أنت وأصحابك ؛ أَلَا وأشبعوا الناس في بيوتهم ، وأطعموا عيالهم ، واللهِ ؛ ما أظن رُستاقاً يؤخذ منه كُلَّ يومٍ شاتان وجَرِيبان إلا يُسرعان في خَرابه)[1] .

وكان عمر قد أطعم جَرِيبين بالخَلِّ والزيت لثلاثين رجلاً فكفاهم ، فأجراه علىٰ كلِّ رجلٍ في كلِّ شهر ممَّن كان في الدِّيوان مكانَ ما كانت فارسُ تُجرِيه علىٰ خُيولهم وأَساوِرِهم[2] .

وقال سعيدُ بنُ المُسيَّب وأبو سلمةَ : (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا العيال ، يُسلِّمُ علىٰ أبوابِهن ويقول : ألكم حاجة ؟ وأيَّتكُنَّ تريدُ أن تشتري شيئاً ؟ فيُرسِلْنَ معه بحوائجهن ، ومن ليس عندها شيء . . اشترىٰ لها من عنده ، وإذا قَدِمَ الرَّسولُ من بعض الثُّغور . . يَتْبَعُهنَّ بنفسه في منازلهن بِكُتُبِ أزواجهنَّ ويقولُ : أزواجُكنَّ في سبيلِ الله ، وأنتنَّ في بلدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن كان عندكنَّ مَنْ يقرأُ ، وإلَّا . . فادْنِينَ من الأبواب حتىٰ أقرأَ لكُنَّ ، ثم يقول : الرسولُ يخرجُ يومَ كذا وكذا ، فاكتُبْنَ حتىٰ نبعثَ بكُتُبِكُنَّ ، ثمَّ يدورُ عليهنَّ بالقَراطيس والدَّوَاةِ يقول : هٰذه دَواةٌ وقِرطاسٌ فادْنِينَ من الأبوابِ حتىٰ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٧٩) ، وفيه : (. . . وفد من أهل البصرة مع أبي موسى الأشعري) ، وفي (ج ، د ، هـ) : (من آل أبي موسىٰ) ، والقديد من اللحم : ما قُطِّع طولاً ومُلِّحَ وجُفِّفَ في الهواء والشمس ، والغَريض : الطري ، والكَرَاكِرُ : جمع كِرْكِرَة ؛ وهي الصدر من كل ذي خُفٍّ ، وأَسنِمة : جمع سَنام ؛ وهو كتل من الشحم محدَّبة علىٰ ظهر البعير والناقة ، والصِّناب : طعام يؤتدم به من الخردل والزبيب ، والخردل : نبات عشبي ، والغابرة : الباقية ، ورُستاق : لفظة تطلق على الناحية أو الموضع .

(٢) أَساورهم : جمع إسْوَار ؛ وهو قائد الفُرْس .

أكتبَ لَـكُنَّ ، ويَمُرُّ إلى المُغِيبات فيأخذُ كُتُبَهُنَّ فيبعثُ بها إلىٰ أزواجهن)[١] .

* * *

وقال الربيعُ بنُ زيادٍ الحارثيُّ : (كنتُ عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتبَ إليه عمرُ بن الخطاب يأمرُه بالقُدوم عليه هو وعُمَّالُه ، وأن يَستخلفوا جميعاً ، فلمَّا قدمتُ المدينةَ . . أتيت يَرْفَأَ فقلتُ : يا يَرْفَأُ ؛ مسترشدٌ وابنُ سبيلٍ ، أيُّ الهيئاتِ أحبُّ إلىٰ أمير المؤمنين أن يَرىٰ فيها عُمَّالَه ؟

فأومأ إلى الخُشونة ، فاتخذت خُفَّين مُطَارَقَينِ[٢] ، ولَبِسْتُ جُبَّةَ صُوفٍ ، ولُثْتُ عِمامتي علىٰ رأسي[٣] .

فدخلنا علىٰ عمر فصفَّنا بين يديه ، فصعَّدَ فينا وصَوَّبَ[٤] ، فلم تأخذْ عينُه غيري ، فدعاني فقال : من أنت ؟ قلتُ : الربيعُ بنُ زيادٍ الحارثيُّ ، قال : وما تتولَّىٰ من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : وكم تَرتزِقُ ؟ قلت : ألفاً ، قال : كثيرٌ ، فما تصنع فيها ؟ قلت : أتقوَّتُ منها شيئاً ، وأعودُ علىٰ أقاربَ لي ، فما فَضَلَ عنهم . . فعلىٰ فقراء المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجِعْ إلىٰ موضعك .

فرجعتُ إلىٰ موضعي من الصَّفِّ ، فصعَّدَ فينا وصَوَّبَ ، فلم تقعْ عينُه إلا عليَّ ، فدعاني فقال : كم سِنُّك ؟ قلت : خمسٌ وأربعون سنة ، قال : الآنَ حين استحكمتَ .

ثمَّ دعا بالطعام وأصحابي حديثُو عهدٍ بلَيِّنِ العيشِ ، وقد تجوَّعتُ له ، فأتىٰ بخبزٍ وأعضاءِ بعيرٍ ، فجعل أصحابي يَعافون ذٰلك ، وجعلتُ آكلُ وأُجيدُ ، وجعلتُ أَنظرُ إليه يلحَظُني من بينهم .

---

(١) أورده المحب الطبري في « الرياض النضرة » (٣١٦/٢) ، والمُغِيبات : جمع مُغيبة ـ بتسكين الغين وكسرها ـ ؛ وهي المرأة التي غاب عنها زوجها .

(٢) خُفَّين مُطارقين : مُطبقين واحداً فوق الآخر .

(٣) لُثْتُ عمامتي : أدرتها بعضَها علىٰ بعض علىٰ غير استواء .

(٤) صعَّد فينا : رفع رأسه فنظر الأعلىٰ مراراً ، وصوَّب : خفض رأسه فنظر الأسفل مراراً .

ثمَّ سبقَتْ منِّي كلمةٌ تمنَّيتُ أنِّي سُخْتُ في الأرض ولم أَقُلْها[١] ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إنَّ الناس يحتاجون إلىٰ صلاحك ، فلو عَمَدْتَ إلىٰ طعامٍ أَلْيَنَ من هٰذا ، فزجرني ثمَّ قال : كيف قلتَ ؟ فقلتُ : أقولُ يا أمير المؤمنين ؛ لو تنظرُ إلىٰ قُوتِكَ من الطَّحين أنْ يُخبَزَ لك قبل إرادتك إيَّاه بيومٍ ، ويُطبخَ لك اللحمُ كذٰلك ، فتُؤتَىٰ بالخبز لَيِّناً وباللحمِ غَريضاً ، فسَكَنَ غَرْبُه ، ثم قال : أهٰهنا غُرْتَ ؟ قلت : نعم ، فقال : يا ربيعُ ؛ إنَّا لو شئنا . . لملأنا هٰذه الرِّحابَ من صلائِقَ وسَبائِك - يعني : خُبزَ الحُوَّارىٰ - ولٰكنِّي رأيتُ اللهَ تعالىٰ عابَ علىٰ قومٍ شهواتِهم ؛ فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾[٢] ، ثمَّ أمرَ أبا موسىٰ بإقراري علىٰ عَمَلي ، وأنْ يَستبدِلَ بأصحابي)[٣] .

وقال قَبيصةُ بنُ ذؤيب : (دعا عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه عبدَ اللهِ بنَ سعد[٤] ، وكان علىٰ أهل حِمْصَ ، فقال : علام يُحبُّك أهلُ الشام ؟ قال : إنِّي أحببتهم فأَحَبُّوني ، قال : ما مالُكَ اليوم ؟ قلت : عبدي وفرسي ونعلي وخادمي ، قال : فماذا تَلبَسُ في الشِّتاء ؟ قلت : عِصابةً أَشُدُّ بها رأسي ، وجُبَّةً وكِساءً ، قال : فما تَلبَسُ في الصَّيف ؟ قلت : قميصاً ورَيْطةً[٥] .

فأعطاني عُمرُ ألفَ دينارٍ وقال : خُذها واستنفِقْ منها وأعط منها ، قلت : لا أَرَبَ لي فيها ، وسَتجِدُ من هو أحوجُ إليها مِنِّي ، قال : خُذها ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلَّم دَفعَ إليَّ مالاً وهو دون الذي أعطيتُك ، فقلت له كما قلتَ لي ، فقال : « يَا عُمَرُ ؛ مَا آتَاكَ ٱللهُ مِنْ هَـٰذَا ٱلْمَالِ عَطَاءً مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْرِضَ لَهُ أَوْ تُشْرِفَ لَهُ نَفْسُكَ . . فَٱقْبَلْهُ » .

---

(١) سُخْتُ في الأرض : غُصْتُ .

(٢) سورة الأحقاف : (٢٠) .

(٣) أورده المبرد في « الكامل » (١/١٩٩ ـ ٢٠١) ، وابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١/١٤ ـ ١٥) ، وغَرْبُه : حِدَّتُه ، وغُرْتَ : طلبت ، والحُوَّارىٰ : الدقيق الأبيض .

(٤) في (أ ، ب) : (عبد الله بن سعدىٰ) ، و(ج) : (عبيد الله بن سعد) .

(٥) الرَّيْطة : كل ثوب رقيق ليِّن .

فأخذه فانطلق به إلى امرأته فقال : أَتَرَيْنَ رجلاً له هٰذا المال من فقراء المهاجرين هو أم من الأغنياء ؟ فقالت : بل من الأغنياء ، فَقَسَمها حتَّىٰ بَقِيَتْ منها صُرَّةٌ أظنُّ فيها ثلاثين أو نحوَ ذٰلك ، فقالت له امرأتُه : أليس لي أنا حقٌّ ؟ فأعطاها إيَّاها)[١] .

وقال رَجاءُ بنُ حَيْوةَ : (بينا نحنُ بخُناصِرَةَ . . إذا بامرأةٍ تسألُ عن دارِ عُمرَ بنِ عبد العزيز رضي الله عنه ، فأرشدناها إلى الدار ، فرأتْ داراً مُتهشِّمةً ، فقالت لخيَّاط هناك : استأذنْ لي علىٰ فاطمةَ امرأةِ عمرَ بنِ عبد العزيز ، فقال : أُدخلي وصَوِّتي بها ، فإنها تأذَنُ لكِ .

فدخلَتْ ، فلمَّا أَبصرَتْ ما هناك . . قالتْ : جئتُ أَرُمُّ فَقْري من بيت الفقراء ؟![٢] وإذا رجلٌ يعملُ في الطين ، فسألَتْها عن أمير المؤمنين ، فقالت : هو ذاك يعملُ في الطين ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ؛ مات زوجي وترك لي ثمانيَ بناتٍ .

فبكىٰ عمرُ بكاءً شديداً ، ثم قال لها : ما تريدين ؟ قالت : تفرِضُ لهنَّ ، قال : نَفرِضُ للكبرىٰ ، ما اسمُها ؟ قالت : فلانة ، فكتبها ، فقالت : الحمدُ لله ، قال : وما اسمُ الثانية ؟ قالت : فلانة ، فكتبها ، فقالت : الحمد لله . . . حتىٰ كتبَ السابعةَ ، فقالت : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، فطرحَ القلمَ من يده وقال لها : أَمَا إنَّكِ لو واليتِ الحمدَ أهله . . لأتممناهن لك ، مُرِي السبعَ فَلْيُواسِينَ هٰذه الثامنة) .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه بنحوه مختصراً الطبراني في « الأوسط » (٤٨٢٠) .
(٢) في (أ ، ب) : (الفقر) ، و(و) : (المال) .

الباب الحادي والخمسون

في أحكام أهل الذمة

[كتاب نصارى الشام لسيدنا عمر رضي الله عنه]

روىٰ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ غَنْمٍ قال : (كتبنا لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارىٰ أهل الشام :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هـٰذا كتابٌ لعبد الله عمرَ أميرِ المؤمنين من نصارىٰ مدينة كذا وكذا :

إنَّكم لمَّا قَدِمتُم علينا . . سألناكم الأمانَ لأنفسنا وذَرارِينا وأموالِنا وأهلِ مِلَّتِنا ، وشَرَطْنا لكم علىٰ أنفسنا : أَلَّا نُحدِثَ في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسةً ولا قلَّايةً ولا صومعةَ راهب(١) ، ولا نُجدِّد ما خَرِبَ منها ، ولا ما كان منها في خِطَطِ المسلمين في ليل ولا نهار ، وأنْ نُوسِّعَ أبوابَها للمارَّة وابنِ السبيل ، وأن نُنزِلَ مَنْ مَرَّ بنا من المسلمين ثلاثَ ليالٍ نُطعمهم .

ولا نَأْويَ في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتُمَ غِشّاً للمسلمين ، ولا نُعلِّمَ أولادَنا القرآن ، ولا نُظهرَ شرعَنا ، ولا ندعوَ إليه أحداً ، ولا نمنعَ أحداً من ذوي قراباتنا الدخولَ في الإسلام إن أراده .

وأن نَوقِّرَ المسلمين ونقومَ لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبَّهَ بهم في شيء من لباسهم ؛ من قَلَنْسُوةٍ ، ولا عِمامةٍ ، ولا نعلينِ ، ولا فَرْقِ شعرٍ ، ولا نتكلَّم بكلامهم ، ولا نتكنَّىٰ بكُناهم .

---

(١) قَلَّاية : من بيوت عبادات النصارىٰ .

ولا نركب السُّروج ، ولا نتقلّد السيوف ، ولا نتَّخِذ شيئاً من السلاح ولا نَحمِلَه معنا ، ولا نَنقُش على خواتيمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمورَ ، وأنْ نَجُزَّ مَقادِمَ رؤوسِنا ، ونَلزمَ زِيَّنا حيثُما كُنَّا ، وأنْ نَشُدَّ الزَّنانيرَ على أوساطنا ، ولا نُظهر صُلبانَنا وكُتبَنا في شيء من طرقِ المسلمين ولا أسواقهم .

ولا نَضرِب بنواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ، ولا نرفع أصواتَنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نُخرِج شَعانِينَنا ولا بَاعُوثنا[1] ، ولا نرفع أصواتَنا مع موتانا ، ولا نُظهر النيرانَ في شيءٍ من طُرقِ المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهامُ المسلمين ، ولا نطَّلع على منازلهم .

فلمَّا أتيتُ عمرَ رضي الله عنه بالكتاب . . زادَ فيه : ولا نضرب أحداً من المسلمين ، شَرَطْنا ذٰلك على أنفسنا وأهلِ مِلَّتنا ، وقَبِلنا عليه الأمان ؛ فإنْ نحنُ خَالَفْنا شيئاً ممَّا شَرَطْناه لكم وضَمِنَّاه على أنفسنا . . فلا ذِمَّة لنا ، وقد حَلَّ مِنَّا ما يَحُلُّ من أهل المعاندة والشِّقاق .

فكتب إليه عمر رضي الله عنه : أنْ أمضِ ما سألوه ، وألحِقْ فيه حرفين اشترطْهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم : ألَّا يشتروا شيئاً من سَبايا المسلمين ، ومن ضربَ مسلماً عمداً . . فقد خَلَع عَهدَه)[2] .

وروى نافعٌ عن أسلمَ مولى عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنَّ عمرَ كتبَ إلى أهل الشام في النصارى : (أنْ يقطع رَكْبهم ، وأن يركبوا على الأُكُف ، وأن يركبوا في شِقٍّ ، وأن يَلبَسُوا خلافَ زِيِّ المسلمين ؛ ليُعرفوا)[3] .

---

(١) الشَّعانين : عيد للنصارى ، يقع يوم الأحد السابق لعيد الفِصْح ، يُحتفل فيه بذكرى دخول السيد المسيح بيت المقدس ، والباعوث : استسقاء النصارى .

(٢) رواه البيهقي في « الكبرى » (٢٠٢/٩) ، وابن الأعرابي في « المعجم » (٣٦٥) إلى قوله : (المعاندة والشقاق) .

(٣) رواه بنحوه أبو عبيد في « الأموال » (١٤٤) ، وابن زنجويه في « الأموال » (٢١٤) ، والأُكُف : جمع ←

ورُوِيَ أنَّ بني تغلبَ دخلوا علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيز فقالوا : (يا أمير المؤمنين ؛ إنَّا قومٌ من العرب ، اِفرِضْ لنا ، قال : نصارىٰ ؟ قالوا : نصارىٰ ، قال : ادعوا لي حَجَّاماً ، ففعلوا ، فجزَّ نواصيهم ، وشَقَّ من أَرْدِيَتهم حُزَماً يحتزمونها ، وأمرهم ألَّا يركبوا السُّروج ويركبوا الأُكُفَ من شِقٍّ واحد) .

❁ ❁ ❁

ورُوِيَ أن أمير المؤمنين جعفراً المُتوكِّلَ أقصى اليهودَ والنصارىٰ ولم يستعملهم ، وأذلَّهم وأقصاهم ، وخالفَ بين زِيِّهم وزِيِّ المسلمين ، وجعل علىٰ أبوابهم[1] مثالاً للشياطين ؛ لأنهم أهلُ ذٰلك ، وقرَّبَ منه أهلَ الحق ، وباعدَ عنه أهلَ الباطل والأهواء ، فأحيا الله به الحقَّ ، وأماتَ به الباطل ، فهو يُذكر بذٰلك ويُترحَّمُ عليه ما دامت الدنيا[2] .

وكان عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه يقول : (لا تستعملوا اليهودَ والنصارىٰ ؛ فإنهم أهلُ رِشاً في دينهم ، ولا تَحِلُّ الرِّشا)[3] .

ولمَّا استقدَمَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعريَّ من البصرة ـ وكان عاملاً عليها ـ للحساب . . دخل علىٰ عُمَرَ وهو في المسجد ، واستأذن لكاتبه وكان نصرانياً ، فقال له عمر : (قاتلكَ اللهُ ـ وضرب بيده علىٰ فخذه ـ وَلَّيْتَ ذِمِّيّاً على المسلمين ؟! أما سمعتَ اللهَ تعالىٰ يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾[4] ، أَلَا اتخذت حنيفيّاً ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لي كتابتُه وله دينُه ، فقال : لا أُكرمُهم إذ

← أُكاف ووكاف ؛ وهو بَرْذَعة الحمار وغيره .

(١) في (د ، ز) : (أثوابهم) .

(٢) انظر « تاريخ الخلفاء » (ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨) .

(٣) أورده في « الآداب الشرعية » (٢/١٠٠) .

(٤) سورة المائدة : (٥١) .

أهانهم الله ، ولا أُعِزُّهم إذ أذلَّهم الله ، ولا أُدْنِيهم إذ أقصاهم الله)[١] .

وكتبَ بعضُ العُمَّال إلىٰ عُمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنَّ العدوَّ قد كَثُرَ ، وأنَّ الجِزْيَة قد كَثُرَتْ ، فنستعين بالأعاجم ؟ فكتب إليه عمر : (إنَّهم أعداءُ الله ، وإنَّهم لنا غَشَشَةٌ ، فأنزلوهم حيثُ أنزلهم اللهُ ، ولا تَرُدُّوا إليهم شيئاً)[٢] .

وقالَ عمرانُ بنُ أَسَدٍ[٣] : أتانا كتابُ عُمَرَ بنِ عبد العزيز إلىٰ محمدِ بنِ المنتشر : (أمَّا بعدُ : فإنه بلغني أنَّ في عملك رجلاً يقال له : حسَّانُ بنُ برزىٰ[٤] علىٰ غير دين الإسلام ، واللهُ تعالىٰ يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٥] ، فإذا أتاك كتابي هـٰذا . . فادعُ حسَّان إلى الإسلام ؛ فإنْ أسلمَ . . فهو منَّا ونحنُ منه ، وإنْ أبىٰ . . فلا تستعنْ به ، ولا تأخذ من غير أهل الإسلام علىٰ شيء من أعمال المسلمين ، فقرأ الكتاب عليه فأسلَمَ ، وعلَّمه الطهارة والصلاة)[٦] .

ولمَّا خرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ بَدْرٍ . . تَبِعَه رجل من المشركين ، فلَحِقَه عند الحَرَّة ، فقال : إني أريد أن أَتَّبِعكَ وأُصيبَ معك ، قال : « تُؤْمِنُ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ ؟ » قال : لا ، قال : « فَٱرْجِعْ ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ » ، ثُمَّ لَحِقَه عند الشجرة ، ففرح به أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وكان له قُوَّةٌ وجَلَدٌ ، فقال : جئتُك لأَتَّبِعَكَ وأُصِيبَ معك ، قال : « تُؤْمِنُ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ ؟ » قال : لا ، قال : « فَٱرْجِعْ ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ » ، ثمَّ لحقه علىٰ ظهر البيداء ، فقال له مثلَ

---

(١) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٤٣/١) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (١٣٥/٣) .

(٢) أورده بنحوه في « إعتاب الكتاب » (ص ٥١) .

(٣) في (ب ، ج ، هـ) : (عمر بن أسد) ، وفي (و) : (عثمان بن أسيد) .

(٤) في (أ) : (بدري) ، و(ج) : (مروي) ، و(د) : (بودي) ، و(هـ) : (مرزىٰ) ، و(ح) : (بردا) .

(٥) سورة المائدة : (٥٧) .

(٦) أورده بنحوه في « أحكام أهل الذمة » (٤٥٩/١) .

ذٰلك ، قال : « تُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ؟ » قال : نعم ، قال : فخرج به[1] .

وهٰذا أصلٌ عظيمٌ في أَلَّا يُستعانَ بكافر ، هٰذا وقد خرجَ ليقاتلَ بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ويُراقَ دمُه ، فكيف استعمالُهم علىٰ رقاب المسلمين ؟!

وكتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلىٰ عُمَّاله : (أَلَّا تُولُّوا علىٰ أعمالنا إلا أهلَ القرآن) ، فكتبوا إليه : إنَّا وجدنا فيهم خيانةً ، فكتبَ إليهم : (إن لم يكن في أهل القرآن خيرٌ . . فأجدرُ أَلَّا يكونَ في غيرهم خيرٌ)[2] .

فَصْلٌ

[في بيان بعض أحكام أهل الذمة]

ومتىٰ نَقَضَ الذميُّ العهدَ بمخالفة شيء من الشروط المأخوذة عليه . . لم يُرَدَّ إلىٰ مَأْمنِه ، والإمامُ فيه بالخِيار بين القتل والاسترقاق .

وقال أصحابُ الشافعي : (ويلزمهم أن يتميَّزوا عن المسلمين في اللباس ، وإن لَبِسُوا قلانس . . ميَّزوها عن قلانس المسلمين بالخَرق ، ويَشدُّون الزنانير في أوساطهم ، ويكون في رقابهم خاتَمٌ من رصاصٍ أو نحاسٍ أو جَرَسٌ يدخلُ معهم الحَمَّامَ ، وليس لهم أن يلبَسوا العمائم والطَّيلَسان .

وأما المرأةُ . . فَتشدُّ الزُّنَّار تحت الإزار ، وقيل : فوق الإزار وهو الأَولىٰ ، ويكون في عُنقها خاتَم يدخلُ معها الحمَّام ، ويكون أحدُ خُفَّيها أسودَ والآخَرُ أبيضَ .

ولا يركبون الخيل ، ويركبون البغال والحمير بالأُكُف عَرْضاً ، ولا يركبون السُّروج ، ولا يُصدَّرون في المجالس ، ولا يُبدؤون بالسلام ، ويُلجؤون إلىٰ أضيق

---

(١) رواه مسلم (١٨١٧) ، والإمام أحمد (١٤٩/٦) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه ابن الجوزي في « سيرة عمر بن عبد العزيز » (ص ١٢٤) .

الطرق ، ويُمنعون أن يعلوا على المسلمين في البناء ، وتجوز المساواة ، وقيل : لا تجوز ، بل يمنعون ، وإن تملَّكوا داراً عالية . . أُقِرُّوا عليها .

ويُمنعون من إظهار المنكر والخمر والخنزير والناقوس ، والجهرِ بالتوراة والإنجيل ، ويُمنعون من المُقام في الحجاز ؛ وهي : مكة ، والمدينة ، واليمامة .

ويَجعلُ الإمامُ علىٰ كل طائفة منهم رجلاً يكتبُ أسماءَهم وحِلاهم(١) ، ويستوفي ما يُؤخذون به من جميع الشرائط .

وإن امتنعوا من أداء الجِزية والتزامِ أحكام المِلَّة . . انتقضَ عهدُهم .

وإن زنىٰ أحدهم بمسلمة ، أو أصابها بنكاح ، أو آوىٰ عيناً للكفار ، أو دلَّ علىٰ عورة المسلمين ، أو فَتنَ مسلماً عن دينه ، أو قتلَه ، أو قطعَ عليه الطريق ، أو ذكر الله ورسوله بما لا يجوز . . قيل : يَنتقض .

وإن فعل ما مُنِعَ منه ممَّا لا ضررَ فيه ؛ كترك الغِيار ، وإظهارِ الخمر ، وما أشبههما . . عُزِّرَ عليه ، ومتىٰ فعل ما يوجب نقضَ العهد . . رُدَّ إلىٰ مأمنه في أحد القولين ، وقُتِلَ في الحال في القول الآخر)(٢) .

فَصْلٌ

[في اختلاف العلماء في تقدير الجزية]

في تقدير الجِزية اختلافٌ بين العلماء :

فقيل : إنها مُقدَّرةُ الأقلِّ والأكثرِ علىٰ ما كَتبَ به عمرُ إلىٰ عثمانَ بنِ حُنيفٍ بالكوفة ، فوقعَ على الغنيِّ : ثمانيةٌ وأربعون درهماً ، وعلىٰ من دونه : أربعة وعشرون درهماً ، وعلىٰ من دونه : اثنا عشر درهماً ، وذٰلك بمحضر من

(١) حِلاهم : جمع حِلية ؛ وهي الصفة والخِلقة والصورة .

(٢) أورده الشيرازي في « التنبيه » (ص ١٤٦ ـ ١٤٧) ، والغِيار : علامة أهل الذمة كالزُّنَّار للمجوسي ونحوه يشده علىٰ وسطه .

الصحابة ، ولم يخالفه أحد ، وكان الصرفُ اثني عشر درهماً بدينار ، وهٰذا مذهب أبي حنيفة وأحمد ابن حنبل وأحدُ قولي الشافعي ، وجعلوه كأنه حكم إمام فلا ينقض .

وقيل : إنها مردودة إلى الإمام في الزيادة والنقصان ، وهو الأقيس .

وقيل : إنها مُقدَّرةُ الأقلِّ دون الأكثر ، فيجوز للإمام أن يزيد علىٰ ما قدَّره عمرُ ، ولا يجوز أن ينقص منه .

وقال بعضهم : يجوز أن يساوي بينهم من كل واحد دينار .

وقال مالك : يؤخذ من الموسرين : أربعون درهماً ، ومن الفقير : دينارٌ وعَشَرةُ دراهم .

ويتخرَّج علىٰ مذهب مالك في وجوب تقدير طرفيها قولان ، بناءً علىٰ أنَّ العُشرَ المأخوذَ منهم : هل هو تقدير شرعي لا تجوز فيه الزيادة والنقصان ؟ وعن مالك فيه روايتان .

ولا جزيةَ على النساء والمماليك والصبيان والمجانين [1] .

***

وكتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلىٰ عبدِ الحميد بنِ عبد الرحمٰن : (سلامٌ عليك ، أمَّا بعدُ : فإنَّ أهل الكوفة قد أصابهم بلاءٌ وشدةٌ وجَوْرٌ من العُمَّال ، وسننٌ خبيثةٌ سَنَّها عليهم عمالُ السَّوء ، فأحرز عليهم أرضَهم ، ولا تحمِلْ خراباً علىٰ عامر ، ولا عامراً علىٰ خراب .

ولا تأخذ من الخراب إلا ما يُطيقون ، ولا من العامر إلا وظيفةَ الخَراج إلا وزنَ سبعةٍ ليس لها آسٍ ، ولا أجور الضرابين ، ولا أداة الفضة ، ولا هدية النَّيروز

(١) انظر « المنتقىٰ شرح موطأ مالك » للباجي (٣/٢٧٨) ، و« المغني » لابن قدامة (١٣/٢٠٩ ـ ٢١٩) ، و« أحكام أهل الذمة » لابن القيم (١/١٢٣ ـ ١٢٨) .

والمهرجان ، ولا ثمن المصحف ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا خَراجَ علىٰ من أسلمَ من أهل الأرض)[١] .

والواجبُ أنْ يُؤخذَ ما ضَرَبَه عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

وهو : من كلِّ جَرِيبِ كَرْمٍ : عَشَرةُ دراهمَ ، ومن كلِّ جَرِيبِ نخلٍ : ثمانيةُ دراهمَ ، ومن كلِّ جَرِيبِ حنطةٍ : أربعةُ دراهمَ ، ومن كلِّ رَطْبةٍ أو شجرٍ : ستةُ دراهمَ ، ومن كُلِّ جَرِيبِ شعيرٍ : درهمان[٢] .

فَصْلٌ

[في حكم الكنائس]

فأمَّا الكنائس : فأمرَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه أنْ تُهدَمَ كلُّ كنيسةٍ لم تكن قبل الإسلام ، ومَنَعَ أن تحدث كنيسة ، وأمر ألَّا تظهرَ عِلِّيَّةٌ خارجةٌ من كنيسة ، ولا يظهرَ صليبٌ خارجٌ من كنيسة . . إلا كُسِرَ علىٰ رأس صاحبه[٣] .

وكان عروة بن محمد يَهدِمُها بصنعاء ، وهٰذا مذهب علماء المسلمين أجمعين .

وشدَّدَ في ذٰلك عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وأمرَ ألا يُترك في دار الإسلام بيعةٌ ولا كنيسةٌ بحالٍ قديمة ولا حديثة[٤] .

وهٰكذا قال الحسن البصري : (مِن السُّنَّة : أن تُهدمَ الكنائسُ التي في الأمصار القديمة والحديثة)[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٣٨٩) ، وأبو عبيد في « الأموال » (١٢٤) ، وفيهما : (ولا إذابة الفضة) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٣٨٣) .

(٣) رواه في « تاريخ دمشق » (١٨٢/٢) ، وانظر « أحكام أهل الذمة » (١٢١٧/٣) .

(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٥٩/٦) ، وانظر « أحكام أهل الذمة » (١١٨٤/٣) .

(٥) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦٠/٦) ، وانظر « أحكام أهل الذمة » (١١٩٤/٣) .

ويُمنع أهلُ الذِّمَّةِ من بناء ما خَرِبَ .

وقال الإصطَخْرِيُّ : (إن طَيَّنوا ظاهر الحائط .. مُنِعُوا ، وإن طَيَّنوا داخله الذي يليهم .. لم يمنعوا ، ويُمنعون أنْ يَعلُوا على المسلمين في البناء ، وتجوز المساواة ، وقيل : لا تجوز)[1] .

❋ ❋ ❋

(١) انظر « أحكام أهل الذمة » (٣/١٢١٤) .

الباب الثّاني والخمسون

في بيان الصّفات المعتبرة في الولاة

اعلمْ أرشدكَ اللهُ : أنَّ منزلةَ العُمَّال من الوالي منزلةُ السلاح من المقاتل ؛ فاجهدْ جَهْدَكَ في ابتغاء صالح العُمَّال .

وإذا فَقدَ الوالي عُمَّالَ الصِّدقِ . . كان كفقدِ المقاتلِ للسِّلاح يومَ الحرب ، ويحتاجُ إلىٰ طبقاتِ الرجال كما تحتاجُ الحربُ إلىٰ أصناف العُدَّة ؛ فمنها : الدَّرَقُ للاستجنان [١] ، والسَّيفُ للمناجزة ، والرُّمحُ للمطاعنة ، والسَّهمُ للمباعدة ، والدِّرعُ للتحصُّن ، ولكلٍّ منها موضعٌ ليس للآخَر .

والرجالُ للملك كالأداةِ للصانع لا يَسُدُّ بعضُها مَسَدَّ بعضٍ ، كذٰلك طبقات الرجال للملك ؛ منهم للرأي والمشورة ، ومنهم لإدارة الحرب ، ومنهم لمباشرة الحرب ، ومنهم لجمع الأموال ، ومنهم لحفظها ، ومنهم للحماية ، ومنهم للكتابة ، ومنهم للجَمال والفخر ، ومنهم للمباهاة والذِّكر ، ومنهم للدُّعاء والوَقار ، ومنهم للعلمِ والفُتيا وحفظِ أساس المِلَّة ، فلا يَكمُلُ للمَلِكِ مُلكٌ ما لم تجتمعْ له هٰذه الطبقات .

وقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه : لـمَّا مات كسرىٰ . . بلغ موتُه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مَنِ ٱسْتَخْلَفُوا ؟ » قالوا : ابنتَه بُوران ، قال : « لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ أَسْنَدُوا أَمْرَهُمْ إِلَى ٱمْرَأَةٍ » [٢] .

وقال ابن عباس لَـمَّا كانت فتنةُ الحَرَّة : من استعملَ القومُ ؟ قالوا : عبدَ اللهِ بنَ

---

(١) الدَّرَق : جمع دَرَقَة ؛ وهي التُّرسُ من جِلد ، والاستجنان : الاستتار .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٣٦٨٥) عن أبي بكرة رضي الله عنه ، وبنحوه الإمام أحمد (٣٨/٥) .

مطيع علىٰ قريش ، وعبدَ اللهِ بنَ حنظلة بن الراهب على الأنصار ، قال : أميران ! هلكَ واللهِ القومُ)[١] .

وليس يُشترط النَّسبُ إلا في الإمامة العظمىٰ دون سائر الولايات .

ولمَّا استحضرَ هشامُ بنُ عبد الملك زيدَ بنَ عليِّ بنِ الحسين وكان من الخطباء . . قال له هشام : (بلغني أنَّك تريد الخلافة ولا تصلح لها ؛ لأنَّك ابنُ أَمَة ، قال زيد : فقد كان إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ ابنَ أَمَة ، وإسحاقُ ابنَ حُرَّةٍ ، ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم من وَلَدِ إسماعيلَ .

ثم اتهمه هشام في أمر ، فقال له زيد : أنا أحلِفُ لك ، قال هشام : ومن يُصدِّقُك ؟ قال زيد : إنه ليس أحدٌ فوق أنْ يؤمَرَ بتقوى الله ، ولا أحدٌ دون أن يأمُرَ بتقوى الله تعالىٰ منك)[٢] .

وقال بعض الخلفاء : (دُلُّوني علىٰ رجل أستعمله علىٰ أمر قد أهمَّني ، قالوا : وكيف تريده ؟ قال : إذا كان في القوم وليس أميرَهم . . كان كأنه أميرُهم ، وإذا كان أميرَهم . . كان كأنه رجل منهم ، قالوا : لا نعلمه إلا الربيعَ بن زيادٍ الحارثيَّ ، قال : صدقتم ، هو لها)[٣] .

ويُروىٰ أنَّ عمرَ بن عبد العزيز استشار في قومٍ يستعملُهم ، فقال له بعضُ أصحابه : (عليك بأهل العُذْر ، قال : ومن هم ؟ قال : الذين إن عَدَلُوا . . فهو ما رَجَوْتَ منهم ، وإنْ قصَّروا . . قال الناس : اجتهد عمر)[٤] .

ولمَّا قَدِمَ البريدُ من بشرِ بنِ مروانَ علىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروان . . سأله عن

---

(١) رواه في « عيون الأخبار » (١/١) ، والحَرَّة : موضع ظاهر المدينة تُعرف بحرَّة واقِم ، بها حجارةٌ سودٌ كبيرةٌ ، كانت بها وقعة الحرَّة المشهورة أيامَ يزيد بن معاوية سنة (٦٣هـ) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٣١٠/١) ، و« العقد الفريد » (٣٢/٤) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١٦/١) ، و« المحاسن والمساوئ » (ص ٣٧١ ـ ٣٧٢) ، وفيه : أنَّ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو القائل : (دلوني) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (١٧/١) .

بِشرٍ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هو الشديدُ في غير عنف ، اللَّيِّنُ في غير ضعف ، فقال عبد الملك : ذٰلك الأعسرُ الأَحْوَذِيُّ الذي كان يأمَنُ عنده البريء ، ويخافُ لديه السقيم ، ويعاقبُ علىٰ قدر الذَّنب ، ويعرفُ موضعَ العفو ، الشديدُ في غير عنفٍ ، اللَّيِّنُ في غير ضعفٍ . . عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه)[1] .

وقال الحكيم : (اعتبر الرجال بأفعالهم لا بعِظَمِ أجسامهم ؛ فإنَّ النَّسْرَ مع عظمه لا يأكل إلا ميتاً ، وطير الماء مع ضعفه يتحامىٰ ميتَ السمك ويأكل الحيَّ منها) .

* * *

وفي حكم الهند : (السلطانُ الحازمُ ربَّما أحبَّ الرجلَ فأقصاه واطَّرحه مخافةَ ضره ، كالملسوع يقطع إصبعه ؛ لئلَّا ينتشرَ السُّمُّ في جسده ، وربَّما أبغضَ الرجلَ فأكرهَ نفسَه علىٰ توليته وتقريبه لغَناء يجده عنده ، كَتكَارُه المرءِ على الدواء البَشِع لنفعه)[2] .

إلا أنَّ للإسلام شروطاً ، فلا تستقيم هٰذه السيرة عليها ؛ ألا ترىٰ أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمَّا أفضَت الخلافة إليه . . كان معاويةُ والياً على الشام من قِبَلِ عمر ثم عثمان ، فاستشار في أمره ، فقال له بعضهم : (أَقِرَّه علىٰ إمرته وأرسل إليه بعهده ، فإذا دخل في بيعتك . . فاعزِلْه ، فقال له : رَحِمكَ اللهُ ، أتأمُرني أن أطلب العدلَ بالجَوْر ؟!) ثمَّ عزَلَه ، فكان سببَ عصيانه[3] .

وهٰكذا أشاروا عليه فقالوا : (يا أمير المؤمنين ؛ لو فَضَّلتَ هٰؤلاء الأشرافَ ومن نتخوَّفُ منهم ، وإنما الناسُ أصحابُ دُنيا ، حتىٰ إذا استوثق الأمرُ . . عُدتَ

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٢/٤٠) ، والأعسر : هو سيدنا عمر رضي الله عنه ، كان أعسرَ ، والأحوذيُّ : المشمِّرُ في الأمور ، القاهرُ لها ، لا يشذُّ عليه منها شيء ، والسريعُ في كل ما أَخذ فيه ، والعالمُ بالأمر .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٨) .

(٣) انظر « الطبقات الكبرىٰ » (٦/٢٤ ـ ٢٥) .

إلى التسوية ، فقال : أتأمُرونّي أن أطلبَ العدلَ بالجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عليه ؟! واللهِ ؛ لو كان مالي . . لَسوَّيتُ بينهم ولم أُفضِّلْ بعضَهم علىٰ بعض ، فكيف والمالُ لهم ؟!

وإعطاء المال في غير حقه تبذيرٌ وسَرَفٌ ، وهو يرفعُ ذكرَ صاحبه في الدنيا ، ويضعه عند الله تعالىٰ في الآخرة ، ولن يضع امرؤٌ مالَه في غير حقِّه وعند غير أهله . . إلا حَرَمه اللهُ تعالىٰ شُكرَهم ، ويصيرُ لغيره وُدُّهم ؛ فإنْ بَقِيَ معه منهم من يظهر له الودَّ والشكرَ . . فذٰلك ملق وخديعة ؛ لينالَ منه ، فإن زلَّت به القَدَمُ يوماً فاحتاجَ إلىٰ معونته ومكافأته بما سلفَ من مَبرَّته . . فشرُّ خليل ، وألأمُ خَدِين)[1] .

* * *

وإياك أيها الوالي وحُبَّ المدح ؛ فإنَّ من أحبَّ المدح . . كمن مَدح نفسَه ، وإذا عُلِمَ ذٰلك منك . . جعله الناس سُلَّماً لقضاء حوائجِهم منك ، فيكون حينئذ قضاءُ الحوائج لنفسِك لا لهم .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أُحْثُوا فِي وُجُوهِ ٱلْمَدَّاحِينَ ٱلتُّرَابَ »[2] .

وسَمِعَ المِقدادُ رجلاً يمدحُ عثمانَ بنَ عفَّانَ رضي الله عنه ، فأخذ كَفّاً من تراب ، فألقاه في وجهه[3] .

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يمدح رجلاً ، فقال : « قَطَعْتَ ظَهْرَ أَخِيكَ ؛ لَوْ سَمِعَهَا . . مَا أَفْلَحَ بَعْدَهَا »[4] .

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٠٩/٨) ، والخَدين : الصديق .

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/٦) ، وابن حبان (٥٧٦٩) عن سيدنا المقداد رضي الله عنه .

(٣) رواه بنحوه مسلم (٦٩/٣٠٠٢) ، والإمام أحمد (٥/٦) .

(٤) رواه الإمام أحمد (٥١/٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٢٧) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه .

وفي الحديث خمسُ تأويلات :

أحدها : حَملُه على الظاهر كما فعل المقداد مع المادح لعثمان .

الثاني : أن يرفع شيئاً من التراب فينثره بين يديه كالمتذلِّل ؛ أي : مَنْ خُلِقَ مِن هـٰذا ويعودُ إليه . . لا يستحق هـٰذا الثناء .

والثالث : لا يقضي حاجةَ المادح ، والعرب تقول لمن رَجَع خائباً عن حاجته : رَجَع بكفَّيه مملوءةً تراباً .

والرابع : نقيض هـٰذا ، قاله شيخنا القاضي أبو العباس الجُرجاني ، قال : معناه : اقضِ حاجته ، وأعطه ما سأل ؛ فإنَّ الذي تعطيه سيصير تراباً ، وكأنك أعطيته تراباً .

والخامس : يحتمل أن يكون بمعنى الدعاء ؛ لأنَّ العرب تقول إذا دعت علىٰ أحد : بفِيك الحجر ، وبفِيه التراب ؛ أي : فقولوا للمدَّاحين كذٰلك (١) .

* * *

ووصف أعرابي أميراً فقال : (كان إذا ولَّىٰ . . لم يُطابِق بين جفونه ، وأرسلَ العيونَ علىٰ عيونه ، فهو غائبٌ عنهم ، شاهدٌ معهم ؛ فالمحسنُ راجٍ ، والمسيءُ خائف) (٢) .

وقال عبد الله بن الزبير يوماً : (لا يَبْعُدَنَّ ابنُ هندٍ ! إن كانت فيه لَمخارجُ ما نجدُها في أحد بعده أبداً ، واللهِ ؛ إنْ كُنَّا لَنُفرِّقُه وما الليثُ الحَرِبُ علىٰ براثِنه بأجرأَ منه فيتفارقُ لنا ، وإنْ كُنَّا لَنخدعُه وما ابنُ ليلة من الأرض بأدهىٰ منه ، واللهِ ؛ لَوَدِدْتُ أنَّا مُتِّعنا به ما دام في هـٰذا حَجَرٌ ـ وأشار إلىٰ أبي قُبَيس ـ لا يُتَخوَّنُ له عقلٌ ، ولا تنتقص له قوة) (٣) .

---

(١) أورده بنحوه في « فتح الباري » (١٠/٤٧٨) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٣) ، و« العقد الفريد » (١/٢٤) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/١١ ـ ١٢) ، ورواه في « الأغاني » (١٨/٦٥٠٦) ، وابن هند : سيدنا ←

وقال الصُّنابِحِيُّ : كتب عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه إلىٰ أبي عبيدة كتاباً في مثلِ أُذنِ الفأرة : (أمَّا بعدُ : فإنه لا يقيمُ أمرَ الله في الناس : إلا حصيفُ العقل ، بعيدُ الغِرَّة ، لا يطَّلِعُ الناسُ منه علىٰ عَورةٍ ، ولا يَحنَقُ في الحق على الجرأة ، ولا يخافُ في اللهِ لومةَ لائم)[1] .

وقال مالك : (جاء رجلٌ إلىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله أن يكتب له كتاباً في أمر ، فقال : اذهب إلىٰ منزلنا فَأْتِني بدَواةٍ وقِرطاسٍ ، فذهب فلم يجد ، فقال : اطلب عندهم شيئاً ، فذهب فلم يجد عندهم إلا أُذنَ مِزْود ، فكتب له في تلك الأُذن) .

ولمَّا ولَّى المأمونُ يحيى بنَ أكثمَ قضاءَ البصرة بعد أن استمحن عقلَه وعِلمَه وامتحنه بمسائل . . فوجده فوق ما يريد ، فتلقَّاه وجوهُ البصرة ، فَرَأَوْا شاباً صبياً ما بَقَلَتْ لحيتُه[2] ، فتعجبوا ونظرَ بعضُهم إلىٰ بعض يُقلِّبون الأكفَّ ، ويَغمِزون الحواجب ، فقال له بعضهم : (كم سِنُّ القاضي أصلحه الله ؟ قال : سِنُّ عَتَّاب بن أَسِيد لمَّا وَلَّاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم مكة) ، فهابوه لِحِدَّةِ جوابه ، وعَرَفوا فضلَه ، وكان لعتَّاب بن أَسِيد إحدىٰ وعشرون سنةً لمَّا وَلِيَ مكة[3] .

❁ ❁ ❁

وكان عمر رضي الله عنه يقول : (لا يصلحُ أن يَلِيَ أمورَ الناس : إلا حصيفُ

← معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، وأمه : هند بنت عتبة رضي الله عنها ، والليث الحَربُ : الأسد الشديد الغضب ، براثنه : جمع بُرْثُن ؛ وهو مِخلب الأسد ، وابن ليلة : صاحب الأمر الكبير ، وأبي قبيس : جبل بمكة ، ولا يُتخوّن : لا ينقص .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٥٤٤) ، وأورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٣٤٠/٢) ، وحصيف العقل : مُحكَمُه ، وبعيد الغِرَّة : بعيد الغفلة ؛ أي : من بَعُدَ حفظُه لغفلة المسلمين ، ويَحنَقُ : يحقد .

(٢) بَقلَت : نَبَتَت .

(٣) رواه في « تاريخ بغداد » (٢٠٢/١٤) ، وأورده في « البصائر والذخائر » (٨١/١) .

العقل ، وافرُ العلم ، قليلُ الغِرَّة ، بعيدُ الهمة ، شديدٌ في غير عنف ، لينٌ في غير ضعف ، جوادٌ في غير سَرَف ، لا يخافُ في الله لومةَ لائم)[1] .

وقال أيضاً : (ينبغي أن يكونَ في الوالي من الشدة : ما يكونُ ضربُ الرِّقاب عنده في الحق كقتل عصفور ، ويكونَ فيه من الرِّقَّة والحُنُوِّ والرأفةِ والرحمةِ : ما يَجزَعُ من قتلِ عصفورٍ بغير حق) .

ويروىٰ أنَّ الرشيد أحضر رجلاً ليولِّيَه القضاء ، فقال له : (إنِّي لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه ، قال الرشيد : فيك ثلاث خِلال : لك شرفٌ والشرفُ يمنع صاحبه من الدناءة ، ولك حِلم يمنعُك من العَجَلة ، ومن لم يَعجَلْ . . قلَّ خَطَؤُه ، وأنت رجلٌ تشاوِرُ في أمرك ، ومن شاور . . كَثُرَ صوابُه ، وأما الفقه . . فنضمُّ إليك من تتفقَّه به ، فَوَلِيَ فما وجدوا فيه مَطعناً)[2] .

وقال إياسُ بنُ معاويةَ : (استحضرني عمرُ بنُ هُبَيرةَ فحضرت ، فساكَتَنِي فسكتُّ ، فلمَّا أطلتُ . . قال : إيهٍ ، قلتُ : سَلْ عمَّا بدا لك ، قال : أتقرأُ القرآن ؟ قلت : نعم ، قال : فهل تَفرِضُ الفرائض ؟ قلت : نعم ، قال : فهل تعرف من أيام العرب شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال : فهل تعرف من أيام العجم شيئاً ؟ قلت : أنا بها أعلم ، قال : إني أريد أن أستعين بك ، قلت : إنَّ فيَّ ثلاثاً لا أصلحُ معهنَّ للعمل ، قال : ما هُنَّ ؟ قلتُ : أنا دميمٌ كما ترىٰ ، وأنا حَديدٌ ، وأنا عَيٌّ ، قال : أما الدَّمامةُ : فإنِّي لا أريدُ أن أحاسِنَ بك ، وأمَّا العَيُّ : فإني أراك تُعرب عن نفسك ، وأمَّا سُوءُ الخُلُق : فيقوِّمُك السَّوطُ ، فولَّاني وأعطاني ألفَيْ درهمٍ ، فهو أول مال تموَّلتُه)[3] .

---

(١) رواه بنحوه عبد الرزاق في « المصنف » (٨/٢٩٩) ، وأورده الخطابي في « غريب الحديث » (٢/٨٩) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٧ ـ ١٨) .

(٣) رواه في « عيون الأخبار » (١/١٨) ، وأورده في « العقد الفريد » (١/٢١ ـ ٢٢) ، وإيهٍ : اسم فعل بمعنىٰ : حسبُك ، وتكون بمعنى الاستزادة .

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام : (ما ملاقاةُ لَبْوَةٍ سُلِبَتْ أشبالَها بأصعبَ من لقاء جاهل راض عن نفسه) .

وكان أبو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه إذا أُثنِيَ عليه . . يقول : (اللهمَّ ؛ أنت أعلمُ بي من نفسي ، وأنا أعلمُ بنفسي ، فاجعلْنِي خيراً ممَّا يحسَبون ، واغفِرْ لي برحمتك ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون)[1] .

* * *

(1) رواه في « تاريخ دمشق » (٣٠/٣٣٢) ، و« أسد الغابة » (٣/٣٢٥) .

الباب الثالث والخمسون
في بيان الشروط والعهود التي تؤخذ على العمال

اعلم أرشدك الله : أنه يجب أن يُولَّىٰ على الأعمال أهلُ الحَزمِ والكفايةِ والصدقِ والأمانةِ ، وتكونَ التَّوليةُ للغَناء لا للهوىٰ[١] .

ومِلَاكُ الولايات وأساسُها : ألَّا يُولَّى الأعمالَ طالبٌ لها ولا راغبٌ فيها .

وروى البخاري في « صحيحه » عن أبي موسى الأشعري قال : أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومعي رجلٌ ، فلمَّا سَلَّمنا عليه .. قال صاحبي : يا رسول الله ؛ استعملني ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا لَا نَسْتَعْمِلُ عَلَىٰ عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ » ، فقلت : يا رسول الله ؛ والذي بعثك بالحق ؛ ما عَلِمتُ ما في نفسه[٢] .

وقد روي عن بُزُرْجُمِهْرَ وقد قيل له : (ما بالُ مُلكِ آلِ ساسانَ صارَ أمرُه إلىٰ ما صار إليه ؟ قال : لأنَّهم قلَّدوا كبارَ الأعمال صغارَ الرجال)[٣] .

ولله دَرُّ عمرِو بنِ العاصِ حيثُ قال : (موتُ ألفٍ من العِلْية أقلُّ ضرراً من ارتفاع واحد من السَّفِلة !)[٤] .

وقال العلاءُ بنُ أيُّوبَ : غَضِبَ المأمونُ علىٰ بعض أصحابه غضباً شديداً ، ثم قال له : (لا أماتكَ اللهُ أو يُبلِّغَكَ دولةَ السُّفَّل) .

---

(١) الغَناء : النفع والكفاية .
(٢) صحيح البخاري (٢٢٦١) .
(٣) تقدم (ص ٢٠٧) .
(٤) تقدم (ص ٢٠٧) .

وقال رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لرجل قد آذاه : (أدركَتْكَ إمرةُ الصِّبيان)[١] .

وقال المُستوغِرُ الأكبرُ ، وكان قد عُمِّرَ في الجاهلية ثلاث مئةِ سنة : [من الطويل]

وَمَا سَقَطَتْ يَوْماً مِنَ ٱلدَّهْرِ أُمَّةٌ ... إِلَى ٱلذُّلِّ إِلَّا أَنْ يَسُودَ ذَمِيمُهَا
إِذَا سَادَ فِينَا بَعْدَ ذُلٍّ لَئِيمُنَا ... تَصَدَّىٰ لَنَا ذُلٌّ وَقُدَّ أَدِيمُهَا
وَمَا قَادَهَا لِلْخَيْرِ إِلَّا مُجَرِّبٌ ... عَلِيمٌ بِإِقْبَالِ ٱلْأُمُورِ كَرِيمُهَا
وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ يُعَاشُ بِفَضْلِهِ ... وَلَٰكِنْ لِتَدْبِيرِ ٱلْأُمُورِ حَكِيمُهَا

واعلموا أرشدكم الله تعالىٰ : أنَّ معظمَ ما يَدخُلُ على الدول من الفساد من تقليدِ الأعمال أهلَ الحرص عليها ؛ لأنه لا يَخطُبها إلا لصٌّ في ثوبِ ناسكٍ[٢] ، وذئبٌ في مِسلاخِ عابدٍ ، حريصٌ علىٰ جمع الدنيا[٣] ، نابذٌ لدينه ومروءته يبتغي عرضَ الحياة الدنيا ، وقد سبق المثل : (الحرصُ على الأمانة دليلٌ على الخيانة) ، يتخذون عبادَ الله خَوَلاً ، وأموالَهم دولاً[٤] .

وإذا اهتُضِمَتْ حقوقُ المسلمين وأُكِلَت أموالُهم . . فسدت نياتُهم ، وقَلَّت طاعاتُهم ، فانتقضت الأمورُ ، ودبَّ الفسادُ إلى الممالك ، وقد ذكرنا في أول الكتاب الآثارَ في كراهيةِ الولايات[٥] .

---

(١) ورد في « كنز العمال » (٤٤٢١٦) أن سيدنا علياً رضي الله عنه قال لعباد عندما آذاه : (إن كنت كاذباً . . فلا أماتك الله حتىٰ تدرك غلام ثقيف) .
(٢) لا يخطبها : لا يطلبها .
(٣) المسلاخ : الجلد .
(٤) خَوَلاً : عبيداً وأتباعاً ، ودولاً : متداولاً .
(٥) في الباب الثالث (ص ١٥٩) .

وقال المأمون : (ما فُتِقَ عليَّ فتقٌ قطُّ إلا وجدتُ سببَه جَوْرَ العُمَّال)[1] .

ولمَّا قَدِمَ رسول مالك غَزْنَة علىٰ عضد الدولة بن بُويه الديلمي ، وقضى الرسالة ، وأراد الانصراف . . قال لعضد الدولة : (ماذا أقول لأخيك ؟ قال : قل له : جئتك من عند سلطان يظلم وحده) .

فإن قيل : ما معنىٰ قول يوسف عليه السلام للملك : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ؟[2] .

قلنا : يوسف عليه السلام كان نبياً من أنبياء الله تعالىٰ ، واثقاً من نفسه بالكفاية والأمانة بين يَدَيْ من لا يتحقَّقُ بواطنَ سرائره ، ولا يعلمُ خصائصَه وفضائلَه ، ويرى الأمورَ والأعمالَ والولاياتِ ضائعةً في أيدي من ليسوا أهلاً لها .

ويجوز مثلُ هٰذا اليومَ لمن حصلَ بين يَدَيْ جَبَّار لا يعلمُ منزلتَه ولا ما عنده من الخِصال والفضائل . . أنْ يَذكرَ له بعضَ ما يَعلَمُ من نفسه ؛ لِيَعلَمَ قدرَه ، فيَسلمَ بذٰلك من شرِّه .

وعن هٰذا قال بعض أصحاب الشافعي : (إذا كان القضاءُ في يد من لا يَصلحُ له . . وجب أن يَخطُبَه من يصلح له ، وكان ذٰلك فرضاً عليه) ، وفقهاءُ الأمصار علىٰ خلاف هٰذا الرأي[3] .

ويَحتملُ : أنْ يكونَ يوسفُ عليه السلام قد أُوحِيَ إليه بما يصيرُ أمرُه إليه من المُلكِ والعَدْلِ ونشرِ كلمةِ الإسلام ؛ فلهٰذا نَبَّه علىٰ نفسِه .

ومن عجيب ما يُروىٰ في هٰذا الباب : أنَّ لقمانَ الحكيمَ كان عبداً نُوبيّاً أسودَ

---

(١) أورده في « تاريخ الخلفاء » (ص ٥١١) .

(٢) سورة يوسف : (٥٥) .

(٣) انظر (ص ١٧٣) .

غليظَ الشفتين مُصفَّحَ القدمين لامرأةٍ من بني الحَسْحاسِ ، وكان جليساً لداوودَ عليه السلام .

فأتاه جبريلُ عليه السلام بالنُّبوَّةِ من عند الله تعالى الذي يَصطفي لنبوَّتِه من يشاء من عباده ، فقال لقمان : (يا جبريل ؛ إن جَبَرني ربي . . فسمعاً وطاعةً ، وإن خيَّرني . . اخترتُ العافية ، فأعطاه الحكمةَ ، وصُرفت الرسالةُ إلىٰ داوودَ عليه السلام ، فكان داوودُ عليه السلام يقول : طُوبَىٰ لك يا لقمانُ ؛ أُوتِيتَ الحكمةَ ، وأُوتِيَ داوودُ البليةَ)[1] .

ورُوِيَ أنه جالسَ داوودَ عليه السلام وهو يَعمَلُ الدِّرْع ، فأقام حولاً يُبصر صنعة الدِّرْع ، ولا يعلم لِما يصلُحُ له ولا يسأله عن ذٰلك ، فلمَّا تمَّ حولٌ . . لَبِسَ داوودُ الدِّرعَ وقال : (درع حصينة ليوم حرب ، فقال لقمان : الصمتُ حِكمةٌ وقليلٌ فاعلُه)[2] .

* * *

وكان عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه إذا بَعث عاملاً . . اشترط عليه أربعاً : (ألا يركبَ البَراذين ، ولا يلبس الرقيق ، ولا يأكل النَّقِيَّ ، ولا يتخذ حاجباً ، ولا يغلق باباً عن حوائج الناس وما يُصلحهم) ، ويقول له : (إني لا أستعملك علىٰ أبشارهم ، ولا أعراضهم ، ولا أعمالهم ، وإنما أستعملك لتصلي بهم وتقضي بينهم بالعدل)[3] .

وروىٰ عَبايةُ بنُ رِفاعةَ قال : (بلغَ عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه أنَّ سعدَ بنَ أبي وقاص اتخذَ قصراً وجعل عليه باباً وقال : انقطع الصُّوَيْت ، فأرسل عمرُ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/٨٥ ـ ٨٦) ، وأورده القرطبي في « تفسيره » (١٤/٦٠) .
(٢) رواه الحاكم (٢/٤٢٢ ـ ٤٢٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٦٧١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٣) رواه بنحوه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٢٢٠) ، وفيه : (ولا يتخذ بواباً ولا حاجباً) .

محمدَ بنَ مسلمة ، وكان عمرُ إذا أحبَّ أن يُؤتَىٰ بالأمرِ كما هو . . بعثه ، فقال له : ائت سعداً ، فأحرِقْ عليه بابَه .

فقَدِمَ الكوفةَ ، فلمَّا أتى البابَ . . أخرج زَندَه واستورىٰ ناراً ، ثمَّ أحرقَ البابَ ، فأتىٰ سعداً الخبرُ ووُصِفَ له بصفته فعرفه ، فخرج إليه سعدٌ ، فقال له محمدٌ : إنه قد بلغ أميرَ المؤمنين أنَّك قلت : انقطعَ الصُّوَيت ، فحَلَفَ سعدٌ باللهِ ما قالَ ذٰلك ، فقال محمد : نفعلُ الذي أُمِرنا به ، ونؤدي عنك ما تقولُ ، ثم رَكِبَ راحلته .

فلمَّا كان ببطن الرُّمَّة . . أصابه من الخَمْصِ والجوع ما اللهُ به أعلمُ ، فأبصر غنماً ، فأرسل غلامَه بعِمامته فقال : اذهب فابتع منهم شاةً ، فجاء الغلامُ بالشاة وهو يصلي ، فأراد ذبحَها ، فأشار إليه أنْ يكفَّ ، فلمَّا قضىٰ صلاته . . قال : انظر ؛ فإنْ كانت مملوكةً لغير مستحقها . . فاردد الشاة وخُذ العمامة ، وإن كانت حُرَّة . . فاردُد الشاة ، فذهب فإذا هي مملوكةٌ ، فردَّ الشاةَ وأخذ العمامة ، فأخذ بخِطامِ ناقته ، فجعل لا يَمُرُّ ببَقلةٍ إلا خَطِفَها ، حتَّىٰ آواه الليلُ إلىٰ قوم ، فأتَوْه بخبزٍ ولبن وقالوا : لو كان عندنا شيءٌ غيرَ هٰذا . . أتيناك به ، فقال : باسم الله ، كلُّ حلالٍ أذهبَ السَّغَبَ خيرٌ من مأكلِ السَّوْء ، حتىٰ قَدِمَ المدينةَ ، فنزل بأهله فابتردَ من الماء ، ثم راح .

فلمَّا أبصره عمرُ . . قال : لولا حسنُ الظَّنِّ بك . . ما رأينا أنك أدَّيتَ ، وذكر أنَّه أسرع السيرَ ، فقال : قد فعلتُ ، وهو يعتذرُ ويحلفُ بالله ما قال ، فقال عمرُ : هل آمرُ لك بشيء ؟ فقال : قد رأيتُ مكاناً تأمُرُ لي ، فقال عمرُ : إنَّ أرضَ العراق أرض رفيقة ، وإنَّ أهلَ المدينة يموتون حولي من الجوع ، فخَشِيتُ أنْ آمُرَ لك بشيء يكونُ لك باردُه ولي الحارُّ)[1] .

ورَوىٰ زيدُ بنُ أسلمَ أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعملَ مولىً له

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥١٣) .

يُدعىٰ هُنيّاً على الحِمَىٰ ، فقال : (يا هُنَيُّ ؛ اُضمُمْ جناحك عن المسلمين ، واتَّقِ دعوةَ المظلوم ؛ فإنَّ دعوةَ المظلوم مستجابةٌ ، وأدخلْ ربَّ الصُّرَيمةِ وربَّ الغُنَيمة ، وإيّايَ ونَعَمَ ابنِ عوفٍ ونَعَمَ ابنِ عَفَّانَ ؛ فإنهما إنْ تَهلِكْ ماشيتُهما . . يرجعا إلىٰ زرعٍ ونخل ، وإنَّ رَبَّ الصُّرَيمةِ والغُنَيمة إن تَهلِكْ ماشيتُهما . . يأتني ببنيه فيقول : يا أمير المؤمنين ؛ أفتاركُهم أنا لا أبا لك ؟! فالماءُ والكلأُ أيسرُ عليَّ من الذَّهبِ والوَرِق .

وايمُ اللهِ ؛ إنهم لَيَرَوْنَ أنِّي قد ظلمتُهم ، إنها لَبِلادُهم قاتلوا عليها في الجاهلية ، وأسلموا عليها في الإسلام ، والذي نفسي بيده ؛ لولا المالُ الذي أحمِلُ عليه في سبيل الله . . ما حَمَيْتُ عليهم من بلادهم شِبْراً)[1] .

ومرَّ يوماً ببناءٍ يُبنىٰ بحجارة وجِصٍّ فقال : (لمن هٰذا ؟ فذكروا أنه لعامل من عُمَّاله على البحرين ، فقال : أَبَتِ الدراهمُ إلا أن تُخرِجَ أعناقَها) ، وقاسمَه مالَه[2] .

وكان يقول : (علىٰ كل خائنٍ أمينان : الماءُ والطِّينُ)[3] .

❁ ❁ ❁

وكان أَنُوشَرْوانُ يكتبُ علىٰ عهد العُمَّال : (سُسْ خِيارَ الناس بالمحبة ، وامزُجْ للعامة الرغبةَ بالرَّهبة ، وسُسْ سَفِلةَ الناسِ بالإخافة)[4] .

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام : (كما يَصلُحُ المِهمزُ للفرسِ والرَّسَنُ للحمار . . كذٰلك يصلح القضيبُ لظهورِ الجُهَّال)[5] .

---

(١) رواه البخاري (٣٠٥٩) ، وفي الأصل : (يرجعان . . . يأتيني) بدل (يرجعا . . . يأتني) ، والمثبت من المصدر ، والصُّرَيمة : تصغيرُ الصِّرْمة ؛ وهي القطعة من الإبل .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٣١٢/١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٢٢٠) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٣١٢/١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٢٢٠) .
(٤) رواه في « عيون الأخبار » (٨/١) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٢٢٠١) .
(٥) المِهمَزُ : ما يُهمزُ به ، وحديدةٌ في مؤخر حذاء الفارس .

وفي الأمثال القديمة : (من لم يَصلُحْ باللِّين . . أُصلِحَ بالتليين ، ومن لم يَعتدلْ . . عُدِّل) .

وقال هلالُ بنُ يِسَاف : استعمل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم المقدادَ علىٰ سَرِيَّةٍ ، فلمَّا رَجَعَ . . قال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ رَأَيْتَ ٱلْإِمَارَةَ يَا أَبَا مَعْبَدٍ ؟ » قال : خرجتُ يا رسولَ الله وما أرىٰ لي فضلاً علىٰ أحدٍ من القوم ، فما رَجَعْتُ إلا وكأنهم عبيدٌ لي ، قال : « كَذَٰلِكَ ٱلْإِمَارَةُ أَبَا مَعْبَدٍ إِلَّا مَنْ وَقَاهُ ٱللهُ شَرَّهَا » قال : والذي بعثك بالحق ؛ لا أتولَّىٰ علىٰ عمل بعدها أبداً (١) .

وقيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ما يمنعك أنْ تُفشِيَ العملَ في الأفاضل من أصحابِ مُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هم أجلُّ من أن أُدنِّسَهم بالعمل) (٢) .

وقال إبراهيمُ : (كان عمرُ إذا قَدِمَ عليه الوفدُ . . سألهم عن حالهم وأسعارهم ، وعمَّن يَعرِفُ من أهل البلاد ، وعن أميرهم : هل يدخلُ عليه الضعيف ، وهل يعودُ المريض ؟ فإن قالوا : نعم . . حَمِدَ الله تعالىٰ ، وإن قالوا : لا . . كتب إليه : أنْ أَقبِلْ) (٣) .

ومَثَلُ السلطان إذا وَلَّى العُمَّال الظالمين : مَثَلُ مَنْ يسترعي غنمَه الذئابَ ، ومَثَلُ مَنْ يَربِطُ الكلبَ العقورَ ببابِه ، وإنَّ العامةَ لَتشتِمُ الحَجَّاجَ بنَ

---

(١) رواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١/٨٧) .

(٢) أورده في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٢٦٣) ، وزيد في (ب) : (من الطويل)

وما قادها للخير إلا مُجَرِّبٌ ... عليمٌ بإقبالِ الأمورِ كريمُها

وما كُلُّ ذي لُبٍّ يُقاسُ بفضلهِ ... ولكن لتدبيرِ الأمور حكيمُها

وقد مَرَّا في (ص ٤٨٣) .

(٣) رواه في « عيون الأخبار » (١/١٤) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٣٤٣) ، وإبراهيم : هو النخعي رحمه الله تعالىٰ .

يوسـفَ ، والخاصـةَ تلومُ عبدَ الملك بـنَ مروان ؛ لأنه اسـترعاه الرعية ، وقد قيل [١] : [من الطويل]

وَمَـنْ يَرْبِـطِ ٱلْكَلْـبَ ٱلْعَقُـورَ بِبَابِـهِ فَعَقْرُ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ مِنْ رَابِطِ ٱلْكَلْبِ

وكان العلاءُ بنُ أيُّوبَ لمَّا وَلِيَ فارسَ من قِبَلِ المأمون . . يكتبُ عهدَ العُمَّال فيقرؤه علىٰ مَنْ يحضرُه من أهل ذٰلك العمل ويقول : (أنتم عيوني عليه ، فاستوفُوه منه ، ومن تظلَّم إليَّ منه . . فعليَّ إنصافُه ونفقتُه جائياً وراجعاً ، ويأمرُ العامل أن يقرأَ عهدَه علىٰ أهلِ عَمَلِه في كل جمعة وأنْ يقولَ لهم : هل استوفيتم ؟) .

* * *

(١) أورده في « الوافي بالوفيات » (٢٢/٢٤١) .

الباب الرّابع والخمسون
في هدايا العمّال ، والرِّشا على الشّفاعات

روىٰ أبو داوود في « السُّنن » أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ شَفَعَ لِأَخِيهِ شَفَاعَةً ، فَأَهْدَىٰ لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا . . فَقَدْ أَتَىٰ بَاباً عَظِيماً مِنْ أَبْوَابِ ٱلرِّبَا »(١) .

والسِّرُّ فيه : أنَّكَ إذا قَدَرْتَ علىٰ قضاءِ حاجتِه من عند السلطان الظالم أو اليد القاهرة . . صار ذٰلك واجباً عليك .

وروى البخاريُّ في « صحيحه » أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم استعملَ رجلاً يقال له : ابنُ اللُّتْبِيَّة ، فلمَّا جاء . . قال : يا رسول الله ؛ هٰذا لكم وهٰذا أُهدِيَ لي ، فغضب النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال : « مَا بَالُ ٱلرَّجُلِ نَسْتَعْمِلُهُ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِنَا فَيَقُولُ : هَٰذَا لَكُمْ وَهَٰذَا أُهْدِيَ لِي ، فَهَلَّا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرَ هَلْ يُهدَىٰ لَهُ أَمْ لَا ! »(٢) .

* * *

قال مالك : وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يشاطر العُمَّال ، فيأخذ نصفَ أموالهم ، وشاطرَ أبا هريرة رضي الله عنه وقال له : (من أين لك هٰذا المال ؟ فقال أبو هريرة : دوابُّ تناتجَتْ ، وتجاراتٌ تداركت ، فقال : أدِّ الشطر) ، وإنَّما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم(٣) .

---

(١) سنن أبي داوود (٣٥٣٥) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .
(٢) صحيح البخاري (٢٥٩٧) عن سيدنا أبي حميد الساعدي رضي الله عنه .
(٣) أورده بنحوه في « الإحياء » (٣/٤٣٠) .

وروىٰ مالك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه اشترىٰ هو وعبيدُ الله أخوه إبلاً ، فبعثا بها إلى الحِمَىٰ فَرَعَتْ ، فقال عمر : (رَعَيْتُما في الحِمَىٰ) فشاطرهما .

وشاطرَ سعدَ بن أبي وقاص حين قَدِمَ من الكوفةِ[١] .

كأنه رأىٰ أنَّ ما أصابَ العاملُ من غير رَشوةٍ وإن كان حلالاً . . فلا يستحقُّ ذٰلك ؛ لأن له بالإمرة قوةً علىٰ أن ينال من الحلال ما لا ينالُه غيرُه ، فجعله كالمضارِب للمسلمين .

ولمَّا دفع أبو موسى الأشعري مالاً من بيت المال لعبد الله وعبيد الله ابني عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالبصرة . . اشتريا منه بضاعةً ، فرَبِحَتْ بالمدينة ، فأراد عمرُ أنْ يأخذَ جميعَ الرِّبح ، فراجعه عبيدُ الله ، فحكم بينهم بنصف الربح ، فأخذا جميعاً نصفَ الرِّبح ، وأخذ عمرُ رضي الله عنه النصفَ لبيت المال[٢] .

وكتب عمرُ بن عبد العزيز إلىٰ عُمَّاله : (أمَّا بعدُ : فإنما هلك من كان قبلكم : بمنعهم الحقَّ حتىٰ يُشترىٰ ، وبسطِهم الباطلَ حتىٰ يقتدىٰ ؛ فإن المُلكَ بالدين يقوىٰ ، والدينَ بالمُلك يبقىٰ)[٣] .

وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يأمرُ إذا قَدِمَ عليه العُمَّالُ أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلاً ؛ كي لا يحتجبوا شيئاً من الأموال .

❁ ❁ ❁

وقال عَتَّابُ بنُ أَسِيدٍ : (والله ؛ ما أصبتُ في عملي الذي ولَّاني رسولُ الله

---

(١) أورده بنحوه في « الإحياء » (٤٢٩/٣) ، والحِمَىٰ : حِمى النقيع ؛ وهي الأرض التي كان حماها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لإبل الصدقة خاصة .

(٢) رواه الإمام مالك في « الموطأ » (٦٨٧/٢ ـ ٦٨٨) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (١١٠/٦) مطولاً .

(٣) رواه بنحوه في « تاريخ دمشق » (١٩٤/٤٥) .

صلى الله عليه وسلم إلا ثوبين مُعقَّدين كَسَوْتُهما مولايَ كيسانَ)[1] .

ورُوِيَ أنَّ علياً رضي الله عنه استعملَ أبا مسعودٍ الأنصاريَّ على السَّواد ، فرَجَعَ إلىٰ داره وقد امتلأت فقال : (ما هٰؤلاء ؟ قالوا : كذٰلك يصنعون بالرجل إذا استُعمل ، قال : كلُّ هٰؤلاء يريدون أن يأكلوا في أمانتي - ويُروىٰ : في إمارتي - فرجَع إلىٰ علي رضي الله عنه وقال : لا حاجة لي في العمل) .

وقد ذكرنا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم دعا عبدَ الرحمٰنِ بنَ سَمُرةَ ليستعمله ، فقال : يا رسول الله ؛ اختر لي ، قال : « أُقْعُدْ فِي بَيْتِكَ »[2] .

وفي الأمثال : (إنَّ الهديةَ تُعمي وتُصم)[3] .

وقال بعض الحكماء : (الرَّشوةُ رِشاءُ الحاجة)[4] .

وأنشد بعضهم[5] : [من الوافر]

إِذَا أَتَــتِ ٱلْهَدِيَّــةُ دَارَ قَــوْمٍ ... تَطَايَــرَتِ ٱلْأَمَانَــةُ مِــنْ كُوَاهَــا

وقال آخر[6] : [من مجزوء الكامل]

إِنَّ ٱلْهَدِيَّــــــةَ حُلْــــــوَةٌ ... كَٱلسِّــحْرِ تَجْتَلِــبُ ٱلْقُلُوبَــا

تُدْنِــي ٱلْبَعِيــدَ مِــنَ ٱلْهَــوَىٰ ... حَتَّـــىٰ تُصَيِّـــرَهُ قَرِيبَـــا

وَتُعِيـــدُ مُضْطَغِـــنَ ٱلْعَـــدَا ... وَةِ بَعْــدَ جَفْوَتِــهِ حَبِيبَـــا

(١) رواه الحاكم (٥٩٥/٣) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٣٥٥/٦ ـ ٣٥٦) .

(٢) سبق تخريجه (ص ١٦٤) .

(٣) أورده بنحوه في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٨) .

(٤) أورده في « ثمار القلوب » (٩٥٤/٢) من قول أبي الفتح البستي رحمه الله تعالىٰ ، والرِّشاء : الحبل .

(٥) أورد البيت في « بهجة المجالس » (٢٨٨/١) ، و« محاضرات الأدباء » (١٠٤/٢) ، وكُواها : جمع كُوَّة ؛ وهي الثقبة في الحائط .

(٦) أورد الأبيات في « عيون الأخبار » (٣٥/٣) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٨) دون البيت الأخير .

ومِمَّا قلتُه في الرَّشوة [1] : [من الوافر]

وَأَكْـرَمُ مَـنْ يَـدُقُّ ٱلْبَـابَ شَـخْصٌ   ثَقِيـلُ ٱلْحِمْـلِ مَشْـغُولُ ٱلْيَدَيْـنِ
يَنُـوءُ إِذَا مَشَـىٰ نَفَسـاً وَنَفْخـاً   وَيَنْطَـحُ بَابَـهُ بِٱلرُّكْبَتَيْـنِ
وَأَكْـرَمُ شَـافِعٍ يَمْشِـي عَلَيْهَـا   أَبُـو ٱلْمَنْقُـوشِ فَـوْقَ ٱلصَّفْحَتَيْـنِ

وقلتُ أيضاً : [من المتقارب]

إِذَا كُنْـتَ فِـي حَاجَـةٍ مُرْسِـلاً   وَأَنْـتَ بِإِنْجَازِهَـا مُغْـرَمُ
فَأَرْسِـلْ بِأَكْمَـهَ خَلَّابَـةٍ   بِـهِ صَمَـمٌ أَغْطَـشٌ أَبْكَـمُ
وَدَعْ عَنْـكَ كُلَّ رَسُـولٍ سِـوَىٰ   رَسُـولٍ يُقَـالُ لَـهُ ٱلدِّرْهَـمُ

وكتب عبد الملك بن مروان إلىٰ قاضيه الحارث بن عامر وقد ارتشىٰ في حكومة [2] : [من الطويل]

إِذَا رَشْـوَةٌ مِـنْ بَـابِ بَيْـتٍ تَقَحَّمَتْ   لِتَسْـكُنَ فِيـهِ وَٱلْأَمَانَـةُ فِيـهِ
سَـعَتْ هَرَبـاً مِنْـهُ وَوَلَّـتْ كَأَنَّهَـا   حَلِيـمٌ تَوَلَّـىٰ عَـنْ جِـوَارِ سَـفِيهِ

***

(١) أبو المنقوش : كناية عن الدرهم والدينار .
(٢) رواه في « أنساب الأشراف » (٧/٢٥٢) وفيه : (الحارث الأشعري) ، ولعله الحارث بن عمر أو ابن عمرو أو ابن نحام الأشعري . انظر « تاريخ دمشق » (١١/٤٥٦) .

الباب الخامس والخمسون
في معرفة حُسن الخُلق

اعلموا أرشدكم الله تعالىٰ : أنَّ هٰذا الباب مما غَلِطَ الخلقُ فيه وقَلبُوا القوسَ رَكوةً[1] ؛ فعَمَدوا إلىٰ أخلاق العامة وخلائق الغوغاء والدُّناة ، وما يجري بينهم إذا تلاقَوْا وتعاشَرُوا من الإفراط في مدح بعضِهم بعضاً ، وتعاطيهِمُ الكذبَ والتصنُّعَ والتملُّقَ والمراءاةَ والمعاريضَ عن الأمور المكنونة التي يسوء إظهارها ، والانخراطِ في سِلكِ المُزاح والمهاترة ؛ فهٰذا وما أشبهه عندهم من حسن الخلق ، وهو عندنا نقيضُ ما نصَّ اللهُ عليه ورسولُه من حُسن الخُلق .

فأولُ ذٰلك : أنْ تعلمَ أنه لم تحتوِ الأرضُ علىٰ بَشَرٍ أحسنَ خُلقاً من محمَّدٍ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فكلُّ من تخلَّقَ بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعضِها أو قاربَها . . كان أحسنَ الناس خُلقاً ، وكلُّ خُلقٍ ليس يُعدُّ من أخلاقه صلى الله عليه وسلم . . فليس من حُسن الخُلق ، وهٰذا فصلُ الخطاب في هٰذا الباب لمن عَقَلَ .

وإنما أُوتي الناس في هٰذا الباب ؛ لأنهم استحسنوا الأخلاق العامية ، واستخشنوا الأخلاق النبوية ؛ لجهلهم بأخلاق المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم .

* * *

وهـٰأنا أتلو عليك من أخلاق الأنبياءِ والمرسلين عليهم السلام ، والأولياءِ والأصفياء ، والعلماءِ والصالحين . . ما أرجو أن ينفعني اللهُ وإيَّاكَ به .

قال الله سبحانه وتعالىٰ لنبيِّه وصَفِيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رَكوة : دلو صغيرة ، وقلبوا القوسَ رَكوةً : مَثَلٌ يضرب في الإدبار وانقلاب الأمور .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ، فخصَّ اللهُ سبحانه وتعالىٰ نبيَّه صلى الله عليه وسلم من كريم الطباع ومحاسن الأخلاق ؛ من الحياء ، والكرم ، والصَّفح ، وحسنِ العهد . . ما لم يُؤتِه غيرَه .

ثمَّ ما أثنى الله تعالىٰ عليه بشيء من فضائله بمثلِ ما أثنىٰ عليه بحسنِ الخُلق ؛ فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2] .

وعن هٰذا قال الشيوخ : إن الله سبحانه دعا الخَلق إلىٰ حسن الخُلق ، ودعا النبيَّ صلى الله عليه وسلم من حسنِ الخلق .

وقال عُبيد بن عمير : قلت لعائشة رضي الله عنها : (يا أمَّ المؤمنين ؛ صِفي لي خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت لي : أمَا تقرأ القرآن ؟! كان خُلقه القرآن)[3] .

وحسبُك بهٰذا القول مَنقَبةً للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتعريفاً لك بحسن الخلق ، وإذا كان خُلق النبيِّ صلى الله عليه وسلم[4] القرآن . . فالقرآنُ يجمعُ كلَّ فضيلة ويحثُّ عليها ، وينهىٰ عن كل نقيصة ورذيلة ويوضحها ويبينها .

وكذٰلك لمَّا أنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[5] . . قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَا هَٰذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : إنَّ اللهَ تعالىٰ يأمرُك أن تصِلَ مَنْ قَطَعك ، وتُعطِيَ من حَرَمك ، وتَعفُوَ عمَّن ظلمك[6] .

---

(١) سورة القلم : (٤) .
(٢) سورة القلم : (٤) .
(٣) رواه الإمام أحمد (٦/٩١) ، وإسحاق بن راهويه في « مسنده » (١٤٧٨) عن سعد بن هشام بن عامر رحمه الله تعالىٰ ، ورضي عن أبيه .
(٤) زيد في (أ) : (في) .
(٥) سورة الأعراف : (١٩٩) .
(٦) تقدم (ص ٢٧١) .

فهـٰذا من حُسن الخُلق كما ترىٰ ، فانظر : أين أخلاقُ العامَّة من هـٰذا النَّمط ؟ وإنَّ أحدهم يقطع مَنْ وَصلَه ، ويَحرِمُ مَنْ أعطاه ، ويَظلِمُ من سالمَه ، ويغضَبُ على التُّهَمة .

وإنَّما اقتصر علىٰ هـٰذه الكلمات ؛ لأنها أصولُ الفضائل ، وينبوعُ المناقب ؛ لأنَّ في أخذِ العفو : صلةَ القاطعِ ، والصَّفحَ عن الظالم ، وإعطاءَ المانع ، وفي الأمر بالمعروف : تقوى الله تعالىٰ ، وصلةَ الأرحام ، وصونَ اللسان ، وغضَّ الطرف عن الحُرمات ، وفي تقوى الله عزَّ وجلَّ يدخلُ جميعُ آدابِ الشرع فرضِها ونفلِها ، وفي الإعراض عن الجاهلين : الصفحَ ، والحِلْمَ ، وصونَ النفس عن مماراة السَّفيه ومجاراة اللَّجوج ؛ فهـٰذه الأصول الثلاث تتضمَّنُ محاسنَ الشرع نصّاً وتنبيهاً ، وضمناً واعتباراً .

وروىٰ أنس بن مالك أنه قال : قيل : يا رسول الله ؛ أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً »[(١)] .

وروىٰ أبو داوود في « السنن » أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ ٱلْأَخْلَاقِ »[(٢)] .

اقتضى الحديثُ : أنَّ كلَّ نبيٍّ مبعوثٍ إلىٰ أُمة إنَّما بُعِثَ ؛ ليعلِّمَ الخَلق حُسنَ الخُلق ، وأنَّ نبيَّنا محمداً صلى الله عليه وسلم بُعِثَ ؛ ليتمِّمَ مكارم الأخلاق ؛ فإذاً : حسنُ الخُلق : امتثالُ الشرائع بأَسْرِها .

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، وقال : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقاً »[(٣)] .

---

(١) رواه الحاكم (٥٤٠/٤) ، وابن ماجه (٤٢٥٩) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وانظر « جامع الأصول » (٦٩٤/١١) .

(٢) رواه الحاكم (٦١٣/٢) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (١٩٢/١٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) صحيح البخاري (٣٧٥٩) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وعليه رداءٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية ، فجذبه أعرابيٌّ جَذْبةً شديدةً حتىٰ أثَّرت حاشيةُ الرداءِ في عنقه ، وقال : يا محمد ؛ مُرْ لي من مال الله الذي آتاك ؛ فلستَ تأمرُ لي بمالك ولا بمال أبيك ، فالتفتَ إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال : « مُرُوا لَهُ » ولم يُكلمه بشيء[١] .

وروىٰ معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ »[٢] .

* * *

واعلموا : أنَّ الخُلق الحسن أفضل مناقب العبد ، وبه تظهر جواهرُ الرجال ، والإنسانُ مستور بخلقه ، مشهور بخلقه ؛ ألا ترىٰ أنَّ الله تعالىٰ خصَّ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بما خصَّه به من الفضائل ، ثمَّ لم يُثنِ عليه بشيء من خصاله بمثل ما أثنىٰ عليه بخُلقه .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٣] قال : (لا يخاصِمُ ولا يُخاصَمُ من شدَّة معرفته بالله تعالىٰ)[٤] .

وقيل : (لم يُؤثِّرْ فيك جفاءُ الخَلْق بعد معرفتك بالحق)[٥] .

وقال المُحاسِبي : (كظمُ الغيظ ، وإظهارُ الطَّلاقة والبِشْرِ إلا لمبتدعٍ أو فاجرٍ إلا أن يكون فاجراً إذا انبسطتَ إليه . . استحيا وأقلع ، والعفوُ عن الزالِّين إلا بأدب أو إقامةِ حَدٍّ ، وكفُّ الأذىٰ عن كل مسلمٍ ومعاهدٍ إلا لتغييرِ مُنكَرٍ ، أو أخذِ مَظلَمةٍ لمظلوم ؛ فهـٰذا حُسن الخُلق)[٦] .

---

(١) رواه البخاري (٣١٤٩) ، ومسلم (١٠٥٧) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه الإمام مالك في « الموطأ » (٩٠٢/٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٦٦٦) .

(٣) سورة القلم : (٤) .

(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٠) ، و« الإحياء » (١٨٨/٥) من قول الواسطي رحمه الله تعالىٰ .

(٥) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٠) ، و« الإحياء » (١٨٩/٥) من قول الحسين بن منصور .

(٦) أورده المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٧٦) دون نسبة .

وقيل : (حسنُ الخلق : ألا تتغيرَ ممَّن يقفُ في الصف بجنبك)[1] .

وقيل للأحنف : (ممَّن تعلَّمتَ حُسنَ الخُلق ؟ قال : من قيسِ بنِ عاصم المِنقَري ، قال : بينا هو ذاتَ يومٍ جالسٌ في داره .. إذ جاءته خادم له بسَفُّودٍ عليه شِواءٌ ، فسقط من يدها ، فوقع على ابن له فمات ، فدهشت الجارية ، فقال : لا رَوْعَ عليك ، أنت حُرَّةٌ لوجه الله تعالىٰ)[2] .

وكان ابنُ عمر رضي الله عنه إذا رأىٰ واحداً من عبيده يُحسن الصلاة .. يعتقه ، فعرفوا ذٰلك من خُلقه ، فكانوا يُحسنون الصلاة مراءاةً له ، وكان يعتقهم ، فقيل له في ذٰلك فقال : (مَنْ خَدَعنا في الله .. انخدعنا له)[3] .

وقال الفضيل : (لو أن امرأ أحسنَ الإحسانَ كُلَّه ، وكانت له دجاجةٌ فأساء إليها .. لم يكن من المحسنين)[4] .

وكان المحاسبِي يقول : (فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الأمانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء)[5] .

وقال الحسن بن علي رضوان الله عليه : (عنوانُ الشرفِ : حُسنُ الخُلق)[6] .

وكان عبد الله بن محمد الرازي يقول : (حسنُ الخُلق : استصغارُ ما منك ، واستعظامُ ما إليك)[7] .

---

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٥) .

(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١١) ، و« الإحياء » (٢٣٧/٤) ، والسَّفُّود : الحديد الذي يُشوىٰ عليه اللحم .

(٣) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١١) .

(٤) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧٥٤) ، وأورده القشيري في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١١) .

(٥) رواه في « حلية الأولياء » (٧٥/١٠) ، و« الرسالة القشيرية » (ص ٤١١) .

(٦) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٨٠) ، وفيه : (حسن الخَلَف) .

(٧) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١١) .

وقال سهل[1] : (حسنُ الخُلق : ألَّا تطمعَ فيما ليس لك ، وليس بهٰذه الصفة أحد غير الله سبحانه وتعالىٰ)[2] .

وقيل : (حسنُ الخُلق : تَحمُّلُ أثقال الخلق)[3] .

وقال شاهُ الكَرماني : (علامةُ حسن الخلق : كفُّ الأذىٰ ، واحتمال المؤن)[4] .

وقيل : (حسنُ الخُلق : أن تكون من الناس قريباً ، وفيما بينهم غريباً)[5] .

وقيل : (حسنُ الخُلق : قَبولُ ما يَرِدُ عليك من جفاء الخلق ، وقضاء الحق بلا ضجر ولا قلق)[6] .

وقيل : (الخلق الحسن : احتمالُ المكروه بحسنِ المُداراة)[7] .

وقالت امرأة لمالك بن دينار : (يا مُرائي ، فقال : يا هٰذه ؛ وجدت اسمي الذي أَضلَّه أهلُ البصرة)[8] .

وفي الحديث : أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَنْ تَسَعُوا ٱلنَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ ، وَلَـٰكِنْ سَعُوهُمْ بِبَسْطِ ٱلْوَجْهِ ، وَحُسْنِ ٱلْخُلُقِ »[9] .

ورُوي أنَّ أبا عثمان اجتاز بسكَّةٍ وقتَ الهاجرة ، فأُلقي عليه من فوق سطح طَشتُ رمادٍ ، فتغيَّرَ أصحابُه ، وبسطوا ألسنتَهم في المُلقي ، فقال أبو عثمان :

---

(١) زيد في (ب) : (ابن شهاب) .

(٢) في (هـ ، ج) : (غير رسول الله) ، وزيد في (د ، ج) : (صلى الله عليه وسلم) .

(٣) انظر « بحر الفوائد » (١/٤١٧ ـ ٤١٨) .

(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١١) ، و« الإحياء » (٥/١٨٨) .

(٥) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٣) ، و« الإحياء » (٥/١٨٨) .

(٦) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٣) .

(٧) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٤) .

(٨) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٣) ، و« الإحياء » (٥/٢٥٣) .

(٩) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٥٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(لا تقولوا شيئاً ، من استحقَّ أن يُصبَّ عليه النارُ فصُولح على الرماد . . لم يجزْ أن يغضب)[1] .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : (هل فرحت في الدنيا قط ؟ قال : نعم ، مرَّتين : إحداهما : كنت قاعداً ذات يوم ، فجاء إنسان وبال عليَّ ، والثانية : كنت جالساً ، فجاء إنسان وصفعني)[2] .

وكان أُويسٌ القَرَنيُّ إذا رآه الصبيان . . يرمونه بالحجارة ، وكان يقول : (إن كان ولا بُدَّ . . فارموني بالحجارة الصغار ؛ كي لا تُدموا ساقي فتمنعوني من الصلاة)[3] .

ورُوي أنَّ أميرَ المؤمنين عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه دعا غلاماً له فلم يُجِبْه ، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يُجِبْه ، فقام إليه ، فرآه مضطجعاً ، فقال : (أمَا تسمع يا غلام ؟ قال : نعم ، قال : فما حَمَلكَ علىٰ ترك جوابي ؟ قال : أَمِنتُ عقوبتك فتكاسلت ، فقال : امضِ ، فأنت حُرٌّ لوجه الله تعالىٰ)[4] .

وهـٰذا كما ترىٰ قوةٌ إلـٰهية يُفرغها الله تعالىٰ على المُصطفَين من عباده ، وأهلِ الصفوة من أوليائه ؛ ألا ترىٰ إلىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ . . . ﴾ الآية [5] ، جرَّده عن حقائق البشرية ، وألبسه من نعت الربوبية ، حتىٰ قوَّاه علىٰ صُحبتهم ، وصبَّره علىٰ تبليغ الرسالة إليهم ، مع الذي كان يُقاسيه من أخلاقهم ، مع كونه مستغرقاً باستيلاء الحق سبحانه عليه يختصُّ برحمته من يشاء .

* * *

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٤) ، و« الإحياء » (٢٤٩/٥ ـ ٢٥٠) .
(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٢) .
(٣) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٢) ، و« الإحياء » (٢٥٢/٥) .
(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٧٥) ، و« الإحياء » (٢٥٢/٥ ـ ٢٥٣) .
(٥) سورة آل عمران : (١٥٩) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اَلْمُؤْمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ »(١) .

وإنما سُمِّي آدمَ ؛ لأنه أُلف من الجواهر والألوان .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجلين متباغضين : « آدَمَ ٱللهُ بَيْنَكُمَا » أي : ألف بينكما(٢) .

ومنه سُمِّي الأُدمُ المأكول ؛ لأنه يُؤلِّف الطعام ويُحسِّنه .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لرجل أراد أن يتزوج امرأة : « أُنْظُرْ إِلَيْهَا ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا »(٣) أي : يُؤلف بينكما .

ورُوي أن معروفاً الكرخي نزل الدِّجلةَ يتوضأ ، ووضع مصحفَه وملحفتَه ، فجاءت امرأةٌ فأخذتهما ، فتبِعَها معروفٌ وقال : (يا أختي ؛ أنا معروف ، لا بأس عليكِ ، ألك ابنٌ يقرأ ؟ قالت : لا ، قال : فزوجٌ ، قالت : لا ، قال : فهاتي المُصحف ، وخذي الثوب)(٤) .

ورُوي أن أبا ذر كان علىٰ حوض يَسقي إبلَه ، فأسرع بعضُ الناس إليه ، فانكسر الحوض ، فجلس ثم اضطجع ، فقيل له في ذٰلك ، فقال : (إن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا إذا غضب الرجل أن يجلس ؛ فإن ذهب عنه ، وإلا . . فليضطجع)(٥) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (إنا لنصافح أَكُفّاً نرىٰ قطعها)(٦) .

---

(١) رواه الشهاب في « مسنده » (١٢٩) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٢) انظر « شرح مشكل الآثار » (١١/٢٨٩) .

(٣) رواه الترمذي (١٠٨٧) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٥٣٢٨) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٢) .

(٥) رواه الإمام أحمد (٥/١٥٢) ، وبنحوه أبو داوود (٤٧٤٩) .

(٦) أورده في « الجد الحثيث » (ص ٢٦٣) .

وقال أبو ذر : (إنَّا لَنَكشِرُ في وجوه أقوام وإنَّ قلوبنا لَتلعنُهم)[1] .

وقال الحارث بن قيس : (يُعجبني من القُرَّاء كُلُّ طَلْقٍ مِضحاك ، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمنُّ عليك بعمله .. فلا أكثرَ اللهُ في المسلمين مثله)[2] .

وقال عروة بن الزبير : (مكتوب في الحكمة : يا بُنَي ؛ لتكن كلمتُك طيبةً ، وليكن وجهُك طَلْقاً .. تكن أحبَّ إلى الناس ممن يعطيهم العطاء ، ومن يصحب صاحب السَّوء .. لا يسلم ، ومن يصحب صاحباً صالحاً .. يغنم)[3] .

ورُوي أنَّ إبراهيم بن أدهم خرج إلىٰ بعض البراري ، فاستقبله جندي فقال له : (أين العُمْران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فضرب رأسه فأوضحه ، فلمَّا جاوزه .. قيل له : هـٰذا إبراهيمُ بنُ أدهمَ زاهدُ خُراسان ، فجاءه يعتذر إليه ، فقال : إنك لمَّا ضربتني .. سألتُ اللهَ لك الجنة ، فقال : لِمَ ؟ فقال : قد علمتُ أني أُوجَرُ علىٰ ذٰلك فلم أُرِدْ أن يكونَ نصيبي منك الخيرَ ، ونصيبُك مني الشَّرَّ)[4] .

وحُكي أنَّ أبا عثمان الحِيريَّ دعاه إنسان إلىٰ ضيافة ، فلمَّا وافىٰ باب الدار .. قال : (يا أستاذ ؛ ليس لي وجهٌ في دخولك ، وقد ندمتُ فانصرِفْ رحمك الله ، فرجَعَ أبو عثمان ، فلمَّا وافىٰ منزله .. عاد إليه الرجلُ وقال : يا أستاذ ؛ ندمتُ ،

---

(١) رواه البخاري معلقاً قبل الحديث رقم (٦١٣١) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه ، ووصله في « تغليق التعليق » (١٠٢/٥ ـ ١٠٤) ، ونَكشِرُ : نبتسم .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٤١) عن سعيد بن عبد الرحمـٰن ، وأورده في « الإحياء » (٥١٣/٦ ـ ٥١٤) من قول الحارث بن جَزْء ، ونبَّه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣٧٣/٨) بقوله : (هـٰكذا في سائر نسخ الكتاب ، وهو خطأ ، والصواب : عبد الله بن الحارث بن جَزْء ، وهو الذي له صحبة) .

(٣) قوله : (يا بني . . . يعطيهم العطاء) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٥٨) ، والإمام أحمد في « الزهد » (٢٧٤) ، وقوله : (ومن يصحب . . .) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٥٩) من وصية لقمان الحكيم لابنه .

(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٤) ، و« الإحياء » (٢٤٨/٥ ـ ٢٤٩) .

وأخذَ يعتذرُ إليه ، وقال : أُحضُر الساعة ، فقام أبو عثمان ومضىٰ معه ، فلمَّا وافىٰ داره . . قال مثلما قال في الأولىٰ وأخذ يعتذر ، ثم كذٰلك فعل في الثالثة والرابعة ، وأبو عثمان ينصرف ويحضر .

ثم قال : يا أستاذ ؛ إنما أردت اختبارَك والوقوفَ علىٰ أخلاقك ، وجعلَ يعتذرُ إليه ويمدحه ، فقال أبو عثمان : لا تمدحني علىٰ خُلق تجدُ مثلَه مع الكلاب ؛ فالكلب إذا دُعي . . حضر ، وإذا زُجِر . . انزجر)[1] .

ورُوي أنَّ بعض الفقراء نزل علىٰ جعفرِ بنِ حنظلةَ ، فكان جعفر يخدُمه والفقير يقول : (نِعْمَ الرجلُ أنت لو لم تكن يهودياً ، فقال جعفر : عقيدتي لا تقدَحُ فيما تحتاج إليه من الخدمة ، فسلْ لنفسك الشفاءَ ولي الهدايةَ)[2] .

وروي أن أبا جعفر القُمُودِيَّ المُتعبِّدَ لَقِيَه بعضُ الأجناد ومعه كلبٌ للصيد ، فقال له : (خذ هٰذا الكلب وقُدْه خلفي ، فأبىٰ ، فضربَ رأسه بالسَّوط حتىٰ أوجعه ، فقال له بعض المارِّين : ويحك ! هٰذا أبو جعفر القُمُوديُّ العابد ، فنزل عن فرسه وجعل يُقبِّل يديه ويعتذر إليه ، فقال له : أنت في حِلٍّ) ، قال إبراهيم بن الحسن : سمعت إبراهيم القُمُودِيَّ لياليَ عدةً إذا فَرَغَ من حِزبه في جوف الليل . . يدعو ويقول : (اللهم ؛ اغفِرْ لصاحب الكلب وارحمه) .

وقيل : مكتوب في الإنجيل : (عبدي ؛ أُذكرني حين تغضب . . أذكرْكَ حين أغضب)[3] .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[4] أي : (كلُّ من لقيتَه . . فقل له حُسناً من القول)[5] .

---

(١) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٤) ، و« الإحياء » (٢٤٩/٥) .

(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٤) .

(٣) رواه في « روضة العقلاء » (٥٥١/٢ ـ ٥٥٢) ، و« حلية الأولياء » (٦٥/٣) .

(٤) سورة البقرة : (٨٣) .

(٥) رواه الطبري في « تفسيره » (٥١٦/١) .

وقال لقمان لابنه : (ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة : الحليمُ عند الغضب ، والشجاعُ في الحرب ، والأخُ عند الحاجة إليه)[١] .

ورُوِيَ أنَّ عبد الله الخياط كان له مجوسي يَخِيطُ عنده الثياب ويدفع إليه دراهم زُيُوفاً ، وكان عبد الله يأخذها ، فجاء المجوسي يوماً بالدراهم فلم يجده ، فأعطاها لتلميذه فلم يقبلها ، فدفع إليه صحاحاً ، فلمَّا رَجَعَ عبدُ الله . . قال تلميذه : (هٰذه دراهم المجوسي ، وذكر قصته ، فقال له عبد الله : بئسما عملت ، إنه يعاملني بهٰذه المعاملة منذ مدة وأنا أصبر عليه وأُلقيها في البئر ؛ لئلا يَغُرَّ بها غيري)[٢] .

ورُوي أنَّ معاوية نظر إلى ابنه يزيدَ يضرب أَمَةً له فقال : (أتضرب من لا تمتنع منك ؟! لقد حالت القدرةُ بيني وبين أُولي الإِحَن)[٣] .

وقال بعضهم : (أصل سوء الخلق : ضِيقُ الصدر ، وضيقُه علىٰ قسمين : أدناه وأهونُه : ألَّا يتسعَ لمراد الخلق ، وأقصاه وشرُّه : ألا يتسع لمراد الحق) .

وقال المحاسبي : (أصل سوء الخلق : الإعجاب ، وهل يسوء خلق الرجل إلا من عجبه وتكبره ، وألا يرىٰ فوقه أحداً ، ولا يعرف قدر نفسه فتداخله العِزَّة ؟!) .

وقال الحسن في قوله تعالىٰ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[٤] أي : (وخلقك فحسن)[٥] .

وكان لبعض النُّسَّاك شاةٌ ، فرآها علىٰ ثلاث قوائم ، فقال : (من فعل هٰذا بها ؟ فقال غلامه : أنا ، فقال : لِمَ ؟ قال : لِأَغُمَّك بها ، قال : لأَغُمَّنَّ من أمرك بهٰذا ؛ اذهب فأنت حُرٌّ)[٦] .

---

(١) أورده الجاحظ في « البيان والتبيين » (٧٦/٢) ، ورواه القالي في « الأمالي » (١٧٩/٢) .
(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٥) .
(٣) أورده المبرد في « الفاضل » (ص ٨٨) ، وفيه : (أولي التِّرات) .
(٤) سورة المدثر : (٤) .
(٥) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١١) .
(٦) أورده في « البيان والتبيين » (١٤١/٣ ـ ١٤٢) ، و« الرسالة القشيرية » (ص ٤١٢) .

وروى البخاري عن أبي هريرة أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: « رَأَىٰ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَجُلاً يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَتَسْرِقُ؟ فَقَالَ: كَلَّا وَ ٱللهِ ٱلَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَىٰ: آمَنْتُ بِٱللهِ وَكَذَّبْتُ عَيْنِي »[1].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (فسادُ الأخلاق بمعاشرة السفهاء).

❁ ❁ ❁

وقيل: (الخُلقُ السيئ يُضيِّقُ قلبَ صاحبه؛ لأنه لا يسع فيه غيرُ مراده، كالمكان الضيِّق لا يسع فيه غير صاحبه)[2].

ويقال: (من سوء خُلقك: أن يقعَ بصرُك علىٰ سوء خُلق غيرك)[3].

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الشؤم فقال: « سُوءُ ٱلْخُلُقِ »[4].

وروىٰ أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له: ادع الله على المشركين، فقال: « إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً، وَلَمْ أُبْعَثْ عَذَاباً »[5].

ولمَّا وصَّىٰ يعقوبُ عليه السلام أولادَه.. قال لهم: (احفظوا عني خَصلتين: ما انتصفت من ظالم قطُّ قولاً ولا فعلاً، وما رأيت حسنة إلا أفشيتها ولا سيئة إلا سترتها، كذٰلك فافعلوا).

وقال ابن عمر: (إذا سمعتموني أقول لمملوك: أخزاه الله.. فاشهدوا أنه حُرٌّ)[6].

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٤٤).

(٢) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٥).

(٣) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٥).

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٢٢) عن سيدنا جابر رضي الله عنه، والإمام أحمد بنحوه (٩٩/٤١) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٥) رواه البزار في « مسنده » (٩٧٥٦)، ومسلم (٢٥٩٩) بلفظ: « ولم أبعث لعَّاناً ».

(٦) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٠).

ويقال : (السيئ الخلق : هو الذي لا يملك نفسه عند الغضب)[١] .

وقيل : (أصلُ سوء الخلق : مطالبة غيرك أن يوافقك دون أن تطلب من نفسك بموافقة غيرك ، وعلامةُ حُسن الخُلق : أن تحتمل معاملة سيئ الخلق ؛ لتستر به سوء الخلق) .

وقيل : (العارف : يُعاتب نفسَه ولا يُعاتب خُلُقَه ، وعلامةُ مَنْ بينَه وبين نفسه عتابٌ : ألَّا يكون بينه وبين خُلُقه عتاب)[٢] .

ورُوِيَ أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان في حِجره يتيمٌ سيئُ الخُلق ، فمات فحزن عليه ابن عمر ، فقيل له : (إنك تجد غيره ، قال : فمن أين لي بمثل سوء خلقه ؟!)[٣] .

وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلامُ سَوءٍ ، فقيل له : (لِمَ تُمسكُ هذا الغلام ؟ قال : لأتعلَّم عليه الحِلْم)[٤] .

وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[٥] : (الظاهرة : تسوية الخَلق ، والباطنة : حُسن الخُلق)[٦] .

وقال الفضيل : (لأَنْ يَصحبني فاجرٌ حَسَنُ الخُلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني عابدٌ سيئُ الخُلق)[٧] .

فإن قيل : أليس قد رُوي أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام

---

(١) انظر « بداية الهداية » (ص ٢٤٤) .
(٢) انظر « الدر المنثور » (٣٤٣/٨) .
(٣) أورده بنحوه في « البيان والتبيين » (٢١١/١) بين رجل من النساك وصاحب له .
(٤) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٣) .
(٥) سورة لقمان : (٢٠) .
(٦) أورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٣) .
(٧) رواه في « روضة العقلاء » (٢٩٦/١) ، وأورده في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٤) .

التقيا ، فقال يحيىٰ لعيسىٰ : تلقاني ضاحكاً كأنك آمِنٌ ؟! فقال عيسىٰ : وأنت تلقاني عابساً كأنك آيِسٌ ؟! فأوحى الله تعالىٰ إليهما : (إنَّ أَحبَّكما إليَّ أبَشُّكما لصاحبه)[١] .

قلنا : كذٰلك يُستحبُّ أن يكون المؤمن ، وليس إطلاقُ الوجهِ والتبسمُ في وجه أخيك منهياً عنه ، وإنما المكروه : ما ذكرناه في أول الباب من التملق والتصنع .

وفصلُ الخطابِ في هـٰذا الباب : ما روىٰ هندُ بن أبي هالة في صفة مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (كان أصحابه كأنما علىٰ رؤوسهم الطير)[٢] ، ومعلوم أن من كان علىٰ رأسه طائر لا يبرح ولا يتحرك ، ولا يتكلم ولا يَطرِفُ بعينه ؛ حذراً أن ينفِر الطائر .

وقال ابن المقفع : (كان لي صديق من أعظم الناس في عيني ، وكان رأسُ ما عَظَّمه في عيني : صِغَرَ الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه ؛ فلا يشتهي ما لا يجد ولا يُكثِرُ إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه ؛ فلا يدعو إليه مؤونةً ولا يستخفُّ له رأياً ولا بدناً ، وكان خارجاً من سلطان الجَهالة ؛ فلا يُقدِمُ أبداً إلا علىٰ ثقة لمنفعة ، وكان أكثرَ دهرِه صامتاً ؛ فإذا قال . . بَذَّ القائلين[٣] ، كان متضاعفاً مستضعفاً ؛ فإذا جاء الجِدُّ . . فهو الليث عادياً .

وكان لا يدخل في دَعْوَىٰ ولا يَشرَكُ في مِراء ، ولا يُدلي بحجة حتىٰ يرىٰ قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً ، وكان لا يلوم أحداً علىٰ ما يكون العُذرُ في مثله حتىٰ يعلم ما اعتذارُه ، وكان لا يشكو وجعاً إلا إلىٰ من يرجو عنده البُرْءَ ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعاً .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٦٤) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/١٨١) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/١٥٨) .
(٣) بذَّ القائلين : سبقهم وغلبهم .

وكان لا يتبرَّمُ ولا يتسخَّطُ ولا يتشكَّىٰ ، ولا ينتقمُ من الوَلي ، ولا يَغفُلُ عن العَدُوِّ ، ولا يَخُصُّ نفسَه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقُوَّته .

فاقفُ هـٰذه الأخلاقَ ، فإن لم تطق . . فأخذُ القليل خيرٌ من ترك الجميع)[١] .

ورُوي أن حكيماً سمع رجلاً يَذُمُّ الزمانَ وأهلَه ، وأنه قد فسد الناسُ ولم يبق أحد يصحب ، فقال له : (يا هـٰذا ؛ أنت تطلبُ صاحباً تؤذيه فلا ينتصر ، وتنالُ منه فلا ينتصف ، وتأكل رَحْلَه فلا يَرزَؤُكَ بشيء ، وتجفو عليه فيحلم ، فلم تنصف في الطلب فلم تجد حاجتك .

ولـٰكن إن أردت صاحباً يؤذيك فلا تنتصر ، ويجفوك فلا تنتقم ، ويأكل رَحلك فلا تنال منه شيئاً . . وجدت أصحاباً وأخداناً وخِلَّاناً ، وأنا أول من يصحبك) .

فَصْلٌ

في الفرق بين المداهنة والمداراة

من دارىٰ . . سَلِمَ ، ومن داهن . . أَثِمَ ، وهـٰذا بابٌ اختلط علىٰ معظم الخلق ، فداهنوا وهم يحسَبون أنهم يُدارون ؛ فالمداهنة منهيٌّ عنها ، والمداراةُ مأمورٌ بها .

قال الله تعالىٰ في المداهنة : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[٢] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في المداراة : « رَأْسُ ٱلْعَقْلِ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللهِ : ٱلتَّوَدُّدُ إِلَى ٱلنَّاسِ ، وَأُمِرْتُ بِمُدَارَاةِ ٱلنَّاسِ كَمَا أُمِرْتُ بِأَدَاءِ ٱلْفَرَائِضِ »[٣] .

---

(١) الدرة اليتيمة (ص ١٢٢) ، ورواه بنحوه في « عيون الأخبار » (٣٥٥/٢) من قول سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما .

(٢) سورة القلم : (٩) .

(٣) روىٰ شطره الأول : البزار في « مسنده » (٧٨٥١) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٠٦٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وشطره الثاني : أورده الديلمي في « الفردوس » (٦٥٩) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

واعلم : أنه إذا سَقِمَت المداراةُ . . صارت مداهنةً ، والمُداهنةُ : أن تداري الناس علىٰ وجهٍ يَذهب فيه دينُك ، والمداراة : مخالفتهم علىٰ وجه يسلم فيه دينُك .

وذٰلك أن هـٰذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وقد قالت له قريش : (يا محمد ؛ اعبد آلهتنا سنةً ونؤمن بك ، فأبىٰ ، قالوا : فشهراً ، فأبىٰ ، قالوا : فيوماً ، فأبىٰ ، قالوا : فساعةً ، فأبىٰ ، قالوا : فاستلمْها بيدك ونؤمن بك ، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم في ذٰلك وطَمِعَ إن فعل أن يؤمنوا ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [1]) .

وقيل له : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ . . . ﴾ الآية [2] .

ومثاله أن تقول للظالم : أبقاك الله ، ومن دعا لظالم بالبقاء . . فقد أحب أن يُعصى الله سبحانه وتعالىٰ في أرضه ، وهـٰذا بابٌ ينبغي لذوي الدين حفظُه .

وقد رأىٰ بعض الفقهاء الخروجَ عن هـٰذه العُهدة بالتعريض ، فكان الفقيه ابن الحصَّار بقرطبة له جارٌ نصرانيٌّ يقضي حوائجه وينفعه ، وكان الفقيه يُكثر أن يقول له : أبقاك الله وتولَّاك ، أقرَّ الله عينك ، يسرُّني واللهِ ما يَسرُّك ، جعل اللهُ يومي قبل يومِك ، لا يزيده قطُّ علىٰ هـٰذه الكلمات ، فيبتهج النصراني بها ويسرُّه ، فعُوتِبَ الفقيهُ في ذٰلك فقال : (إنما أدعو بمعاريضَ قد عَلِمَ اللهُ تعالىٰ ذٰلك من نيتي .

أما قولي : أبقاك الله وتولَّاك : فأريد أن يُبقيه الله ؛ لغرم الجِزية ، ويتولاه بالعذاب .

---

(١) سورة القلم : (٩) .

(٢) سورة الإسراء : (٧٤ ـ ٧٥) ، انظر « تفسير ابن أبي حاتم » (١٣٣٥٠) ، و« تفسير القرطبي » (٢٣٠/١٨) ، و« الدر المنثور » (٣١٨/٥) .

وأما قولي : أقرَّ اللهُ عينك : فأُريد أن تَقَرَّ حركتُها بسِتر يعرض لها ، فلا تتحرك جفونُها .

وأما قولي : يسرُّني واللهِ ما يسرُّك : فإن العافية تسرُّني كما تسرُّه .

وأما قولي : جعل الله يومي قبل يومك : فأريد أن يجعل الله تعالى اليومَ الذي أدخلُ فيه الجنة برحمته قبل اليوم الذي يدخل فيه النارَ بكفره)[١] .

* * *

(١) أورده في « ترتيب المدارك » (٢/١٨٥) .

الباب السادس والخمسون

في الظلم وشؤمه، وسوء عاقبته

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (٣) .

فكلُّ من لم يحكم بما جاء من عند الله ورسوله . . كملت فيه هـٰذه الأوصاف الثلاثة : الكفر ، والظلم ، والفسق .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (٤) .

وقال أحمدُ بنُ خَضْرَويه : (لو أُذِنَ لي في الشفاعة . . ما بدأت إلا بالظالمين ؛ لأني نلتُ منهم تعزية الله تعالىٰ للمظلومين في قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (٥) قال : ولا أغتنم سفراً لا يكون فيه من لا يؤذيني ويظلمني ؛ شوقاً مني لتعزية الله تعالىٰ للمظلومين) (٦) .

وقال ميمون بن مهران : (كفىٰ بهـٰذه الآية وعيداً للظالم وتعزيةً للمظلوم) (٧) .

وقال كعب الأحبار لأبي هريرة : (في التوراة : من يظلمْ . . يَخرَبْ بيتُه) ،

---

(١) سورة المائدة : (٤٤) .

(٢) سورة المائدة : (٤٥) .

(٣) سورة المائدة : (٤٧) .

(٤) سورة إبراهيم : (٤٢) .

(٥) سورة إبراهيم : (٤٢) .

(٦) أورده السلمي في « تفسيره » (١/٣٤٨) .

(٧) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/٢٩٦) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٦٢٢) .

فقال أبو هريرة : (وذٰلك في كتاب الله تعالىٰ : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾)[1] .

فالظلم أدعىٰ شيءٍ إلىٰ سلب النِّعم وحلول النِّقم .

وروىٰ مسلم في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن الله عزَّ وجلَّ أنه قال : « يَا عِبَادِي ؛ إِنِّي حَرَّمْتُ ٱلظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا .

يَا عِبَادِي ؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَٱسْتَهْدُونِي . . أَهْدِكُمْ .

يَا عِبَادِي ؛ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَٱسْتَطْعِمُونِي . . أُطْعِمْكُمْ .

يَا عِبَادِي ؛ كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَٱسْتَكْسُونِي . . أَكْسُكُمْ .

يَا عِبَادِي ؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً ، فَٱسْتَغْفِرُونِي . . أَغْفِرْ لَكُمْ .

يَا عِبَادِي ؛ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي .

يَا عِبَادِي ؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ . . مَا زَادَ ذَٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً .

يَا عِبَادِي ؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ . . مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً .

يَا عِبَادِي ؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ . . مَا نَقَصَ ذَٰلك مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ ٱلْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ ٱلْبَحْرَ .

يَا عِبَادِي ؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ؛ فَمَنْ وَجَدَ

---

(١) أورده في « نثر الدر » (٤١٤/١) ، وفيه : (ابن عباس) بدل (أبي هريرة) رضي الله عنهم ، والآية من سورة النمل : (٥٢) .

خَيْراً .. فَلْيَحْمَدِ ٱللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَٰلِكَ .. فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » .

يرويه أبو إدريسَ الخَوْلانيُّ عن أبي ذَرٍّ مسنداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو إدريسَ إذا حدَّث به .. جثا علىٰ رُكبتيه [١] .

وروىٰ عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اَلظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » [٢] .

وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اِتَّقُوا دَعْوَةَ ٱلْمَظْلُومِ ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱللهِ حِجَابٌ » [٣] .

وروىٰ أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ .. فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ .. أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ .. أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » [٤] .

وروىٰ سعيد بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ ظَلَمَ مِنَ ٱلْأَرْضِ شِبْراً .. طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » [٥] .

قال أبو جعفر الطَّحَاوي : (معناه : أنه يُقلَبُ شُجاعاً أقرعَ فيُطَوِّقُه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في مانع الزكاة : « يَجِيءُ مَالُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ يَتْبَعُهُ وَيَقُولُ : أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنْزُكَ » ، وكان هٰذا داخلاً في قوله تعالىٰ : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾) [٦] .

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧) .
(٢) رواه البخاري (٢٤٤٧) ، ومسلم (٢٥٧٩) .
(٣) رواه البخاري (٢٤٤٨) ، ومسلم (١٩) .
(٤) رواه البخاري (٢٤٤٩) .
(٥) رواه ابن حبان (٥١٦٣) ، وبنحوه البخاري (٢٤٥٢) .
(٦) شرح مشكل الآثار (٦١٤٦ ، ٦١٤٧) ، والحديث رواه بنحوه البخاري (٤٥٦٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والآية من سورة آل عمران : (١٨٠) .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَطْلُ ٱلْغَنِيِّ ظُلْمٌ »(١) .

وروىٰ أبو موسى الأشعري قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ . . لَمْ يُفْلِتْهُ » ، ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(٢) .

وروىٰ أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً » ، قال(٣) : يا رسول الله ؛ هـٰذا أنصره مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً ؟! قال : « تَأْخُذُ فَوْقَ يَدِهِ »(٤) .

وروىٰ أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ ٱلنَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : نَاسٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ ٱلْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا ٱلنَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ ، عَلَىٰ رُؤُوسِهِنَّ مِثْلُ أَسْنِمَةِ ٱلْبُخْتِ ، لَا يَرَيْنَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا »(٥) .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾(٦) ، وفي الآية تأويلان :

أحدهما : أَمَرناهم بالطاعة ففسقوا ؛ أي : خرجوا عن الطاعة .

---

(١) رواه البخاري (٢٢٨٧) ، ومسلم (١٥٦٤) .

(٢) سورة هود : (١٠٢) ، رواه البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) ، ولَيُملي : لَيُمهل .

(٣) أي : رجل من الصحابة .

(٤) رواه البخاري (٢٤٤٤ ، ٦٩٥٢) .

(٥) رواه بنحوه مسلم (٢١٢٨) ، وكاسيات عاريات : كاسيات في الحقيقة عاريات في المعنىٰ ؛ لأنهن يلبَسن ثياباً رِقاقاً يصفن البشرة ، أو كاسيات من لباس الزينة عاريات من لباس التقوىٰ ، ومائلات : زائغات عن الطاعة ، أو متبخترات في مشيتهن ، ومميلات : يُملن الرجال إلىٰ نفوسهن ، والبُخْتُ : جمع بُختِيّ ؛ وهي الإبل الخراسانية .

(٦) سورة الإسراء : (١٦) .

والثاني : علىٰ قراءة المد[1] ؛ أي : أكثرنا عددهم ، وأسبغنا النعم عليهم ، فعصوا وتباغَوْا ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ ٱلْمَال سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ وَمُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ »[2] ؛ أي : كثيرة النِّتاج .

* * *

واعلموا رحمكم الله : أنَّ حشراتِ الأرض وهوامَّها تلعن العُصاة .

قال مجاهد : (إذا أشعثتِ الأرضُ . . تقول البهائم : هـٰذا من أجل عُصاة بني آدم ، لعنَ اللهُ عُصاةَ بني آدم ، فذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾[3])[4] .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ ٱلْحِسْلَ لَيَمُوتُ هَزْلاً بِذَنْبِ ٱبْنِ آدَمَ »[5] ؛ يعني : أنه بذنوب الخلق يمتنع القطر ؛ فلا تنبت الأرض ، فتتهالك الدواب والحشرات .

وسمع أبو هريرة رجلاً يقول : إنَّ الظالم لا يضرُّ إلا نفسه ، فقال : (بلىٰ ، واللهِ ؛ إنَّ الحُبَارىٰ لَتموتُ هَزْلاً في وَكْرِها بظلم الظالم)[6] .

---

(١) أي : آمَرنا ، وهي قراءة الإمام يعقوب الحضرمي رحمه الله تعالىٰ . انظر « النشر في القراءات العشر » (٣٠٤/٢) .

(٢) رواه بنحوه الإمام أحمد في « مسنده » (٤٦٨/٣) ، والطبراني في « الكبير » (٩١/٧) عن سيدنا سويد بن هبيرة رضي الله عنه ، والسكة : الطريق المصطفة من النخل ، ومأبورة : ملقحة .

(٣) سورة البقرة : (١٥٩) .

(٤) رواه سعيد بن منصور في « سننه » (٢٣٦) ، والطبري في « تفسيره » (٧٣/٢) ، وفيهما : (إذا أسنتت) أي : أجدبت وأصابتها سنة شديدة .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا بنحوه في « العقوبات » (٢٦٨) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (١١٧/٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه موقوفاً ، بلفظ : (الضب) بدل (الحسل) ، والحِسْل : ولد الضَّبِّ ، وخصَّه بالذكر ؛ لأنه أطول الحيوان نفساً ، وأصبرُها على الجوع .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٢٦٩) ، والطبري في « تفسيره » (١٥٥/٨) ، والثعلبي في « تفسيره » (١١٧/٨) ، والحُبارىٰ : طائر طويل العنق ، رمادي اللون ، علىٰ شكل الإوزة ، الذكر والأنثىٰ والجمع فيه سواء ، والمعنىٰ : أن الله يحبس عنها القطرَ بعقوبة ذنوبهم ، وإنما خصَّها بالذكر ؛ لأنها أبعد الطير نُجْعةً .

وقال ابن مسعود : (خطيئة ابن آدم قتلت الحِسْل)[1] .

وروىٰ مسلم في « صحيحه » أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنِ ٱقْتَطَعَ حَقَّ ٱمْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ . . فَقَدْ أَوْجَبَ ٱللهُ لَهُ ٱلنَّارَ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ » ، فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ قال : « وَإِنْ قَضِيباً مِنْ أَرَاكٍ »[2] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (ما ظَهرَ الغُلولُ في قوم قَطُّ . . إلا أُلقيَ في قلوبهم الرُّعبُ ، ولا فشا الزِّنا في قومٍ قطُّ . . إلا كثر فيهم الموتُ ، ولا نَقَصَ قومٌ المكيالَ والميزانَ . . إلا قُطِعَ عنهم الرِّزق ، ولا حَكَمَ قومٌ بغير الحق . . إلا فشا فيهم الدم ، ولا خَتَرَ قومٌ بالعهدِ . . إلا سَلَّط اللهُ عليهم العدوَّ)[3] .

وقال بعض الحكماء : (اذكر عند الظلم عدلَ الله فيك ، وعند القدرةِ قدرةَ الله عليك ، لا يُعجِبنَّكَ امرؤٌ رحبُ الذِّراعين يَسْفِكُ الدماء ؛ فإن له قاتلاً لا يموت)[4] .

ورُوي أن بعض الملوك رَقَمَ علىٰ بساطه[5] : [من البسيط]

لَا تَظْلِمَـنَّ إِذَا مَـا كُنْـتَ مُقْتَـدِراً   فَٱلظُّلْـمُ مَصْـدَرُهُ يُفْضِي إِلَـى ٱلنَّدَمِ
تَنَـامُ عَيْنُـكَ وَٱلْمَظْلُـومُ مُنْتَبِـهٌ   يَدْعُـو عَلَيْـكَ وَعَيْـنُ ٱللهِ لَـمْ تَنَـمِ

---

(١) رواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٢٧٠) ، والطبري في « تفسيره » (١٥٥/٨) بلفظ : (قتلت الجُعَل) .

(٢) صحيح مسلم (١٣٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

(٣) رواه الإمام مالك في « الموطأ » (٤٦٠/٢) بلاغاً ، والغلول : الخيانة في المغنم ، والسرقة ، وخَتَر : غدر .

(٤) أورده إلىٰ قوله : (قدرة الله عليك) في « شرح نهج البلاغة » (٣٢٨/٢٠) ، وباقي الحديث رواه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (٣١٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥١٣٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

(٥) البيتان لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ٢٢٩) .

وأنشدنا قاضي القضاة أبو عبدِ الله الدَّامَغانيُّ رحمه الله تعالىٰ ببغداد :

[من المتقارب]

إِذَا مَـا هَمَمْـتَ بِظُلْـمِ ٱلْعِبَـادِ فَكُـنْ ذَاكِـراً هَـوْلَ يَـوْمِ ٱلْمَعَـادِ
فَـإِنَّ ٱلْمَظَالِـمَ يَـوْمَ ٱلْقِصَـاصِ لِمَـنْ قَـدْ تَزَوَّدَهَـا شَـرُّ زَادِ

وقال سَحْنون بن سعيد : كان يزيد بن حاتم حكيماً ، وقال : (واللهِ ؛ ما هِبتُ شيئاً قطُّ هَيبتي رجلاً ظلمتُه ، وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله تعالىٰ ، فيقول لي : حَسبُك الله ، الله بيني وبينك)[1] .

وقال بلال بن سعد : (اتقوا الله فيمن لا ناصرَ له إلا الله)[2] .

وقال أبو سليمان الدَّاراني : (لمَّا دخلَ إخوةُ يوسف عليه السلام . . عرفهم ولم يعرفوه ، وكان علىٰ وجهه بُرْقُعٌ ، فخلا بكبيرهم وكان ابنَ خالته ، فقال له : بِمَ أوصاك أبوك ؟ قال : بأربع ، قال : وما هُنَّ ؟ قال : يا بني ؛ لا تَتَّبعْ هواك فتفارقَ إيمانك ؛ فإنَّ الإيمان يدعو إلى الجنَّة ، والهوىٰ يدعو إلى النار ، ولا تُكثرْ مَنطِقَك فيما لا يعنيك ، فتسقطَ من عينه ، ولا تُسِئْ بربِّك الظَّنَّ فلا يستجيبَ لك ، ولا تكن ظالماً ؛ فإنَّ الجنَّة لم تُخلَق للظالمين) .

وبكىٰ عليُّ بن الفضيل يوماً فقيل له : (ما يُبكيك ؟ فقال : أبكي علىٰ من ظلمني إذا وقف غداً بين يدي الله تعالىٰ ولم تكن له حُجَّة)[3] .

وقال محمود[4] :

[من الكامل]

إِنِّـي وَهَبْـتُ لِظَالِمِـي ظُلْمِـي وَتَرَكْـتُ ذَاكَ لَـهُ عَلَـىٰ عِلْمِـي
وَرَأَيْتُـهُ أَسْـدَىٰ إِلَـيَّ يَـداً لَمَّـا أَبَـانَ بِجَهْلِـهِ حِلْمِـي

---

(١) أورده في « الكبائر » (ص ١١٦) ، و« المستطرف » (١/٣٣٦) .
(٢) رواه في « حلية الأولياء » (٥/٢٢٦) ، و« تاريخ دمشق » (١٠/٤٩٧) .
(٣) أورده في « المحاسن والمساوئ » (ص ٥٠٠) ، و« الإحياء » (٤/١٩٩) .
(٤) هو محمود الوراق ، والأبيات في « ديوانه » (ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧) .

رَجَعَتْ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِحْـ ـسَانِي فَعَادَ مُضَاعَفَ ٱلْجُرْمِ
وَغَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةٍ وَغَدَا بِكَسْبِ ٱلذَّمِّ وَٱلْإِثْمِ
مَا زَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ حَتَّىٰ رَثَيْتُ لَهُ مِنَ ٱلظُّلْمِ
فَكَأَنَّمَا ٱلْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا ٱلْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي ٱلْحُكْمِ

ورُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَى : اِشْتَدَّ غَضَبِي عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَ مَنْ لَا يَجِدُ نَاصِراً غَيْرِي »[(١)] .

وقال ابن مسعود : (لمَّا كشف الله تعالى العذاب عن قوم يونس .. ترادُّوا المظالم بينهم ، حتىٰ إن كان الرجل لَيَقلعُ الحجرَ من أساسِه فيردُّه إلىٰ صاحبه)[(٢)] .

وقال ثور بن يزيد : (الحَجَرُ في البُنيان من غير حِلِّه عُربونٌ علىٰ خرابه)[(٣)] .

وقال غيره : (لو أن الجنة أُسِّست وهي دار البقاء علىٰ حَجَرٍ من الظُّلم .. لأوشك أن تَخرَب)[(٤)] .

وقال الحكيم : (العدل قربة ، والظلم ظلمة ، بالعدل تُجرُّ إليك الحوائج ، وبالجور تهجم عليك الجَوائح ؛ فاحذر من لا جُنَّة له إلا الثقة بنزول الغِيَر ، ولا سلاح له إلا الابتهال إلىٰ مُقلِّب الدول)[(٥)] .

وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب : (يا معشر الظَّلَمة ؛ لا تُجالسوا أهلَ الذِّكر ؛ فإنهم إذا ذَكروني .. ذكرتُهم برحمتي ، وإذا ذَكَرتموني .. ذكرتُكم بلعنتي)[(٦)] .

---

(١) رواه الشهاب في « مسنده » (١٤٥٢) ، والطبراني في « الصغير » (١/٣٠ ـ ٣١) عن سيدنا علي رضي الله عنه .
(٢) أورده بنحوه الثعلبي في « تفسيره » (٥/١٥٢) .
(٣) رواه في « حلية الأولياء » (٦/٩٥) ، وزيد قبله : (مكتوب في الإنجيل ...) .
(٤) أورده في « المستطرف » (١/٣٣٦) .
(٥) رواه بنحوه مختصراً ابن أبي الدنيا في « ذم البغي » (٢٦) ، وأورده الجاحظ في « الجد والهزل » (١/٢٤٤) ضمن رسائله .
(٦) رواه الفريابي في « صفة النفاق » (ص ٥٣) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٠٧٣) .

وقال أبو أمامة : (يجيء الظالم يوم القيامة ، حتىٰ إذا كان علىٰ جسر جهنم . . لَقِيَه المظلوم ، وعرفَ ما ظلمه به ، فما يبرح الذين ظُلِموا بالذين ظَلموا حتىٰ ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات ، فإن لم يجدوا حسنات . . حُمل عليهم من سيئاتهم مثل ما ظلموا حتىٰ يَرِدُوا الدَّرْكَ الأسفلَ من النار)[1] .

وفي « صحيح مسلم » أنَّ هشام بن حكيم مرَّ بالشام علىٰ أناس وقد أُقيموا في الشمس وصُبَّ علىٰ رؤوسهم الزَّيتُ ، قال : ما هـٰذا ؟ قال : يُعذَّبون في الخَراج ، فقال : أَمَا إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ ٱللَّهَ يُعَذِّبُ ٱلَّذِينَ يُعَذِّبُونَ فِي ٱلدُّنْيَا »[2] .

❁ ❁ ❁

وأخبرني رجل ممن كان يقرأ العلم بالإسكندرية قال : (كان هـٰهنا شيخٌ يكونُ عيناً للمَكَّاسين يدور حولهم ، فرأيتُه في النوم بعد وفاته فقلت له : من أين تجيء ؟ فقال لي : لا تسأل ، فأَعدتُ عليه ، فقال : لا تسأل ، فسألته الثالثة ، فقال : من الجحيم ، فقلت له : فإلىٰ أين تذهب ؟ قال : إلىٰ مثل الدار التي خرجتُ منها ، قلت : فكيف لَقِيتَ ؟ وماذا لَقِيتَ ؟ قال : كأن لحمي جُعِلَ في هَاوُنٍ ودُقَّ حتىٰ صار مثلَ المُخِّ) .

وأخبرني رجل من أهل[3] العلم والدين قال : (رأيت فلاناً البيَّاعَ في النوم بعد وفاته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : أنا محبوس عن الجنة ، قلت : فبماذا ؟ قال : كنت أبيع في الدُّكَّان فيزدحمُ الناس عليَّ ، فآخذُ دراهمهم فأضعُها في فمي ، وكلما تفرَّغتُ . . وزنتُها وأعطيتُ كلَّ إنسان حقَّه ، فاختلطتْ في فمي فِضَّتان ، ودفعتُ لأحدهما بفضةِ الآخَرِ ، وكانت أنقصَ من فضَّته بحَبَّة ،

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٧٣) ، وابن المبارك في « الزهد » (١٤٢٠) .
(٢) صحيح مسلم (٢٦١٣) .
(٣) زيد في (ب) : (اليمن وكان من أهل) .

ثم حُوسِبتُ فبقيَ عليَّ حبَّةٌ ، فقلتُ له : فادفع له الحَبَّة وتخلَّص ، فجعل يُقلِّبُ كَفَّيه ويقول : من أين أدفع له ؟ من أين أدفع له ؟ فكرَّرها مرَّات) .

ويروىٰ أن يونس عليه السلام لمَّا نُبِذَ بالعراء وأنبتَ اللهُ عليه شجرةً من يقطينٍ . . كان يأوي إلىٰ ظِلِّها ، فيبست فبكىٰ عليها ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : (تبكي علىٰ شجرة فقدتها ولا تبكي علىٰ مئة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم ؟!)(١) .

وقيل لابن السَّمَّاك الأسدي أيام معاوية : (كيف تركت الناس ؟ قال : بين مظلومٍ لا يَنتصف ، وظالمٍ لا يَنتهي)(٢) .

وقال بعض الحكماء : (أفقرُ الناس : أكثرُهم كسباً من حرام ؛ لأنه استدان بالظلم ما لا بُدَّ له من رَدِّه)(٣) .

* * *

وقال رجل : كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فذُكِرَ الحجَّاجُ فشتمتُه ووقعتُ فيه ، فقال عمر : (إنَّ الرجل لَيظلمُ بالمَظلِمة ، فلا يزالُ المظلومُ يشتِمُ الظالمَ ويسبُّه حتىٰ يستوفيَ حقه ، ويكون للظالم فضل عليه)(٤) .

وقال عمرو بن دينار : (نادىٰ رجل في بني إسرائيل : من رآني . . فلا يظلمن أحداً ؛ وإذا رجل قد ذهب ذراعُه من عَضُده وهو يبكي ويقول : من رآني . . فلا يظلمن أحداً ، فسُئِلَ عن حاله ، فقال : بينما أنا أسير علىٰ شاطئ البحر في بعض سواحل الشام . . إذ مررت بنَبَطِيٍّ قد اصطاد سبعة أَنْوانٍ ، فأخذت منه نُوناً وهو كارهٌ بعد أن ضربتُ رأسَه ، فعَضَّ النُّونُ إبهامي عضةً يسيرةً ، ثم أكلناه ،

(١) رواه مطولاً ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (١٧٣) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/١٦٧) ، وفيه : (لابن السَّمَّال) ، و« بهجة المجالس » (١/١٠١) ، وفيه : (زمن يزيد بن معاوية) .

(٣) أورده في « نثر الدر » (٤/١٩٣) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٧١١) عن رياح بن عبيدة قال : (كنت . . .) .

فوقعت الأكِلةُ في إبهامي[1] ، فاتفقت الأطباء علىٰ قطعها فقطعتها ، فوقعت في كَفِّي ، ثم في ساعدي ، ثم في عَضُدي ؛ فمن رآني . . فلا يظلمنَّ أحداً .

فخرجتُ أَسِيحُ في البلاد وأُريدُ قطعَ عَضُدي ؛ إذ رُفِعتْ لي شجرةٌ فأويتُ إلىٰ ظِلِّها ، فنَعَسْت ، فقيل لي في المنام : لأيِّ شيءٍ تقطَعُ أعضاءك ؟! رُدَّ الحق إلىٰ أهله ، فجئت إلى الصياد فقلت : يا عبد الله ؛ أنا مملوكُك فأعتقني ، فقال : ما أعرفك ، فأخبرتُه ، فبكىٰ وتضرَّع وقال : أنت في حِلٍّ .

فلمَّا قالها . . تناثر الدود من عَضُدي ، وسكنَ الوجعُ ، فقلت له : بماذا دعوت عليَّ ؟ قال : لمَّا ضربتَ رأسي وأخذتَ السمكة . . نظرتُ إلى السماءِ وبكيتُ فقلت : يا ربِّ ؛ أشهدُ أنك عدلٌ تحبُّ العدلَ ، وهـٰذا منك عدل ، وإنك الحقُّ تحبُّ الحقَّ ، وخلقتني وخلقتَه ، وجعلتَه قوياً وجعلتني ضعيفاً ، فأسألك بالذي خلقتَني وخلقتَه . . أن تجعله عبرةً لخلقك)[2] .

وقال معاوية : (إنَّ أولى الناس بالعفو : أقدرُهم على الانتقام ، وإنَّ أنقصَ الناس عقلاً : مَنْ ظَلمَ مَنْ دونه)[3] .

وقال بعض الحكماء : « الظلم علىٰ ثلاثة أوجه : ظلمٌ لا يغفره الله ، وظلمٌ لا يتركه الله ، وظلمٌ لا يعبأ الله به شيئاً .

فأمَّا الظلمُ الذي لا يغفره الله : فهو الشركُ بالله تعالىٰ .

وأمَّا الظلم الذي لا يتركه الله : فمظالمُ العباد بعضِهم بعضاً .

وأمَّا الظلم الذي لا يعبأ الله به شيئاً : فظلمُ العبد نفسَه فيما بينه وبين الله تعالىٰ »[4] .

---

(١) الأكلة : داء يقع في العضو فيأتكل منه .

(٢) رواه ابن منظور في « مختصر تاريخ دمشق » (٣/١٨٤) .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٩٦٩) من قول خالد بن صفوان .

(٤) رواه بنحوه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (٢١٠٩) ، والبزار في « مسنده » (٦٤٩٣) عن سيدنا ←

وقال ميمون بن مهران : (من ظَلَمَ رجلاً مظلَمةً ، ففاته أن يخرج منها ، فاستغفر له دُبر كل صلاة . . رَجَوْتُ أن يخرج من مظلِمته)[1] .

وقال يوسف بن أسباط : (توفي رجل من الحواريين ، فوجدوا عليه وَجْداً شديداً ، وشَكَوْا ذلك إلى المسيح عليه السلام ، فوقف على قبره ودعا له ، فأحياه الله تعالىٰ وفي رجليه نعلان من نار ، فسأله عيسىٰ عليه السلام عن ذلك فقال : واللهِ ؛ ما عصيتُ الله تعالىٰ قطُّ إلا أنّي مررتُ بمظلومٍ فلم أنصرْه ، فتنعَّلتُ هاتين النَّعلين) .

* * *

وأمَّا أنا . . فأُوصيك : إذا فعلت بأحد مكروهاً . . فادعُ الله تعالىٰ له ، واستغفرْ له كما فعلَ موسىٰ لمَّا آذىٰ هارون وأخذَ برأسه ولحيته ، ثم تبيَّن له براءتُه وأنَّ بني إسرائيل غلبوه عليه وعلىٰ عبادةِ العِجْلِ ؛ فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2] .

ورُوي أنَّ قوم لوط كانت فيهم عشرُ خصال ، فأهلكهم الله تعالىٰ بها : كانوا يتغوَّطون في الطرقات ، وتحتَ الأشجار المثمرة ، وفي المياهِ الجارية ، وفي شطوط الأنهار ، وكانوا يَخذِفُون الناس بالحصىٰ فيُعوِرُونهم ، وإذا اجتمعوا في المجالس . . أظهروا المنكر بإخراج الريح منهم ، واللطمِ علىٰ رقابهم ، وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يتغوَّطوا ، وكانوا يأتون بالطامة الكبرىٰ ؛ وهي : اللوطية ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾[3] ، والنادي : المجلس ، ويلعبون بالحَمام ، ويَرمون بالجُلاهق[4] ،

← أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(١) أورده بنحوه في « البداية والنهاية » (١٠/١٦٤) .

(٢) سورة الأعراف : (١٥١) .

(٣) سورة العنكبوت : (٢٩) .

(٤) الجُلاهق : الطين المُدَوَّر الأملس ، والبُندق الذي يُرمىٰ به .

وضرب الدُّفِّ ، وشرب الخمر ، وقص اللحية ، وتطويل الشارب ، والتصفيق ، ولبس الحُمرة ، وتزيد عليهم هـٰذه الأمة : بإتيان النساء بعضِهنَّ بعضاً (١) .

وإنما حملهم علىٰ إتيان الرجال : أنهم كانت لهم ثمارٌ كثيرةٌ في منازلهم وحوائطهم ، فأصابهم قحطٌ وقلةٌ من الثمار ، فقالوا : بأيِّ شيءٍ نمنعُ ثمارَنا حتىٰ لا يَطرُقَها أحدٌ من الناس ؟ فاصطلحوا علىٰ أنَّ من وجدوه فيها . . نكحوه وغرَّموه أربعة دراهم ، ففعلوا وما سبقهم بها من أحد من العالمين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (كان بَدءُ الفاحشة فيهم : أنهم هَمُّوا بذٰلك ، فجاءهم إبليسُ في هيئة صبي أجملَ شيءٍ رآه الناسُ ، فنكحوه وجَرَوْا علىٰ ذٰلك) (٢) .

وقال أبو العتاهية في الظلم (٣) : [من الوافر]

أَمَـا وَٱللهِ إِنَّ ٱلظُّلْـمَ لُـومُ ... وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُسِـيءَ هُـوَ ٱلظَّلُـومُ

إِلَـىٰ دَيَّـانِ يَـوْمِ ٱلدِّيـنِ نَمْضِـي ... وَعِنْـدَ ٱللهِ تَجْتَمِـعُ ٱلْخُصُـومُ

سَـلِ ٱلْأَيَّـامَ عَـنْ أُمَـمٍ تَقَضَّـتْ ... سَـتُخْبِرُكَ ٱلْمَعَالِـمُ وَٱلرُّسُـومُ

وروي أن أَنُوشَرْوان كان له معلِّمٌ حَسَنُ التأديب ، فعلَّمه حتىٰ فاق في العلوم ، فضربه المعلِّمُ يوماً من غير ذنبٍ فأوجَعَه ، فحَقَد أَنُوشَرْوان عليه ، فلمَّا وَلِيَ المُلكَ . . قال له : (ما حملَكَ علىٰ ما صنعتَ من ضربي يومَ كذا وكذا ظُلماً ؟ قال : لمَّا رأيتُك ترغبُ في العلمِ . . رَجَوْتُ لك المُلكَ بعد أبيك ، فأحببتُ أنْ أُذيقَكَ طَعمَ الظلم ؛ لئلا تظلمَ ، فقال أَنُوشَرْوان : زِه) (٤) .

---

(١) أورده بنحوه في « تاريخ دمشق » (٥٠/٣٢٢) مرسلاً عن الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه بنحوه الحاكم (٢/٥٦٢) .

(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص ٣٥٣ ـ ٣٥٥) ، وفيه مع (ز) : (وما زال) بدل (ولـٰكنَّ) .

(٤) أورده بنحوه في « التذكرة الحمدونية » (٣/١٩٩) ، وزِهْ : كلمة فارسية تُقال عند الاستحسان ، وقد تقال عند الاستهجان تهكماً وسخرية .

وقال أبو عبد الرحمـٰن السائب : (جمعَ زيادُ بنُ سُميَّة أسماء الناس بالكوفة في إمارته ؛ ليعرضهم علىٰ لعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والبراءة منه ، فملأ منهم المسجد والرحبة والقصر ، فكان على الناس يوماً عظيماً .

قال : وكنت في القوم ، فأغفيت إغفاءة ومعي أناس من أصحابي من الأنصار ، فرأيت في منامي شيئاً قد أقبل طويلَ العنق أهدبَ أهدلَ ، فأَقرَعَنِي ، وقلت له : ما أنت ؟ قال : أنا [النقاد] ذو الرقبة ، بُعثت إلىٰ صاحب هـٰذا القصر .

فاستيقظت فزعاً ، وأخبرت أصحابي بالذي رأيته ، فواللهِ ؛ ما كان ريث حلبِ ناقة وإنَّا لفي الحديث ؛ إذ خرج علينا حاجب زياد فقال : أيُّها الناس ؛ انصرفوا ؛ فإنَّ الأميرَ عنكم مشغولٌ ، وإذا هو قد ضربه الله في تلك الساعة بالفالج)[1] .

وروي أنَّ عبد الله بن مصعب الزُّبيري سعىٰ إلى الرشيد بيحيى بن عبد الله بن حسن ، فجمع الرشيد بينهما ، فقال له يحيىٰ : واللهِ يا أمير المؤمنين ؛ لقد قال فيَّ باطلاً وأنا أستحلفه ، قال عبد الله : أنا أَحلِفُ ، فقال له : قل : نقلت الحول والقوة دون حول الله وقوته إلىٰ حولي وقوتي إن لم أكن صادقاً فيما ادَّعيته عليك ، فلجلج لسانُه وامتنع من اليمين ، فغضب الرشيد وقال له : إن كنت صادقاً . . فاحلِفْ ، فحَلَفَ هـٰذه اليمينَ ، فقال يحيى : اللهُ أكبر ؛ لا يَحلِفُ بها أحدٌ كاذباً إلا عُوجِلَ ؛ فأُخِذَ من يومه ، وضربه اللهُ بالجذام ، وسوَّد وجهه وبدنه .

---

(١) أورده بنحوه في « المحاسن والمساوئ » (ص ٥٤ ـ ٥٥) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٢٠٣/١٩) ، والأهدل : مسترخي الشفة السفلىٰ ، وهـٰذا الخبر إلىٰ آخر الباب زيادة من (و) ، وفيها : (أنا المفاد ذو الرقبة) ، والمثبت من المصدرين ، وقال ابن دريد في « الجمهرة » (٦٧٧/٢) : (ونقدته الحية ؛ إذا لدغته ، عربي صحيح ، وفي بعض الأخبار : (أنا النقاد ذو الرقبة . . .) .

قال سليمان بن جعفر : ولقد دخلتُ عليه في اليوم الثالث من بَلِيَّتِهِ قبل وفاته ، فواللهِ ما عرفتُه ، وجدتُه كالزِّنجي وقد تقطَّعَ جُذاماً) .

ورُوي أنَّ مالك بن دينار دخل علىٰ بلال بن أبي بُردة ، فقال له بلال : (أُدْعُ اللهَ لي يا [أبا] يحيىٰ ، فقال : وما ينفعُك دعائي وبالباب مِئونَ يدعون اللهَ عليك ؟!)[(١)] .

ومثل ذٰلك : قول سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : (أُدْعُ لي ، فقال : أنا أدعو الله لك هٰهنا ومظلومٌ بالباب يدعو الله عليك ، فأيُّ الدَّعوتين أحقُّ بالإجابة ؟!)[(٢)] .

وكان سُدَيفٌ مولىٰ بني هاشم يقول في دعائه : (اللهمَّ ؛ قد صار فَيْئُنا دُولةً بعد القِسمة ، وإمارتُنا غلبةً بعد المشورة ، وعهدُنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة ، واشتُرِيَت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والأرملة ، وحَكَم في [أبشار][(٣)] المسلمين أهلُ الذِّمة ، وتولَّى القيامَ بأمورهم فاسقُ كلِّ محلَّة .

اللهمَّ ، وقد استحصدَ زرعُ الباطل ، وبلغ بُلَهْنِيَته ، واستجمع طريدُه . . فَأَتِحْ له من الخلق يداً حاصدةً ، تُبدِّدُ شملَه ، وتُفرِّقُ [نامَّته][(٤)] ؛ ليظهرَ الحقُّ في أحسن صُوره ، وأتمِّ نُوره)[(٥)] .

* * *

وقال شَوذب : (كان عمر بن عبد العزيز يَذكرُ الظَّلَمةَ ؛ الوليدَ بالشام ،

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١١١٥) ، وما بين المعقوفين زيادة من المصدر .

(٢) رواه في « تاريخ دمشق » (٣٨/٢٢) .

(٣) في (و) : (أشبار) ، والتصويب من المصدر .

(٤) في (و) كلمة غير مقروءة ، والتصويب من المصدر ، والنَّامَّة والنَّأْمَة : الحسُّ والحركة وحياة النفس .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » (١١٥/٢) ، والبُلَهْنِية : الرخاء وسعة العيش ، وفي المصدر : (نُهْيَتَه) .

والحجّاجَ بالعراق ، وقُرَّةَ بن شَرِيك بمصر ، وعثمانَ بن حَيَّان بالحجاز ، ومحمد بن يوسف باليمن ، امتلأت واللهِ الأرضُ جوراً)[١] .

فأمَّا ظلمُ الوليد : فقال عبد الرحمٰن بن محمد الأنصاري : (رأيتُ أبياتَ النبي صلى الله عليه وسلم وعليها المسوح السُّود ، فلمَّا قَدِمَ الوليدُ بن عبد الملك المدينةَ . . نظرَ إلىٰ أبيات النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما بالُ أبياتِ النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها الجُنبُ والحائضُ ؟! اهدِمُوها ، فهَدَمُوها)[٢] .

فقال خبيب بن عبد الله بن الزبير : (عَمَدَ إلىٰ آية من كتاب الله كُنَّا ننظرُ إليها فمحاها ، فبلغت كلمتُه الوليدَ ، فكتب إلىٰ خليفته : أَقِمْ خبيباً علىٰ باب المسجد ، فاضرِبْه مئةَ سَوْطٍ ، ثمَّ أَقِمْه على البئر التي بباب المسجد ينزع بالبكرة ، ويَصُبُّ في الحوض ، فأخرجه عمر ، وضربه مئةَ سَوْطٍ ، ثمَّ أقامه على البئر ينزع بالبكرة ، وكان في يوم شديد البرد ، فمات)[٣] .

وقال الشعبي : (دخلتُ علىٰ يزيد بن هبيرة ، فَوَ اللهِ ؛ لقد أردتُ كلمةً أُرضِي بها أميري ، ولا أُسخطُ بها خالقي ، فما قَدَرتُ عليها)[٤] .

ونظر رجلٌ إلىٰ أبي يوسف القاضي وعليه خِلْعَةُ الرشيد فقال : (جئتُك لآخذ عنك ديني ؛ فإذا أنت في زِيّ قارون) .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلىٰ داوود عليه السلام : (يا داوود ؛ إن لم تكن ظالماً . . فلا تصحبِ الظالمين ، فتهونَ في عيني) .

---

(١) أورده المبرد في « الكامل » (٦٣٦/٢) .

(٢) انظر « البداية والنهاية » (٢٣٦/٩ ـ ٢٣٧) .

(٣) انظر « تاريخ اليعقوبي » (٢٨/٣) .

(٤) روىٰ يحيى بن معين في « معرفة الرجال » رواية ابن محرز (٤٠٤) عن جَرْعَب التيمي قال : (إني لأتقلب الليل علىٰ فراشي أطلب كلمة أرضي بها السلطان ليست لله بسخط فما أجدها) ، وأورد مثله في « تنبيه الغافلين » (ص ٥٢٨) عن الضحاك بن مزاحم رحمه الله تعالىٰ ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٥٥) عن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالىٰ .

وقال ابن عباس : (يكون في آخر الزمان قومٌ يَنهَوْن عن إتيان الولاة ولا ينتهون ، يُباعدون الفقراء ويقرِّبون الأغنياء ، وينقبضون عند الحُقراء وينبسطون عند الكُبراء ؛ أولـئك الجَبَّارون أعداءُ الرحمـٰن)[١] .

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : (يومُ العدلِ على الظالم أشدُّ من يوم الجَوْرِ على المظلوم)[٢] .

ورُوي أنَّ عيسىٰ عليه السلام بينما هو في ساحته . . إذا بفارس قد نزلَ علىٰ شاطئ نهر ، فأكل وشرب ، ثم ركب وانصرف ، ونَسِيَ كيساً كان معه ، فأقبلَ صبيٌّ فأخذَ الكيسَ ومضىٰ .

ثمَّ أقبلَ شيخٌ فتوضَّأَ وصلىٰ ونامَ ، فذَكرَ الفارسُ الكيسَ ، فرجَعَ فأيقظَ الشيخَ ، فسأله عن الكيس ، فأنكرَ أنْ يكونَ قد وجدَ شيئاً ، فانتزعَ سيفَه فقتله .

فقال عيسىٰ : (يا أكرم الأكرمين ؛ الصبيُّ أخذَ الكيسَ وقتلَ الشيخ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليه أنَّ أبا الفارس ظلمَ الصبيَّ على الكيس ، والشيخ قتل أبا الفارس) .

وأنشد منصور الفقيه : [من السريع]

يَا ذَا ٱلَّذِي لَيْسَ لَهُ زَاجِرٌ عَنْ ظُلْمِ أَمْثَالِي وَلَا نَاهِ
إِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ إِذَا أُوعِدُوا تَوَعَّدُوا ٱلْمَوْعِدَ بِٱللهِ

* * *

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٧٦٨) مختصراً ، وأورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/١٢٩ ـ ١٣٠) دون نسبة ، وابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٢٢٧) من قول سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام .
(٢) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٩/٢٥٦) .

الباب السابع والخمسون

في تحريم السعاية والنميمة وقبحهما وما يؤول إليه أمرهما من الأفعال الرديئة والعواقب الذميمة

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ (١) .

فذكر اللهُ تعالىٰ في القرآن أصنافَ أهل الكفر والإلحاد والتثليث ، وأهل الزُّهُوِّ والفسوق والظلم وأشباههم ، ولم يَسُبَّ اللهُ سبحانه وتعالىٰ أحداً منهم إلا النَّمامَ في هٰذه الآية ، وحَسبُكَ بهٰذا خِسةً ورذيلةً ، وسقوطاً وضَعةً .

وهٰذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة في أصح الأقوال .

والهَمَّازُ : المغتابُ الذي يأكل لحوم الناس ، الطاعنُ فيهم .

وقال الحسن البصري : (هو الذي يَغمِزُ بأخيه في المجلس) (٢) .

وهو الهُمَزَةُ اللُّمَزَة .

والعُتُلُّ في اللغة : الغليظ الجافي ، وأصلُه : من العَتْلِ ؛ وهو الدفع بالعنف .

وقال ابن عباس : (العُتُلُّ : الفاتكُ الشديدُ المنافق) (٣) .

وقال عبيد بن عمير : (العُتُلُّ : الأَكُولُ الشَّروبُ القويُّ الشديدُ ، يُوضع في الميزان فلا يَزِنُ شُعَيرة) (٤) .

---

(١) سورة القلم : (١٠ ـ ١٣) .

(٢) أورده البغوي في « تفسيره » (٣٧٨/٤) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (٣١/١٤) بلفظ : (العاتل الشديد . . .) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (١٢/١٠) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٣١/١٤) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (١٢/١٠) .

وقال علي رضي الله عنه والحسن البصري : (العُتُلُّ : الفاحشُ السَّيِّئُ الخُلق)[١] .

وقال يمان : (هو الجافي القاسي ، اللئيمُ العشيرة)[٢] .

وقال مقاتل : (العُتُلُّ : الضخمُ)[٣] .

وقال الكلبي : (هو الشديدُ في كفره ، وكلُّ شديدٍ عند العرب عُتُلٌّ)[٤] .

وقيل : (العُتُلُّ : الشديدُ الخصومة بالباطل)[٥] .

والزَّنِيم : هو الدَّعِيُّ الذي لا يعرف من أبوه ، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه[٦] : [من الطويل]

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ ... كَمَا نِيطَ خَلْفَ ٱلرَّاكِبِ ٱلْقَدَحُ ٱلْفَرْدُ

وقال غيره[٧] : [من الوافر]

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مَنْ أَبُوهُ ... بَغِيُّ ٱلْأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمِ

وقال أكثرُ النَّقَلة : (هـٰذا رجل إنما ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة)[٨] .

وعن هـٰذا قال القدماء : (لا يكون نَمَّاماً إلا وفي نسبه شيءٌ) .

---

(١) أورده الثعلبي في « تفسيره » (١٢/١٠) ، والبغوي في « تفسيره » (٣٧٨/٤) منسوباً للحسن رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أورده الثعلبي في « تفسيره » (١٢/١٠) .

(٣) أورده الثعلبي في « تفسيره » (١٢/١٠) .

(٤) أورده الثعلبي في « تفسيره » (١٢/١٠) ، والبغوي في « تفسيره » (٣٧٨/٤) .

(٥) أورده البغوي في « تفسيره » (٣٧٨/٤) من قول الفراء .

(٦) البيت في « ديوانه » (٣٩٨/١) بلفظ : (وكنت دَعِيّاً نيط . . .) ، ونيط : عُلِّق ، والقَدَحُ الفرد : الذي يُعلقه الراكب في آخر رحله عند فراغه من ترحاله ويجعله خلفه ، والمراد : أنه مؤخَّر الذِّكر .

(٧) أورده الطبري في « تفسيره » (٣٣/١٤) ، والثعلبي في « تفسيره » (١٣/١٠) .

(٨) أورده الثعلبي في « تفسيره » (١٣/١٠) ، والبغوي في « تفسيره » (٣٧٨/٤) من قول مُرَّة الهمداني .

ولمَّا سعىٰ رجل إلىٰ بلال بن أبي بُردة برجلٍ ، وكان أميرَ البصرة . . قال له : (انصرف حتىٰ أكشف عنك) ، فكشف عنه ؛ فإذا هو لغير رَشْدَةٍ[١] ؛ يعني : ولدَ زِناً .

وقال أبو موسى الأشعري : « لا يبغي على الناس إلا ولدُ بَغِيٍّ »[٢] .

وقيل : (الزَّنيم : الذي له زَنَمةٌ في عنقه كَزَنَمَةِ الشاة)[٣] .

وقال ابن عباس : (لمَّا وصفه اللهُ تعالىٰ بتلك الخِلال المذمومة . . لم يُعرف حتىٰ قيل : زنيم ، فعُرِف ؛ لأنه كانت له زَنَمةٌ في عنقه يُعرف بها كما تُعرَفُ الشاةُ بِزَنَمَتِها)[٤] .

ومن ذٰلك : قول الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾[٥] نَزلَتْ في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ بني المُصطَلِق بعد الوقعة ، وكان بينه وبينهم عداوةٌ في الجاهلية ، فخرجوا يَتلقَّونه تعظيماً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ففزع ورَجَعَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : منعوني صدقاتهم ، وأرادوا قتلي ، فغضب النبيُّ صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم كشف أمرهم فوجد ما قاله كذباً ، فنزلت هٰذه الآية ، وسمَّاه اللهُ تعالىٰ فاسقاً[٦] .

ومن ذٰلك : قوله تعالىٰ : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[٧] فشَرَّكَ اللهُ

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٣٣٣/٢) ، و« عيون الأخبار » (٢٠/٢) .

(٢) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (١٠٢/٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٢٤٨) عن سيدنا أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (٣٣/١٤) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (١٣/١٠) ، والزَّنَمة : ما يُقطع من أذن البعير أو الشاة فيترك معلقاً .

(٤) رواه بنحوه الطبري في « تفسيره » (٣٤/١٤) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (١٣/١٠) .

(٥) سورة الحجرات : (٦) .

(٦) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥١/١٣) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (٧٧/٩) .

(٧) سورة المائدة : (٤٢) .

تعالىٰ بين السامعِ والقائلِ في القبح ، وساوىٰ بينهم في الذم ، فكان فيه تنبيه علىٰ أنَّ سامعَ النميمة نمَّامٌ في الحُكم .

* * *

وأما ما رُوي فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم .. فروىٰ مسلم في « صحيحه » عن هَمَّام قال : كنَّا مع حذيفة ، فقيل له : إنَّ رجلاً يَرفعُ الحديثَ إلىٰ عثمان ، فقال حذيفة : سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : « لَا يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ قَتَّاتٌ » ، وفي لفظ آخر : « نَمَّامٌ »(١) .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « مِنْ شِرَارِكُمْ : ٱلْمَشَّاؤُونَ بِٱلنَّمِيمَةِ ، ٱلْمُفْسِدُونَ بَيْنَ ٱلْأَحِبَّةِ ، ٱلْبَاغُونَ ٱلْعُيوبَ »(٢) .

وروىٰ أبو هريرة أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَلْعُونٌ ذُو ٱلْوَجْهَيْنِ ، مَلْعُونٌ ذُو ٱللِّسَانَيْنِ ، مَلْعُونٌ كُلُّ شَغَّارٍ ، مَلْعُونٌ كُلُّ قتَّاتٍ ، مَلْعُونٌ كُلُّ مَنَّانٍ »(٣) .

فالشَّغَّار : المُحرِّشُ بين الناس يُلقي بينهم العداوةَ والبغضاء .

والقَتَّات : النَّمَّام .

والمَنَّان : الذي يعملُ الخيرَ ويَمُنُّ به .

وروى ابن عباس قال : مَرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا : فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ ٱلْبَوْلِ ، وَأَمَّا ٱلآخَرُ : فَكَانَ يَمْشِي بِٱلنَّمِيمَةِ » ، ثم أخذَ جريدةً رطبةً ، فشقَّها نصفين ، فغرَزَ في كلِّ قبرٍ واحدةً ، فقالوا : يا رسول الله ؛ لِمَ فعلتَ هـٰذا ؟ قال : « لَعَلَّهُ

(١) صحيح مسلم (١٠٥/١٦٨ ـ ١٦٩) .
(٢) رواه بنحوه البزار في « مسنده » (٢٧١٩) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، والطبراني في « الكبير » (١٦٧/٢٤) عن السيدة أسماء بنت يزيد رضي الله عنهما .
(٣) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٢٨) .

يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا »[١] ؛ وذٰلك لبركة يده صلى الله عليه وسلم .

* * *

وأمَّا السِّعايةُ إلى السلطان وإلىٰ كل ذي قُدرةٍ ومُكْنةٍ : فهي المُهلكة والحالقة ؛ لأنها تجمع إلى الخِصالِ المذمومةِ الغِيبةَ ولؤمَ النميمةِ ، والتغريرَ بالنفوس والأموال ، والقَدحَ في المنازل والأحوال ، وتسلبُ العزيزَ عِزَّه ، وتَحُطُّ المَكِينَ عن مكانه والسيدَ عن مرتبته .

فكم من دمٍ أراقَه سعيُ ساعٍ ، وكم حريمٍ استُبِيحَ بنميمةِ باغٍ ، وكم من صَفِيَّينِ تقاطعا ، ومن مُحِبَّين تباغضا ، ومن متواصلين تباعدا ، ومن إلفينِ تهاجرا ، ومن زوجين افترقا ، فليتَّقِ اللهَ ربَّه رجلٌ سَاعَدَتْه الأيامُ ، وتراخت عنه الأقدارُ . . أن يُصغيَ لساعٍ ، أو يسمع لنَمَّام .

وروى ابن قتيبة أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « اَلْجَنَّةُ لَا يَدْخُلُهَا دَيُّوثٌ وَلَا قَلَّاعٌ »[٢] .

فالدَّيُّوثُ : الذي يجمع بين الرجال والنساء ، سُمِّي بذٰلك ؛ لأنه يدُثُّ بينهم .

والقَلَّاعُ : الساعي الذي يقع في الناس عند الأمراء ؛ لأنه يقصد الرجلَ المتمكِّنَ عند السلطان ، فلا يزالُ يقعُ فيه حتىٰ يقلعَه .

* * *

وقال كعبٌ : أصابَ الناسَ قحطٌ شديدٌ علىٰ عهد موسىٰ عليه السلام ، فخرج موسىٰ عليه السلام يستسقي ببني إسرائيل فلم يسقوا ، ثم خرج الثانية فلم يسقوا ، ثم خرج الثالثة فأوحى الله تعالىٰ إليه : (إني لا أستجيب لك ولا لمن معك ؛ فإنَّ فيكم نَمَّاماً) ، فقال موسىٰ : يا ربِّ ؛ من هو حتىٰ نخرجه

---

(١) رواه البخاري (٢١٨) ، ومسلم بنحوه (٢٩٢) .
(٢) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٢٩) .

من بيننا ؟ فأوحى الله تعالىٰ إليه : (يا موسىٰ ؛ أنهاكم عن النميمة وأكون نمَّاماً ؟!) ، فتابوا بأجمعهم ، فأرسل الله تعالىٰ عليهم الغيث [١] .

ولمَّا لَقِيَ أُسقُفُّ نجرانَ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه . . قال : (يا أمير المؤمنين ؛ احذر قاتلَ الثلاثة ، قال عمر : وما قاتلُ الثلاثة ؟ قال : الرجلُ يأتي الإمامَ بالحديثِ الكذبِ فيقبله الإمام ، فيكونُ قد قَتلَ نفسَه وصاحبَه وإمامَه ، فقال عمر : ما أراك أبعدتَ) [٢] .

ووجدنا في حِكَمِ القدماء : (أبغضُ الناس إلى الله تعالى : المُثَلِّثُ) ، قال الأصمعي : (هو الرجل يسعىٰ بالنميمة بأخيه إلى الإمام ، فيُهلِكُ نفسَه وأخاه وإمامَه) [٣] .

وذُكِرَ السُّعاةُ عند المأمون فقال : (لو لم يكن من عيبهم إلا أنهم أصدقُ ما يكونون أبغضُ ما يكونون عند الله تعالىٰ . . [لكفاهم]) [٤] .

وقال حكيم الفرس : (الصدقُ زَينٌ علىٰ كُلِّ أحد إلا السُّعاة ؛ فإنَّ الساعيَ أَذَمُّ وآثَمُ ما يكونُ إذا صَدَق) [٥] .

ورُوِي أنَّ رجلاً سعىٰ بجارٍ له عند الوليد بن عبد الملك ، فقال له الوليد : (أَمَّا أنت . . فتخبرنا أنك جارُ سَوْءٍ ، إن شئتَ . . أرسلنا معك ؛ فإن كنتَ

---

(١) أورده في « الإحياء » (٢/٣٨٨) .

(٢) رواه بنحوه البيهقي في « الكبرىٰ » (٨/١٦٧) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (١١/٣١٧) .

(٣) روىٰ شَمِرٌ عن كعب أنه قال لعمر : أنبئني ما المثلث ؟ فقال عمر : وما المثلث لا أبا لك ؛ فقال : هو الرجل يمحَل بأخيه إلىٰ إمامه فيبدأ بنفسه فيُعنتها ثم بأخيه ثم بإمامه ، فذٰلك المثلث ، وهو شر الناس .
انظر « تهذيب اللغة » (١٥/٦٠) ، و« مصنف عبد الرزاق » (٢٠٦٤٥) ، و« سنن البيهقي الكبرىٰ » (٨/١٦٧) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٢/٢٠) ، و« العقد الفريد » (٢/٣٣٣) ، وفيهما : (عند المأمون ، فقال رجل ممن حضر) ، وما بين المعقوفين زيادة من المصدرين .

(٥) رواه بنحوه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧١٩/م) ، وأورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٣٠) .

صادقاً . . أبغضناك ، وإن كنتَ كاذباً . . عاقبناك ، وإن شئتَ . . تاركناك ، قال : تارِكْني يا أمير المؤمنين ، قال : قد تاركناك)[1] .

ولله دَرُّ الإسكندر حين وشىٰ إليه واشٍ برجلٍ ، فقال له الإسكندر : (إن شئتَ . . قَبِلناك علىٰ صاحبك بشرط أن نقبله عليك ، وإن شئتَ . . أقلناك ، قال : أَقِلْني ، قال : قد أقلناك ، كُفَّ عن الشَّرِ . . يَكُفَّ عنك الشَّرُّ !)[2] .

* * *

ومن العجب الذي لا عجبَ بعده : أنَّ الرجلَ يشهد عندك في باقةِ بقلٍ فلا تقبله منه حتىٰ تسأل الناس عنه : هل هو من أهل الثقة والعدالة والأمانة والصيانة ، أم لا ؟ ثم يَنِمُّ إليك بحديثٍ فيه الهلاكُ وفسادُ الأحوال فتقبلُه !

وقال يحيى بن زيد[3] : قلت للحسن بن علي رضي الله عنهما لمَّا سُقِيَ السُّمَّ : (أخبِرْني من سقاك ؟ فدَمَعَتْ عيناه وقال : أنا في آخِرِ قدمٍ من الدنيا وأوَّلِ قدمٍ من الآخرة تأمرني أن أَغمِز !)[4] .

وقال رجل للمهدي : (عندي نصيحة يا أمير المؤمنين ، قال : لمن نصيحتُك هٰذه ؟ ألنا خاصة ، أم لعامة المسلمين ، أم لنفسك ؟ قال : لك يا أمير المؤمنين ، قال المهدي : ليس السَّاعي بأعظمَ عورةً ولا أقبح حالاً ممَّن قَبِلَ سِعايته ، ولا تخلو من أن تكون حاسدَ نعمةٍ فلا نشفي لك غيظاً ، أو عدوّاً فلا نعاقب لك عدوك ، ثمَّ أقبلَ على الناس وقال : أيها الناس ؛ لا ينصح لنا ناصحٌ إلا بما فيه لله رضاً وللمسلمين صلاحٌ)[5] .

---

(١) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (٢/٢١) ، و« العقد الفريد » (٢/٣٣٢) .

(٢) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (٢/٢٤) ، و« العقد الفريد » (٢/٣٣٣) .

(٣) في (أ) : (الحسن بن زيد) ، و(د) : (يحيى بن يزيد) .

(٤) انظر « تاريخ دمشق » (١٣/٢٨٣) ، وهو بين الحسن والحسين رضي الله عنهما .

(٥) أورده في « زهر الآداب » (١/٣٠٣) ، وزاد بعده : (فإنما لنا الأبدانُ وليس لنا القلوبُ ، ومن استتر عنا . . لم نكشفْه ، ومن بادانا . . طلبنا توبته ، ومن أخطأ . . أقلنا عثرته ؛ فإني أرى التأديبَ بالصفح ←

ورُوِيَ أنَّ ساعياً سعىٰ برجل إلى الفضل بن سهل ، فوقَّع علىٰ ظهر كتابه : (نحن نرىٰ قَبولَ السِّعاية أشرَّ من السِّعاية ؛ لأنَّ السِّعاية دَلالة ، والقَبولَ إجازةٌ ، وليس من دَلَّ علىٰ شيءٍ كمن قَبِلَ وأجاز ؛ لأن مَنْ فعلَ أشرُّ ممَّن قالَ)[1] .

ويروىٰ أن رجلاً رفع إلى المنصور نصيحةً ، فوقَّعَ علىٰ ظهرها : (هـٰذه نصيحةٌ لم يُرَدْ بها وجه الله تعالىٰ ، ولا جوابَ عندنا لمن آثَرَنا على الله تعالىٰ)[2] .

وروي أن رجلاً قال للمأمون : (يا أمير المؤمنين ؛ اللهَ اللهَ في أصحاب الأخبار ، فإنهم قومٌ إن أُعطُوا . . كَذَبوا ، وإن حُرِمُوا . . كَذَبوا ؛ فإن أُعْطوا . . مَدَحوا وهم كاذبون ، وإن حُرِمُوا . . ذَمُّوا وهم كاذبون ، فقال المأمون : للهِ دَرُّها من كلمة ما أصدقَها وأبينَ فضلَها !) ، وأمرَ أن تُثبتَ في أمور[3] أصحاب الأخبار .

وقال مروانُ بنُ زِنباع العَبسيُّ : (يا بني عَبس ؛ احفظوا عني ثلاثاً : من نَقَلَ إليكم . . نَقَلَ عنكم ، وإياكم والتزويجَ في بيوتات السَّوء ، واستكثروا من الصديق ما استطعتم ، واستقِلُّوا من العدو ما استطعتم ؛ فإنَّ استكثاره ممكن)[4] .

وقال بعض الحكماء : (احذروا أعداءَ العقول ولصوصَ المَودَّات ، وهم السُّعاةُ والنمَّامون ؛ إذا سَرقَ اللصوصُ المتاعَ . . سرقُوا هم المودَّاتِ)[5] .

← أبلغَ منه بالعقوبة ، والسلامةَ مع العفو أكثرَ منها في المعاجلة ، والقلوب لا تبقىٰ لوالٍ لا ينعطفُ إذا استُعطِفَ ، ولا يعفو إذا قدَر ، ولا يغفر إذا ظفِر ، ولا يرحم إذا استرحم) .

(١) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (٢٣/٢) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٣٠) ، ورواه بنحوه في « حلية الأولياء » (١٢٢/٩ ـ ١٢٣) من قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) انظر « تاريخ الطبري » (٩٠/٨) ، و« البداية والنهاية » (٣٦٩/١٠) .

(٣) في (و) : (ديوان) .

(٤) رواه القالي في « الأمالي » (١٨٧/٢) ، وزاد بعد قوله : (في بيوتات السوء) : (فإن له يوماً ناجثاً) .

(٥) أورده في « المستطرف » (٢٧٨/١) .

وقال حكيم العرب : (إياك والسُّعاةَ ؛ فإنهم أعداءُ عقلِك ولصوصُ عدلِك ، يفرِّقون بين قولك وفعلك) .

وفي المثل السائر : (من أطاعَ الواشيَ . . ضيَّعَ الصديقَ)[1] .

وقد تُقطع الشجرةُ بالفؤوس فتنبت ، ويُقطع اللحمُ بالسيف فيندمِلُ ، واللسانُ لا يندملُ جُرحُه .

***

وأحقُّ الناس برعاية ما رسمتُه من هـٰذه الخِلال ، ونقلتُه من هـٰذه الحِكَم ، واستودعتُه من هـٰذه السِّير[2] : من آتاه اللهُ سلطاناً ، ومكَّنَ له في الأرض قَدَماً ؛ فذو القدرة إذا أطاع الواشي . . هلكَ العالَم .

وكان بعض الحكماء يقول : (من أراد أن يَسلَمَ من الإثم ويبقىٰ له الإخوان . . فليجعل نفسه بينهم وبينه قاضياً عدلاً يحكم بالحق ، ولا يقبل أحداً في أحد ولا في نفسه إلا بشهود وتعديل ؛ فإنا قد أحببنا بقول أقوام ، وأبغضنا بقول آخرين ، فأصبحنا لِما فعلنا نادمين) .

ومن لطيف حكمة الله تعالىٰ في النَّميمة : لمَّا عَلِمَ اللهُ من شؤمها واستطارةِ شرورها وعمومِ مَضرَّتها في الورىٰ . . حَكَمَ بفسق النمَّام حتىٰ لا يُقبلَ له قولٌ فيستريح الخلق من شرِّه .

وقال ابن عمر : (وفدُ الله : الحاج ، ووفدُ الشيطان : قومٌ يرسلُهم السلطانُ إلى الناس ، ويسألهم عن حالهم ، فيخبرونه أنَّ الناس راضون ، وليسوا براضين)[3] .

***

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٩/٧٠) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/٣٧٥) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) في (أ ، ب) : (السنن) .

(٣) رواه بنحوه الفزاري في « سيره » (٨٩) .

واعلموا : أن الله تعالىٰ خَلقَ الإنسانَ علىٰ أنحاءٍ شتَّىٰ لسنا نذكرها الآن ؛ لكثرتها وطول تتبعها .

فخلقَ اللهُ تعالى الحواسَّ الشريفةَ ، والأعضاء النافعة الرئيسة ؛ فمِن أفضلِ ما رَكَّبَ فيه : اللسانُ الذي هو آلةُ النُّطق والبيان ، وبه فَصَلَ بينه وبين البهائم ، وفضَّلَه علىٰ سائر الحيوان ، وامتنَّ به عليه في أول (سورة الرحمـٰن) فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[1] ، وخَلقَ فيه أيضاً أعضاءً تُذلُّ وتُستهان ، وجَعلها مجرىً لفضولِ الطعامِ والشراب ، فمَن يَتَّبعْ سقطاتِ الكلام ، ويروي عثراتِ الأنامِ ، التي هي كالعوراتِ الواجبِ سَترُها ودفنُها . . كان قد استعملَ أشرفَ الآلات في أخسِّ المُستعمَلات ، فصار كمن لَحِسَ بلسانه سَوءةَ أخيه ، وجعل أكرمَ جوارحِه لأخسِّ أدناس المُستعرِضين ، ورَضي أن يقع من الناس موقعَ الذُّباب من الطير ، يتتبع نَغَلَ الجسد ويتحامىٰ صحيحه[2] ، وقد كان له في نشر المحاسن شغل ، ولـٰكن أهل كل ذي حال أولىٰ بها .

وفي هـٰذا سبق المثل : (إن لم تكن مِلحاً تُصلِح . . فلا تكن ذباباً تفسد ، ومن لم يقدر علىٰ جمع الفضائل . . فلتكن هِمَّتُه تركَ الرَّذائل ، وإذا تتبَّعَ الإمامُ عوراتِ النَّاس . . أفسدهم) .

ورُوي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم هَمَّ بالخروج يوماً ، فسمع قوماً من أصحابه يضحكون ، فامتنعَ من الخروج إليهم ؛ حذراً ألا يَفسدَ قلبُه عليهم .

ولو عَلِمَ الذي يَسمعُ أخبارَ الناس ماذا جنىٰ علىٰ نفسه . . لَعَلِمَ أنَّ الصَّممَ كان أهنأَ لعيشه وأنعمَ لباله من سماع الأخبار .

فإذا علم نقلة الأخبار نَفاقَها عنده . . حملوا إليه الصدق أو الكذب ؛

---

(١) سورة الرحمـٰن : (١ ـ ٤) .

(٢) نَغَلُ الجسد : فاسدُه .

فتكون في سماع الكذب ممن قال الله تعالىٰ فيه : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[1] ، وتكون في سماع الصدق حمالاً للهم ، حرج الصدر على الخلق ، معادياً لهم ، متتبعاً لعثرات الخلق وخزاناً لسقطاتهم ، وقد وعيت منهم ما يجب ستره وحفظت ما يجب نسيانه ، ثم لا تستطيع النصفة من قائل ؛ لأنك إن كنت ذا قدرة . . أهلكت الرعية ، ثمَّ لا تستطيع أن تهلك جميع الرعية ، وإن كنت سوقة . . لم يشف غيظك ، ثم أفسدت إخوانك وأبغضت من يجب أن تحبه وأحببت من يجب أن تبغضه ، ثم لا تزال تتحمل الحَسَائف وتزيد الأحقاد والضغائن وترصد لكل قائل ما يشفي غيظك[2] فيه ، فما أغنى العاقل عن هٰذه البَلِيَّة !

ولله دَرُّ عمرِو بن العاص رضي الله عنه ! روي أنه لاحاه رجل يوماً فقال له الرجل : (أَمَا واللهِ ؛ إن عشت . . لأتفرَّغَنَّ لك ، فقال له عمرو بن العاص : الآن وقعتَ في الشغل يا بنَ أخي)[3] .

* * *

(١) سورة المائدة : (٤٢) .
(٢) الحسائف : جمع حَسِيفة ؛ وهي الغيظ والحقد والعداوة .
(٣) تقدَّم (ص ٣٢٠) .

الباب الثامن والخمسون
في القصاص وحكمته

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [(١)] يعني : أنه إذا عَلِمَ القاتلُ والقاطعُ والفاتكُ أنه يُقتَصُّ منه . . أَحجمَ ولم يُقدم على الفعل ، فيكون في ذٰلك حياتُه وحياةُ الذي همَّ به .

وروى ابنُ مسعود أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « أَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ ٱلنَّاسِ : فِي ٱلدِّمَاءِ » [(٢)] .

وروىٰ أبو هريرة أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ . . فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ . . أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ » ، وهٰذا حديث صحيح رواه البخاري [(٣)] .

❁ ❁ ❁

فإن قيل : يعارضه قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [(٤)] ، فكيف يُؤخذ الظالمُ بذنبٍ رَكِبَه المظلومُ ؟!

قلنا : معنى الآية : أنه لا يُعاقَبُ أحدٌ بذنب أحدٍ ابتداءً ، وأما في مسألتنا . . فمظلَمةٌ بقيت عنده وليس له وفاء بها ، فهو الذي اكتسب هٰذا الوِزْرَ ، وهو

---

(١) سورة البقرة : (١٧٩) .

(٢) رواه البخاري (٦٨٦٤) ، ومسلم (١٦٧٨) .

(٣) صحيح البخاري (٦٥٣٤) ، وقد تقدم بنحوه (ص ٥١٣) .

(٤) سورة الأنعام : (١٦٤) .

المعنيُّ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (١) .

ورویٰ أبو سعيد الخدري أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « يَخْلُصُ ٱلْمُؤْمِنُونَ مِنَ ٱلنَّارِ ، فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ ٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا . . أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ ٱلْجَنَّةِ ، فَوَٱلَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ؛ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَىٰ بِمَنْزِلِهِ فِي ٱلْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ فِي ٱلدُّنْيَا » (٢) .

ورُوي أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل موته : « مَنْ كَانَتْ لَهُ عِنْدِي مَظْلَمَةٌ . . فَلْيَأْتِ حَتَّىٰ أُقِصَّهُ مِنْ نَفْسِي » ، فقام سوادُ بنُ غَزِيَّةَ فقال : يا رسول الله ؛ إنك ضربتني علىٰ بطني ليلة العقبة فأوجعتني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « دُونَكَ فَٱقْتَصَّ » ، فقال : يا رسول الله ؛ إنك ضربتني وأنا مكشوفُ البطن ، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن بطنه ؛ فإذا هو كالقَبَاطِيِّ - يعني : ثياب مصر - فأكبَّ عليه يُقبّله ، فقال : « يَا سَوَادُ ؛ مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَـٰذَا ؟ » ، فقال : يا رسول الله ؛ دنا لقاء هـٰؤلاء - يعني : المشركين - فأردت أن يكون آخرُ العهد بك أن أُقبّلَ بطنَك (٣) .

فهـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقِصُّ من نفسه مع أن الله تعالىٰ قد غفرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخر ؛ لعلمه أنَّ الله تعالىٰ لا يدع القِصاص في المظالم بين العباد ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ أعدلُ من أن يدعَ مَظْلِمةً لأحد عند نبي ولا غيرِه .

---

(١) سورة العنكبوت : (١٣) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٥) .

(٣) رواه بنحوه الواقدي في « المغازي » (١/٥٦ ـ ٥٧) ، وابن هشام في « السيرة » (٢/٦٢٦) ، وفيهما أن ضربَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سواداً كان يوم بدر ، والقَباطي : جمع قُبطيَّة ؛ وهي الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء ، وكأنه منسوب إلى القِبْط ، وهم أهل مصر ، وضمُّ القاف من تغيير النسب ، وهـٰذا في الثياب ، فأما في الناس . . فقِبْطِيٌّ ، بالكسر .

وفي الحديث : « يَقُولُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ : أَنَا ظَالِمٌ إِنْ فَاتَنِي ظُلْمُ ظَالِمٍ »[١] .

ويروىٰ أنَّ داوود عليه السلام يَقدُمُه خصمُه إلى الله تعالىٰ يوم القيامة ، فيقضي له عليه ، فيدفعه إلىٰ أُوريا سِلْماً ، ثم يستوهبه الله تعالىٰ من أُوريا ، ثم يُعوِّض أُوريا عن ذٰلك الجنة[٢] .

وقال حبيب : (دخل عثمان بن عفان رضي الله عنه فوجد غلامه يَعلِفُ ناقةً له ، وإذا في علفها شيءٌ ، فأخذ بأُذنه فعرَكَها ، ثم نَدِم فقال لغلامه : قم فاقتصَّ مِنّي ، فأبى الغلام ، فلم يزل به حتىٰ قام فأخذَ بأُذنه ، ثم قال : أُعرُكْ أُعرُكْ ، وهو يقول : شُدَّ شُدَّ ، حتىٰ عَرَفَ عثمانُ أنه قد بلغ منه ، ثم قال : واهاً لِقصاصِ الدنيا قبل قِصاص الآخرة)[٣] .

ورویٰ عونُ بنُ عبد الله أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم دعا خادماً له فلم يُجبه ؛ إما كان نائماً ، أو ما كان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْلَا ٱلْقِصَاصُ . . لأَوْجَعْتُكَ »[٤] .

وروى ابن وهب في « موطئه » عن ابن شهاب قال : (وَقَدْ أَقادَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم والخليفتان من أنفسهم ؛ لِيُستَنَّ بهم ، ولم يتعمَّدُوا حَيفاً ، وكانوا سلاطين)[٥] .

---

(١) أورده في « صبح الأعشىٰ » (٣١٥/٧) .

(٢) انظر « نوادر الأصول » (٤٩٩/٣) ، وقال القاضي عياض في « الشفا » (ص ٦٩٤) : (وأما قصة داوود عليه السلام . . فلا يجب أن يلتفت إلىٰ ما سطره فيها الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بعض المفسرين ، ولم ينص الله علىٰ شيء من ذٰلك ، ولا ورد في حديث صحيح . . . وقال الداوودي : ليس في قصة داوود وأوريا خبر يثبت ، ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم) .

(٣) أورده بنحوه في « ربيع الأبرار » (٥٤٨/٣) ، و« التذكرة الحمدونية » (٢١١/٣ ـ ٢١٢) .

(٤) رواه بنحوه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٩٢٨) ، والطبراني في « الكبير » (٣٧٦/٢٣) عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها .

(٥) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥٠/٨) من طريق ابن وهب ، ولفظه : (. . . أبا بكر الصديق ←

وفي « صحيح مسلم » رحمه الله : روىٰ أبو هريرة أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « أَتَدْرُونَ مَنِ ٱلْمُفْلِسُ ؟ » قالوا : المُفلسُ فينا : من لا درهمَ له ولا متاعَ ، فقال : « إِنَّ ٱلْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي : يَأْتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا ، وَقَذَفَ هَـٰذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا ، وَضَرَبَ هَـٰذَا ، فَيُعْطَىٰ هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ؛ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ . . أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي ٱلنَّارِ »[1] .

قال مالك : بلغني أنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه لمَّا وَلِيَ الخلافة . . ضربَ رجلاً ثم ندم وقال : (ما لي ولهـٰذا ؟! ألا رددتُها عليهم ؟! فسمعَتْه عائشةُ ، فأرسلت إلىٰ عمر ، فجاءه عمر فقال له : إني قد ضربت رجلاً وقد كنت مُعافىً من هـٰذا أن أضربَ ، فقال عمر : كذٰلك الإمام ، قال : فما المخرجُ ؟ قال : أنْ تأتيَ الرجلَ فتسألَه أنْ يجعلَك في حِلٍّ ، فأتَيَاهُ فاستحلَّاه)[2] .

دَلَّت الآثارُ : علىٰ أنَّ الأميرَ والمأمورَ في القِصاص سواءٌ إذا جنىٰ أحدُهما على الآخر ، وأنَّ الأميرَ إذا ظلمَ المأمورَ . . زالَ تأمُّرُه عليه في ذٰلك المعنىٰ ، وكان الأميرُ في ذٰلك المعنىٰ كبعض المُؤمَّرِ عليهم حتىٰ يتحاكموا إلى السلطان الأعظم .

وكان عمر رضي الله عنه يقول : (إنَّما بعثت أمرائي لِيُعلِّموا الناسَ دينَهم ، ويَقسِموا بينهم فيئَهم ، ويَعدِلُوا فيهم ، ولم أبعثهم لِيضرِبُوا أبشارَهم ، ويَحلِقُوا أشعارَهم ، فمن ظلَمه أميرٌ . . فلا إمرةَ له عليه دوني حتىٰ آخذ له بحقه ، فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين ؛ إنْ أدَّبَ رجلٌ رجلاً من رعيته . . إنَّك

← وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم أعطوا القود من أنفسهم فلم يستقد منهم وهم سلاطين) ، وانظر « موطأ ابن وهب » (٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١) ، و« سنن البيهقي الكبرىٰ » (٨/٤٨ ـ ٥٠) .

(١) صحيح مسلم (٢٥٨١) .

(٢) أورده ابن رشد في « البيان والتحصيل » (١٧/١٢٦ ـ ١٢٧) .

لَتُقِصُّه منه ؟! فقال عمر : كيف لا أُقِصُّه منه وقد رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يُقِصُّ من نفسه ؟!)[١] .

❁ ❁ ❁

فأمَّا القِصاص بين البهائم .. فاختلفَ الناسُ في حَشرها وفي جريان القِصاص بينها :

فكان ابن عباس يقول : (حشرُها : موتُها ، وحشرُ كلِّ شيء : الموتُ ، إلا الجِنَّ والإنسَ ؛ فإنَّهما يُوافِيان يومَ القيامة)[٢] .

وقال معظم المفسرين : (إنها تُحشر ويُقتصُّ منها)[٣] .

قال ابن حبيب : (تُحشرُ البهائمُ) .

وقال قتادة : (يُحشرُ كلُّ شيءٍ حتى الذُّبابُ)[٤] .

وكان أبو الحسن الأشعري لا يقطع بإعادة البهائم والمجانين ومَن لم تَبلغه الدعوة ، ويُجيزُ أن يعادوا ويدخلوا الجنة ، ويُجيزُ ألا يعادوا[٥] .

والدليلُ على ثبوت الإعادة في الجملة : قولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[٦] ، وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم . . . ﴾ ، ثمَّ قال : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[٧] .

وروى مسلم في « الصحيح » عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه بنحوه الطبري في « تاريخه » (٢٠٤/٤) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٨٥/١٥) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (١٣٧/١٠) ، وفيهما : (يوقفان يوم القيامة) .

(٣) انظر « تفسير القرطبي » (٤٢١/٦) ، و« تفسير الرازي » (٢١٨/١٢) ، و« التذكرة بأحوال الموتى » (٦٥١/٢ ـ ٦٥٢) .

(٤) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٩١٥٩) من قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) انظر « مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري » (ص ٢٥٢) .

(٦) سورة التكوير : (٥) .

(٧) سورة الأنعام : (٣٨) .

قال : « لَتُؤَدُّنَّ ٱلْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ ٱلْجَلْحَاءِ مِنَ ٱلشَّاةِ ٱلْقَرْنَاءِ »(١) .

وقال أبو ذر : انتطحَتْ شاتان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أَتَدْرِي فِيمَ ٱنْتَطَحَتَا ؟ » قلت : لا أدري ، قال : « لَـٰكِنَّ ٱللهَ يَدْرِي ، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا »(٢) .

قال أبو ذر : (لقد تَرَكَنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم وما يُقلِّبُ طائرٌ جناحَيه في السماء إلا ذَكَّرَنا منه علماً)(٣) .

وقال أبو ذر : (إنَّ الحَجَرَ لَيُسأَلُ عن نَكبِه إصبَعَ الرَّجُل)(٤) .

وفي الحديث الصحيح في « مسلم » و« البخاري » وغيرهما أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا يَأْتِينِي أَحَدُكُمْ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغاءٌ ، وَعَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ ، وَعَلَىٰ رَقَبَتِهِ شَاةٌ تَيْعَرُ ، ثُمَّ يُبْسَطُ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ ، فَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا ، وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا ، كُلَّمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا .. عَادَتْ أُخْرَاهَا »(٥) ، والحديثُ واردٌ في مانع الزكاة .

وقال أبو الحسن : (لا تجوزُ المُقاصَّة بين البهائم ؛ لأنَّها غير مُكلَّفة ، ولا يجري عليها القلم) ، قال : (وما ورد في ذٰلك من الأخبار ؛ نحو قوله صلى الله عليه وسلم : « يُقْتَصُّ لِلجَمَّاءِ مِنَ ٱلْقَرْنَاءِ » ، و« يُسْأَلُ ٱلْعُودُ : لِمَ خَدَشَ ٱلْعُودَ ؟ »(٦) .. فعلىٰ سبيل المَثل والإخبار عن شدَّةِ التقصِّي في

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٢) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٣٨/٥) .

(٣) رواه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (٤٧٩) ، والإمام أحمد (١٦٢/٥) .

(٤) رواه أسد بن موسىٰ في « الزهد » (١٠٣) .

(٥) بنحوه إلىٰ قوله : « تيعر » : في « صحيح البخاري » (٧١٧٤) ، و« صحيح مسلم » (٢٦/١٨٣٢) عن سيدنا أبي حميد الساعدي رضي الله عنه ، والشطر الثاني بنحوه : في « صحيح مسلم » عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقاع قرقر : مكان مستو أملس .

(٦) أورده ابن الجوزي في « التذكرة في الوعظ » (ص ٥٤) ، والقرطبي في « التذكرة » (٦٥٣/٢) .

الحساب ، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يُقتَصَّ للمظلوم من الظالم)[١] .

وأبىٰ ذٰلك الأستاذُ أبو إسحاق الإسفراييني ، قال في « الجامع الجلي » : (يجري القِصاصُ بينها) ، قال : (ويحتمل أنها كانت تَعقِلُ هٰذا القَدْرَ في دار الدنيا ؛ فلهٰذا أُجرِيَ فيها القِصاص) .

قلت : وكلامُ الأستاذ له وجهٌ في الصِّحَّة ؛ لأنَّ البهيمةَ تَعرِفُ النَّفع والضُّر ، فتنفِر من العصا وتُقبِلُ إلى العَلَف ، وينزجرُ الكلبُ إذا زُجِرَ ويَستأسِدُ إذا أُشلي[٢] ، والطيرُ والوحشُ يَفِرُّ من الجوارح استدفاعاً لشرِّها ، ثمَّ إن لم يَجْرِ عليها القتلُ في الدنيا . . فإنَّما رُفِعَ القتلُ عنها في الأحكام .

* * *

فإن قيل : القِصاصُ انتقامٌ ، وهو جزاءٌ علىٰ جنايةٍ وقعت من مخالفة الأمر ، والبهائمُ ليست بمكلَّفة ، ولا لها عقول ، ولا جاءها رسول ، والعقولُ عندكم لا يجبُ بها شيءٌ على العقلاء فضلاً عن البهائم ، وفي هٰذا انفصال عن قول الأستاذ : (إنها كانت تَعقِلُ هٰذا القدرَ) إذ لا يجب بالعقل شيءٌ ، ويَشهد له قولُه تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[٣] .

فالجواب : أنها ليست مُكلَّفة ؛ لأنَّ من ضرورة التكليف أن يُعلمَ الرسولُ والمُرسِلُ ، وذٰلك من خصائص العقلاء ، وهم الثَّقَلان ، وإذا لم تكن مُكلَّفة . . كانت في المشيئة ، يفعلُ اللهُ بها ما أراد ، كما سَلَّط عليها في الدنيا الاستِسْخارَ والذَّبْحَ ، فلا اعتراضَ عليه ، ولِلهِ تعالىٰ أن يفعلَ في مُلكه ما أراد من تنعيم وتعذيب ، وإذا جاز أن يُؤلم البهيمة ابتداءً . . جاز أن يُؤلمها بعد حياتها .

---

(١) انظر « التذكرة » (٢/٦٥٢ ـ ٦٥٣) .

(٢) أُشلِيَ : أُغرِيَ على الصيد .

(٣) سورة الإسراء : (١٥) .

والآيةُ محمولةٌ علىٰ من يَعلمُ الرسولَ والمرسلَ ، ثمَّ إن لم يجرِ عليهم القلمُ في الدنيا . . فإنما رُفِعَ القلمُ عنهم في الأحكام ، ولٰكن فيما بينهم يؤاخذون به .

وقد روى البخاري أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال : « اُقْتُلُوا ٱلْوَزَغَ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفُخُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ »[1] .

فهٰذه عجماءُ عُوقِبَت علىٰ سوءِ صنيعِ جنسِها .

وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ لله تعالىٰ أن يُعذِّبَ بملكه لا بالمعصية .

وقد ضربَ موسىٰ عليه السلام الحجرَ الذي فرَّ بثوبه ، وبنو إسرائيل ينظرون عورتَه .

رواه البخاري عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ ، وَٱلْحَجَرُ يَفِرُّ ، وَمُوسَىٰ يَقُولُ : ثَوْبِي يَا حَجَرُ ، ثَوْبِي يَا حَجَرُ » ، قال أبو هريرة : فوالذي نفسي بيده ؛ إنه لَنَدَبٌ بالحجرِ ستةٌ أو سبعةٌ[2] .

وروي في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[3] : أنَّها الحجارة التي عُبِدَتْ في الدنيا[4] .

ورُوي أنَّ المسيح عليه السلام مَرَّ بجبلٍ ، فسَمِعَ أَنِينَه ، فسأَلَه عن ذٰلك ، فقال : (سمعتُ اللهَ تعالىٰ يقول : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[5] فلا أدري أَكونُ من تلك الحجارة أم لا)[6] .

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (١١١٣) ، والإمام أحمد (٢٠٠/٦) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، والوَزَغُ : جمع وَزَغَة ؛ وهي التي يقال لها : سامُّ أبرصَ .

(٢) صحيح البخاري (٢٧٨) ، والنَّدَبُ : أثر الجرح والضرب .

(٣) سورة البقرة : (٢٤) .

(٤) أورده في « تفسير البغوي » (٥٦/١) ، وانظر « النكت والعيون » (٤٤/٦) . في (أ) : (تنكت الناس في الدنيا) ، و(ب ، ز) : (تكسر الناس . . .) ، و(و) : (ركست الناس . . .) .

(٥) سورة البقرة : (٢٤) .

(٦) عزاه بنحوه في « الدر المنثور » (٢٢٥/٨) لابن المنذر .

وقد تأوَّلَ بعضُهم قولَ ابنِ عباس : (حشرُها : موتُها) : أنها تُحشرُ لضربٍ من القِصاصِ بينها ، ثُمَّ تصيرُ تُراباً[1] .

قلت : وتأويلُ ابنِ عباس بعيدٌ ؛ لأنَّ الحشرَ : الجَمعُ ، وليس في موتِها جمعُها ، بل فيه تفرقتُها وتفرقةُ أجزائها ، ثمَّ قال : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[2] ، وإنَّما يكون الحشرُ إلى الربِّ تعالىٰ بإعادةِ الحياة إليها وجمعِها إلىٰ ربها ، والله أعلم .

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر « التذكرة » (٢/٦٥٢) ، و« تفسير القرطبي » (١٩/١٨٩) .

(٢) سورة الأنعام : (٣٨) .

الباب التاسع والخمسون
في الفرج بعد الشدة

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٣) .

وقال الحسن : لمَّا نَزلَتْ هـٰذه الآيةُ . . قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَبْشِرُوا ؛ فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْيُسْرُ ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ » (٤) .

وقال ابن مسعود : (والذي نفسي بيده ؛ لو كان العُسرُ في جُحر . . لَطَلبه اليُسرُ ، لن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَين) (٥) .

ومعنى الآية : أنه لمَّا عَرَّفَ العُسرَ ونَكَّرَ اليُسر ، ومن عادة العرب : إذا ذَكَرتِ اسماً مُعرَّفاً ثمَّ أعادَتْه . . فهُوَ هُوَ ، وإذا نَكَّرَتْه ثمَّ كرَّرَتْه . . فهما اثنان (٦) .

---

(١) سورة الشورىٰ : (٢٨) .

(٢) سورة النمل : (٦٢) .

(٣) سورة الانشراح : (٦) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥/٢٩٦) ، والثعلبي في « تفسيره » (١٠/٢٣٣) ، والحسن هو البصري رحمه الله تعالىٰ ، وعليه فالحديث مرسل ، وللحديث شواهد ذكرها السيوطي في ألفيته « عقود الجمان » (ص ٢٠) .

(٥) رواه بنحوه الطبري في « تفسيره » (١٥/٢٩٦) ، والثعلبي في « تفسيره » (١٠/٢٣٣) .

(٦) ونظم هـٰذه القاعدة الإمام السيوطي في « عقود الجمان » (ص ٢٠) فقال : [من الرجز]

ثـم مـن القواعـد المشـتهرهْ ... إذا أتـت نكـرةٌ مكـرَّرهْ

تغايـرا وإنْ يُعـرَّفْ ثانـي ... توافقـا كـذا المعرفـان

شـاهدُها الـذي روينـا مسـندا ... لـن يَغلِـبَ اليسـرينِ عسـرٌ أبـدا

وقال بعضهم[1] : [من الخفيف]

إنْ يَكُنْ نَالَكَ ٱلزَّمَانُ بِبَلْوَىٰ ... عَظُمَتْ شِدَّةً عَلَيْكَ وَجَلَّتْ
وَتَلَتْهَا قَوَارِعٌ نَاكِيَاتٌ ... سُئِمَتْ دُونَهَا ٱلْحَيَاةُ وَمُلَّتْ
فَٱصْطَبِرْ وَٱنْتَظِرْ بُلُوغَ مَدَاهَا ... فَٱلرَّزَايَا إِذَا تَوَالَتْ تَوَلَّتْ
وَإِذَا أَوْهَنَتْ قُوَاكَ وَحَلَّتْ ... كُشِفَتْ عَنْكَ جُمْلَةً فَتَخَلَّتْ

وقال ابن عباس : (أوّلُ ما اتخذَ النِّساءُ المِنْطَقَ : مِن قِبَلِ أُمِّ إسماعيل ، اتَّخذَتْ مِنْطَقاً ؛ لِتُعَفِّيَ أَثَرَها علىٰ سَارةَ[2] ، ثمَّ جاء بها إبراهيمُ وبابْنِها إسماعيلَ وهي تُرضِعُه حتىٰ وَضَعَهما عند البيت عند دَوْحَةٍ فوق زمزمَ في أعلى المسجد[3] ، وليس بمكَّةَ يومئذٍ أحدٌ ، وليس بها ماءٌ ، فوضعهما هنالك ، ووضعَ عندها جِراباً فيه تمرٌ ، وسقاءً فيه ماءٌ .

ثمَّ قَفَّىٰ إبراهيمُ مُنطلقاً ، فتَبِعَتْه أمُّ إسماعيلَ فقالت : يا إبراهيمُ ؛ أين تذهبُ وتترُكُنا بهٰذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيءٌ ؟! فقالت له ذٰلك مِراراً ، وجعل لا يلتفتُ إليها ، فقالت له : آللهُ أَمرَكَ بهٰذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يُضَيِّعَنا ، ثمَّ رجعَتْ ، فانطلق إبراهيمُ ، حتَّىٰ إذا كان عند الثَّنِيَّة حيثُ لا يرونه . . استقبلَ البيتَ بوجهِه ، ثمَّ دعا بهٰؤلاء الدَّعَوات ورفعَ يديه فقال : رَبِّ ﴿ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ . . . ﴾ حتىٰ بلغ ﴿ يَشۡكُرُونَ ﴾[4] .

---

(١) روى الأبيات الثعلبي في « تفسيره » (١٠/٢٣٦) لزيد بن محمد العلوي ، والثلاثة الأولى البيهقي في « شعب الإيمان » (٩٦٢٤) ليحيى بن زيد العلوي .

(٢) لِتُعَفِّيَ أثرها : لِتُخفِيَه ، وكان السبب في ذٰلك : أن سارةَ كانت وَهَبَتَ هاجرَ لإبراهيم عليه السلام ، فحملت منه بإسماعيل عليه السلام ، فلمَّا وَلَدَته . . غارت منها ، فحلَفت لتقطعَنَّ منها ثلاثة أعضاء ، فاتخذت هاجرُ مِنطقاً ، فشدَّت به وسطَها ، وهربت وجرَّت ذيلَها ؛ لتخفيَ أثرها علىٰ سارة .

(٣) الدَّوْحَة : الشجرة الكبيرة .

(٤) سورة إبراهيم : (٣٧) .

وجَعلَتْ أُمُّ إسماعيلَ تُرضِعُ إسماعيلَ وتشربُ من ذلك الماء ، حتىٰ إذا نَفِدَ ما في السِّقاء . . عَطِشَتْ وعَطِشَ ابنُها ، وجَعلَتْ تنظرُ إليه يتلوَّىٰ ، فانطلقتْ كراهيةَ أنْ تَنظُرَ إليه ، فوجدت الصَّفَا أقربَ جبلٍ في الأرض يَلِيها ، فقامت عليه ، ثمَّ استقبلت الواديَ هل ترىٰ أحداً ، فلم ترَ أحداً ، ثمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ حتىٰ جاوزت الواديَ ، ثمَّ أتت المَرْوةَ ، فقامت عليها فنظرت هل ترىٰ أحداً ، فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فَلِذَٰلِكَ سَعَى ٱلنَّاسُ بَيْنَهُمَا » .

فلمَّا أشرفَتْ على المَرْوةِ . . سَمِعَتْ صوتاً فقالت : صَهٍ ؛ تريد : نفسَها ، فسَمِعَتْ أيضاً ، فقالت : قد أسمعتَ إنْ كان عندك غُوَاثٌ ؛ فإذا هِي بالمَلَكِ عند موضعِ زمزمَ ، فبحث بعَقِبهِ ـ أو قال : بجناحه ـ حتىٰ ظَهر الماءُ ، فجعلت تُحوِّضُه وتقولُ بيدِها هٰكذا ، وجعلت تَغرِفُ من الماء في سِقائها ، وهو يَفُورُ بعدما تَغرِفُ ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يَرْحَمُ ٱللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ ؛ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ ـ أو قال : « لَوْ لَمْ تَغْرِفْ » ـ لَكَانَتْ عَيْناً مَعِيناً » .

قال : فَشرِبتْ وأَرضَعتْ ولدَها ، فقال لها المَلَكُ : لا تخافوا الضَّيعةَ ؛ فإنَّ هٰهنا بيتَ اللهِ يَبنِي هٰذا الغلامُ وأبوه ، وإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أهلَه)[1] .

* * *

ومنها قصةُ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا ؛ وذلك أنَّ كعبَ بنَ مالكٍ ومُرارةَ بنَ الربيعِ وهِلالَ بنَ أميةَ تخلَّفوا عن غزوة تَبوكَ ، ونهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن كلام الثلاثة ، قال كعب : (فاجتنَبَنا الناسُ ، وتغيَّروا لنا ، حتىٰ تنكَّرت لنا الأرضُ بما رَحُبَتْ ، فما هي التي أعرِفُ ، وكنتُ أطوفُ في الأسواقِ ، وأشهد الصلاة مع المسلمين ، ولا يُكلِّمُني أحدٌ ، وآتي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأسلِّمُ عليه وأقول في نفسي : هل حرَّكَ شفتيه بردِّ السلام أم لا ؟ حتىٰ إذا طالَ

(١) رواه البخاري (٣٣٦٤) مطولاً .

ذلك عليَّ من جَفْوةِ الناسِ . . تسوَّرتُ جدارَ حائطِ أبي قتادةَ ، وهو ابنُ عَمِّي وأحبُّ الناسِ إليَّ ، فسلَّمتُ عليه ، فواللهِ ؛ ما رَدَّ عليَّ السلامَ .

فلمَّا تَمَّتْ خمسونَ ليلةً من يوم نهىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا . . صلَّيتُ صلاةَ الفجر وأنا علىٰ ظهرِ بيتٍ من بيوتنا .

فبينا أنا جالسٌ على الحالة التي ذَكَرَها اللهُ ؛ قد ضاقَتْ عليَّ نفسي وضاقَتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ ، وما كان شيءٌ أهمَّ عليَّ من أن أموتَ فلا يُصلِّيَ عليَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، أو يموتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فأكونَ من الناس بتلك المنزلة ؛ لا يُكلِّمُني أحدٌ ، ولا يصلِّي عليَّ . . فأنزل الله تعالىٰ توبتَنا ، فسمعتُ صوتَ صارخٍ من أعلى الجبل : يا كعبَ بنَ مالكٍ ؛ أَبشِرْ ، فَخَرَرْتُ ساجداً لله تعالىٰ ، وعرفتُ أنْ قد جاء الفَرَجُ ، فجعلت ثَوْبَيَّ على الصارخ لبُشراه ، وواللهِ ؛ ما أَملِكُ غيرَهما .

ثمَّ أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فسلَّمتُ عليه وهو يَبرُقُ وجهُه من السُّرور ، فقال : « أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ » ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ إنَّ من توبتي أنْ أَنخلِعَ من مالي صدقةً إلى اللهِ وإلىٰ رسوله ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ »)[1] .

* * *

ورُوِيَ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لمَّا شبَّ ودَرَجَ في موضع رُبِّيَ فيه . . ﴿ جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ فلما ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ يقال : إنه رأى الزُّهَرَةَ . . ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَافِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ بعد طلوع الفجر . . ﴿ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا ﴾ أصبح و﴿ رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝

(١) رواه بنحوه البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) مطولاً .

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ يعني: إلى الإسلام ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[١].

قالوا: يا إبراهيمُ؛ إنَّا نخافُ من آلهتنا أنْ تَخبِلَكَ أو تُصيبَك بسوءٍ لا تقومُ له إنْ أنتَ سَبَبْتَها وعِبْتَها؟ قال: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢].

وكان آزرُ يصنعُ أصناماً يعبدُها قومُه، ثمَّ يُعطِيها إبراهيمَ عليه السلام يبيعُها، فيكسِرُها ويذهبُ بها إلىٰ نهرٍ لهم فيصبُّها فيه علىٰ رؤوسها ويقول لها: اشربي؛ استهزاءً بها، وإظهاراً لقومه فسادَ ما هم عليه، ففشا ذٰلك عندهم من غيرِ أنْ يَبلُغَ ذٰلك نُمْرُودَ.

فأوَّلُ ما بَادَأَ قومَه: أنْ نظرَ نظرةً في النجوم فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[٣]؛ يعني: من الغيظ عليهم وعلىٰ أصنامهم، فظنُّوا أنَّه مطعونٌ، وكانوا يَفِرُّون من الطاعون إذا سمعوا به ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾[٤] فدخلَ عليها وهم قد وَضَعُوا لها طعاماً وشراباً، فقال: ما لكم لا تأكلون ؟! ما لكم لا تَنطِقُون ؟! فأقبلَ عليهم ضَرباً باليمين وكَسَّرها، وقطَّع أيديَها وأَرجُلَها حتىٰ جَعَلها جُذاذاً، وأراقَ طعامَها وشرابَها، وعَمَدَ إلى الفأسِ فعلَّقها بيدِ إلـٰههمُ العظيمِ، ثُمَّ خَرجَ عنها وتَركَها.

فلمَّا رَجَعَ قومُه من عِيدهم.. دخلوا بيت أصنامهم، فلمَّا رَأَوْا ما صُنِعَ بها.. رَاعَهم ذٰلك وأعظموه وقالوا: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٥]،

---

(١) سورة الأنعام: (٧٦ ـ ٨٠).
(٢) سورة الأنعام: (٨١).
(٣) سورة الصافات: (٨٩).
(٤) سورة الصافات: (٩٠ ـ ٩١).
(٥) سورة الأنبياء: (٥٩).

فقال بعضهم لبعض : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ (١) ، سَمِعناه يَسُبُّها ويَستهزِئُ بها ، فقال نُمرُودُ : ﴿ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (٢) .

فلمَّا أُتِيَ بإبراهيم عليه السلام .. ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٣) إنَّا قد ظَلَمناه بما نَسبناه إليه ، ثُمَّ قالوا ـ وقد عَرَفُوا أنها لا تَضُرُّ ولا تنفعُ ـ : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

فقال له نُمرُودُ حين سَمِعَ ذٰلك منه : صِفْ لي إلـٰهَك الذي تَعبدُ وتدعو إلىٰ عبادته ، ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (٥) .

قال نُمرُود (٦) : و﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ (٧) .

قال : كيف ذٰلك ؟

قال : آخُذُ رَجُلَينِ قد استوجبا القتلَ في حُكمي ، فأقتلُ أَحدَهما ، فأكون قد أَمَتُّه ، وأعفو عن الآخر ، فأكونُ قد أحيَيْتُه .

فقال إبراهيم : إن كنت صادقاً .. فأَحْيِ الذي قتلتَ بزعمك ، وأَخرِجْ رُوحاً من جسدٍ من غيرِ أن تَقتُلَه إنْ كنتَ صادقاً .

ثم قال إبراهيم : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ﴾ (٨)

---

(١) سورة الأنبياء : (٦٠) .

(٢) سورة الأنبياء : (٦١) .

(٣) سورة الأنبياء : (٦٢ ـ ٦٤) .

(٤) سورة الأنبياء : (٦٥ ـ ٦٧) .

(٥) سورة البقرة : (٢٥٨) .

(٦) في (و) : (نُمروذ) ، وهي لغةٌ .

(٧) سورة البقرة : (٢٥٨) .

(٨) سورة البقرة : (٢٥٨) .

عند ذلك نُمرُود ، ولم يَرُدَّ إلىٰ إبراهيمَ شيئاً ، وأَمرَ به إلى السِّجن ، فلَبِثَ فيه سبعَ سنين ، وجَعلَ يدعُو أهلَ السِّجنِ إلى الله تعالىٰ وإلى الإسلام ، حتىٰ ظهرَ أمرُه وفشا ، واتَّبعه قومٌ كثيرٌ علىٰ دينه .

فلمَّا أرادوا أن يَحرِقُوا إبراهيمَ ، واجتمع رأيُهم علىٰ ذلك . . بَنَوْا حِصناً ، طُولُ جِدَارِه سِتُّونَ ذراعاً ، ووضعوه إلىٰ سَفْحِ جبلٍ مُنِيفٍ لا يُرامُ ولا يُرتقىٰ ، وبَلَّطُوا الجدارَ ، فلا يمشي فيه أحدٌ إلَّا زَلِقَ عنه .

وأَذَّنَ مُؤذِّنُ نُمرُودَ : أيُّها الناس ؛ احتطِبُوا لنارِ إبراهيم ، ولا يتخلَّفَنَّ عنها ذَكَرٌ ولا أنثىٰ ، ولا حُرٌّ ولا عبدٌ ، ولا شريفٌ ولا وَضِيعٌ ، ومن تخلَّفَ عن ذلك . . أُلقِيَ في تلك النار ، فعَمِلُوا في ذلك أربعين ليلةً ؛ حتَّىٰ إنَّ المرأةَ منهم تَنذُرُ ذلك علىٰ نفسها : لئن رَجَعَ غائبُها أو أفاقَ عَلِيلُها[1] .

حتىٰ إذا كَمَلَ ذلك . . قَذَفُوا فيه النار ، حتَّىٰ إنَّه كان يُسمَعُ وَهَجُ النارِ من المسافة البعيدة ، فلمَّا بلغ ذلك . . وُضِعَ إبراهيمُ في كِفَّة المِنْجَنيق .

قال وهب بن منبه : فبلغني أنَّ السماءَ والأرضَ والبحارَ وما فيها ضَجُّوا إلى الله تعالىٰ ضجَّةً واحدة ، قالوا : يا ربنا ؛ ليس في أرضك أحدٌ يَعبدُك غيرُه ، فَأْذَنْ لنا في نُصرته ، فأوحى الله تعالىٰ إليهم : إن استغاث بشيء منكم . . فانصروه وأغيثوه ، وإن دعاني . . فأنا وَلِيُّه وناصِرُه .

فلما وُضِعَ في كِفَّة المِنجَنِيق وقَذَفُوه . . قال : حسبيَ اللهُ ونِعمَ الوكيلُ ، اللهمَّ ؛ إنك تعلم إيماني بك ، وعداوةَ قومي فيك . . فانصُرْني عليهم ونَجِّني من النار ، فأوحى الله تعالىٰ إلى النار : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[2] ، فأطاعت النارُ رَبَّها ، ولو لم يقل : ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ . . لمات من شِدَّة بردها ، وَلبِثَ إبراهيمُ عليه السلام في النار سبعةَ أيامٍ ، وظَنَّ قومُه أنه قد احترقَ .

---

(١) أي : لئن رَجَعَ . . . لَتحمِلنَّ حطباً لحريق إبراهيم عليه السلام .

(٢) سورة الأنبياء : (٦٩) .

ثُمَّ قال نُمرُود : انظروا : ماذا فعل إبراهيم ؟ فإنّي رأيتُ الليلةَ في نومي أنَّ جدارَ هـٰذا الحِصن قد تهدَّمَ ، وخرج إبراهيمُ يمشي .

قال : وذابَ النُّحاسُ الذي سُدَّ به باب الحِصن ، واحترقَ الجدارُ فصارَ رماداً ، فاطَّلعوا علىٰ إبراهيم ، فَرأَوْه صحيحاً سليماً ، وخرج الناس ينظرون إليه علىٰ تلك الحال ، فلمَّا رآهم . . خَرَجَ يمشي ، حتىٰ قَعدَ إلىٰ أُمِّه وهي في الجمع ، وأقبلتْ سارةُ ، وكانت أوَّلَ من آمنَ به ، حتىٰ جلست إليه ، فقالت : يا إبراهيم ؛ إني آمنتُ بالذي جعلَ النارَ عليك برداً وسلاماً ، قالت لها أمُّ إبراهيم : اِحذري القتلَ علىٰ نفسِك ، فقالت : إليكِ عَنّي ؛ فإنّي لا أخاف شيئاً وقد آمنتُ بإلـٰهِ إبراهيمَ .

وحولَ إبراهيمَ جمعٌ من الناس لا يُحصىٰ عددُهم يَأْتَمِرُون به ؛ لِيحدثوا[١] له عذاباً ، فأرسل الله تعالىٰ ريحاً عاصفاً ، فسَفَّتْ رمادَ تلك النارِ في وجوهِهم وعيونِهم ، ففرُّوا عنه ، وقامَ إبراهيمُ داعياً إلى الله تعالىٰ ومُذَكِّراً به .

* * *

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : (إنَّ نبيَّ الله سليمان بن داوود عليهما السلام انطلقَ إلى الحَمَّام ومعه جِنِّيٌّ يقالُ له : صَخْرٌ ، ولم يكن سليمانُ عليه السلام يدخلُ الخَلاءَ بالخَاتَم ، فدخلَ الحَمَّام وأعطى الشيطانَ خاتَمَه ، فألقاه في البحر ، فالتقمَتْه سمكةٌ ، ونُزِعَ مُلكُ سليمانَ منه ، وأُلقِيَ على الشيطانِ شَبَهُ سليمانَ ، فجاء فجلس علىٰ كُرسِيِّه ، وسُلِّطَ علىٰ جميع مُلك سليمان غيرَ نسائه ، فجعلَ يقضي بين الناسِ ، والناسُ يُنكرون قضاياه ، حتىٰ قالوا : لقد فُتِنَ نبيُّ اللهِ سليمانُ .

ومَكَثَ علىٰ ذٰلك أربعينَ يوماً ، ثم أقبل في حاله تلك وهو جائعٌ حتى انتهىٰ

(١) في النسخ ما عدا (أ ، ب ، و) : (ليجددوا) .

إلىٰ صَيَّادين في البحر ، فاستطعمَ أحدَهم من صيده وقال : أنا سليمان ، فقامَ إليه بعضُهم فضربَه بعصاً فشَجَّه ، فجعلَ يغسِلُ دَمَه علىٰ شاطئ البحر ، فلامَ الصيَّادون صاحبَهم علىٰ ضربه إيَّاه .

ثمَّ أَعطَوْا سليمانَ عليه السلام سَمكتين مِمَّا قد تغيَّرَ عندهم ونَتُنَ ، ولم يَشغَلْه ما كان فيه من الضرب من أن يقومَ إلىٰ شاطئ البحر ، فشقَّ بطونَهما وغَسلَهما ، فوجدَ خاتَمه في بطنِ أحدِهما ، فأخذَه فلَبِسَه ، فردَّ اللهُ عليه بهاءَه ومُلكَه ، وجاءت الطَّيرُ حتىٰ حامَتْ عليه ، فعرَفَ القومُ أنه سليمانُ ، فجاؤوا يعتذرون إليه)[1] .

ورویٰ وهبُ بن مُنبِّه : أنَّ اللهَ تعالىٰ وَهَبَ لإبراهيمَ عليه السلام إسحاقَ عليه السلام ، فلمَّا كانَ ابنَ سبعِ سنين . . أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ إبراهيم عليه السلام أنْ يَذبَحَه وأنْ يَجعلَه قُرْباناً ، فكَتَمَ إبراهيمُ عليه السلام ذٰلك عن إسحاقَ عليه السلام وأُمِّه وجميعِ الناس ، وأَسرَّه إلىٰ خليلٍ له يُقالُ له : إلِعَازَرُ ، وكان أَوَّلَ مَن آمَنَ به من قومِهِ يومَ أُحرِقَ ، فقال له : (إنَّ اللهَ سبحانه رَفَعَ اسمَكَ في المَلأ الأعلىٰ علىٰ جميعِ أهلِ البَلاء حتَّىٰ كنتَ أَرفعَهم بَلِيَّةً ؛ لِيَرفعَكَ اللهُ بقَدْرِ ذٰلك في المنازلِ والفضائل ، وقد عَلِمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لم يَبْتَلِكَ بذٰلك ؛ لِيَفتِنَكَ ولا لِيُضِلَّكَ ، فلا يَسُوءَنَّ باللهِ ظَنُّك ، وأعوذُ باللهِ أنْ يكونَ ذٰلك حَتماً مِنِّي على الله تعالىٰ أو سَخَطاً بحُكمِه الذي حَكَمَ علىٰ عباده ، ولٰكن هٰذا حُسنُ الظَّنِّ بالله ؛ فإنْ عَزَمَ رَبُّك علىٰ ذٰلك . . فكن عند أحسن علمه بك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/١٩٣ ـ ١٩٤) ، قال القاضي عياض في « الشفا » (ص ٧٠٠) : (ولا يصح ما نقله الأخباريون من خرافاتهم ؛ من تشبه الشيطان به ، وتسلطه علىٰ ملكه ، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه ؛ لأن الشياطين لا يسلطون علىٰ مثل هٰذا ، وقد عُصم الأنبياء من مثله) .

فتعزَّىٰ إبراهيمُ عليه السلام بقوله ، واستدَّ له رأيُه وبصيرتُه ، وانطلق بإسحاق ، فلمَّا صَعِدَ الجبلَ ومعه السِّكِّينُ والحبلُ وأداةُ القُربانِ . . فقال له إسحاق : يا أبةِ ؛ أرىٰ معك أداةَ القُربان ولا أرىٰ قُرباناً ، قال إبراهيم : يا بُنَيَّ ؛ القُربانُ بعينِ ربِّك يَنظرُ إليه ، فإن شاء . . رَحِمَ أباك ، فلم يَفطَنْ إسحاقُ ، فلمَّا وَافَىٰ رأسَ الجبل . . قال إبراهيم : يا بُنَيَّ ؛ إنَّ الله أَمرَني أنْ أذبحَك وأجعلَك قُرباناً يرفعُكَ اللهُ إليه ويتقبَّلُك ، فانظرْ ماذا ترىٰ ، فتهلَّلَ وجهُ إسحاقَ واستبشرَ ، فقال له والدُه : لقد فَجعتُكَ يا بُنَيَّ بأمرٍ ما فَجَعَ به والدٌ وَلدَه ، وإنِّي لأرىٰ من سُرورِكَ بذٰلك وشُكرِكَ لربِّكَ أمراً أرجو به العافيةَ والفرجَ .

فقال : يا أبةِ ؛ لم يكن شيءٌ من الدنيا أحبَّ إليَّ من البرِّ بكَ وبأمِّي وقد حَرَمَنيه رَبِّي ؛ فإذا أردتَ ذَبْحي . . فاشدُدْ وَثاقي ، فإنِّي أخافُ حين يُفارِقُني عقلي وأَجِدُ ألمَ الحديدِ أنْ يتحرَّكَ منِّي عضوٌ فيُؤذِيَك ، وأنا أكرهُ أنْ أَختِمَ بذٰلك عملي ، فإذا فَرَغْتَ من أمري . . فأَقرِئْ أُمِّي السَّلامَ وقُل لها : لا تَجزعي ؛ فقد أكرمَ اللهُ ابنَكِ في جنَّاته .

فلمَّا فَرَغَ من وصيَّته . . عَمَدَ إبراهيمُ عليه السلام إليه فعَصَّبه بعِمامته ما بين مَنكِبَيْه إلى الكعبين ، ثمَّ كَبَّه لوجهه ، وكَرِهَ أنْ يستقبلَ وجهَه ؛ لئلَّا تُدرِكَه له رحمةٌ إذا هو تَشحَّطَ (١) ، فأدخلَ يدَه من تحت حَلْقِه ، فلمَّا أرادَ أن يَحُزَّ . . انقلبت السِّكِّينُ ، فأوجسَ إبراهيمُ عليه السلام في نفسِه ، ثمَّ عادَ الثانيةَ ، فلمَّا أرادَ أنْ يَحُزَّ . . انقلبت السِّكِّينُ ، ونُودِيَ ﴿ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ (٢) هٰذا فِداءُ ابنِكَ قد فداه اللهُ لكَ به ، فنظرَ إبراهيمُ عليه السلام خلفَه ؛ فإذا بكَبْشٍ قد لُوِيَ قَرنُه الأيمنُ علىٰ ساقِ شجرةٍ ، فوجَّهه إبراهيمُ عليه السلام إلى القِبلة ، وقِبْلَتُه

---

(١) تشحَّط : تشحَّطَ القتيلُ في الدم : اضطربَ فيه وتخبَّطَ .

(٢) سورة الصافات : (١٠٤ ـ ١٠٧) .

يومئذ مَكَّةُ ، فذبَحَه إبراهيم عليه السلام ، وقَصَبَه إسحاق عليه السلام [١] ، فلمَّا فَرَغا منه . . وضعاه قُرباناً ، فرفعه الله تعالىٰ إليه وتقبَّله) [٢] .

* * *

قال أبو هريرة : ولمَّا صارَ يوسفُ عليه السلام إلىٰ مصر واستُرِقَّ بعد الحرية . . جَزِعَ جَزَعاً شديداً ، وجعلَ يبكي الليلَ والنهارَ علىٰ أبويه وإخوتهِ ووطنهِ وما ابتُلِيَ به من الرِّقِّ ، فأحيا ليلةً من تلك الليالي يدعُو ربَّه تعالىٰ ، وكان من دعائه أن قال : يا ربِّ ؛ أخرجتَني من أحبِّ البلادِ إليَّ ، وفرَّقتَ بيني وبين أَبَوَيَّ وإخوتي ووطني . . فاجعلْ لي في ذٰلك خيراً وفَرَجاً ومخرجاً مِن حيثُ أحتسِبُ ومِن حيثُ لا أحتسِبُ ، وحَبِّبْ إليَّ البلادَ التي أنا فيها ، وحَبِّبْها إلىٰ كلِّ مَن يَدخلُها ، وحَبِّبْني إلىٰ أهلِها ، وحَبِّبْهم إليَّ ، ولا تُمِتنِي حتىٰ تَجمعَ بيني وبين أَبَوَيَّ وإخوتي في سترٍ منكَ وعافيةٍ ونعمةٍ وسرورٍ تَجمعُ لنا به خيرَ الدنيا والآخرةِ ، إنَّكَ سميعُ الدعاء .

فَأُتِيَ يوسفُ عليه السلام في نومه فقيلَ له : إنَّ الله تعالىٰ قد استجاب لك دعاءَك ، وأعطاك مُناك ، ووَرَّثَكَ هٰذه البلادَ وسلطانَها ، وجمعَ إليكَ أَبويكَ وإخوتَكَ وأهلَ بيتك ، فَطِبْ نَفساً ، واعلم أنَّ اللهَ تعالىٰ لن يخلف وعده .

وبدعاء يوسف عليه السلام صارت مصرُ محبوبةً يحبها من دخلها فلا يكاد يخرج منها .

قال قتادة : (ما سَكنَها نبيٌّ قبلَه ، ولمَّا جمعَ اللهُ شملَه وتكاملت النعمةُ عليه . . اشتاقَ إلىٰ لقاء ربه فقال : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ

---

(١) قَصَبَه : قطَّعه .

(٢) رواه بنحوه الطبري في « تفسيره » (٩٦/١٢) مختصراً ، وفي (ز) من أول الخبر إلىٰ آخره : (إسماعيل) بدل (إسحاق) عليهما الصلاة والسلام ، وانظر ما علقناه حول هٰذه المسألة في (ص ٢٩٦) من هٰذا الكتاب .

ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾)[١] .

* * *

ولمَّا وَجَّهَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ مُحمَّدَ بنَ يزيدَ إلى العراق ؛ لِيُطلِقَ أهلَ السُّجون ويَقسِمَ الأموالَ . . ضَيَّقَ علىٰ يزيد بن أبي مسلم ، فلمَّا وَلِيَ يزيدُ بنُ عبدِ الملك الخلافةَ . . وَلَّىٰ يزيدَ بنَ أبي مسلم إفريقيَّة ، فاستخفىٰ مُحمَّدُ بنُ يزيدَ ، فطَلَبه يزيدُ بنُ أبي مسلم ، فأُتِيَ به في شهرِ رمضان عند المغرب ، وفي يدِ يزيد بنِ أبي مسلمٍ عُنقودُ عِنَبٍ ، فقال له يزيدُ حين دنا منه : (مُحمَّدُ بنُ يزيد ؟ قال : نعم ، قال : أَمَا واللهِ ؛ لطالما سألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يُمكِّنني منك بغيرِ عَهْدٍ ولا عَقْدٍ ، فقال محمد : وأنا واللهِ ؛ طالما سألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يُجِيرَني منك ويُعِيذَني ، فقال يزيد : فواللهِ ؛ ما أَجارَكَ ولا أَعاذَكَ ، وإنْ سابَقَني مَلَكُ الموتِ إلىٰ قبضِ روحِكَ . . سَبَقتُه ، واللهِ ؛ لا آكُلُ هـٰذه الحَبَّة حتىٰ أَقتُلَك .

فأقامَ المُؤذِّنُ الصَّلاةَ ، فوضعَ يزيدُ العُنقودَ وتَقدَّمَ لِيُصلِّيَ ، وكان أهلُ إفريقيَّة قد اجتمعوا علىٰ قتله ، فلمَّا رَكعَ . . ضَربَه رجلٌ بعَمُودٍ علىٰ رأسه فَقَتلَه ، وقيلَ لِمُحمَّدِ بنِ يزيد : اذهب حيثُ شئتَ)[٢] .

فسبحانَ مَن قتلَ الأميرَ وأحيا الأسيرَ ! سُنَّة الله التي قد خَلَتْ في عباده ، طلوعُ الحياة من شِفارِ الموت ، وحضورُ الموتِ من مَعدِنِ الحياة .

* * *

ورُوِيَ أنَّ سلطانَ صِقِلِّيَّة أَرِقَ ذاتَ ليلةٍ ومُنِعَ النَّومَ ، فأرسلَ إلىٰ قائدِ البحرِ

---

(١) رواه بنحوه الطبري في « تفسيره » (٨/٩٤) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٢٠١٧) ، والآية من سورة يوسف : (١٠١) .

(٢) أورده القاضي التنوخي في « الفرج بعد الشدة » (١/٢٨٧) ، وزاد بعد قوله : (حين دنا منه) : (فجعل محمدٌ يقول : اللهم ؛ احفظ لي إطلاقي الأسرىٰ ، وإعطائي الفقراءَ) .

وقال : (أَنفِذِ الآنَ مَركَباً إلىٰ إفريقيَّةَ . . يأتوني بأخبارها ، فعَمَرَ القائدُ المَركَبَ وأرسلَه لِحِينهِ ، فلمَّا أصبحوا . . إذا بالمَركَبِ في موضعه لم يَبرَحْ ، فقال له المَلِكُ : أليس قد فعلتَ ما أمرتُك به ؟ قال : نعم ، قد امتثلتُ أمرَك وأنفذتُ المَركَبَ ، ورَجَعَ بعد ساعةٍ ، وسيحدِّثُكَ مُقدَّمُه .

فجاءَ مُقدَّمُ المَركَبِ ومعه رجلٌ ، فقال له الملكُ : ما مَنَعكَ أن تذهبَ حيثُ أَمَرتُ ؟ قال : ذهبتُ في المركب ، فبينا أنا في جوف الليل والبَحَّارونَ يَقذِفُون[1] . . إذا أنا بصوتٍ يقولُ : يا أَللهُ ، يا أَللهُ ، يا غياثَ المستغيثين ، يُكرِّرُها مراراً .

فلمَّا استقرَّ صوتُه في أسماعنا . . ناديناه مِراراً : يا لبَّيكَ ، يا لبَّيكَ ، وهو ينادي : يا أَللهُ ، يا غياثَ المستغيثين ، ونحنُ نُجِيبُه : يا لبَّيكَ ، يا لبَّيكَ ، وقَذَفْنا بالمَركَبِ نحوَ الصَّوت ، فألفينا هٰذا الرَّجُلَ غريقاً في آخرِ رَمَقٍ من الحياة ، فأخذناه من البحرِ وسألناه عن حاله ، فقال : كُنَّا مُقلِعِينَ من إفريقيَّةَ فغَرِقَتْ سفينتُنا منذُ أيامٍ ، وما زلتُ أسبَحُ حتىٰ وجدتُ الموتَ ، فلم أَشعُرْ إلا بالغَوثِ من ناحيتكم !)[2] .

فسبحان من أَرَّقَ سلطاناً وأسهرَ جَبَّاراً في قصرهِ لغريقٍ في البحر حتى استخرجه من تلك الظُّلمات ؛ ظُلمةِ الليل ، وظُلمةِ البحر ، وظُلمةِ الوحشةِ ، لا إلـٰه إلا أنت سبحانك !

وأخبرني رجلٌ كان إمامَ المسجدِ الجامعِ بصِقِلِّيَّة قال : (كنتُ بصِقِلِّيَّة أيامَ فِتَنِ العَدُوِّ ، فزحفَ إلينا في البحر في سفنٍ تُقارِبُ ثلاثَ مئةِ سفينةٍ ، وأَرسَتْ في الساحل ، فرأينا أمراً هائلاً ، وفينا الشيخُ الصالحُ العابدُ ابنُ السَّمَنْطَاري ، فلجأَ الناسُ إليه واستجمعوا حوله يَتبرَّكون به وينتظرون الفَرَجَ علىٰ يديه ،

---

(١) يَقذِفُون : يَجدِفُون ، ومنه المِقذاف : المِجْدَاف .

(٢) أورده في « المستطرف » (٢/٣٦٣) .

قال : فنظرَ إلى السماء حِيناً ، ثمَّ سجد وعَفَّر خدَّيه بالأرض يُقلِّبُهما يميناً وشِمالاً[١] ، قال : فواللهِ ؛ ما بَرِحْنا حتىٰ هَبَّت الرِّيحُ ومَزَّقَتْها كُلَّ مُمزَّقٍ ، فلم يجتمعْ منها اثنان) .

وأخبرني أبو القاسم بن هايل[٢] رحمه اللهُ قال : (كنتُ في طريق الحجاز فعَطِشَ الناسُ في مفازةِ تَبُوكَ ، ففُقِدَ الماءُ ولم يُوجدْ إلا عند صاحبٍ لي جَمَّالٍ ، فجعلَ يبيعُه بالدنانيرِ بأرفعِ الأثمان ، فجاءَ رجلٌ كان موسوماً بالصَّلاحِ ، عليه قطعةُ نِطْعٍ ، يَحمِلُ رَكوةً ، ومعه شيءٌ من دقيقٍ ، فتشفَّع بي إلى الجَمَّال ؛ لِيَبيعَه الماءَ بذٰلك الدقيقِ ، فكلَّمتُه فأبىٰ عليَّ ، ثمَّ عاودتُه فأبىٰ .

قال : فبسَطَ الرجلُ النِّطْعَ في الأرضِ ، ونشرَ عليه الدَّقيقَ ، ثمَّ رَمَقَ السماءَ وقال : إلٰهي ؛ أنا عبدُك ، وهٰذا دقيقُك ، ولا أملِكُ غيرَه ، وقد أبىٰ أن يقبَلَه ، ثمَّ ضربَ بيدِه في النِّطْعِ وقال : وعِزَّتِكَ ؛ لا بَرِحْتُ حتىٰ أشرَب .

قال : فواللهِ ؛ ما تفرَّقْنا حتىٰ نشأَ السحابُ فأمطرَ للحينِ ، فشربَ الماء ولم يَبرَحْ ، فكان كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى ٱللهِ . . لأَبَرَّهُ »)[٣] .

وأخبرني شيخٌ مُسِنٌّ ممَّن كان يصحَبُ العلماءَ بالقَيرَوانِ يقال له : جريرٌ ، قال : (أخبرني عبدُ الكافي الدِّيباجي ، قال : رأيتُ بالقَيرَوانِ آيةً عظيمةً ؛ وذٰلك أنَّ رجلاً جاء بصبيٍّ له وقد أُسكِتَ ولا يتكلم ، فدخلَ به إلى الفقيه أبي بكرِ بنِ عبدِ الرحمٰن وقال له : إنَّ ابني هٰذا قد أُسكِتَ منذُ أيامٍ فلا يتكلم ، فادعُ اللهَ تعالىٰ أنْ يُفرِّجَ عنه ما نَزل به .

---

(١) عَفَّرَ خدَّيه : مرَّغهما بالتراب .

(٢) في (ب) : (أبو القاسم بن فاتك) .

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٢٠٣٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، و طِمْرَين : مثنىٰ طِمْر ؛ وهو الثوب الخَلَق .

قال : فدعا له الشيخُ ساعةً ، ثمَّ مسَحَ وجهَ الصبيِّ فاستفاق الصبيُّ ، فقال له : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فقال الصبي : أشهدُ أن لا إلـٰهَ إلا الله وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله ، ثمَّ التفتَ إلى الرجلِ وقال : أُكتُمْها عليَّ إلى الموتِ ، ثمَّ التفتَ إلىٰ جاريتِهِ وقال : أُكتُمِي عليَّ هـٰذا إلى الموتِ وأنتِ حُرَّة .

فلمَّا كان يومَ تُوفِّي الشيخُ أبو بكرٍ واجتمعَ الناسُ لجِنَازتهِ وتكاثرت الأممُ . . قامَ الرجلُ فاستنصتَ الناسَ ، فسَكَتُوا ، فقال : يا أهلَ القَيرَوان ؛ اسمعوا قِصَّتي مع هـٰذا الشيخِ) ، وذكر الحديثَ كما سُقناه .

وحدَّثني هـٰذا الشيخُ قال : (رأيتُ عندنا بالقَيرَوانِ قِصَّةً لم يُسمَعْ في السالفين مِثلُها ؛ وذٰلك أنَّ بعضَ الجَزَّارينَ أضجَعَ كبشاً لِيذبَحه ، فتخبَّطَ بين يديه وأُفلِتَ منه وذهب ، فقامَ الجَزَّارُ يَطلُبُه ، وجعلَ يمشي إلىٰ أنْ دَخَلَ خَرِبةً ؛ فإذا فيها رجلٌ مذبوحٌ وهو يَتخبَّطُ في دمِه ، ففَزِعَ وخرجَ هارباً ؛ وإذا صاحبُ الشُّرطةِ والرَّجَّالةُ عندهم خبرُ القتيل ، وجعلوا يَطلُبُون خبرَ القاتلِ والمقتولِ ، فأصابوا الجزَّارَ وبيدِه السِّكِّينُ وهو مُلوَّثٌ بالدَّمِ ، والرجلُ مقتولٌ في الخَرِبةِ ، فقَبَضُوه وحملُوه إلى السلطان ، فقال له السلطانُ : أنتَ قتلتَ الرجلَ ؟ قال : نعم ، فما زالوا يستنطِقُونه وهو يعترفُ اعترافاً لا إشكالَ فيه .

فأمرَ به السلطانُ لِيقتلَ ، فأُخرِجَ للقتل ، واجتمعَ الناسُ لِيُبصِرُوا قتلَه ، فلمَّا هَمُّوا بقتله . . اندفعَ رجلٌ من الحَلْقة المجتمعين فقال : يا قومِ ؛ لا تقتلُوه ، أنا قاتلُ القتيلِ ، فقُبِضَ وحُمِلَ إلى السلطان ، فاعترفَ وقالَ : أنا قتلتُه ، فقال له السلطانُ : قد كنتَ معافىً من هـٰذا ، فما حَمَلكَ على الاعتراف ؟! قال : رأيتُ هـٰذا الرجلَ يُقتلُ ظُلماً ، فكرهتُ أنْ ألقى اللهَ تعالىٰ بدمِ رجلين ، فأمرَ به السلطانُ فقُتِلَ .

ثمَّ قالَ للرجلِ : يا أيُّها الرجلُ ؛ ما دعاكَ إلى الاعترافِ بالقتلِ وأنتَ بريءٌ ؟! قال الرجل : فما حِيلتي ؟! رجلٌ مقتولٌ بالخَرِبة ، وأَخذُوني وأنا خارجٌ

من الخَربَةِ وبيدي سِكِّينٌ مُلطَّخةٌ بالدَّمِ ؛ فإنْ أنكرتُ . . فمن يَقبَلُني ؟! وإن اعتذرتُ . . فمن يَعذِرُني ؟! فخلَّىٰ سبيلَه ، وانصرفَ مُكرَماً) .

ولمَّا وَزَرَ فخرُ المُلك بن نظامِ المُلك لِسَنْجَر المَلِك ، وكان لفخرِ المُلكِ ابنُ عَمٍّ يقالُ له : شهاب المُلك ، وكان يَخافُ منه علىٰ منزلته . . فقال للمَلك سَنْجَر : (لا حياةَ لي معك إلا أنْ تَقتُلَ ابنَ عمِّي شهابَ المُلكِ ، فأبىٰ سَنْجَر ، فما زالَ يراجعُه إلىٰ أن أمرَ به ، فحُبِسَ في بلد يقال له : بَيْهَق ، وكان والي ذٰلك البلد يكرمه لجلالته وجلالة أهل بيته ، وأخلىٰ له داراً مُشرفةً في القلعة .

ثمَّ جعلَ فخرُ المُلك يفسد قلبَ سَنْجَر ويحمله علىٰ قتل شهاب المُلك ، إلىٰ أن أرسل سَنْجَر إلىٰ واليه بقتل شهاب الملك ، فاستعظم الوالي قتله وأخَّره أياماً ، ثم لم يجد بُدّاً من قتله ، فعزم علىٰ قتله في يوم جمعة .

فبينا شهابُ المُلك يتطلع من طاقات الدار وقد أحسَّ بالهلاك . . إذا بفارس يركض ، فأوجسَ في نفسه خِيفةً منه وقال : هٰذا يريد أن يقتلني ، فوصل الفارس وقال : مات فخرُ المُلك ، فخُلِّيَ سبيلُ شهابِ الملك ، ثمَّ وَزَرَ لِسَنْجَر مكانَ فخر المُلك) ، فسبحان الفعَّال لِمَا يريد !

وأخبرني أبو الفضل المعتزُّ[(١)] بمصرَ قال : (كان بمصرَ ملوكُ آل حَمْدان ، وكان الرئيسُ ناصرَ الدولة ، وكان يشكو وَجَعَ القُولَنْج[(٢)] ، فأعيا الأطباءَ دواؤه ولم يوجدْ له شفاءٌ .

ثمَّ إنَّ السلطانَ دَسَّ علىٰ قتله ، فأَرصدَ له رجلاً معه خِنجَر ، فلمَّا جاء في بعضِ دهاليزِ القصر . . وَثَبَ عليه الرجلُ فضربَه بالخِنجَر ، فجاءت الضَّربةُ في

---

(١) في (ج ، د ، هـ ، و) : (المعبر) .

(٢) القُولَنْج : مرض مِعَوي مؤلم يصعب معه خروج البِراز والريح ، وسببه : التهاب القُولُون ؛ وهو المِعَى الغليظ الضيق الذي يتصل بالمستقيم .

أسفل خاصرته ، فأصابَ طرفُ الخِنْجَرِ المِعَى الذي فيه القُولَنج ، فخرجَ ما فيه من الخلط ، ثم عافاه الله ، فصَحَّ وبَرِئَ كأحسنِ ما كان) .

ولمَّا كنتُ بالإسكندريةِ . . نزلتْ سُفنُ العَدُوِّ بساحل مدينةِ بَرْقَةَ ، فأخذوا مركباً للمسلمين وقتلوا بعضَهم وأسروا بعضَهم ، فأُخِذَ رجلٌ منهم وشُدَّ كِتافُه من خلفه ، فلمَّا نَهبُوا السفينةَ . . عَمَدَ إليه بعضُ الأعلاج فرفسه وألقاه في البحر ، ثمَّ طعنه برمح كان معه ، فلم يُخطئ نصلُ الرمح حبلَ الكِتاف ، فقطعه وانحلَّت يدُ الرجل ، فسبح حتىٰ لَحِقَ بالشاطئ سليماً ، ووصلَ إلى الإسكندرية في عافية .

وحدَّثني بعضُ الشاميين (أنَّ رجلاً خَبَّازاً بينما هو يَخبِزُ في تَنُّوره بمدينة دمشق . . إذ عَبَرَ عليه رجلٌ يبيعُ المِشمِشَ ، قال : فاشترىٰ منه وجعلَ يأكلُ بالخبز الحارِّ ، فلمَّا فَرَغَ . . سقطَ مغشياً عليه ، فنَظَروا فإذا هو ميتٌ ، فجعلوا يتربَّصون به ويحملون له الأطباء ، فيلتمسون دلائلَه ومواضعَ الحياة منه ، فقَضَوا بأنَّه ميتٌ ، فغُسِّلَ وكُفِّنَ وحُمِلَ إلى الجَبَّانة .

فبينما هم خارجون به من باب المدينة . . استقبلَهم رجلٌ طبيبٌ يقال له : اليَبرودي ، وكان طبيباً ماهراً حاذقاً بالطب ، فسَمِعَ الناسَ يَلهَجُون بقِصَّتِه ، فقال لهم : حُطُّوه حتىٰ أَراه ، قال : فحَطُّوه ، وجعلَ يُقلِّبُه وينظرُ في أَماراتِ الحياةِ التي يَعرِفُها ، ثمَّ فَتحَ فَمَه وسقاه شيئاً ـ أو قال : حَقَنَه ـ فاندفعَ ما هناك يسيلُ إلىٰ جوفه ؛ فإذا الرجلُ قد فتحَ عينيه وتكلَّم ، وعادَ كما كان إلىٰ دُكَّانه) .

وكان رجلٌ يمشي ببغداد ؛ فبينما هو في الطريق . . إذا بدارٍ قد وقعتْ عليه ، فخَرَّتْ كالجبلِ العظيمِ ، وإذا في الحائط طاقةٌ فما أخطأتْ رأسَه ، فصارت الدارُ كَوْماً ، وخرجَ الرجلُ سالماً من الطاقةِ .

وحدَّثني أبو القاسمِ الحَضْرَمِيُّ قال : (كنتُ باليمن في أرض آلِ الصُّلَيحي ،

فوُشِيَ بي إلى السلطان ، فأمرَ بقتلي ، فأُخرِجْتُ وقُدِّمتُ للقتل ، فوَكَزني[(١)] السيَّافُ ، ثمَّ قال لي : مُدَّ رقبتَك ، فمدَدْتُ عُنقي لقضاء الله تعالىٰ ، فقال لي السيَّافُ : اشتَدَّ ، فقلت : دونك يا هٰذا ؛ فبينا نحنُ كذٰلك . . إذا بصارخٍ من داخل القصرِ : لا تَقتلُوه ، لا تَقتلُوه ، فَخُلِّيَ سبيلي) .

* * *

وجَرَتْ بقرطبة قِصَّةٌ غريبةٌ في أيامِ المنصور بن أبي عامر ؛ وذٰلك أنَّ رجلاً يُعرف بقاسم بن محمد السنبسي[(٢)] شُهِدَ عليه بالزَّندقة ، فحَبَسه المنصورُ مُدةً مع جماعة من الأدباء من وجوه قرطبة معروفين بالانهماك في الزندقة .

وكان يُنادىٰ عليهم في كلِّ جمعة يُوقفون إثْرَ صلاة الجمعة بباب الجامع الأعظم : من كانت عنده شهادةٌ فيهم . . فليؤدِّها ، فثبَتَ علىٰ قاسم عند القاضي سِجِلٌّ بشهاداتِ الشهود بأنواعِ مُنكَرةٍ تتضمَّنُ الزَّندقةَ والكُفرَ ، فطَلَعُوا إلى القصر ، وعُقِدَ مجلسٌ عظيم ، واستُشِيرَ الفقهاءُ فيه فأوجبوا قتلَه .

فاستُحضِرَ قاسمٌ فحضَرَ ، وحضرَ أبوه ، وحضرَ ابنان صغيران لقاسم ، ولَبِسُوا ثيابَ الحِداد ، وحَملَ أبوه معه نعشاً وحَمَّالين ، وجعلَ أبوه والصِّبيانُ يبكون علىٰ باب القصر ، وأُحضِرَ لضربِ عُنقِه سَيَّافٌ يُعرفُ بابن الجندي[(٣)] ، ودُفِعتْ إليه أسيافٌ من القصر ، فجعلَ يَرُوزُها ويَلمِسُ شِفارها[(٤)] ، وأبوه وابناه ينظرون .

وحضـرَ الفقيـهُ أبو عمر ابـن المَكْـوي الإشـبيليُّ علىٰ كُرهٍ منـه ، وكان يأبى الحضورَ ، فاستَفتَوْهُ ، فقال : يا هٰؤلاءِ ؛ إنَّ الدِّماءَ لا تُسـفَكُ إلا بالحقِّ

---

(١) في (أ) : (فركلني) وكتب تحتها : (فأمهلني) ، و(ب ، و) : (وتركني) .

(٢) في (أ) : (السبسبي) ، و(ب) : (الشمسي) ، و(ج) : (السبيسي) ، و(هـ) : (السنيسي) ، و(و) : (الشبليسي) ، و(ز) : (السيسبي) .

(٣) في (أ) : (الحبشي) ، و(ب ، و) : (الحسني) .

(٤) يَرُوزُها : يختبرُها ويجرِّبُها .

الواضح دون الشُّبه ، احسَبُوا قاسماً فَرُّوجاً ، بماذا تَذبحونَه ؟ فقال القاضي ابنُ الشرفي : بما ثبت عندي وأمعنتُ النظرَ فيه .

فقال الفقيه : أوقفني عليه ، فأخذَ السِّجِلَّ ونظرَ فيه ، فقال له : أخبِرْني بمن تقتلُه من هٰؤلاء الشهود ؟ قال : بهٰذا وهٰذا ، حتىٰ عَدَّ خمسةً ، فقال الفقيه : فبجميعهم تقتلُه ؟ قال : نعم ، قال : فلو شَهِدَ منهم اثنان خاصةً . . أكنتَ تقتلُه ؟ قال : لا ، إنَّما قوَّىٰ بعضُهم بعضاً ، وزُكِّيَ أكثرُهم عندي .

فالتفتَ الفقيهُ إلى الفقهاء المُشاوَرِين فقال : يا هٰؤلاءِ ؛ بالدَّعائمِ يُقتلُ المسلمون عندكم وتُسفَكُ دِماؤُهم ؟! فلستُ أرىٰ قتلَه ولا أُشِيرُ به .

فرَجَعَ الفقهاءُ إلىٰ قوله ولم يَرَوْا عليه شيئاً بَعدَما أَفتَوْا بقتله منذُ ستةِ أشهرٍ ، فانفَضَّ الجَمعُ ، وأُغمِدَ السيفُ ، وطارَ البشيرُ إلى ابن أبي عامر فأخبرَه بالمجلس ، فقالَ ابنُ أبي عامرٍ : مَضَيتُم تَقتلُون ابنَ السنبسي [1] ، فقالَ القاضي : قد اجتهدْنا للدِّين ، ولا قَاتِلَ لِمُؤجَّلٍ .

فحُبِسَ أيَّاماً ثم أُطلِقَ ، فكانَ ابنُ ذكوانَ الفقيهُ يقولُ للقاضي في مثل هٰذا إذا سُئِلَ : بِمَ عرفتَ اللهَ ؟ قال : بنقضِه عزائمي .

ومعنى الدَّعائم علىٰ لسان الفقيه : هم الشُّهودُ الذين لو انفردَ منهم اثنان . . لم يَثبُت الحُكمُ ولا قُبِلا فيه ، فإذا كَثروا . . قَوَّىٰ بعضهم بعضاً ، فيثبتُ الحُكمُ بهم .

* * *

وفي نقيض هٰذا : حَدَّثني القاضي أبو مروان الدَّاني بطُرطُوشةَ وقد وَلِيَ قضاءَها ، فتذاكرنا يوماً فقال : (نَزلَتْ قافلةٌ بقريةٍ خَرِبةٍ من أعمال دَانِيةَ ، فأَوَوْا إلىٰ دارٍ خَرابٍ هناك ؛ ليستكنُّوا من الرِّياح والأمطار ، واستوقَدُوا نارَهم ، وسَوَّوْا

---

(١) في (أ) : (السيسي) ، و(ب) : (الشبلي) ، و(ج) : (السبسبي) ، و(و) : (الشبليشي) .

معيشتَهم ، وفي تلك الخَرِبةِ حائطٌ مائلٌ قد أشرفَ على الوقوع ، فقال رجلٌ منهم لأهل القافلةِ : يا هٰؤلاءِ ؛ لا تَقعُدُوا تحتَ هٰذا الحائطِ ولا تدخلوا هٰذه البُقعة ، فأَبَوْا إلا دخولَها ، وباتَ الرجلُ مُنتَبِذاً خارجاً عنهم (١) ، لم يَقرَبْ ذٰلك المكانَ .

ثمَّ أصبحوا في عافيةٍ ، وحَمَّلوا دوابَّهم ؛ فبينما هُم كذٰلك . . إذ دخلَ الرجلُ الخَرِبةَ ؛ لِيسخُنَ ببقية النار ، فخرَّ عليه الحائطُ ، فماتَ مكانَه) .

وبلغني عن بعض الفقهاء أنَّ جيشاً من الجيوش كان بصِقِلِّيَّة ناهضاً من مكان إلىٰ مكان ، فقعدوا ساعة لبعض شأنهم (٢) ؛ فإذا عقربٌ تَدِبُّ ، فضَرَبَها بعضُ الأجناد بمِقْرَعةٍ كانت معه ، ثمَّ شالَ المِقْرَعةَ إلىٰ نحو عُنقه ؛ فإذا بالعقرب قد تَشبَّثتْ بأهدابِ المِقْرَعةِ وهو لا يشعرُ ، فلَدَغَتْه في عُنقه ، فقضىٰ مكانَه .

وأخبرني القاضي أبو الوليد الباجيُّ رحمه الله عن أبي ذَرٍّ قال : (كنتُ أقرأُ الحديثَ على الشيخ أبي حفصٍ عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد في حانوتِ رجلٍ يبيعُ العِطرَ ؛ فبينا أنا جالسٌ معه في الحانوت . . إذ جاءه رجلٌ من الطَّوَّافِين ممَّنْ يَبيعُ العِطرَ في طَبَقٍ يَحمِلُه علىٰ يدِه ، فأعطاه عَشَرةَ دراهم وقال له : ادفعْ إليَّ أشياءَ ، سمَّاها له من العِطر ، فأخذَها في طَبَقِه ومشىٰ ، فسقطَ الطَّبقُ من يده وتفرَّقَ جميعُ ما كان فيه ، فبكى الطَّوَّافُ وجَزِعَ حتىٰ رَحِمناه .

فقال أبو حفص لصاحب الحانوت : لعلَّك تَجبُرُ له بعضَ هٰذه الأشياء ، فقال : نعم ، فنزلَ وجمعَ ما يُجمَعُ منها ، وجَبَرَ له ما نَقصَ ، وأقبل الشيخ على الطَّوَّافِ يُصبِّرُه ويقولُ له : لا تَجزَعْ ، فأمرُ الدنيا أيسرُ من ذٰلك .

فقال له الطَّوَّافُ : أتظنُّ أيُّها الشيخُ أنَّ جزعي لضياعِ ما ضاعَ مِنِّي ؟ لقد

---

(١) مُنتبذاً : متخذاً مكاناً بعيداً عن القوم ومنعزلاً عنهم .

(٢) في (ج ، د ، هـ) : (فقعدوا ساعةً في انتظار أحدهم) .

عَلِمَ اللهُ تعالىٰ مِنّي أنّي كنتُ في القافلة الفُلانية فضاعَ لي هِمْيَانٌ فيه أربعُ مئةِ دينارٍ[1] ـ أو أربعةُ آلافِ دينارٍ ، الشكُّ من أبي ذَرٍّ ـ ومعها فُصوصٌ قيمتُها مثلُ ذٰلك ، فما جَزِعْتُ لضياعها ، ولٰكن وُلِدَ لي الليلةَ مولودٌ فاحتجتُ في البيت إلىٰ ما تحتاجُ النُّفَساءُ إليه ، ولم يكن عندي غيرُ هٰذه العَشَرةِ الدراهم ، فأشفقتُ أنْ أشتريَ بها حوائجَ النُّفَساءِ فأبقىٰ بغير رأس مال ، ولا أقدِرُ على التَّكسُّب ، فقلتُ في نفسي : أشتري بها شيئاً وأطوفُ به صدرَ نهاري ، فعسىٰ أستفضلُ منه شيئاً أسُدُّ به رَمَقَ أهلي ، ويبقىٰ رأسُ المالِ أتصرَّفُ فيه .

فلمَّا قدَّرَ اللهُ تعالىٰ بضياعه . . جزعتُ فقلت : لا عندي ما أرجِعُ به إليهم ولا ما أكتسب به ، وعلمتُ أنَّه لم يبقَ لي إلا الفرارُ منهم وتركُهم علىٰ هٰذه الحالِ يَهلِكُون بعدي ، فهٰذا الذي أوجبَ جزعي .

قال الشيخُ أبو ذَرٍّ : وكان رجلٌ من شيوخ الجُند جالساً علىٰ بابِ دارِه يستوعبُ الحديثَ ، فقال للشيخ أبي حفص : أنا أرغبُ إذا تمَّمتُم أمرَه أن تدخلوا معه عندي ، وقام ودخلَ فظَنَنَّا أنَّه يريدُ أن يُعطِيَه شيئاً ، قال : فدخلنا معه ، فأذِن لنا ، فقال الجنديُّ للطَّوَّاف : عَجِبتُ من جَزَعك ، فأعادَ عليه القصة ، فقال الجندي : وكنتَ في تلك القافلة ؟ قال : نعم ، وكان بها من أعلام الناس فلانٌ وفلانٌ ، فعَلِمَ الجنديُّ صحةَ قولِه ، فقال له : وما علامةُ الهِمْيَانِ ؟ وفي أيِّ موضعٍ سقطَ منك ؟ فوصفَ له المكانَ والعلامةَ ، فقال له الجندي : لو رأيتَه . . كنتَ تعرفُه ؟ قال : نعم .

فأخرجَ الجنديُّ هِمْياناً ووضعَه بين يديه ، فقال الطَّوَّافُ : هٰذا هِمْيَاني ، وعلامةُ صحةِ قولي : أنَّ فيه من الأحجار ما صِفتُه كذا وكذا ، ففتَح الهِمْيَانَ فوجدَ الأحجارَ علىٰ ما ذَكَر ، فقال الجندي : خُذْ مالَك باركَ اللهُ لك فيه ، فقالَ الطَّوَّافُ : هٰذه الأحجارُ قيمتُها مثلُ الدنانير أو أكثر ، فخذْ أنت الدنانيرَ ،

---

(١) هِمْيَان : كيس للنفقة يُشَدُّ في الوسط .

فنفسي طيبةٌ بذٰلك ، فقال الجندي : لا ، ما كنتُ لآخذَ علىٰ أمانتي شيئاً ، فدخلَ الطَّوَّافُ وهو من الفقراء ، وخرجَ وهو من الأغنياء .

فبكى الجنديُّ بكاء شديداً وانتحب ، فقال له أبو حفص : علامَ تبكي وقد أدَّى اللهُ تعالىٰ أمانتَك ، وقد بذلَ لك مالاً كثيراً ؟! وإن شئت . . عرضنا عليه أن يُعيدَه عليك ، فقال : ما أبكي لذٰلك ، وإنما أبكي ؛ لأنِّي أعلمُ أنَّه قد حانَ أجلي ، فإنَّه ما كان بقيَ لي أَمَلٌ عند الله تعالىٰ أُؤمِّلُه ولا أُمنِيةٌ أتمنَّاها إلا أن يأتيَني اللهُ تعالىٰ بصاحب هٰذا الهِمْيَانِ فيأخذَ مالَه ، فلمَّا قضى اللهُ سبحانه ذٰلك بمَنِّه وفضله ولم يبقَ لي أَمَلٌ . . علمتُ أنه قد حانَ أجلي ، قال الشيخُ أبو ذَرٍّ : فما انقضىٰ شهرٌ حتىٰ توفِّي وصلَّينا عليه ، رحمه الله تعالىٰ) .

* * *

قال القاضي[١] : وحدثني أبو القاسم بن حسن[٢] بالمَوصِل قال : (لقد جَرَتْ هٰهنا في هٰذا المسجدِ وهٰذه الدارِ والحانوتِ ـ وأشارَ إليهما ـ قصةٌ عجيبةٌ ؛ كان يسكنُ هٰذه الدارَ رجلٌ من التُّجَّار مِمَّن يسافرُ إلى الكوفة في تجارة الخَزِّ[٣] ، فبينا هو يحمِلُ الخَزَّ علىٰ حماره في الخُرج ، وهو جميعُ ماله . . إذ نزلتِ القافلةُ ، فأرادَ إنزالَه عن الحمار فثقلَ عليه ، فأمرَ إنساناً هناك فأعانَه علىٰ إنزاله ، ثمَّ جلسَ يأكلُ ، فاستدعىٰ ذٰلك الرجلَ ليأكلَ معه ، فأجابه وأكلَ معه .

ثمَّ سألَه عن أمرِه ، فأخبرَه أنَّه رجلٌ خرجَ من الكوفة لأمرٍ أزعجَه دون زادٍ ، فقال الرجل : تكونُ رفيقي ، وتُعينُني علىٰ سفري ، ويكونُ طعامُك معي ، فقال الرجل : إني حريصٌ علىٰ خدمتك ، ومحتاجٌ إلىٰ طعامك .

---

(١) هو أبو الوليد الباجي شيخ المؤلف ، تقدم ذكره (ص ٨٤ ، ٥٦٧) .
(٢) في (أ) : (أبو القاسم بن حسني) ، و(د) : (. . . بن حبيس) ، و(هـ) : (. . . بن حبيش) .
(٣) الخَزُّ من الثياب : ما يُنسج من صوف وإبريسَم ، وما يُنسج من إبريسَم خالص .

فسارَ معه في طريقه يخدُمُه علىٰ أحسنِ حالٍ إلىٰ أن وصلا تَكريتَ ، فنزلتِ الرِّفقةُ[1] خارجَ المدينة ، ودخلَ الناسُ لقضاء حوائجهم ، فقال الرجل للخادم[2] : احفظ رَحلَنا حتَّىٰ أدخلَ وأشتريَ حاجتَنا ، ثمَّ دخل وقضىٰ حوائجه ، فأبطأَ هناك ، ثمَّ خرجَ فلم يجد الرِّفقَة ولا وجدَ صاحبَه ، فظنَّ أنه لما رحلتِ الرِّفقةُ . . رحلَ معها ، فلم يزل يسعىٰ حتىٰ وصل إلى الرِّفقةِ بعد الجَهْد ، فسألَهم عن صاحبه ، فقالوا : ما جاءَ معنا ولا رأيناه ، ولٰكنَّه ارتحلَ الأسبابَ على الحمارِ ودخل المدينةَ علىٰ إثرِك ، فظننَّا أنَّك أمرتَه بذٰلك .

فكرَّ الرجلُ راجعاً إلىٰ تَكريت وسألَ عنه فلم يجد له أَثراً ، ولا سَمِعَ له خبراً ، فَيئِسَ منه ، وسارَ إلى المَوْصِلِ مسلوبَ المال ، فوافاها نهاراً جائعاً عُرياناً فقيراً مجهوداً ، فاستحيا أن يدخلَ نهاراً فيشمَتَ به العدوُّ ويَحزنَ له الصديقُ ، فبقيَ حتىٰ أمسىٰ ، ثمَّ دخل فدقَّ بابَ الدار ، فقيل : من هٰذا ؟ فقال : أنا فلانٌ ـ يعني نفسَه ـ فأظهروا سروراً عظيماً وحاجةً إليه وقالوا : الحمدُ لله الذي جاءَ بك في هٰذا الوقت علىٰ ما نحن فيه من الضرورة والحاجة والفاقة ، حملتَ جميع مالك ، وطالَ سفرُك ، واحتاج أهلُك ، وقد ولدت اليوم ولداً ، وواللهِ ؛ ما وجدنا ما نشتري به شيئاً للنُّفَساء ، ولقد كانت هٰذه الليلةَ طاويةً علىٰ حالها ، فتحيَّلْ لنا في دقيقٍ ودُهنٍ . . نُسرِجْ به ، فلا سِراجَ عندنا .

فزاده ذٰلك غَمّاً ، فكَرِهَ أن يُخبِرَهم بحاله فيحزنَهم ، فأخذَ وعاءَ الزيتِ وجرابَ الدقيقِ وخرجَ إلىٰ هٰذا الحانوت ، وكان فيه رجلٌ يبيعُ الدقيقَ والزيتَ والعسلَ ونحوَه ، فوجده قد أغلقَ دُكَّانَه وأطفأَ مصباحَه ونامَ ، فناداه فأجابَه وعَرَفَه ، وشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ سلامته .

فقال التاجرُ لصاحب الحانوت : اقدَحْ زِناداً . . أَزِنْ لك دراهمَ في دقيقٍ

---

(١) في (ب ، و) : (القافلة) .

(٢) في (ج ، د ، هـ) : (لذٰلك الخادم) .

وزيتٍ وعسلٍ احتجتُ إليه الساعةَ ، وكَرِهَ أن يُخبرَه بتأخير الثمن فيمتنعَ منه ، فقدحَ البَيَّاعُ الزِّنادَ واستصبحَ [١] ، فقال له التاجرُ : زِنْ لي من الدقيق [٢] كذا ، ومن الزيت كذا ، ومن العسل كذا ، ومن السَّمن كذا ، ومن الملح [٣] كذا ، ومن الحطب كذا ما يَرتُق به الحال في تلك الليلة [٤] .

فبينما هو كذلك . . إذ حانت منه التفاتةٌ إلىٰ قَعر الحانوت ، فرأىٰ فيه خُرْجَه الذي هربَ به صاحبُه ، فلم يملِك أنْ وثبَ عليه والتزمَه وألقىٰ يدَه في أطواق صاحبِ الحانوتِ وجذَبه إلىٰ نفسه وقال : يا عدوَّ اللهِ ؛ أين مالي ؟ فقال له صاحب الحانوت : ما لكَ يا فلان ؟! فوَاللهِ ؛ ما علمتُكَ مُتعدِّياً ، ولا عَلِمتَني جَنَيتُ عليك ولا علىٰ سِواك ، فما هـٰذا ؟!

قال : خُرْجي فَرَّ به خادمٌ لي خَدَمني بجميع مالي وبحماري ، قال : ما لي عِلمٌ غيرَ أنَّ رجلاً وردَ عليَّ بعد العِشاء واشترىٰ منِّي عَشاءَه ومضىٰ إلى المسجد ، واستضافني فأَضفتُه ، وجعلتُ هـٰذا الخُرْجَ [٥] في حانوتي وهـٰذا الحمارَ في دارِ جارِنا [٦] ، والرجلُ في المسجد بائتٌ ، فقال له : احمِلْ معي الخُرْجَ وامضِ معي إلى الرجل ، فرفعَ الخُرْجَ معه وألقاه علىٰ عاتقه ، ومشىٰ معه إلى المسجد ؛ فإذا الرجلُ نائمٌ في المسجدِ ، فَرَفَسَه برجله ، فقام الرجل مذعوراً ، فقال له : ما لك ؟ فقال : أين مالي يا خائن ؟ قال : هو ذا علىٰ عنقك ، واللهِ ؛ ما تَغادرَ منه ذَرَّةٌ ، فقال : فأين الحمارُ وآلتُه ؟ قال : هو عند هـٰذا الجائي معك .

---

(١) استصبحَ : أوقدَ المصباحَ .
(٢) في (أ) : (من الدبس) .
(٣) في (أ) : (الملح والحنطة) .
(٤) يَرتُق : يصلح .
(٥) في (ج ، د ، هـ) : (وأعطاني هـٰذا الخُرج فجعلته . . .) .
(٦) زيد في (ج) : (الرجل) .

فنهض إلىٰ داره فوجدَ متاعَه سليماً ، واستخرجَ الحمارَ من الموضعِ الذي كان فيه ، ووسَّعَ علىٰ أهلهِ في النفقة وأخبرَهم بقِصته ، فزادَ أهلَه سروراً وفرحاً ، وتبرَّكوا بذٰلك المولود) .

ولمَّا وَفَىٰ موسىٰ عليه السلام لصهرِه شعيبٍ النبيّ عليه السلام الأجلَ الذي أجَّلَاه لرعيِ غنمِ شعيبٍ التي رعاها موسىٰ عليه السلام عوضاً عن مهر ابنته . . أخذَ موسىٰ عليه السلام زوجتَه وكرَّ راجعاً من مدينَ .

فلمَّا وافى الواديَ المقدَّسَ عند جانب الطُّورِ . . أَجنَّهم الليلُ بظُلمته ، فأمسَوْا بائِتِينَ ، فبينما هم كذٰلك . . إذ ضربَ زوجتَه الطَّلْقُ وكانت حاملاً ، وليس عندهم ما تحتاجُ إليه النُّفَساءُ من الغذاء والدواء وما يَصلُحُ به شأنُهم ، فبَقُوا في ضِيقٍ من الحالِ وقِلَّةٍ من الحيلة .

فخرجَ موسىٰ عليه السلام يلتفتُ وينظرُ يميناً وشِمالاً عسىٰ فَرَجٌ لِمَا أمسَوْا فيه من الضُّرِّ ؛ إذ رأىٰ ناراً ، فقال لأهله : امكثوا ؛ إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدىً ، فلما أتاها أضيقَ ما يكونُ ذَرْعاً ، وأحرجَه قلباً ، وأيئَسَه من رَفَقٍ [١] . . نودي من شاطئ الوادي الأيمن : يا موسىٰ ؛ إني أنا ربك [٢] .

وهٰذه لطائفُ الحقِّ سبحانه مع من سَلَّم لأمرِه ، ورجا فضلَه ، وتكلَّم بالهُدىٰ والبُشرىٰ ، يفسَحُ اللهُ له أَمَلَه ، ويُعطيه فوق ما سأَلَه .

هٰذا موسىٰ عليه السلام خرجَ يقتبسُ ناراً ؛ نُودِيَ بالنُّبوة .

وعن هٰذا قال علماؤنا : (ليس في خصال الخير وإن جَلَّتْ ، ولا في أنواع الأعمال وإن عظمت . . أعلىٰ من حُسن الظن بالله تعالىٰ) .

---

(١) رفق : سهل .

(٢) انظر « تفسير البغوي » (٣/٤٤٤) ، و« الدر المنثور » (٦/٤١١ ـ ٤١٢) .

ونظمه بعضُ الشعراء فقال[1] : [من الخفيف]

أَيُّهَا ٱلْعَبْدُ كُنْ لِمَا لَسْتَ تَرْجُو ... مِنْ نَجَاحٍ أَرْجَىٰ لِمَا أَنْتَ رَاجِ

إِنَّ مُوسَىٰ مَضَىٰ لِيَقْبِسَ نَاراً ... مِنْ ضِيَاءٍ رَآهُ وَٱللَّيْلُ دَاجِ

فَأَتَىٰ أَهْلَهُ وَقَدْ كَلَّمَ اللهَ ... وَنَاجَاهُ وَهْوَ خَيْرُ مُنَاجِ

وَكَذَا ٱلْكَرْبُ كُلَّمَا ٱشْتَدَّ بِٱلْعَبْـ ... ـدِ دَنَتْ مِنْهُ سَاعَةُ ٱلْإِنْفِرَاجِ

ولمَّا نزلت سفنُ العدوِّ بساحلِ إفريقيَّةَ في عدد كثيرٍ . . نَفِدَ ماؤُهم وعَطِشُوا ، وهَمُّوا بالهلاك فنَفَرَ المسلمون لهم في خَلقٍ عظيمٍ من تلك السواحل والحصون ، فمنعوهم النزولَ لاستسقاء الماء ، وسألوا المسلمين أن يُخلُّوهم واستسقاءَ الماءِ فأبَوْا .

فتضاعفَ عَطَشُهم حتىٰ أيقنوا بالهلاك ، ففتحوا أناجيلَهم وأخذُوا في الدعاءِ والاستسقاءِ إلى الله تعالىٰ والتضرُّعِ إليه ، فلم يكن بأوشكَ من أنَّ السماءَ ألقت بأرواقها ، وأرخَتْ ماءً كثيراً ، فبَسطَ القومُ أنطاعَهم وجِفانَهم وآلاتِهم ، فشربُوا وملؤُوا أوانيَهم .

فضجَّ المسلمون عند ذٰلك وقالوا : هٰؤلاءِ كفارٌ أعداءُ اللهِ تعالىٰ ورسولهِ قد أخلَصُوا إلىٰ ربهم وأنابوا إليه وسألوه ما يُحيُون به رَمَقَهم فأجابَهم وأغاثهم ، فنحنُ أحقُّ بالدعاءِ والتضرُّعِ إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وأولىٰ بالإجابة منهم .

ثم أخذَ المسلمون في الدعاءِ والصلاةِ والابتهالِ إلى الله تعالىٰ في أن يُريَهم آيةً يَقوىٰ بها قلوبُ الضعفاء ، ويتزايدُ شكرُ أهلِ المعرفةِ والأولياءِ ، فبينما هم كذٰلك . . إذ أرسلَ اللهُ تعالىٰ عليهم ريحاً فبدَّدَتْهم ومزَّقَتْهم كلَّ ممزَّقٍ ، وكَسَّرت مراكبَهم ، ولم يجتمع منهم اثنان .

ومن عجائب صُنع الله تعالىٰ في هٰذا البابِ : أنَّ رجلاً من ديارِ بكرٍ جاءَ إلىٰ

---

(١) روى الأبيات في « تاريخ دمشق » (٥٦/٦١) ، وأوردها في « بهجة المجالس » (١٧٨/١) .

بيت المقدس وزارَ قبرَ الخليل صلى الله عليه وسلم ، وأكلَ من ضيافته ، فطارت حبةُ عَدَسٍ من ذلك الطعامِ إلىٰ خيشومه ، ورام خروجَها بكلِّ حيلةٍ فأعجزته حتىٰ تركته مُضنىً ، ثمَّ رَجَعَ إلىٰ بلاده ، فبينما هو جالسٌ . . إذ عَطَسَ ، فطارت العَدَسةُ في الأرض ؛ فإذا طائرٌ قد التقطَها لوقتها وبَرِئَ الرجلُ .

فسبحانَ من جعلَ أنفَ هـٰذا الرجل حِرْزاً لِقُوتِ هـٰذا الطائرِ علىٰ بُعدِ الشُّقَّة وطول المسافة !

وأمَّا أنا . . فلمَّا هَمَمْتُ بالرحيل من بلدي إلى المشرق في طلب العلم . . كنت لا أعرفُ التجارةَ ، ولا لي حرفةٌ أرجِعُ إليها ، فجَزِعْتُ من الخروج ، وكنتُ أقولُ : إنْ ذهبتْ نَفَقتي . . ماذا أفعلُ ؟

وكان أقوى الآمالِ في نفسي : أنْ أحفظَ البساتينَ بالأُجرة ، وأدرسَ العلم بالليل ، ثمَّ استخرتُ الله سبحانه وتعالىٰ ورحلتُ .

وكانت معي نفقةٌ وافرةٌ في هِمْيَانٍ علىٰ وَسَطي ، وكنتُ أسمعُ المسافرين يقولون : من نامَ بالليل في الفيافي وله نفقةٌ علىٰ وسطه . . فَلْيَحُلَّها ؛ فإنَّ اللصوصَ إذا كاثرتِ الخَلْقَ (١) . . يبتدرون أوساطَهم .

فخرجتُ من بلاد السُّويديَّةِ إلىٰ أنطاكيَةَ ، وهي إذ ذاك خرابٌ للروم (٢) ، فسِرنا ليلتَنا وأصبحنا علىٰ بابِ أنطاكيَةَ ، فأخذتني عيني وحَلَلْتُ الهِمْيَانَ (٣) ونمتُ ، ولم أستيقظْ إلا ضحوةَ نهار ، فاستيقظتُ ومَددتُ يدي إلى الهِمْيَان فلم أجده .

فجعلتُ أنظر إلى القافلة وألتفِتُ إلىٰ وجوه الناس وقد سُقِطَ في يَدِي ، ولم

---

(١) كاثرت : غالبت .

(٢) فوق كلمة (خراب) في (أ) : (حرث) ، وفي الهامش : (حرباً) ، وفي (ب) : (خرباً) ، وفي بقية النسخ : (حرب) .

(٣) في (ب) : (فحللت الهميان فجعلته تحتي . . .) .

يبقَ لي حيلةٌ ، فاسترجعتُ ورفعتُ أمري إلى الله تعالىٰ ؛ وإذا رجلٌ من أهل القافلة يلتفتُ إليَّ ، فوقَعَ وجهه في وجهي ؛ فإذا هو يضحكُ لِما رأىٰ ما بي ، فقال : ما لكَ أيُّها الفقيهُ ؟ قلت : خيرٌ ، فراجَعَني ، فقلت : خيرٌ .

فقام إليَّ وقال : خُذْ هِمْيَانَكَ عافاك اللهُ ، فسألتُه : كيف ظَفِرْتَ به ؟ فقال : رأيتُك قد تدحرجتَ ذراعين أو ثلاثةً ، والتفتُّ فرأيتُ سواداً في الموضع الذي كنتَ فيه نائماً ، فسِرتُ إليه فأخذتُه ؛ فإذا هو الهِمْيَانُ ، رحمةُ اللهِ عليه ورضوانُه .

* * *

الباب الستون
في الشجاعة وثمراتها

وهٰذه الخَصلة هي أمُّ الخصال وينبوعُ الفضائل ، ومن فَقدَها . . لم تكمُل فيه فضيلة ، ويُعبَّرُ عنها بالصبر وقوةِ النفس .

قالت الحكماء : (وأصلُ الخيرات كلِّها : في ثبات القلب)[1] ، ومنها تُستمدُّ جميعُ الفضائلِ ، وهو الثبوتُ والقوةُ علىٰ ما يُوجِبُه العدلُ والعلمُ .

والجبنُ : غريزةٌ يجمعُها سوءُ الظن بالله تعالىٰ ، والشجاعةُ : حالةٌ متوسطةٌ بين الجبن والتهوُّر .

سُئِلَ الأحنف عن الشجاعة ، فقال : (صبرُ ساعة)[2] .

وسُئِلَ أبو جهل عن الشجاعة ، فقال : (الصبرُ علىٰ حَرِّ السيوف فَواقَ ناقة) ، وهو ما بين الحَلْبتين .

واعلم : أنَّ الفارَّ من القتال طريدةٌ من طرائد الموت ، واستقبالُ الموتِ خيرٌ من استدباره .

وقد قال بعض الحكماء : (رُبَّ حياةٍ سَببُها التعرُّضُ للوفاة ، ورُبَّ وفاةٍ سَببُها طلبُ الحياة ، ومن حَرَصَ على الموتِ في الجهاد . . وُهِبَتْ له الحياةُ)[3] .

---

(١) أورده في « لطائف الإشارات » (٦٢٨/١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصبر » (٥٠) من قول البطال .

(٣) أورده إلىٰ قوله : (طلب الحياة) في « التعازي والمراثي » (ص ٩٧) من قول سيدنا علي رضي الله عنه ، و« العقد الفريد » (١٠٠/١) دون نسبة ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦٧١) من قول أكثم بن صيفي ، وروى الباقي بنحوه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦٧١/م) من قول سيدنا أبي بكر ←

وقالوا : (الهزيمةُ شَفرةٌ من شِفار الموت ، والفارُّ يُمكِّنُ من نفسه ، والمقاتلُ يَدفعُ عن نفسه) .

وقالوا : (ثمرةُ الشجاعة : الأمنُ من العدو)[١] .

واعلم : أنَّ من قُتِلَ في الحروب مُدبراً أكثرُ ممَّن قُتِلَ مُقبلاً .

وقالوا : (تأخيرُ الأجل حصنُ المُحارِبِ)[٢] .

وقيل لبعضهم : (في أيِّ جُنَّةٍ تحبُّ أن تَلقىٰ عدوَّك ؟ قال : في أَجَلٍ متأخرٍ)[٣] .

وقيل لآخر : (في أيِّ سلاحٍ تشتهي أنْ تَلقىٰ عدوَّك ؟ قال : بإدبارِ دولته ، وانقضاءِ مُدته) .

واعلم : أنَّ الشجاعةَ لمن كانت له الدولةُ ، وإذا انقضت المُدَّةُ . . لم تُغنِ كثرةُ العُدَّةِ .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (إذا انقضت المُدَّةُ . . كانت الهَلَكَةُ في الحيلة) .

واعلم : أنَّ كلَّ كريهةٍ تُدفع أو مكرمةٍ تُكتسبُ لا تتحققُ إلا بالشجاعة ؛ ألا ترىٰ أنك إذا هَممتَ أن تَمنحَ أحداً شيئاً من مالك . . خارَ طبعُك ، ووَهَنَ قلبُك ، وعَجَزَتْ نفسُك ، فشَحَحْتَ به ، وإذا حققتَ عزمَك ، وقوَّيتَ نفسَك ، وقهرتَ ذٰلك العَجزَ . . أخرجت المالَ المضنونَ به .

← مخاطباً سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنهما .

(١) أورده في « بدائع السلك » (١/٤١٠) .

(٢) أورده في « بدائع السلك » (١/٤١٠) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٢٨) ، و« العقد الفريد » (١/١٠٤) من قول عبَّاد بن الحُصين .

وعلىٰ قدر قوةِ القلب وضعفهِ تكونُ طِيبةُ النَّفْسِ بإخراجه ، أو كراهيةُ النَّفْسِ لإخراجه مع إخراجه ، وعلىٰ هـٰذا النَّمَطِ جميعُ الفضائل ، فمهما لم تقارنها قوة نفس . . لم تتحقق ، وكانت مخدوعة .

* * *

وروي أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « اَلشَّجَاعَةُ وَٱلْجُبْنُ غَرَائِزُ يَضَعُهَا ٱللهُ تَعَالَىٰ فِيمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ؛ فَٱلْجَبَانُ يَفِرُّ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَٱلشُّجَاعُ يُقَاتِلُ عَمَّنْ لَا يَؤُوبُ بِهِ إِلَىٰ رَحْلِهِ »[1] .

فبقوةِ القلبِ يصابر امتثال الأوامر والانتهاء عن الزواجر ، وبقوةِ القلبِ يصابر اكتساب الفضائل .

وبقوةِ القلبِ ينتهي عن اتباعِ الهوىٰ والتلطُّخ بالرذائل .

قال الشاعر[2] : [من الكامل]

جَمَعَ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلْخُضُوعَ لِرَبِّهِ ... مَا أَحْسَنَ ٱلْمِحْرَابَ فِي ٱلْمِحْرَابِ

وبقوةِ القلبِ يصبرُ الجليسُ علىٰ إيذاء الجليسِ وجفاءِ الصاحبِ ، وبقوةِ القلبِ يكتمُ الأسرارَ ويدفع العار ، وبقوةِ القلبِ يقتحمُ الأمورَ الصِّعابَ .

وبقوةِ القلبِ يتحمَّلُ أثقالَ المكارهِ ، وبقوةِ القلبِ يصبرُ علىٰ أخلاقِ الرجال ، وبقوةِ القلبِ تُنَفَّذُ كُلُّ عزيمةٍ ورَوِيَّةٍ أوجبَها الحزمُ والعدلُ والعقلُ .

وبقوةِ القلب يضحكُ الرجالُ في وجوهِ الرجالِ وقلوبُها مشحونةٌ بالضغائن والأحقادِ ، كما قال أبو ذر رضي الله عنه : (إنَّا لَنَكشِرُ في وجوه أقوام وإنَّ قلوبَنا لَتلعَنُهم)[3] .

---

(١) رواه بنحوه سعيد بن منصور في « سننه » (٦٤٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٩٨٦٨) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً .

(٢) البيت لابن حَيُّوس في « ديوانه » (١/٩٩) .

(٣) تقدم تخريجه (ص ٥٠٢) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (إنَّا لنصافحُ أَكُفّاً نَرىٰ قطعَها)[١] .

وليس الصبرُ والشجاعةُ وقوةُ النفس أن تكون مُصِرّاً في المِحال[٢] ، لَجُوجاً في الباطل ، ولا أن تكون جَلْداً عند الضرب ، صبوراً على التعب ، مُصمِّماً على التعزير والتهور ؛ فإنَّ هـٰذه صفةُ الحمير والخنازير .

ولـٰكنْ أن تكون صبوراً علىٰ أداء الحقوق التي عليك ، صبوراً علىٰ سماعها وإلقائها إليك ، غالباً لهواك ، مالكاً لشهواتك ، ملتزماً للفضائل بجهدك ، عاملاً في ذٰلك على الحقيقة التي لا يحيلك عنها حياةٌ ولا موتٌ ، حتىٰ يكونَ عندك موتُك على الخيرِ الذي أشارَ به العلمُ وأوجبَه العدلُ خيراً من البقاء علىٰ ما أوجبه رفضُ العلمِ والعدلِ .

كما قال علي للحسين رضي الله عنهما : (يا بُني ؛ وما يُبالي أبوك لو أنَّ الخلقَ خالفوه إذا كان على الحق ، وهل الخيرُ كلُّه للمُحقِّ إلا بعد الموت ؟!)[٣] .

وعن هـٰذا قالت حكماء الهند : (إذا لم يكن للملك من نفسه معينٌ . . كان في جميع أموره ضعيفاً مخذولاً) .

❀ ❀ ❀

واعلم : أنَّ الجبنَ مَقتَلةٌ ، والحرصَ مَحرَمةٌ ، والعجزَ ذُلٌّ ، والجبنَ ضعفٌ .

والجبانُ يُعِينُ علىٰ نفسه ، يَفِرُّ عن أمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه[٤] .

والشجاعُ يحمي عمَّن لا يناسبُه ، ويقي مالَ الجارِ والرفيقِ بمُهجتهِ .

---

(١) سبق تخريجه (ص ٥٠١) .

(٢) المِحال : الكيد والمكر .

(٣) رواه بنحوه ضمن خبر طويل في « الأغاني » (٦٠٨٤/١٧) ، وهو بين سيدنا علي وأخيه عقيل رضي الله عنهما ، وانظر « البداية والنهاية » (٤٥٢/٧) .

(٤) زيد في (ج ، ز) : (واعلم : أن كل كريهة ما بين الحلبتين) .

والجبانُ يخاف من لا يُحِسُّ به ، والجبانُ حَتفُه من فوقه .

وقالوا : (الشجاعةُ عند اللقاء على ثلاثة أوجه :

أحدُها : رجل إذا التقى الجمعان ، وتقاربَ الزحفان ، واكتحلت الأحداقُ بالأحداق . . بَرز من الصفِّ إلى وسط المُعترك يَحملُ ويَكُرُّ وينادي : هل من مُبارز ؟

والثاني : إذا تناشبَ القومُ واختلطوا ، ولم يدرِ أحدٌ من أين يأتيه الموتُ . . يكونُ رابطَ الجَأْشِ ، ساكنَ القلب ، حاضرَ اللُّب ، لم يُخامره الدهشُ ، ولا خالطته الحَيرةُ ، فيتقلبُ بقلبِ القائمِ على نفسه المالكِ لأمره .

والثالث : إذا انهزم أصحابُه . . يَلزمُ السَّاقةَ [1] ، ويضربُ في وجوهِ القوم ، ويَحُولُ بينهم وبين عدوِّهم ، فيقوِّي قلوبَ أصحابه ، ويُرجِي الضعيفَ ، ويَمُدُّهم بالكلام الجميل ، ويُشجعُ نفوسهم ؛ فمن وقعَ . . أقامَه ، ومن وقفَ . . حَمَله ، ومن سقطَ عن فرسِه . . كشفَ عنه حتى ييئسَ العدوُّ منهم ، وهـٰذا أحمدُهم شجاعةً) [2] .

وعن هـٰذا قالوا : (المقاتلُ من وراء الفارين كالمستغفرِ من وراء الغافلين ، ومن أكرمِ الكرمِ : الدفاعُ عن الحريم) [3] .

وقالوا : (لكل واحد يومان لا بُدَّ له منهما : أحدهما : لا يَعجَلُ عليه ، والثاني : لا يُقصِّرُ عنه ؛ فما للجبان والفرار ؟!) [4] .

وكان شيوخ الجند يحكون في بلادنا قالوا : (دارت حربٌ بين المسلمين

---

(١) السَّاقة : مؤخر الجيش .

(٢) أورده في « بدائع السلك » (٤٠٩/١) ، و« المستطرف » (٥٦/٢) .

(٣) أورده في « المستطرف » (٥٧/٢) ، وقوله : (ومن أكرم الكرم . . .) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٤٦٥) بلفظ : (ومن كرم الكريم . . .) .

(٤) أورده في « بدائع السلك » (٤١٣/١) .

والكفار ، ثُمَّ افترقوا ، فوجدوا في المعترك قطعةً من بَيضةِ الحديد قدرَ الثُّلث بما حَوَتْه من الرأس ، فيقال : إنه لم يُرَ قَطُّ ضربةٌ أقوىٰ منها) .

وكان شيوخ الجند في بلدي طُرطُوشة يحكون أنهم خرجوا في أيام سيفِ المِلَّة في سَرِيَّةٍ إلىٰ بلاد العدو ، فبينما هم يسيرون .. إذ لقيتهم سريةٌ للروم يريدون مِنَّا ما نريد منهم .

قال : (وعرف بعضُهم بعضاً ، وكان في القوم صناديدُ الروم ، وفينا صناديدُ المسلمين الفرسان ، فتواقفنا ساعةً ، ثُمَّ شددنا وشدُّوا ، فالتقينا وتجالدنا ساعةً ، ثُمَّ منحَنا اللهُ تعالىٰ أكتافَهم ، فجعلناهم حصيداً كأنهم جُزُرٌ على الأوضام[١] .

وكان هناك بقربهم قِربةٌ فيها شيءٌ من الخمر[٢] ، فشربنا وسَكِرنا ، ثُمَّ اشتهينا شرائحَ اللحم ، فقمنا نقطِّعُ من لحومهم ونجعلُ على النار ، فأكلنا منها ، فَفزِعَ مَنْ كان أَسَرْناه منهم ، وبلغَ الحديثُ إلىٰ بلاد النصرانية ، فانقلبت النصرانية تعجُّباً منَّا وقُذِفَ الرعبُ في قلوبهم) .

ورُوي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لَقِيَ عمرَو بن معدي كَرِبَ ، فقال له : (يا عمرو ؛ أيُّ السلاح أفضلُ في الحرب ؟ فقال : عن أيِّها تسأل ؟ قال : ما تقولُ في السِّهام ؟ قال : منايا تُخطئُ وتصيبُ ، قال : فما تقولُ في الرُّمح ؟ قال : أخوك وربَّما خانك ، قال : فما تقول في التُّرْس ؟ قال : هو الدائرة ، وعليه تدورُ الدوائرُ ، قال : فما تقولُ في السيف ؟ قال : ذاك ذاك لا أُمَّ لك)[٣] .

وكان عَمرٌو هٰذا من شجعانِ العرب وأبطالِها ، نزلَ يومَ القادسية على النهر

---

(١) جُزُر : جمع جَزُور ، والأوضام : جمع وَضَم ؛ وهو كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو نحو ذٰلك ، يوقىٰ به من الأرض .

(٢) في (أ ، ز) : (قرية) بدل (قربة) ، وفي (د ، هـ) : (وكان عندهم شيء من الخمر) .

(٣) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (١/١٢٩ ـ ١٣٠) ، و« العقد الفريد » (١/١٧٩ ـ ١٨٠) .

فقال لأصحابه : (إني عابرٌ على الجسر ؛ فإن أسرعتُم مقدارَ جَزْرِ الجَزْور . . وجدتُموني وسيفي بيدي أقاتلُ به تِلقاءَ وجهي ، وقد غَفَرني القومُ وأنا قائمٌ بينهم(١) ، وإن أبطأتم . . وجدتموني قتيلاً بينهم .

ثم انغمسَ فحملَ على القوم ، فقال بعضُهم لبعض : يا بني زُبيد ؛ علامَ تَدَعُونَ صاحبَكم ؟! واللهِ ؛ ما أرىٰ أن تدركوه حياً ، فحملوا ، فانتَهَوْا إليه وقد صُرِعَ عن فرسه ، وقد أَخذَ برِجلِ فرسِ رجلٍ من العجم فأمسكَها ، وإنَّ الفارسَ ليَضربُه ، فما يَقدِرُ الفرسُ أن يتحرك .

فلمَّا غَشِيناه . . رمى الرجلُ بنفسِه ، وخلَّىٰ فرسَه ، فرَكِبَه عمرٌو وقال : أنا أبو ثَورٍ ، كِدْتم واللهِ تفقدونني ، قالوا : أين فرسُك ؟ قال : رُمِيَ بنُشَّابةٍ ، فعارَ وشبَّ فصَرَعَني)(٢) .

ويروىٰ أن عَمراً حَملَ يوم القادسية علىٰ رُستمَ ، وهو الذي قدَّمه يَزْدَجِرْدُ ملكُ الفُرس يومَ القادسية علىٰ قتال المسلمين ، فاستقبل عَمرٌو رُستُمَ علىٰ فيل ، فَجذَمَ عُرقوبيه ، فسقطَ رُستمُ وسقطَ الفيلُ عليه مع خُرْجٍ كان عليه ، فيه أربعون ألفَ دينارٍ ، فقُتل رُستمُ ، وانهزمت العَجَمُ(٣) .

ورُوي أنَّ قاتلَ رُستمَ : زُنيمُ بنُ فلان(٤) .

وأمَّا الضربةُ التي حكيناها التي حازت ثُلُثَ البَيضة بما حوته من الرأس(٥) . .

---

(١) غفرني القومُ : أحاطوا بي وستروني .

(٢) أورده في « الأغاني » (١٥/٥٥٣٥) ، وعَارَ : ذهب وانفلت .

(٣) أورده في « الأغاني » (١٥/٥٥٣٦) ، وعُرقوبيه : مثنىٰ عُرقوب ؛ وهو من الإنسان : وتَرٌ غليظ فوق عقبه ، ومن الدابة : ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها ، وكل ذي أربع عرقوباه في رجليه وركبتاه في يديه .

(٤) روى الطبري في « تاريخه » (٣/٥٦٤) أنَّ الذي قَتله : هلالُ بنُ عُلَّفة .

(٥) تقدم في الصفحة السالفة .

فلم يُسمَع بمثلها في جاهلية ولا إسلام ، فحَمَلَتْها الرومُ وعلَّقَتْها في كنيسة لهم ، وكانوا إذا عُيِّرُوا بانهزامهم . . يقولون : لقينا أقواماً هـٰذا ضربُهم ، فيَرحَلُ أبطالُ الروم إليها لِيَرَوْها .

وإنما كانت العربُ تفخرُ في هـٰذا الباب بقول النَّمِرِ بن تَوْلَب يصفُ ضربةَ سيفٍ[1] : [من البسيط]

أَبْقَـى ٱلْحَـوَادِثُ وَٱلْأَيَّـامُ مِـنْ نَمِـرٍ ... أَسْـبَادَ سَـيْفٍ قَدِيـمٍ إِثْـرُهُ بَـادِي
تَظَـلُّ تَحْفِـرُ عَنْـهُ إِنْ ضَرَبْـتَ بِـهِ ... بَعْـدَ ٱلذِّرَاعَيْـنِ وَٱلقَيْدَيْـنِ وَٱلْهَـادِي

ويُنشدون قولَ النابغة في السيف أيضاً[2] : [من الطويل]

تَقُـدُّ ٱلسَّـلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَـفَ نَسْـجُهُ ... وَتُوقِـدُ بِٱلصُّفَّـاحِ نَـارَ ٱلْحُبَاحِـبِ

وأين هـٰذا من بَيْضة الحديد بما حواه من الرأس ، وأين الثُّريا من الثرىٰ ، وأين الحُسامُ من المِنجل ؟! ولولا كراهة التطويل . . لذكرنا من أمثال هـٰذا ما فيه العجبُ .

وقد قالوا : (السيفُ ظِلُّ الموت ، والسيفُ لُعابُ المنية ، والرمحُ رِشاءُ المَنِيَّة ، والسهامُ رسلٌ لا تؤامرُ من أرسلَها ، والرمحُ أخوك وربَّما خانَك ، والدِّرعُ مَشغلةٌ للراجل ، ومَتعبةٌ للفارس ، وإنها لحصنٌ حصين ، والتُّرس مِجَنٌّ ، وعليه تدورُ الدوائرُ)[3] .

❋ ❋ ❋

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص ٥٨) ، برواية : (والساقين والهادي) ، وأسباد : جمع سَبَد ؛ وهو البقية ، وإثرُه : إثرُ السيف ـ بكسر الهمزة وفتحها ـ : لمعانُه ورونقُه ، والهادي : العنق .

(٢) البيت في « ديوانه » (ص ٤٦) ، وتقدُّ : تقطع ، والسَّلُوقي : دروع منسوبة إلىٰ مكان تنسب إليه الدروع والكلاب ، والمضاعَف : الذي نُسِج حَلْقتين حَلْقتين ، وإنما خصَّه ؛ لأنه أشدُّ على السيوف ، والصُّفَّاح : حجارة عراض ، والحُباحب : دُوَيْبَّة تُضيء بالليل كالنار ، فضربها مثلاً لما ينقدح من الحجارة .

(٣) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (١/١٣١) ، و« العقد الفريد » (١/١٨٢) من قول أبي الأغرّ لابنه الأغرّ ، و« حلية الفرسان » (ص ٣٢٤) .

الباب الحادي والستون

في ذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها

ومن حَزمِ الملكِ : ألا يحتقرَ عَدُوَّه وإن كان ذليلاً ، ولا يَغفُلَ عنه وإن كان حقيراً ؛ فكم من بُرغوثٍ أسهرَ فِيلاً ، ومنعَ الرُّقادَ مَلِكاً جليلاً !

قال الشاعر(١) : [من المتقارب]

فَـــلَا تَحْقِـــرَنَّ عَـــدُوّاً رَمَـــاكَ ... وَإِنْ كَانَ فِـــي سَـــاعِدَيْهِ قِصَـــرْ

فَـــإِنَّ ٱلسُّـــيُوفَ تَجُـــزُّ ٱلرِّقَـــابَ ... وَتَعْجِـــزُ عَمَّـــا تَنَـــالُ ٱلْإِبَـــرْ

وفي الأمثال : (لا تحقِرنَّ الذليلَ ؛ فربَّما شَرِقَ بالذُّباب العزيزُ)(٢) .

ومَثَلُ العدوِّ : مَثَلُ النارِ ؛ إن تداركتَ أولَها . . سهلَ إطفاؤُها ، وإن تُرِكَتْ حتى استحكم ضِرامُها . . صعبَ مرامُها ، وتضاعفت بَلِيَّتُها .

ومَثَلُه أيضاً : مَثَلُ القَرح الخبيث ؛ إن تداركتَه . . سهلَ بُرؤُه ، وإن أغفلتَه حتىٰ نَغِلَ . . عَظُمت بَلِيَّتُه(٣) ، وأعضلَ الأطباءَ بُرؤُه .

واعلموا : أنَّ الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتباً ، ورتَّبوا فيها ترتيباً ، قد لا يسعُ سائرَ أهلِ الأقاليم ؛ إذ لكل أُمَّةٍ في الغالب نوعٌ من التدبير ، وصنفٌ من الحيلة ، وضربٌ من المكيدة ، وجنسٌ من اللقاءِ والكرِّ والفرِّ ، وتعبيةِ المواكب ،

---

(١) البيتان لابن نباتة السعدي في « ديوانه » (٧٣/٢) .

(٢) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (١٠٨/٣) دون نسبة ، و« البصائر والذخائر » (١٨٠/٧) من قول صالح بن سليمان .

(٣) نَغِلَ : فسد .

وحملِ بعضِهم علىٰ بعض ، ولـٰكن نَصِفُ منها أشياءَ تجري مجرى المعاقد ، لا تكادُ تختلفُ في إنهاء أزمةِ الحروب .

ونبدأ أولاً بما ذكره الله تعالىٰ في كتابه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١) .

فقوله تعالىٰ : ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ مشتملٌ علىٰ كل ما في مقدورِ البشرِ من العُدَّةِ والآلةِ والحيلةِ .

وفسَّرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم القوةَ ، فمرَّ علىٰ أناس يَرمُون ، فقال : « أَلَا إِنَّ ٱلْقُوَّةَ ٱلرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ ٱلْقُوَّةَ ٱلرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ ٱلْقُوَّةَ ٱلرَّمْيُ » (٢) .

وكان بعضُ الصحابة إذا أراد الغزو . . لا يقصُّ أظفارَه ، ويتركُها عُدَّةً ، ويراها قوةً (٣) .

فأولُ ذٰلك : أن يُقدِّم بين يدي اللقاءِ عملاً صالحاً ؛ من صدقةٍ ، وصيامٍ ، وردِّ مظلَمةٍ ، وصلةِ رحم ، ودعاءٍ مخلصٍ ، وأمرٍ بمعروفٍ ، ونهي عن منكر ، وأمثالِ ذٰلك ؛ فقد كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يأمرُ بذٰلك ويقول : (إنما تقاتلون بأعمالكم) (٤) .

ورُوِيَ أنَّ بَريداً وردَ عليه بفتحِ المسلمين ، فقال له عمر : (أيَّ وقتٍ لقيتمُ العدوَّ ؟ قال : غُدوة (٥) ، قال : ومتى انهزم ؟ قال : عند الزوال ، فقال عمر رضي الله عنه : إنا لله وإنا إليه راجعون ! وقاومَ الشركُ الإيمانَ من غُدوة

---

(١) سورة الأنفال : (٦٠) .

(٢) رواه مسلم (١٩١٨) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٣) روىٰ مسدد أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال : (وفِّروا أظفاركم في أرض العدو ؛ فإنها سلاح) انظر « إتحاف الخيرة » (٤٤١٠) .

(٤) رواه البخاري معلقاً قبل الحديث رقم (٢٨٠٨) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه ، ووصله في « تغليق التعليق » (٤٣١/٣) .

(٥) غُدوة : ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وإن أريد بها غدوة يوم معين . . فهي غير مصروفة .

إلى الزوال ؟! لقد أحدثتم بعدي حدثاً ، أو أحدثتُ بعدكم حدثاً !) .

والشأنُ كلُّ الشأنِ في استجادة القُوَّاد ، وانتخابِ الأمراءِ وأصحابِ الألوية ؛ فقد قالت حكماء العجم : (أسدٌ يقودُ ألفَ ثعلبٍ خيرٌ من ثعلبٍ يقودُ ألفَ أسدٍ)[1] .

فلا ينبغي أن يُقدِّمَ على الجيش إلا الرجلَ ذا البَسالةِ والنجدةِ ، والشجاعةِ والجرأةِ ، ثابتَ الجَنان ، صارمَ القلبِ جَريئَه ، رابطَ الجأش ، صادقَ البأسِ ، ممَّن قد توسَّطَ الحروبَ ، ومارسَ الرجالَ ومارسوه ، ونازلَ الأقرانَ وقارع الأبطال ، عارفاً بمواضع الفُرص ، خبيراً بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب ، وما الذي يجب شحنُه بالحُماة والأبطال من ذٰلك ، بصيراً بصنوفِ العدوِّ ومواضعِ الغِرَّةِ منه ومواضِعِ الشدة منه ؛ فإنه إذا كان كذٰلك وصدرَ الكلُّ عن رأيه . . كان جميعُهم كأنه مثلُه ؛ فإن رأىٰ لقراع الكتائب وجهاً ، وإلا . . رَدَّ الغنمَ إلى الزَّرِيبة .

* * *

واعلم : أنَّ الحربَ خُدعةٌ عند جميع العقلاء ، وآخرُ ما يجبُ ركوبُه : قرعُ الكتائب ، وحملُ الجيوشِ بعضِها علىٰ بعض ، فلنبتدئ بتصريف الحيلة في نيل الظَّفَر .

قـال نصرُ بنُ سَـيَّار : (كنتُ أميرَ خراسـان من قبل مـروان الجَعْدي آخرِ ملـوك بني أمية ، قـال : وكان عظماء التُّـرك يقولون : ينبغـي للقائد العظيم أن يكـونَ فيه عَشَـرَةُ أخلاقٍ من أخـلاق البهائم : سـخاوةُ الدِّيك ، وتحننُ الدَّجاجة ، وقلبُ الأسـد ، وحَمْلةُ الخنزير ، ورَوَغـانُ الثعلب ، وصبرُ الكلب على الجراحة ، وحراسـةُ الكُرْكِيِّ ، [وهدايةُ الحمام] ، وغارةُ الذئب ، وسِمَنُ

---

(١) أورده في « تحرير الأحكام » (ص ٨٥) ، و« بدائع السلك » (١/ ٢١٠) .

نُغير ؛ وهي دُوَيْبَّةٌ تكونُ بخراسان تَسمنُ على التَّعب والشَّقاء)[1] .

وكان يقال : (أشدُّ خلق الله تعالىٰ عَشَرَةٌ : فأشدُّ خلق الله تعالى الجبالُ ، والحديد يَنحِتُ الجبالَ ، والنارُ تأكلُ الحديدَ ، والماءُ يُطفئُ النارَ ، والسحابُ يحمِلُ الماءَ ، والريحُ تصرفُ السحابَ ، والإنسانُ يتَّقي الريحَ لحاجته ، والسُّكر يصرعُ الإنسانَ ، والنومُ يُذهبُ السُّكرَ ، والهمُّ يمنعُ النومَ ، فأشدُّ خلقِ ربّك : الهَمُّ)[2] .

فأولُ ذٰلك : أن يَبُثَّ جواسيسَه في عسكر عدوه ؛ لِيستعلم أخبارَه مع الساعات ، ويستعلمَ رؤساءَهم وقادتَهم وذوي الشجاعةِ منهم ، فيدُس إليهم ، ويَعِدُهم وعداً جميلاً ، ويُوجِّه إليهم بضروب الخُدعة ، ويُقوّي أطماعَهم في أن ينالوا ما عنده من الهِبات الفخمة والولاياتِ السَّنية ؛ فإن رأىٰ وجهاً . . عاجلهم بالهدايا والتُّحَف ، وسامهم إمَّا الغدرَ بصاحبهم ، وإمَّا اعتزالَه وقت اللِّقاء .

ويُنشِئُ علىٰ ألسنتهم كتباً مُدلَّسة إليه ، ويَبُثُّها في عسكرهم ، ويكتبُ على السِّهام أخباراً مُزورةً ، ويرمي بها في جيوشهم ، ويضربُ بينهم بما في الميسور من ذٰلك .

فإن جميعَ ما ذكرناه تُنفَقُ فيه الأموالُ والحِيلُ ، واللقاءُ تُنفَقُ فيه الأرواحُ والرؤوس ، ووجوهُ الخُدَع فيه لا تُحصىٰ ، والحاضرُ فيه أبصرُ من الغائب .

وللهِ دَرُّ المُهلب لمَّا كتبَ إليه الحجاج يستعجله في حرب الأزارقة رَدَّ الجوابَ إليه فقال : (إنَّ من البلاء أن يكونَ الرأيُ عند من يَملِكُه لا عند من يُبصرُه)[3] .

---

(١) أورده بنحوه في « الحيوان » (٢/٣٥٣ ـ ٣٥٤) ، و« ثمار القلوب » (١/٥٧٠ ـ ٥٧١) ، وما بين المعقوفين زيادة من المصدرين ، وبه تتم الخصال العشر .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٠٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٥٩١) عن سيدنا عليٍّ رضي الله عنه .

(٣) أورده بنحوه في « بهجة المجالس » (١/٤٥٣) ، وتقدم تخريجه بنحوه (ص ٢٨٩) .

وقال المختار ليزيدَ بن أنسٍ حين وَلَّاه الجزيرةَ وأمرَه بقتال عبيدِ الله بنِ زياد : (الْقَ عدوَّكَ برأيٍ غيرِ مُستبِدٍّ ، وبحزمٍ غيرِ مُتَّكلٍ ، ولا تَركَنْ إلى الدولة ، فربَّما انقلبتْ ، واستشِرْ من لا يطمعُ في عملك ، ولا تَسِرْ بقلبك ، واستخِرِ اللهَ تعالىٰ قبل إقدامك . . تُوفَّقْ) .

وأوصت أمُّ الذيال العبسيةُ ابنهَا الفَتَّاكَ وهو من أشدِّ العرب : (يا بُني ؛ لا تَنشَبْ في حرب وإنْ وَثِقْتَ بشدتك حتىٰ تعرفَ وجهَ المَهرَبِ منها ؛ فإن النفسَ أقوىٰ شيءٍ إذا وجدتْ سبيلَ الحيلة ، وأضعفُ شيءٍ إذا يَئِست منها ، وأحمدُ الشدةِ ما كانت الحيلةُ مدبرةً لها ، إذا لم يكن النصرُ من الله تعالىٰ . . فابذلها ، واختلس من المحارب خلسةَ الذئب ، وطِرْ منه طيرانَ الغُرابِ ؛ فإنَّ الحَذَرَ زِمامُ الشجاعة ، والتهوُّرَ عدوُّ الشدة)(٤) .

وقال أبو السرايا ـ وكان أحدَ الفُتَّاك ـ لابنه : (يا بُني ؛ كن بحِيلتِكَ أوثقَ منك بشدتك ، وبحَذَرِكَ أوثقَ منك بشجاعتك ؛ فإنَّ الحربَ حربُ المتهوِّر ، وغنيمةُ الحَذِر)(٥) .

واعلم : أنَّ الدول إذا زالت . . صارت حِيَلُها وبالاً عليها ، وإذا أَذِنَ اللهُ تعالىٰ في حلول البلاء . . كانت الآفةُ في الحيلة .

وقالت الحكماء : (إذا نزلَ القضاءُ . . كان العَطَبُ في الحِيلة ، وإذا انقضت مُدَّةُ الدول . . أدبرت سنة الغفلة من سنة الحذر ، ويغلبُ الضعيفُ بإقبالِ دولتهِ ، كما يُغلَبُ القويُّ بفَناءِ مُدَّتِه)(٦) .

وقالوا : (سُعودُ الدول ونُحوسُها مقرونةٌ بسُعودِ المَلِكِ ونُحوسه) .

---

(٤) أورده بنحوه في « غرر الخصائص » (ص ٣٤٧) .

(٥) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (١/٣٧) دون نسبة .

(٦) أورده في « المستطرف » (٢/٥٩) ، وانظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٤٥) .

وقالوا : (تستر علىٰ كلِّ امرئٍ دولتُه ، فإذا انقضت . . بدت عورتُه) .

وقال بعض الحكماء : (إذا وَلَّت دولةٌ . . وَلَّتْ أُمَّةٌ ، وإذا أتت دولةٌ . . نُسخت أُمَّةٌ) .

وقالوا : (رُبَّ حيلةٍ أهلكت المحتالَ)(١) .

فمن الحزم المألوفِ عند سُوَّاس الحروبِ : أنْ تكون حُماةُ الرجال وكُماةُ الأبطال في القلب ؛ فإنه مهما انكسرَ الجناحان . . فالعيونُ ناظرةٌ إلى القلب ، فإذا كانت راياتُه تَخفُقُ وطبولُه تُضربُ . . كان حِصناً للجناحين ، يأوي إليه كلُّ منهزم ، وإذا انكسر القلب . . تمزَّق الجناحان .

مثالُ ذٰلك : الطائرُ ؛ إذا انكسر أحد جناحيه . . تُرجَىٰ عودتُه ولو بعدَ حين ، وإن انكسر الرأس . . ذهبَ الجناحان ، ولا تُحصىٰ كثرةُ انكسار جَناحَي العسكرِ وثباتِ القلب ، ثمَّ يرجعُ الفارُّون إلى القلب ويكون الظَّفَرُ لهم .

وقلَّ عسكرٌ انكسرَ قلبُه فأفلحَ أو تراجعَ ، اللهمَّ إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش ؛ فيُخلي القلبَ قصداً وتعمُّداً ، ولا يغادرُ به كبيرَ أمرٍ ، حتىٰ إذا توسَّطه العدوُّ واشتغل بنهبه(٢) . . أطبقَ عليه الجناحان ، فقد فعلَه رجالٌ من أهل الحروب .

* * *

ومن أعظم المكايد في الحروب : الكُمَنَاءُ ، ولا يُحصىٰ كثرةً كم من عسكر استُبيحت بَيضتُه وقلَّ عزمه بالكُمَناء ؛ وذٰلك أنَّ الفارسَ لا يزالُ علىٰ حَمِيَّةٍ في الدفاع وحِمَى الذِّمار حتىٰ يلتفتَ فيرىٰ وراءَه بَنْداً منشوراً(٣) ، أو يسمعَ صوتَ الطُّبول ، فحينئذ هِمَّتُه خلاصُ نفسِه .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/٦٠٠) .

(٢) في (أ) : (بنفسه) .

(٣) الذِّمار : ما ينبغي حياطتُه والذَّود عنه ؛ كالأهل والعرض ، وبنداً : عَلَماً .

ولتكن هِمَّتُك وراء ذٰلك ، وعليه مدار الحروب في اصطناعِ الشجعان واختيارِ الأبطال ، فاصطنعْ ذوي البَسالة والإقدامِ والجراءةِ ، ولا عليك ألَّا يكثروا ، وبعيدٌ عليك أن يكثروا ، ولا تنسَ قولَ الشاعر [1] : [من الرجز]

وَٱلنَّـــاسُ أَلْــفٌ مِنْهُــمُ كَوَاحِــدٍ   وَوَاحِــدٌ كَٱلْأَلْــفِ إِنْ أَمْــرٌ عَنَــا

بل قد جُرِّبَ ذٰلك فوُجِدَ الواحدُ منهم خيراً من عَشَرةِ آلافٍ .

وسأحكي لك من ذٰلك ما تقضي فيه العجب ، فهم في الجيش ـ وإن قَلُّوا ـ كالإِنْفَحَّةِ في اللَّبَن [2] .

فمن ذٰلك : لمَّا التقى المستعينُ بنُ هود معَ الطاغية ابن رُذْمِير النصراني علىٰ مدينة وَشْقَةَ في ثغورِ بلاد الأندلس ، وكان العسكران كالمتكافئين ، كلُّ واحد منهما يُراهِقُ عشرينَ ألفَ مقاتلٍ بين خَيلٍ ورَجْلٍ .

فحدَّثني رجلٌ ممَّن حضرَ الوقعةَ من الأجناد قال : (لمَّا دنا اللقاءُ . . قال الطاغيةُ ابنُ رُذْمِير لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله : استعلمْ مَنْ في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ، ومن غاب منهم ، ومن حضر .

فذهب ثُمَّ رَجَعَ فقال : فيهم فلانٌ وفلانٌ حتىٰ عَدَّ سبعةَ رجالٍ ، قال له : انظر الآن مَنْ في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة ، ومن غاب منهم ، فعَدُّوهم فوجدوهم ثمانيةَ رجالٍ لا يزيدون ، فقام الملك الطاغيةُ ضاحكاً مسروراً وهو يقول : يا بياضكَ من يومٍ !

ثم ناشب الحرب بينهم ، فلم تزل المصابرةُ بين الفريقين ، ولم يُوَلِّ

---

(١) البيت لابن دريد من مقصورته المشهورة ، أورده ابن خالويه في « شرح المقصورة » (ص ٣٩٥) ، وعَنَا : اعترض .

(٢) الإِنْفَحة ـ بتشديد الحاء وتخفيفها ـ : مادة خاصة تُستخرج من الجزء الباطني من معدة الرضيع من العجول أو الجِداء أو نحوهما ، بها خميرةٌ تجبِّن اللبن .

أحدُهم دُبُرَه ، ولا تزحزحَ عن مقامه ، حتىٰ فَنِيَ أكثرُ العسكرَينِ ، ولم يَفِرَّ واحدٌ منهم .

فلمَّا كان وقتُ العصر . . نظروا إلينا ساعةً ، ثمَّ حملُوا علينا حملةً واحدةً ، وداخلونا مداخلةً ، ففرَّقوا بيننا وصِرْنا شطرينِ ، وحالُوا بيننا وبين أصحابنا ، فصاروا بيننا ، فكان ذٰلك سببَ وَهْنِنا وضَعْفِنا ، ولم تَقُم الحربُ إلا ساعةً ونحن في خسارةٍ منهم ، فأشارَ مُقدَّمُ العسكرِ على السلطان أن ينجوَ بنفسه ، وكُسِرَ عسكرُ المسلمين ، وتفرَّقَ جمعُهم ، وملَكَ العدوُّ مدينةَ وَشْقةَ) .

فليعتبرْ ذو العزمِ والبصيرة من جمعٍ يحتوي علىٰ أربعينَ ألفَ مقاتلٍ ولا يَحضرُه من الشجعان المعدودين إلا خمسةَ عشرَ رجلاً ، وليعتبرْ بضمان العِلْجِ بالظَّفَرِ واستبشارِه بالغنيمة[1] لمَّا زادَ في أبطاله رجلٌ واحدٌ .

وسمعت أستاذَنا القاضيَ أبا الوليد الباجيَّ رحمه الله يحكي قال : (بينما المنصورُ بنُ أبي عامر في بعض غزواته . . إذ وقف علىٰ نَشَزٍ من الأرض مرتفعٍ[2] ، فرأىٰ جيوشَ المسلمين بين يدَيه ومن خلفه وعن يمينه وعن شِماله قد مَلؤوا السهلَ والجبلَ .

فالتفتَ إلىٰ مُقدَّمِ العسكرِ ، وهو رجلٌ يُعرف بابنِ المُصحَفي ، وقال : كيف ترىٰ هٰذا العسكرَ **أيُّها الوزيرُ** ؟ قال ابنُ المُصحَفي : أرىٰ جمعاً كثيراً وجيشاً واسعاً ، فقال له المنصور : لا يُعجزُنا أن يكونَ في هٰذا الجيش ألفُ مقاتلٍ من أهل الشجاعة والبَسالة .

فسكتَ ابنُ المُصحَفي ، فقال له المنصور : وما سكوتُك ؟ **أليس في هٰذا الجيش ألفُ مقاتل من أهل الشجاعة** ؟ قال : لا ، قال : فتعجَّبَ المنصورُ ، ثمَّ

---

(١) في (أ ، ب) : (بضمان الفلاح . . .) ، و(أ ، ب ، و ، ز) : (بالظفر والغنيمة . . .) ، والعِلْجُ : الضخم من كُفار العجم .

(٢) نَشز ـ بفتح الشين وسكونها ـ : المكان المرتفع من الأرض .

انعطفَ عليه فقال : أفيهم خمسُ مئةِ رجلٍ من الأبطالِ المعدودين ؟ قال : لا ، قال : فحَنِقَ المنصورُ [١] ، ثمَّ انعطفَ عليه وقال : أفيهم مئةُ رجلٍ من الأبطال المعدودين ؟ قال : لا ، قال : أفيهم خمسون رجلاً من الأبطال ؟ قال : لا ، فسَبَّه المنصورُ واستخفَّ به ، وأَمرَ به فأُخرِجَ علىٰ أقبح صفة .

فلمَّا توسَّطوا بلادَ المشركين . . اجتمعت الرومُ وتصافَّ الجمعان ، فبرَزَ عِلْجٌ من الروم بين الصَّفَّينِ شاكٌّ في سلاحه [٢] يَكُرُّ ويَفِرُّ وينادي : هل من مبارز ؟ فبرزَ إليه رجلٌ من المسلمين ، فتجاولا ساعةً ، فقتله العِلْجُ ، ففَرِحَ المشركون وصاحوا ، واضطرب لها المسلمون ، ثمَّ جعلَ العِلْجُ يمرحُ بين الصَّفَّينِ وينادي : هل من مبارزٍ اثنينِ لواحدٍ ؟ فبرزَ إليه رجلٌ من المسلمين ، فتجاولا ساعةً ، فقتلَه العِلْجُ ، وجعل يَكُرُّ ويحملُ وينادي : هل من مبارزٍ ثلاثةٍ لواحدٍ ؟ فبرزَ إليه رجلٌ من المسلمين ، فقتلَه العِلْجُ ، فصاحَ المشركون سروراً ، وذَلَّ المسلمون ، وكادت تكونُ كسرة .

فقيلَ للمنصور : ما لها غيرُ ابنِ المُصحَفي ، فبعثَ إليه فحضرَ ، فقال له المنصور : ألا ترىٰ ما يصنعُ هـٰذا العِلْجُ الكلبُ منذُ اليومِ ؟ قال : بِعَيني جميعُ ما جرىٰ ، قال : فما الحيلةُ فيه ؟ قال : وما الذي تريدُ ؟ قال : أن تكفيَ المسلمين شرَّه ، قال : نعم الآنَ .

ثمَّ قصدَ إلىٰ رجالٍ يعرفُهم ، فاستقبلَه رجلٌ من رجالِ الثُّغورِ علىٰ فَرَسٍ قد نَشَزَتْ أوراكُها هُزالاً ، وهو يحملُ قِرْبَةَ ماءٍ بين يديه على الفَرَس ، والرجلُ في نفسه وحِلْيتهِ غيرُ مُتصنِّعٍ ، فقال له ابنُ المُصحَفي : ألا ترىٰ ما يصنع هـٰذا العِلْجُ منذ اليوم ؟ قال : قد رأيتُه ، قال : فماذا ترىٰ فيه ؟ قال : أريد رأسَه الآنَ ،

---

(١) حَنِقَ : اغتاظ .

(٢) في (أ) : (فجالَ في سلاحه) ، وشاكٌّ في سلاحه : تامُّ السلاح .

قال : نعم ، فحملَ القِرْبةَ إلىٰ رَحْلِه ، وَلبِسَ لأْمةَ حَربهِ وبرزَ إليه[1] ، فتجاولا ساعةً ، فلم يرَ الناسُ إلا المسلمَ خارجاً إليهم يركضُ ، ولا يدرون ما هنالك ؛ وإذا الرجلُ يحملُ رأسَ العِلْج ، فألقى الرأسَ بين يدي المنصور ، فقال له ابنُ المُصحَفي : عن هٰؤلاء الرجال أخبرتُك أنَّه ليس في عسكرك منهم ألفٌ ، ولا خمسُ مئةٍ ، ولا مئةٌ ، ولا خمسون ، ولا عشرون ، ولا عَشَرةٌ ، فردَّ ابنَ المُصحَفي إلىٰ منزلتِه وأكرمَه) .

* * *

واعلم : أنَّ أولَ الحربِ شكوىٰ ، وأوسطَها نجوىٰ ، وآخرَها بلوىٰ .

الحربُ شعثاءُ عابسةٌ ، شوهاءُ كالحةٌ ، حَرُونٌ في حِياض الموت ، شَمُوسٌ في الوطيس[2] ، تتغذَّىٰ بالنفوس .

الحربُ أولُها الكلامُ وآخِرُها الحِمامُ .

الحربُ مُرَّةُ المَذاق إذا قَلَصَتْ عن ساق ، من صَبرَ فيها . . عُرِف ، ومن ضَعُفَ عنها . . تَلِف .

جسمُ الحربِ الشجاعةُ ، وقلبُها التدبيرُ ، وعينُها الحَذَرُ ، وجناحُها الطاعةُ ، ولسانُها المكيدةُ ، وقائدُها الرِّفقُ ، وسائقُها النصرُ .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اَلْحَرْبُ خُدْعَةٌ »[3] .

وقالوا : (الحربُ غشومٌ) ، سُمِّيت بذٰلك ؛ لأنَّها تتخطَّىٰ إلىٰ غير الجاني[4] .

---

(١) اللَّأْمَةُ : اسم للدرع ، وقيل : أداة الحرب كلُّها ؛ من رمحٍ ، وبيضةٍ ، ومِغفرٍ ، وسيفٍ ، ودرعٍ .

(٢) حَرُون : فرس حَرُونٌ : لا ينقاد ، وإذا اشتدَّ به الجريُ . . وقف ، وفي (ب ، هـ) : (جَزُور) ، و(أ ، ج ، د) : (حَرُورٌ) وهو الرِّيح الحارة ، وشَموس : النَّفورُ العَسِرُ الصُّحبة ، والوَطيس : شدة الحرب .

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٠) ، ومسلم (١٧٣٩) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٤) أورده في « الحيوان » (١/٣٣٢) ، و« عيون الأخبار » (١/١٢٨) .

قال الشاعر[1] : [من الخفيف]

لَـمْ أَكُـنْ مِـنْ جُنَاتِهِـا عَلِـمَ ٱللهُ   وَإِنِّـي بِحَرِّهَـا ٱلْيَـوْمَ صَـالِ

وقال آخر[2] : [من الوافر]

رَأَيْـتُ ٱلْحَـرْبَ يَجْنِيهَـا أُنَـاسٌ   وَيَصْلَـىٰ حَرَّهَـا قَـوْمٌ بُـرَاءُ

وقال آخر[3] : [من الكامل]

اَلْحَـرْبُ أَوَّلُ مَـا تَكُـونُ فُتَيَّـةٌ   تَسْـعَىٰ بِزِينَتِهَـا لِـكُلِّ جَهُـولِ

حَتَّىٰ إِذَا ٱضْطَرَمَتْ وَشَـبَّ ضِرَامُهَا   عَـادَتْ عَجُـوزاً غَيْـرَ ذَاتِ خَلِيـلِ

شَـمْطَاءَ جَـزَّتْ رَأْسَـهَا وَتَنَكَّـرَتْ   مَكْرُوهَـةً لِلشَّـمِّ وَٱلتَّقْبِيـلِ

قال بعض الحكماء : (قد جمعَ اللهُ لنا أدبَ الحرب في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾)[4] .

واستوصىٰ قومٌ أكثمَ بنَ صيفيٍّ في حرب أرادوها ، فقال : (أقِلُّوا الخلافَ علىٰ أمرائكم ، واعلموا أنَّ كثرةَ الصِّياح من الفشل ، ولا جماعة لمن اختُلِفَ عليه ، وتثبَّتُوا ؛ فإنَّ أحزمَ الفريقين الرَّكِين)[5] .

وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر لأصحابه : (ألا ترون أصحابَ محمدٍ جُثِيّاً على الرُّكَب كأنَّهم خُرْسٌ يتلمَّظون تَلمُّظَ الحيَّات ؟!)[6] .

---

(١) البيت للحارث بن عُباد في « ديوانه » (ص ١٩٣) .

(٢) أورد البيت في « عيون الأخبار » (٥٢/٢) .

(٣) الأبيات لسيدنا عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٥٤ ـ ١٥٥) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (١٠٨/١) ، و« محاضرات الأدباء » (٢٥٤/٣) ، والآيتان من سورة الأنفال : (٤٥ ـ ٤٦) .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » (١٠٨/١) ، و« العقد الفريد » (٩٧/١) .

(٦) رواه في « عيون الأخبار » (١٠٨/١) ، وأورده في « العقد الفريد » (٩٧/١) ، ويتلمَّظون تلمُّظ الحيات : يخرجون ألسنتهم كالحيات .

ورأيتُ غيرَ واحدٍ ممَّنْ أَلِفَ الحروبَ يَكرهُ رفعَ الصوتِ بالتكبيرِ ، ويقولون : يَذكُرُ اللهَ تعالىٰ في نفسِه .

* * *

واعلم أرشدك الله تعالىٰ : أنَّ الله سبحانه قد أوضح لنا في كتابه علةَ النصرِ وعلةَ الهزيمةِ والفرارِ ؛ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١) يعني : إن تنصروا دينَ اللهِ ورسولِه . . ينصرْكم .

وأمَّا الفرار : فعِلَّتُه المعاصي ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ (٢) أي : بشؤمِ ذنوبِهم وتركِهم المركزَ الذي رسمَه لهم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

وذٰلك أنه رتَّبَ عليه السلام الرُّماةَ يومَ أُحُدٍ علىٰ ثُلْمةِ الجبل ؛ ليمنعوا قريشاً أن يخرجوا عليهم كَميناً من ذٰلك الموضع ، ثمَّ التقى المسلمون والكفار ، فانهزمَ الكفارُ ، فقالَ الرُّماةُ : (لا تفوتُنا الغنائمُ) ، فأقبَلُوا على الغنائم وتركوا المركزَ الأولَ ، فخرجت خيلُ المشركين من هناك وأقبلُوا على المسلمين ، فكانت مقتلَةُ أُحدٍ .

ولْيُخفِ قائدُ الجيشِ العلامةَ التي هو مشهورٌ بها ؛ فإنَّ عدوَّه قد يستعلمُ حِلْيتَه وألوانَ خيلِه ورايتَه ، ولا يلزمْ خيمتَه ليلاً ولا نهاراً ، ولْيُبدِّلْ زِيَّه ، ويُغيِّرْ خيمتَه ، ويُعَمِّ مكانَه ؛ كي لا يلتمسَ عدوُّه غِرَّتَه .

وإذا سكنت الحرب . . فلا يمشِ في النَّفَرِ اليسيرِ من قومه خارجَ عسكره ؛ فإنَّ عيونَ عدوِّه قد أُذكِيَتْ عليه .

وعلىٰ هٰذا الوجهِ كَسَر المسلمون جيوشَ إفريقيَّةَ عند فتحها ؛ وذٰلك أنَّ الحربَ سكنتْ في وسطِ النهار ، فخرج مُقدَّمُ العدوِّ يمشي خارجَ العسكر يتميَّزُ

---

(١) سورة محمد : (٧) .

(٢) سورة آل عمران : (١٥٥) .

عساكرَ المسلمين ، فجاء الخبرُ إلىٰ عبد الله ابن أبي سرح وهو نائمٌ في قُبَّته ، فخرجَ فيمَنْ وَثِقَ به من رجاله ، فحملَ على العَدُوِّ فقتلَ المَلِكَ ، وكان الفتحُ (١) .

ولمَّا عَبَرَ طارقٌ مولىٰ موسى بنِ نُصيرٍ إلىٰ بلادِ الأندلسِ ليفتتحَها ، وموسىٰ إذ ذاكَ بإفريقيَّةَ . . خرجوا في الجزيرة الخضراء وتحصَّنوا في الجبل الذي يُسمَّى اليومَ : جبلَ طارق ، وهم في ألفٍ وتسعِ مئةِ رجلٍ ، فطَمِعَت الرومُ فيهم ، فاقتتلوا ثلاثةَ أيامٍ .

وكان على الروم : تُدْمِير ، استخلفَه لُذْرِيقُ ملكُ الروم ، وكان قد كتبَ إلىٰ لُذْرِيقَ يُعلِمُه أنَّ قوماً لا ندري : أمِن أهل الأرضِ هم أم من أهل السماء قد وصلوا إلىٰ بلادنا ، وقد لَقِيتُهم فانهضْ إليَّ بنفسك .

فأتاه لُذْرِيقُ في تسعينَ ألفَ عِنانٍ ، ولَقِيَهم طارقٌ وعلىٰ خَيلِه مُغِيثٌ الروميُّ مولى الوليدِ بنِ عبدِ الملك ، فاقتتلوا ثلاثةَ أيام أشدَّ قتالٍ ، فرأىٰ طارق ما الناسُ فيه من الشدةِ ، فقامَ فحضَّهم على الصبر ، ورغَّبَهم في الشهادة ، وبَسَطَ في آمالِهم ، ثمَّ قال لهم : أين المفرُّ ؟ البحرُ من ورائكم ، والعدوُّ أمامَكم ، فليس لكم إلا الصبرُ منكم ، والنصرُ من ربكم ، وأنا فاعلٌ شيئاً فافعلوا كفِعلي ، واللهِ ؛ لأقصِدَنَّ طاغيتَهم ؛ فإمَّا أنْ أقتلَه وإمَّا أنْ أُقتَلَ دونه .

فاستوثقَ طارقٌ من خيلِهِ ، وعرفَ حِليةَ لُذْرِيقَ وعلامتَه وخَيمتَه ، ثمَّ حملَ مع أصحابِهِ عليه حملةَ رجلٍ واحدٍ ، فقتلَ اللهُ تعالىٰ لُذْرِيقَ بعدَ قتلٍ ذريعٍ في العدوِّ ، وحَمَى اللهُ تعالى المسلمين ، فلم يُقتل منهم شيءٌ كثيرٌ ، وانهزمَ الرومُ ، فأقامَ المسلمون يقتلونهم ثلاثةَ أيامٍ ، وهـٰذا ما يتأتَّىٰ على الملوك من لزومهم مكاناً واحداً ، وأخذَ طارقٌ رأسَ لُذْرِيقَ فبعثَ به إلىٰ موسىٰ ، وبعثَ به موسىٰ إلى الوليدِ بنِ عبد الملك .

---

(١) انظر « الكامل » لابن الأثير (٢/٤٦٣ ـ ٤٦٤) ، و« البداية والنهاية » (٧/٢٨٩ ـ ٢٩٠) .

وسارَ مُغِيثٌ إلىٰ قُرطبة ، وسارَ طارقٌ إلىٰ طُلَيطُلَة ، ولم تكن له هِمَّةٌ إلا المائدة التي يَذكرُ أهلُ الكتابِ أنَّها مائدةُ سليمان بن داوود عليهما السلام ، فدفعَ إليه ابنُ أختِ لُذْريقَ المائدةَ والتاجَ ، فقُوِّمتِ المائدةُ بمئتي ألفِ دينارٍ ؛ لِما فيها من الجواهر التي لم يُرَ مِثلُها[1] .

* * *

وبهـٰذه الحيلةِ قهرَ أَلْب أَرْسلان ملكُ التُّركِ مَلِكَ الرومِ وقبَضَه ، وقتلَ رجالَه وأبادَ جمعَه ، وكانت الرومُ قد جَمعت جيوشاً يَقِلُّ أنْ يجتمعَ لمن بعدهم مِثلُها ، وكان مبلغُ عددِهم ستَّ مئةِ ألفِ مقاتِلٍ ؛ كتائبَ متواصلةً ، وعساكرَ مترادفةً[2] ، وكراديسَ يتلُو بعضُها بعضاً كالجبال الشامخة[3] ، لا يُدركُهم الطَّرْفُ ، ولا يُحصيهم العَددُ ، وقد أعدُّوا من الكُراعِ والسلاحِ والمجانيقِ والآلاتِ المُعَدَّةِ لفتحِ الحصونِ ما يعجِزُ الوصف عنها[4] .

وكانوا قد قَسَّموا بلادَ المسلمين ؛ الشام ، ومصر ، والعراق ، وخراسان ، وديار بكر ، ولم يَشكُّوا أنَّ الدولةَ قد دارت لهم ، وأنَّ نجومَ السُّعود قد خَدمتهم .

ثمَّ استقبلُوا بلادَ المسلمين ، فتواترت أخبارُهم إلىٰ بلاد المسلمين ، واضطربت لها ممالكُ الإسلامِ ، فاحتشدَ للقائهم أَلْب أرْسلان التُّركيُّ ، وهو الذي يُسمَّى المَلِكَ العادلَ ، وجمعَ جموعَه بمدينة أصبَهان ، واستعدَّ بما قَدَرَ عليه ، ثمَّ خرَج يَؤمُّهم .

فلم يزل العسكران يتدانيان إلىٰ أن عادت طلائعُ المسلمين إلى المسلمين وقالوا لأَلْب أَرْسلان : غداً يتراءى الجمعان ، فبات المسلمون ليلةَ الجمعةِ

---

(١) انظر « الكامل » لابن الأثير (٤/٣٥ ـ ٤٣) ، و« وفيات الأعيان » (٥/٣٢٠ ـ ٣٢٣) .
(٢) في (أ ، ب) : (متزاحمة) .
(٣) كَراديس : جمع كُرْدُوسة ؛ وهي الطائفة العظيمة من الخيل والجيش .
(٤) الكُرَاع : اسمٌ يجمع الخيل والسلاح .

والقومُ في عددٍ لا يُحصيهم إلا الذي خَلَقهم ، وما لهم في المسلمين إلا أكلةُ جائعٍ .

فبقيَ المسلمون واجمين لِما دهاهم (١) ، فلمَّا أصبحوا صباحَ يومِ الجمعة . . نظرَ بعضُهم إلىٰ بعض ، فهالَ المسلمين ما رَأَوْا من كَثرة العدوِّ وقُوَّتِهم وآلاتِهم ، فأمرَ أَلْب أَرْسلان أن يُعَدَّ المسلمون ، فبلغوا اثني عَشَرَ ألفَ تركيٍّ ، وإذا هم منهم كالرَّقْمةِ في ذراع الحمار (٢) ، فجمعَ ذوي الرأيِ من أهلِ الحربِ والتدبيرِ والشفقةِ على المسلمين والنظرِ في العواقبِ ، واستشارَهم في استخلاصِ أصوبِ الرأيِ ، فتشاورُوا بُرهةً ، ثم أجمعَ رأيُهم على اللقاء .

فتوادعَ القومُ وتحالَلُوا (٣) ، وناصحوا الإسلامَ وأهلَه ، ثمَّ تأهَّبُوا أُهبَة اللِّقاء ، وقالوا لأَلْب أَرْسلان : باسم الله ، نحملُ على القوم ؟ فقال أَلْب أَرْسلان : يا معشرَ أهلِ الإسلام ؛ تَمهَّلوا ، فإنَّ هـٰذا يوم الجمعة ، والمسلمون يَخطُبون على المنابر ، ويدعون لنا في مشرق الأرض ومغربها ، فإذا زالت الشمسُ ، وفاءت الأفياءُ ، وعَلِمنا أنَّ المسلمين قد صَلَّوا ودَعَوْا لنا وصَلَّينا نحنُ . . عَمِلنا أَمرَنا ، فصَبَروا إلىٰ أن زالت الشمسُ ، ثمَّ صَلَّوا ودَعَوُا اللهَ تعالىٰ أن ينصرَ دينَه ، وأن يَربطَ علىٰ قلوبِهم بالصبرِ ، وأنْ يُوهِنَ عَدُوَّهم ، ويُلقِيَ في قلوبهم الرُّعبَ .

وكان أَلْب أَرْسلان قد استوثقَ من خيمةِ ملكِ الرومِ وعلامتِهِ وفرسِهِ وزِيِّه ، ثمَّ قال لرجاله : لا يتخلَّف أحدُكم أن يفعلَ كفِعلي ، ويتبعَ أَثري ويضربَ بسيفِهِ ، ويرميَ بسهمه حيثُ أَضرِبُ بسيفي وأرمي بسهمي ، ثمَّ حملَ جميعُهم حملةَ رجلٍ واحدٍ إلىٰ خيمةِ ملكِ الرومِ ، فقَتلوا من كان دونها ، وخَلَصُوا إليه ، وقُتِلَ مَن حولَه ، وأُسِرَ ملكُ الروم ، وجعلوا ينادُون بلسان الروم : قُتِلَ

---

(١) واجمين : ساكتين .

(٢) الرَّقْمة : هَنَةٌ ناتئة تشبه الظُّفر في ذراع الدابة من الداخل ، وهما رقمتان في الذراعين ، وفي (ز) : (الجمل) بدل (الحمار) .

(٣) في (ب ، هـ ، و ، ز) : (وتحالفوا) .

الملكُ ، قُتِلَ الملكُ ، فسمعتِ الرومُ أنَّ مَلِكَهم قد قُتِلَ ، فتبدَّدوا وتمزَّقوا كلَّ مُمزَّقٍ .

وعَمِلَ السيفُ فيهم أياماً ، وأخذَ المسلمون أموالَهم وغنائمَهم ، واستُحضِرَ ملكُ الروم بين يدي أَلْب أَرْسلان بحبلٍ في عنقه ، فقال له أَلْب أَرْسلان : ماذا كنتَ تصنعُ بي لو أخذتَني ؟ قال : وهل تَشُكُّ أني كنتُ أقتلُك ؟ فقال له أَلْب أَرْسلان : أنت أقلُّ في عيني من أن أقتلك ، اذهبوا به فبيعوه فيمن يريدُ .

فكان يُقادُ بالحبل في عنقه ويُنادىٰ عليه : من يشتري ملكَ الروم ؟ وما زالوا كذٰلك يطوفون به على الخيامِ ومنازلِ المسلمين ويُنادىٰ عليه بالدراهم والفلوس ، فلم يدفع فيه أحدٌ شيئاً ، حتىٰ باعوه من إنسانٍ بكلبٍ .

فأخذَ الذي كان تولَّىٰ ذٰلك من أمرِه الكلبَ والملكَ ، وحملهما إلىٰ أَلْب أَرْسلان وقال له : قد طُفتُ به جميعَ العسكر وناديتُ عليه ، فلم يبذل أحدٌ فيه شيئاً إلا رجلٌ واحدٌ دفعَ لي فيه كلباً ، قال : قد أنصفَك ؛ لأنَّ الكلبَ خيرٌ منه ، فاقبِض الكلبَ وادفعْ إليه هٰذا الكلبَ ، ثمَّ إنه أمرَ بعد ذٰلك بإطلاقه ، فذهب إلىٰ قُسطنطينية ، فعزلته الرومُ وكَحَلته بالنار (١) .

فانظر ماذا يَتأتَّىٰ على الملوك (٢) إذا عرفوا في الحرب من الحيلةِ والمكيدة .

واعلموا : أنَّ القدماءَ قالوا : (للكثرة الرعب ، وللقلة النصر) .

* * *

ثمَّ اعلموا : أن الله تبارك وتعالىٰ قال : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (٣) ، فالكَثْرةُ أبداً يَصحَبُها الإعجابُ ، ومع الإعجابِ يكونُ الهلاكُ .

---

(١) انظر « الكامل » لابن الأثير (٨/٢٢٣ ـ ٢٢٥) ، وهٰذه المعركة هي الشهيرة بـ (ملاذكرد) .
(٢) زيد في (أ ، و) : (الغافلين عن الحذر) ، ثم زيد في (أ) : (والمشتهرين بما لا يستهزأ به) .
(٣) سورة التوبة : (٢٥) .

وخيرُ الأصحابِ أربعةٌ ، وخيرُ السرايا أربعُ مئةٍ ، وخيرُ الجيوشِ أربعةُ آلافٍ ، ولن يُغلَبَ جيشٌ يبلغ اثني عشر ألفاً من قِلَّةٍ إذا اجتمعت كلمتُهم .

فأما صفةُ اللِّقاءِ ـ وهو أحسنُ ترتيبٍ رأيناه في بلادنا ، وهو أرجىٰ تدبيرٍ نفعلُه في لقاء عدونا ـ . . فهو أن تتقدَّم الرَّجَّالةُ بالدَّرَقِ الكاملة[١] ، والرِّماحِ الطِّوال ، والمزاريقِ المسنونة النافذة[٢] ، فيصفُّوا صفوفَهم ويركزوا مراكزَهم ، ورماحُهم خلفَ ظهورهم في الأرض ، وصدورُها شارعةٌ إلىٰ عدوِّهم وهم جاثمون في الأرض ، وكلُّ رجلٍ منهم قد ألقمَ الأرضَ ركبتَه اليسرىٰ ، وتُرْسُه قائمٌ بين يديه ، وخلفَهم الرُّماةُ المُختارون الذين تَمرُقُ سهامُهم من الدروع ، والخيلُ خلفَ الرُّماة .

فإذا حَملتِ الرومُ على المسلمين . . لم تتزحزح الرَّجَّالة عن هيئتها ولا قامَ رجلٌ منهم علىٰ قدميه ، فإذا قربَ العدوُّ . . رَشَقَهم الرُّماةُ بالنُّشَّاب ، والرَّجَّالةُ بالمزاريق ، وصدورُ الرِّماحِ تلقاهم ، فأُخِذُوا يَمنةً ويَسرةً ، فتَخرجُ خيلُ المسلمين بين الرُّماةِ والرَّجَّالةِ فتنالُ منهم ما شاء الله تعالىٰ .

ولقد حدَّثني مَنْ حضرَ مثلَ هٰذه الوقعةِ في بلدي طُرطوشة ، قال : صافَفْنا الرومَ علىٰ هٰذا الترتيب ، فحملوا علينا ، فبينا رجل منا كان في آخر الصف . . فقامَ علىٰ قدميه فحَملَ عليه عِلْجٌ من العدوّ فأصاب غُرَّتَه فقتلَه .

ولمَّا برزَ المقتدرُ بالله بنُ هود ملكُ الأندلس من سَرَقُسْطةَ في ثغور بلاد الأندلس لِلقاءِ الطاغية رُذْمِير عظيمِ الروم ، وكان كلُّ واحدٍ منهم قد احتشدَ بما في ميسوره من ذٰلك ، فالتقى المسلمون والكُفَّارُ ، ثمَّ تنازلوا للقتال وتصافَفُوا ، ودامَ القتالُ بينهم صدراً كبيراً من النهار ، وكان المسلمون في

(١) الدَّرَق : جمع دَرَقَةٍ ؛ وهي التُّرس يُتخذُ من الجلود .
(٢) المَزاريق : جمع مِزْرَاقٍ ؛ وهو الرُّمح القصير .

خسارة ، فأفزعَ المقتدرَ ذٰلك ، وفَرِقَ المسلمون من شرِّ ذٰلك اليوم .

فدعا المقتدرُ رجلاً من المسلمين لم يكن في الثُّغور أعرفُ منه بالحروب يُسمَّىٰ : سعدادة ، فقال له المقتدر : (كيف ترىٰ هٰذا اليوم ؟) ، قال سعدادة : (هٰذا يومٌ أسودُ ، ولٰكن قد بقيت لي حيلةٌ) ، فذهبَ سعدادة ، وكان زِيُّه زِيَّ الروم ، وكلامُه كلامَهم ؛ لمجاورتهم وكَثرةِ مخالطتهم ، فانغمسَ في عسكر الكُفَّار ، ثمَّ قصدَ إلى الطاغية رُدْمِير فألفاه شاكّاً في السلاح ، مقنَّعاً بالحديد ، لا يظهرُ منه إلا عيناه ، فجعلَ يتخيَّلُه ويترصَّدُ غِرَّتَه إلىٰ أن أمكنته الفُرصةُ منه ، فحملَ عليه فطعنه في عينه ، فخرَّ صريعاً لليدين وللفمِ ، ثمَّ جعلَ ينادي بلسان الروم : (قُتِلَ السلطانُ يا معشرَ الروم) ، وشاعَ قتلُه في العسكر ، فتخاذَلُوا ووَلَّوْا منهزمين ، وكان الفتحُ بإذن الله تعالىٰ .

ولمَّا استضعفت الرومُ صِقِلِّيَّةَ . . ضُربَ عليهم الخَراج ، فكانوا يحملون إليهم الخَراج ، ويحملون الأموالَ إلى العربِ بإفريقيَّة ويستنجدون بهم على الروم ، فقال لهم ملك الروم : إنَّما مَثلي ومَثلُكم يا أهلَ صِقِلِّيَّة مَثَلُ رجلٍ كهلٍ له زوجتان ؛ عجوزٌ وصبيةٌ ، فكان إذا باتَ عند الصبيةِ . . تَلقُطُ الشَّيبَ من لحيته ؛ لِتُصبِيَه فيزهدَ في العجوز ، وإذا بات عند العجوز . . تَلقُطُ الشعر الأسود من لحيته ؛ لتُشِيخَه فتزهدَ الصبيةُ فيه ، فيوشكُ إن دامَ هٰذا به أنْ يبقىٰ أطلسَ [1] ، كذٰلك حالُكم معي ومع العرب ؛ إذا أدَّيتم المالَ لي ولهم . . فيُوشِكُ أن تَنفَدَ أموالُكم فتَبقَوْا فقراءَ ضعفاءَ ، فأتسلَّمُكم وأتسلَّمُ البلاد .

ويُروىٰ أنَّه لمَّا رامَ أخذَ صِقِلِّيَّةَ . . أمرَ أن يَبسطُوا بساطاً في الأرض ، ثمَّ جعلَ في وسطه ديناراً ، ثمَّ قال لوجوه رجاله : (من وصلَ منكم إلى الدينارِ ولم يَطأ البساطَ . . علمتُ أنه يصلحُ للملك ، فوقفوا حوله ولم يَصِلْ أحدٌ إليه ، فلمَّا أعياهم ذٰلك . . طوىٰ ناحيةَ البساطِ من عنده وأمرَ كلَّ واحد منهم أن يطويَ

---

(١) أطلس : ساقط الشعر ، والأطلس : الذئب الذي تساقط شعره .

ممَّا يليه ، حتىٰ طُوي البساطُ ، فمَدُّوا أيديَهم فَلَحِقُوا الدينارَ ، فحينئذٍ قال لهم : إذا أردتُم مدينةَ صِقِلِّيَّةَ . . فخذوا ما حولها من الحصونِ والمدنِ الصغارِ والضِّياعِ والقُرىٰ ، حتىٰ إذا ضعفت . . أخذتُموها) .

وكان بسَرَقُسْطةَ فارسٌ يقال له : ابن فتحونٍ ، وكان يناسِبُني من جهة أُمِّي ، فيقعُ خالَ والدتي ، وكان أشجعَ العرب والعجم ، وكان المستعينُ بالله أبو المقتدر بالله يرىٰ له ذٰلك ويُعظِّمُه ، وكان يُجري له في كل عَطيَّةٍ خمسَ مئةِ دينارٍ ، وكانت النصرانيةُ بأسرها قد عرفت مكانَه وهابت لقاءَه .

فيحكىٰ أنَّ الروميَّ كان إذا سقىٰ فرسَه فلم يشرب . . يقولُ له : اشربْ ، أَوَابنَ فتحونٍ رأيتَ في الماء ؟ فحسدَه نظراؤه علىٰ كَثرةِ العطاءِ ومنزلتهِ من السلطان ، فأوغروا به صدرَ المستعين ، فمنعه أياماً .

ثمَّ إنَّ المستعينَ أنشأَ غزوةً إلىٰ بلاد الروم ، فتواقفَ المسلمون والمشركون صفوفاً ، ثمَّ برزَ عِلْجٌ إلىٰ وسط المَيدان ينادي : هل من مبارزٍ ؟ فخرجَ إليه فارسٌ من المسلمين ، فتجاولا ساعةً ، فقتلَه الروميُّ ، فصاحَ الكفارُ سروراً ، وانكسرت نفوسُ المسلمين ، وجعلَ الروميُّ يَكُرُّ بين الصَّفَّين وينادي : هل من اثنين لواحد ؟ فخرج إليه فارسٌ من المسلمين ، فتَجاولا ساعةً فقتلَه الروميُّ ، فصاحَ الكفَّارُ سروراً ، وانكسرت نفوسُ المسلمين ، وجعلَ يجولُ بين الصَّفَّين وينادي ويقول : ثلاثةٌ لواحدٍ ؟

فلم يستجرئ أحدٌ من المسلمين أن يخرجَ إليه ، وبقيَ الناسُ في حَيرةٍ ، فقيلَ للسلطان : ما لها إلا أبو الوليدِ بنُ فتحونٍ ، فدعاه وتلطَّفَ وقالَ له : أَمَا ترىٰ ما يصنعُ هـٰذا العِلْجُ ؟ فقال : هو بعيني ، قال : فما الحيلةُ فيه ؟ قال أبو الوليد : فماذا تريدُ ؟ قال : أريدُ أن تكفيَ المسلمين شرَّه ، قال : الساعةَ يكونُ ذٰلك إن شاء الله تعالىٰ .

فلَبِسَ غِلالةَ كَتَّانٍ[١] ، واستوىٰ علىٰ سَرْجِه بلا سلاح ، وأخذَ بيدِه سَوطاً طويلَ الطَّرف ، وفي طَرَفِهِ عقدةٌ معقودةٌ ، ثمَّ برزَ إليه ، فتعجَّبَ منه النصرانيُّ ، ثمَّ حملَ كلُّ واحدٍ منهما علىٰ صاحبه ، فلم تَخْطُ طعنةُ النصرانيِّ سَرجَ ابنِ فتحونٍ ؛ وإذا ابنُ فتحونٍ متعلِّقٌ برقبةِ الفرسِ ، ونزلَ إلى الأرض لا شيءَ منه في السَّرج ، ثمَّ طَفَرَ علىٰ سَرجه ، وحملَ عليه فضربه بالسَّوطِ علىٰ عنقه ، فالتوىٰ علىٰ عنقه ، وأخذه بيدِه من السَّرج فاقتلَعه من سَرجه وجاءَ به يَجُرُّه ، فألقاه بين يدي المستعين ، فعلمَ المستعينُ أنه كان قد أخطأَ في صنعه معه ، فأكرمَه وردَّه إلىٰ أحسن أحواله .

❁ ❁ ❁

أَلَا يا أيُّها الأجنادُ ؛ أقِلُّوا الخلافَ على الأمراء ، فلا ظَفَرَ مع اختلافٍ ، ولا جماعةَ لمن اختُلِفَ عليه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[٢] .

❁ ❁ ❁

واعلموا : أنَّ أولَ الظَّفَرِ الاجتماعُ ، وأولَ الخِذْلان الافتراقُ ، وعمادَ الجماعةِ السمعُ والطاعةُ .

وإنما أُتِيَ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه يومَ صِفِّين من العصيان ، وكان قد ظهرَ أهلُ العراق علىٰ أهلِ الشام ، وتضعضعت صفوفُ معاويةَ ، فأحسَّ بالشَّرِّ وأنَّه مغلوبٌ ، فقال لعمرِو بنِ العاص : اذهب فخذْ لنا الأمانَ من ابنِ عَمِّك ـ يعني : عليّاً ـ فأدارَ عمرٌو الحيلةَ ، وأمرَهم أن يرفعوا المصاحفَ في أطراف الرماح وينادوا : ندعوكم إلىٰ كتاب الله تعالىٰ ، فلمَّا رأىٰ ذٰلك أصحاب علي . .

---

(١) في (ج ، د ، هـ) : (قميص كتان) ، والغِلالة : الثوبُ الذي يُلبس تحت درع الحديد أو تحتَ الثياب .
(٢) سورة الأنفال : (٤٦) .

كَفُّوا عن الحرب ، فقال لهم عليٌّ رضي الله عنه : أيْ قومِ ؛ هـٰذه مكيدةٌ منهم ، ولم يبقَ في القوم دفاعٌ ، فعَصَوْه وتركوا القتال ، وكان ذٰلك سببَ الحَكَمين [1] .

واعلموا : أنَّ مِن أحزم مكايد الحرب إذكاءَ العيون ، واستطلاعَ الأخبار ، وإفشاءَ الغلبة ، وإظهارَ السرور ، وإماتةَ الخوف ، والاحتراسَ من العدو ، وألا تُحرجَ هارباً إلىٰ قتال ، ولا تُضيّقَ أماناً علىٰ مستأمِنٍ .

وقال بعض المصنفين : (كَثرةُ التكبيرِ عند اللقاءِ فَشَلٌ ؛ غُضُّوا الأصواتَ ، وتجلببوا السكينةَ ، وأكملوا [اللُّؤَم] [2] ، وأخفُوا الخبرَ ، وادَّرعوا الليلَ ؛ فإنه أخفىٰ للويل) .

الليل يكفيك الجبان ونِصفَ الشجاع .

الليلُ المددُ الأعظم .

الحازمُ يَحذَرُ عدوَّه علىٰ كل حال ؛ المواثبة إن قَرُبَ ، والغارة إن بَعُدَ ، والكمين إن انكشفَ ، والاستطرادَ إن وَلَّىٰ .

الجهلُ قوة الجرأة .

من اغترَّ بقوته . . فقد وَهَنَ ، ليس من القوةِ التورطُ في الهُوَّة .

لتكن أشدَّ ما كنتَ حذراً ما كنتَ عند نفسك أكثرَ قوةً وعدداً .

من استضعف عدوَّه . . اغترَّ ، ومن اغترَّ . . ظَفِرَ به عدوُّه .

أشعروا قلوبكم في الحرب الجرأةَ ؛ فإنها سببُ الظَّفَر ، واذكروا الضغائن ؛ فإنها تَبعثُ على الإقدام ، والزموا الطاعة ؛ فإنها حصنُ المحارب .

---

(١) انظر « البداية والنهاية » (٧/٤٦٣ ـ ٤٧١) .

(٢) في (أ ، ب ، د ، هـ ، و) : (اللوام) ، و(جـ) : (الكرام) ، و(ز) : (اللوازم) ، و(ح) : (وأقلوا اللوم) ، ولعل ما أثبتناه أقرب إلى الصواب ، واللُّؤَم : جمع لَأْمَة ؛ وهي الدرع ، وقيل : أداة الحرب كلها ؛ من رمح ، وبيضة ، ومِغْفَر ، وسيف ، ودرع .

إذا وقع اللقاء . . نزل القضاء .

إذا لقي السيفُ السيفَ . . زال الخِيار .

رُبَّ مكيدةٍ أبلغُ من نجدة .

رُبَّ كلمةٍ هَزَمت عسكراً .

الصبرُ سببُ النصر .

الظَّفَرُ مع الصبر .

اجعل قتالَ عدوِّك آخِرَ حِيَلِك .

النصرُ مع التدبير .

لا ظَفرَ مع بغي .

لا تغترَّ بالأقوياء لفضل قوتك على الضعفاء .

لا تَجبُنوا عند اللقاء ، ولا تُمثِّلُوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تَغُلُّوا عند الغنائم ، ونَزِّهُوا الجهادَ عن عَرَض الدنيا .

❋ ❋ ❋

الباب الثاني والستون
في القضاء والقدر وأحكامهما

اعلم وفقك الله : أنَّ مذاهبَ الخلق في القضاء والقدر وخلقِ الأفعال وإرادةِ الكائنات منتشرةٌ ، ولا يَخرُجُ عن علمِه وقضائِه وقَدَرِه وحُكمِهِ حادثٌ ؛ فمن خالفَنا في القضاءِ والقَدَر . . وافقنا في العلم .

وقد تباينَ الخلقُ فيه ، وتشتَّتت مذاهبُهم ، وتقاطعوا فيه وتدابروا ، وكلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون .

ولم نضع هـٰذه الترجمةَ لاستيفاءِ ما قالوا والاحتجاجِ لكلِّ فريقٍ ؛ لأنَّ ذٰلك يستدعي مجلداتٍ وأسفاراً ، وإنَّما نذكرُ في هـٰذا الكتاب أحكاماً ظاهرةً قريبةً من العقول ؛ لتقريب الفائدة على الناظر فيه .

فاعلم أولاً : أنَّ كلَّ ما يجري في العالم ؛ من حركةٍ وسكونٍ ، وخيرٍ وشرٍّ ، ونفعٍ وضُرٍّ ، وإيمانٍ وكفرٍ ، وطاعةٍ ومعصيةٍ ، وكذٰلك لا يطيرُ طائرٌ بجناحيه ولا يَدِبُّ حيوانٌ علىٰ بطنه أو رجليه ، ولا تطيرُ بَعُوضةٌ ، ولا تسقطُ من ورقةٍ . . إلا بقضاءِ الله تعالىٰ وقدرِه وإرادتِه ومشيئتِه ، كما لا يجري شيءٌ من ذٰلك إلا وقد سبقَ علمُه به .

* * *

ثمَّ اعلم : أنَّ القَدَرَ والطلبَ لا يتنافيان ، والتوكلَ والكَسْبَ لا يتضادَّان ؛ وذٰلك أنْ تعلمَ أنَّ كلَّ ما قضاه اللهُ تعالىٰ وقدَّرَه . . فهو كائنٌ لا محالةَ ، كما أنَّ ما عَلِمَ اللهُ تعالىٰ أنه يكونُ . . فهو كائنٌ ؛ فمن خالفَنا في القضاء والقدر . . وافَقَنا في العلم .

فَرُبَّ أمرٍ قدَّرَ اللهُ تعالىٰ وصولَه إليك بغير طلبٍ . . فهو واصلٌ إليك ، ورُبَّ أمرٍ

قَدَّرَ اللهُ تعالىٰ وصولَه إليك بعد الطلب . . فلا يَصِلُ إليك إلا بالطلب ؛ فالطَّلبُ أيضاً من القَدَر ، لا فرقَ بين الأمر المطلوب وبين الطلبِ في أنهما مقدوران .

فمن هٰهنا قلنا : إنهما لا يتنافيان ، وكذٰلك التوكل مع الكسب ؛ لأنَّ التوكلَ محلُّه القلبُ ، والكسبَ محلُّه الجوارحُ ، ولا يتضادُّ شيئان في محلَّين بعدما يتحقَّقُ العبدُ أن التقديرَ من قِبَلِ الله تعالىٰ ؛ فإن تعسَّرَ شيءٌ . . فبتقديره ، وإن اتفقَ شيءٌ . . فبتيسيره .

قال أنس : جاء رجلٌ علىٰ ناقة له فقال : يا رسول الله ؛ أدعُها وأتوكلُ ؟ فقال : « اِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »(١) .

فالتوكلُ والاعتصامُ بالقدر يُستمدَّان من العقل ، والطلبُ والكسبُ يُستمدَّان من الأمر ، فالتوكلُ على الله تعالىٰ : هو الثقةُ بما ضَمِنه ، والقطعُ بكونِ ما حَكَمَ به .

فمن رامَ أمراً من الأمور . . فليس الطريقُ في تحصيله أن يُغلقَ بابَه عليه ، ويفوضَ أمرَه إلىٰ ربِّه ، وينتظرَ حصولَ ذٰلك الأمرِ ، بل الطريقُ أن يَشرَعَ في طلبه على الوجه الذي شرعَه اللهُ تعالىٰ له فيه .

وقد ظاهرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بين دِرْعَينِ(٢) ، واتخذَ خندقاً حولَ المدينة يستظهرُ به ويحترسُ من العدو ، وأقامَ الرُّماةَ يومَ أُحُدٍ ؛ ليحفظوه من خالدِ بنِ الوليدِ ، وكان يَلبَسُ لَأْمَةَ الحرب ، ويُعبِّئُ الجيوش ، ويأمرُهم وينهاهم بما فيه مصالحهم ، واسترقىٰ وأمر بالاسترقاء ، وتداوىٰ وأمرَ بالمداواة ، وقال : « أَنْزَلَ ٱلدَّاءَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلدَّوَاءَ »(٣) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١١٦١) .

(٢) ظاهر بين درعين : طابق بينهما ولَبِسَ أحدهما على الآخر .

(٣) رواه مالك في « الموطأ » (٢/٩٤٣ ـ ٩٤٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٨٨٦) مرسلاً عن زيد بن أسلم رحمه الله تعالىٰ .

فإن قيل : أليس قد رُوِيَ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنِ ٱسْتَرْقَىٰ أَوِ ٱكْتَوَىٰ . . فَقَدْ بَرِئَ مِنَ ٱلتَّوَكُّلِ » ؟![1] .

قلنا : أليس قد قال : « اِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » ، وظاهرَ بين دِرْعين ، وسائر ما ذكرناه آنفاً ؟!

فإن قيل : فما المخرجُ من ذٰلك ؟

قلنا : معناه : من استرقىٰ واكتوىٰ متوكِّلاً على الرُّقية والكَيِّ ، وأنَّ البُرءَ من قِبَلِهما خاصةً . . فهٰذا يُخرجُه من التوكُّل ، وإنما يفعلُه كافرٌ يضيفُ الحوادثَ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا من باشرَ الأسبابَ والأدويةَ وتعاطىٰ تدبيرَ الأمورِ بنفسِه وأعوانِه ومالِه علىٰ ما جرت به سيرةُ اللهِ تعالىٰ في أرضِهِ وعادتُه في خلقه غيرَ معتمدٍ علىٰ شيءٍ من ذٰلك ، بل هو واثقُ القلبِ أنَّ ما حصلَ فبتقديره ، وما تعسَّرَ فبتقديره ، ومعتمدُه في ذٰلك على المُسبِّبِ لا على الأسباب . . فهٰذا هو المتوكِّلُ ، لٰكن شرطه : أن يمشيَ في ذٰلك كله على الأمر ، ولا يسلكَ طريقاً فيه معصيةٌ ، فليس يُستدرُّ ما عند الله تعالىٰ بمعاصيه .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « من ابتغىٰ أمراً بمعصية الله تعالىٰ . . كان أبعدَ لما رجا ، وأقربَ لمجيءِ ما اتَّقىٰ »[2] .

ومن ظنَّ أنَّ الطلبَ والاكتسابَ يناقضُ التوكلَ ؛ فقعدَ في بيته وأغلقَ بابَه متوكِّلاً على الله تعالىٰ في زعمه . . كان عن العقل خارجاً ، وفي تِيهِ الجهل والِجاً ، ويقال له : فيجبُ من هٰذا إذا جُعتَ وحضرَ الطعامُ . . ألَّا تَمدَّ يَدك إليه ، وألَّا تفتحَ فمَك له ، فإن تمادىٰ علىٰ ذٰلك . . كان إلى العقل أحوجَ منه إلى المعرفة ، وينبغي لأهله أن يُداووه .

---

(١) رواه ابن حبان (٦٠٨٧) ، والترمذي (٢٠٥٥) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .
(٢) رواه في « حلية الأولياء » (٣٣٩/٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

ألا ترىٰ أن الله تعالىٰ قال لمريم عليها السلام: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾[1]، فهلَّا أمرَها بالسُّكون، ثم حملَ الرُّطَبَ إلىٰ فمها، وهٰكذا القولُ فيمن له دابةٌ وبستانٌ، فيؤمرُ بسقيِ البستانِ وحفرِه وإصلاحِ شأنه، ويؤمرُ بأنْ يَعلِفَ الدابةَ ويَسقِيَها.

وأنشدوا[2]: [من الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱللهَ قَـالَ لِمَرْيَـمٍ ... وَهُزِّي إِلَيْكِ ٱلْجِذْعَ يَسَّـاقَطِ ٱلرُّطَبْ
وَلَوْ شَاءَ أَحْنَى ٱلْجِذْعَ مِنْ غَيْرِ هَزِّهَا ... إِلَيْهَـا وَلَـٰكِنْ كُلُّ شَـيْءٍ لَـهُ سَـبَبْ

وهٰكذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى ٱللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ .. لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ ٱلطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً »[3].

فلم يَحمِلْ إليها أرزاقَها في أوكارها، بل ألهمَها طلبَها بالغُدُوِّ والرَّوَاح.

وقد كان جهيلٌ[4] رئيسُ القندهار[5] يرىٰ من تصديق القَدَرِ وتكذيبِ الطَّلَب دون أهل زمانه من الملوك .. ما حَجَره عن الطلبِ والتدبيرِ، فأخرجَه إخوتُه من سلطانه، وقَهَرُوه علىٰ مملكته، فقال له بعض الحكماء: (إنَّ تركَ الطلبِ يُضعفُ الهِمَّةَ ويُذِلُّ النفسَ، وصاحبُه صائرٌ إلىٰ أخلاقِ ذواتِ الأجحرةِ من الحيوان؛ كالضَّبِّ وسائرِ الحشرات، تنشأُ في أجحرتِها، وفيه يكونُ موتُها).

ثمَّ جمعوا بين القَدَرِ والطلب وقالوا: إنهما كالعِدْلينِ علىٰ ظهر الدابة؛ إن حُمِلَ في واحدٍ منهما أرجحَ ممَّا حُمِلَ في الآخر .. سقط حِملُه، وتَعِبَ

---

(١) سورة مريم: (٢٥).
(٢) أورد البيتين في « ثمار القلوب » (٨٤٤/٢)، و« بهجة المجالس » (١٤٢/١).
(٣) رواه الحاكم (٣١٨/٤)، وابن حبان (٧٣٠) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٤) في (و): (جهبل).
(٥) في (ب): (القيدهارس)، و(ج): (القندهاريين)، و(د): (الفندهارس)، و(هـ): (العندهارس)، و(و): (الهندهار)، وسقطت (رئيس القندهار) من (أ).

ظهرُه ، وثقلَ عليه سفرُه ، وإن عادلَ بينهما .. سَلِمَ ظهرُه ، ونجحَ سفرُه ، وتمَّت بُغيتُه .

وضربوا فيه مثلاً عجيباً وقالوا : إنَّ أعمَىٰ ومُقعداً كانا في قرية بفَقْرٍ وضُرٍّ ، لا قائدَ للأعمىٰ ، ولا حاملَ للمُقعد ، وكان في القريةِ رجلٌ يُطعِمُهما كُلَّ يوم قُوتَهما احتساباً لله تعالىٰ يأتي بطعامهما وشرابهما ، فلم يزالا في عافية[١] إلىٰ أنْ هَلَكَ المُحتسِبُ ، فَلَبِثا بعده أياماً ، فاشتدَّ جُوعُهما ، وبلغَ الضُّرُّ منهما جُهدَه ، فأجمعَ رأيُهما علىٰ أن يَحمِلَ الأعمَى المُقعدَ ، فَيدُلَّه المُقعدُ على الطريق ببصره ، ويستقلَّ الأعمىٰ بحَملِ المُقعدِ ، فيدوران في القرية يَستطعمانِ أهلَها ، ففعلا ، فنجحَ أمرُهما ، ولو لم يفعلا ذٰلك .. هلكا .

فكذٰلك القَدَرُ سَببُه الطلبُ ، والطلبُ سببُه القَدَرُ ، وكلٌّ واحدٍ منهما مُعِينٌ لصاحبه .

فأخذَ جهيلٌ في الطلب ، فظَفِرَ بأعدائه ، ورَجَعَ إلىٰ مُلكه ، فكان جُهيلٌ[٢] يقولُ : (لا تَدعَنَّ الطلبَ اتكالاً على القَدَر ، ولا تُجهدَنَّ نفسَك في الطلب معتمداً عليه مستهيناً بالقَدَر ؛ فإنَّك إذا أجهدتَ نفسَك بالطلب بوجوهِ التدبيرِ المحمودةِ مُصدِّقاً بالقَدَرِ .. نِلْتَ ما تحاولُ ولم تَلتوِ عليك الأمورُ ، وإن عَمِلتَ بذٰلك ، فالتوىٰ عليك أمرٌ من مطلوبك .. فذٰلك من إعاقة القَدَر ، وأنَّك قد أتيتَ ذنباً ، فتفقَّدْ جوارحَك ، واستكشفْ ظاهرَك وباطنَك ، وتُبْ إلى الله تعالىٰ من كلِّ ذنبٍ أتيتَه بجارحةٍ من جوارحك ، واخرُجْ من كلِّ مَظلَمةٍ ظلمتَها ، فإذا فعلتَ ذٰلك .. قابلَكَ الحَظُّ ، وساعدكَ القَدَرُ إن شاء الله تعالىٰ) .

واعلم : أنَّ علىٰ هٰذا الأصل الذي قَرَّرناه يُخرَّجُ عليه كلُّ ما وردَ في القرآن

(١) في (أ) : (فلم يزالا في نعمة) ، وفي (ب) : (فلم يزالا بخير وعافية) .
(٢) في (هـ ، ز) : (جهبل) .

العظيم وحديثِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم ؛ من الأمرِ بالتوكُّلِ على اللهِ تعالىٰ ، والتسليمِ إليه ، والتفويضِ له .

ومن ذٰلك : أنَّ سليمان الخوَّاصَ تلا يوماً قولَه تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[1] فقال : (ما ينبغي لعبدٍ بعد هٰذه الآيةِ أنْ يلجأَ إلىٰ أحدٍ غيرِ الله تعالىٰ)[2] .

قلنا : معناه : لا يلجأُ إلى الأسباب اعتماداً عليها ، ولٰكن يلجأُ إليها واثقاً بأنَّ الله تعالىٰ يفعلُ ما يشاءُ ، كما أمرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعقلِ الناقةِ ولَبِسَ دِرعين .

ألا ترىٰ أنَّ من يطلبُ الزرعَ والولدَ ، ثمَّ قعدَ في بيته ولم يطأْ زوجتَه ، ولا بَذَرَ أرضَه ، معتمداً في ذٰلك على الله تعالىٰ ، واثقاً به أنْ تلدَ امرأتُه من غيرِ وِقاعٍ ، وتنبُتَ أرضُه الزرعَ من غير بَذْرٍ . . كان عن المعقول خارجاً ، ولأمرِ اللهِ تعالىٰ تاركاً .

وللأئمة والحكماء في القَدَرِ ألفاظٌ بارعةٌ سليمةٌ على [السَّبر] والامتحان[3] ؛ منها ما رُوِيَ أنَّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه سُئِلَ عن القَدَرِ ، فأعرضَ عن السائل ، فأبىٰ إلا الجوابَ ، فقال عليٌّ رضي الله عنه : (أَخبِرْني : أخلقَكَ اللهُ تعالىٰ كما شئتَ أو كما شاءَ ؟ فأمسكَ الرجلُ ، فقال عليٌّ رضي الله عنه للحاضرين : أَترونه يقول كما أشاء ؟ إذاً واللهِ أضربُ عُنقَه ، فقال الرجل : كما شاءَ ، فقال عليٌّ : أَيُحييك كما تشاء أو كما يشاء ؟ قال : كما يشاء ، قال : أَيُميتُك كما تشاء أو كما يشاء ؟ قال : كما يشاء ، قال : أَفَيَحْشُرُك كما تشاءُ أو

---

(١) سورة الفرقان : (٥٨) .

(٢) أورده الغزالي في « الإحياء » (١٩٩/٨) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « التوكل » (٣٧) ، وذكر فيه أن رجلاً أقبل علىٰ سليمان الخواص وقال له هٰذا الكلام .

(٣) في (أ) : (على الشين والامتحان) ، و(ب ، د ، هـ ، و) : (على السير والامتحان) و(ج ، ز) : (على السرّ والامتحان) .

كما يشاءُ ؟ قال : كما يشاءُ ، قال : أَفيُدخِلُك حيثُ تشاء أو حيث يشاء ؟ قال : حيث يشاء ، قال : قُم فليس لك من الأمرِ شيءٌ)[١] .

ورُوي أنَّ رجلاً قَدَريّاً ومَجُوسيّاً تناظرا ، فقالَ القَدَرِيُّ للمجوسيِّ : (ما لكَ لا تُسلِمُ ؟ فقال المجوسيُّ : لو أرادَ اللهُ تعالىٰ . . لأَسلمتُ ، فقال القَدَرِيُّ : قد أرادَ اللهُ أن تُسلِمَ ولٰكنَّ الشيطانَ يمنعُك ، قال المجوسيُّ : فأنا مع أقواهما)[٢] .

ورُوِيَ في الإسرائيليات : أنَّ نبياً من أنبياء الله تعالىٰ مرَّ بفَخٍّ منصوبٍ ؛ وإذا بطائرٍ قريبٍ منه ، فقال الطائر : (يا نبيَّ اللهِ ؛ هل رأيت أقلَّ عقلاً من هٰذا الذي نَصَبَ هٰذا الفَخَّ ليصيدني فيه وأنا أنظرُ إليه ؟! قال : فذهبَ عنه النبيُّ عليه السلام ثمَّ رجَعَ ؛ فإذا الطائرُ في الفخِّ ، فقال له : عجباً لك ! ألستَ القائلَ آنفاً كذا وكذا ؟! فقال : يا نبيَّ الله ؛ إذا جاء الحَينُ . . لم تبقَ أذنٌ ولا عينٌ)[٣] .

وقال رجلٌ من الخوارج لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه : (أرأيتَ مَن جنَّبني سُبلَ الهدىٰ ، وسلكَ بي سُبُل الرَّدَىٰ ؛ أأحسنَ إليَّ أم أساءَ ؟ فقال له عليٌّ : إن كنتَ استوجبتَ عليه حقاً . . فقد أساءَ ، وإن كنتَ لم تستوجبْ عليه شيئاً . . فهو يفعلُ ما يشاء)[٤] .

وقال ميمونُ بن مِهران لغَيلانَ القَدَرِيِّ : (سلْ ، فأقوىٰ ما تكونونَ إذا سألتُم ، فقال غيلان : أشاءَ اللهُ أن يُعصىٰ ؟ فقال ميمون : أَفيُعصىٰ كارهاً) ، فانقطعَ غَيلان[٥] .

---

(١) رواه بنحوه الآجري في « الشريعة » (٤٢٢) ، وأورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٣٧٩) .
(٢) رواه في « عيون الأخبار » (٢/١٤٢) ، وأورده في « العقد الفريد » (٢/٣٨٣) .
(٣) أورده بنحوه القرطبي في « تفسيره » (١٣/١٦٥) بين سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام وهدهد .
(٤) أورده بنحوه في « تفسير القرطبي » (١١/٢٧٩) .
(٥) رواه الطبري في « تاريخه » (٧/٢٠٣) .

ورُوي أنَّ رجلاً قال لِبُزْرُجُمِهْرَ : (تعالَ نتناظرْ في القَدَرِ ، قال : وما نصنعُ بالمناظرةِ في القَدَر ؟ رأيتُ ظاهراً استدللتُ به علىٰ باطن ؛ رأيتُ أحمقَ مرزوقاً ، وعاقلاً محروماً ، فعلمتُ أنَّ التدبيرَ ليس إلى العباد)[1] .

وقال بعضهم[2] : [من الطويل]

يَخِيبُ ٱلْفَتَىٰ مِنْ حَيْثُ يُرْزَقُ صَاحِبُهْ   وَيُعْطَى ٱلْمُنَىٰ مِنْ حَيْثُ يُحْرَمُ طَالِبُهْ

ولمَّا قَدِمَ موسى بن نصير بعد فتح الأندلس علىٰ سليمان بن عبد الملك . . قال له يزيدُ بنُ المُهلَّب : (أنت أدهى الناس وأعلمُهم ، فكيف طرحتَ نفسَك في يدِ سليمان ؟! فقال له موسىٰ : إن الهُدهد يهتدي إلى الماءِ في الأرض الفيفاء ، ويُبصرُ القريبَ منه من البعيد علىٰ بُعده من التُّخوم ، ثم يَنصِبُ له الصبيُّ الفخَّ بالدُّودةِ والحَبَّة ، فلا يُبصِرُه حتىٰ يقعَ فيه)[3] .

وفي الإسرائيليات : أنَّ الهُدهدَ كان رائدَ سليمان بن داوود عليهما السلام إلى الماء ، فيتقدَّمُ عسكرَه ، ثمَّ ينظرُ الأرضَ فيقول : الماءُ هـٰهنا علىٰ ألف قامة أو أقلَّ أو أكثرَ ، فتبادرُ الجنُّ تحفِرُه ، فلا يلحقُ سليمانُ عليه السلام إلا وقد استعد الماء[4] .

* * *

واعلموا : أنَّ الهاربَ ممَّا هو مقضيٌّ مُقدَّرٌ كالمنقلب في كفِّ الطالب .

وأنشد بعضهم[5] : [من الكامل]

وَإِذَا خَشِيتَ مِنَ ٱلْأُمُورِ مُقَدَّراً   وَفَرَرْتَ مِنْهُ فَنَحْوَهُ تَتَوَجَّهُ

---

(١) أورده في « البصائر والذخائر » (١٧٤/٤) .
(٢) البيت لأبي الشيص الخزاعي في « ديوانه » (ص ٣٢) .
(٣) أورده مطولاً في « نفح الطيب » (٢٨٣/١) .
(٤) رواه في « المستدرك » (٤٠٥/٢) .
(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢٩٧/٤) .

ولبشار[1] : [من الطويل]

طُبِعْتُ عَلَىٰ مَا فِيَّ غَيْرَ مُخَيَّرٍ هَوَايَ وَلَوْ خُيِّرْتُ كُنْتُ ٱلْمُهَذَّبَا
أُرِيدُ فَلَا أُعْطَىٰ وَأُعْطَىٰ فَلَمْ أُرِدْ وَقَصَّرَ عِلْمِي أَنْ أَنَالَ ٱلْمُغَيَّبَا
وَأُصْرَفُ عَنْ قَصْدِي وَعِلْمِي مُقَصِّرٌ وَأُمْسِي وَمَا أَعْقَبْتُ إِلَّا ٱلتَّعَجُّبَا

ولمَّا وقعَ الطاعونُ بالكوفة . . فرَّ ابنُ أبي ليلىٰ[2] علىٰ حمارٍ له يطلبُ النجاةَ ، فسمع منشداً ينشدُ : [من الرجز]

لَنْ يُسْبَقَ ٱللهُ عَلَىٰ حِمَارِ وَلَا عَلَىٰ ذِي مَنْعَةٍ طَيَّارِ
أَوْ يَأْتِيَ ٱلْحَتْفُ عَلَىٰ مِقْدَارِ قَدْ يُصْبِحُ ٱللهُ أَمَامَ ٱلسَّارِي

فكَرَّ راجعاً إلى الكوفة وقال : (إذا كان اللهُ أمامَ الساري . . فلاتَ حينَ مَهرَبٍ)[3] .

وأنشد بعضهم[4] : [من الوافر]

أَقَامَ عَنِ ٱلْمَسِيرِ وَقَدْ أُنِيخَتْ مَطَايَاهُ وَغَرَّدَ حَادِيَاهَا
وَقَالَ أَخَافُ عَادِيَةَ ٱللَّيَالِي عَلَىٰ نَفْسِي وَأَنْ أَلْقَىٰ رَدَاهَا
فَقُلْتُ لَهُ عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا بَلَغْتَ مِنَ ٱلْعَزِيمَةِ مُنْتَهَاهَا
فَمَنْ كُتِبَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا

ولمَّا قَتلَ كسرىٰ بُزُرْجُمِهْرَ . . وجدوا في مِنطَقته كتاباً فيه : (إذا كان القَدَرُ

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (١/٢٦٩ ـ ٢٧٠) ، ورواية البيت الثالث فيه :

وأُصرَفُ عن قصدي وحِلْميَ مُبْلِغي وأُضحِي وما أَعقبتُ إلا التعجُّبا

(٢) في (أ) : (فر أبو ليلىٰ) .

(٣) أورد الخبر مع البيتين في « زهر الآداب » (٢/٩٩٥) دون نسبة ، وبنحوه في « البيان والتبيين » (٣/٢٧٨) ، و« عيون الأخبار » (١/١٤٤) دون نسبة .

(٤) في (أ) : (وقال دِعبل بن علي : عزم حميد الطوسي على الحج ، ثم بدا له ، فدخلت عليه فقلت : أصلح الله أمير المؤمنين ، ما أقعدك عن الحج ؟ فقال : بلغني أن في الطريق وباءً ، فقلت في ذٰلك . . .) ، والأبيات لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٢٠٢) .

حقّاً . . فالحرصُ باطلٌ ، وإذا كان الغدرُ في الناس طِباعاً . . فالثقةُ بكلِّ أحدٍ عجزٌ ، وإذا كان الموتُ بكلِّ أحدٍ نازلاً . . فالطمأنينةُ إلى الدنيا حُمْقٌ)[١] .

وقال ابنُ عباسٍ وجعفرُ بنُ محمدٍ والحسنُ البصريُّ رضي الله عنهم في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾[٢] : (إنما كان الكنزُ لوحاً من ذهب مكتوباً فيه :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عجبتُ لمن يؤمنُ بالقَدَرِ كيف يحزنُ ؟! وعجبتُ لمن يؤمنُ بالرِّزق كيف يتعبُ ؟! وعجبتُ لمن يؤمنُ بالموت كيف يفرحُ ؟! وعجبتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يَغفُلُ ؟! وعجبتُ لمن يعرف الدنيا وتقلُّبَها بأهلِها كيف يطمئِنُّ إليها ؟! لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله)[٣] .

وقال يحيى بن معاذ : (عجبتُ من ثلاثةٍ : رجلٍ يريدُ تناولَ رزقِه بتدبيره وهو يرىٰ تناقضَ تدبيره ، ورجلٍ شَغَلَه هَمُّ غَدِه عن عمل يومه ، ومن عالمٍ مفتونٍ يَعِيبُ علىٰ زاهدٍ مغبوطٍ)[٤] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إنَّ الرجلَ لَيُشرِفُ على الأمر من الإمارة والتجارة أو غيرهِما ، فيذكره اللهُ تعالىٰ فوق سبع سماواته فيقول للمَلَك : (اصرِفْ عن عبدي هـٰذا الأمرَ ؛ فإنِّي إن أُيسِّرْه له . . أُدخِلْه به جهنمَ) ، فيظَلُّ يتغيَّظُ علىٰ جيرانه ، فيقول : سبقني فلانٌ ، وحسدني فلانٌ ، وما صرفه عنه إلا اللهُ تعالىٰ[٥] .

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢/٢٥٨) ، و« بهجة المجالس » (٢/٢٧٩) .

(٢) سورة الكهف : (٨٢) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٦/١٦) ، وأورده الثعلبي في « تفسيره » (٦/١٨٨) ، والقرطبي في « تفسيره » (١١/٣٨) .

(٤) أورده في « البصائر والذخائر » (٢/١٥٨) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٩) من زيادات نعيم بن حماد ، وابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٥٧) .

وأنشدوا[1] : [من مجزوء الكامل]

قَالُـــوا تُقِيـــمُ وَقَـــدْ أَحَـــا طَ بِـــكَ ٱلْعَـــدُوُّ وَلَا تَفِـــرُّ
فَأَجَبْتُهُـــمْ وَٱلشَّـــيْخُ مَـــا لَـــمْ يَنْتَفِـــعْ بِٱلْعِلْـــمِ غِـــرُّ
لَا نِلْـــتُ خَيْـــراً مَـــا بَقِيـــتُ وَلَا عَدَانِـــي ٱلدَّهْـــرَ شَـــرُّ
إِنْ كُنْـــتُ أَعْلَـــمُ أَنَّ غَيْـــرَ ٱللهِ يَنْفَـــعُ أَوْ يَضُـــرُّ

استأذن العقلُ على الجَدِّ فقال : (اذهب لا حاجةَ لي بك ، فقال العقل : ولِمَ ؟ فقال : لأنك تحتاجُ إليَّ ولا أحتاجُ إليك)[2] .

وأوصىٰ حكيمٌ ابنَه فقال : (يا بُنَي ؛ رَزَقكَ اللهُ جَدّاً يخدُمكَ به ذوو العقول ، ولا رزقكَ عقلاً تخدُمُ به ذوي الجُدود)[3] .

وكان يقال : (إفراطُ العقل مُضِرٌّ بالجَدِّ)[4] .

ورُوِيَ أن رجلاً خُيِّرَ في أمرٍ ، فأبىٰ أن يختار ، وقال : (أنا بجَدي أوثقُ مني بعقلي ، فاقرعوا)[5] .

وفي الأمثال :

اسعَ بجَدٍّ لا بكَدٍّ[6] .

اسعَ بجَدٍّ أو دَعْ[7] .

---

(١) الأبيات للخليفة العباسي المسترشد بالله ، قالها لمَّا كُسِرَ وأشير عليه بالهزيمة ، أوردها الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٥٦٢/١٩) ، والصفدي في « الوافي بالوفيات » (٢١/٢٤) ، والسبكي في « طبقات الشافعية » (٢٦٢/٧) .
(٢) أورده بنحوه في « عيون الأخبار » (٣٢٩/١) ، و« محاضرات الأدباء » (٢٦/١) ، والجَدُّ : الحَظُّ .
(٣) أورده في « البصائر والذخائر » (١٠٧/٤) .
(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٣٢٩/١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢١٦٧) .
(٥) أورده بنحوه في « البصائر والذخائر » (١٨٣/٧) ، و« محاضرات الأدباء » (١٦٧/٢) .
(٦) أورده بنحوه ابن دريد في « الاشتقاق » (ص ٣٦٥) ، والميداني في « مجمع الأمثال » (١٤٦/٢) .
(٧) أورده في « جمهرة الأمثال » (١٠/١) ، و« مجمع الأمثال » (٢٠٧/٣) .

جَدُّك لا كَدُّك [1] .

الجَدُّ لا الكَدُّ .

الجَدُّ أغنىٰ من الكَدِّ .

* * *

واعلم : أنَّ زمامَ الأمور التوفيقُ ، ولم ينزل من السماء إلى الأرض أقلُّ من التوفيق [2] ، وهو مقرون بالاجتهاد ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [3] ، وقد كنتُ جمعت فيه كتاباً من جملة كتبي في « الأسرار » : هل التوفيقُ مكتسبٌ ، أو موهبةٌ بلا سبب ؟ فلا مزيدَ عليه .

ومن لطيف ما وقفتُ عليه في مجاري القضاء والقدر ، وأنَّ الهارب من المقدور كالمتقلِّب في يد الطالب : ما نزلَ في مدينة الإسكندرية من أنَّ رجلاً من خدَمةِ السلطان أخلَّ بخدمته وغابَ أياماً ، فقبَضَه الشُّرَطُ وحملوه إلى السلطان ، فخشي من سطوة السلطان ، فبينما هم يقتادونه . . إذ مرُّوا علىٰ بئر علىٰ شارع الطريق ، فانسابَ منهم وترامَىٰ في البئر ، ولهٰذه المدينة أسرابٌ تحت الأرض ، يمشي الماشي فيها قائماً ويدور فيها ؛ لأنَّ في دُورها آباراً علىٰ تلك السُّروب ، فما زال الرجل يمشي في نفق تحت الأرض إلىٰ أن لاح له بئرٌ مضيئةٌ ، فتعلَّق بها ؛ وإذا البئر في دار السلطان ، فطلع منها ، فقبضه السلطان وأدَّبه ، فكان فيه المثلُ السائرُ : الفارُّ من القضاءِ الغالبِ كالمتقلِّب في يد الطالب .

* * *

---

(١) أورده في « الأمثال » (ص ١٩٣) ، و« جمهرة الأمثال » (١/٢٩٧) ، و« مجمع الأمثال » (١/٤٣٤) ، يروىٰ بالرفع علىٰ معنىٰ : جَدُّك يُغني عنك لا كَدُّك ، وبالفتح علىٰ معنى : ابغِ جَدَّك لا كَدَّك .

(٢) في (ب ، ح) : (أجلُّ من التوفيق) .

(٣) سورة العنكبوت : (٦٩) .

الباب الثالث والستون
وهو الجامع من أخبار ملوك العجم وحكاياتهم

وهو يشتمل علىٰ خمسة فصول :

الأول : يشتمل علىٰ أخبار وقعت إلينا بعد الفراغ من هـٰذا الكتاب فألحقناها .

والثاني : يشتمل علىٰ حِكَمٍ لحكيم الفرس خاصةً .

والثالث : يشتمل علىٰ حِكَمٍ لحكيم السِّند خاصةً .

والرابع : يشتمل علىٰ حِكَمٍ لحكيم العرب خاصةً .

والخامس : يشتمل علىٰ حِكَمٍ مجموعةٍ منتخبةٍ .

رتبتها لك ؛ لتنظرَ في عقولِ القوم وأغراضِهم ومنتهىٰ مرامِهم ، مجموعةً من كتاب « جَاوِيدَانْ خِرَد » الفارسيّ .

قال : (ثلاثةٌ لا يصلحُ فسادُهنَّ بشيءٍ من الحِيلِ : العداوةُ بين الأقارب ، وتحاسدُ الأَكْفاء ، والرَّكاكةُ في العقول .

وثلاثةٌ لا يُستفسدُ صلاحُهنَّ بنوع من المكر : العبادةُ في العلماء ، والقنوعُ في المستبصرين ، والسخاءُ في ذوي الأخطار .

وثلاثةٌ لا يشبعُ منهن : الحياةُ ، والعافيةُ ، والمالُ)[١] .

وقال ابن لقمان لأبيه : (يا أبت ؛ ما الداءُ العَيَاءُ ؟ قال : رعونةٌ مولودةٌ ، قال : فما الجرحُ الدَّويُّ ؟ قال : المرأةُ السَّوء ، قال : فما الحملُ الثقيل ؟ قال : الغضبُ)[٢] .

---

(١) أورده في « جمع الجواهر » (ص ٩٦) ، و« محاضرات الأدباء » (٨٠٧/٤) .
(٢) قوله : (قال : فما الحمل . . .) أورده في « زهر الآداب » (٩٧٦/٢) .

ولمَّا قرأ هـٰذه الحكايةَ أبو عبَّاد الكاتب وكان ظريفاً في أخباره . . قال : (لـٰكن واللهِ ؛ الغضبُ أخفُّ عليَّ من ريشة ، وكان أسرعَ الناس غضباً ، فقيل له : إنما عَنىٰ لقمانُ أنَّ احتمالَ الغضبِ ثقيلٌ ، فقال : لا واللهِ ؛ لا يقوىٰ على احتمال الغضب إلا الجملُ)[1] .

وغضب يوماً علىٰ بعض أصحابه ، فرماه بدَواةٍ فشجَّه ، فجعلَ الدمُ يسيلُ ، فقال أبو عبَّاد : (صدق الله العظيم حيث قال : « والذين إذا ما غضبوا هم يَغْفرون » ، فبلغَ ذٰلك المأمونَ فاستحضره وقال له : ويلك ! لا تُحسِنُ أن تقرأ آيةً من كتاب الله تعالىٰ ؟! فقال : بلىٰ واللهِ يا أمير المؤمنين ؛ إني لأَقرأُ من سورةٍ واحدةٍ ألفَ آيةٍ ، فضحكَ المأمونُ وأمرَ بإخراجه)[2] .

وقيل لأنوشَرْوانَ : (ما العقل ؟ قال : القصد في كل الأمور ، قيل : فما المروءة ؟ قال : تركُ الرِّيبة ، قيل : فما السخاءُ ؟ قال : أن تنصفَ من نفسِك ، قيل : فما الحُمقُ ؟ قال : الإغراق في الذم والحمد) .

وقيل لبعض الحكماء : (ما الحزمُ ؟ قال : سوءُ الظنِّ ، قيل : فما الصوابُ ؟ قال : المشورةُ ، قيل : فما الذي يجمعُ القلوبَ على المودَّة ؟ قال : كفٌّ بذولٌ ، وبشرٌ جميلٌ ، قيل : فما الاحتياطُ ؟ قال : الاقتصادُ في الحبِّ والبغضِ)[3] .

وقال بعضهم في قوله : (الحزمُ سوءُ الظن) : إنما أراد سوءَ الظنِّ بنفسِه لا بغيره .

وقال معاوية لزياد حين ولاه العراق : (يا زياد ؛ ليكن حُبُّك وبغضُك قصداً ؛ فإنَّ الغِرَّةَ كامنةٌ ، واجعلْ للرجوع والنزوع بقيةً من قلبك ، واحذرْ صَولةَ الانهماك ؛ فإنَّها تُؤدي إلى الهلاك)[4] .

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (٢/٩٧٦) .
(٢) أورده في « زهر الآداب » (٢/٩٧٦) ، والآية : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورىٰ : ٣٧] .
(٣) أورده في « زهر الآداب » (٢/٥٨٧) .
(٤) أورده في « البصائر والذخائر » (٥/١٩٥) ، و« زهر الآداب » (٢/٥٨٧ ـ ٥٨٨) .

وهو مثل قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (أحببْ حبيبَك هَوْناً ما ؛ عسىٰ أن يكونَ بغيضَك يوماً ما ، وأبغضْ بغيضَك هَوْناً ما ؛ عسىٰ أن يكونَ حبيبَك يوماً ما)[١] .

ومن ذلك : قول الأول رحمه الله[٢] : [من المتقارب]

وَأَحْبِبْ حَبِيبَكَ حُبّاً رُوَيْداً فَلَيْسَ يَعُولُكَ أَنْ تَصْرِمَا

وقال الآخر[٣] : [من الطويل]

وَلَا تَيْئَسَنَّ ٱلدَّهْرَ مِنْ حُبِّ كَاشِحٍ وَلَا تَأْمَنَنَّ ٱلدَّهْرَ صَرْمَ حَبِيبِ

وسُئِلَ بُزُرْجُمِهْرُ عن العقل ، فقال : (تركُ ما لا يعني ، قيل : فما الحزمُ ؟ قال : انتهازُ الفُرصة ، قيل : فما الحِلْمُ ؟ قال : العفوُ عند المقدرة ، قيل : فما الشدةُ ؟ قال : ملكُ الغضب ، قيل : فما الخُرقُ ؟ قال : حبٌّ مغرقٌ ، وبغضٌ مفرطٌ)[٤] .

وقيل لبعض الملوك ـ وقد بلغَ في المنزلةِ والقَدْرِ ما لم يبلغه أحدٌ من ملوك زمانه ـ : (ما الذي بلغَ بك هـٰذه المنزلةَ ؟ قال : عفْوي عند قدرتي ، ولِيني بعد شِدَّتي ، وبذلي الإنصافَ ولو من نفسي ، وإبقائي في الحُبِّ والبغضِ مكاناً لموضع الاستبدال)[٥] .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٧) ، والبزار في « مسنده » (٩٨٨٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٧٠٢٦) عن سيدنا علي رضي الله عنه موقوفاً ، وقال الترمذي : (والصحيح عن عليٍّ موقوفٌ قولُه) ، وهَوْناً ما : الهَوْن : الرفق والسكينة ، والمعنىٰ : أحببْه حبّاً قصداً ذا رفق لا إفراط فيه ، وأضافه إلىٰ (ما) التي تفيد التقليل ؛ أي : حبّاً قليلاً .

(٢) البيت للنمر بن تولب رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١١٧) .

(٣) في (أ) : (وأنشدنا أبو عبد الله رحمه الله تعالىٰ) ، و(ب) : (وأنشد أبو حبيب) ، و(و) : (وأنشد أبو عبيد الله رحمه الله) ، والبيت لزيادةَ في « الشعر والشعراء » (٢/٦٩٤) ، ولزياد بن زيد في « محاضرات الأدباء » (٣/٣٣) .

(٤) أورده في « زهر الآداب » (٢/٥٨٧) .

(٥) أورده في « زهر الآداب » (٢/٥٨٧) .

وقال الإسكندر لبعض الحكماء وقد أرادَ سفراً : (أرشِدْني لأحزمِ أمري ، قال : لا تملأنَّ قلبَك محبةَ الشيء ، ولا يستولينَّ عليك بغضُه ، واجعلْهما قصداً ؛ فإنَّ القلبَ كاسْمِه يتقلَّبُ ، وله خاصيةٌ ينزع ويرجع ، واجعلْ وزيرَك التثبتَ ، وسميرَك التيقُّظَ ، ولا تُقدِمْ إلا بعد المشورةِ ؛ فإنَّها نعمَ الدليلُ ؛ فإذا فعلتَ ذٰلك .. ملكتَ قلوبَ رعيتِك)(١) .

قال الشاعر(٢) : [من الطويل]

وَمَا سُمِّيَ ٱلْإِنْسَانُ إِلَّا لِأُنْسِهِ وَلَا ٱلْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

وقيل لبعض الحكماء : (ما الدليلُ الناصحُ ؟ قال : غريزةُ العقل مع الطبع ، قيل : فما القائدُ المشفِقُ ؟ قال : حسنُ المنطق ، قيل : فما العيُّ المُعْيِي ؟ قال : تطبيعُك ما لا طبعَ له)(٣) .

* * *

وقال الفضل بن [سهل](٤) : (سألتُ رسولَ ملكِ الروم عن سيرةِ ملكهم ، فقال : بَذَلَ عُرْفَه(٥) ، وجَرَّدَ سيفَه ، فاجتمعت عليه القلوبُ رغبةً ورهبةً ، لا يَنهَضُ جندَه(٦) ، ولا يُحرِجُ رعيتَه ، سهلُ النَّوال ، حَزْنُ النكال ، الرجاءُ والخوفُ معقودان في يده .

قلتُ : فكيف حُكمُه ؟ قال : يردُّ الظلمَ ، ويردعُ الظالمَ ، ويُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ؛ فالرعيةُ اثنان : راضٍ ، ومغتبطٌ .

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (٢/٥٨٧) .

(٢) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ١١٦) .

(٣) أورده في « زهر الآداب » (٢/٥٨٦) .

(٤) في النسخ : (الفضل بن مروان) ، ولعل الصواب ما أثبتناه ، وهو وزير المأمون كما في « زهر الآداب » (١/٢٠٧) ، وأما الفضل بن مروان .. فهو وزير المعتصم .

(٥) عُرفه : معروفه .

(٦) يَنهَض : يظلم .

قلتُ : فكيف هيبتُهم له ؟ قال : يُتصوَّرُ في القلوب ، فتُغضي له العيون .

قال : فنظرَ رسولُ ملكِ الحبشةِ إلىٰ إصغائي إليه وإقبالي عليه ، وكانت الرسلُ تنزلُ عندي ، فقال لتَرجمانه : ما الذي يقولُ الروميُّ ؟ قال : يصفُ ملكَهم ، ويذكرُ سيرتَه ، فكلَّم التَّرجمانَ بشيءٍ ، فقال لي التَّرجمانُ : إنَّه يقولُ : إنَّ ملكهم ذو أَناةٍ عند القُدرة ، وذو حِلْمٍ عند الغضب ، وذو سَطوةٍ عند المغالبة ، وذو عقوبةٍ عند الاجترام ، قد كسا رعيتَه جميل نعمته ، وقهرهم بعنيف عقوبتِه ، فهم يتراءونه ترائي الهلال خيالاً ، ويخافونه مخافةَ الموت نَكالاً ، وقد وَسِعهم عدلُه ، ورَدَعَتْهم سطوتُه ، فلا تمتهنُه مَزحة ، ولا تؤنسه غفلة ، إذا أعطىٰ . . أوسع ، وإذا عاقب . . أوجع ؛ فالناسُ اثنان : راجٍ ، وخائفٌ ، فلا الراجي خائبُ الأمل ، ولا الخائفُ بعيدُ الأجل .

قلتُ : فكيف هيبتهم له ؟ قال : لا ترفعُ إليه العيونُ أجفانَها ، ولا تُتبعه الأبصارُ إنسانَها ، كأنَّ رعيتَه قطاً رفرفت عليها صقورٌ صوائِدُ .

فحدَّثت المأمونَ بهٰذين الحديثين ، فقال لي : كم قيمتُهما عندك ؟ قلت : ألفا درهمٍ ، قال : يا فضل ؛ إنَّ قيمتَهما عندي أكثرُ من الخلافة ؛ أمَا علمتَ حديثَ عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه : قيمةُ كلِّ امرئ ما يُحسن .

أفتعرفُ أحداً من الخطباء البلغاء يُحسِنُ أن يصفَ من خلفاءِ اللهِ الراشدين المهديين بهٰذه الصفة ؟ قلت : لا ، قال : فقد أمرتُ لهما بعشرين ألفَ دينارٍ معجلةً لهما ، واجعل العدةَ مادَّةً بيني وبينهما على العود ، فلولا حقوقُ الإسلام وأهله . . لرأيتُ إعطاءَهما ما في بيت المال الخاصةِ والعامةِ دون ما يستحقانه)(١) .

وقال الفضل بن سهل : (كان عندي رسول ملك الخَزَر ، وكان يحدثني عن أخت للملك يقال لها : خَاتُون .

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (١/٢٠٧ ـ ٢٠٨) ، وفيه : (واجعل العذر مادة بيني وبينهما في الجائزة على المعوز) ، وتحتمل (د) : (على المعوز) .

قال : أصابتنا سنةٌ احتدمَ شُواظُها علينا بحرارةِ المصائبِ ، وصنوفِ الآفات ، ففَزِعَ الناسُ إلى الملك ، فلم يدرِ ما يجيبُهم به ، فقالت له خَاتُون : أيُّها الملكُ ؛ إنَّ الحزمَ خُلقٌ لا يَخلُقُ جديدُه ، ولا يمتهنُ عزيزُه ، وهو دليلُ الملك على استصلاح رعيته ، وزاجِرٌ له عن استفسادِها ، وقد فَزِعَتْ رعيتُك إليك بفضل العَجْز عن الالتجاءِ إلىٰ من لا تزيدُه الإساءةُ إلىٰ خلقه عِزّاً ، ولا يُنقِصُه العَوْدُ بالإحسان إليهم مُلكاً ، وما أحدٌ أَوْلىٰ بحفظ الوصيةِ من المُوصي ، ولا بركوب الدَّلالة من الدَّال ، ولا بحسنِ الرعايةِ من الراعي .

ولم تزل في نعمةٍ لم تغيرها نقمةٌ ، وفي رضاً لم يُكدِّره سخطٌ ، إلىٰ أن جرى القَدَرُ بما عَمِيَ عنه البصرُ ، وذَهَلَ عنه الحَذرُ ، فسلبَ الموهوبَ ، والسالبُ هو الواهب ، فعُدْ إليه بشكر النِّعم ، وعُذْ به من فظيع النِّقم ، فمتىٰ تنسه . . ينسك ، ولا تجعلنَّ الحياءَ من التذلُّل للمُعزِّ المُذِلِّ شركاً بينك وبين رعيتِك فتستحقَّ مذموم العاقبة(١) ، ولـٰكن مُرهم ونفسَك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكُنه القدرة ، وبتذلُّلِ الألسن في الدعاء بمحض الشكر له ؛ فإن الملكَ ربما عاقبَ عبدَه ؛ ليرجعَه عن سيِّئ فعلٍ إلىٰ صالحِ عمل ، أو ليبعثَه علىٰ دؤوب شكر يُحرزُ به فضلَ أجر .

فأمرها الملكُ أن تقومَ فيهم فتنذرَهم بهـٰذا الكلام ، ففعلت ، فرجَعَ القومُ عن بابه .

وقد علمَ اللهُ تعالىٰ منهم قَبول الوعظ في الأمر والنهي ، فحالَ عليهم الحَوْل وما منهم مفتقدُ نعمةٍ كان سُلِبَها ، وتواترت عليهم الزياداتُ بجميل الصنع ، فاعترف لها المَلِكُ بالفضل ، فقلَّدها المُلكَ ، وجمعَ الرعيةَ على الطاعة لها في المكروه والمحبوب .

فهـٰذا فعلُ الله تعالىٰ بأعدائه ، وضرائرِ نعمته ؛ لمَّا شكروه . . أعادَ لهم من

---

(١) في « زهر الآداب » (٢٠٩/١) : (ستراً بينك وبين رعيتك . . .) .

نعمه ما كان قد استرجع ، وزادهم من فضله ما تمنَّوه ، فكيف بمن يوحِّدونه ويؤمنون به لو صدقت نياتُنا وصحت ضمائرُنا ؟!)[1] .

وقال الواقدي : توفي رسولُ بعض الملوك بدمشق في خلافة هشام بن عبد الملك ، فوُجِدَ في جيبه لوحٌ من ذهبٍ مكتوبٌ فيه : (إذا ذهبَ الوفاءُ . . نزلَ البلاءُ ، وإذا ماتَ الاعتصامُ . . عاشَ الانتقامُ ، وإذا ظهرت الخياناتُ . . امتُحِقَتِ البركاتُ)[2] .

وقال الوضَّاحي : (وجَّه أَنُوشَرْوَانُ رسولاً إلىٰ ملك قد أجمعَ علىٰ محاربته[3] ، وأمرَه أن يتعرَّفَ سيرتَه في نفسهِ ورعيتِه .

فرجَعَ إليه وقال : وجدتُ عنده الهَزْلَ أقوىٰ من الجِدِّ ، والكذبَ أكثرَ من الصِّدق ، والجَوْرَ أرفعَ من العَدْل ، فقال أَنُوشَرْوَانُ : رُزِقتُ الظَّفَرَ به .

فقال لمقدم عسكره : سِرْ إليه ، وليكن عملُكَ في محاربته بما هو عنده أضعفَ وأقلَّ وأوضعَ ؛ فإنك منصورٌ وهو مخذولٌ ، فسارَ إليه ، فقتلَه واستولىٰ علىٰ مملكته)[4] .

وقال بُزُرْجُمِهْرُ : (المزحُ آفةُ الجِدِّ ، والكذبُ عدوُّ الصدق ، والجَوْرُ مفسدةُ المُلك ؛ فإذا استعملَ المَلِكُ الهَزْلَ . . ذهبت هيبتُه ، وإذا استصحبَ الكذبَ . . استُخِفَّ به ، وإذا بسطَ الجَوْرَ . . فسدَ سلطانُه)[5] .

وكان نَقْشُ خاتمِ رُستُمَ ـ وهو أحدُ ملوكِ الفرس ـ : (الهَزْلُ مَبْغَضةٌ ، والكذبُ مَنْقَصةٌ ، والجَوْرُ مَفْسَدةٌ) .

وقَتَلَ بعضُ أصحابِ إسفِنْدِيَارَ رجلاً من التُّرك ، فأصابَ في عنقه لوحاً من

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (١/٢٠٨ ـ ٢٠٩) .

(٢) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (١/٥٩٤) .

(٣) في (ج ، د ، هـ) : (إلىٰ ملك الروم وكان . . .) .

(٤) أورده في « تسهيل النظر » (ص ١٦٩) .

(٥) أورده في « بدائع السلك » (١/٤٦٦) دون نسبة .

ذهبٍ فيه مكتوبٌ : (آفةُ الشدةِ : التهيبُ ، وآفةُ المنطقِ : الحياءُ ، وآفةُ كلِّ شيءٍ : الكذبُ)[1] .

وقيل لبعض الحكماء : (ما قيمةُ الصدق ؟ قال : الخُلدُ في الدنيا ، قيل : فما قيمةُ الكذبِ ؟ قال : موتٌ عاجلٌ ، قيل : فما قيمةُ العدل ؟ قال : ملكُ الأبد ، قيل : فما قيمةُ الجَوْرِ ؟ قال : ذلُّ الحياةِ)[2] .

قال : وسألَ ملكُ الهندِ الإسكندرَ وقد دخلَ بلادَه : (ما علامةُ الملكِ ودوامِ دولته ؟ قال : الجِدُّ في كل الأمور ، قال : فما علامةُ زوالِه ؟ قال : الهَزْلُ فيه ، قال : فما سرورُ الدنيا ؟ قال : الرضا بما رُزِقتَ ، قال : فما غَمُّها ؟ قال : الحرصُ علىٰ ما لعلَّك لا تنالُه)[3] .

وقال بُزُرْجُمِهْرُ : (ثلاثٌ هُنَّ سرورُ الدنيا ، وثلاثٌ هُنَّ غَمُّها :

فأمَّا السرورُ : فالرضا بالقَسْم ، والعملُ بالطاعة في النعم ، ونفيُ الاهتمامِ بالرزق لغدٍ .

وأمَّا الغَمُّ : فحرصٌ مسرفٌ ، وسؤالٌ مجحف ، وتمنِّي ما يلهف) .

ومَرَّ بعضُ الملوك بغلام يسوقُ حماراً غيرَ مُنبَعِثٍ وقد عَنفَ عليه بالسَّوق ، فقال : (يا غلام ؛ اُرفُق به ، فقال : أيُّها الملك ؛ في الرفقِ به مضرَّةٌ عليه ، قال : وما مَضَرَّتُه ؟ قال : يطولُ طريقُه ، ويشتدُّ جوعُه ، وفي العنفِ عليه إحسانٌ إليه ، قال : وما الإحسانُ إليه ؟ قال : يَخِفُّ حِملُه ، ويطولُ أكلُه . فأُعجِبَ الملكُ بكلامه وقال : قد أمرتُ لك بألفِ درهمٍ ، قال : رزقٌ مقدورٌ ، وواهبٌ مأجورٌ ، قال : وقد أمرتُ بإثبات اسمِك في حَشَمي ، قال : كُفِيتُ مؤونةً ، ورُزِقتُ معونةً ، قال : لولا أنَّك حَدَثُ السِّنِّ . . لاستوزرتُك ، قال : لن يَعدَمَ الفضلَ مَنْ رُزِقَ

(١) أورده في « بدائع السلك » (١/٤٦٦) دون نسبة .

(٢) أورد السؤالين الأخيرين في « محاضرات الأدباء » (١/٤٤٣) .

(٣) أورد السؤالين الأولين في « نهاية الأرب » (٦/٩٧) ، والأخيرين في « ربيع الأبرار » (٣/٤٣٩) .

العقلَ ، قال : فهل تصلح لذٰلك ؟ قال : إنما يكونُ الحمدُ والذمُّ بعد التجرِبةِ ، ولا يعرفُ الإنسانُ نفسَه حتىٰ يَبلُوَها .

فاستوزَره ، فوجدَه ذا رأيٍ صليبٍ ، وفَهمٍ رحيبٍ ، ومشورةٍ تقعُ مواقعَ التوفيق)[1] .

قال : وكتبَ الإسكندرُ إلىٰ أَرسطاطاليس ـ وقد نَفَذَت يدُه في الشرق والغرب ، وبلغ منهما ما لم يبلغه أحدٌ قبله ـ : اكتبْ إليَّ لفظةً موجزةً تنفعُ وتردعُ ، فكتب إليه : (إذا استولت بك السلامةُ . . فجدِّد ذِكرَ العَطَب ، وإذا هَنَّتك العافيةُ . . فحدِّث نفسَك بالبلاء ، وإذا اطمأنَّ بك الأمنُ . . فاستشعِرِ الخوفَ ، وإذا بلغتَ نهاية الأمل . . فاذكر الموتَ ، وإن أحببتَ نفسك . . فلا تجعلن لها في الإساءة إليها نصيباً)[2] .

قال : ووعظَ بعضُ الحكماء ملكاً فقال له : (أيُّها الملكُ ؛ إنَّ الدنيا دارُ عمل ، والآخرةَ دارُ ثواب ، ومن لا يُقدِّمْ . . لا يجد ، فهَنِّ نفسك حلاوة عيشها بترك الإساءة إليها .

واعلم : أنَّ زِمامَ العافية بيد البلاء ، وأمنَ السلامة تحت جناح العَطَب ، وبابَ الأمن مستورٌ بالخوف ؛ فلا تكونَنَّ في حال من هٰذه الثلاثة غيرَ متوقِّعٍ لأضدادها .

ولا تجعلْ نفسك غَرضاً لسهام الهَلَكة ؛ فإنَّ الدهرَ عدوُّ ابنِ آدم ، فاحترز من عدوِّك بغاية الاستعداد ، وإذا فكَّرتَ في نفسك وعَدُوِّها . . استغنيتَ عن الوعظ)[3] .

قال : وكتب الإسكندرُ علىٰ باب الإسكندرية : (أجلٌ قريبٌ في يدِ غيرِك ،

---

(١) أورده الماوردي في « تسهيل النظر » (ص ١٩٩ ـ ٢٠٠) .

(٢) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (٥٧/٤) .

(٣) قوله : (زمام العافية . . . لأضدادها) أورده في « الملل والنحل » (٧٠/٣) من قول ديوجانس الكلبي .

وسَوْقٌ حثيثٌ من الليل والنهار ، وإذا انتهت المُدَّةُ . . حِيلَ بينك وبين العُدَّة ، فاحتلْ قبل المنع ، وأكرِمْ أجلَك بحسن صحبة السابقين ، وإذا آنستك السلامةُ . . فاستوحش بالعَطَب ؛ فإنَّه الغاية ، وإذا فرحتَ للعافية . . فاحزن للبلاء ؛ فإليه تكونُ الرَّجعة ، وإذا بسَطَكَ الأملُ . . فاقبِضْ نفسكَ عنه بذكر الأجل ؛ فهو الموعدُ ، وإليه الموردُ)[1] .

وقال ابن الأعرابي : حدثني من رأىٰ بين أصبَهان وفارسَ حجراً مكتوباً عليه : (العافيةُ مقرونةٌ بالبلاء ، والسلامةُ مقرونةٌ بالعَطَب ، والأمنُ مقرونٌ بالخوف) .

ولـمَّا ضربَ أَنُوشَرْوانُ عُنقَ بُزُرْجُمِهْرَ لـمَّا رَغِبَ عن دين المجوسية ، وانتقل إلىٰ دين المسيح عليه السلام . . وَجَدَ في مِنطقته كتاباً فيه ثلاثُ كلمات : (إذا كان القَدَرُ حَقّاً . . فالحرصُ باطلٌ ، وإذا كان الغدرُ في الناس طباعاً . . فالثقةُ بكلِّ أحدٍ عجزٌ ، وإذا كان الموتُ بكلِّ أحدٍ نازلاً . . فالطمأنينةُ إلى الدنيا حمقٌ)[2] .

ولـمَّا تابَ اللهُ تعالىٰ علىٰ نبيِّ الله سليمان بن داوود عليهما السلام وردَّ عليه مُلكَه . . كتب علىٰ كرسيه : (إذا صحت العافيةُ . . نزل البلاء ، وإذا تمت السلامةُ . . عمَّ العَطَب ، وإذا تمَّ الأمنُ . . علا الخوفُ)[3] .

وحُفِرَ حفيرٌ بفارس ، فوُجِدَ فيه لوحُ رُخَامٍ فيه أربعةُ أسطرٍ محفورة : (أولُها : أيُّها المُعافىٰ ؛ أبشر بالبلاء ، والثاني : أيُّها السالمُ ؛ توقَّع العَطَب ، والثالث : أيُّها الآمنُ ؛ خُذ أُهبةَ الخوف ، والرابع : أيُّها الموسِرُ ؛ لن يبعد عنك العُسرُ) .

* * *

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (٣٥٨/١٧) من دون قوله : (وإذا آنستك . . . الرجعة) .

(٢) تقدم (ص ٦١٤) .

(٣) أورده في « مفيد العلوم » (ص ٣٠١) .

ولمَّا نزلَ أبو مسلم مدينةَ سمرقند . . أتاه إسبهندها[١] فقال : (أيُّها المَلِكُ ؛ إنَّ بالقَندَهارِ[٢] حجراً مدفوناً فيه ثلاثةُ أسطر ، وجدتُ في الكتب أنَّ سليمان بن داوود عليهما السلام بَعَثَ به ودُفِنَ في هٰذا الموضع ، ووجدتُ أنَّك أنت الذي تستخرجُه ، وتعملُ بما فيه .

فأمرَ به فأُخرِجَ ؛ فإذا أولُ سطرٍ منه : الحزمُ انتهازُ الفرصةِ ، وتركُ الونىٰ فيما يُخافُ عليه الفَوْتُ .

والسطرُ الثاني : الرياسةُ لا تَتِمُّ إلا بحسنِ السياسة .

والسطرُ الثالثُ : لم يقتل الآباء من ترك الأبناء ، ولم يصب من لم يَخِب) .

وكان أبو مسلم يقول : (علمٌ جليلٌ به تَتِمُّ هٰذه الدولةُ إن لم ينزل القَدَرُ بما يحولُ بيننا وبين الحذر) ، ولم يزل يستعملُ هٰذا الكلامَ إلىٰ أن قَدِمَ العراقَ ، فأعماه القَدَرُ عن الاستعانة بالحذر ، فقتله أبو جعفر المنصور .

ولمَّا حجَّ أبو مسلم . . قيل له : (إنَّ بالحِيرة نصرانياً قد أتت عليه مئتا سنةٍ ، وعنده علمٌ من العلم الأول ، فوجَّه إليه ، فأُتِيَ به .

فلمَّا نظرَ الشيخُ إلىٰ أبي مسلم . . قال : قَدِمتَ بالكفاية ولم تألُ في العناية ، وقد بلغتَ النهاية ، أحرقتَ نفسكَ لمن سيسكتُ حِسَّك ، وكأنْ قد عاينتَ رَمْسَكَ .

فبكىٰ أبو مسلم ، فقال : لا تبكِ ؛ فإنك لم تؤتَ من حزمٍ وثيقٍ ، ولا من رأيٍ رتيق ، ولا من تدبيرٍ نافع ، ولا من سيفٍ قاطعٍ ، ولٰكن ما استُجمِعَ لأحدٍ أملُه إلا أسرعَ في تقريب أجله .

قال : فمتىٰ تراه يكون ؟ قال : إذا تواطأ الخليفتان علىٰ أمر . . كان ، والتقديرُ

---

(١) كذا في (د ، ز) ، وفي (أ) : (أسقفها) ، و(ب) : (إستيدنان) ، و(ج) : (إسبهدها) ، و(و) : (إسنقندها) ، ولعلها (إسْبَهْبُدها) أي : قائدها . انظر « المعجم الفارسي الكبير » (١/ ٩٠) .

(٢) كذا في « تاج العروس » في مادة (قندهر) (١٣/ ٤٨٠) ، وفي « معجم البلدان » (٤/ ٤٠٢) بضم القاف والدال .

في يدي من يَبطُلُ معه التدبيرُ ، وإذا رجعتَ إلىٰ خراسان . . سَلِمتَ ، وهيهات !

فأراد الرجوعَ ، فكتبَ إليه السلطانُ بالمُضِي ، ووجَّه إليه من يَحثُّه ، فلولا أنَّ البصرَ يَعْمَىٰ إذا نزلَ القَدَرُ . . لكانت هـٰذه دَلالةً تقعُ موقعَ العِيانِ ، وتبعثُ على التيقُّظ في الحذر ، والاحتيالِ في الهرب ، علىٰ أنَّ لكل نفس غايةً ، ولكلِّ أمر نهايةً)[١] .

وقيل لجَالِينُوسَ ـ وهو حكيمُ الطب وفيلسوفُه ، وقد نَهكَتْه العلةُ ـ : (ألا تتعالجُ ؟ فقال : إذا كان الداءُ من السماء . . بطلَ الدواءُ ، وإذا قدَّرَ الرَّبُّ . . بطلَ حَذَرُ المربوب ، ونعمَ الدواءُ الأجل ، وبئس الداءُ الأمل)[٢] .

وقال بعضُ الغُزاة : فتحنا حِصناً من بلاد الروم ، فرأينا فيه صورةَ أَسَدٍ من حجرٍ مكتوب عليه : (الحيلةُ خيرٌ من الشدة ، والتأنِّي أفضلُ من العجلة ، والجهلُ في الحرب أحزمُ من العقل ، والتفكرُ في العاقبة مادةُ الجَزَع)[٣] .

وقال أحمد بن سهل : (وجَّه ملكُ الروم إلىٰ هارون الرشيد بثلاثة أسياف مع هدايا كثيرة ، وعلىٰ سيفٍ منها مكتوبٌ : أيُّها المقاتلُ ؛ احمِلْ . . تَغنمْ ، ولا تفكرْ في العاقبة . . تهزمْ .

وعلى الثاني منها مكتوب : إذا لم تصل ضربةُ سيفك . . فَصِلْها بإلقاء خوفك .

وعلى الثالث مكتوب : التأنِّي فيما لا تخافُ عليه الفَوْتَ أفضلُ من العجلة إلىٰ إدراك الأمل)[٤] .

وقال الحسن بن سهل : قرأتُ في كتاب « جَاوِيدَان خِرَد » : (ثلاثٌ تَبطُلُ

---

(١) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (٢/١٧٢ ـ ١٧٣) .

(٢) أورده في « زهر الآداب » (٢/٨٦٤) دون نسبة ، وفيه : (نعم الدواء الأمل ، وبئس الداء الأجل) ، وأورده مختصراً في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٨٠) .

(٣) أورده في « جمع الجواهر » (ص ٩٨) .

(٤) أورده في « جمع الجواهر » (ص ٩٨) .

مع ثلاث : الشدةُ مع الحيلة ، والعجلةُ مع التأنِّي ، والإسرافُ مع القصد)[١] .

وقال الخَضِرُ بن علي : رأيتُ بعَدَن حجراً مكتوباً عليه بالحِميرية : (أيُّها الشديدُ ؛ احذر الحيلة ، أيُّها العَجولُ ؛ احذر التأنِّي ، أيُّها المحاربُ ؛ تأَيَّسْ من التفكُّر في العاقبة ؛ أيُّها الطالبُ موجوداً ؛ لا تقطع أملَك من بلوغه)[٢] .

وكتب قيصر إلىٰ كسرىٰ : (أخبِرْني بأربعة أشياء لم أجد من يعرفها ، وإخالُها عندك ؛ أخبِرْني ما عدوُّ الشدةِ ، وصديقُ الظَّفَر ، ومُدركُ الأملِ ، ومفتاحُ الفَقْر .

فكتب إليه : الحيلةُ عدوُّ الشدة ، والصبرُ صديقُ الظَّفَر ، والتأنِّي مُدركُ الأمل ، والجَوْرُ مفتاحُ الفَقْر)[٣] .

وقال بعضُ الملوك لحكيمٍ وأرادَ سفراً : (قِفني علىٰ أشياء من حكمتك أعمَلُ بها في سفري ، فقال له : اجعل تأنِّيَك زمامَ عجلتك ، وحيلتَك رسولَ شِدَّتِك ، وعفوَك مَلِكَ قدرتك ، وأنا ضامنٌ لك قلوبَ رعيتك إن لم تُحرجهم بالشدة عليهم ، أو تُبطِرْهُم بالإحسان إليهم)[٤] .

وقال الخَضِرُ بنُ علي : (قرأتُ في كتاب « جَاوِيدَان خِرَد » ـ وهو أجلُّ كتاب للفرس ـ : أضعفُ الحيلةِ أنفعُ من أقوى الشدة ، وأقلُّ التأنِّي أجلُّ من أكثر العجلة ، والدولةُ رسولُ القضاء المُبرَم ، وإذا استبدَّ الإنسانُ برأيه . . عَمِيَت عليه المراشدُ)[٥] .

* * *

---

(١) أورده في « جمع الجواهر » (ص ٩٦) .
(٢) أورده في « جمع الجواهر » (ص ٩٦) .
(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/٨٠٧) ، وفي (ب) : (والجود مفتاح الفقر) .
(٤) أورده في « زهر الآداب » (١/٣٨٤ ـ ٣٨٥) ، و« محاضرات الأدباء » (١/٣٢٦) ، وفيه : (وقال ذو القرنين لأرسطو طاليس . . .) .
(٥) أورده في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٩٢) .

وكان البَخْتَكانُ أبو بُزْرُجُمِهْرَ خاملَ القَدْرِ ، وضيعَ الحال ، مُفَهَّهَ المَنطِق [1] ، فلمَّا أتت لبُزْرُجُمِهْرَ خمسَ عَشْرةَ سنةً . . حضرَ مجلسَ المَلِك ، وقد جلست الوزراءُ علىٰ كراسيها ، والمَرَازِبةُ في مجالسها ، فوقف فحيَّا المَلِك ، ثم قال :

(الحمدُ للهِ المأمولِ نِعَمُه ، المرهوبِ نِقَمُه ، الدالّ عليه ، بالرغبة إليه ، المُؤيّدِ الملكَ ، بسُعوده في الفلك ، حتىٰ رفعَ شانَه ، وعظَّمَ سلطانَه ، وأنارَ به البلادَ ، وأعاش به العباد ، وقسم له في التقدير ، وجوهَ التدبير ، فرعىٰ رعيتَه ، بفضل نعمته ، وحماها المَوْبِلات [2] ، وأوردها المُعشِبات ، وذادَها عن الآكلين ، وألَّفها بالرِّفق واللين ، إنعاماً من الله تعالىٰ عليه ، وتثبيتاً لما في يديه .

وأسألُه أن يباركَ له فيما آتاه ، ويُخيّرَ له فيما استرعاه ، ويرفعَ قدرَه في السماء ، ويسير ذكرَه تحت الماء ، حتىٰ لا يبقىٰ له بينهما مُناوي ، ولا يوجدَ له فيهما مُداني .

وأستوهبُ له حياةً لا تنغيص فيها ، وقدرةً لا عجزَ فيها ، وملكاً لا بؤسَ فيه ، وعافيةً تُديمُ له البقاءَ ، وتكثرُ له النَّماءَ ، وعزاً يؤمِّنُه من انقلاب رعيَّته ، أو هجوم بليَّته ؛ فإنه مُؤتي الخير ، ودافع الشر .

فأمر الملك ، فحُشِيَ فمُه بنفيس الجواهر ورفيعِه ، ولم تدفعْ حداثةُ سِنِّه مع نبيل كلامِه أنِ استوزَره ، وقلَّده خيرَه وشرَّه ، فكان أولَ داخل ، وآخرَ خارج) [3] .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : (ما للهِ تعالىٰ على العاقل نعمةٌ بعد الإسلام أفضلُ من مُباينة هـٰذه السَّفِلة بالفَهم والعقل ، ولو لم يكن هـٰكذا . . ما عُرِفَ اللهُ تعالىٰ إلا بالجهل ؛ ألا ترىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ خاطبَ أولي النُّهىٰ ، وذوي الألباب ، وذوي البصائر ، دون من سواهم .

(١) مفهَّه المنطق : غير قادر على البيان .
(٢) الموبلات : الشدائد .
(٣) أورده في « نهاية الأرب » (١٥/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩) .

ويجبُ على العِلية أن يَحمَدوا اللهَ تعالىٰ علىٰ مُباينتها هٰذه السَّفِلةَ بالعقول والأفهام كما يَحمَدُونه علىٰ جميع النِّعَم)[1] .

وقيل لمروان بن محمد وهو آخرُ ملوك بني أمية وقد زال ملكه : (ما الذي أصارك إلىٰ هٰذا ؟ قال : الاستبدادُ برأيي ؛ لمَّا كثرت عليَّ كتبُ نصرِ بنِ سَيَّارٍ أنْ أَمُدَّه بالأموال والرجال . . قلتُ في نفسي : هٰذا رجلٌ يريدُ الاستكثارَ من الأموالِ والجندِ بما يظهرُ لنا من فساد الدولة قبلَه ، وهيهات أن تنتقضَ عليَّ خراسان ! فانتقضت دولتُه من خراسان)[2] .

وقال الواقدي : قال الفضل بن سهل : (لمَّا دُعِيَ للمأمون في كُوَر خراسان بالخلافة . . جاءتنا هدايا الملوك سروراً بمكانه من الخلافة ، ووجَّه ملكُ كَابُلِستَانَ شيخاً يقال له : ذَوْبان ، وكتبَ يذكرُ أنه قد وجَّه بهديةٍ ليس في الأرض أسنىٰ منها ولا أرفعُ ولا أنبلُ ولا أفخرُ منها .

فعَجِبَ المأمونُ وقال : سلِ الشيخَ : ما معه ؟ فسألته ، فقال : ما معي شيء أكثرُ من علمي ، فقلت : وأيُّ شيءٍ علمُك ؟ قال : رأيٌ ينفعُ ، وتدبيرٌ يقطع ، وجلالةٌ تجمع ، قال : فسُرَّ المأمونُ بذٰلك ، وأمرَ بإنزالِه وإكرامِه وكتمانِ أمره .

فلمَّا أجمعَ على التوجُّه إلى العراق لقتال أخيه . . قال لذوبان : ما ترىٰ في التوجُّه إلى العراق ؟ قال : رأيٌ وثيق ، وحزمٌ مصيب ، وملكٌ قريب ، والسيرُ ماضٍ ، فاقضِ ما أنت قاضٍ ، قال : فمن نوجِّهُ ؟ قال : الفتى الأعور ، الطاهرَ الأطهر ، يسيرُ ولا يفتُر ، قويٌّ مرهوب ، مقاتلٌ غير مغلوب ، قال : فكم نوجِّه معه من الجند ؟ قال : أربعةَ آلاف ، صوارمَ الأسياف ، لا تنقصُ العدد ، ولا تحتاجُ إلىٰ مَدد ، فسُرَّ المأمونُ بذٰلك ، ووجَّه بطاهر بن الحسين .

---

(١) أورده مختصراً في « محاضرات الأدباء » (١/٦٣٧) .
(٢) تقدم (ص ٢٠٩) .

قال : في أيِّ وقت يخرج ؟ قال : مع طلوع الفجر ، يجمع لك الأمر ، وتصير إلى النصر ، نصر سريع ، وقتل ذريع ، وتفترق تلك الجموع ، والنصر له لا عليه ، ثمَّ يرجعُ الأمر إليك وإليه .

فظَفِرَ طاهر ، وكان له النصر ، وقَتلَ عليَّ بنَ عيسىٰ وزيرَ الأمين ، واستولَىٰ علىٰ عسكره ، وحاز أموالَه ، فأمرَ الملكُ لذوبان بمئةِ ألفِ درهم ، فلم يقبلها وقال : أيُّها الملك ؛ إنَّ مَلِكي لم يوجِّهني إليك لأنقصَك مالَك ، فلا تجعل رَدِّي نعمتَك سخطاً ، وسأقبل ما يفي بهٰذا المال ويزيد .

قال المأمون : وما هو ؟ قال : كتابٌ يوجد بالعراق ، فيه مكارمُ الأخلاق ، وعلومُ الآفاق ، من كتب عظيم الفرس ، فيه شفاءُ النفس ، من صنوف الآداب ، بما ليس في كتاب ، عند عاقل لبيب ، ولا فَطِن أريب ، يوجد في خزائن ، تحت إيوان بالمدائن ، فيقاسُ بالذُّرْعان[1] ، في وسط الإيوان ، لا زيادة ولا نقصان ، فاحفِر المَدر[2] ، واقلع الحجر ، فإذا وصلت إلى السَّاجَة[3] . . فاقلعها تجد الحاجة ، ولا تلزم لغيرها ، فيلزمك غِبُّ ضَيرِها .

فأرسلَ المأمونُ إلىٰ إيوان كسرىٰ ، فحفر في وسطه ، فوجد صُندوقاً صغيراً من زجاجٍ أسودَ عليه قُفل منه ، فحملَ إلى المأمون ، فقال لذوبان : هٰذه بُغيتُك ، قال : نعم أيُّها الملك ، قال : خذها وانصرف .

فتكلم بلسانه ، ونفخ في القُفل فانفتح ، فأخرج منه خِرقةَ ديباجٍ فنشرَها ، فسقط منها أوراق ، فعدَّها مئةَ ورقة ، ولم يكن في الصُّندوق شيءٌ غيرها ، فأخذ الأوراق وانصرف إلىٰ منزله .

---

(١) الذُّرْعان : جمع ذراع .

(٢) المدر : جمع مَدَرة ؛ وهو الطين اللزج المتماسك .

(٣) الساجة : ضرب من الشجر يعظم جداً ، ويذهب طولاً وعرضاً ، وله ورق كبير .

قال الفضل بن سهل [١] : فجئتُه فسألتُه ، فقال : هـٰذا كتاب « جَاوِيدان خِرَد » تأليف : كنجور وزيرِ ملكِ إيران شَهْر .

فطلبت منه شيئاً ، فدفعَ إليَّ ورقاتٍ منه ، وترجمَها لي الخَضِرُ بنُ علي ، ثـمَّ أخبرتُ المأمون ، فقال : احمل إليَّ الورقات ، فحملتُها إليه ، فقرأَها فقال : هـٰذا واللهِ الكلامُ ، لا ما نحنُ فيه من ليِّ ألسنتِنا في فجوات أشداقنا ، ولولا أنَّ العهدَ حبلٌ طرفُه بيدِ الله تعالىٰ وطرفُه بأيدينا . . لأخذتُه منه) [٢] .

فصل

[في حِكَم بُزُرْجُمِهْرَ الفارسي]

ومن حِكم بُزُرْجُمِهْرَ الفارسِي قال : (نصحني النصحاء ، ووعظني الوعاظ ، شفقةً ونصيحةً وتأديباً ؛ فلم يَعِظني أحدٌ مثلُ شيبي ، ولا نصحني مثلُ فكري ، ولقد استضأتُ بنور الشمس وضوء القمر ؛ فلم أستضئ بشيءٍ أضوأَ من نور قلبي ، وكنتُ عند الأحرار والعبيد ؛ فلم يملكني أحد ، ولا قهرني غير هواي ، وعاداني الأعداء ؛ فلم أرَ أعدىٰ لي من نفسي إذا جَهِلَت ، واحترزتُ لنفسي بنفسي من الخلق كلهم ، حذراً عليها وشفقة ؛ فوجدتها أشرَّ الأنفس لنفسها ، ورأيتُ أنه لا يأتيها الفسادُ إلا من قِبَلها .

وزحمتني المضايق ؛ فلم يزحمني مثلُ خُلق السوء ، ووقعت من أبعد البعد وأطولِ الطول ؛ فلم أقع في شيءٍ أضرَّ عليَّ من لساني ، ومشيتُ على الجمر ووَطِئتُ على الرمضاء ؛ فلم أرَ ناراً أحرَّ من غضبي إذا تمكَّن مني ، وطلبني الطلابُ ؛ فلم يدركني مثلُ إساءتي ، ونظرتُ ما الداءُ القاتلُ ومن أين نالني ؛ فوجدتُه من معصية ربي سبحانه وتعالىٰ ، والتمستُ الراحةَ لنفسي ؛ فلم أجد شيئاً أروحَ لها من ترك ما لا يعنيها .

---

(١) في « جمع الجواهر » (ص ٩٤) : (الحسن بن سهل) ، وهو أخو الفضل ، وقد وزر للمأمون مثل أخيه .

(٢) أورده في « جمع الجواهر » (ص ٩٢ ـ ٩٤) .

وركبتُ البحارَ ، ورأيتُ الأهوالَ ؛ فلم أرَ هولاً أعظمَ من الوقوف على سلطان جائر ، وتوحَّشتُ في البريةِ والجبالِ ؛ فلم أرَ أوحشَ من قرينِ السوء ، وعالجتُ السِّباعَ والضِّباعَ والذئابَ ، وعاشرتُها وعاشرتني ، وغلبتُها ؛ فغلبني صاحبُ الخلق السوء ، وأكلتُ الطيبَ ، وشربتُ المسكرَ ، وعانقتُ الحِسانَ ؛ فلم أجد شيئاً ألذَّ من العافية والأمن ، وتوسَّطتُ الشياطينَ والجبالَ والسباعَ ؛ فلم أجزع إلا من الإنسان السوء ، وأكلتُ الصَّبِرَ ، وشربتُ المُرَّ ؛ فلم أرَ شيئاً أمرَّ من الفَقر .

وشهدتُ الزُّحوف ، ولقيتُ الحتوفَ ، وباشرتُ السيوفَ ، وصارعتُ الأقران ؛ فلم أرَ قِرْناً أغلبَ من المرأة السوء ، وعالجتُ الحديدَ ، ونقلتُ الصخرَ ؛ فلم أرَ حِملاً أثقلَ من الدَّين ، ونظرتُ فيما يُذِلُّ العزيزَ ، ويكسرُ القويَّ ، ويضعُ الشريفَ ؛ فلم أرَ أذلَّ من ذي فاقةٍ وحاجةٍ ، ورَشقتُ بالنُّشَّاب ، ورجمتُ بالحجارة ؛ فلم أرَ أنفذَ من الكلام السوء يخرجُ من فمِ مطالبٍ بحقٍّ ، وعمَّرتُ السجنَ ، وشُدِدْتُ في الوَثاق ، وضُرِبتُ بعُمُدِ الحديدِ ؛ فلم يَهدِمني مثلُ ما هدمني الغَمُّ والهمُّ والحزنُ ، واصطنعتُ الإخوانَ ، وانتخبتُ الأقوامَ للعُدَّةِ والشدةِ والنائبةِ ؛ فلم أرَ شيئاً خيراً من التكرُّم عندهم .

وطلبتُ الغنىٰ من وجوهه ؛ فلم أرَ غِنىً أغنَىٰ من القُنوع ، وتصدقتُ بالذخائر ؛ فلم أرَ صدقةً أنفعَ من ردِّ ذي ضلالة إلى الهدىٰ ، ورأيتُ الوَحدة والغربةَ والمذلةَ ؛ فلم أرَ أذلَّ من مقاساة جارِ السَّوء ، وشيدتُ البنيان لأُعزَّ به وأُذكرَ ؛ فلم أرَ شرفاً أرفعَ من اصطناع المعروف ، ولبستُ الكُسا الفاخرة ؛ فلم ألبس مثلَ الصلاح ، وطلبتُ أحسنَ الأشياء عند الناس ؛ فلم أجد شيئاً أحسنَ من حُسن الخُلق ، وسُررت بعطايا الملوك وحِبائهم ؛ فلم أُسَرَّ بشيءٍ أكثرَ من الخَلاص منهم)[1] .

---

(١) أورده اليوسي في « المحاضرات » (٢/٥١٥ ـ ٥١٧) .

فَصْلٌ

[في حِكَم شاناق الهندي السندي]

ومن حِكَم شاناقَ الهنديِّ السِّنديِّ من كتابه الذي سمَّاه : « مُنتحل الجوهر » للملك ابن قمانص الهندي : (يا أيها الملك ؛ اتقِ عثراتِ الزمان ، واخشَ تسلُّطَ الأيام ولؤمَ غلبةِ الدَّهر ، واعلم أنَّ الأعمالَ جزاءٌ ؛ فاتق العواقب ، والأيام لها غَدَراتٌ ؛ فكن علىٰ حَذَر ، والأقدار مُغيبات ؛ فاستعدَّ لها ، والزمان منقلب ؛ فاحذر دولتَه ، لئيمُ الكَرَّة ؛ فخفْ سطوتَه ، سريعُ الغِرَّة ؛ فلا تأمن دولتَه .

واعلم : أنَّ من لم يداوِ نفسَه من سَقام الآثام في أيام حياته . . فما أبعدَه من الشفاء في دار لا دواء له بها ! ومن أذلَّ حواسَّه واستعبدها فيما تقدَّم من خير لنفسه . . أبانَ فضلَه وأظهرَ نبلَه ، ومن لم يضبط نفسَه وهي واحدةٌ . . لم يضبطْ حواسَّه وهي خمس ، وإذا لم يضبط حواسَّه مع قلتها وذِلتها . . صعبَ عليه ضبطُ الأعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم ؛ فكانت عامةُ الرعية في قواصي البلاد وأطراف المملكة أبعدَ من الضبط .

فليبدأ الملكُ بسلطانه علىٰ نفسه ؛ فليس من عدوٍّ أحقَّ أن يبدأه بالقهر من نفسه ، ثمَّ يشرعْ في قهر حواسِّه الخمس ؛ لأنَّ قوةَ الواحدة منهن دون صواحباتها قد تأبىٰ على النفس القوية الحذرة ، فكيف إذا اجتمعت خمسٌ علىٰ نفسٍ واحدةٍ ؟!

واعلم : أنَّ لكل واحدة منهن شِرَّةً ليست للأخرىٰ ؛ فميِّزْها . . تسلَمْ من شرِّها ، وإنما يَهلِكُ الحيوان بالشهوات .

ألا ترىٰ أنَّ الفراشَ يكرهُ الشمسَ فيسكنُ من حَرِّها ، ويُعجبُه ضياءُ النار فيدنُو منها فتحرقُه النار .

والظبيَ علىٰ نِفارِ قلبه وشدةِ حرصه يُنصتُ للسماع المونق المُلهي ، فيمكِّنُ القانص من نفسِه .

وذُبابَ الوردِ المتتبّع لطيبِ الروائح يطلبُ ما يقطرُ من أُذن الفيل لطيب رائحته ، فإنه في طيب رائحة المسك ، فيُلهيه طيبُ الشم عن الاحتراس من تحريك الفيل أُذنَه ، فيتولَّجُ في أصلِ أذنه ، فتقعُ عليه ضربةُ الأذن فتقتلُه .

والسمكَ في البحر تحملُه لذةُ الطُّعم علىٰ أن يبتلعه ، فتحصلَ الصِّنَّارةُ في جوفه ، فيكونَ فيه حتفُه)[١] .

وذكر هٰذا الحكيم أن خصالاً معروفة قَتلت بالإفراطِ فيها ملوكاً معروفين ؛ فالصيدُ ماتَ منه قيدة[٢] الملكُ ، والإفراطُ في القِمار ماتَ منه فتيب[٣] الملكُ ، والإفراطُ في السُّكر ماتَ منه خارق[٤] الملكُ ، وشدةُ الحرص ماتَ منه مهريق الملك ، والغضبُ مات منه أخر سبخىٰ[٥] الملك ، والطمع مات منه وائل[٦] ، والفرح مات منه واطاب[٧] ، والأنفة مات منه بوليس[٨] ، والتواني مات منه زميرنهر[٩] ، وأخلِقْ بخصال أهلكت ملوكاً أن يجتنبها الملوك !

واعلم : أنَّ الرعيةَ تستظمئُ إلى الملك العادل استظماءَ أهلِ الجَدْبِ

---

(١) أورده بنحوه ابن أبي أصيبعة في « عيون الأنباء » (١/٤٧٤) .

(٢) في (أ) : (فيده) ، و(ب) : (قندة) ، و(ز) : (قنده) .

(٣) في (ب) : (قيسة) ، و(ج) : (ينسب) ، و(د) : (قشيب) ، و(هـ) : (قسيت) ، و(ز) : (نسيب) ، و(ح) : (قيشوب) .

(٤) في (ب) : (حاذق) ، و(هـ) : (حارق) ، و(ح) : (مخارق) .

(٥) في (ج) : (أخرينجي) ، و(و) : (أمريح) ، و(أ) : (والغضب آخذ لمن يتحنىٰ) ، و(ب) : (والغضب لمن ينجو) .

(٦) في (أ) : (قاتل) ، و(ب) : (وابل) .

(٧) في (ب) : (واليات) ، و(د) : (وطاب) .

(٨) في (أ) : (تويس) ، و(ب) : (بولس) ، و(د) : (بدليس) ، و(و) : (بولش) .

(٩) في (ب) : (رميرنهر) ، و(هـ) : (زمين بهر) ، و(و) : (دميو بهوص) ، و(ز) : (ميزبهرج) .

إلى الغيث ، وينتعشون بطَلعتِه عليهم كانتعاش النبات بما يناله من القَطر ، بل الرعيةُ بالملك العادل أعمُّ نفعاً من النبات بالغيث ؛ لأن لمنفعة الغيث وقتاً معلوماً ، وعدلُ الملك على الدوام لا يتعيَّنُ له وقتٌ .

ويحسن بالمَلِك أن تُشبَّه تصاريفُ تدبيرِه بطباعِ ثمانيةِ أشياءَ : الغيث ، والشمس ، والقمر ، والريح ، والنار ، والأرض ، والماء ، والموت .

فأما شبهُ الغيثِ : فتواتُره في أربعة أشهر من السنة ، ومنفعتُه لجميع السنة ؛ كذٰلك ينبغي للمَلِكِ أن يُعطيَ جندَه وأعوانَه في أربعة أشهر تقديراً لتتمة السنة ، فيجعلَ رفيعَهم ووضيعَهم في الحقِّ الذي يستوجبونه بمنزلةٍ ، كما يسوّي المطرُ بين كلِّ أَكَمةٍ مُشرِفة ، وغائطٍ مُستَفِلٍ ، ويَغمُرُ كلّاً من مائه بقدر حاجته ، ثم يستجبيَ الملكُ في الثمانيةِ الأشهرِ حقوقَه من غَلَّاتهم وخَراجهم ، كما تجني الشمسُ بحرِّها وشدة فعلها نداوةَ الغيثِ في أربعةِ أشهر الأمطار .

وأما شبهُ الرّيحَ : فإنَّ الرّيحَ لطيفةُ المداخل ، فتتولَّجُ في جميع المنافذ حتىٰ لا يفوتَها مكانٌ ؛ كذٰلك الملكُ ينبغي أن يتولَّجَ علىٰ قلوب الناس بجواسيسه وعيونه لا يختفون عنه بشيء حتىٰ يعرفَ ما يأتمرون به في بيوتهم وأسواقهم .

وكالقمر إذا استهلَّ تَمامُه ، فأضاء واعتدل نوره على الخلق ، وسُرَّ الناس بضوئه . . ينبغي أن تكون بهجةُ الملك وزينتُه وإشراقه في أهله ومجلسه وإيناسه رعيَّتَه ببشره ؛ فلا يخصُّ شريفاً دون وضيع بعدله .

وكالأرض في كتمانِ السِّرِّ والاحتمالِ والصبرِ والأمانة .

وكالنار علىٰ أهل الدَّعارة والفساد .

وكعاقبة الموت في الثوابِ والعقابِ يكونُ ثوابُه ، لا يقصرُ عن إقامة حدٍّ ولا يتجاوزه .

وكالماء في لِينه لمن لاينه ، وهدمِه البيوت وإقلاعِه عظيمَ الشجر والصخور لمن حاربَه .

* * *

واعلم : أنه قد يكتنفُ السلطانَ من شرارِ الناس والأعوانِ على الحاجة إليهم من يُستبشع ويُستكره ؛ كالحيات تكتنفُ بالصَّندلِ [١] ، فيقتلُها الصَّندلُ بطيبِ رائحتِهِ وبردِه ويُبسِه ، وينتفعُ الصَّندلُ بها ؛ إذ لا يقربُ منه من يريد قطعه .

وليكن فيك مع تلطفك شدَّةٌ لئلا يُجترأَ عليك ؛ فإنَّ القمرَ يستنارُ بضوئه ويظهر به ، لٰكنَّ الشمسَ يُستظلُّ من حَرِّها ويُستكنُّ لها .

وقد قالت العرب في مثل هٰذا : (لا تكن حُلواً فتُستَرَطَ ، ولا مُرّاً فتلفظَ) [٢] .

اجعل لكل طبقة من أعدائك أشباهَهم من أعوانك يسوسونهم ؛ فإنهم كالماء في الأُذن ، لا حيلة في إخراجه بأرفق من الماء الذي هو من جنسه .

إذا عاديت رجلاً . . فلا تُعادِ جنسَه ، واستبقِ مِن دونِه أحداً ، فعسىٰ تنتفعُ به ؛ فإنَّ السيفَ القاتلَ من جنس الدِّرع الواقي .

ولا تطمعنَّ في الكَذوب والمطبوع على الشر أن تَعطِفَهما بالإحسان ؛ فإنهما كالقرد ، كلما سَمِنَ بإطعام الحلاوة والدسم . . ازدادَ وجهُه قبحاً .

قد يردُّ الواحدُ كيدَ الجميع إذا كان عاقلاً ، كما يردُّ الظلُّ حرَّ شعاع الشمس إذا كان وافياً .

غايةُ أرمى الناسِ أن يقتلَ بسهمه واحداً ، لٰكن رميةُ عاقلٍ ذَهِنٍ تقتلُ الجيشَ بأسره .

---

(١) الصَّندل : شجرٌ خشبُه طيبُ الرائحة ، يظهر طيبها بالدَّلك أو بالإحراق .

(٢) أورده ابن سلام في « الأمثال » (ص ٢١٩) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٣٢٨/١) ، وتُستَرط : تُبتلع .

الملكُ الشريفُ العاقلُ لا ينفُذُ فيه قَدْحُ أهلِ البَغْيِ ممن انقطع إليه ولزمه ، كالجوهر المضيءِ بنوره ؛ لا يطفئه عُصوفُ الرياح .

من كان قابلاً لما يُوردُ عليه من بقائه[1] إلىٰ كل قول يسمعه .. كان كالسِّراج يميلُ به كلُّ ريحٍ ليِّنةٍ ، ثمَّ لا يلبثُ إنْ عصفتِ الريحُ أنْ يُطفأَ .

تدبيرُ الملكِ الحازم في سلطانه كتعاهدِ صاحب البستان بستانَه ؛ يُخرِجُ قاحل عيدانه وشوكَ شجره ، فيُحيطُ به علىٰ ثمره وزرعه ؛ لِيقيَه من الشر والفساد ، كما ينتخبُ الملكُ أهلَ الشَّكيمة والشوكة ، فيجعلُهم في أقاصيه وحدوده رِدءاً للمملكة .

وليكن المَلِكُ أحذرَ ما يكونُ آمنَ ما يكون .

وقد قال الشاعر[2] : [من الخفيف]

أَأَمِنْتُمْ رَيْبَ ٱلزَّمَانِ فَنِمْتُمْ رُبَّ خَوْفٍ مُكَمَّنٍ فِي أَمَانِ

ألا ترىٰ أنَّ بهرشان[3] الملكَ أنامت امرأتُه علىٰ فراشه رجلاً ، فلمَّا رامَ فراشَه .. وثبَ عليه فقتله ، وباسراج الملك قتلته امرأتهُ بخَلخَال مسموم ، ودروق[4] الملك قتلته امرأتُه بمُدْيَةٍ خبأتها في عِقاصها .

واعلم : أنَّ العدوَّ قد علمَ منك مواضعَ الحَذَر وحالاتِ الأمن ، وإنما يرصدُ لك في حالاتِ الأمنِ والمواضعِ التي يُظَنُّ أنَّ العدوَّ لا يكمُنُ فيها ؛ فكن أحذرَ ما تكون منها .

---

(١) في (أ ، ج) : (ثقاته) ، و(و) : (نقله) ، و(ح) : (بقائه وكل قول . . .) .

(٢) أورده في « وفيات الأعيان » (٣٣/٧) ، وفي (د ، هـ ، ز) : (قلت : وقد صدق الشاعر) ، وفي (أ ، د ، ز) : (ممكن) ، و(ب) : (كامن) بدل (مكمن) .

(٣) في (أ) : (شاباق) ، و(ب) : (بهرسان) ، و(ج) : (يهدسان) ، و(و) : (شاناق) ، و(ز) : (بهرشار) .

(٤) في (ب) : (زورق) ، و(ج ، هـ) : (ودورروق) ، و(د) : (ودورق) ، و(و) : (دوق) .

وسائرُ حِكَمِ هٰذا الكتاب قد قدمتُها في تراجمِ كتابنا[1] .

فَصْلٌ[2]

[في خصال مذمومة تنشأ عن ظهور الإمام في أيام معلومة]

قال غيره[3] : (لا ينبغي للملك أن يكون له أيامٌ معلومةٌ يظهرُ فيها ؛ فإنَّ في ذٰلك خصالاً مذمومة :

منها : أنه قد يعوقُ عن ذٰلك اليومِ مُمسكٌ مهمٌّ ، أو بعضُ الكسل ، أو لذَّةٌ مغتنمة ، فيلزمه الخروجُ علىٰ كُره .

ومنها : أنه إذا تخلَّفَ عن الظهور في ذٰلك اليوم لأمرٍ ما . . تطاولت الأعناقُ من الرعية ، وكثر كلامُها ، وقالوا : مرضَ الملكُ ، أو ماتَ ، أو أصابته آفةٌ ، فيَكسِبُ العدوُّ جرأةً وسروراً ، ويَكسِبُ الوليُّ حزناً وحبساً .

ومنها : أنه قد يواعدُ عدوَّه ليومٍ يلتقيان فيه ، فلا يَتِمُّ له ذٰلك)[4] .

ولا ينبغي أن يكون الملكُ كثيرَ التصرُّف عند فسادِ الزمان وخبثِ الرعية ، وعن هٰذا قالت الحكماء : إذا كان الجملُ كثيرَ العَقْر . . كان نصيبَ الذئب .

فَصْلٌ

من نوادر كلام العرب

ومن حِكم أكثم بن صيفي ، وهٰذا رجلٌ كان له عقلٌ وعلمٌ ومعرفةٌ وتجربةٌ ، وقد علقَ الناسُ عنه حِكماً لطيفةً ، وألَّفوا فيها تصانيفَ ، فمن حِكمه قال :

---

(١) هٰذه الجملة زيادة من (ج ، د ، هـ ، ز) ، وفيما عدا (ج) : (وسائر حكم هٰذا الباب) .

(٢) ليس في (د ، هـ ، ز) .

(٣) (قال غيره) ليس في (أ) .

(٤) أورده في « بدائع السلك » (١/٣٥٠) ، وفي (ب) : (أنه قد واعد . . . يلتقيان فيه ، فتخلف لأمرٍ ما ، فيقوىٰ عدوُّه) .

(من فسدت بطانتُه . . كان كمن غَصَّ بالماء)[1] .

أفضلُ من السؤال : ركوبُ الأهوال .

من حسدَ الناسَ . . بدأَ بمضرَّة نفسه .

العديمُ : من احتاج إلىٰ لئيم .

من لم يعتبر . . فقد خسر .

ما كلُّ عثرةٍ تُقال ، ولا كلُّ فرصةٍ تُنال .

لا وفاء لمن ليس له حياء .

قد يُشهر السِّلاح في بعض المِزاح .

من وفىٰ بالعهد . . فاز بالحمد .

الموتُ يدنو والمرءُ يلهو .

طولُ الغضب يورثُ الوَصَب .

رُبَّ عِتق شرٌّ من رِق .

من اصطنع قوماً . . احتاج إليهم يوماً .

الكَذِبُ بَهْت ، والحَلِفُ مَقْت .

من لم يَكُفَّ أذاه . . لقيَ ما ساه[2] .

الحُرُّ يتقاضىٰ لك نفسَه ، واللئيمُ يستحسنُ تسويفه .

ليس بإنسان من ليس له إخوان .

أنت مُزْرٍ بنفسك إن صحبتَ من هو دونك .

عليك بالمجاملة لمن لا تدومُ له المواصلة .

---

(١) أورده في « الأمثال » (ص ١٧٩) ، و« جمهرة الأمثال » (١/٤٩٤) ، وأورده في « العقد الفريد » (١/٣٣) من قول الأحنف بن قيس رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أي : ساءه .

في الأسفار ، تبدو الأخبار[1] .

أفسدَ كلَّ حَسَبٍ ، من ليس له أدب .

أفضلُ الفِعال : صيانةُ العِرض بالمال .

ليس مَنْ خادن الجَهُول[2] ، بذي معقول .

ليس للملحف مثل الرد .

من جالس الجهال . . فليستعدَّ لقيل وقال .

ما جلا عنك النسيان مثلُ البيان ، ولا نفىٰ عنك البهتان مثلُ البرهان[3] .

لم ينج من الموت غنيٌّ لماله ، ولا فقير لإقلاله .

إذا أردتَ طرد الحُرِّ الذي هو إنسان . . فَسُمْه الهوان .

كثرةُ العلل آفةُ البخل[4] .

كفر النعمة لؤم ، وصحبةُ الأحمق شؤم .

إنَّ من الكرم ، لينَ الشِّيم .

إياك والخديعةَ ؛ فإنها خلقٌ وضيعة .

امحض أخاك النصيحة ، حسنةً كانت أو قبيحة .

رُبَّ سباب ، قد أهاجه عتاب .

الصدودُ آفة المَقْت .

سبب الحرمان : التواني .

من سأل فوق قدره . . استحقَّ الحرمان .

ليس كلُّ طالب يُصيب ، ولا كلُّ غائب يؤوب .

---

(١) في النسخ جميعاً عدا (ز) : (يبدو الاختبار) .

(٢) في (أ) : (حادث) بدل (خادن) ، و(د) : (جاور) .

(٣) زيد في (و) : (ولا يعلم شدة البهتان مثل الدهان) .

(٤) في (د) : (آية الملل) .

إنَّ من الفساد ، إضاعةَ الزاد .

من حلُم . . ساد ، ومن تفهم . . ازداد .

لا ترغب فيمن يزهد فيك .

رُبَّ بعيد أقربُ من قريب .

المِزاح يورث الضغائن .

سل عن الرفيق ، قبل الطريق ، وعن الجار ، قبل الدار .

غَثُّك خير من سمين غيرك .

من أجدَّ المسير . . أدرك المَقيل .

استُر عورةَ أخيك ، لِما يعلم فيك .

لا تُكثر من المِزاح فتذهبَ هيبتك ، ولا من الضحك فيُستخفَّ بك .

من أكثرَ من شيء . . عُرف به .

كفىٰ بالحِلم ناصراً .

المِنَّة تهدِمُ الصنيعة .

نِعمَ الشيءُ الهديةُ بين يدي الحاجة .

ربما نصح غيرُ الناصح ، وربما غشَّ المُستَنصَحُ .

الكلامُ فيما ينفعك خيرٌ من السكوت ، والسكوتُ عما يضرُّك خيرٌ من الكلام .

لا يَغرنك من جاهلٍ قرابةٌ ولا جوارٌ ولا إلفٌ ؛ فإنَّ أقربَ ما يكونُ من النار قرباً أقربُ ما يكون منها احتراقاً والتهاباً .

اُرفُض الدناءة . . تلزمْك المهابة .

دع مجالسةَ أهل الرِّيَب علىٰ كل حال ؛ فإنك إن يسلم دينُك . . لم تسلم من سوء المقال .

الكرمُ : شكرُ البلاء ، واللؤمُ : كفرُ النعماء .

أكرمُ الصنائع : سلامةُ الصدور[1] .

لن تَسلم من الناس حتىٰ يَسلموا منك .

من عَدِمَ الإيمان . . لم تزِده الروايةُ فقهاً .

الحزنُ مَفسدةٌ للعقل ، ومَقطعةٌ للحيلة .

كثرةُ النوم إماتةٌ للقلب .

شدةُ الحذر[2] تدلُّ علىٰ ضعف اليقين .

محادثةُ الحمقىٰ والسفهاء تورثُ سوء الخُلق .

الدليلُ على الحُمق : إعجابُ المرء بعقله .

من لم يسمع الحديث . . فارفع عنك مُؤْنَته .

من حدَّث مَن لا يفقه . . كمن قدَّم مائدةً لأهل القبور .

من قطع عليك الحديث . . فلا تُحدِّثه ؛ فليس بصاحب أدب .

من عُرف بالصدق . . جاز كذبه ، ومن عُرف بالكذب . . لم يُقبل صدقه .

من وصل من يحسده . . قوَّىٰ عدوَّه وقصَّرَ بنفسه .

اغتفر زَلَّة صديقك .

من غضب من غير شيء . . رَضِيَ مِن لا شيء .

من غضب علىٰ من لا يقدر عليه . . طال حُزنُه .

الرجلُ عبدُ هواه .

لولا جهلُ الجاهل . . ما عُرف عقلُ العاقل .

من خاف ربَّه . . كفَّ ظلمَه .

---

(١) في (أ ، ب ، و) : (الصدر) .

(٢) في النسخ ماعدا (ج ، د ، هـ ، و) : (شدة الحزن) ، وفي (ج) : (شدة الحدث) .

كسلُ الفقير هلاكُه .

شحُّ الغني فضيحتُه .

من لم يتورَّع في كلامه . . أظهر فجورَه .

كلُّ شيء لا يوافق الأحمقَ . . فاعلمْ أنه صواب .

إذا غلبتك امرأتُك على الأمر . . فجاهدْها ؛ فإنها عدوُّك .

من لم يعرف الخير من الشر . . فألحقْه بالبهائم .

من طلب ما عند البخيل . . مات جوعاً .

جارُ الرجلِ الجوادِ كمجاور البحرِ ؛ لا يخاف العطش ، وجارُ البخيلِ في المفازة هالك .

إذا لم تنتفع بمصادقة الأحياء . . فأت أهلَ القبور .

من عادىٰ مَن فوقَه . . أبغضَه مَن تحته .

الرزق مقسوم ، والحريص محروم .

من كثر كلامُه على المائدة . . غشَّ بطنَه ، وأبغضَه أصحابُه .

العلمُ زَين ومنفعة ، والجهلُ شَين ومَضرَّة .

الجاهلُ يستطعم الشر ، والعالمُ يمنع نفسه من الشر .

من لم يربح الثناء (١) . . فليس له نصيب في المروءة .

إذا كان لك جارٌ أو صديقٌ لا تنتفعُ به . . فصوِّرْ مِثلَه في الحائط ؛ فإنَّه أزينُ للحائط وأخفُّ للمُؤنة .

العاقلُ يرغبُ في الأدب ، والجاهلُ يهربُ منه .

العاقلُ إذا فاته الأدبُ . . لَزِمَ الصمت ، لا يستنطق من يكذبه .

---

(١) في (ج ، د) : (من لم يرتح للثناء) ، و(ز) : (يتريح) .

العاقلُ يتهمُ رأيَه في نفسه ، والجاهلُ يقيم علىٰ جهله .

من لم يملك عقلَه . . لم يملك نفسَه .

من أظهرَ محاسنَه ودفنَ مساويَه . . كملَ عقلُه .

من غلبَ هواه عقلَه . . افتضحَ .

من استشار عدوَّه في صديقه . . أمره بقطيعته .

مصادقةُ الكرام غنيمة ، ومصادقةُ اللئام ندامة .

لا تُدخل علىٰ صديقك التُّهَمة والفضيحة ، فيرجعَ لك عن النصيحة .

إذا انقطعَ رجاؤك من صديقك . . فأَلحقه بعَدُوّك .

من طلبَ مرضاة الإخوان بغير شيء . . فليصادق أهل القبور .

العاقلُ ليس في مصادقته مخادعة .

رأسُ مال الأحمق : الخديعةُ ، وفائدتُه : الغضب ، والحليمُ رأسُ مالِه : الصمتُ ، وفائدتُه : الحِلمُ .

إذا جَهِلَ عليك الأحمقُ . . فالبَسْ له سلاحَ الرِّفق واللطف .

صديقُ كلِّ امرئٍ عقلُه ، وعدوُّ كلِّ امرئٍ حُمقُه .

من أنزل نفسه عاقلاً . . أنزله الناس جاهلاً .

من فرح[1] بكذب الثناء . . أظهر للناس رَقاعتَه[2] .

السكوت عن الأحمق جوابُه .

السكوتُ يَزينُ الأحمقَ ، والكلامُ يَشينُه .

من استطال عليك بملبسه وبخل بفضله . . فلا أكثرَ اللهُ في الناس مِثلَه .

---

(١) في (ج ، د ، هـ ، ز) : (قنع) .

(٢) في (أ ، ج) : (رفاهته) ، و(د ، هـ) : (رفاهية) ، و(ز) : (وهنه) ، ورَقَاعته : حمقه .

الجوادُ مُحبَّبٌ ، والبخيلُ مُبغَّضٌ .

إذا حمَّلتَ البخيلَ مؤنةً . . أبدىٰ لك الحِرمانَ والعداوة .

البخيل يمنعُ ما عنده ، ويبخلُ على الجواد بجوده .

من طلبَ من البخيل حاجة . . فهو شرٌّ منه .

من بذل للبخيلِ صلتَه ، ورفعَ عنه مؤنتَه . . دامت له مودتُه .

ضيفُ البخيل آمِنٌ من التُّخَمة .

من طلبَ من لئيم حاجةً . . كمن طلبَ السمكَ في المفازة .

عِدَةُ الكريم نقد ، وعِدَةُ اللئيم تسويف .

الكريمُ يواسي إخوانَه في دولته ، واللئيمُ يقطعهم .

لا تخضع للئيم ؛ فإنَّه لا يعطيك .

إنما الصديقُ الذي يبذل لك مالَه عند الحاجة ، ونفسَه عند البليَّة ، ويحفظُك عند المغيب ، وينفعك عند الرجاء .

إذا صادقت الوزيرَ . . فلا تخشَ الأمير .

من لم ينصحك في الصداقة . . فعادِه ، ومن غشَّك في العداوة . . فلا تلمه .

من كان الناسُ عنده سواءً . . لم يكن له أصدقاء .

من صادق الإخوان بالمكر . . كافؤوه بالغدر .

من لم يواسِ الإخوان في دولته . . خُذِلَ عند نائبته .

إياك أن تبغيَ مودةَ من يحسدك ؛ فإنَّه لا يقبل إخاءَك .

من حَسَدَك علىٰ علمك . . لم يسمع حديثَك .

الحاسد يفرح بزَلَّتِكَ ، ويَعِيبُ صوابَك .

إذا رأيت من يحسدُك وسرَّك أن تسلمَ منه . . فعَمِّ عليه أمورَك .

من صبر علىٰ مودة الكاذب . . فهو مثلُه .

كلُّ شيءٍ شيءٌ ، ومودةُ الكاذب لا شيء .

من بدأك بجهله . . فكافِئْه بحلمك عنه .

أول المروءة : طلاقةُ الوجه ، والثانيةُ : التودد ، والثالثةُ : الفصاحة .

الفاجرُ لا يبالي ما قال ، والورعُ يتعهد كلامه .

من شَغلَ مشغولاً . . فقد أظهر ثِقلَه .

من صبر علىٰ شغل سوء . . فقد نظر إلىٰ سُخْنة عينه .

من لم يغلب الحزن بالصبر . . طال غَمُّه .

من استطال على الناس بغير سلطان . . فليصبر على الذُّل والهوان .

لا تحقِر الفقيرَ السَّرِيَّ ، ولا ترغب في الغني الدَّنِي .

من تشبَّهَ بالسَّراةِ وغلبت عليه الدناءة . . فلا تُكرمه .

من أغضبته . . أنكرته .

من أغنيته . . أعطفته .

من تعرَّضَ لصاحب الدولة . . انقلبَ بهزيمة .

من صانعَ بماله . . لم يحتشم من طلبِ حاجتِه .

من صاحبَ الكُتَّابَ . . موَّلوه ، ومن عاداهم . . أنكروه .

من شَمَخَ عليك بأنفه ، وطَمَحَ ببصره ، ولم يُدخل عليك فضيلة . . فليَهُنْ عليك سبيلُه .

السفيهُ يقطعُ مودةً لم تزل ، ويكسِبُ عداوةً لم تكن .

حِملُ المروءة ثقيل .

من سالم الناس . . غَنِمَ .

خِذلانُ الجار لؤم .

رجالُ البلاء قليل .

احفظ إخوانك . . تُذِلَّ أعداءَك .

ما أجملَ الصبرَ علىٰ ما لا بُدَّ لك منه !

المحرومُ : من طال نَصَبُه ، وكان لغيره نَشَبُه[1] .

لا قويَّ أقوىٰ ممَّن قَوِيَ علىٰ نفسه ، ولا عاجزَ أعجزُ ممَّن عَجَزَ عنها .

الخير في أهله غريب .

ما أضعفَ قوةَ من يُغالب من لا يُغلَب !

* * *

---

(١) نَشَبُه : مالُه .

الباب الرّابع والسّتّون
مشتمل على حكمٍ منثورة

اعلم أيها المريد : أنَّ الله تعالىٰ يمتحنُ أنبياءَه وأصفياءَه بأعدائه ، ويَضْطَرُّ أولياءَه وأحباءَه إلىٰ أعدائه ؛ رِفعةً وتقريباً لأنبيائه ، وتمحيصاً لهَفوات أوليائه ، وذخراً لهم عنده ، وزُلفىٰ لديه ، وتعظيماً لأقدارهم ، وتشريفاً لمنازلهم ، وترفيعاً لدرجاتهم .

قال الله تعالىٰ تعزيةً لنبيّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم لعظيمِ ما كان يلقاه من سَطوات أعدائه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

يا محمد ؛ لا تستوحش منا ، ولا تتهمنا في سيرتنا ؛ فهٰذه سيرتنا فيمن نحبُّه ويحبُّنا .

فالبلاءُ علىٰ وجهين :

أحدهما : كفارة لذنب .

والآخر : رفع درجة وتوفير أجر .

ولذٰلك كان أشدَّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ عليهم السلام ، ثم الصالحون ، ثم الأمثلُ فالأمثل .

فالبلاء بلاءان :

بلاءُ رحمة ؛ لتضعيفِ درجة ، وتمحيصِ سيئة ، وبلوغِ فضيلة ، وعُلوِّ منزلة .

---

(١) سورة الأنعام : (١١٢) .

(٢) سورة الفرقان : (٣١) .

وبلاءُ عقوبة ؛ لانتهاكِ حرمة ، واقترافِ معصية .

لن تخلوَ المكارهُ أن تكونَ لحادثِ رحمةٍ ؛ فلا رغبةَ عمَّا أنعمَ اللهُ به منها ، أو لتنبيه[1] عند إضاعةٍ ؛ فلا غنىٰ عن زاجرٍ عنها وواعظٍ في تركها ، فلأيِّ ذٰلك كان حلولُها . . عظمت به المِنَّة ، ووجبت لله به النعمة .

وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما إذا وقعَ في شيء يكرهه . . قال : (اللهمَّ ؛ اجعله أدباً ولا تجعله غضباً)[2] .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كَانَ ٱلْمُؤْمِنُ فِي رَأْسِ جَبَلٍ . . لَقَيَّضَ ٱللهُ تَعَالَىٰ لَهُ مُنَافِقاً يُؤْذِيهِ »[3] .

يا من ضاق صدرُه ، وحَرِجَ قلبُه ، وساءت أخلاقُه . . من عدوٍّ أقلقَه ، أو حاسدٍ حسدَه ؛ طِبْ نفساً ، وقَرَّ عيناً ، وانعَم عيشاً بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لك بالإيمان ، ولعَدُوِّك بالنفاق .

بَخٍ بَخٍ إن عقلتَها !

أما لك في الأنبياء أُسوة ؟!

أما لك في الصالحين قدوة ؟!

فلو لم نلقَ اللهَ عزَّ وجلَّ من الحسنات إلا بما اقترفناه اختياراً . . لَلَقِينا اللهَ تعالىٰ فقراءَ من الحسنات ، ثُقلاءَ من السيئات .

قال الشاعر[4] : [من البسيط]

قَـدْ يُنْعِمُ ٱللهُ بِٱلْبَلْـوَىٰ وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَبْتَلِـي ٱللهُ بَعْـضَ ٱلْقَـوْمِ بِٱلنِّعَـمِ

---

(١) في النسخ ما عدا (ز ، و) : (لسيئة) ، و(ب) : (لسنة) .

(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (١٤٢/٢) .

(٣) رواه في « المتفق والمفترق » (٥٧٢/١) عن سيدنا علي رضي الله عنه بلفظ : « . . . ولو أن مؤمناً علىٰ رأس جبل . . لقيض الله إليه شيطاناً يؤذيه » .

(٤) البيت لأبي تمام في « ديوانه » (٢٨٠/٣) .

وقال بعض الحكماء : (الذي رأينا مِمَّا نُحبُّ فيما نكرهُ أكثرُ ممَّا رأينا ممَّا نحبُّ فيما نحبُّ) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (ما أَهمَّني ذنبٌ أُمهِلْتُ بعده حتىٰ أصلِّيَ ركعتين)[١] .

* * *

السجونُ قبورُ الأحياء ، وشماتةُ الأعداء ، وتجربةُ الأصدقاء .

أسعدُ الناس : من كانَ القضاءُ له مساعداً ، وكان لمساعدته أهلاً .

غلبَ على الكريم من بدرَ إليه الشماتة .

لؤمُ عوامِّ الناس عُدَّةٌ لخواصهم .

مجيءُ القَدَر يسبقُ الحَذَر .

من سَخِرَ من شيء . . حاق به .

من عَيَّرَ شيئاً . . بُلِيَ به .

الخَلقُ نهبُ المصائب .

مذاكرةُ الرجال تلقيحٌ لألبابها .

أقلُّ ما في طلب الحيلة الخروجُ من الاستكانة .

جاني العقوبة علىٰ نفسه أعظمُ جُرماً عليها من المعاقِبِ له عليها .

قَرابةٌ بغير منفعة بَلِيَّةٌ عظيمة .

النعمة مَنعةٌ[٢] .

كفاك أدباً لنفسك ما كرهتَه من غيرِك .

الحَمِيَّةُ شُؤْبُوبُ الجهل[٣] .

---

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (٣٦٢/٢) .

(٢) في (د ، هـ ، ز) : (متعبة) .

(٣) شؤبوبُ الجهل : شِدَّتُه .

الأَنَفةُ توءمُ السَّفَه .

قلَّ أنف لم يُعقب ذُلّاً .

العادةُ كمينٌ لا يُؤمَن [١] .

ازدحامُ الكلام مَضَلَّةُ الصواب .

عَجِّلُوا القِرَىٰ قبل سوءِ الظن وإلحاق السُّبة .

أعجبُ ما في هـٰذا الإنسان : قلبُه ، وله موادُّ من الحكمة ، وأضدادٌ من خلافها ؛ فإن سَنَحَ له الرجاءُ . . أذلَّه الطمعُ ، وإن هاجَ به الطمعُ . . أهلكَه الحرصُ ، وإن ملكَه اليأسُ . . قتلَه الأسفُ ، وإن عَرضَ له الغضبُ . . اشتدَّ فيه الغيظُ ، وإن أُسعِدَ بالرضا . . نسيَ التحفظ ، وإن ناله الخوفُ . . شَغَلَه الحَذَر ، وإن اتَّسعَ له الأمنُ . . استلبته الغِرَّة ، وإن حدثت له نعمة . . أخذته العِزَّة ، وإن امتُحن بمصيبة . . فضحَه الجزعُ ، وإن أفاد مالاً . . أطغاه الغنىٰ ، وإن عضَّته فاقة . . شَغَله البلاء ، وإن أجهدَه الجوعُ . . قعد به الضعفُ ، وإن أفرط به الشِّبَعُ . . كظَّته البِطنة ؛ فكلُّ تقصيرٍ به مُضِرٌّ ، وكلُّ إفراطٍ له مفسدٌ .

أفضل القول : بديهةُ أمنٍ وردت في مقامِ خوفٍ .

أشدُّ الناسِ غمّاً : الذي يرىٰ غيرَه في الموضعِ الذي هو به أَولىٰ .

ما أخذَ الله طاقة أحد . . إلا رفع عنه طاعتَه .

من العجب : ألا ترضىٰ عمن ابتغىٰ رضاك ، وأعجبُ من ذٰلك : أن تَسخطَ عليه .

زئيرُ الأسد يشبه صولتَه .

علامةُ العلمِ : العِلمُ بالإعراض عند المُبادهة .

لا تغاروا حتىٰ تروا ، لا تفخَروا حتىٰ تفعلوا ، لا تأنفوا حتىٰ تظلموا .

---

(١) في « البصائر والذخائر » (٢/٢٥) : (سوء العادة كمين لا يؤمن وثوبه) .

أوجَه الشفعاء براءةُ الساحة .

من لزم الصحة والاستقامة . . لزمته الغِبطة والسلامة .

قصصُ الأولين مواعظُ الآخرين .

البحثُ يوضحُ الحقَّ ، كما يُوري النارَ القَدحُ .

ليس مع الحسد سرور ، ولا مع الحرص راحة ، ولا مع السُّخط غِنىً .

قال جعفر الصادق رضي الله عنه : (عجبت لمن ابتُلي بخمس كيف يغفُلُ عن خمس ؟!

عجبت لمن ابتلي بالضر كيف يذهب عنه أن يقول : مسنيَ الضر وأنت أرحم الراحمين ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ ؟![1] .

وعجبتُ لمن ابتلي بالغَمِّ كيف يذهب عنه أن يقول : لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؟![2] .

وعجبتُ لمن خاف شيئاً كيف يذهب عنه أن يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، واللهُ تعالىٰ يقول : ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ ؟![3] .

وعجبتُ لمن مُكِرَ به كيف يذهب عنه أن يقول : وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، واللهُ تعالىٰ يقول : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ ؟![4] .

وعجبتُ لمن أنعمَ اللهُ عليه بنعمةٍ خافَ زوالَها كيف يذهب عنه أن يقول : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ؟![5]) .

---

(١) سورة الأنبياء : (٨٤) .

(٢) سورة الأنبياء : (٨٨) .

(٣) سورة آل عمران : (١٧٤) .

(٤) سورة غافر : (٤٥) .

(٥) سورة الكهف : (٣٩) .

كذا سنةُ اللهِ سبحانه فيمن صدقَ قلبُه في التجائهِ إليه ، ولم يتوكّل في مُهِمَّاته إلا عليه .

اليمينُ مأثَمة أو مَندمة .

ألذُّ المواردِ : منَجاةٌ من مَتلَفة ، أو قدومُ غائبٍ بعد أن جاءت باليأس منه الركائبُ ، وأسرُّ المصادر : ظَفَرٌ علىٰ قنوط .

الطبيعةُ مخالفةٌ للمروءة ؛ فاصبِر لحقٍ وجبَ عليك وإن خالفَ هواك .

بهاءُ المجلسِ الشريفِ بالرجل الفاضل .

اليقينُ راحةٌ ورَوْحٌ .

العملُ النافذ[1] بالرجل المُدبِّرِ ، كبهاء الياقوت واللؤلؤ في تِيجان الملوك .

ما أنورَ الهدىٰ !

ما أظلمَ العمىٰ !

ما أكرمَ التقىٰ !

ما أخدعَ الهوىٰ !

ما أتعبَ المُنىٰ !

ما أسرعَ البَلا !

ما أجهلَ الصِّبا !

الجودُ : أن تَهضِمَ الرُّوحُ حظَّ الجسدِ ، والإسرافُ : أن يَهضِمَ الجسدُ حظَّ الرُّوح ، والعدلُ : أن تعطيَ كلَّ واحد منهما حظَّه ، والشُّحُّ : أن تكفَّ حُظوظَهما عنهما .

عدوٌّ يخافُ اللهَ فيما يكره خيرٌ من صديق لا يخافه فيما يحب .

---

(١) في (أ ، ج) : (الناقد) ، و(ب ، د) : (النافد) .

من العجب : أن نطلبَ في صحةِ كلِّ علمٍ ما ينفعنا ، ونَكِلَ العلم إلى الله تعالىٰ من غيرِ بحث عن صحته .

لا يَرُعْكَ الباطلُ مما تُرمىٰ به ، ولـٰكن احذر أن يَصدعَ عليك بالحق ، فيشهدَ عليك وجهك وعيناك .

من طال رشاؤه . . كثر مَتْحُه .

الراغبُ فقيرٌ بقدر رغبتِه .

الحقُّ يُعطىٰ ويُمنع .

تجاوز عن ذنوب الناس ؛ لتحتجَّ عليهم ، واجتنب الذنوب ؛ لِتَقِلَّ حُجَّتُهم عليك .

الفراغ الفاضل عن الجَمَام مفسدة[1] .

الحِمْيَةُ إحدى العِلَّتين[2] .

الفَرَقُ يُنسي الحُجة .

حابِ العِلْيَةَ في كلامك ، وسوِّ بينهم وبين السَّفِلة في أحكامك .

موتٌ في عزٍّ خيرٌ من حياة في ذل .

الأَكْفاءُ من كل نمط متباغضون .

ما ضاع امرؤ عرف قدر نفسه .

الدَّعَةُ الهَنِيَّةُ تكونُ بعد انقضاء العمل .

لن يفارق الخيرُ صاحبَه حتىٰ يفارقه .

خير الناس : من تواضع عن رِفعة ، وعفا عن قدرة .

الحاسد يظهر وُدّاً في كلامه وبغضاً في أفعاله ، فاسمُ الصديق ومعنى العدوِّ .

---

(١) الجَمَام : الراحة .

(٢) وهـٰذا قول الأكلة وهم يعيبون الحمية .

الرياءُ يُفسد العلانية ، والعُجبُ يُفسد عملَ السريرة .

إذا كثرت القدرة . . قلَّت الشهوة .

من عرفَ قَدْرَه . . كفاك نفسَه .

كفىٰ بالظَّفَر شفيعاً للمذنب إلى الحليم .

لسانُ الجاهل دليلُ حَتْفِه .

لا ظفرَ مع بغي ، ولا صحةَ مع نَهَم ، ولا ثناءَ مع كِبْر ، ولا صداقةَ مع خِبٍّ .

من لم يعرف قَدْرَه . . فاكفِه نفسَك .

أحقُّ ما رُدَّ : ما خالفَ شهادةَ العقل .

قطع الظهرَ وأفسد الدِّينَ رجلان : جاهلٌ ناسكٌ ، وعالمٌ فاجرٌ ، هـٰذا يدعو الناس إلىٰ جهلِهِ بنسكه ، وهـٰذا يُنفِّرُ الناس عن علمه بفسقه .

من قوي هواه . . ضَعُفَ حزمُه .

من ظهر غيظه . . ضعف كيدُه .

كفىٰ بالظلم طارداً للنعمة ، وداعياً للنقمة .

من قَبِلَ صِلَتَك [1] . . فقد باعك مروءته .

الهديةُ تَفقأُ عينَ الحكيم .

عفوُ الرأي خيرٌ من استكراه الفكر .

ما استُنبِطَ الصوابُ بمثلِ المشاورة ، ولا حُصِّنَت النِّعَم بمثل المواساة .

من لم يؤمن بالقَدَر . . فقد كفر ، ومن حَمِدَ اللهَ تعالىٰ . . فقد فَخَر .

ما اكتُسبت البغضاءُ بمثل الكبر .

من استغنىٰ بالله . . افتقر الناس إليه .

(١) في (ج ، د) : (صدقتك) .

التقصير يُخرجك[1] عن الصواب .

الإفراطُ يُقحِمُك في الخطأ .

ثلاثُ خصال ما اجتمعن إلا في كريم : حُسنُ المحضَر ، واحتمالُ الزَّلَّة ، وقلةُ المَلَالة .

كفىٰ مخبراً عما بقي ما مضىٰ ، وكفىٰ عِبراً لذوي الألباب ما جَرَّبُوا .

التهاونُ بالمطلوب أولُ أسبابِ حِرمانه .

الشبهةُ ظلمة .

لن يُضيعَ امرؤٌ صوابَ القولِ حتىٰ يُضيعَ صوابَ العمل .

خيرُ الأمور : ما سَرَّ عاجلُه ، وحسنت عاقبتُه .

لا شرفَ مع سوء أدب ، ولا بِرَّ مع شُح ، ولا اجتنابَ مُحَرَّمٍ مع حرص ، ولا محبةَ مع زَهْو .

بإجالةِ الفكرِ يُستخرج الرأيُ المُصيب ، وبحسنِ التَّأني تُدرك المطالب ، وبالنَّصَفَة يَكثرُ المواصلون .

الفاحشةُ عارُ الأبد ، وعقوبةُ غد .

الشماتةُ تعقبُ الندامة .

من سخر . . ابتلي ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾[2] .

إذا فُقِدَ المتفضلون . . هلك المُتجملون .

رُبَّ صيانةٍ غُرِست من لحظة ، وحربٍ جُنِيت من لفظة .

ما شاهدٌ علىٰ غائبٍ بأدلَّ من طرفٍ علىٰ قلب .

---

(١) في (أ ، ب) : (يحجبك) .

(٢) سورة هود : (٣٨) .

شرُّ المال : ما لا يُنفق منه .

أفضلُ المالِ : ما صِينَ به العِرض .

وبالإفضالِ تَشرُفُ الأقدار .

الذي يكونُ سبباً لفساد نفسه أذلُّ ممن يُفسِدُه عدوُّه أو دهرُه .

لا تَعُدَّنَّ وديعةً مالاً .

الشهوةُ رِقُّ الحرص .

يُعبِّرُ عن الإنسان اللسانُ ، وعن المودةِ العينان .

لا شرفَ أعلىٰ من الإسلام ، ولا كرمَ أعلىٰ من التقوىٰ ، ولا شفيعَ أعلىٰ من التوبة .

أولى الناس بأمر : من حافظ عليه .

الخيرُ موضوعٌ لمن أراده ، موفورٌ لمن عَمِلَ به .

الرغبةُ مفتاحُ الطلب ، ومطيةُ الحسرة .

الحرصُ داعٍ إلى الحِرمان .

التنفُّل بالحسنة ينفي السيئة .

المكافأةُ بالسيئة دخولٌ فيها .

البغيُ سائقٌ إلى الحَيْن .

إصلاحُ الرعية أنفعُ من كثرة الجنود .

حقُّ المذموم التأنيب ، وحقُّ المرحوم المعونة .

من الجهلِ والجفاءِ إظهارُ الفرح عند المحزون .

المحزون يَحقِدُ على الفَرِح ، ويشكرُ المُكتَئِب .

من ظِلِّ السلامة تَدِبُّ أفاعي الآفات .

أعظمُ الناس قدراً : من لم يجعل الدنيا لنفسه قَدْراً .

ما أحدثَ مُحدِثٌ بِدعةً . . إلا ترك بها سُنة .

عزائمُ الأمور خيارُها ، ومحدثاتُها شرارُها .

الملكُ يكسبُ من إنفاقه ، والعامةُ تُنفِق من كسبها .

من أفنىٰ عمرَه في جمع المال مخافةَ العَدَم . . فقد أسلم نفسَه للعَدَم .

قال المتنبي[1] : [من الطويل]

وَمَنْ يُنْفِقِ ٱلسَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَٱلَّذِي فَعَلَ ٱلْفَقْرُ

* * *

من لم يقدر علىٰ جمع الفضائل . . فلتكن فضائلُه تركَ الرذائل .

إذا لم تكن مِلحاً تُصلح . . فلا تكن ذباباً تفسد .

استصلاحُ بعضِ العدوّ أفضلُ من إهلاكه .

من سعادة المرء أن يطولَ عمرُه ، ويرىٰ في عدوّه ما يسرُّه .

خيرُ الكتب : ما إذا أعادَ قارئُه النظرَ فيه . . زاد حسنُه ، أو وقف علىٰ خيره .

أثقلُ الأحمال : من اتسعت مروءتُه ، وقَلَّت مقدرتُه .

وقال المتنبي الشاعر[2] : [من الطويل]

وَأَتْعَبُ خَلْقِ ٱللهِ مَنْ زَادَ هَمُّهُ وَقَصَّرَ عَمَّا تَطْلُبُ ٱلنَّفْسُ وُجْدُهُ

فَلَا مَجْدَ فِي ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالَ فِي ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

استحِ من الله بقَدْرِ قربه من عقلك ، وأَطِعْه بقَدْرِ حاجتك إليه ، وخَفْه بقَدْرِ قدرته عليك ، واعصِه بقَدْرِ صبرك على النار ، واعمل للدنيا بقَدْرِ مقامك فيها ، واعمَلْ للآخرة بقَدْرِ بقائك فيها .

---

(١) البيت في « ديوانه » (٢/١٥٠) .
(٢) البيتان في « ديوانه » (٢/٢٢ ـ ٢٣) .

الملكُ ينفقُ ليكسب ، والعامةُ تكسب لتنفق .

الطاعةُ بقدر الفاقة .

يفحشُ زوالُ النِّعم إذا زال معها التجمُّل .

أَولى الأمور بك : أوجبُها عليك .

الدنيا العافية ، والشبابُ الصحة ، والسرورُ الأمن .

إذا أقبل الأمر . . تشابه ، وإذا أدبر . . صَرَّح (١) .

إذا عدل السلطان . . ملك قلوبَ الرعية ، وإذا جار . . لم يملك منهم إلا الرياءَ والتصنُّع .

الصدقةُ مِن سَعة ، وابدأ بمن تَعُول .

إذا أضرَّت النوافلُ بالفرائض . . تُركت النوافلُ وقُدمت الفرائض .

قَدْرُ الرجل علىٰ قَدْر هِمَّتِه ، وصدقتُه علىٰ قدر مروءته ، وشجاعتُه علىٰ قدر أَنَفته ، وعِفتُه علىٰ قَدْر غَيرته .

من أطاع الواشيَ . . ضيعَ الصديق .

من جعل لنفسه حظاً من حسن الظن . . روَّحَ عن قلبه .

شرُّ مالِكَ : ما لزمك إثمُ مَكسَبِه ، وحرمت منفعةَ إنفاقِه .

رُبَّ مغبوطٍ بليلةٍ قامت بَواكيه في آخرِها .

لا ترجُ خيرَ من لا يرجو خيرَك ، ولا تأمن جانبَ من لا يأمنُ جانبك .

تاركُ الطلب ضَجَراً ، أرجىٰ للعَوْدة من تاركه خَوَراً .

ثمراتُ الشهوات : المخازي .

الخصومة تُمرض القلب .

أعمُّ الأشياء نفعاً : فقدُ الأشرار .

---

(١) صرَّح : انكشف وظهر .

من استكفى الكُفاة . . كُفِيَ العُداة .

خير مالك : ما أغناك ، وخير منه : ما وقاك .

صَوْلَة الكريم صَيْلَم[1] .

ذَنَبُ أسدٍ خيرٌ من رأسِ كلب .

بجبهةِ العَيرِ يُفدىٰ حافرُ الفرس .

من استبدَّ برأيه . . خفَّت وطأتُه علىٰ أعدائه .

إنما لك من دنياك ، ما أصلحتَ به مثواك .

من أَمِنَ الزمانَ . . خانه ، ومن تعزَّزَ عليه . . أهانه .

كما يجبُ أن تكونَ المرآةُ أضوأَ من الناظر فيها . . فكذٰلك يجبُ أن يكونَ المُؤدِّبُ أفضلَ ممَّن يُؤَدَّب .

من تركَ العمل بما ينبغي . . عَمِلَ بما لا ينبغي .

ليس في الشر أُسوةٌ ، ولا في الخطأ قُدوة .

لن تكون لله ناصحاً حتىٰ تُحبَّ عدوَّك إذا أطاع الله تعالىٰ في عداوتك علىٰ عداوته وتُقلعَ عما عاداك عليه ، وتُبغضَ وليَّك إذا عصى الله تعالىٰ في موالاتك وتنزعَ عما والاك عليه .

لا تكن على الإساءة أقوىٰ منك على الإحسان .

الشقيُّ : من جمع لغيره ، وضنَّ علىٰ نفسه بخيره .

شرُّ أخلاقِ الكريم : أن يمنعَ خيرَه ، وخيرُ أخلاق اللئيم : أن يكفي شرَّه .

من كانت الآخرة رأسَ ماله . . كانت الدنيا رِبحَه ، ومن كانت الدنيا رأسَ ماله . . كانت الآخرةُ خسارتَه .

---

(١) صَوْلة الكريم : قهره ، وصَيْلم : شديد .

أفضلُ العلم : وقوفُ الرجل عند علمه .

أفضلُ المال : ما قُضِيتْ به الحقوق .

البدعُ فخاخٌ مخبوءة قد عُلِّقت عليها ألفاظٌ ظاهرة .

رجاءُ العامةِ أُمنيةٌ علىٰ ضلالة ، ورجاءُ الخاصةِ يقينٌ علىٰ ثقة .

القليل من الملك كالكثير من غيره .

عطاءُ الملك زينةٌ ، وسؤالُه شرف .

جاور مَلِكاً أو بحراً .

إذا كذبَ السَّفيرُ . . بطلَ التدبير .

أخبثُ الأزمنةِ : زمنٌ لا يُثمِرُ فيه الصواب .

لا تعطوا في الفضول ما خِفتم العجزَ عن الحقوق .

الآذانُ أقماعٌ تؤدي ، والقلوبُ قوابلُ تَعِي .

من أحبَّ أن يسمىٰ داهياً . . لم يظهر دهاءه .

لا دليلَ أهدىٰ من التوفيق .

الجلاء البلاء .

من عرَّضَ نفسه للتهم . . فلا يلومَنَّ من أساء به الظن .

الحفظُ قيدُ العلم .

المدارسةُ (١) إذكاءٌ للفهم .

المقايسةُ (٢) إحياءٌ للفِطَن .

---

(١) في النسخ جميعاً عدا (ز) : (الدراسة) .

(٢) في (ب ، د ، ز) : (المقابسة) .

اِسـتَدِمِ النعمةَ بالشـكر ، والقـدرةَ بالعفـو ، والطاعةَ بالتألُّـف ، والنصرَ بالتواصلِ لله والرحمةِ للخلق .

استقلالُ الكثير تعرُّضٌ للتغيير .

ثلاثةُ أشياءَ تدلُّ علىٰ عقول أربابها : الكتابُ يدلُّ علىٰ عقل كاتبه ، والرسولُ يدلُّ علىٰ عقل مُرسِله ، والهديةُ تدلُّ علىٰ عقل مُهدِيها .

لم يحكم على العقول حاكمٌ كالعبر ، ولم يحكمها محكم كالتجربة .

من عابَ سَفِلةً . . فقد رفعه ، ومن عاب سيداً . . فقد وضع نفسَه .

مَن استنقصَ مَن أجمعَ الناسُ علىٰ فضله . . فقد سلطَ الناسَ علىٰ عِرضه .

أحقُّ الناس أن يُؤتمن على الدنيا : أهلُ الآخرة .

صحَّ مَن صحَّت سرائرُه ، وسَقِمَ من سَقِمَت ظواهرُه .

بالكلام يُعرف فضلُ العقل ، كما بالرسول يُعرف قَدْرُ المُرسِل .

مِـلاكُ أموركـم الدينُ ، وعصمتُكـم التقوىٰ ، وزينتُكـم الأدب ، وحصونُ أعراضِكم الحِلم .

إذا أعْطَيتَ ما لا يُرضىٰ . . فارضَ بما أُعطيت .

كلما ازدادَ الخيرُ كثرةً . . كان الخارجُ منه أشدَّ حسرةً ، وبقدرِ السُّمُوِّ في الرفعة ، تكونُ وجبة الوقعة .

الإبقاءُ على العمل ، أشدُّ من العمل .

من التوقِّي تركُ الإفراط في التوقِّي .

توريثُ الحُرمة والذِّمامِ سُنةٌ في المروءة ، كما أنَّ وِراثةَ التَّرِكة فريضةٌ في الديانة .

لا تمدحَنَّ امرأً بأكثرَ من قَدْره فتكونَ مُهيناً لنفسك ، كذَّاباً علىٰ غيرك .

لا تفرحَنَّ بسَقطةِ غيرك ؛ فإنك لا تدري متىٰ يُحدِثُها الزمانُ بك .

من الجفاءِ الكلامُ في الأمرِ الجسيم مِن غير مشاورة .

أكثرُ الناس مخادعةً لنفسه في أمرِ جسدِه : عند الحِمْيَة ، وفي أمرِ مروءتِه : عند الشهوة ، وفي أمرِ دِينِه : عند الشُّبهة .

المصائبُ بَغَتَاتٌ .

العاقلُ المُدبِرُ أرجىٰ من الأحمق المُقبلِ .

أشرفُ الصنائع : ما لم يكن مكافأةً لماضٍ ، ولا رجاءً لباقٍ .

أرضِ النظيرَ ثم كَلِّفه (١) ، وآنس المُلهىٰ ثم استمع منه .

لم تكن غَوايةٌ ولا هدايةٌ إلا وإليهما سائقٌ ، وعنهما ناكصٌ .

إحسانُك إلى الحُرِّ يُحرِّضُه على المكافأة ، وإحسانُك إلى الخسيس يبعثُه علىٰ معاودة المسألة .

ليس يُمتحن الأديبُ بأن يكون فاعلاً للخير ، إنما يُمتَحن بأن يكونَ تاركاً للشر .

من صنعَ معك خيراً . . فأضعفه له ، وإلا . . فلا تَعجِزْ أن تكونَ مثلَه .

الأشرارُ يتبعون مساوئَ الناس ويَغفُلون عن محاسنهم ، كما يتبع الذبابُ المواضعَ النَّغِلةَ من الجسد ويدعُ صحيحه .

الظرف فطنةٌ مازجتها عبارةٌ مع حذر وتوق ؛ فإذا خلت الفطنة من التوَقِّي . . فصاحبُها لا يستمتعُ به أهلُ المروءة ، وإذا خلت الفطنةُ من العبارة وقارنتها مَلاحة . . فصاحبُها طيب .

الظرفُ فطنة معها بعض الإرسال للألفاظ التي يرتفع عنها أهلُ الجَلالة من المخلصين في باطن الدنيا والمترفين في ظاهر الحال .

وسمعت القاضي أبا العباس الجُرجاني رحمه الله بالبصرة يقول : أول من

---

(١) في (د ، هـ ، ز) : (كافئه) .

نطَقَ بهٰذه الكلمة : عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وذٰلك أنه أُتي بسارق ، فقال له : (أسرقت ؟ قل : لا ، فقال الرجل : لا ، فقال عمر : إنك لظريف)[١] .

جَهْدُ البلاء : الإقلالُ والعيالُ .

ينبغي للعالِم أن يتطامَنَ للجاهل بقَدْرِ ما رفعه اللهُ تعالىٰ عليه .

العقلُ أفقرُ إلى الحكمة والأدب من الجسد إلى الطعام والشراب .

أعظمُ الناس غَمّاً : من زالت نعمتُه ، وبقيت شهوتُه ، وضاقت مقدرتُه .

قلةُ العيال أحدُ اليَسارين .

معالجةُ الموجود خيرٌ من انتظار المفقود .

من عَدِمَ الحياءَ عند الفضيحةِ ، والصبرَ عند النصيحة . . سهلت عليه المعاصي كلُّها .

العالِمُ مثلُ السِّراج ؛ من مَرَّ به . . اقتبسَ منه .

من تقدَّمَ بحسن النية . . نَصرَه التوفيق .

لن تكون لله ناصحاً حتىٰ تحبَّ أن يكون عدوُّك له مطيعاً .

من آذى الناس بلا سلطان[٢] . . كان مصيرُه إلى الهوان .

مادحُك بما ليس فيك مخاطبٌ لغيرك ، فجوابُه وثوابُه ساقطان عنك .

المكرُ والخديعةُ في النار .

الأحداثُ تأتي علىٰ ما منه يؤتى الحَذِرُ .

المأكولُ للبدن ، والموهوبُ للمعاد ، والمحفوظُ للعدو .

من غَضِبَ علىٰ من لا يَقدِرُ علىٰ غَمِّه . . عذَّبَ نفسَه ، واشتدَّ غيظُه .

---

(١) انظر « الفائق » (٢/٣٧٦) ، و« النهاية » (٣/١٥٧) .

(٢) في (أ ، ب) : (بالسلطان) .

اطلب ما يَعنيك ، واترك ما لا يَعنيك ؛ فإنَّ في ترك ما لا يَعنيك ، دركَ ما يَعنيك .

من أنكى الأشياء لعدوك : أن تُرِيَه أنك لا تُعادِيه .

كلُّ آتٍ قريبٌ .

الاستغناءُ عن الشيء خيرٌ من الاستغناء به .

من خيرِ خبرٍ : أن تسمع بمطر .

لا فخرَ فيما يزول ، ولا غنىٰ فيما لا يبقىٰ .

شرُّ العيوب : ما كان مُضمَّناً بعيوب ، وشرُّ الذنوبِ : ما كان عِلةً لذنوب .

أبلغُ الرسل : الكتب .

حاول الأمور بالنَّصَفةِ وأنا زعيمٌ لك بالظَّفَر .

من أراد جمالاً لا تَهدِمُه الأيامُ . . فليصحب المروءةَ والصيانةَ ؛ فهما ذُروة الشرف .

رُبَّ أمرٍ له ما بعده ؛ من سبقَ إليه . . كانت له صفوتُه .

من شروط المروءةِ : التغابُنُ للضعيف .

المروءةُ : تركُ الرِّيبة .

يكاد استقضاءُ القويِّ على الضعيف أن يكون ظلماً .

يكاد استيفاءُ الغنيِّ من الضعيف أن يكون جَوْراً .

القرآنُ ظاهرُه أنيقٌ ، وباطنُه عميقٌ ، أولُه حكم ، وآخرُه علم .

المحادثةُ على الطعام تزيدُ في الشهوة ، وتُذهب الحِشمة ، وتُزيلُ الانقباض .

لن تنال ما تُحِبُّ حتىٰ تصبرَ علىٰ كثير مما تكره ، ولن تنجوَ مما تكرَه حتىٰ تصبِرَ عن كثيرٍ مما تُحِبُّ .

ذهابُ البصر ، خيرٌ من كثيرٍ من النظر .

لا يُعَدُّ الغُرمُ غُرماً ، إذا ساق غُنماً .

مع الرأيِ الأولِ الوهم .

النظرةُ بعد النظرةِ تعقبُ لما قبلها ، وتدبُّرٌ[1] لما بعدها .

ليس مدحُ الرجل بما فيه تزكيةً .

أنعَمُ الناس : من كُفِيَ أمرَ دنياه ، ولم يُهِمَّه أمرُ دينِه .

الغريبُ : من فَقَدَ إخوانَه ونظراءَه وإن كان في وطنه .

الغريبُ : من لا صديقَ له .

الغريب : الفقير .

الغريبُ : الأحمق .

الغريبُ : من لا ناصرَ له .

شيئان لا يستحي العاقل منهما : المرضُ ، وذو القرابة .

الفقيرُ : من كانت الدنيا سببَ صلتِه لك ، فإنها سببُ قطيعتِه ؛ فاحذر أن تجعلَها وسيطاً بينك وبين أحد .

علامةُ الأشرار : أنَّ من خالطهم . . لا يسلمُ منهم ، ومن تركهم . . لا يصرفون شرَّهم عنه ، وأمَّا الأخيار : فمن خالطهم . . رَبِحَ عليهم ، ومن غالطَهم . . تَرَكَ رشدَه .

البِرُّ ثلاثة : الصدقُ في الغضب ، والجودُ في العسر ، والعفوُ عند القدرة .

من عَتَبَ على الزمان . . طالت مَعتبتُه .

ستساقُ ، إلىٰ كلِّ ما أنت لاق .

---

(١) في النسخ ماعدا (ج) : (وتزيد) .

إذا صحبَ الارتيادَ الرشادُ . . وُجِدَ المراد .

ما عُتِقَ من الذم من مَلكَه الجهل ، ولا ظَفِرَ بالعِزِّ من احتملَ ما في المعصية من الذل ، ولا خرج من الدَّناءة من صَرفَ جميعَ عقلِه إلى الدنيا .

أخو الظلماء مُريب .

المسألةُ آخِر المَكسَبة .

ما عُدَّ من أهل الحِجا ، من كان من أهل الهوىٰ ، ولا كان من أهل التُّقىٰ ، من حادَ عن سبيل الهدىٰ .

من ذمَّ أدنى الإحسانِ لامتناعِ أقصاه . . لم يحمَد شيئاً منه .

من دواعي الهلكة إضاعةُ المعرفة .

وا عجباً لمن يبني دارَه وجسمُه يُهدم ، ولمن يُبرِمُ أمورَ الدنيا وأمورُه في نفسه تَنحَلُّ !

* * *

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (من لم يكن معنا . . كان علينا ، والساكت أخو الراضي)[1] .

الكاتم للعلم كمن لا علم له ، أو هو غيرُ واثقٍ فيه بالصواب .

المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه .

قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يحسن .

العلمُ بما في المصيبة من الثواب ينسي المصيبة .

شرٌّ من المصيبة : سوءُ الخَلَفِ منها .

الحكمةُ ربيعُ القلوب .

---

(١) قوله : (من لم يكن معنا . . كان علينا) رواه في « حلية الأولياء » (١٩٥/٦) من قول عتبة الغلام رحمه الله تعالىٰ .

الخصومة تكشفُ العورة ، وتورثُ المَعَرَّة .

بلاءُ المؤمن من عافيتهِ ، كالنارِ حريقُها من نورها .

قد يكون اليأسُ إدراكاً ، إذا كان الطمعُ هلاكاً .

من لم يرفع نفسَه عن قَدْرِ الجاهل . . رفعَ الجاهلُ قَدْرَه عليه .

الذلةُ مع القلة .

تجوعُ الحُرَّةُ ولا تأكلُ بثدييها .

موتٌ عاجلٌ ، خيرٌ من ضَنىً آجِلٍ .

الغضبُ عند المناظرة مَنساةٌ للحُجَّة .

الاختصارُ أثبتُ للمتكلم ، وأفهمُ للسامع .

الكلبُ في الحاضرةِ : يَنبَحُ الضيفَ ، ويدفعُ الزائر ، ويردُّ السائل ، والكلبُ في البادية : يُعينُ الصاحبَ ، ويُنذِرُ بالضيف ، ويدفع السارق .

لا تغترَّ بقول الجاهل لك : إنَّ في يدك لؤلؤةً ، وأنت تعلمُ أنها بَعْرة .

مَثَلُ الصلاة مع سائر العبادات : مَثَلُ السفينة مع جميع من فيها ؛ إن سلمت . . سلمَ الكُلُّ ، وإن أصيبت . . أُصيب الكُلُّ .

الحبُّ والبغضُ فتنة .

طلبُ المطمع حزمٌ ، وطلبُ المؤيس عجزٌ .

قد ينصر المنطق من يعنىٰ به .

إذا فسد الزمان . . كَسَدَت الفضائلُ وضَرت ، ونَفقَت الرذائلُ ونَفعت ، وصار خوفُ المُوسِرِ أكثرَ من خوف المُعسِرِ .

لقاءُ أهل الخير عِمارةُ القلوب .

لا يصيدُ الكثيرَ من لا يصيدُ نفسَه الواحدة .

بالعمل يحسنُ المنطق ، وبالقوة يَتِمُّ العمل .

الفكرةُ مرآة .

مِن أعظمِ الناسِ محنةً : من قَلَّ مالُه ، وكثر مجدُه .

الأدبُ مع العقل كالشجرة المثمرة ، والعقلُ بلا أدبٍ كالرجل العقيم .

الماءُ ألينُ من القول ، والقول[1] أقسىٰ من الحجر ، وقد يَثلَمُ الماءُ الحجر إذا كثر انحدارُه عليه .

أشدُّ الأشياء إخفاءً : الفاقة .

أَوْلَى الناسِ بالرحمة : عالِمٌ يجري عليه حُكمُ جاهل .

لم يَغِبْ من شُهِدَ رأيُه ، ولم يَفْنَ من بقيَ أَثرُه ، ولم يمت من خُلِّدَ علمُه .

ليس بهالك ، من تركَ مثلَ مالِك .

كما أنه قبيحٌ إذا ركبنا الخيلَ أن تجريَ بنا حيث أرادت دون أن نديرها . . كذٰلك قبيحٌ أن يجريَ البدنُ والنفسُ بالعقل حيث أراد[2] من الشهوات .

أشقُّ الأمور : معرفةُ المرء بنفسه .

عائبُ المجتمع عليه محجوج .

ليس شيءٌ من البِرِّ إلا ودونه عَقَبةٌ من الصبر .

ضربُ الإنسان عارٌ باقٍ ، ووَتْرٌ مطلوب[3] .

قيل للحكيم : (هل للغضب مادةٌ تَحسِمُه ؟ قال : نعم ، أن يعلمَ الإنسانُ أنه ليس يجب أن يكون مطاعاً أبداً ، ولا يجب أن يُخدَم أبداً ، ولا يجب

---

(١) في النسخ جميعاً عدا (ب) : (والقلب) .

(٢) في النسخ ما عدا (أ) : (أرادت) ، و(ح) : (أرادا) .

(٣) وَتْرٌ : ثأر .

أن يُحتمل خَطؤُه أبداً ، ولا يجب أن يُصبر عليه أبداً ، بل قد يُطيع ويَخدُمُ ، ويتحملُ الخطأ ، ويصبرُ على النوائب ؛ فإذا عَقَلَ ذلك . . لم يغضب ، وإن غضب . . فقليل) .

السعيدُ : من وُعِظَ بغيره ، والشقيُّ : من وُعِظَ بنفسه .

لا تنفعُ كَثرةُ العلم لمن لا يعمل ؛ كما لا يُغني ضوءُ الشمس عمَّن لا يُبصر .

رضيَ بالذل من كشف ضُرَّه بتركِ التورُّع ، وأزرىٰ بنفسه من استشعر الطمعَ .

البِدَعُ فُخوخٌ تسترُها زخرفةُ الكلام ، وخُدَعُ المقال .

الناسُ في الدنيا بالإخوان ، وفي الآخرة بالأعمال .

صديقُ الرجل عقلُه ، وعدوُّه حُمقُه .

من اجتمعت إليه النعمة . . أُديمت له الرغبة .

يُحفظ الأحمقُ من كلِّ شيء إلا من نفسه .

لا جودَ إلا بمال ، ولا صداقةَ إلا بوفاء ، ولا فقهَ إلا بورع .

العليلُ الذي يشتهي أرجىٰ من الصحيح الذي لا يشتهي .

قلوبُ الرجال وحشيَّة ؛ فمن تألَّفها . . أقبلت عليه .

اجعلوا بينكم وبين الحرامِ سُترةً من الحلال .

لقاءُ الرجل أَخِلَّاءَه مَسلاةٌ للهَمِّ .

من لم يَصلحْ علىٰ تدبير الله تعالىٰ . . لم يصلح علىٰ تدبير نفسه .

الأحلامُ فرحُ وَهْمٍ كاذبٍ ، والعاملُ بها كالمعتمدِ على الظل الزائل .

الدنيا دولٌ ؛ فما كان لك منها . . أتاك ، وما كان عليك . . لم تقوَ علىٰ دَفْعِه .

العافيةُ خيرٌ من الواقية .

الكريمُ لا يستحي من إعطاء القليل .

العفافُ زينةُ الفقير .

الكرمُ : حسنُ الفِطنة ، واللؤمُ : سوءُ التغافل .

اختلافُ كلام المرء دليلٌ علىٰ ميل الهوىٰ به .

من حق النعمة أن يُرىٰ أثرُها .

من كان شِبعُه في الطعام . . لم يزل جائعاً ، ومن كان غناه في المال . . لم يزل فقيراً ، ومن كان قصدُه بحوائجِه الخلقَ . . لم يزل محروماً ، ومن استعانَ في أمرِه بغير الله تعالىٰ . . لم يزل مخذولاً .

من خاف مَن فوقه . . خافه مَن تحته ، ومن لم يخف مَن فوقه . . لم يخفه مَن دونه .

ما تحسنُه ولا تعمل به . . لغيرك نُورُه ، وعليك بَورُه .

وا عجباً لمن يختارُ المَذلةَ في طلب ما يَفنىٰ ، على العِزِّ في طلب ما يبقىٰ !

من حذَّرك ، كمن بشَّرك .

الشفيعُ جناحُ الطالب .

إذا أقبلتِ الدنيا عليك . . فأنفق منها ؛ فإنها لا تفنىٰ ، وإذا أدبرت عنك . . فأنفق منها ؛ فإنها لا تبقىٰ .

قال الشاعر[1] : [من الطويل]

فَأَنْفِــقْ إِذَا أَيْسَــرْتَ غَيْــرَ مُقَتِّــرٍ ... وَأَنْفِـقْ عَلَـىٰ مَا خَيَّلَتْ حِينَ تُعْسِـرُ

فَلَا ٱلْجُودُ يُفْنِي ٱلْمَالَ وَٱلْحَظُّ مُقْبِلٌ ... وَلَا ٱلْبُخْلُ يُبْقِي ٱلْمَالَ وَٱلْحَظُّ مُدْبِرُ

(١) البيتان لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر في « عيون الأخبار » (٣/١٨٠) ، و« الأغاني » (٩/٣١٦١) ، وخَيَّلَتْ : شبَّهت ولوَّنت ، ومعناه : علىٰ أي حال .

ولغيره[١] : [من البسيط]

لَا تَبْخَلَـنَّ بِدُنْيَـا وَهْـيَ مُقْبِلَـةٌ فَلَيْـسَ يَنْقُصُهَـا ٱلتَّبْذِيـرُ وَٱلسَّـرَفُ
وَإِنْ تَوَلَّـتْ فَأَحْـرَىٰ أَنْ تَجُـودَ بِهَـا فَٱلشُّـكْرُ مِنْهَـا إِذَا مَا أَدْبَـرَتْ خَلَفُ

الغريبُ في كل مكان مظلوم .

من سلك الجَدَدَ . . أَمِنَ العِثَارَ[٢] .

لم يَحَرْ راكبُ القصد .

عجباً للئيم يستعجل الفقرَ الذي منه هرب ، ويفوتُه الغِنى الذي إيَّاه طلب ، فيعيشُ في الدنيا عيشَ الفقراء ، ويُحاسب في الآخرة حسابَ الأغنياء !

من يطل ذيله . . يكثرْ وَيْلُه .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (من يطل [أير أبيه] . . يَنتَطق به)[٣] .

❁ ❁ ❁

غَثُّكَ خيرٌ من سمينِ غيرك .

إن أحببتَ ألا يفوتك ما تشتهي . . فاشتهِ ما يُمكِنُك .

من قصد . . أسهل ، ومن أسرف . . أوعر .

القصد أحد الراحتين[٤] .

---

(١) البيتان لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٨٠) .

(٢) الجَدَد : الأرض المستوية .

(٣) الخبر زيادة من (ج ، د ، هـ ، ز) ، وفي (د) : (ما يظل أثر الله . . .) ، و(ز) : (ما يظل فعل الله . . .) ، و(ج) : (من يطل برأيه فعل ينطلق) ، و(هـ) : (من يطل ينتظر) ، والتصويب من المصادر ، أورده في « الحيوان » (٤٢/٣) ، و« عيون الأخبار » (٢/١) ، و« النهاية في غريب الحديث والأثر » (٨٥/١) ، وهـٰذا مثل ضربه ؛ أي : من كثرت إخوته . . اشتد ظهره بهم ، وضرب المنطقة مثلاً لذٰلك ؛ إذ كانت تشد الظهر .

(٤) في (ج ، د ، هـ ، ز) : (أحد الحمام) ، و(و) : (أجذب للحمام) .

شرُّ السيرِ : الحَقْحَقة[1] .

بَوّئْ لنفسك في المجالس مجلساً لا يَقصُرُ بك ولا تُقامُ عنه .

اقلع الشَّرَّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك ، وازجُر المسيءَ بإثابة المحسِنِ ؛ لكي يرغبَ في الإحسان .

لم يَهلِكْ من مالك ما وعظك[2] .

الخلافُ يَهدِمُ الرأي .

خيرُ الناس لغيره : خيرُهم لنفسه .

إحسانُ اللهِ مكفورٌ ، عند من أصبح مُصِرّاً علىٰ ذنب مستور .

يصيرُ التَّخلُّق خُلُقاً بالاجتهاد والاعتياد .

الحَجَرُ الغصبُ في البنيان رهنٌ على الخراب .

رُبما شَرِقَ شاربُ الماء قبل رِيّه .

رُبَّ رأيٍ أنفعُ من مال ، وحزمٍ أوقىٰ من رجال .

من استوعبَ الحلال . . تاقت نفسُه إلى الحرام .

من ذمَّ الزمان . . لم يحمد الإخوان .

بتقلب الأحوال تُعلَمُ جواهرُ الرجال .

من عرف الزمان . . لم يحتج إلىٰ تَرجُمان ، ومن عرف الأيامَ . . لم يَغفُلْ عن الاستعداد .

رسولُك تَرجُمانُ عقلِك .

الطاعةُ غنيمةُ الأكياس عند تفريط العَجَزة .

---

(١) الحقحقة : السيرُ المتعبُ الشديد ، ويقال : هي كفُّ ساعة وإتعاب ساعة .

(٢) لأنه بعثك علىٰ حفظ ما بقي ، فكأن هلاكه نفعك .

كلما اشتدَّ الظلام . . حسنَ ضوءُ السراج .

الثناء بأكثر من الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصيرُ عن الاستحقاق عمىً أو حَسَد .

أَولى الناس بالرحمة : من احتاجَ إليها فحُرِمَها .

من لم يدرِ قَدْرَ البَلِيَّة . . لم يرحم أهلَها .

كفاك أدباً لنفسك ما كَرهتَه لغيرها .

مجالسةُ الأحمقِ غَرَر ، والقيام عنه ظَفَر[1] .

لا تسأل عما لم يكن ؛ فإنَّ في الذي قد كان شغلاً .

البخلُ جامعٌ لمساوئ العيوبِ ، وهو زمامٌ يُقادُ به إلىٰ كل سوء .

إذا صحَّ القلبُ وصحَّ العمل . . كان التوفيق .

إحراز العواقب بالاجتهاد ، والاجتهادُ أربحُ بضاعة .

التوفيق خيرُ قائد .

كمالُ العمل : التوفيق .

من ترفَّقَ في استتمام الحظ من البغية . . أدركَ وبلَغ .

مقاربةُ الناس في أخلاقهم أمنٌ من غوائلهم .

لا تنظر إلىٰ أحدٍ بالموضع الذي رتَّبه فيه زمانُه ، ولٰكن انظر إليه بقيمته في الحقيقة ؛ فإنها مكانُه الطبيعي .

أبعدُ الناسِ سفراً : من سافر في طلبِ أخٍ صالحٍ .

ليست البركةُ من الكَثرة ، لٰكن الكثرة من البركة .

وقال داوود عليه الصلاة والسلام : (إن كان ما ترىٰ من الجهل يَغِيظك . . إذاً يكثرُ الجهلُ ويطولُ غَمُّك) .

---

(١) غَرَر : خطر .

قيل لبُزْرُجُمِهْرَ : (ما لكم لا تعاتبون الجَهَلة ؟ قال : لأنا لا نريد من العميان أن يبصروا)[1] .

العشقُ مرضُ نفسٍ فارغةٍ لا هِمَّةَ لها في إجالة الفكر واستخراج الفطنة .

تُتبَعُ الإساءةُ بالندم ، ويُتبَعُ الندمُ بالإقلاع .

الأمنُ بالبراءة ، وكثرةُ الصديق بالتواضع .

أعمُّ الأشياء نفعاً : فقدُ الأشرار .

من بَذَرَ عداوةً . . حصدَ ندامة .

السُّمنةُ للنساء غُلمة ، وللرجال غَفلة[2] .

قال المسيح عليه السلام : (ما حِلمُ من لم يصبر عند الجهل ؟! وما قوةُ من لم يردَّ الغضب ؟! وما عبادةُ مَن لم يتواضع للرب تعالىٰ ؟!)[3] .

عيادةُ النَّوكى : المجيءُ في غير وقتٍ ، والجلوسُ فوق القَدْر .

إذا وقعت الضرورة . . ارتفعت المشورة .

* * *

قيل لحكيم : (أخرج الهمَّ من قلبك ، قال : ليس بإذني دخل)[4] .

من اغترَّ بحاله . . قصَّرَ في احتياله .

إياكم وطلبَ الأمور من غير وجوهها ، فيعييَكم طلبُها ، ولا تدركوا حَظّاً منها .

هيبةُ الزللِ تُورثُ الحَصَر .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٣/١٠٣) .

(٢) في (ج) : (عقدة) ، و(ز) : (عقلة) ، و(و) : (عطلة) .

(٣) تقدم في (ص ٣٠٩) .

(٤) أورده في « نفح الطيب » (٥/٢٩٥) .

قيل لحكيم : (لأيِّ شيءٍ تزوجتَ امرأةً دميمةً[1] وأنت وسيم ؟! قال : اخترتُ من الشرِّ أقلَّه)[2] .

وقيل لحكيم : (ما تقول في الزواج ؟ قال : لذةُ شهر ، وهَمُّ دهر ، ووزنُ مهر ، ودقُّ ظهر)[3] .

فتنةُ عالِمٍ إلىٰ إبليسَ خيرٌ من غَوايةِ ألفِ جاهل .

تمني المعاتب ولا تمني المعاذير .

الموالاة في الإسلام بمنزلة الحِلْفِ في الجاهلية .

سبُّ الجاهل للحكماء تشريفٌ لهم عند أهل الفضل ؛ لأنَّ الجاهلَ منسوبٌ إلىٰ فعله ، وكما أنَّ الحكيمَ يتألمُ بحديثِ الجاهل . . كذٰلك الجاهل يتألمُ بسماع الحكمة .

أغنى الناسِ عن الحقدِ : من عَظُمَ قَدْرُه عن المجازاة .

الكبيرُ الهِمَّةِ من الرجال : من كان عنفُ الناصح عنده ألطفَ موقعاً من مَلَقِ الكاشح .

إن كانت الجدودُ هي الحظوظ . . فما بالُ الحرص ؟! وإن كانت الأمورُ ليست بدائمة . . فما بالُ السرور ؟! وإن كانت الدارُ غدَّارةً . . فما بالُ الطمأنينة ؟!

وقال الشعبي : (ما رأيتُ اللهَ سبحانه وتعالىٰ أعطىٰ عبادَه أجلَّ من الحِلم)[4] .

---

(١) في النسخ ما عدا (أ ، ج) : (ذميمة) .

(٢) أورده بنحوه في « محاضرات الأدباء » (٣/٣٩٨) .

(٣) أورده بنحوه في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١٧) .

(٤) أورده في « النكت والعيون » (٥/٦٠) من قول الحسن رحمه الله تعالىٰ ، وفي (أ ، ب) : (العلم) ، و(ز) : (الحكم) بدل (الحلم) .

وقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه : (خمسٌ من لم تكن فيه . . فلا ترجُه لشيءٍ من أمر الدنيا والآخرة : من لم تُعرَفِ الوثيقةُ في أَرُومته ، والدَّماثةُ في خُلقه ، والكرمُ في طبعه ، والنبلُ في نفسه ، والتحاقرُ عند ربه)[١] .

قال أبو عبد الله بن حَمْدُون : (كنتُ مع المتوكِّلِ لمَّا خرج إلىٰ دمشق ، فركب يوماً إلىٰ رُصافةِ هشامِ بنِ عبد الملك ، فنظر إلىٰ قصورها ، ثم خرجَ فرأىٰ دَيراً هناك قديماً ، حسنَ البناء ، بين مزارعَ وأنهار وأشجار ؛ فبينما هو يطوف . . إذ بَصُرَ برُقعةٍ قد أُلصقت في صدره ، فأمر بقَلعِها ؛ فإذا فيها : [من الطويل]

أَيَا مَنْزِلاً بِٱلدَّيْرِ أَصْبَحَ خَالِياً ... تَلَاعَبُ فِيهِ شَمْأَلٌ وَدَبُورُ[٢]
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْكُنْكَ بِيضٌ أَوَانِسٌ ... وَلَمْ يَتَبَخْتَرْ فِي فِنَائِكَ حُورُ
وَأَبْنَاءُ أَمْلَاكٍ عَبَاشِمُ سَادَةٌ ... صَغِيرُهُمُ عِنْدَ ٱلْأَنَامِ كَبِيرُ[٣]
إِذَا لَبِسُوا أَدْرَاعَهُمْ فَعَنَابِسٌ ... وَإِنْ لَبِسُوا تِيجَانَهُمْ فَبُدُورُ[٤]
عَلَىٰ أَنَّهُمْ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ ضَرَاغِمٌ ... وَأَنَّهُمُ يَوْمَ ٱلنَّوَالِ بُحُورُ
لَيَالِي هِشَامٌ بِٱلرُّصَافَةِ قَاطِنٌ ... وَفِيكَ ٱبْنُهُ يَا دَيْرُ وَهْوَ أَمِيرُ
إِذِ ٱلْعَيْشُ غَضٌّ وَٱلْخِلَافَةُ لَدْنَةٌ ... وَأَنْتَ طَرِيرٌ وَٱلزَّمَانُ غَرِيرُ
وَرَوْضُكَ مُرْتَادٌ وَنَوْرُكَ مُزْهِرٌ ... وَعَيْشُ بَنِي مَرْوَانَ فِيكَ نَضِيرُ
بَلَىٰ فَسَقَاكَ ٱلْغَيْثُ صَوْبَ سَحَائِبٍ ... عَلَيْكَ لَهَا بَعْدَ ٱلرَّوَاحِ بُكُورُ
تَذَكَّرْتُ قَوْمِي فِيكُمَا فَبَكَيْتُهُمْ ... بِشَجْوٍ وَمِثْلِي بِٱلْبُكَاءِ جَدِيرُ

(١) أورده في « البصائر والذخائر » (٢٠١/٢) دون نسبة ، وفيه (والاتعاظ بغيره . . . والمخافة من ربه) بدل (والكرم في طبعه ، والتحاقر عند ربه) .
(٢) شمأل : ريح الشمال ، ودَبور : ريح تهب من الغرب .
(٣) عباشم : جمع عَبْشَمِي ؛ وهو نسبة إلىٰ عبد شمس .
(٤) عنابس : جمع عَنْبَس ؛ وهو الأسد .

فَعَزَّيْتُ نَفْسِي وَهْيَ نَفْسٌ إِذَا جَرَىٰ لَهَا ذِكْرُ قَوْمِي أَنَّةٌ وَزَفِيرُ
لَعَلَّ زَمَاناً جَارَ يَوْماً عَلَيْهِمُ لَهُمْ بِٱلَّذِي تَهْوَى ٱلنُّفُوسُ يَدُورُ
فَيَفْرَحَ مَحْزُونٌ وَيَنْعَمَ بَائِسٌ وَيُطْلَقَ مِنْ ضِيقِ ٱلْوَثَاقِ أَسِيرُ
رُوَيْدَكَ إِنَّ ٱلْيَوْمَ يَتْبَعُهُ غَدٌ وَإِنَّ صُرُوفَ ٱلدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قال : فلمَّا قرأها المتوكل . . ارتاعَ وتطيَّر ، وقال : أعوذ بالله من شرِّ أقداره ، ثمَّ دعا بصاحب الدَّيرِ ، فسأله عمَّن كتبها ، فقال : لا علمَ لي به)[1] .

[فَصْلٌ]

[في الكتب وصفاتها]

وأما الكتبُ وصفاتُها . . فتَجِلُّ عن بلوغ الوصف ، ولقد أحسنَ ابنُ الجهم في قوله[2] : [من الطويل]

سَمِيرٌ إِذَا جَالَسْتَهُ كَانَ مُسْلِياً فُؤَادَكَ مِمَّا فِيهِ مِنْ أَلَمِ ٱلْوَجْدِ
يُفِيدُكَ عِلْماً أَوْ يَزِيدُكَ حِكْمَةً وَغَيْرُ حَسُودٍ أَوْ مُصِرٍّ عَلَى ٱلْحِقْدِ
وَيَحْفَظُ مَا ٱسْتَوْدَعْتَهُ غَيْرَ غَافِلٍ وَلَا خَائِنٍ عَهْداً عَلَىٰ قِدَمِ ٱلْعَهْدِ
زَمَانُ رَبِيعٍ فِي ٱلزَّمَانِ بِأَسْرِهِ يُبِيحُكَ رَوْضاً غَيْرَ ذَاوٍ وَلَا جَعْدِ
يُنَوِّرُ آدَاباً بِوَرْدِ بَدَائِعٍ أَخَصَّ وَأَوْلَىٰ بِٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلْوَرْدِ

وأنشد بعض الأعاجم[3] : [من المتقارب]

إِذَا مَا خَلَا ٱلنَّاسُ فِي دُورِهِمْ بِخَمْرٍ سُلَافٍ وَخَوْدٍ كَعَابِ
وَآنَسَهُمْ حَسَنَاتُ ٱللَّيَالِي بِعِزِّ ٱلنَّدَامَىٰ وَزَهْرِ ٱلصِّحَابِ

---

(١) أورد الخبر أبو الفرج الأصبهاني في « الديارات » (ص ٩٠ ـ ٩١) ، وبنحوه أبو حيان في « البصائر والذخائر » (١٠٥/٨) .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ١١١) .
(٣) أورد الأبيات الحبيشي في « نشر طي التعريف » (ص ٢٧٧) .

خَلَـوْتُ وَصَحْبِـيَ كُتْـبُ ٱلْعُلُـومِ   وَبَيْــتُ عَرُوسِـي بَيْـتُ ٱلْكِتَـابِ
وَدَرْسُ ٱلْعُلُـومِ شَـرَابُ ٱلْعُقُـولِ   فَـدُورُوا عَلَـيَّ بِـذَاكَ ٱلشَّـرَابِ
وَمَـا يَجْمَـعُ ٱلْمَـرْءُ فِـي دَهْـرِهِ   سِـوَى ٱلْعِلْـمِ يَجْمَعُـهُ لِلتُّـرَابِ

ومن مليح ما يُنشد في الدفاتر والكتب(١) : [من المتقارب]

إِذَا مَـا خَلَـوْتُ مِـنَ ٱلْمُؤْنِسِـينَ   جَعَلْـتُ ٱلْمُؤَانِـسَ لِـي دَفْتَـرِي
فَلَـمْ أَخْـلُ مِـنْ شَـاعِرٍ مُحْسِـنٍ   وَمِـنْ عَالِـمٍ صَالِـحٍ مُنْـذِرِ
وَمِـن حِكَـمٍ بَيْـنَ أَثْنَائِهَـا   فَوَائِـدُ لِلنَّاظِـرِ ٱلْمُفْكِـرِ
وَإِنْ ضَـاقَ صَـدْرِي بِأَسْـرَارِهِ   وَأَوْدَعْتُـهُ ٱلسِّـرَّ لَـمْ يُظْهِـرِ
وَإِنْ صَـرَّحَ ٱلشِّـعْرُ بِٱسْـمِ ٱلْحَبِيـ   ـبِ لَـمْ أَحْتَشِـمْهُ وَلَـمْ أَحْصَـرِ
وَإِنْ عُـدْتُ مِـنْ ضَجْـرَةٍ بِٱلْهِجَـا   وَسَـبِّ ٱلْخَلِيفَـةِ لَـمْ أَحْـذَرِ
وَنَادَمْـتُ فِيـهِ كَرِيـمَ ٱلْمَغِيـبِ   لِنَدْمَانِـهِ طَيِّـبَ ٱلْمَحْضَـرِ
فَلَسْـتُ أَرَىٰ مُؤْنِسـاً مَـا حَيِيـتُ   عَلَيْـهِ نَدِيمـاً إِلَـى ٱلْمَحْشَـرِ

وأنشد ابن حزم لبعض الأدباء(٢) : [من الخفيف]

إِنْ صَحِبْنَـا ٱلْمُلُـوكَ تَاهُـوا عَلَيْنَـا   وَٱسْـتَخَفُّوا جَهْـلاً بِحَـقِّ ٱلْجَلِيـسِ
أَوْ صَحِبْنَـا ٱلتُّجَـارَ عُدْنَـا إِلَـى ٱلْبُؤْ   سِ وَصِرْنَـا إِلَـىٰ عِـدَادِ ٱلْفُلُـوسِ
فَلَزِمْنَـا ٱلْبُيُـوتَ نَتَّخِـذُ ٱلْحِبْـ   ـرَ وَنَمْـلَا بِـهِ وُجُـوهَ ٱلطُّـرُوسِ
وَقَنِعْنَـا بِمَـا رُزِقْنَـا فَصِرْنَـا   أُمَـرَاءَ عَلَـى ٱلْمُلُـوكِ ٱلـرُّؤُوسِ

(١) أورد الأبيات في « المحاسن والمساوئ » (ص ١٦ ـ ١٧) ، و« تقييد العلم » (ص ١٦٦) .
(٢) أورد الأبيات الثلاثة الأُول في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٢٨/٢) لأحمد بن يحيىٰ ثعلب ، وأوردها الحبيشي في « نشر طي التعريف » (ص ٢٧٥) للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، وليست في « ديوانه » ، وروى الأبيات الخمسة سوى الرابع قطعةً واحدةً الطائي الهمذاني في « الأربعين » (ص ١٨٨) لأحمد بن يحيىٰ ثعلب ، وأورد الأبيات جميعاً في « زهر الأكم » (٢٠٠/٣ ـ ٢٠١) دون نسبة ، والطُّروس : جمع طِرْس ؛ وهي الصحائف .

زاد فيه ابن حزم رحمه الله تعالىٰ فقال : [من الخفيف]

لَــوْ تُرِكْنَــا وَذَاكَ كُنَّــا ظَفِرْنَــا   مِــنْ أَمَانِينَــا بِعِلْــقٍ نَفِيــسِ
غَيْــرَ أَنَّ ٱلزَّمَــانَ أَعْنِــي بَنِيــهِ   حَسَــدُونَا عَلَــىٰ حَيَــاةِ ٱلنُّفُــوسِ

وأنشد غيره[١] : [من الوافر]

أَنِسْـتُ إِلَـى ٱلتَّفَـرُّدِ طُـولَ عُمْـرِي   فَمَـا لِـي فِـي ٱلْبَرِيَّـةِ مِـنْ أَنِيـسِ
جَعَلْـتُ مُحَادِثِـي وَنَدِيـمَ نَفْسِـي   وَأُنْسِـي دَفْتَـرِي بَـدَلَ ٱلْجَلِيـسِ
قَـدِ ٱسْـتَغْنَيْتُ عَـنْ فَـرَسٍ بِرِجْلِـي   إِذَا سَــافَرْتُ أَوْ بَغْــلٍ كَبُــوسِ
وَلِــي عُــرْسٌ جَدِيــدٌ كُلَّ يَــوْمٍ   بِطَـرْحِ ٱلْهَـمِّ فِـي أَمْـرِ ٱلْعَـرُوسِ
فَبَطْنِـي سُـفْرَتِي وَٱلْخُـرْجُ جِسْـمِي   وَهِمْيَانِــي فَمِــي أَبَــداً وَكِيسِــي
وَبَيْتِــي حَيْــثُ يُدْرِكُنِــي مَسَــائِي   وَأَهْلِــي كُلُّ ذِي عَقْــلٍ نَفِيــسِ

ولئن كان الناظمون قد وَصفوا فجوَّدوا ، وقالوا فأبلغوا . . فلقد قَصَّرُوا ، وأَجَلُّ ممدوحٍ : من استُقصِرَ في مدحه المُسهب ، واستنزر في تقريظه المحتفل .

وكيف لا ، والكتابُ نعمَ الأنيسُ ساعةَ الوحدة ، ونعمَ المعرفةُ ببلاد الغُربة ، ونعمَ القرينُ والدخيل ، ونعمَ الوزيرُ والنزيلُ ؟!

وعاءٌ[٢] مُلِئَ علماً ، وظرفٌ حُشِيَ ظرفاً ، وإناءٌ مُلِئَ مِزاجاً ، وحبذا بستانٌ يُحمل في رُدْنٍ[٣] ، وروضةٌ نُقِلَت في حِجْرٍ .

هل سمعت بشجرةٍ تُؤتي أُكُلَها كلَّ ساعةٍ بألوان مختلفةٍ وطعومٍ متباينة ؟! هل سمعت بشجرةٍ لا تَذْوِي ، وزهرٍ لا يثوي ، وثمرٍ لا يَفنىٰ ؟!

ومن لك بجليسٍ يُفِيدُكَ الشيءَ وخلافَه ، والجنسَ وضِدَّه ، يَنطِقُ عن

---

(١) أورد الأبيات في « تقييد العلم » (ص ١٨٦) .
(٢) أي : الكتاب وعاء .
(٣) رُدْن : كُمٌّ .

الموتىٰ ، ويترجمُ عن الأحياء ؛ إن غضبتَ عليه . . لم يغضب ، وإن سخطتَ عليه . . لم يُجب ؟!

أَكتَمُ من الأرض ، وأَنَمُّ من الريح ، وألهىٰ من الهوىٰ ، وأخدعُ من المنىٰ ، وأمتعُ من الضحىٰ ، وأنطقُ من سَحبانِ وائل ، وأعيا من باقل .

هل سمعتَ بمعلِّمٍ واحدٍ ، تحلَّىٰ بحُلل كثيرة ، وجمعَ أوصافاً غزيرة ، عربيٍّ فارسيٍّ هنديٍّ سِنديٍّ روميٍّ يونانيٍّ ؛ إن وعظَ . . أسمع ، وإن ألهىٰ . . أمتع ، وإن أبكىٰ . . أدمع ، وإن ضربَ . . أوجع ، يُفيدُك ويستفيدُ منك ، ويزيدُك ويستزيدُ منك ، إن جَدَّ . . فيُسرٌ ، وإن مَزَحَ . . فنزهة ؟!

قبرُ الأسرار ، وحِرزُ الودائع ، قيدُ العلوم ، ويَنبوعُ الحِكَم ، ومَعدِنُ المكارم ، ومُؤنسٌ لا ينام ، يفيدك علم الأولين ، ويخبرك عن كثير من أنباء الآخرين .

هل سمعتَ في الأولين أو بلغَك عن أحد من السالفين من جَمعَ هٰذه الأوصافَ مع قلةِ مُؤنتهِ وخِفَّةِ مَحْمله ؛ لا يَرزَؤُكَ شيئاً من دنياك ؟!

نعمَ الذُّخْرُ والعُقْدة ، والمُشتغل والحِرفة ، جليسٌ لا يُطريك ، ورفيقٌ لا يَمَلُّك ، يُطيعُك بالليل طاعتَه بالنهار ، ويُطيعُك في السفر طاعتَه في الحضر .

إن أدمتَ النظرَ إليه . . أطالَ إمتاعَك ، وشَحَذَ طباعَك ، وبسطَ لسانَك ، وجَوَّدَ بيانَك ، وفَخَّمَ ألفاظَك ؛ إن أَلِفْتَه . . خَلَّدَ على الأيام ذكرَك ، وإن دَرستَه . . رفعَ في الخلق قَدْرَك ، وإن حَمَلته . . نَوَّه عندهم باسمِك ، يُقعِدُ العبيد في مقاعد السادة ، ويُجلِسُ السُّوقة في مجالس الملوك ، فأكرِمْ به من صاحب ! وأَعزِزْ به من مرافق !

وقد قال فيه الأول (١) : [من الطويل]

لَنَـا جُلَسَـاءٌ مَـا نَمَـلُّ حَدِيثَهُـمْ أَلِبَّـاءُ مَأْمُونُـونَ غَيْبـاً وَمَشْـهَدَا

---

(١) أورد الأبيات في « البصائر والذخائر » (٣/١٦٤) ، و« بهجة المجالس » (١/٥١) ، وزاد بعده في (و) : (فالكلام أبحر مما يكتب) .

يُفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ مَنْ مَضَىٰ وَرَأْيـاً وَتَأْدِيبـاً وَعَقْـلاً مُسَـدَّدَا
بِـلَا فِتْنَـةٍ تُخْشَـىٰ وَلَا سُـوءِ عِشْـرَةٍ وَلَا نَتَّقِـي مِنْهُـمْ لِسَـاناً وَلَا يَـدَا
فَـإِنْ قُلْـتَ أَمْوَاتٌ فَلَسْـتَ بِـكَاذِبٍ وَإِنْ قُلْـتَ أَحْيَـاءٌ فَلَسْـتَ مُفَنَّـدَا

فهٰذا ما أردنا أن نُمليَه في هٰذا الكتاب .

فَـأَرَىٰ لَكُـمْ أَنْ تَكْتُبُـوا أَنْفَاسَـهُ إِنْ كَانَـتِ ٱلْأَنْفَـاسُ مِمَّـا يُكْتَـبُ (١)

[وكان الفراغ من إملائه بفسطاط مصر حرسها الله لأربع عشرة ليلة خلت من رجب من سنة ستة عشر وخمس مئة] (٢) .

والله الموفق للخيرات ، والحمد لله حق حمده ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد النبي وآله الأطهرين الأطيبين ، وسلم تسليماً كثيراً .

* * *

(١) البيت لابن العلاف في « ديوانه » (ص ٢٨) ، وهو من البحر الكامل .
(٢) ما بين معقوفين زيادة من (ح) .

خاتمة النسخة (أ)

تم الكتاب بحمد الله ومَنِّه وحسنِ توفيقه على يدي الفقير إلى رحمة الله ومعونته محمد بن مسعود بن أسعد الأصفهاني ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين ؛ وذلك في يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة أربع وست مئة بمدينة الموصل بمدرسة (؟) رحمه الله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه أجمعين .

الحمد لله عدد حمده ، طالع هذا الكتاب المبارك من أوله إلى آخره وتبين فصوله أصغر عبيد الله وأحوجهم إليه أحمد بن علي الكابي الشافعي الحرري في تواريخ متقدمة ، آخرها مستهل صفر (؟) أحسن الله عاقبتها بمحمد وصحبه .

نظر فيه العبد الفقير إلى رحمة ربه القدير الجليل ، غفر الله له ولوالديه .

نظر فيه العبد الفقير إلى الله تعالى قطب بن عبد الله الزكي ، غفر الله لمن (؟) فرأه ودعا له .

انتقل ببيع شرعي إلى العبد الفقير لله تعالى إسماعيل بن بدر الخوارزمي عفا الله عنه ؛ وذلك في شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين وسبع مئة ، على الله توكلت ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

خاتمة النسخة (ب)

وكان الفراغ من كتابته في اليوم المبارك نهار الاثنين سابع عشرين جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وثمان مئة .

حسبنا الله ونعم الوكيل .

كمل كتاب « سراج الملوك » .

خاتمة النّسخة (ج)

وكان الفراغ من نساخة هٰذا الكتاب المبارك نهار الاثنين ثاني عشر شهر رمضان المعظم قدره سنة سبع وستين وثمان مئة .

وعليها ختم ، هٰذا نصه :

وقف شيخ الإسلام السيد فيض الله أفندي غفر الله له ولوالديه شرط ألا يخرج من المدرسة التي أنشأها بالقسطنطينيَّة سنة (١١١٢) .

خاتمة النّسخة (د)

كُتبت هٰذه النسخةُ المباركة برسم المقام الشريف السلطاني الملكي الظاهري ، بلَّغه اللهُ في الدنيا والآخرة أَمَلَه ، وختَم بالصالحات عمله ، بإشارة المقر الأشرف الكريم العالي المولوي العالِمي العامِلي العلَّامي الأوحدي الأمجدي الزيني صاحبِ دواوين الإنشاءِ الشريف بالممالك الإسلامية ، عظَّم اللهُ تعالىٰ شأنَه . . علىٰ يد الفقير أحمد بن مسعود النابلسي عفا الله عنهما .

فرغ منها في حادي عشر شهر رمضان المعظَّمِ قدرُه وحُرمتُه سنة اثنتين وسبعين وثماني مئة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وعليها ختم ، هٰذا نصه :

وقف شيخ الإسلام السيد فيض الله أفندي غفر الله له ولوالديه شرط ألا يخرج من المدرسة التي أنشأها بالقسطنطينية سنة (١١١٣) .

سماعات النسخة (د)

الحمد لله ، طالع فيه العبد الأصغر والمحب الأكبر لنبيه محمد (؟) ودُعي لمالكه بطول البقاء بالقلعة الشامية بتاريخ ثالث الحجة الحرام عام اثنين وتسع

مئـة ، توفي بها قانصـوه (؟) والحمد لله وصلى الله علىٰ (؟) محمد وآله وصحبه وسلم .

الحمـد لله ، طالـع في هٰذا الكتاب المبـارك العبد الفقيـر إلى الله تعالىٰ عثمان بن علي الحسـيني ، غفر الله تعالىٰ له ولوالديـه ولمن دعا له بالمغفرة ولجميع المسلمين ، آمين .

الحمـد لله ، طالـع في هٰذا الكتاب المبـارك العبد الفقيـر إلى الله تعالىٰ علي بن محمد الحسـيني ، غفر الله تعالىٰ له ولوالديـه ولمن دعا له بالمغفرة ولجميع المسلمين ، آمين .

الحمد لله ، نظر في هٰذا الكتاب المبارك العبد الفقير الراجي عفو ربه القدير أحمد (؟) الشافعي ، غفر الله له ولمن دعا له بالمغفرة وللمسلمين أجمعين ، والدعاء من صفة المتكلم (؟) والحمد لله وحده .

الحمـد لله ، طالع في هٰذا الكتاب المبـارك من أوله إلىٰ آخره محمد علي المصري عفا الله عنه .

الحمـد لله ، قال الشـيخ كمال الديـن الدميري : (من أصبـح ولم يحمد بـهٰذه المحامد . . فكأنما أصبح غريقاً في بحار الدنيا ؛ وهي هٰذه : الحمد لله الذي هداني للإسـلام قبل معرفتي به ، والحمد لله الذي جعلني من أمة محمد صلى الله عليه وسـلم ، والحمد لله الذي جعل رزقـي بيده ولم يكلني لغيره ، والحمد لله الذي لم يفضحني بسريرتي علىٰ رؤوس الخلائق) .

تم بحمد الله وعونه

لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه [1] : [من الرجز]

إِنَّ أَخَـاكَ ٱلْحَـقَّ مَـنْ كَانَ مَعَكْ وَمَـنْ يَضُـرُّ نَفْسَـهُ لِيَنْفَعَـكْ

---

(١) أورد البيتين في « عيون الأخبار » (٣/٤) دون نسبة ، ورواهما في « الجليس الصالح » (١/٣٥٨) للمأمون .

وَمَـنْ إِذَا رَيْـبُ زَمَـانٍ صَدَعَـكْ   شَـتَّتَ فِيـكَ شَـمْلَهُ لِيَجْمَعَـكْ

خاتمة النّسخة (هـ)

وكان الفراغ من نسخه في يوم الأحد المبارك ثاني عشر شهر رمضان المعظم قدره وحرمته سنة اثنتين وخمسين وثماني مئة ، والحمد لله وحده ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولىٰ ونعم النصير .

وقف

الحمد لله الذي فضَّل الإنسـان بفضائل العلوم ومحاسن الأعمال ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذي أرسل إلينا لبيان طريق الحق وأحاسن الأفعال ، وعلىٰ آله وأصحابه المجاهدين لإعلاء الدِّين في الغدوِّ والآصال .

أما بعد :

فـإن النبي صلى الله عليه وسـلم لما قال في بيان فضيلـة العلم : « فَضْلُ ٱلْعِلْـمِ خَيْرٌ مِـنْ فَضْلِ ٱلْعِبَادَةِ »(١) ، وفي بيان فضيلة العلمـاء : « فَضْلُ ٱلْعَالِمِ عَلَى ٱلْعَابِـدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أَدْنَاكُمْ »(٢) ، وفـي حديث آخر : « إِنَّ ٱلْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ ٱلْأَنْبِيَـاءِ »(٣) . . . إلـخ . . كان صاحب الخيرات والحسـنات حضرت رسـتم باشـا ـ يسـره الله في الدنيا والآخرة [إلىٰ] ما يشـاء ـ مُحبـاً للعلم والعلماء وأراد الآلة علىٰ طلب العلم والاشـتغال به ، طالباً للثواب مثل أجر عامله علىٰ مقتضى الحديث الشـريف ؛ وهو : « اَلدَّالُّ عَلَى ٱلْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ »(٤) ، وقصد أن

---

(١) رواه الحاكم (١/٩٢) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (٣٩٧٢) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٢٣٣ ـ ٢٣٤) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن حبان (٨٨) ، والترمذي (٢٦٨٢) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٤) رواه الترمذي (٢٦٧٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

يتصدق للعلماء والطالبين للعلم صدقة جارية وحسنة غير منقطعة علىٰ مقتضىٰ حديث النبي المكرم صلى الله عليه وسلم : « إِذَا مَاتَ ٱبْنُ آدَمَ . . ٱنْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَصَدَقَةٍ جَارِيَةٍ »(١) ، وإن المؤمنين في ظل صدقاته في مدرسة بناها واقف المزبور في بلدة قسطنطينة ، ولا يخرج الكتاب المذكور ولا بعض أجزائه عن البيت المذكور أبداً ، إن احتاج الكتاب المذكور إلى الترميم . . يحضر المجلد بمعرفة المدرس والمتولي إلى البيت المذكور ويرمم ، ثم بمحضر حافظ الكتب .

وشرط أيضاً أن يحضر ويتوقف حافظ الكتب كل يوم من الصبح إلى الظهر في المدرسة المذكورة ، ولا يغيب عنها لإتمام مرام المحتاجين ، وفي وقت انتساخ أحد من المحتاجين المذكورين الكتاب المزبور أو مطالعته إياه . . لا يغيب حافظ الكتب عن البيت المذكور ، بل يحضر فيه حتىٰ يقضي المحتاج المذكور حاجته ، وبعد إتمام حاجته ، أخذه حافظ الكتب وحفظه في موضعه الذي عُيِّن للحفظ فيه ، وشرط أيضاً أن يكون حافظ الكتب من أهل العلم قادراً علىٰ مطالعته هٰذا الكتاب .

وقد روعي فيه ما لا بد منه في كون وقف المنقولات وقفاً بالاتفاق ، وبعد مراعاة ما لا بد منه المذكور كان هٰذا الكتاب وقفاً صحيحاً شرعياً بالاتفاق ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبدله ، ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢) .

ومن تعدىٰ فخالف في شيء من وضعه . . فهو ظالم ، ألا لعنة الله على الظالمين .

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سورة البقرة : (١٨١) .

وأنشد بعض الصالحين رحمة الله عليه[1] :

أَنَـا فِـي دَهْـرِيَ وَحْـدِي مُفْـرَداً وَٱلْفَـارُ جَـارِي
شَـأْنُهُ قَـرْضُ ثِيَابِـي ٱلـلَّيْلَ أَوْ نَقْـبُ جِـدَارِي
عَجَـبُ أُنْسِـي نِفَـارٌ وَمِـنَ ٱلنَّـاسِ نِفَـارِي
وَإِلَـى ٱلْوَحْـشِ سُـكُونِي وَمِـنَ ٱلْخَلْـقِ فِـرَارِي
وَٱتِّخَـاذِي ٱلْبَـرَّ دَاراً وَٱنْتِقَالِـي عَـنْ دِيَـارِي
وَتَشَـرَّدْتُ إِلَـىٰ بُعْـدِ ٱلْبَـرَارِي وَٱلْقِفَـارِ
[أَطْلُـبُ] ٱلرَّاحَـةَ وَٱلـرَّا حَـةُ فِـي بُعْـدِ ٱلْمَـزَارِ
وَبِـهِ نَقْـضُ هُمُومِـي وَبِـهِ فَـكُّ إِسَـارِي

خاتمة النسخة (و)

نجز مملوءاً حكمة بما لم تسبق أقلام العلماء إلىٰ مثله .

وكان الفراغ من إملائه في ليلة يسفر صباحها عن العشرين من شهر الله المحرم ، افتتاح عام ثمان مئة ، أحسن الله عاقبتها بجاه محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً علىٰ يد أفقر عباد الله وأحوجهم إلىٰ رحمة ربه والمحب والله والله لمولانا ملك الأمراء ولمحبه مولانا قاضي القضاة محب الدين ابن الشحنة لطف الله بهما . . محمد بن أحمد بن عساكر المصري ثم القادري ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) الأبيات من (هـ) ، وهي في معظمها من مجزوء الرمل ، وفيها : (أظلت) بدل (أطلب) .

خاتمة النسخة (ز)

والله الموفق للخيرات ، تم الكتاب والحمد لله ، واهبِ الألباب ، ومسبِّب الأسباب ، والصلاة والسلام علىٰ محمد النبي وعلىٰ آله الأطياب ، وصحبه خير أصحاب .

فرغ من كتابته العبد الفقير الحقير إلى الله الغني يحيى بن أحمد بن محمد العريف الأنباري أصلاً الحلي مولداً ومنشأً ؛ وذٰلك في الحلة الصيفية ، حماها الله تعالىٰ من كل بلية ، بحق محمد وآله خير البرية ؛ وذٰلك في غرة شهر ربيع الأول لسنة اثنتين وتسعين وتسع مئة هجرية نبوية ، علىٰ مهاجرها أفضل الصلوات وأكمل التحيات ، دائمة بدوام الأيام والشهور والساعات ، وبدوام أنفاس الأحياء والأموات ، وبدوام الأرضين والسماوات ، والحمد لله رب العالمين ، آمين آمين آمين .

* * *

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنيّة بحسب ترتيب السّور

الصفحة	رقم الآية	الآية
٦٠٣	٤٦	﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾
٢٧٩	٥٧	﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾
٥٨٥	٦٠	﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾
		التوبة
٥٩٩	٢٥	﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾
		هود
٢٨٩	٣٤	﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾
٦٥٩	٣٨	﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾
٢٩٥	٧٥	﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾
٥١٤	١٠٢	﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ ﴾
		يوسف
٣٦٣	٥	﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ ﴾
١٧٢، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٨٤	٥٥	﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾
٣٥٩	٨٤	﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾
٥٥٨	١٠١	﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾
		الرعد
٣٨٠	١١	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾
٣٤٣	٢٤	﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾
		إبراهيم
٣٧٨	٧	﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾
٣٨٧	١٠	﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم ﴾
٣٨١	٣٤	﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾
٥٤٩	٣٧	﴿ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾
٥١١	٤٢	﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾
		الحجر
٢٩٥	٨٥	﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾

الآية	رقم الآية	الصفحة
المؤمنون		
﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴾	٥	٣٧٧
﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ ﴾	٦	٣٧٧
النور		
﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾	٢٢	٢٧٢
الفرقان		
﴿ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾	٢٧	٢٦٥
﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴾	٢٨	٢٦٥
﴿ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾	٢٩	٢٦٥
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾	٣١	٦٥١
﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾	٥٧	٢١٤
﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾	٥٨	٦١١
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ ﴾	٦٢	٣٧٦
الشعراء		
﴿ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴾	٢٠٥	١٢٤
﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾	٢٠٦	١٢٤
﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾	٢٠٧	١٢٤
﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	٢١٥	١٩٢
﴿ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾	٢١٦	٢٧٠
النمل		
﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ ﴾	٤٠	٧٣ ، ١٥١ ، ٣٧١
﴿ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾	٥٢	٥١٢
﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾	٦٢	٥٤٨
القصص		
﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾	٧٨	٣٧١
﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ ﴾	٨١	٣٧٢

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾	٥٨	١٣٧
الرحمـٰن		
﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾	١	٥٣٧
﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾	٢	٥٣٧
﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾	٣	٥٣٧
﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾	٤	٥٣٧
الحديد		
﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾	١٦	٧٥
﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾	٢٠	٧٢
المجادلة		
﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾	١١	٢٠٠
الحشر		
﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾	٩	٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١
التغابن		
﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾	١٦	٣٣٨ ، ٣٣٩
التحريم		
﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾	٦	٣٨٥
القلم		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	٤	٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧
﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾	٩	٥٠٨ ، ٥٠٩
﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾	١٠	٥٢٨
﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾	١١	٥٢٨
﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾	١٢	٥٢٨
﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾	١٣	٥٢٨
المعارج		
﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾	٥	٣٥٩

❋ ❋ ❋

فهرس الآيات القرآنية مرتبة على حروف المعجم

الآية	اسم السورة	رقم السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾	يوسف	١٢	٥٥	١٧٢، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٨٤
﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾	غافر	٤٠	٦٠	٣٧٨، ٣٨٠
﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾	البقرة	٢	١٥٣	٣٤٤
﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾	نوح	٧١	١٠	٣٧٩
﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾	طه	٢٠	٣١	٢٥٦
﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾	الحديد	٥٧	٢٠	٧٢، ٨٩
﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾	سبأ	٣٤	١٣	١٥١، ٣٧٥
﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾	العنكبوت	٢٩	٢٩	٥٢٢
﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾	الزخرف	٤٣	٦٧	٢٦٥
﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾	الأحقاف	٤٦	٢٠	٤٦٠، ٤٦٣
﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾	الأحزاب	٣٣	١٩	٣٣٨
﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ ﴾	الأنبياء	٢١	٦٧	٥٥٣
﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾	الشعراء	٢٦	٢٠٥	١٢٤
﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾	الحديد	٥٧	١٦	٧٥
﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾	الزخرف	٤٣	٥١	٤٤٠
﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ... ﴾	الجاثية	٤٥	٢١	١١٢
﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾	النمل	٢٧	٦٢	٥٤٨
﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾	الصافات	٣٧	١٠٤	٥٥٧
﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾	البقرة	٢	٣١	٢٣٩
﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾	البقرة	٢	٢٤٧	١٦٨
﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾	البقرة	٢	١٥٩	٥١٥
﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾	الإسراء	١٧	٧٥	٥٠٩
﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ ﴾	المؤمنون	٢٣	٦	٣٧٧

الآية	اسم السورة	رقم السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾	الفرقان	٢٥	٥٧	٢١٤
﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾	الإسراء	١٧	٧	٣٨٦
﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾	هود	١١	٣٨	٦٥٩
﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾	الصافات	٣٧	١٠٦	٥٥٧
﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾	هود	١١	٧٥	٢٩٥
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾	آل عمران	٣	١٥٥	٥٩٥
﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾	الفجر	٨٩	١٤	١٣٨
﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	آل عمران	٣	١٩٠	٣٧٦
﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾	الانشراح	٩٤	٦	٥٤٨
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً . . . ﴾	البقرة	٢	٢٤٧	١٦٩
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾	الرعد	١٣	١١	٣٨٠
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾	الذاريات	٥١	٥٨	١٣٧
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ . . . ﴾	النحل	١٦	٩٠	١٩٦ ، ٢٧٢
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	الأحزاب	٣٣	٧٢	١٦٨
﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾	ص	٣٨	٤٤	٣٤٩
﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾	القصص	٢٨	٧٨	٣٧١
﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . . . ﴾	النحل	١٦	١٠٥	٢١٣
﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	الزمر	٣٩	١٠	٣٤٢ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣
﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾	الإسراء	١٧	٣	٣٨٦
﴿ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾	إبراهيم	١٤	٣٧	٥٤٩
﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾	الصافات	٣٧	٨٩	٥٥٢
﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾	الأنعام	٦	٧٩	٥٥٢
﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ . . . ﴾	القصص	٢٨	٨٣	٢١١
﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾	الأنعام	٦	٣٨	٥٤٧
﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾	البقرة	٢	٥٦	٣٧٣
﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾	الشعراء	٢٦	٢٠٦	١٢٤

الآية	اسم السورة	رقم السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾	البقرة	٢	٧٤	٨١
﴿ جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾	الأنعام	٦	٧٦	٥٥١
﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾	الزمر	٣٩	٧٤	٣٧٤
﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾	الأعراف	٧	١٩٩	٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٤٩٥
﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾	الرحمـٰن	٥٥	٣	٥٣٧
﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾	الحج	٢٢	٤١	١٥٩
﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا ﴾	ص	٣٨	٣٥	١٧٠
﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾	يوسف	١٢	١٠١	٥٥٨
﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾	الرحمـٰن	٥٥	١	٥٣٧
﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾	الأعراف	٧	١٤٦	٢١١
﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾	الرعد	١٣	٢٤	٣٤٣
﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾	المائدة	٥	٤٢	٥٣٠ ، ٥٣٨
﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾	الأنبياء	٢١	٦٠	٥٥٣
﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	الأعراف	٧	١٨٢	٣٧١ ، ٤٣٧
﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾	آل عمران	٣	١٨٠	٣٣٨ ، ٥١٣
﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾	النحل	١٦	١٢١	٣٨٦
﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾	آل عمران	٣	١٨	١٩٩
﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾	القلم	٦٨	١٣	٥٢٨
﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾	الإسراء	١٧	١٨	٣٨٠
﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾	الرحمـٰن	٥٥	٢	٥٣٧
﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾	الرحمـٰن	٥٥	٤	٥٣٧
﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾	الحجر	١٥	٩٣	٧٣ ، ١٥١ ، ١٧١
﴿ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾	الأنبياء	٢١	٦١	٥٥٣
﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾	الأنبياء	٢١	٨٤	٦٥٥
﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾	الأنبياء	٢١	٨٨	٦٥٥
﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾	المعارج	٧٠	٥	٣٥٩

الآية	اسم السورة	رقم السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾	الأحقاف	٤٦	٣٥	٢٧٢
﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾	الحجر	١٥	٨٥	٢٩٥
﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾	الشعراء	٢٦	٢١٦	٢٧٠
﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾	آل عمران	٣	١٧٤	٦٥٥
﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾	الصافات	٣٧	١٠١	٢٩٦
﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾	آل عمران	٣	١٥٩	١٩٢ ، ٥٠٠
﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾	النمل	٢٧	٥٢	٥١٢
﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾	الصافات	٣٧	٩٠	٥٥٢
﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾	القصص	٢٨	٨١	٣٧٢
﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾	الصافات	٣٧	٩١	٥٥٢
﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾	الأنبياء	٢١	٦٤	٥٥٣
﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ ﴾	ص	٣٨	٣٦	١٧١
﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾	الأنفال	٨	٥٧	٢٧٩
﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾	الأنعام	٦	٧٨	٥٥١
﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾	الأنعام	٦	٧٧	٥٥١
﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ . . . ﴾	البقرة	٢	١٨١	٦٨٩
﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾	الزلزلة	٩٩	٧	٧٩
﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾	الحجر	١٥	٩٢	٧٣ ، ١٥١ ، ١٧١
﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾	غافر	٤٠	٤٥	٦٥٥
﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾	الأنعام	٦	٤١	٣٨٠
﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾	البقرة	٢	٢٥٨	٥٥٣
﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	الأنبياء	٢١	٦٦	٥٥٣
﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ ﴾	الأنبياء	٢١	٦٣	٥٥٣
﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى ﴾	الأعراف	٧	١٥١	٥٢٢
﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا ﴾	الأنبياء	٢١	٦٢	٥٥٣
﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾	الصافات	٣٧	١٠٥	٥٥٧

الآية	اسم السورة	رقم السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	الشعراء	٢٦	٢١٥	١٩٢
﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾	البقرة	٢	١٢٤	٣٤٤
﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾	الإسراء	١٧	١٦	٥١٤
﴿ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴾	التكوير	٨١	٥	٥٤٣
﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾	الشورىٰ	٤٢	٣٧	٢٧٢ ، ٦١٩ ح
﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾	الكهف	١٨	٢٤	٣١٤
﴿ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ ﴾	لقمان	٣١	٢٠	٥٠٦
﴿ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾	طه	٢٠	٣٢	٢٥٦
﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾	لقمان	٣١	١٧	٣٥٥
﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم ﴾	الكهف	١٨	٢٨	٣٤٣
﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾	النحل	١٦	١٢٧	٣٥٤
﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾	الأنفال	٨	٤٦	٣٤٣ ح
﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ ﴾	الأنفال	٨	٤٦	٥٩٤
﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾	الأنفال	٨	٦٠	٥٨٥
﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾	الزمر	٣٩	٣٣	٤٥٠
﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾	العنكبوت	٢٩	٦٩	٢١٨ ، ٦١٧
﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴾	المؤمنون	٢٣	٥	٣٧٧
﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ﴾	الفجر	٨٩	١	١٣٨
﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ . . . ﴾	آل عمران	٣	١٣٤	٢٧١ ، ٣١٠
﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾	الضحىٰ	٩٣	١١	٣٧٤
﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾	الأعراف	٧	١٨٣	٣٧١
﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ ﴾	العنكبوت	٢٩	٦٤	٧٢
﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾	آل عمران	٣	١٨٦	٣٤٣
﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾	إبراهيم	١٤	٣٤	٣٨١
﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾	النحل	١٦	١٢٦	٢٧٢
﴿ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَا ﴾	الأنبياء	٢١	٤٧	٧٣ ، ١٥١

الآية	اسم السورة	رقم السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	القلم	٦٨	٤	٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧
﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ . . .﴾	الأعراف	٧	١٣٧	٤٤٣
﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	الأعراف	٧	١٣٧	٣٤٢ ، ٣٥٤
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾	الفرقان	٢٥	٥٨	٦١١
﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾	المدثر	٧٤	٤	٥٠٤
﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾	الشورىٰ	٤٢	٤٠	٢٧٣
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾	السجدة	٣٢	٢٤	٣٤٢
﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾	الأنعام	٦	٨٠	٥٥٢
﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾	القلم	٦٨	٩	٥٠٨ ، ٥٠٩
﴿وَرَابِطُوا۟﴾	آل عمران	٣	٢٠٠	٣٤٣
﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾	الدخان	٤٤	٢٦	٤٤١
﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾	البقرة	٢	٢٥٥	٢٣٧
﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾	آل عمران	٣	١٥٩	١٩٣ ، ٢٨٣
﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾	الصافات	٣٧	١٠٧	٥٥٧
﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾	الذاريات	٥١	٢١	٢٤٤
﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾	طه	٢٠	١١٤	٢٣٩
﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾	التحريم	٦٦	٦	٣٨٥
﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾	البقرة	٢	٢٤	٥٤٦
﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾	البقرة	٢	٨٣	٥٠٣
﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾	الكهف	١٨	٨٢	٦١٥
﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾	هود	١١	١٠٢	٥١٤
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ﴾	الأنعام	٦	١١٢	٦٥١
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾	الفرقان	٢٥	٣١	٦٥١
﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	الأنعام	٦	١٢٩	٤٠٦
﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾	الأنعام	٦	٨١	٥٥٢
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾	إبراهيم	١٤	٤٢	٥١١

❋ ❋ ❋

فهرس الأحاديث النبوية

❋ ❋ ❋

فهرس الآثار والأقوال

❋ ❋ ❋

فهرس الأخبار والقصص

❋ ❋ ❋

فهرس الأمثال والحكم

❋ ❋ ❋

فهرس الأوائل

❋ ❋ ❋

فهرس الأشعار

الصدر	القافية	البحر	القائل	الصفحة
تذكرت قومي	جدير	الطويل	-	٦٨٠
تروح لنا	أمور	الطويل	-	١٠٦
رضيت وقد	الأمر	الطويل	أبو تمام	٣٥٨
رويدك إن	تدور	الطويل	-	٦٨١
سأشكر	الشكر	الطويل	البحتري	٣٨٦
عفا الله	تدور	الطويل	-	١٠٦
على أنهم	بحور	الطويل	-	٦٨٠
فأنفق إذا	تعسر	الطويل	ابن طاهر	٦٧٤
فتى كان	كبر	الطويل	أبو تمام	٢١١
فعزيت نفسي	وزفير	الطويل	-	٦٨١
فكيف بلوغ	العمر	الطويل	محمود الوراق	٣٧٣
فلا الجود	مدبر	الطويل	ابن طاهر	٦٧٤
فما منهما	والجهر	الطويل	محمود الوراق	٣٧٤
فمن ظن	سرور	الطويل	-	١٠٦
فمن كان ذا	عذر	الطويل	أبو نواس، أو	٣٨٦
فيفرح محزون	أمير	الطويل	-	٦٨١
كأنك لم	حور	الطويل	-	٦٨٠
لعل زماناً	يدور	الطويل	-	٦٨١
ليالي هشام	أمير	الطويل	-	٦٨٠
وأبناء أملاء	كبير	الطويل	-	٦٨٠
وأذكر أياماً	الذكر	الطويل	البحتري	٣٨٦
ويح باسم	ستر	الطويل	أبو نواس	٤٠٨
وتجري الليالي	تغور	الطويل	-	١٠٦

الصدر	القافية	البحر	القائل	الصفحة
وروضك مرتاد	نضير	الطويل	-	٦٨٠
ومن ينفق	الفقر	الطويل	المتنبي	٦٦١
أحسنت ظنك	القدر	البسيط	أبو العتاهية	٧٥
إذا قسا القلب	المطر	البسيط	-	٨٢
إذا مرضنا	فنعتذر	البسيط	المؤمل بن أسيل	٢٧٨
أما سمعت	والقدر	البسيط	-	٣٥٢
بالملح يصلح	الغير	البسيط	-	١٩٥
صاحت بهم	أثر	البسيط	-	١٢٣
فكل ضيق	الظفر	البسيط	-	٣٥٣
نم للخطوب	صبروا	البسيط	-	٣٥٢
هذي منازل	خطر	البسيط	-	١٢٣
وسالمتك الليالي	الكدر	البسيط	أبو العتاهية	٧٥
ولا أرى	أثر	البسيط	-	٨٢
يا من ألح	والغير	البسيط	-	٣٥٢
عرضت نصيحة	مر	الوافر	مخيس بن أرطاة	٢٩٣
فقلت له	حر	الوافر	مخيس بن أرطاة	٢٩٣
ولكن قد	شر	الوافر	مخيس بن أرطاة	٢٩٣
وما لي أن	بر	الوافر	مخيس بن أرطاة	٢٩٣
وإذا تصبك	يصبر	الكامل	ابن عبد الملك	٣٥١
إن كنت	يضر	ج الكامل	المسترشد بالله	٦١٦
فأجبتهم	غر	ج الكامل	المسترشد بالله	٦١٦
قالوا تقيم	تفر	ج الكامل	المسترشد بالله	٦١٦
لا نلت	شر	ج الكامل	المسترشد بالله	٦١٦

الصدر	القافية	البحر	القائل	الصفحة
وإذا ما اعترتك	الإعتذار	الخفيف	-	٣١٦
إذا ما خلوت	دفتري	المتقارب	-	٦٨٢
دع الدهر	أوطاره	المتقارب	-	٣٥٦
فإنك ترحم	آثاره	المتقارب	-	٣٥٦
فلست أرى	المحشر	المتقارب	-	٦٨٢
فلم أخل	منذر	المتقارب	-	٦٨٢
وإن صرح	أحصر	المتقارب	-	٦٨٢
وإن ضاق	يظهر	المتقارب	-	٦٨٢
وإن عدت	أحذر	المتقارب	-	٦٨٢
ومن حكم	المفكر	المتقارب	-	٦٨٢
ونادمت فيه	المحضر	المتقارب	-	٦٨٢
ونم نومة	بتدواره	المتقارب	-	٣٥٦
الزاي المضمومة				
زررنا	أجوز	الطويل	-	٣١٦
فإن ثنائي	مراكز	الطويل	أبو الفتح البستي	٣٨٧
لئن عجزت	عاجز	الطويل	أبو الفتح البستي	٣٨٧
السين المضمومة				
وخفت عليه	النفس	الطويل	-	٣٦٥
ومستودعي سراً	الحس	الطويل	-	٣٦٥
السين المكسورة				
أنست إلى	أنيسي	الوافر	-	٦٨٣
جعلت محادثي	الجليس	الوافر	-	٦٨٣
فبطني سفرتي	كيسي	الوافر	-	٦٨٣

الصدر	القافية	البحر	القائل	الصفحة
قد استغنيت	كبوس	الوافر	-	٦٨٣
وبيتي حيث	نفيس	الوافر	-	٦٨٣
ولي عرس	العروس	الوافر	-	٦٨٣
إن صحبنا	الجليس	الخفيف	أحمد بن يحيى، أو	٦٨٢
أو صحبنا	الفلوس	الخفيف	أحمد بن يحيى، أو	٦٨٢
غير أن الزمان	النفوس	الخفيف	أحمد بن يحيى، أو	٦٨٣
فلزمنا البيوت	الطروس	الخفيف	أحمد بن يحيى، أو	٦٨٢
لو تركنا	نفيس	الخفيف	أحمد بن يحيى، أو	٦٨٣
وقنعنا بها	الرؤوس	الخفيف	أحمد بن يحيى، أو	٦٨٢
الشين المكسورة				
ولا تنطق	فاش	الوافر	قيس بن الخطيم، أو	٣٦٨
العين الساكنة				
ذئب تراه	ركع	ج الكامل	-	١٩٥
ذئب تراه	ركع	ج الكامل	-	٣٩١
عجل بها	انصدع	ج الكامل	-	١٩٥، ٣٩١
يدعو وجل	تقع	ج الكامل	-	١٩٥، ٣٩١
إنما أجزع	والجزع	الرمل	-	٣٥٥
العين المفتوحة				
فقولا لهذا	الأصابعا	الطويل	أم حاتم الطائي	٣٣٦
فهل ما ترون	الطبائعا	الطويل	أم حاتم الطائي	٣٣٦
لعمري لقدماً	جائعا	الطويل	أم حاتم الطائي	٣٣٦
وخير الأمر	اتباعا	الوافر	القطامي	٢٩٣
ومعصية	استماعا	الوافر	القطامي	٢٩٣

❋ ❋ ❋

فهرس الأراجيز

الصدر	القافية	البحر	القائل	الصفحة
الألف اللينة				
والناس ألف	عنا	الرجز	ابن دريد	٥٩٠
الدال المفتوحة				
شاهدها الذي	أبدا	الرجز	السيوطي	٥٤٨ ح
الراء المكسورة				
أو يأتي	الساري	الرجز	-	٦١٤
لن يسبق	طيار	الرجز	-	٦١٤
القاف المكسورة				
لا تكثر الشكوى	الصديق	ش الرجز	-	٣٦٠
لا يخرج	بالغريق	ش الرجز	-	٣٦٠
وارجع	المخلوق	ش الرجز	-	٣٦٠
النون المكسورة				
تغايرا وإن	المعرفان	الرجز	السيوطي	٥٤٨ ح
الهاء الساكنة				
ثم من القواعد	مكره	الرجز	السيوطي	٥٤٨ ح

❋ ❋ ❋

فهرس أنصاف الأبيات

النصف كاملاً	القائل	الصفحة
ولا قرار على زأر من الأسد	النابغة الذبياني	٣٩٠
ولا يبعث الأحزان مثل التذكر	ليلى الأخيلية	٣٥٩

❋ ❋ ❋

فهرس الأعلام

* * *

فهرس القبائل والأمم والجماعات والفرق

❋ ❋ ❋

فهرس الأماكن والمواضع والجبال والأودية ونحوها

❋ ❋ ❋

فهرس الأيّام والوقائع

❋ ❋ ❋

فهرس الكتب

❋ ❋ ❋

فهرس المسائل الفقهية

❋ ❋ ❋

فهرس الفوائد

❋ ❋ ❋

أهم مصادر مراجع التحقيق [1]

- أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد الثائر ، للشيال ؛ العلامة المؤرخ الدكتور جمال الدين الشيال الدمياطي المصري (ت ١٣٨٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م) ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر .
- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ، للبوصيري ؛ الإمام الحافظ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري الكناني الشافعي (ت ٨٤٠ هـ) ، تحقيق دار المشكاة للبحث العلمي ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار الوطن ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للزبيدي ؛ الإمام الكبير الحافظ الفقيه اللغوي الشريف أبي الفيض وأبي الوقت محمد مرتضى بن محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الحنفي (ت ١٢٠٥ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، المسمى : « المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها » ، لابن حبان ؛ الإمام الحافظ المجود الرحلة أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي الشافعي (ت ٣٥٤ هـ) ، بترتيب الإمام الحافظ الأمير علاء الدين أبي الحسن علي بن بلبان بن عبد الله الفارسي المصري الحنفي (ت ٧٣٩ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط ٣ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .
- أحكام أهل الذمة ، لابن قيم الجوزية ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي المشارك شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الحنبلي (ت ٧٥١ هـ) ، تحقيق يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م) ، رمادي للنشر ، الدمام ، المملكة العربية السعودية .
- إحياء علوم الدين ، للغزالي ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للقفطي ؛ الوزير الأكرم المؤرخ الأديب جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي الشيباني (ت ٦٤٦ هـ) ، عني به محمد أمين الخانجي الكتبي ، ط ١ ، (١٣٢٦ هـ ، ١٩٠٦ م) ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، مصر .
- أخبار القضاة وتواريخهم ، المسمىٰ : « طبقات القضاة » ، لوكيع القاضي ؛ الإمام المحدث المؤرخ أبي بكر محمد بن خلف بن حيان الضبي البغدادي (ت ٣٠٦ هـ) ، عني به عبد العزيز مصطفى المراغي ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، طبعة مصورة لدىٰ عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .
- الأخبار الموفقيات ، للزبير بن بكار ؛ عالم الأنساب والأخبار الراوية أبي عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي (ت ٢٥٦ هـ) ، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني ، ط ١ ، (١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م) ، مطبعة العاني ، بغداد ، العراق .

---

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، واسم المؤلف وسنة وفاته ، واسم المحقق ، ورقم الطبعة ، وتاريخ طبعه ، والدار الناشرة ومقرها .

- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه ، لأبي الشيخ ؛ الإمام الحافظ الصادق محدث أصبهان أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر أبي الشيخ ابن حيان الأصبهاني الأنصاري (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد الإسكندراني ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- الآداب الشرعية والمنح المرعية ، لابن مفلح ؛ الإمام العلامة الفقيه القاضي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح بن محمد الراميني المقدسي الصالحي الحنبلي (ت ٧٦٣ هـ) ، تحقيق الشيخ بشير محمد عيون (ت ١٤٣١ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سورية .

- أدب الدين والدنيا ، للماوردي ؛ الإمام الفقيه الأصولي المفسر أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البغدادي الشافعي (ت ٤٥٠ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٤ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- الأدب الصغير (ضمن رسائل البلغاء) ، لابن المقفع ؛ إمام الكتاب البليغ أبي محمد عبد الله بن المقفع بن داذويه الجوري الفارسي (ت ١٤٢ هـ) ، جمعها الوزير الأديب المفكر محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد علي الدمشقي (ت ١٣٧٢ هـ) ، عني به لجنة بإشراف عطية لطفي ، ط ١ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر .

- أدب الغرباء ، لأبي الفرج الأصبهاني ؛ الإمام الراوية الأديب الكاتب أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصبهاني البغدادي (ت ٣٥٦ هـ) ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (ت ١٤٣١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م) ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان .

- أدب الكاتب ، لابن قتيبة الدينوري ؛ إمام الأدب واللغة القاضي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط ٢ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- الأربعين في إرشاد السائرين إلىٰ منازل المتقين ، للطائي ؛ الإمام الحافظ المفتي مجد الدين أبي الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي الهمذاني (ت ٥٥٥ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الستار أبو غدة ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .

- أزهار الرياض في أخبار عياض ، للمقري ؛ الحافظ المؤرخ الأديب شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن يحيى المقري التلمساني المالكي (ت ١٠٤١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م) ، صندوق إحياء التراث الإسلامي ، الرباط ، المغرب ، الإمارات العربية المتحدة .

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق عادل مرشد ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار الأعلام ، عمان ، المملكة الأردنية الهاشمية .

- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير ؛ الإمام المؤرخ النقاد النابغة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري الموصلي الشيباني الشافعي (ت ٦٣٠ هـ) ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، ط ١ ، (١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م) ، دار الشعب ، القاهرة ، مصر .

- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين ، للخالديين ؛ أبي بكر محمد (ت ٣٨٠ هـ) وأبي عثمان سعيد (ت بحدود ٣٩١ هـ) ابني هاشم بن وعلة الموصلي ، تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف ، ط ١ ، (١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٨ م) ، نسخة مصورة عن نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة لدئ دار الشام للتراث ، بيروت ، لبنان .

- الاشتقاق ، لابن دريد ؛ إمام اللغة والأدب أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري (ت ٣٢١ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٣ ، (دون تاريخ) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- إصلاح المال ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ مفلح القضاة ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار الوفاء ، القاهرة ، مصر .

- إعتاب الكتاب ، لابن الأبار ؛ الشاعر الأديب المؤرخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن الأبار القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور صالح الأشتر (ت ١٤١٣ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٠ هـ ، ١٩٦١ م) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

- اعتلال القلوب ، للخرائطي ؛ الإمام الحافظ الحجة الأديب أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد السامري الخرائطي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق حمدي الدمرداش ، ط ٢ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

- الإعجاز والإيجاز ، للثعالبي ؛ إمام اللغة والأدب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ) ، عني به إبراهيم صالح ، ط ٢ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار البشائر ، دمشق ، سورية .

- الأعلام ، وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، للزركلي ؛ الأديب الكبير المؤرخ خير الدين بن محمود بن محمد الزِّرِكلي الدمشقي (ت ١٣٩٦ هـ) ، ط ١٢ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

- الأغاني ، لأبي الفرج الأصبهاني ؛ الإمام الراوية الأديب الكاتب أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصبهاني البغدادي (ت ٣٥٦ هـ) ، تحقيق العلامة إبراهيم الأبياري (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) ، دار الشعب ، القاهرة ، مصر .

- الأمالي الشجرية ؛ المسمى : « الخميسية » ، للشجري ؛ الإمام الأديب المرشد بالله أبي الحسين يحيى بن الحسين بن إسماعيل الحسني الشجري الجرجاني (ت ٤٩٩ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .

- الأمالي ، لابن بشران ؛ الإمام المحدث شيخ الحرم أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران البغدادي (ت ٤٣٠ هـ) ، ضبطه عادل بن يوسف العزازي ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار الوطن ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- الأمالي ، للقالي ؛ إمام اللغة والأدب والشعر الراوية أبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي البغدادي

الأندلسي (ت ٣٥٦ هـ) ، عني به محمد عبد الجواد الأصمعي ، ط ١ ، (١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م) ، طبعة مصورة لدئ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان .

- الإمتاع والمؤانسة ، للتوحيدي ؛ فيلسوف الأدباء أبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي (ت ٤١٤ هـ) ، تحقيق الدكتور مرسل فالح العجمي ، ط ١ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، دار سعد الدين ، دمشق ، سورية .

- أمثال الحديث ، للرامهرمزي ؛ الإمام الحافظ البارع محدث العجم أبي محمد الحسن بن عبد الرحمٰن بن خلاد الرامهرمزي (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأعظمي ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م) ، الدار السلفية ، بومباي ، الهند .

- الأمثال ، لابن سلام ؛ الإمام المحدث الفقيه الأديب أبي عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي الخراساني (ت ٢٢٤ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش ، ط ١ ، (١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سورية .

- الأموال ، لابن زنجويه ؛ الإمام الحافظ أبي أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة ابن زنجويه النسائي الأزدي الخراساني (ت ٢٥١ هـ) ، تحقيق الدكتور شاكر ذيب فياض ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- الأموال ، لابن سلام ؛ الإمام المحدث الفقيه الأديب أبي عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي الخراساني (ت ٢٢٤ هـ) ، تحقيق سيد رجب ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار الهدي النبوي ودار الفضيلة ، المنصورة ، مصر ـ الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء ، لابن عبد البر ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .

- أنساب الأشراف ، للبلاذري ؛ الإمام الحافظ المؤرخ النسابة أبي الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري البغدادي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- الأوائل ، لأبي هلال العسكري ؛ إمام اللغة والأدب الناقد أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري الأهوازي (ت بعد ٣٩٥ هـ) ، تحقيق وليد قصاب ومحمد المصري ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، وزارة الثقافة والإرشاد ، دمشق ، سورية .

- الأولياء ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- الإيضاح في شرح المفصل ، لابن الحاجب ؛ الإمام المقرئ الفقيه النحوي النظار جمال الدين أبي عمرو عثمان بن أبي بكر بن يونس الكردي الدويني المالكي (ت ٦٤٦ هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم محمد عبد الله ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، دار سعد الدين ، دمشق ، سورية .

- البحر الزخار ، المسمى : « مسند البزار » ، للبزار ؛ الإمام الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار (ت ٢٩٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .
- بحر الفوائد ، المسمى : « معاني الأخبار » ، للكلاباذي ؛ الإمام المحدث الصوفي تاج الإسلام أبي بكر بن محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (ت ٣٨٠ هـ) ، تحقيق وجيه كمال الدين زكي ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، دار السلام ، القاهرة ، مصر .
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، لابن عجيبة ؛ الإمام المفسر المشارك الشريف أبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني الإدريسي التطواني المالكي (ت ١٢٢٤ هـ) ، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، نشره محققه ، القاهرة ، مصر .
- البخلاء ، للجاحظ ؛ كبير أئمة الأدب الموسوعي أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناني الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق طه الحاجري ، ط ٥ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
- بداية الهداية ، للغزالي ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به محمد غسان نصوح عزقول وفريقه ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .
- البداية والنهاية ، لابن كثير ؛ الإمام الحافظ الفقيه المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصروي الدمشقي الشافعي (ت ٧٧٤ هـ) ، عني به مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ عبد القادر الأرناؤوط (ت ١٤٢٥ هـ) والدكتور بشار عواد معروف ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .
- بدائع السلك في طبائع الملك ، لابن الأزرق ؛ قاضي القضاة الفيلسوف أبي عبد الله شمس الدين محمد بن علي بن محمد ابن الأزرق الأصبحي الأندلسي (ت ٨٩٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم ، ط ١ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، الدار العربية للكتاب ، تونس .
- البصائر والذخائر ، للتوحيدي ؛ فيلسوف الأدباء أبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي (ت ٤١٤ هـ) ، تحقيق الدكتورة وداد القاضي ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .
- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ، للهيثمي ؛ الإمام الحافظ نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي القاهري الشافعي (ت ٨٠٧ هـ) ، تحقيق الدكتور حسين أحمد صالح الباكري ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م) ، مركز خدمة السنة النبوية بالتعاون مع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، للضبي ؛ الإمام المؤرخ الناقد أبي جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي الأندلسي (ت ٥٩٩ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م) ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، لبنان .
- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، لابن عبد البر ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب

أبي عمـر يوسـف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمـري القرطبي المالكـي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتـور محمد مرسـي الخولي (ت ١٤٠٢ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ البيـان والتبييـن ، للجاحظ ؛ كبيـر أئمة الأدب الموسـوعي أبي عثمان عمرو بن بحر بـن محبوب الليثي الكناني الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق وشرح العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٧ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

ـ البيان والتحصيل والشـرح والتوجيه والتعليل في مسـائل المستخرجة ، لابن رشـد ؛ فقيه الأندلس وعالم العدوتيـن أبي الوليـد محمد بن أحمد بن محمد ابن رشـد (الجد) القرطبـي المالكي (ت ٥٢٠ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور محمد حجي المغربي (ت ١٤٢٣ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

ـ تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ؛ الإمام الكبير الحافظ الفقيه اللغوي الشـريف أبي الفيض وأبي الوقـت محمد مرتضى بن محمد بن محمد الحسـيني الزبيدي الحنفـي (ت ١٢٠٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السـتار أحمد فراج (ت ١٤٠٢ هـ) وجماعة من أئمة التحقيق ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

ـ تاريـخ أصبهان ، المسـمىٰ : « ذكر أخبار أصبهـان » ، لأبي نعيم الأصبهاني ؛ الإمـام الحافظ المؤرخ الثقة أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني الشـافعي (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ تاريخ الأدب العربي ، للمستشـرق كارل بروكلمان ، عني به وأشـرف علىٰ ترجمته الدكتور محمود فهمي حجازي ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر .

ـ تاريخ الإسـلام ووفيات المشاهير والأعلام ، للذهبي ؛ الإمام محدث الإسلام ومؤرخ الشام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عمر بن عبد السلام تدمري ، ط ٢ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩ م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ تاريخ الخلفاء ، للسـيوطي ؛ الإمام الحافظ البحر جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمـٰن بن أبي بكر بن محمـد السـيوطي الخضيري الشـافعي (ت ٩١١ هـ) ، عني به اللجنـة العلمية بمركـز دار المنهاج للدراسـات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ، جـدة ، المملكة العربية السعودية .

ـ تاريخ الطبري ، المسـمىٰ : « تاريخ الأمم والملوك » ، للطبري ؛ الإمام المحدث المفسـر المؤرخ أبي جعفر محمد بـن جرير بـن يزيـد الآملي الطبـري (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيـق العلامة محمد أبو الفضـل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م) ، طبعة مصورة بدون ناشر ، بيروت ، لبنان .

ـ تاريـخ العلمـاء والرواة للعلم بالأندلس ، لابـن الفرضي ؛ الحافظ المؤرخ الأديب أبـي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسـف الأزدي (ت ٤٠٣ هـ) ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، ط ٢ ، (١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- التاريـخ الكبير ، لابن أبـي خيثمة ؛ الإمام الحافظ المتقن الأديب أبي بكر أحمد بن زهير بن حرب ابن أبي خيثمة الحرشـي النسائي البغدادي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق عادل سعد وأيمن شعبان ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار غراس ، الكويت .

- تاريـخ المدينة المنورة (أخبار المدينة) ، لابن شـبة ؛ العلامة المحدث المؤرخ أبي زيد عمر بن شـبة بن عبيدة النميري البصري (ت ٢٦٢ هـ) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط ١ ، (١٤٠٢ هـ ، ٢٠٠١ م) ، نشر علىٰ نفقة السيد حبيب محمود أحمد رحمه الله ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .

- تاريـخ اليعقوبي ، لابن واضح ؛ الإمام المؤرخ الجغرافي أبي العباس أحمد بن إسـحاق بن جعفر بن وهب الكاتب الأخباري (ت ٢٩٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٨ م) ، مطبعة الغزي ، النجف ، العراق .

- تاريخ بغداد (تاريخ مدينة السلام) ، للخطيب البغدادي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشـافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيـق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- تاريخ جرجان ، للجرجاني ؛ الحافظ المؤرخ الواعظ أبي القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي القرشي الجرجاني (ت ٤٢٧ هـ) ، تحقيق الدكتـور محمد عبد المعيد خان ، ط ٣ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، دار عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .

- تاريخ مدينة دمشـق وذكر فضلها وتسـمية من حلها مـن الأماثل أو اجتاز بنواحيها مـن وارديها وأهلها ، لابن عسـاكر ؛ الإمام الحافظ الكبير المجود ثقة الدين أبي القاسـم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشـقي الشـافعي (ت ٥٧١ هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمـروي ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- تاريخ يحيى بن معين ، لابن معين ؛ إمام الجرح والتعديل وشـيخ المحدثين الإمام الحافظ أبي زكريا يحيىٰ بـن معين بن عون المري الغطفاني البغدادي (ت ٢٣٣ هـ) ، رواية أبي الفضل العباس بن محمد بن حاتم الدوري البغدادي (ت ٢٧١ هـ) ، تحقيق عبد الله أحمد حسن ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .

- تجارب الأمم ، لمسـكويه ؛ المؤرخ البحاثة الفيلسوف الشاعر أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب الخازن (ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط ١ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- تجارب الأمم ، لمسـكويه ؛ المؤرخ البحاثة الفيلسوف الشاعر أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب الخازن (ت ٤٢١ هـ) ، عني به المستشرق هـ ف آمدروز ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر .

- التذكـرة الحمدونية ، لابن حمدون ؛ الإمام الأديب الأخباري بهاء الدين أبي المعالي محمد بن الحسـن بن محمد بن علي بن حمدون البغدادي (ت ٥٦٢ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسـان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) وبكر عباس ، ط ١ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- التذكـرة بأحوال الموتـىٰ وأمور الآخرة ، للقرطبي ؛ الإمام الفقيه المفسـر اللغوي أبـي عبد الله محمد بن

أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي المالكي (ت ٦٧١ هـ) ، تحقيق الدكتور الصادق محمد إبراهيم ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، مكتبة دار المنهاج ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- التذكرة في الوعظ ، لابن الجوزي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق عبد الرؤوف سعد ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية ، مصر .

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، للقاضي عياض ؛ الإمام الحافظ الأوحد القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي المالكي (ت ٥٤٤ هـ) ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي وآخرين ، ط ٢ ، (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط ، المغرب .

- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملوك ، للماوردي ؛ الإمام الفقيه الأصولي المفسر أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البغدادي الشافعي (ت ٤٥٠ هـ) ، تحقيق محيي هلال السرحان ، ط ١ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان .

- التعازي والمراثي ، للمبرد ؛ إمام النحاة والعربية أبي العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد البصري البغدادي (ت ٢٨٦ هـ) ، تحقيق محمد الديباجي ، ط ٢ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- تعظيم قدر الصلاة ، للمروزي ؛ الإمام الحافظ الرحلة أبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي (ت ٢٩٤ هـ) ، تحقيق أحمد أبو المجد ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، دار العقيدة ، القاهرة ، مصر .

- تعليق من أمالي ابن دريد ، لابن دريد ؛ إمام اللغة والأدب أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري (ت ٣٢١ هـ) ، تحقيق مصطفى السنوسي ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والإعلام ، الكويت .

- تغليق التعليق علىٰ صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ؛ الإمام الحافظ الحجة شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني الكناني الشافعي (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق سعيد عبد الرحمٰن موسى القزقي ، ط ٢ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- تفسير ابن أبي حاتم ، المسمىٰ : « تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين » ، لابن أبي حاتم ؛ الإمام الحافظ الكبير أبي محمد عبد الرحمٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي الرازي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، مكتبة نزار الباز ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

- تفسير البغوي ، المسمىٰ : « معالم التنزيل » ، للبغوي ؛ الإمام الحافظ الفقيه المجتهد ركن الدين أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٦ هـ) ، تحقيق خالد عبد الرحمٰن العك ومروان سوار ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- تفسير التستري ، للتستري ؛ الإمام المتكلم الصوفي أبي محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري البصري

(ت ٢٨٣ هـ) ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- تفسير الثعلبي ، المسمى : « الكشف والبيان » ، للثعلبي ؛ الإمام الحافظ المفسر أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري الشافعي (ت ٤٢٧ هـ) ، تحقيق علي عاشور ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- تفسير الطبري ، المسمىٰ : « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ، للطبري ؛ الإمام المحدث المفسر المؤرخ أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، عني به مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار ابن حزم ودار الأعلام ، بيروت ، لبنان . عمان ، الأردن .

- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ؛ الإمام الحافظ الفقيه المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصروي الدمشقي الشافعي (ت ٧٧٤ هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط ١ ، (١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٩ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- تفسير القرطبي ، المسمى : « الجامع لأحكام القرآن » ، للقرطبي ؛ الإمام الفقيه المفسر اللغوي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي المالكي (ت ٦٧١ هـ) ، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني ، ط ٢ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- تفسير الماوردي ، المسمى : « النكت والعيون » ، للماوردي ؛ الإمام الفقيه الأصولي المفسر أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البغدادي الشافعي (ت ٤٥٠ هـ) ، تحقيق عبد المقصود بن عبد الرحيم ، ط ٢ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- تقييد العلم ، للخطيب البغدادي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق سعد عبد الغفار علي ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، دار الاستقامة ، القاهرة ، مصر .

- التكملة لكتاب الصلة ، لابن الأبار ؛ الشاعر الأديب المؤرخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن الأبار القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨ هـ) ، تحقيق عبد السلام الهراس ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- التمثيل والمحاضرة ، للثعالبي ؛ إمام اللغة والأدب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، مصر .

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، لابن عبد البر ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ١ ، (١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م) ، وزارة الأوقاف ، الرباط ، المغرب .

- تنبيه الغافلين ، لأبي الليث السمرقندي ؛ الإمام المحدث الفقيه المفسر إمام الهدىٰ أبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي الحنفي (ت ٣٧٣ هـ) ، تحقيق يوسف علي بديوي ، ط ٣ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

- التنبيه في الفقه على مذهب الإمام الشافعي ، للشيرازي ؛ الإمام المجتهد الفقيه المناظر أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزاباذي الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦ هـ) ، (الطبعة الأخيرة) ، (١٣٧٠ هـ ، ١٩٥١ م) ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

- تهذيب الأسماء واللغات ، للنووي ؛ شيخ الإسلام الحافظ المجتهد الحجة محيي الدين أبي زكريا يحيىٰ بن شرف بن مُرِّي النووي الحزامي الدمشقي الشافعي (ت ٦٧٦ هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط ١ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار الفيحاء ودار المنهل ، دمشق ، سورية .

- تهذيب اللغة ، للأزهري ؛ إمام اللغة والأدب أبي منصور محمد بن أحمد بن طلحة الأزهري الهروي الشافعي (ت ٣٧٠ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) وزملائه ، ط ١ ، (١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م) ، الدار المصرية ، القاهرة ، مصر .

- التوكل على الله ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط ١ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، مصر .

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، للثعالبي ؛ إمام اللغة والأدب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار البشائر ، دمشق ، سورية .

- جامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، المملكة العربية السعودية .

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للخطيب البغدادي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- الجامع لشعب الإيمان ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث ، للشهاب الغزي ؛ العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الكريم بن سعودي الغزي العامري الدمشقي الشافعي (ت ١١٤٣ هـ) ، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، للحميدي ؛ الإمام المحدث المحقق المؤرخ أبي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي القرطبي (ت ٤٨٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٦٦ م) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، مصر .

- الجرح والتعديل ، لابن أبي حاتم ؛ الإمام الحافظ الكبير أبي محمد عبد الرحمٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي الرازي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، عني به عبد الرحمٰن بن يحيى المعلمي اليماني

(ت ١٣٨٦ هـ) ، ط ١ ، (١٢٧١ هـ ، ١٩٥٢ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد الدَّكِّن بالهند لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، للمعافى ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأديب أبي الفرج المعافىٰ بن زكريا بن يحيى النهرواني الجريري الشافعي (ت ٣٩٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد مرسي الخولي (ت ١٤٠٢ هـ) والدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .

- جمع الجواهر في الملح والنوادر ، للقيرواني ؛ الأديب النقاد البليغ أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني (ت ٤٥٤ هـ) ، تحقيق العلامة علي محمد البجاوي (ت ١٣٩٩ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧٢ هـ ، ١٩٥٣ م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- جمهرة الأمثال ، لأبي هلال العسكري ؛ إمام اللغة والأدب الناقد أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري الأهوازي (ت بعد ٣٩٥ هـ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) وعبد المجيد قطامش ، ط ١ ، (١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م) ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، مصر .

- جمهرة اللغة ، لابن دريد ؛ إمام اللغة والأدب أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري (ت ٣٢١ هـ) ، تحقيق الدكتور رمزي منير بعلبكي ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

- الجوع ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ٢ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- حقائق التفسير ، المسمىٰ : « تفسير السلمي » ، للسلمي ؛ الإمام الحافظ المفسر شيخ خراسان أبي عبد الرحمـٰن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق سيد عمران ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- حلم معاوية ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، دار البشائر ، دمشق ، سورية .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصبهاني ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني الشافعي (ت ٤٣٠ هـ) ، ط ٥ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧ هـ) لدىٰ دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر . بيروت ، لبنان .

- الحماسة البصرية ، للبصري ؛ الإمام الأخباري النحوي الأديب صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٦ هـ) ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- حياة الحيوان الكبرىٰ ، للدميري ؛ الإمام العلامة الفقيه الأديب كمال الدين أبي البقاء محمد بن موسى بن

عيسى الدميري القاهري الشافعي (ت ٨٠٨ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، دار البشائر ، دمشق ، سورية .

- الحيوان ، للجاحظ ؛ كبير أئمة الأدب الموسوعي أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناني الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة البابي الحلبي لدىٰ دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء صقلية والمغرب والأندلس) ، للعماد الأصفهاني ؛ الإمام المؤرخ الأديب الشاعر عماد الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب الأصفهاني الشافعي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيىٰ ، ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٦٦ م) ، الدار التونسية ، تونس .

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، للبغدادي ؛ الإمام الأديب النحوي اللغوي عبد القادر بن عمر بن بايزيد البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- الخطط المقريزية ، المسمى : « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، للمقريزي ؛ مؤرخ الديار المصرية القاضي الخطيب تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي المصري الحسيني الشافعي (ت ٨٤٥ هـ) ، ط ١ ، (١٢٧٠ هـ ، ١٨٥٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للسيوطي ؛ الإمام الحافظ البحر جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الخضيري الشافعي (ت ٩١١ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- الدرة اليتيمة ، المسمى : « الأدب الكبير » (ضمن رسائل البلغاء) ، لابن المقفع ؛ إمام الكتاب البليغ أبي محمد عبد الله بن المقفع بن داذويه الجوري الفارسي (ت ١٤٢ هـ) ، جمعها الوزير الأديب المفكر محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد علي الدمشقي (ت ١٣٧٢ هـ) ، عني به لجنة بإشراف عطية لطفي ، ط ١ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر .

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الريان ، القاهرة ، مصر .

- الديارات ، لأبي الفرج الأصبهاني ؛ الإمام الراوية الأديب الكاتب أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصبهاني البغدادي (ت ٣٥٦ هـ) ، تحقيق جليل العطية ، ط ١ ، (١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م) ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، بريطانية .

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، لابن فرحون ؛ الإمام الفقيه المؤرخ القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون اليعمري الأندلسي المالكي (ت ٧٩٩ هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر .

- ديوان إبراهيم بن العباس الصولي (ضمن الطرائف الأدبية) ، لإبراهيم الصولي ؛ الشاعر العباسي أبي إسحاق

إبراهيم بـن العباس بن محمد بن صـول (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق العلامة عبد العزيـز الميمني الراجكوتي (ت ١٣٩٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٧ م) ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، مصر .

ـ ديوان ابن الرومي ، لابن الرومي ؛ الشـاعر العباسي الكبير أبي الحسن علي بن العباس بن جريج ابن الرومي البغدادي (ت ٢٨٣ هـ) ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، ط ٣ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، مصر .

ـ ديوان ابن المعتز « ديوان أشـعار الأمير أبي العباس » ، لابن المعتز ؛ الشـاعر الأمير المبدع الغالب بالله أبي العباس عبد الله بن الخليفة المعتز بالله محمد بن المتوكل العباسي (ت ٢٩٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد بديع شريف ، ط ١ ، (١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

ـ ديوان ابن حيوس ، لابن حيوس ؛ الشـاعر العباسـي الأمير مصطفى الدولة أبي الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الغنوي الدمشقي (ت ٤٧٣ هـ) ، تحقيق الأديب الوزير خليل مردم بك (ت ١٣٧٩ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

ـ ديوان ابن نباتة السعدي ، لابن نباتة السعدي ؛ شاعر الوقت المجيد أبي نصر عبد العزيز بن عمر بن أحمد ابـن نباتة السـعدي التميمي البغدادي (ت ٤٠٥ هـــ) ، تحقيق عبد الأمير مهـدي حبيب الطائي ، ط ١ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، وزارة الإعلام ، بغداد ، العراق .

ـ ديوان أبي الأسـود الدؤلي ، لأبي الأسـود الدؤلي ؛ التابعي الجليل واضع علم النحو أبي الأسـود ظالم بن عمرو بن سفيان الكناني الدؤلي (ت ٢٩٠ هـ) ، برواية أبي سعيد الحسن السكري (ت ٢٩٠ هـ) ، تحقيق الشـيخ محمد حسـن آل ياسـين (ت ١٤٢٧ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٨ هـــ ، ١٩٩٨ م) ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان .

ـ ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره ، لأبي الشيص ؛ الشاعر المطبوع أبي الشيص محمد بن علي بن عبد الله الخزاعي (ت ١٩٦ هـ) ، صنعة عبد الله الجبوري ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، المكتب الإسـلامي ، بيروت ، لبنان .

ـ ديـوان أبي العتاهية (أبو العتاهية أشـعاره وأخبـاره) ، لأبي العتاهية ؛ رئيس الشـعراء المكثر المولد أبي إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد أبي العتاهية العيني العنزي الكوفي (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق الدكتور شكري فيصل (ت ١٤٠٥ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م) ، دار الملاح ، دمشق ، سورية .

ـ ديوان أبي الفتح البستي ، لأبي الفتح البستي ؛ الشاعر المفلق الكاتب أبي الفتح علي بن محمد بن الحسين البسـتي الشـافعي (ت ٤٠٠ هـ) ، تحقيق شاكر العاشـور ، ط ١ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار الينابيع ، دمشق ، سورية .

ـ ديوان أبي بكر الشـبلي ، لأبي بكر الشـبلي ؛ الشاعر الأمير الزاهد أبي بكر دلف بن جعفر بن يونس الشبلي (ت حوالي ٣٣٤ هـ) ، تحقيق الدكتور كامل مصطفى الشـيبي ، ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٦٧ م) ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، العراق .

ـ ديـوان أبـي تمام ، لأبي تمام الطائي ؛ أمير البيان وإمام اللغة أبـي تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائي الإمامي (ت ٢٣١ هـ) ، بشـرح إمام اللغة والأدب أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الشـيباني الخطيب

التبريـزي (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيـق محمد عبده عـزام ، ط ٥ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

- ديـوان أبي دهبل الجمحي رواية أبي عمرو الشيباني ، لأبي دهبل الجمحي ؛ الشـاعر العاشـق أبي دهبل وهب بـن زمعة بن أسـيد الأموي القرشـي (ت ١٢٦ هـ) ، تحقيـق عبد العظيم عبد المحسـن ، ط ١ ، (١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م) ، مطبعة القضاء ، النجف الأشرف ، العراق .

- ديوان أبي نواس ، لأبي نواس ؛ شاعر العراق في عصره أبي نواس الحسن بن هانئ بن عبد الأول الحكمي (ت ١٩٨ هـ) ، تحقيق إيڤالد ڤاغنـر ، ط ٢ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م) ، الجمعيـة الألمانية ، بيروت ، لبنان .

- ديوان الأفوه الأودي ، للأفوه الأودي ؛ الشاعر الجاهلي اليماني صلاءة بن عمرو بن مالك الأودي (ت نحو ٥٠ ق هـ) ، تحقيـق الدكتور محمـد ألتونجي ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ديـوان الإمام عبد الله بن المبـارك ، لابن المبارك ؛ الإمـام الحافظ الرحلة أبـي عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك بـن واضح الحنظلـي المروزي (ت ١٨١ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتـور مجاهد مصطفىٰ بهجت ، ط ٣ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م) ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر .

- ديـوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، المسـمىٰ : « أنوار العقول لوصي الرسـول صلى الله عليه وسلم » ، لسيدنا علي ؛ أمير المؤمنين وأحد المبشرين بالجنة علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشـي رضي الله عنه (ت ٤٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد همو ، ط ١ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ديوان البحتري ، للبحتري ؛ الشاعر الكبير أحد السلاسل الذهبية أبي عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي البحتري (ت ٢٨٤ هـ) ، شرح وتحقيق حسن كامل الصيرفي (ت ١٤٠٥ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

- ديوان التهامي ، للتهامي ؛ الشـاعر الخطيب أبي الحسـن علي بن محمد بن نهد التهامي (ت ٤١٦ هـ) ، تحقيق الدكتور علي نجيب عطوي ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان .

- ديوان الحارث بن عباد ، للحارث بن عباد ؛ الشـاعر الجاهلي الحارث بن عباد بن ضبيعة البكري (ت نحو ٥٠ ق هـ) ، تحقيق أنـس عبد الهادي أبو هلال ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة .

- ديوان الشـافعي وحكمه وكلماته السـائرة ، للشـافعي ؛ إمـام الدنيا وفخر الزمان أبـي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس المطلبي القرشـي الشـافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، جمع وضبط يوسـف علي بديوي ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة دار الفجر ، دمشق ، سورية .

- ديوان الشـريف الرضي ، للشـريف الرضي ؛ الإمام الفقيه شـاعر الطالبيين ونقيبهم أبي الحسـن محمد بن الحسـين بن موسى الرضي العلوي الموسوي الحسـيني البغدادي (ت ٤٠٦ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ديــوان الصنوبري ، للصنوبري ؛ شـاعر الروضيات المحســن أبي بكر أحمد بن محمد بن الحســن الضبي الصنوبـري الأنطاكـي (ت ٣٣٤ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسـان عبـاس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ديوان المتلمس الضبعي ، للمتلمس الضبعي ؛ الشـاعر الجاهلي جرير بن عبد العزىٰ عبد المسيح الضبعي (ت نحو ٥٠ ق هـ) ، رواية أبي الحسن الأثرم (ت ٢٣٢ هـ) وأبي عبيدة عن الأصمعي (ت نحو ٢٠٩ هـ) ؛ تحقيق حسن كامل الصيرفي (ت ١٤٠٥ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، مصر .

- ديوان المعاني ، لأبي هلال العسـكري ؛ إمام اللغة والأدب الناقد أبي هلال الحســن بن عبد الله بن سـهل العسكري الأهوازي (ت بعد ٣٩٥ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد سليم غانم ، ط ٢ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر .

- ديــوان النابغة الجعــدي ، للنابغة الجعدي ؛ الشـاعر المفلق الصحابي النابغـة قيس بن عبد الله بن عدس الجعــدي رضي الله عنه (ت نحــو ٥٠ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور واضــح الصمد ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ديوان النابغة الذبياني ، للنابغة الذبياني ؛ الشاعر الجاهلي زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني (ت نحو ١٨ ق . هــ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

- ديوان النمر بن تولب العكلي ، للنمر بن تولب رضي الله عنه ؛ الشـاعر الصحابي المخضرم النمر بن تولب العكلــي رضي الله عنه (ت نحــو ١٤ هـ) ، تحقيق الدكتــور محمد نبيل طُريفــي ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ديوان بشار بن برد ، لبشار بن برد ؛ الشاعر المولد الخطيب أبي معاذ بشار بن برد بن بهمن الفارسي العقيلي البصري (ت ١٦٧ هـ) ، تحقيق وشــرح العلامة محمد الطاهر ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) ، وتعليق محمد رفعت فتح الله والعلامة محمد شوقي أمين (ت ١٤١١ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر لدىٰ وزارة الثقافة ، الجزائر .

- ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، لابن المعز الفاطمي ؛ الأمير الشـاعر تميم بن المعز لدين الله بن المنصــور بالله الفاطمي (ت ٣٧٤ هـ) ، تحقيق لجنة من المحققين بإشــراف العلامــة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٧ م) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

- ديوان حاتم الطائي ، لحاتم الطائي ؛ الشاعر الجاهلي الفارس الجواد أبي عدي حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشــرج الطائي القحطاني (ت ٤٦ ق هـ) ، صنعة يحيى بن مدرك الطائي ، رواية هشــام الكلبي ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، ط ٢ ، (١٤١١ هـ ، ١٩٩٠ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- ديوان حســان بن ثابت رضي الله عنه ، لحسان بن ثابت رضي الله عنه ؛ الصحابي الجليل وشاعر رسول الله صلى الله عليه وســلم حســان بن ثابت بن المنذر النجاري الخزرجي رضي الله عنه (ت ٤٠ هـ) ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، ط ١ ، (١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٤ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ديوان دريد بن الصمة ، لابن الصمة ؛ الشاعر الجاهلي الفارس دريد بن الصمة (معاوية الأصغر) بن الحارث الجشـمي (ت ٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عمر عبد الرسول ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
- ديوان صالح بن عبد القدوس ، لابن عبد القدوس ؛ الشـاعر العباسي المتكلم الحكيم أبي الفضل صالح بن عبد القدوس بـن عبد الله الجذامي البصري (ت نحو ١٦٧ هـ) ، جمع وتحقيق عبد الله الخطيب ، ط ١ ، (١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م) ، دار منشورات البصري ، بغداد ، العراق .
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، لابن قيس الرقيات ؛ شـاعر قريش الأموي عبيد الله بن قيس بن شـريح الرقيات (ت نحو ٧٥ هـ) ، رواية الحسـن السكري عن ابن حبيب ، تحقيق العلامة الدكتور محمد يوسف نجم (ت ١٤٣٠ هـ) ، ط ١ ، (بدون تاريخ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .
- ديـوان عدي بن زيد العبـادي ، لعدي العبادي ؛ الشـاعر الجاهلي الداهية الفـارس عدي بن زيد بن حماد العبادي التميمي (ت نحـو ٣٥ هـ) ، تحقيق محمد جبار المعيبد ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) ، وزارة الثقافة والإرشاد ، بغداد ، العراق .
- ديوان علي بن الجهم ، لعلي بن الجهم ؛ الشـاعر العباسـي الأديب أبي الحسـن علي بـن الجهم بن بدر السـامي البغدادي الحنبلي (ت ٢٤٩ هـ) ، تحقيق الأديب الوزير خليل مردم بك (ت ١٣٧٩ هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .
- ديوان عمارة بن عقيل ، لعمارة ؛ الشاعر العباسي المقدم الفصيح عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير اليربوعي التميمي (ت ٢٣٩ هـ) ، تحقيق شـاكر العاشـور ، ط ١ ، (١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م) ، وزارة الإعلام ، بغداد ، العراق .
- ديوان عمرو بن كلثوم ، لابن كلثوم ؛ الشاعر الجاهلي المعمر المجيد أبي الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي (ت ٣٩ ق هـ) ، تحقيق الدكتور علي أبو زيد ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار سـعد الدين ، دمشق ، سورية .
- ديوان قيس بن الخطيم ، لقيس بن الخطيم ؛ الشاعر الجاهلي الفارس الصنديد أبي يزيد قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي (ت نحو ٢ ق هـ) ، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ، ط ١ ، (١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .
- ديوان كثير عزة ، لكثير عزة ؛ الشـاعر الأموي المتيم المشـهور كثير بن عبد الرحمٰن بن الأسـود الخزاعي المدني (ت ١٠٥ هـ) ، جمع وشـرح العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .
- ديـوان ليلى الأخيلية ، لليلى الأخيلية ؛ الشـاعرة الأموية المجيدة ليلىٰ بنـت عبد الله بن الرحال الأخيلية (ت نحو ٨٠ هـ) ، جمع وتحقيق خليـل إبراهيم العطية وجليل العطية ، ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٦٧ م) ، دار الجمهورية ، بغداد ، العراق .
- ديوان محمود الوراق ، للوراق ؛ الشـاعر الواعظ المجيد أبي الحسـن محمود بن الحسـن الوراق العباسـي (ت نحـو ٢٢٥ هــ) ، تحقيق الدكتور وليد قصـاب ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، مؤسسـة الفنون ، عجمان ، الإمارات العربية المتحدة .

- ديوان معن بن أوس المزني ، لمعن بن أوس ؛ الشاعر المجيد المخضرم معن بن أوس بن نصر المزني (ت ٦٤ هـ) ، تحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي والدكتور حاتم صالح الضامن (ت ١٤٣٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، دار الجاحظ ، بغداد ، العراق .

- ذم الدنيا ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ، للزمخشري ؛ الإمام البارع المتكلم النظار جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الحنفي (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الذخائر ، قم ، إيران .

- الرحلة في طلب الحديث ، للخطيب البغدادي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور نور الدين عتر ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، نشره محققه ، دمشق ، سورية .

- الرسالة القشيرية ، للقشيري ؛ الإمام العلم القدوة الأستاذ زين الإسلام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٥ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود (ت ١٣٩٨ هـ) والدكتور محمود بن الشريف ، ط ٢ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩ م) ، دار الشعب ، القاهرة ، مصر .

- رسالة في تحريم الجبن الرومي ، للطرطوشي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأديب أبي بكر محمد بن الوليد بن محمد الفهري الطرطوشي الأندلسي المالكي (ت ٥٢٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد تركي ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- رسائل ابن أبي الدنيا ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق أبي بكر بن عبد الله سعداوي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، المنتدى الإسلامي ـ المركز العربي للكتاب ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة .

- الرقة والبكاء ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- الروض المعطار في خبر الأقطار ، للحميري ؛ الجغرافي الرحالة أبي عبد الله محمد بن عبد الله عبد المنعم الحميري الأندلسي (ت ٩٠٠ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان .

- روضة الطالبين وعمدة المفتين ، للنووي ؛ شيخ الإسلام الحافظ المجتهد الحجة محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف بن مُرِّي النووي الحزامي الدمشقي الشافعي (ت ٦٧٦ هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط ١ ، (١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٢ م) ، دار الفيحاء ودار المنهل ، دمشق ، سورية .

- روضة العقلاء ، لابن حبان ؛ الإمام الحافظ المجود الرحلة أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي

البستي الشافعي (ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق عبد العليم محمد الدرويش ، ط ١ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، سورية .

- الرياض النضرة في مناقب العشرة ، للمحب الطبري ؛ الإمام الحافظ الفقيه المحدث محب الدين أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد الحسيني الشافعي (ت ٦٩٤ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد زهير الشاويش (ت ١٤٣٤ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- الزهد الكبير ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط ٣ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد والرقائق برواية المروزي مع زيادات رواية نعيم بن حماد عليه ، لابن المبارك ؛ الإمام الحافظ الرحلة أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المروزي (ت ١٨١ هـ) ، تحقيق العلامة المحدث حبيب الرحمٰن الأعظمي (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة الهند لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق ياسين السواس ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

- الزهد ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق ياسين السواس ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

- الزهد ، لابن حنبل ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هـ) ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد ، لأسد السنة ؛ الإمام الحافظ أبي سعيد أسد بن موسى بن إبراهيم الأموي القرشي (ت ٢١٢ هـ) ، تحقيق أبي إسحاق الحويني الأثري ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مكتبة التوعية الإسلامية ومكتبة الوعي الإسلامي ، القاهرة ، مصر .

- الزهد ، لهناد الدارمي ؛ الإمام الحافظ الثقة الزاهد أبي السري هناد بن السري بن مصعب التميمي الدارمي الكوفي (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد الرحمٰن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .

- الزهد ، لوكيع ؛ الإمام الحافظ الجهبذ وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي (ت ١٩٧ هـ) ، تحقيق عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي ، ط ٢ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار الصميعي ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- زهر الآداب وثمر الألباب ، للقيرواني ؛ الأديب النقاد البليغ أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري

القيرواني (ت ٤٥٤ هـ) ، تحقيق العلامة علي محمد البجاوي (ت ١٣٩٩ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- زهر الأكم في الأمثال والحكم ، لليوسي ؛ العلامة الفقيه الأديب نور الدين أبي علي الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي المالكي (ت ١١٠٢ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور محمد حجي المغربي (ت ١٤٢٣ هـ) والدكتور محمد الأخضر ، ط ١ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب .

- الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح ، لابن الجزري ؛ الإمام الحجة المحقق شيخ الإقراء شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن محمد بن الجزري الدمشقي العمري الشافعي (ت ٨٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٣٣٢ هـ ، ١٩١٢ م) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

- الزهرة ، لابن داوود الظاهري ؛ الأديب المناظر الفقيه الشاعر أبي بكر محمد بن داوود بن علي الظاهري الأصبهاني (ت ٢٩٧ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إبراهيم السامرائي (ت ١٤٢٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن .

- سراج الملوك ، للطرطوشي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأديب أبي بكر محمد بن الوليد بن محمد الفهري الطرطوشي الأندلسي المالكي (ت ٥٢٠ هـ) ، تحقيق لجنة بإشراف أنطون غندور ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، المطبعة الوطنية ، الإسكندرية ، مصر .

- السنة ، لابن أبي عاصم ؛ الإمام الحافظ الأثري الفقيه أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني الظاهري (ت ٢٨٧ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- سنن ابن ماجه ، لابن ماجه ؛ الإمام الحافظ الثبت المفسر أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي القزويني (ت ٢٧٣ هـ) ، تحقيق العلامة محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- سنن أبي داوود ، لأبي داوود ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي داوود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط ٣ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- سنن الترمذي ، المسمى : « الجامع الصحيح » ، للترمذي ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سورة السلمي الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر (ت ١٣٧٧ هـ) والعلامة محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) والشيخ إبراهيم عطوة عوض (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- سنن الدارقطني ، للدارقطني ؛ الإمام الحافظ الحجة أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني البغدادي الشافعي (ت ٣٨٥ هـ) ، عني به عبد الله هاشم يماني ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- السنن الكبرىٰ ، للنسائي ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي عبد الرحمـٰن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني (ت ٣٠٣ هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- السنن الكبير ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية ، القاهرة ، مصر .

- سنن سعيد بن منصور ، لسعيد بن منصور ؛ الإمام الحافظ أبي عثمان سعيد بن منصور بن شعبة البزار النيسابوري المكي (ت ٢٢٧ هـ) ، تحقيق الدكتور سعد بن عبد الله آل حميد والدكتور خالد بن عبد الرحمٰن الجريسي ، ط ٢ ، (بدأت ١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م وانتهت ١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٢ م) ، دار الصميعي ودار الألوكة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين) ، للذهبي ؛ الإمام محدث الإسلام ومؤرخ الشام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط ١١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- سير الملوك ، المسمىٰ : « سياست نامه » ، لنظام الملك ؛ الوزير الأديب قوام الدين نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (ت ٤٨٥ هـ) ، ترجمه عن الفارسية الدكتور يوسف بكار ، ط ٣ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، وزارة الثقافة الأردنية ، عمان ، الأردن .

- السير ، للفزاري ؛ الإمام الزاهد شيخ الإسلام أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري (ت ١٨٦ هـ) ، تحقيق الدكتور فاروق حمادة ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- السيرة النبوية ، لابن هشام ؛ الإمام المؤرخ راوي السيرة جمال الدين أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري الشافعي (ت ٢١٨ هـ) ، تحقيق مصطفى السقا والعلامة إبراهيم الأبياري (ت ١٤١٤ هـ) وعبد الحفيظ شلبي ، ط ٢ ، (١٣٧٥ هـ ، ١٩٥٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مصطفى البابي الحلبي لدىٰ دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

- سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، لابن الجوزي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق أحمد شوحان (ت ١٤٢٧ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، مكتبة التراث ، دمشق ، سورية .

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، لمخلوف ؛ العلامة الفقيه الأديب محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف المنستيري التونسي المالكي (ت ١٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد ؛ الإمام الفقيه الأديب المؤرخ شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الدمشقي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

- شرح ديوان الحماسة ، للخطيب التبريزي ؛ إمام اللغة والأدب أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني

الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد (ت ١٣٩٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة حجازي لدىٰ عالم الكتب ، القاهرة ، مصر .

- شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقي ؛ الإمام العلامة النحوي الأديب أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق الأديب أحمد أمين (ت ١٣٧٣ هـ) والعلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ١ ، (١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

- شرح ديوان الفرزدق ، للفرزدق ؛ الشاعر الأموي النبيل أبي فراس همام بن غالب بن صعصعة الفرزدق الدارمي التميمي (ت ١١٠ هـ) ، جمعه الأديب عبد الله إسماعيل الصاوي (ت ١٣٩٩ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، مطبعة الصاوي ، القاهرة ، مصر .

- شرح ديوان المتنبي ، المسمى : « التبيان في شرح الديوان » ، المنسوب للعكبري ؛ الإمام العلامة النحوي الأديب محب الدين أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي الحنبلي (ت ٦١٦ هـ) ، عني به مصطفى السقا والعلامة إبراهيم الأبياري (ت ١٤١٤ هـ) وعبد الحفيظ شلبي ، الطبعة الأخيرة ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

- شرح ديوان كعب بن زهير ، للسكري ؛ العلامة الأديب الراوية النحوي اللغوي أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الرحمٰن العتكي السكري (ت ٢٧٥ هـ) ، ط ٤ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، مصر .

- شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ، للسيوطي ؛ الإمام الحافظ البحر جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الخضيري الشافعي (ت ٩١١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٩ م) ، نسخة مصورة عن مطبعة البابي الحلبي لدىٰ دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- شرح مشكل الآثار ، للطحاوي ؛ الإمام الحافظ المحدث الفقيه أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي الحنفي (ت ٣٢١ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- شرح مقصورة ابن دريد ، لابن خالويه ؛ فريد دهره الإمام الفذ النحوي أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه الهمذاني البغدادي الحلبي الشافعي (ت ٣٧٠ هـ) ، تحقيق محمود جاسم محمد ، ط ١ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ؛ الإمام الأديب المؤرخ عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد ابن أبي الحديد المدائني البغدادي المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٩ م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- الشريعة ، للآجري ؛ الإمام الحافظ الفقيه الحجة أبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري البغدادي (ت ٣٨٧ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي ، ط ٣ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار الفضيلة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- شعر ابن العلاف ، لابن العلاف ؛ أبي بكر الحسن بن علي بن أحمد النهرواني البغدادي (ت ٣١٨ هـ) ، تحقيق صبيح رديف ، ط ١ ، (١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٤ م) ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، العراق .

- شـعر أبي حية النميري ، لأبي حية النميري ؛ الشـاعر المجيد المخضرم أبي حية الهيثم بن الربيع بن زرارة النميري (ت بعـد ١٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتـور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، سورية .

- شـعر المتوكل الليثي ، للمتوكل الليثي ؛ الشاعر أبي جهمة المتوكل بن عبد الله بن نهشل الليثي الكناني (ت نحـو ٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتـور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، مكتبـة الأندلس ، بغداد ، العراق .

- شـعر عروة بن الورد العبسي ، لابن الورد ؛ الشـاعر الجاهلي أبي الصعاليك عروة بن الورد بن زيد العبسي (ت نحو ٣٠ ق هـ) ، صنعة أبي يوسف يعقوب ابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد فؤاد نعناع ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- شـعر عمرو بن أحمر الباهلي ، لعمرو بن أحمر الباهلي ؛ الشـاعر المخضرم أبي الخطاب عمرو بن أحمر الباهلي (ت بعد ٧٥ هـ) ، تحقيق الدكتور حسـين عطـوان ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

- شـعر عمرو بن شـأس الأسـدي ، لعمرو بن شأس ؛ الشـاعر المخضرم عمرو بن شـأس بن عبيد الأسدي (ت ٣٠ هـ) ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط ٢ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار القلم ، الكويت .

- شـعر عمرو بن معدي كرب ، لعمرو بن معدي كرب رضي الله عنه ؛ فارس اليمن الشاعر أبي ثور عمرو بن معدي كرب (وجه الفلاح) ابن عبد الله الزبيدي اليمني (ت ٢١ هـ) ، جمع وتنسـيق مطاع الطرابيشـي ، ط ٣ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سورية .

- شعر محمد بن بشير الخارجي ، لمحمد بن بشير الخارجي ؛ الشاعر الأموي الفصيح أبي سليمان محمد بن بشير بن عبد الله الخارجي (ت حوالي ٢٢٥ هـ) ، شرح وتحقيق محمد خير البقاعي ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار قتيبة ، دمشق ، سورية .

- الشـعر والشـعراء ، لابن قتيبة الدينوري ؛ إمام الأدب واللغة القاضي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينـوري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيـق العلامة أحمد محمد شـاكر (ت ١٣٧٧ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

- الشـفا بتعريف حقوق المصطفىٰ صلى الله عليه وسـلم ، للقاضي عياض ؛ الإمـام الحافظ الأوحد القاضي أبي الفضل عياض بن موسـى بن عياض اليحصبي الأندلسـي المالكي (ت ٥٤٤ هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة الغزالي ودار الفيحاء ، دمشق ، سورية .

- الشـكر ، لابن أبي الدنيـا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبـي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشـي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، عني به أحمد محمد طاحون ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار عكاظ ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- شـمائل النبي صلى الله عليه وسلم ، للترمذي ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسىٰ محمد بن عيسى بن سـورة السلمي الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق محمد وائل الحنبلي ، ط ٢ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، دار البيروتي ، دمشق ، سورية .

- صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا ، للقلقشندي ؛ الأديب المؤرخ البحاثة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي القاهري الشافعي (ت ٨٢١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدى المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، مصر .

- الصبر والثواب عليه ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- صحيح البخاري ، المسمى : « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » (الطبعة السلطانية العثمانية) ، للبخاري ؛ إمام الدنيا حبر الإسلام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ٣ ، (١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م) ، دار طوق النجاة ودار المنهاج ، بيروت ، لبنان . جدة ، المملكة العربية السعودية .

- صحيح مسلم ، المسمى : « الجامع الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، لمسلم ؛ حافظ الدنيا المجود الحجة أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، جدة ، المملكة العربية السعودية ـ بيروت ، لبنان .

- الصداقة والصديق ، للتوحيدي ؛ فيلسوف الأدباء أبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي (ت ٤١٤ هـ) ، تحقيق الأديب الدكتور إبراهيم الكيلاني الدمشقي (ت ١٤٢٥ هـ) ، ط ٤ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، دار الفكر ، دمشق ، سورية .

- صفة الصفوة ، لابن الجوزي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، صنع فهرسه العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- صفة النفاق وذم المنافقين ، للفريابي ؛ الإمام الحافظ القاضي أبي بكر جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي (ت ٣٠١ هـ) ، تحقيق عبد الرقيب بن علي ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار ابن زيدون ، بيروت ، لبنان .

- الصلة ، وهو ذيل على « تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي » ، لابن بشكوال ؛ الإمام المؤرخ الناقد محدث الأندلس أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود ابن بشكوال الأنصاري القرطبي المالكي (ت ٥٧٨ هـ) ، عني به إدارة إحياء التراث ، ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٦٦ م) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، مصر .

- الصمت وآداب اللسان ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق أبي إسحاق الحويني الأثري ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- طبقات الشافعية الكبرىٰ ، للتاج السبكي ؛ الإمام الحافظ المجتهد النظار قاضي القضاة تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي الشافعي (ت ٧٧١ هـ) ، تحقيق العلامة محمود محمد الطناحي (ت ١٤١٩ هـ) والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- طبقات الصوفية ، للسلمي ؛ إمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ أبي عبد الرحمٰن محمد بن الحسين بن محمد الأزدي السلمي (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط ٢ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المحقق سنة (١٩٥٣ م) لدىٰ دار الكتاب النفيس ، دمشق ، سورية .

- طبقات الصوفية ، للسلمي ؛ إمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ أبي عبد الرحمٰن محمد بن الحسين بن محمد الأزدي السلمي (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الطبقات الكبير ، لابن سعد ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي الزهري البصري (ت ٢٣٠ هـ) ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- العاقبة أو الموت والحشر والنشور ، لعبد الحق ؛ الإمام العلامة الحافظ الفقيه أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمٰن بن عبد الله ابن الخراط الأزدي الأندلسي الإشبيلي المالكي (ت ٥٨٢ هـ) ، تحقيق أبي عبد الرحمٰن عبيد الله المصري الأثري ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، مصر .

- العظمة ، لأبي الشيخ ؛ الإمام الحافظ الصادق محدث أصبهان أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر أبي الشيخ ابن حيان الأصبهاني الأنصاري (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري ، ط ٢ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار العاصمة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- العقد الفريد ، لابن عبد ربه ؛ الإمام الأديب شاعر الأندلس شهاب الدين أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموي القرطبي (ت ٣٢٨ هـ) ، تحقيق أحمد الأمين وأحمد الزين والعلامة إبراهيم الأبياري (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، مصر .

- عقلاء المجانين ، لأبي القاسم النيسابوري ؛ الإمام المفسر الأديب الواعظ أبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري الشافعي (ت ٤٠٦ هـ) ، تحقيق الدكتور عمر الأسعد ، ط ٢ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان .

- العقوبات ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، لابن الجوزي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الشيخ خليل الميس ، ط ٢ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق ؛ الإمام الأديب النقاد أبي علي الحسن بن رشيق بن عبد الله القيرواني الأزدي المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

ـ عوارف المعارف ، للسهروردي ؛ الإمام المحدث شيخ الصوفية شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي القرشي البغدادي الشافعي (ت ٦٣٢ هـ) ، تحقيق أديب الكمداني ومحمد محمود المصطفىٰ ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م) ، المكتبة المكية ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

ـ عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينوري ؛ إمام الأدب واللغة القاضي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق ثلة من أهل العلم ، ط ١ ، (١٣٤٣ هـ ، ١٩٣٠ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة ؛ الطبيب المؤرخ أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الأنصاري (ت ٦٦٨ هـ) ، عني به مصطفىٰ أفندي وهبي ، ط ٣ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الوهبية سنة (١٣٠٠ هـ) لدىٰ دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .

ـ غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة ، للوطواط ؛ الإمام الأديب المترسل الوراق جمال الدين أبي إسحاق محمد بن إبراهيم بن يحيى الأنصاري الكتبي الوطواط (ت ٧١٨ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار صعب ، بيروت ، لبنان .

ـ غريب الحديث ، لابن سلام ؛ الإمام المحدث الفقيه الأديب أبي عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي الخراساني (ت ٢٢٤ هـ) ، بعناية الدكتور محمد عبد المعيد خان ، ط ١ ، (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ غريب الحديث ، لابن قتيبة الدينوري ؛ إمام الأدب واللغة القاضي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، بعناية تميم زرزور ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ غريب الحديث ، للخطابي ؛ الإمام الحافظ اللغوي الرحلة أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي الشافعي (ت ٣٨٨ هـ) ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م) ، جامعة أم القرىٰ ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

ـ الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض ، للقاضي عياض ؛ الإمام الحافظ الأوحد القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي المالكي (ت ٥٤٤ هـ) ، تحقيق ماهر زهير جرار ، ط ١ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

ـ الفاضل ، للمبرد ؛ إمام النحاة والعربية أبي العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد البصري البغدادي (ت ٢٨٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي (ت ١٣٩٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

ـ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، لابن عربشاه ؛ المؤرخ الرحالة الأديب شهاب الدين أبي محمد أحمد بن

محمد بـن عبد الله ابن عربشـاه الدمشـقي (ت ٨٥٤ هـ) ، تحقيـق أيمن عبد الجابـر البحيري ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، مصر .

- الفائـق في غريب الحديث ، للزمخشـري ؛ الإمام البـارع المتكلم النظار جار الله أبي القاسـم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الحنفي (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق العلامة علي محمد البجاوي (ت ١٣٩٩ هـ) ، والعلامـة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هــ) ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ؛ الإمام الحافظ الحجة شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني الكناني الشافعي (ت ٨٥٢ هـ) ، بعناية العلامة محب الدين الخطيـب (ت ١٣٨٩ هـ) وترقيـم العلامة محمد فؤاد عبد الباقـي (ت ١٣٨٨ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة السلفية لدىٰ مكتبة الغزالي ، دمشق ، سورية .

- الفتوحات المكية ، لابن عربي ؛ سلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين أبي بكر محمد بن علي بن محمد ابن عربي الطائي الحاتمي المرسـي الأندلسـي (ت ٦٣٨ هـ) ، علىٰ نفقة الحاج فدا محمد الكشـميري ، ط ١ ، (١٣٢٩ هـ ، ١٩٠٩ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار الكتب العربية الكبرىٰ لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- الفخري في الآداب السـلطانية والدول الإسـلامية ، لابـن الطقطقا ؛ الأديب المـؤرخ أبي جعفر محمد بن علي بن طباطبا ابن الطقطقا العلوي (ت ٦٦٠ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- الفرج بعد الشـدة ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشـي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- الفـرج بعد الشـدة ، للتنوخي ؛ الإمام القاضـي الأديب أبي علي المحسّـن بن علي بـن محمد التنوخي (ت ٣٨٤ هـ) ، تحقيق عبود الشالجي ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- الفردوس بمأثور الخطاب ، للديلمي ؛ الإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه إلكيا الديلمي الهمذاني (ت ٥٠٩ هـ) ، تحقيق السـعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- فصل ما بين العداوة والحسد (ضمن مجموعة رسائل) ، للجاحظ ؛ كبير أئمة الأدب الموسوعي أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناني الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٢ ، (دون تاريخ) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- الفقيـه والمتفقه ، للخطيب البغـدادي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بـن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشـافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط ٢ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، المملكة العربية السعودية .

- فهرسـة ابن خير الإشبيلي ، للإشـبيلي ؛ للإمام الحافظ المقرئ اللغوي النحوي أبي بكر محمد بن خير بن عمر الإشـبيلي المالكي (ت ٥٧٥ هـ) ، تحقيق محمـد فؤاد منصور ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الفوائد والأخبار ، لابن دريد ؛ إمام اللغة والأدب أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري (ت ٣٢١ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار البشائر ، دمشق ، سورية .

- الفوائد ، لابن منده ؛ الإمام الحافظ المحدث أبي عمرو عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن محمد ابن منده العبدي الأصبهاني (ت ٤٧٥ هـ) ، تحقيق خلاف محمود عبد السميع ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- قصر الأمل ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ؛ الإمام المؤرخ النقاد النابغة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري الموصلي الشيباني الشافعي (ت ٦٣٠ هـ) ، حققه الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، ط ٢ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- الكامل في ضعفاء الرجال ، لابن عدي ؛ الإمام الحافظ الناقد الجوال أبي أحمد عبد الله بن عدي بن عبد الله ابن القطان الجرجاني الشافعي (ت ٣٦٥ هـ) ، الطبعة الأولىٰ بتحقيق الدكتور سهيل زكار ، والثالثة بقراءة وتدقيق يحيىٰ مختار غزاوي ، ط ٣ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- الكامل ، للمبرد ؛ إمام النحاة والعربية أبي العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد البصري البغدادي (ت ٢٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط ٣ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- الكبائر ، للذهبي ؛ الإمام محدث الإسلام ومؤرخ الشام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- كتاب بغداد ، لابن طيفور ؛ الإمام المؤرخ الأديب البليغ أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر المروروذي الخراساني (ت ٢٨٠ هـ) ، تحقيق الإمام العلامة المحدث وكيل المشيخة الإسلامية في السلطنة العثمانية محمد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري (ت ١٣٧١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٦٨ هـ ، ١٩٤٩ م) ، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، مصر .

- الكتاب ، لسيبويه ؛ إمام النحاة أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (ت ١٨٠ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لحاجي خليفة ؛ العلامة المؤرخ الجغرافي البحاثة مصطفىٰ بن عبد الله حاجي خليفة ملا كاتب جلبي الإسطنبولي الحنفي (ت ١٠٦٧ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٩٢ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الكشكول ، للعاملي ؛ العلامة الأديب بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الاثني عشري (ت ١٠٣١ هـ) ، تحقيق الشيخ الطاهر أحمد الزاوي (ت ١٤٠٦ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، طبعة مصورة ، بيروت ، لبنان .

- كليلة ودمنة ، لبيدبا الفيلسوف الهندي الحكيم بيدبا (فيشو شارما) ، تعريب إمام الكتاب البليغ أبي محمد عبد الله بن المقفع بن داذويه الجوري الفارسي (ت ١٤٢ هـ) ، عني به الأستاذ محمد خير الدرع (ت ١٤٢٥ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م) ، المكتبة الأموية ، دمشق ، سورية .

- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، للمتقي الهندي ؛ العلامة المحدث الفقيه علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين ابن قاضي خان البرهانفوري الهندي المدني الحنفي (ت ٩٧٥ هـ) ، عني به الشيخ بكري حياني والشيخ صفوت السقا ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- الكنىٰ والأسماء ، للدولابي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الوراق أبي بشر محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري الرازي الدولابي (ت ٣١٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣٢٢ هـ ، ١٩٠٢ م) ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد الدكن ، الهند .

- لباب الآداب ، لابن منقذ ؛ الأمير الشجاع الأديب المؤرخ مجد الدين مؤيد الدولة أبي المظفر أسامة بن مرشد بن علي ابن منقذ الكناني الشيزري (ت ٥٨٤ هـ) ، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر (ت ١٣٧٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٤ هـ ، ١٩٣٥ م) ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، مصر .

- لحن العوام ، للزبيدي ؛ الإمام الفقيه اللغوي النادرة أبي بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي الأندلسي الإشبيلي (ت ٣٧٩ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور رمضان عبد التواب (ت ١٤٢٢ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- لطائف الإشارات ، للقشيري ؛ الإمام العلم القدوة الأستاذ زين الإسلام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٥ هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني ، ط ٢ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، طبعة مصورة لدى الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر .

- المتفق والمفترق ، للخطيب البغدادي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد صادق آيدن الحامدي ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار القادري ، دمشق ، سورية .

- المتمنين ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- المجالسة وجواهر العلم ، للدينوري ؛ الإمام الفقيه المحدث أبي بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري المالكي (ت ٣٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- مجمع الأمثال ، للميداني ؛ الإمام الأديب اللغوي الكاتب أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) ، تحقيق الدكتور جان عبد الله توما ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- المجموع اللفيف ، للأفطسي ؛ الإمام النسابة أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله العلوي الحسيني أبو جعفر الأفطسي الطرابلسي (ت بعد ٥١٥ هـ) ، تحقيق الدكتور يحيىٰ وهيب الجبوري ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- المحاســن والأضداد ، للجاحظ ؛ كبير أئمة الأدب الموســوعي أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناني الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٤ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- المحاســن والمســاوئ ، لإبراهيم البيهقي ؛ الإمام إبراهيم بن محمد البيهقــي (ت بعد ٣٢٠ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، دار بيروت ، بيروت ، لبنان .

- محاضــرات الأدباء ومحاورات الشــعراء والبلغاء ، للراغب الأصبهاني ؛ الإمام اللغوي الحكيم أبي القاســم الحســين بن محمد بن المفضــل الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيــق الدكتور رياض عبد الحميد مراد ، ط ٢ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- المحاضــرات في الأدب واللغة ، لليوســي ؛ الإمــام الفقيه الأديب المحقق أبي علي نور الدين الحســن بن مســعود بن محمــد اليوســي (ت ١١٠٢ هـ) ، تحقيــق محمد حجــي وأحمد الشــرقاوي إقبال ، ط ٢ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- المحبر ، برواية الحســن بن الحسين الســكري ، لابن حبيب ؛ الإمام الأديب النسابة الأخباري أبي جعفر محمد بــن حبيب بن أمية الهاشــمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ) ، عني به الدكتورة إيلزه ليختن شــتيتر ، ط ١ ، (١٣٦١ هــ ، ١٩٤١ م) ، طبعــة مصورة عن نشــرة مطبعــة الدائرة لدىٰ دار الآفــاق الجديدة ، بيروت ، لبنان .

- المحتســب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جني ؛ أعجوبة الزمان وإمام العربية والنحو أبي الفتح عثمان بن جِنِّي الأزدي الموصلي الحنفي (ت ٣٩٢ هـ) ، تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الحليم النجار (ت ١٣٨٣ هـ) ، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، ط ١ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، وزارة الأوقاف ، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، مصر .

- المحتضرين ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشــي الأموي البغــدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوســف ، ط ١ ، (١٤١٧ هــ ، ١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- المحــن ، لأبــي العرب التميمــي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبــي العرب محمد بن أحمد بــن تميم التميمي المغربــي (ت ٣٣٣ هـ) ، تحقيق الدكتــور يحيىٰ وهيب الجبــوري ، ط ٢ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- مختصر تاريخ دمشــق لابن عســاكر ، لابن منظور ؛ الإمام اللغوي الحجة المحدث جمال الدين أبي الفضل محمد بــن مكرم بن علي ابن منظــور الأنصاري الإفريقي المصري (ت ٧١١ هــ) ، عني به مجموعة من المحققين ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، دار الفكر ، دمشق ، سورية .

- مداراة الناس ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ م) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- مــرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمــان ، لليافعي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني المكي الشافعي (ت ٧٦٨ هـ) ، ط ١ ،

(١٣٣٧ هـ ، ١٩١٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دائرة المعارف بحيدر آباد الدَّكّن لدىٰ دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر .

- مرشد الزوار إلىٰ قبور الأبرار ، المسمى : « الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم » ، لموفق الدين ابن عثمان ؛ الإمام الفقيه العارف بالله موفق الدين أبي محمد بن عبد الرحمـٰن بن مكي بن عثمان الشارعي الأنصاري الشافعي (ت ٦١٥ هـ) ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، مصر .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، للمسعودي ؛ المؤرخ البحاثة الرحالة قطب الدين أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الهذلي البغدادي (ت ٣٤٦ هـ) ، عني بها شارل بلا ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الكاثوليكية لدى انتشارات الشريف الرضي ، قم ، إيران .

- مساوئ الأخلاق وطرائق مكروهها ، للخرائطي ؛ الإمام الحافظ الحجة الأديب أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد السامري الخرائطي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عطا ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- المستجاد من فعلات الأجواد ، للقاضي التنوخي ؛ الإمام القاضي الأديب أبي علي المحسّن بن علي بن محمد التنوخي البصري (ت ٣٨٤ هـ) ، عني به الوزير الأديب المفكر محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد علي الدمشقي (ت ١٣٧٢ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

- المستدرك على الصحيحين ، للحاكم ؛ الإمام الحافظ الناقد شيخ المحدثين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم الطهماني النيسابوري الشافعي (ت ٤٠٥ هـ) ، وبهامشه تعليقات الأئمة : البيهقي والذهبي وابن الملقن وابن حجر العسقلاني ، ط ١ ، (١٤٣٥ هـ ، ٢٠١٤) ، دار الميمان ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- المستطرف في كل فن مستظرف ، للأبشيهي ؛ الإمام الأديب الخطيب بهاء الدين أبي الفتح محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي المحلي الشافعي (ت ٨٥٤ هـ) ، عني به إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- مسند أبي داوود الطيالسي ، للطيالسي ؛ الإمام الحافظ الحجة أبي داوود سليمان بن داوود بن الجارود الطيالسي الفارسي البصري (ت ٢٠٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٢١ هـ ، ١٩٠٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- مسند أبي يعلى الموصلي ، لأبي يعلىٰ ؛ الإمام الحافظ محدث الموصل أبي يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي (ت ٣٠٧ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ٢ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سورية .

- مسند إسحاق بن راهويه ، لابن راهويه ؛ الإمام إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي النيسابوري (ت ٢٣٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الغفور عبد الحق حسين بر البلوشي ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، مكتبة الإيمان ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .

- مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، لابن حنبل ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن

حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق جمعية المكنز الإسلامي الدكتور أحمد معبد عبد الكريم ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

ـ مسند الدارمي ، المسمىٰ : « سنن الدارمي » ، للدارمي ؛ إمام أهل زمانه الحافظ الفقيه أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل التميمي السمرقندي الدارمي (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار المغني ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

ـ مسند الشاميين ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ مسند الشهاب ، المسمىٰ : « شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب » ، للقضاعي ؛ الإمام المحدث المفسر المؤرخ القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي (ت ٤٥٤ هـ) ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ المصنف ، لابن أبي شيبة ؛ الإمام العلم سيد الحفاظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد عوامة ، ط ٢ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

ـ المصنف ، لعبد الرزاق الصنعاني ؛ الإمام الحافظ الثقة عالم اليمن أبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق العلامة حبيب الرحمٰن الأعظمي (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

ـ المصون في الأدب ، للعسكري ؛ الإمام الحافظ الفقيه أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري (ت ٣٨٢ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

ـ المعارف ، لابن قتيبة الدينوري ؛ إمام الأدب واللغة القاضي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار الكتب بمصر لدىٰ دار الشريف الرضي ، إيران .

ـ المعاش والمعاد (ضمن مجموعة رسائل) ، للجاحظ ؛ كبير أئمة الأدب الموسوعي أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناني الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون ، ط ٢ ، (دون تاريخ) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

ـ معاهد التنصيص علىٰ شواهد التلخيص ، للعباسي ؛ الإمام المحدث الأديب الشريف أبي الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمٰن بن أحمد العباسي (ت ٩٦٣ هـ) ، تحقيق العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد (ت ١٣٩٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٦٧ هـ ، ١٩٤٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المكتبة التجارية الكبرىٰ لدىٰ عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .

ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، لعبد الواحد المراكشي ؛ الأديب المؤرخ محيي الدين عبد الواحد بن

علي التميمي المراكشي (ت ٦٤٧ هـ) ، تحقيق الأديب محمد سعيد العريان (ت ١٣٨٣ هـ) ، ط ١ ، (١٣٦٨ هـ ، ١٩٤٩ م) ، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، مصر .

- معجم الأدباء ، المسمىٰ : « إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب » ، لياقوت الحموي ؛ العلامة المؤرخ الأديب الجغرافي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان .

- المعجم الأوسط ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مكتبة المعارف ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- معجم البلدان ، لياقوت الحموي ؛ العلامة المؤرخ الأديب الجغرافي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ) ، عني به المستشرق وستنفيلد ، ط ٢ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- معجم الشعراء ، للمرزباني ؛ العلامة الأخباري الأديب أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني الخراساني (ت ٣٨٤ هـ) ، تحقيق الدكتور فاروق اسليم ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- المعجم الصغير ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- المعجم الفارسي الكبير (فارسي عربي) ، للدكتور إبراهيم الدسوقي شتا (ت ١٤١٨ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م) ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر .

- المعجم الكبير ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، ومعه : « الأحاديث الطوال » ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- معجم شيوخ الإسماعيلي ، للإسماعيلي ؛ الإمام الفقيه الحجة الحافظ أبي بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلي الجرجاني الشافعي (ت ٣٧١ هـ) ، تحقيق عبد الله عمر البارودي ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- المعجم ، لابن المقرئ ؛ الإمام الحافظ المجود أبي بكر محمد بن إبراهيم بن علي ابن المقرئ الأصبهاني (ت ٣٨١ هـ) ، تحقيق عادل بن سعد ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، مكتبة الرشد وشركة الرياض للنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم بترتيب الهيثمي والسبكي ، للعجلي ؛ الإمام الحافظ الناقد أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي (ت ٢٦١ هـ) ، ترتيب الإمامين نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)

وتقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦ هـ) ، مع زيادات للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .

- معرفة الرجال ، لابن معين ؛ إمام الجرح والتعديل وشيخ المحدثين الإمام الحافظ أبي زكريا يحيى بن معين بن عون المري الغطفاني البغدادي (ت ٢٣٣ هـ) ، تحقيق محمد كامل القصار ومحمد مطيع الحافظ وغزوة بدير ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

- معرفة السنن والآثار ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار قتيبة ودار الوعي ودار الوفاء ، سورية ومصر .

- المعرفة والتاريخ رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه ، للفسوي ؛ الإمام الحافظ الحجة أبي يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفسوي الفارسي (ت ٢٧٧ هـ) ، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .

- المغازي ، للواقدي ؛ الإمام القاضي المؤرخ أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي الأسلمي المديني (ت ٢٠٧ هـ) ، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ مؤسسة الأعظمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام ؛ إمام العربية واللغة المفسر جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن يوسف الأنصاري المصري الشافعي الحنبلي (ت ٧٦١ هـ) ، تحقيق الدكتور العلامة مازن المبارك والعلامة محمد علي حمد الله (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ٥ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- المغني ، لابن قدامة ؛ الإمام الفقيه الحجة المجتهد موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي الجماعيلي الحنبلي (ت ٦٢٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار هجر للطباعة ، القاهرة ، مصر .

- مفيد الأنام ونور الظلام في تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام ، لعبد الله التميمي ؛ العلامة القاضي عبد الله بن عبد الرحمٰن بن جاسر التميمي النجدي السلفي (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، مصر .

- مفيد العلوم ومبيد الهموم ، للقزويني ؛ الإمام للمؤرخ الجغرافي الأديب أبي يحيىٰ عماد الدين زكريا بن محمد بن محمود الأنصاري النجاري القزويني (ت ٦٨٢ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، للسخاوي ؛ الإمام الحافظ الناقد شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد السخاوي القاهري الشافعي (ت ٩٠٢ هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط ٢ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

ـ مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري إمام أهل السنة ، لابن فورك ؛ الإمام الأصولي المتكلم أبي بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني (ت ٤٠٦ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر .

ـ مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ، للخرائطي ؛ الإمام الحافظ الحجة الأديب أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد السامري الخرائطي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن بجاش بن ثابت الحميري ، ط ١ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

ـ مكارم الأخلاق ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق الشيخ بشير محمد عيون (ت ١٤٣١ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سورية .

ـ مكارم الأخلاق ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق أبي بسطام محمد بن مصطفىٰ ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ الملل والنحل ، للشهرستاني ؛ الإمام المفسر المتكلم أبي الفتح تاج الدين محمد بن عبد الكريم الشهرستاني الخراساني الشافعي (ت حوالي ٥٤٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة الخانجي لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

ـ مناقب الشافعي ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق العلامة السيد أحمد صقر (ت ١٤١٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

ـ المنامات ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م) ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، مصر .

ـ المنتخب من مسند عبد بن حميد ، للكشي ؛ الإمام الحافظ الثقة الجوال أبي محمد عبد الرحمٰن بن حميد بن نصر الكشي (ت ٢٤٩ هـ) ، تحقيق أحمد بن إبراهيم أبي العينين ، ط ١ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، مكتبة ابن عباس ، المنصورة ، مصر .

ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ، لابن الجوزي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ المنتقىٰ شرح موطأ مالك ، للباجي ؛ الإمام الحافظ القاضي أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد التجيبي الباجي القرطبي المالكي (ت ٤٩٤ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ الموشىٰ أو الظرف والظرفاء ، للوشاء ؛ الإمام الأديب أبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء (ت ٣٢٥ هـ) ، تحقيق كمال مصطفىٰ ، ط ٣ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- الموطأ ، لمالك بن أنس ؛ عالم المدينة وإمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن نافع الأصبحي (ت ١٧٩ هـ) ، تحقيق العلامة محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧١ هـ ، ١٩٥١ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .
- نثر الدر ، للآبي ؛ الوزير الأديب المؤرخ أبي سعد منصور بن الحسين الرازي الآبي (ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق محمد علي قرنة ومحمد إبراهيم عبد الرحمٰن وسيدة حامد عبد العال ومنير محمد المدني ، ط ١ ، (بدأت ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م وانتهت ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر .
- نسب قريش ، للزبيري ؛ الراوية المحدث النسابة أبي عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيري (ت ٢٣٦ هـ) ، تحقيق ليفي برفنسال ، ط ٤ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
- نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض ، للشهاب الخفاجي ؛ الإمام القاضي الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشهاب الخفاجي المصري الحنفي (ت ١٠٦٩ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد علىٰ ماقتهم السخيف ، للحبيشي ؛ الإمام الفقيه الأديب المشارك أبي عمر جمال الدين محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر الحبيشي الوصابي اليمني الشافعي (ت ٧٨٢ هـ) ، عني به قصي محمد نورس الحلاق ، ط ٢ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للبقاعي ؛ الإمام المفسر المحدث المؤرخ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي الشافعي (ت ٨٥٥ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، مصر .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقري ؛ الحافظ المؤرخ الأديب شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن يحيى المقري التلمساني المالكي (ت ١٠٤١ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، للنويري ؛ المؤرخ البحاثة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري القرشي التيمي البكري (ت ٧٣٣ هـ) ، بعناية مجموعة من الباحثين ، ط ١ ، (١٣٤٢ هـ ، ١٩٢٣ م) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ؛ الإمام الحافظ اللغوي مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري الموصلي الشيباني الشافعي (ت ٦٠٦ هـ) ، تحقيق العلامة محمود محمد الطناحي (ت ١٤١٩ هـ) والعلامة الطاهر أحمد الزاوي (ت ١٤٠٦ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- الهداية إلىٰ بلوغ النهاية ، لمكي بن أبي طالب ؛ الإمام العلامة المحقق أستاذ القراء والمجودين أبي محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد القيسي القيرواني الأندلسي المالكي (ت ٤٣٧ هـ) ، مجموعة رسائل جامعية بإشراف الدكتور الشاهد البوشيخي ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، جامعة الشارقة ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة .

- هدية العارفين (أسـماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشـف الظنون) ، للبغـدادي ؛ عالم الكتب الأديب المؤرخ إسـماعيل باشـا بن محمد أمين البابانى بن مير سـليم الكردي البغدادي (ت ١٣٣٩ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الهم والحزن ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغـدادي (ت ٢٨١ هــ) ، تحقيق مجدي فتحي السـيد ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار السـلام ، القاهرة ، مصر .

- الهواتــف ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمــام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشــي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- الوافــي بالوفيــات ، للصفدي ؛ الإمام المؤرخ الأديب صلاح الدين أبــي الصفاء خليل بن أيبك بن عبد الله الألبَكي الصفدي الدمشــقي الشافعي (ت ٧٦٤ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ٢ ، (١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢ م) ، دار فرانز شتاينر ، فيسبادن ، ألمانيا .

- الوحشــيات (الحماســة الصغرىٰ) ، لأبي تمام الطائي ؛ أمير البيان وإمام اللغة أبي تمام حبيب بن أوس بن الحــارث الطائي الإمامي (ت ٢٣١ هـ) ، تحقيق العلامــة عبد العزيز الميمني الراجكوتي (ت ١٣٩٨ هـ) وزاد في حواشــيه العلامة محمــود محمد شــاكر (ت ١٤١٨ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٠٧ هــ ، ١٩٨٧ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

- الورع ، لابن حنبل ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هــ) ، تحقيــق الدكتورة زينب إبراهيــم القاروط ، ط ١ ، (١٤٠٣ هــ ، ١٩٨٣ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- وفيــات الأعيان وأنباء أبنــاء الزمان ، لابن خلكان ؛ الإمام المؤرخ قاضي القضاة شــمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان البرمكي الإربلي الدمشقي الشافعي (ت ٦٨١ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- وقعــة صفين ، لابن مزاحم ؛ المؤرخ أبي الفضل نصر بن مزاحم بن سـيار المنقري العطار الكوفي الإمامي (ت ٢١٢ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- يتيمة الدهر في محاســن أهل العصر ، للثعالبي ؛ إمام اللغــة والأدب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إســماعيل الثعالبي النيســابوري (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ، ط ١ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

❋ ❋ ❋

محتوى الكتاب

الفهارس العامة

* * *